روح المعاني

في

تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني

لخاتمة المحققين وعمدة المدققين مرجع أهل العراق
ومفتي بغداد العلامة أبي الفضل
شهاب الدين السيد محمود الالوسي البغدادي
المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ سقى الله ثراه
صيب الرحمة وأفاض عليه سجال
الاحسان والنعمة آمين

دار
احياء التراث العربي
بيروت ـ لبنان

Marfat.com

روح المعاني

في

تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني

لخاتمة المحققين وعمدة المدققين مرجع أهل العراق
ومفتى بغداد العلامة أبى الفضل
شهاب الدين السيد محمود الالوسى البغدادى
المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ سقى الله ثراه
صبيب الرحمة وأفاض عليه سجال
الاحسان والنعمة آمين

الجزء السابع والعشرون

عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه للمرة الثانية باذن من ورثة المؤلف بخط وامضاء علامة العراق
﴿المرحوم السيد محمود شكرى الألوسى البغدادى﴾

إدارة الطباعة المنيرية
دار
احياء التراث العربي
بيروت - لبنان

مصر : درب الاتراك رقم ١

Marfat.com

﴿ سورة الذاريات (١) ﴾

﴿ مكية ﴾ كما روى عن ابن عباس. وابن الزبير رضى الله تعالى عنهما ـ ولم يحك فى ذلك خلاف ـ وهى ستون آية بالاتفاق كما فى كتاب العدد ، ومناسبتها لسورة (ق) أنها لما اختتمت بذكر البعث واشتملت على ذكر الجزاء والجنة والنار وغير ذلك افتتحت هذه بالإقسام على أن ما وعدوا من ذلك لصادق ، وأن الجزاء لواقع ، وأنه قد ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الاجمال ، وذكر هنا إهلاك بعضهم على سبيل التفصيل إلى غير ذلك مما يظهر للمتأمل *

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ١ ﴾ أى الرياح التى تذروا التراب وغيره من ـ ذرا ـ المعتل بمعنى فرق وبدد مارفعه عن مكانه ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ٢ ﴾ أى حملا وهى السحب الحاملة للمطر *

﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ٣ ﴾ أى جرياً سهلا إلى حيث سيرت وهى السفن ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ٤ ﴾ هى الملائكة الذين يقسمون الأمور بين الخلق على ما أمروا به ، وتفسير كل بما فسر به قد صح روايته من طرق عن على كرم الله تعالى وجهه ، وفى بعض الروايات أن ابن الكواء سأله عن ذلك وهو رضى الله تعالى عنه يخطب على المنبر فأجاب بما ذكر ، وفى بعض الأخبار مايدل على أنه تفسير مأثور عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم *

أخرج البزار . والدارقطنى فى الافراد . وابن مردويه . و ابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال: «جاء صبيغ التميمى إلى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقال: أخبرنى عن (الذاريات ذروا) قال: هى الرياح، ولولا أنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقوله ماقلته ، قال: فأخبرنى عن (الحاملات وقرا) قال. هى السحاب ولولا أنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقوله ماقلته ، قال: فأخبرنى (عن الجاريات يسرا) قال: هى السفن ولولا أنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقوله ماقلته، قال: فأخبرنى عن (المقسمات أمرا) قال: هى الملائكة ولولا أنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقوله ماقلته ثم أمر به فضرب مائة وجعل فى بيت فلما برأ دعاه فضربه مائة أخرى وحمله على قتب وكتب إلى أبى موسى الأشعرى امنع الناس من مجالسته فلم يزالوا كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف له بالايمان المغلظة مايجد فى نفسه مما كان يجد شيئاً فكتب إلى عمر رضى الله تعالى عنه ماأخاله إلا قد صدق فخلى بينه وبين مجالسة الناس » *

ويدل هذا أن الرجل لم يكن سليم القلب وأن سؤاله لم يكن طلبا للعلم وإلا لم يصنع به عمر رضى الله تعالى عنه ماصنع *

وفى رواية عن ابن عباس أن ـ الحاملات ـ هى السفن الموقرة بالناس وأمتعتهم ، وقيل : هى الحوامل من جميع الحيوانات ، وقيل: الجاريات السحب تجرى وتسير إلى حيث شاء الله عز وجل ، وقيل: هى الكواكب

---

(١) ﴿ تنبيه ﴾ جرينا هنا فى تقسيم هذا الجزء هكذا لما هو المشهور من تجزئة الأجزاء الأربعة الأواخر لذلك ليكون أول كل جزء منها أول سورة وإن كانت تجزئة المصاحف فى هذا الجزء هى قوله: (قال فما خطبكم أيها المرسلون)

Marfat.com

التى تجرى فى منازلها وكلها لها حركة وإن اختلفت سرعة وبطأ كما بين فى موضعه ، وقيل: هى الكواكب السبعة الشهيرة وتسمى السيارة ، وقيل : (الذاريات) النساء الولود فانهن يذرين الأولاد كأنه شبه تتابع الأولاد بما يتطاير من الرياح ، وباقى المتعاطفات على ماسمعت أولا ، وقيل : (الذاريات) هى الأسباب التى تذرى الخلائق على تشبيه الاسباب المعدة للبروز من العدم بالرياح المفرقة للحبوب ونحوها ، وقيل : الحاملات الرياح الحاملة للسحاب ، وقيل : هى الاسباب الحاملة لمسبباتها مجازاً ،وقيل:الجاريات الرياح تجرى فى مهابها ،وقيل:المقسمات السحب يقسم الله تعالى بها أرزاق العباد ، وقيل : هى الكواكب السبعة السيارة - وهو قول باطل - لايقول به إلا من زعم أنها مدبرة لعالم الكون والفساد ، وفى صحيح البخارى عن قتادة « خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاث جعلها زينة للسماء . ورجوما للشياطين . وعلامات يهتدى بها فمن تأول فيها بغير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف مالايعلم » وزاد رزين « ومالاعلم له به وماعجز عن علمه الانبياء والملائكة » وعن الربيع مثله وزاد « والله ماجعل الله تعالى فى نجم حياة أحد ولا رزقه ولا موته وإنما يفترون على الله تعالى الكذب ويتعللون بالنجوم » ذكره صاحب جامع الاصول ، وقدم الكلام فى إبطال ماقاله المنجمون مفصلا فتذكر ، ولعله سيأتى إن شاء الله تعالى شئ من ذلك ، وجوز أن يراد بالجميع الرياح فانها - كما تذر - وما تذروه تثير السحاب وتحمله ، وتجرى فى الجو جرياً سهلا - وتقسم الامطار بتصريف السحاب فى الاقطار - والمعول عليه ماروى عن عمر رضى الله تعالى عنه سامعاً له من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم - وقاله باب مدينة العلم كرم الله تعالى وجهه على المنبر - واليه كما نقل عن الزجاج ذهب جميع المفسرين أى المعتبرين ، وقول الامام بعد نقله له عن الأمير :الأقرب أن تحمل هذه الصفات الأربع على الرياح جسارة عظيمة على مالايسلم له ، وجهل منه بما رواه ابن المسيب من الخبر الدال على أن ذلك تفسير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأين منه الامام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه *

وقول صاحب الكشف : إنه شديد الطباق للمقام ولذا آثره الامام لا أسلمه له أيضا إذا صح الحديث ثم إذا حملت هذه الصفات على أمور مختلفة متغايرة بالذات كما فى المعول عليه فالفاء للترتيب فى الاقسام ذكراً ورتبة باعتبار تفاوت مراتبها فى الدلالة على كمال قدرته عز وجل ، وهذا التفاوت إما على الترقى أو التنزل لما فى كل منها من الصفات التى تجعلها أعلى من وجه وأدنى من آخر إذا نظر لها ذو نظر صحيح ، وقيل : الترتيب بالنظر إلى الأقرب فالأقرب منا ، وإن حملت على واحد وهو الرياح فهى لترتيب الافعال والصفات إذ الريح تذر الأبخرة إلى الجو أولا حتى تنعقد سحاباً فتحمله ثانيا وتجرى به ثالثاً ناشرة وسائقة له إلى حيث أمرها الله تعالى ثم تقسم أمطاره ، وقيل : إذا حملت الذاريات والحاملات على النساء ، فالظاهر أنها للتفاوت فى الدلالة على كمال القدرة فتدبر *

ونصب (ذروا) على أنه مفعول مطلق ، ، (ووقرا) على أنه مفعول به ، وجوز الامام أن يكون من باب ضربته سوطا ، و(يسرا) على أنه صفة مصدر محذوف بتقدير مضاف أى جريا ذا يسر ، أو على أنه حال أى ميسرة كما نقل عن سيبويه ، و(أمرا) على أنه مفعول به وهو واحد الامور ، وقد أريد به الجمع ولم يعبر به لان الفرد أنسب برءوس الآى مع ظهور الامر ، وقيل : على أنه حال أى مأمورة ،والمفعول به محذوف أو الوصف منزل منزلة اللازم أى تفعل التقسيم مأمورة ، وقرأ أبو عمرو . وحمزة (والذاريات ذروا) بادغام التاء فى الذال ، وقرئ (وقرا) بفتح الواو على أنه مصدر وقره إذا حمله - كما أفاده كلام الزمخشرى - وناهيك

Marfat.com

به إماماً فى اللغة ، وعلى هذاهو منصوب على أنه مفعول به أيضا على تسمية المحمول بالمصدر أوعلى أنه مفعول مطلق ـ لحاملات ـ من معناها كأنه قيل : فالحاملات حملا . وقوله تعالى شأنه :

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ جواب للقسم، و(ما) موصولة والعائد محذوف أى إن الذى توعدونه، أو توعدون به، ويحتمل أن تكون مصدرية أى إن وعدكم، أو وعيدكم إذ توعدون يحتمل أن يكون مضارع وعد ، وأن يكون مضارع أوعد ، ولعل الثانى أنسب لقوله تعالى : (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) ولأن المقصود التخويف والتهويل ، وعن مجاهد أن الآية فى الكفار وهو يؤيد الوعيد ومعنى صدقه تحقق وقوعه ، وفى الكشاف وعدصادق - كعيشة راضية ـ و (الدين) الجزاء ووقوعه حصوله ، والاكثرون على أن الموعود هو البعث ، وفى تخصيص المذكورات بالإقسام بها رمز إلى شهادتها بتحقق الجملة المقسم عليها من حيث أنها أمور بديعة فمن قدر عليها فهوقادر على تحقيق البعث الموعود ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ أى الطرق جمع حبيكة كطريقة ، أو حباك كمثال ومثل ، ويقال : حبك الماء للتكسر الجارى فيه إذ مرت عليه الريح ، وعليه قول زهير يصف غديراً :

مكلل بأصول النجم تنسجه ريح خريق لضاحى مائه حبك (١)

وحبك الشعر لآثار تثنيه وتكسره ، وتفسيرها بذلك مروى عن مقاتل . والكلبي . والضحاك ،والمراد بها إما الطرق المحسوسة التى تسير فيها الكواكب ، أو المعقولة التى تدرك بالبصيرة وهى ماتدل على وحدة الصانع وقدرته وعلمه وحكمته جل شأنه إذا تأملها الناظر ، وقال ابن عباس . وقتادة . وعكرمة . ومجاهد . والربيع : ذات الخلق المستوى الجيد ، وفى رواية أخرى عن مجاهد المتقنة البنيان ، وقيل : ذات الصفاقة وهى أقوال متقاربة وكأن الحبك عليها من قولهم : حبكت الشئ أحكمته وأحسنت عمله وحبكت العقدة أو ثقتها، وفرس محبوك المعاقم ـ وهى المفاصل ـ أى محكمها ، وفى الكشف أصل الحباكة الصفاقة وجودة الاثر،وعن الحسن ـ حبكها ـ نجومها ، والظاهر أن إطلاق الحبك على النجوم مجاز لأنها تزين السماء كما يزين الثوب الموشى حبكه وطرائق وشيه فكأنه قيل : ذات النجوم التى هى كالحبك أى الطرائق فى التزيين ، واستظهر فى السماء أنه جنس أريد به جميع السموات وكون كل واحدة منها ذات حبك بمعنى مستوية الخلق جيدته ، أو متقنة البنيان أو صفيقة ، أو ذات طرق معقولة ظاهر ، وأما كون كل منها كذلك بمعنى ذات طرق محسوسة فباعتبار أن الكواكب فى أى سماء كانت تسير مسامتة لسائر السموات ، فممراتها باعتبار المسامتة طرق، وبمعنى ذات النجوم فباعتبار أن النجوم فى أى سماء كانت تشاهد فى سائر السموات بناءاً على أن السموات شفافة لايحجب كل منها إدراك ما وراءه ، وأخرج ابن منيع عن على كرم الله تعالى وجهه أنه قال : هى السماء السابعة ، وعن عبد الله بن عمرو مثله فتدبر ولا تغفل ٭

وقرأ ابن عباس . والحسن بخلاف عنه . وأبو مالك الغفارى . وأبو حيوة . وابن أبى عبلة . وابو السمال .

---

(١) قوله: (مكلل) مجرور على الوصف فى قوله : قبله ثم استعانت ـ بماء مكلل ـ ذلك الماء بأصول النبات وصارت حوله كالاكليل ، (والخريق) الريح الباردة الشديدة الهبوب و (الضاحى) الظاهر ، و (حبك الماء طرائقه) . اه إدارة الطباعة المنيرية

Marfat.com

ونعيم عن أبى عمرو ـ الحبك ـ بإسكان الباء على زنة القفل ، وعكرمة بفتحها جمع حبكة مثل طرفة وطرف وبرقة (١) وبرق ، وأبو مالك الغفارى . والحسن بخلاف عنه أيضا بكسر الحاء والباء ـ كالابل ـ وهو على ماذكر الخفاجى اسم مفرد ورد على هذا الوزن شذوذاً وليس جمعاً ، وأبو مالك . والحسن . وأبو حيوة أيضا بكسر الحاء وإسكان الباء كالسلك ـ وهو تخفيف فعل مكسور الفاء والعين وهو اسم مفرد لاجمع لأن فعلا ليس من أبنية الجموع ـ قاله فى البحر ـ وابن عباس . وأبو مالك أيضا بفتحهما كالجبل ـ قال أبو الفضل الرازى ـ فهو جمع حبكة مثل عقبة وعقب ، والحسن أيضا بكسر الحاء وفتح الباء كالنعم ، وأبو مالك أيضا بكسر الحاء وضم الباء وذكرها ابن عطية عن الحسن أيضا ثم قال : هى قراءة شاذة غير متوجهة وكأنه بعد أن كسر الحاء توهم قراءة الجمهور فضم التاء (٢) وهذا من تداخل اللغات وليس فى كلام العرب هذا البناء أى لأن فيه الانتقال من خفة إلى ثقل على عكس ضرب مبنياً للمفعول ، وقال صاحب اللوامح : هو عديم النظير فى العربية فى أبنيتها وأوزانها ولا أدرى ماوراءه انتهى *

وعلى التداخل تأول النحاة هذه القراءة ، وقال أبو حيان : الأحسن عندى أن يكون ذلك مما أتبع فيه حركة الحاء لحركة تاء (ذات) فى الكسر ولم يعتد باللام الساكنة لأن الساكن حاجز غير حصين *

﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ٨ ﴾ أى متخالف متناقض فى أمر الله عزوجل حيث تقولون : إنه جل شأنه خالق السموات والارض وتقولون بصحة عبادة الأصنام معه سبحانه ، وفى أمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فتقولون : تارة إنه مجنون ، وأخرى إنه ساحر ولايكون الساحر إلا عاقلا ، وفى أمر الحشر فتقولون : تارة لاحشر ولاحياة بعد الموت أصلا ، وتزعمون أخرى أن أصنامكم شفعاؤكم عند الله تعالى يوم القيامة إلى غير ذلك من الأقوال المتخالفة فيما كلفوا بالايمان به ، واقتصر بعضهم على كون القول المختلف فى أمره صلى الله تعالى عليه وسلم ، والجملة جواب القسم ولعل النكتة فى ذلك القسم تشبيه أقوالهم فى اختلافها وتنافى أغراضها بطرائق السموات فى تباعدها واختلاف هيآتها ، أو الاشارة إلى أنها ليست مستوية جيدة ، أو ليست قوية محكمة ، أو ليس فيها مايزينها بل فيها مايشينها من التناقض ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ٩ ﴾ أى يصرف عن الايمان بما كلفوا الايمان به لدلالة الكلام السابق عليه ، وقال الحسن . وقتادة : عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال غير واحد : عن القرآن ، والكلام السابق مشعر بكل من صرف الصرف الذى لاأشد منه وأعظم ، ووجه المبالغة من إسناد الفعل إلى من وصف به فلولا غرض المبالغة لكان من توضيح الواضح فكأنه أثبت للمصروف صرف آخر حيث قيل : (يصرف عنه) المصروف فجاءت المبالغة من المضاعفة ثم الاطلاق فى المقام الخطابى له مدخل فى تقوية أمر المضاعفة وكذلك الابهام الذى فى الموصول ، وهو قريب من قوله تعالى : (فغشيهم من اليم ماغشيهم) ، وقيل : المراد (يصرف عنه) فى الوجود الخارجى من (صرف عنه) فى علم الله تعالى وقضائه سبحانه ، وتعقب بأنه ليس فيه كثير فائدة لأن كل ماهو كائن معلوم أنه ثابت فى سابق علمه تعالى الأزلى وليس فيه المبالغة السابقة ، وأجيب عن الأول بأن فيه الاشارة إلى أن الحجة البالغة لله عزوجل فى صرفه وكفى بذلك فائدة وهو مبنى أن العلم تابع للمعلوم فافهمه ، وحكى الزهراوى أنه يجوز أن يكون الضمير (لما توعدون) أو ـ للدين ـ أقسم سبحانه ـ بالذاريات ـ على أن وقوع أمر القيامة حق ثم أقسم بالسماء على أنهم فى (قول مختلف) فى وقوعه ، فمنهم شاك ,

(١) هى أرض ذات حجارة (٢) هكذا بالتاء الفوقية والظاهر أنها بالباء الموحدة

Marfat.com

ومنهم جاحد ثم قال جل وعلا : (يؤفك) عن الاقرار بأمر القيامة من هو المأفوك ، وذكر ذلك الزمخشرى ولم يعزه ، وادعى صاحب الكشف أنه أوجه لتلاؤم الكلام ، وقيل: يجوز أن يكون الضمير ـ لقول مختلف ـ ـوعن ـ للتعليل كما فى قوله تعالى: (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) وقوله :

ينهون عن أكل وعن شرب مثل الهما يرتعن فى خصب (١)

أى يصرف بسبب ذلك القول المختلف من أراد الاسلام ، وقال الزمخشرى : حقيقته يصدر إفكهم عن القول المختلف ، وهذا محتمل لبقاء ـ عن ـ على أصلها من المجاوزة واعتبار التضمين ، وفيه ارتكاب خلاف الظاهر من غير داع مع ذهاب تلك المبالغة ، وجوز ابن عطية رجوع الضمير إلى القول إلا أنه قال : المعنى يصرف عن ذلك القول المختلف بتوفيق الله تعالى للاسلام من غلبت سعادته ، وتعقبه بأن فيه مخالفة للعرف فان عرف الاستعمال فى الافك الصرف من خير إلى شر فلذلك لا تجده إلا فى المذمومين ، ثم إن ذلك على كون الخطاب فى أنكم للكفار ـ وهو الذى ذهب اليه ابن زيد وغيره ـ واستظهر أبو حيان كونه عاما للمسلم والكافر ، واستظهر العموم فيما سبق أيضا ، والقول المختلف حينئذ قول المسلمين بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقول الكفار بنقيض ذلك ، وقرأ ابن جبير . وقتادة (من أفك) مبنيا للفاعل أى من أفك الناس عنه وهم قريش ، وقرأ زيد بن على ـ يأفك عنه من أفك ـ أى يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب ، وقرئ ـ يؤفن عنه من أفن ـ بالنون فيهما أى يحرمه من حرم من أفن الضرع إذا أنهكه حلباً ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ١٠ ﴾ أى الكذابون من أصحاب القول المختلف ، وأصل الخرص الظن والتخمين ثم تجوز به عن الكذب لانه فى الغالب يكون منشأله ، وقال الراغب: حقيقة ذلك أن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له : خرص سواء كان مطابقاً للشئ أو مخالفا له من حيث أن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع بل اعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل خارص الثمرة فى خرصه ، وكل من قال قولا على هذا النحو قد يسمى كاذباً وإن كان قوله مطابقاً للمقول المخبر به كما فى قوله تعالى: (إذا جاءك المنافقون) الآية انتهى ٭

وفيه بحث وحقيقة ـ القتل ـ معروفة ، والمراد ـ بقتل ـ الدعاء عليهم مع قطع النظر عن المعنى الحقيقى ٭ وعن ابن عباس تفسيره باللعن قال ابن الانبارى : وإنما كان القتل بمعنى اللعن هنا لان من لعنه الله تعالى بمنزلة المقتول الهالك ، وقرئ ـ قتل الخراصين ـ أى قتل الله الخراصين ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فى غَمْرَة ﴾ فى جهل عظيم يغمرهم ويشملهم شمول الماء الغامر لما فيه ﴿ سَاهُونَ ١١ ﴾ غافلون عما أمروا به ، فالمراد بالسهو مطلق الغفلة ٭ ﴿ يَسْـَٔلُونَ ﴾ أى بطريق الاستعجال استهزاءً ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّين ١٢﴾ معمول ليسألون على أنه جار مجرى يقولون لما فيه من معنى القول ، أو لقول مقدر ـ أى فيقولون متى وقوع يوم الجزاء . وقدر الوقوع ليكون السؤال عن الحدث كما هو المعروف فى (أيان) ولا ضير فى جعل الزمان زمانياً فان اليوم لما جعل موعوداً ومنتظراً فى نحو قوله تعالى: (فارتقب يوم تأتى السماء) صار ملحقاً بالزمانيات وكذلك ـ كل يوم له شأن مثل يوم العيد . والنيروز ـ وهذا

(١) يصف الشاعر مضيافا يصدر الاضياف عنه شباعا يتناهون فى السمن بسبب الاكل والشرب وقالوا جمل ناه اذا كان عريقاً فى السمن اه

Marfat.com

جار فى عرفى العرب والعجم على أنه يجوز عند الأشاعرة أن يكون للزمان زمان على مافصل فى مكانه ، وقرئ (إيان) بكسر الهمزة وهى لغة ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ١٣ ﴾ أى يحرقون ، وأصل الفتن إذابة الجوهر ليظهر غشه ثم استعمل فى الاحراق والتعذيب ونحو ذلك ، و(يوم) نصب على الظرفية لمحذوف دل عليه وقوع الكلام جوابا للسؤال مضاف للجملة الاسمية بعده - أى يقع يوم الدين يوم هم على النار - الخ ، وقال الزجاج : ظرف لمحذوف وقع خبراً لمبتدأ كذلك أى هو واقع ، أو كائن يوم الخ ، وجوز أن يكون هو نفسه خبر مبتدا محذوف ، والفتحة فتحة بناء لاضافته إلى غير ، وهى الجملة الاسمية فان الجمل بحسب الاصل كذلك على كلام فيه بين البصريين والكوفيين مفصل فى شرح التسهيل - أى هو يوم هم - الخ ، والضمير قيل : راجع إلى وقت الوقوع فيكون هذا الكلام قائماً مقام الجواب على نحو - سيقولون لله - فى جواب (من رب السموات والأرض) لان تقدير السؤال فى أى وقت يقع ، وجوابه الأصلى فى يوم كذا ، وإذا قلت : وقت وقوعه يوم كذا كان قائما مقامه . ويجوز أن يكون الضمير لليوم والكلام جواب بحسب المعنى ، فالتقدير يوم الجزاء - يوم تعذيب الكفار - ويؤيد - كونه مرفوع المحل خبراً لمبتدأ محذوف - قراءة ابن أبى عبلة . والزعفرانى (يوم هم) بالرفع ، وزعم بعض النحاة أن -يوم- بدل من (يوم الدين) وفتحته على قراءة الجمهور فتحة بناء ، و(يوم) وما فى حيزه من جملة كلام السائلين قالوه استهزاءاً ، وحكى على المعنى ، ولو حكى على اللفظ لقيل : يوم نحن على النار نفتن ، وهو فى غاية البعد كما لا يخفى ، وقوله تعالى: ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ بتقدير قول وقع حالا من ضمير (يفتنون) أى مقولا لهم (ذوقوا فتنتكم) أى عذابكم المعذلكم ، وقد يسمى ما يحصل عنه العذاب - كالكفر - فتنة ، وجوز أن يكون منه ما هنا كأنه قيل : ذوقوا كفركم - أى جزاء كفركم - أو بجعل الكفر نفس العذاب مجازاً وهو كما ترى ﴿ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ١٤ ﴾ جملة من مبتدأ وخبر داخلة تحت القول المضمر - أى هذا العذاب الذى كنتم تستعجلون به بطريق الاستهزاء - وجوز أن يكون هذا بدلا من (فتنتكم) بتأويل العذاب ، وفيه بعد ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ١٥ ﴾ لا يبلغ كنهها ولا يقادر قدرها ﴿ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى قابلين لكل ما أعطاهم عز وجل راضين به على معنى إن كل ما آتاهم حسن مرضى يتلقى بحسن القبول ، والعموم مأخوذ من شيوع ما وإطلاقه فى معرض المدح وإظهار منّه تعالى عليهم ، واعتبار الرضا لأن الأخذ قبول عن قصد ، ونصب (آخذين) على الحال من الضمير فى الظرف ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ فى الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ١٦ ﴾ أى لأعمالهم الصالحة آتين بها على ما ينبغى فلذلك استحقوا ما استحقوا من الفوز العظيم ، وفسر إحسانهم بقوله تعالى ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ١٧ ﴾ الخ على أن الجملة فى محل رفع بدل من قوله تعالى : (كانوا قبل ذلك محسنين) حصل بها تفسيره ، أو أنها جملة لا محل لها من الاعراب مفسرة كسائر الجمل التفسيرية ، وأخرج الفريابى . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال فى الآية : (آخذين ما آتاهم ربهم) من الفرائض (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) أى كانوا قبل تنزل الفرائض يعملون ، ولا أظن صحة نسبته لذلك الحبر ، ولا يكاد تجعل جملة (كانوا) الخ عليه تفسيراً إذا صح ما نقل عنه فى تفسيرها ، وسيأتى إن شاء الله تعالى *

و - الهجوع - النوم ، وقيده الراغب بقوله : ليلا ، وغيره بالقليل ، و (ما) إما مزيدة - فقليلا -

Marfat.com

معمول الفعل صفة لمصدر محذوف أى ـ هجوعا قليلا ـ و(من الليل) صفة، أو لغو متعلق ـ يهجعون للابتداء ، وجملة (يهجعون) خبر ـ كان ـ أو (قليلا)صفة لظرف محذوف ـ أى زمانا قليلا ـ و(من الليل صفة على نحو ـ قليل من المال عندى ـ وإما موصولة عائدها محذوف فهى فاعل (قليلا) وهو خبر ـ كان ـ و(من الليل حال من الموصول مقدم كأنه قيل: كانوا قد قل المقدار الذى يهجعون فيه كائنا أذلك المقدار (من الليل) وإما مصدرية فالمصدر فاعل (قليلا) وهو خبر كان أيضا، و (من الليل) بيان لا متعلق بما بعده لأن معمول المصدر لا يتقدم، أو حال من المصدر ، و (من) للابتداء كذا فى الكشف فهما من الكشاف ، وذهب بعضهم إلى أن (من) على زيادة ـ ما ـ بمعنى فى كما فى قوله تعالى: (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة) واعترض ابن المنير احتمال مصدريتها بأنه لا يجوز فى (من الليل) كونه صفة ، أو بيانا ـ للقليل ـ لأنه فيه واقع على الهجوع ولا صلة المصدر لتقدمه، وأجيب بأنه بيان للزمان المبهم؛ وحكى الطيبى أنه إما منصوب على التبيين أو متعلق بفعل يفسره (يهجعون) وجوز أن يكون (ما يهجعون) على ذلك الاحتمال بدلا من اسم كان فكأنه قيل : كان هجوعهم قليلا وهو بعيد ، وجوز فى (ما) أن تكون نافية ، و (قليلا) منصوب ـ بيهجعون ـ والمعنى ـ كانوا لا يهجعون من الليل قليلا ويحيونه كله ـ ورواه ابن أبى شيبة . وأبو نصر عن مجاهد، ورده الزمخشرى بأن (ما) النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها لأن لها صدر الكلام وليس فيها التصرف الذى فى أخواتها كلا فإنها قد تكون كجزء مما دخلت عليه نحو ـ عوتب بلا جرم ـ ولم . ولن ـ لاختصاصهما بالفعل كالجزء منه ، وأنت تعلم أن منع العمل هو مذهب البصريين ،وفى شرح الهادى أن بعض النحاة أجازه مطلقاً ، وبعضهم أجازه فى الظرف خاصة للتوسع فيه ، واستدل عليه بقوله :

* ونحن عن فضلك ما استغنينا * نعم يرد على ذلك أن فيه كما فى الانتصاف خللا من حيث المعنى فان طلب قيام الليل غير مستثنى منه جزء للهجوع وإن قل غير ثابت فى الشرع ولا معهود اللهم إلا أن يدعى أن من ذهب إلى ذلك يقول : بأنه كان ثابتاً فى الشرع، فقد أخرج ابن أبى شيبة. وابن المنذر عن عطاء أنه قال فى الآية: كان ذلك إذ أمروا بقيام الليل كله فكان أبو ذر يعتمد على العصا فمكثوا شهرين ثم نزلت الرخصة (فاقرءوا ما تيسر منه) وقال الضحاك : (كانوا قليلا) فى عددهم، وتم الكلام عند (قليلا) ثم ابتدأ (من الليل ما يهجعون) على أن (ما) نافية ؛ وفيه ما تقدم مع زيادة تفكيك للكلام، ولعل أظهر الأوجه زيادة (ما) ونصب (قليلا) على الظرفية، و(من الليل) صفة. قيل: وفى الكلام مبالغات لفظ الهجوع بناءاً على أنه القليل من النوم، وقوله تعالى: (قليلا) و(من الليل) لأن الليل وقت السبات والراحة وزيادة (ما) لأنها تؤكد مضمون الجملة فتؤكد القلة وتحققها باعتبار كونها قيداً فيها *

والغرض من الآية أنهم يكابدون العبادة فى أوقات الراحة وسكون النفس ولا يستريحون من مشاق النهار إلا قليلا ، قال الحسن : كابدوا قيام الليل لا ينامون منه إلا قليلا ، وعن عبد الله بن رواحة هجعوا قليلا ثم قاموا ، وفسر أنس بن مالك الآية ـ كما رواه جماعة عنه وصححه الحاكم ـ فقال: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء

وهى لا تدل على الاقتصار على ذلك ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ١٨ ﴾ أى هم مع قلة هجوعهم و كثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار فى الاسحار كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم ولم يتفرغوا فيه للعبادة ، وفى بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم الاحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار كأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه *

وفى الآية من الإشارة إلى مزيد خشيتهم وعدم اغترارهم بعبادتهم ما لا يخفى ، وحمل الاستغفار على حقيقته المشهورة هو الظاهر ـ وبه قال الحسن ـ *

Marfat.com

أخرج عنه ابن جرير . وغيره أنه قال : صلوا فلما كان السحر استغفروا ؛ وقيل : المراد طلبهم المغفرة بالصلاة ، وعليه ما أخرج ابن المنذر . وجماعة عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه قال : (يستغفرون) يصلون،وأخرج ابن مردويه عنه ذلك مرفوعاً ولا أراه يصح ، وأخرج أيضا عن أنس قال : « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن آخر الليل فى التهجد أحب إلى من أوله لأن الله تعالى يقول : (وبالاسحار هم يستغفرون) » وهو محتمل لذلك التفسير والظاهر ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ ﴾ أى نصيب وافر يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله عز وجل وإشفاقاً على الناس فهو غير الزكاة كما قال ابن عباس . ومجاهد . وغيرهما ﴿ لِّلسَّآئِلِ ﴾ الطالب منهم ﴿ وَٱلْمَحْرُومِ ١٩ ﴾ وهو المتعفف الذى يحسبه الجاهل غنياً فيحرم الصدقة من أكثر الناس ۞

أخرج ابن جرير.وابن حبان.وابن مردويه عن أبى هريرة قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان والأكلة والأكلتان قيل: فمن المسكين؟ قال: الذى ليس له ما يغنيه ولا يعلم مكانه فيتصدق عليه فذلك المحروم » وفسره ابن عباس بالمحارف الذى يطلب الدنيا وتدبر عنه ولا يسأل الناس، وقيل: هو الذى يبعد منه ممكنات الرزق بعد قربها منه فيناله الحرمان ، وقال زيد بن أسلم: هو الذى اجتيحت ثمرته ، وقيل: من ماتت ماشيته ، وقيل: من ليس له سهم فى الاسلام ، وقيل: الذى لا ينمو له مال ، وقيل: غير ذلك ـ قال فى البحر: وكل ذلك على سبيل التمثيل ويجمع الأقوال أنه الذى لا مال له لحرمان أصابه ـ وأنا بقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقول ـ وقال منذر بن سعيد هذا الحق هو الزكاة المفروضة ، وتعقب بأن السورة مكية وفرض الزكاة بالمدينة ، وقيل: أصل فريضة الزكاة كان بمكة والذى كان بالمدينة القدر المعروف اليوم ، وعن ابن عمر أن رجلا سأله عن هذا الحق فقال الزكاة وسوى ذلك حقوق فعمم، والجمهور على الأول ۞

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ ﴾ دلائل من أنواع المعادن.والنباتات.والحيوانات،أو وجوه دلالات من الدحو وارتفاع بعضها عن الماء ، واختلاف أجزائها فى الكيفيات والخواص ، فالدليل على الاول ما فى الارض من الموجودات والظرفية حقيقية والجمع على ظاهره،وعلى الثانى الدليل نفس الارض،والجمعية باعتبار وجوه الدلالة وأحوالها، والظرفية من ظرفية الصفة فى الموصوف والدلالة على وجود الصانع جل شأنه وعلمه وقدرته وإرادته ووحدته وفرط رحمته عز وجل ﴿ لِّلْمُوقِنِينَ ٢٠ ﴾ للموحدين الذين سلكوا الطريق السوى البرهانى الموصل إلى المعرفة فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة ، وقرأ قتادة ـ آية ـ بالافراد ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى فى ذواتكم آيات إذ ليس فى العالم شئ إلا وفى ذات الانسان له نظير يدل مثل دلالته على ما انفرد به من الهيآت النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة والتمكن من الأفعال البديعة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة، وآيات الأنفس أكثر من أن تحصى،وقيل: أريد بذلك اختلاف الألسنة والصور والالوان والطبائع،ورواه عطاء عن ابن عباس ، وقيل: سبيل الطعام وسبيل الشراب والحق أن لا حصر ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٢١ ﴾ أى ألا تنظرون فلا تبصرون بعين البصيرة ، وهو تعنيف على ترك النظر فى الآيات الأرضية والنفسية ، وقيل: فى الاخير ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾ أى تقديره وتعيينه ، أو أسباب رزقكم من النيرين والكواكب والمطالع

Marfat.com

والمغارب التى تختلف بها الفصول التى هى مبادى الرزق إلى غيرذلك ، فالكلام على تقديرمضاف أو التجوز بجعل وجود الاسباب فيها كوجود المسبب ، وذهب غير واحد إلى أن السماء السحاب وهى سماء لغة ، والمراد بالرزق المطر فانه سبب الاقوات وروى تفسيره بذلك مرفوعاً وقرأ ابن محيصن ـأرزاقكمـ على الجمع ۞

﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ ﴾ عطف على رزقكم أى والذى توعدونه من خيروشر كماروى عن مجاهد، وفى رواية أخرى عنه وعن الضحاك ـ ماتو عدون ـ الجنة والنار وهو ظاهر فى أن النار فى السماء وفيه خلاف ، وقال بعضهم : هو الجنة وهى على ظهر السماء السابعة تحت العرش ، وقيل : أمر الساعة ، وقيل : الثواب والعقاب فانهما مقدران معينان فيها، وقيل : إنه مستأنف خبره ۞

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ على أن ضمير (إنه) (لما) وعلى ماتقدم ، فإما له أو للرزق ، أولله تعالى ، أوللنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أوللقرآن ، أو للدين فى (إن الدين لواقع) أو لليوم المذكور فى (أيان يوم الدين) أو لجميع المذكور (أما ما أقوال) ، واستظهر أبو حيان الأخير منها وهو مروى عن ابن جريج أى أن جميع ماذكرناه من أول السورة إلى هنا لحق ﴿ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ أى مثل نطقكم كما أنه لاشك لكم فى أنكم تنطقون ينبغى أن لاتشكوا فى حقية ذلك وهذا كقول الناس : إن هذا لحق كما أنك ترى وتسمع ، ونصب (مثل) على الحالية من المستكن فى (لحق) وهو لايتعرف بالاضافة لتوغله فى التنكير، أو على الوصف لمصدر محذوف أى إنه حق حقاً مثل نطقكم ، وقيل : إنه مبنى على الفتح فقال المازنى :لتركبه مع (ما) حتى صارا شيئاً واحداً نحو ـ ويحما ـ وأنشدوا لبناء الاسم معها قول الشاعر :

أثور (ما) أصيدكم أم ثورين أم هذه الجماء ذات القرنين

وقال غيره : لاضافته إلى غير متمكن وهو (ما) إن كانت نكرة موصوفة بمعنى شئ ، أو موصولة بمعنى الذى و (أنكم) الخ خبر مبتدأ محذوف أى هو (أنكم) الخ ، والجملة صفة ، أوصلة ، أوهوأن بما فى حيزها إن جعلت (ما) زائدة ، وهو نص الخليل ومحله على البناء الرفع على أنه صفة (لحق) أو خبر ثان ويؤيده قراءة حمزة . والكسائى . وأبى بكر . والحسن . وابن أبى إسحق . والأعمش بخلاف عن ثلاثتهم (مثل) بالرفع ، وفى البحر أن الكوفيين يجعلون ـمثلاـ ظرفا فينصبونه على الظرفية ويجيزون زيد مثلك بالنصب، وعليه يجوز أن يكون فى قراءة الجمهور منصوبا على الظرفية ـ واستدلالهم، والرد عليهم مذكور فى النحو ـوفى الآية من تأكيد حقية المذكور مالايخفى ، وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم عن الحسن أنه قال فيها : بلغنى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « قاتل الله قوماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا » وعن الاصمعى أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود فقال : ممن الرجل ؟ قلت:من بنى أصمع قال : من أين أقبلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن قال : اتل على فتلوت (والذاريات) فلما بلغت (وفى السماء رزقكم) قال : حسبك فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فاذا أنا بمن يهتف بى بصوت رقيق فالتفت فاذا بالأعرابى قد نحل واصفر فسلم على واستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقاً ثم قال : وهل غيرهذا ؟ (فقرأت فورب السماء والارض إنه لحق) فصاح وقال : ياسبحان الله من ذا أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين قالها

Marfat.com

ثلاثا وخرجت معها نفسه ٥

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ ابْرَاهِيمَ ﴾ فيه تفخيم لشأن الحديث وتنبيه على أنه ليس مما علمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بغير طريق الوحى قاله غير واحد ، وفى الكشف فيه رمز إلى أنه لما فرغ من إثبات الجزاء لفظاً القسم ومعنى بما فى المقسم به من التلويح إلى القدرة البالغة مدمجا فيه صدق المبلغ ، وقضى الوطر من تفصيله مهد لاثبات النبوة وأن هذا الآتى الصادق حقيق بالاتباع لما معه من المعجزات الباهرة فقال سبحانه: (هل أتاك) الخ ، وضمن فيه تسليته عليه الصلاة والسلام بتكذيب قومه فله بسائر آبائه وإخوانه من الأنبياء عليهم السلام أسوة حسنة هذا إذا لم يجعل قوله تعالى:(وفى موسى) عطفاً على قوله سبحانه. (وفى الأرض آيات) وأما على ذلك التقدير فوجهه أن يكون قصة الخليل . ولوط عليهما السلام معترضة للتسلى بإبعاد مكذبيه وأنه مرحوم منجى مكرم بالاصطفاء مثل أبيه إبراهيم صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم - والترجيح مع الأول انتهى - وسيأتى إن شاء الله تعالى ما يتعلق بقوله سبحانه :(وفى موسى)، و(الضيف) فى الأصل مصدر بمعنى الميل ولذلك يطلق على الواحد والمتعدد ، قيل : كانوا اثنى عشر ملكا، وقيل : ثلاثة. جبرائيل. وميكائيل. وإسرافيل عليهم السلام وسموا ضيفاً لانهم كانوا فى صورة الضيف ولأن إبراهيم عليه السلام حسبهم كذلك ، فالتسمية على مقتضى الظاهر والحسبان ، وبدأ بقصة إبراهيم وإن كانت متأخرة عن قصة عاد لإنها أقوى فى غرض التسلية ﴿ الْمُكْرَمِينَ ٢٤ ﴾ أى عند الله عز وجل كما قال الحسن فهو كقوله تعالى فى الملائكة عليهم السلام : (بل عباد مكرمون) أو عند إبراهيم عليه السلام إذ خدمهم بنفسه وزوجته وعجل لهم القرى ورفع مجالسهم كما فى بعض الآثار ، وقرأ عكرمة (المكرمين) بالتشديد ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ ظرف للحديث لأنه صفة فى الأصل، أو للضيف ، أو (لمكرمين) إن أريد إكرام إبراهيم لان إكرام الله تعالى إياهم لا يتقيد، أو منصوب بإضمار اذكر ﴿ فَقَالُوا سَلَاماً ﴾ أى نسلم عليك سلاماً ، وأوجب فى البحر حذف الفعل لأن المصدر سادمسده فهو من المصادر التى يجب حذف أفعالها ، وقال ابن عطية : يتجه أن يعمل فى (سلاماً)قالوا :على أن يجعل فى معنى قولا ويكون المعنى حينئذ أنهم قالوا: تحية وقولا معناه (سلام)ونسب إلى مجاهد وليس بذاك ٥.

﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ أى عليكم سلام عدل به إلى الرفع بالابتداء لقصد الثبات حتى يكون تحيته أحسن من تحيتهم أخذاً بمزيد الأدب والإكرام ، وقيل : (سلام) خبر مبتدأ محذوف أى أمرى (سلام) وقرئا مرفوعين ، وقرئ - سلاماً قال سلما - بكسر السين وإسكان اللام والنصب ، والسلم السلام،وقرأ ابن وثاب.والنخعى . وابن جبير . وطلحة - سلاماً قال سلم - بالكسر والإسكان والرفع ، وجعله فى البحر على معنى نحن أو أنتم سلم ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ٢٥ ﴾ أنكرهم عليه السلام للسلام الذى هو علم الاسلام ، أو لانهم عليهم السلام ليسوا ممن عهدهم من الناس ، أولان أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه الناس ، و(قوم) خبر مبتدأ محذوف والأكثر على أن التقدير أنتم قوم منكرون وأنه عليه السلام قاله لهم للتعرف كقولك لمن لقيته :أنا لا أعرفك تريد عرف لى نفسك وصفها ، وذهب بعض المحققين إلى أن الذى يظهر أن التقدير هؤلاء (قوم منكرون) وأنه عليه السلام قاله فى نفسه ، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه من غير أن يشعرهم بذلك فانه الانسب بحاله

Marfat.com

عليه السلام لأن فى خطاب الضيف بنحو ذلك إيحاشا ما ، وطلبه به أن يعرفوه حالهم لعله لايزيل ذلك . وأيضا لو كان مراده ذلك لكشفوا أحوالهم عند القول المذكور ولم يتصد عليه السلام لمقدمات الضيافة *

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِه ﴾ أى ذهب اليهم على خفية من ضيفه ، نقل أبو عبيدة أنه لايقال : راغ إلا إذا ذهب على خفية ، وقال : يقال روغ اللقمة إذا غمسها فى السمن حتى تروى ، قال ابن المنير : وهو من هذا المعنى لانها تذهب مغموسة فى السمن حتى تخفى ، ومن مقلوب الروغ غور الأرض والجرح لخفائه وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى ، وقال الراغب : الروغ الميل على سبيل الاحتيال ، ومنه راغ الثعلب ، وراغ فلان إلى فلان مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال ، ويعلم منه أن لاعتبار قيد الخفية وجهاً وهو أمر يقتضيه المقام أيضاً لان من يذهب إلى أهله لتدارك الطعام يذهب كذلك غالباً ، وتشعر الفاء بأنه عليه السلام بادر بالذهاب ولم يمهل وقد ذكروا أن من أدب المضيف أن يبارد بالقرى من غير أن يشعر به الضيف حذراً من أن يمنعه الضيف ، أو يصير منتظراً ﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ ﴾ هو ولد البقرة كأنه سمى بذلك لتصور عجلته التى تعدم منه إذا صار ثوراً ﴿ سَمِينٍ ٢٦ ﴾ ممتلىء الجسد بالشحم واللحم يقال : سمن ـ كسمع ـ سمانة بالفتح وسمناً ـ كعنب ـ فهو سامن وسمين ، وكحسن السمين خلقة كذا فى القاموس ، وفى البحر يقال : سمن سمناً فهو سمين شذوذاً فى المصدر ، واسم الفاعل . والقياس سمن وسمن ، وقالوا : سامن إذا حدث له السمن انتهى ، والفاء فصيحة أفصحت عن جمل قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها ، وإيذانا بكمال سرعة المجىء بالطعام أى فذبح عجلا فحنذه فجاء به ، وقال بعضهم إنه كان معداً عنده حنيذاً قبل مجيئهم لمن يرد عليه من الضيوف فلا حاجة إلى تقدير ماذكر ، والمشهور اليوم أن الذبح للضيف إذا ورد أبلغ فى إكرامه من الاتيان بما هئ من الطعام قبل وروده ، وكان كما روى عن قتادة عامة ماله عليه السلام البقر ولو كان عنده أطيب لحماً منها لاكرمهم به *

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ ﴾ بأن وضعه لديهم ، وفيه دليل على أن من إكرام الضيف أن يقدم له أكثر مما يأكل وأن لايوضع الطعام بموضع ويدعى الضيف إليه ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ٢٧ ﴾ ، قيل : عرض للأكل فان فى ذلك تأنيساً للضيف ، وقيل : إنكار لعدم تعرضهم للأكل ، وفى بعض الآثار أنهم قالوا : إنا لانأكل إلا ما أدينا ثمنه فقال عليه السلام : إنى لاأبيعه لكم إلا بثمن قالوا : وما هو ؟ قال : أن تسموا الله تعالى عند الابتداء وتحمدوه عز وجل عند الفراغ فقال بعضهم لبعض : بحق اتخذه الله تعالى خليلا ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ فأضمر فى نفسه منهم خوفاً لما رأى عليه الصلاة والسلام إعراضهم عن طعامه وظن أن ذلك لشر يريدونه فان أكل الضيف أمنة ؛ ودليل على انبساط نفسه وللطعام حرمة وذمام والامتناع منه وحشة موجبة لظن الشر . وعن ابن عباس أنه عليه السلام وقع فى نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب فخاف ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ إنا رسل الله تعالى ، عن يحيى بن شداد مسح جبريل عليه السلام العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه فعرفهم وأمن منهم ، وعلى ماروى عن الحبر أن هذا لمجرد تأمينه عليه السلام ، وقيل : مع تحقيق أنهم ملائكة وعلمهم بما أضمر فى نفسه إما بإطلاع الله تعالى إياهم عليه ، أو إطلاع ملائكته الكرام الكاتبين عليه وإخبارهم به ، أو بظهور أمارته فى وجهه الشريف فاستدلوا بذلك على الباطن ﴿ وَبَشَّرُوهُ ﴾ وفى سورة الصافات (وبشرناه) أى بواسطتهم ﴿ بِغُلَٰمٍ ﴾

Marfat.com

هو عند الجمهور إسحق بن سارة وهو الحق للتنصيص على أنه المبشر به فى سورة هود ، والقصة واحدة ، وقال مجاهد: إسمعيل ابن هاجر ، رواه عنه ابن جرير وغيره ولا يكاد يصح ﴿ عَلِيمٍ ٢٨ ﴾ عند بلوغه واستوائه ، وفيه تبشير بحياته وكانت البشارة بذكر لانه أسر للنفس وأبهج ، ووصفه بالعلم لانها الصفة التى يختص بها الانسان الكامل لا الصورة الجميلة والقوة ونحوهما ، وهذا عند غير الاكثرين من أهل هذا الزمان فان العلم عندهم لاسيما العلم الشرعى رذيلة لا تعادلها رذيلة والجهل فضيلة لا توازنها فضيلة ، وفى صيغة المبالغة مع حذف المعمول ما لا يخفى مما يوجب السرور ، وعن الحسن (عليم) نبى ، ووقعت البشارة بعد التأنيس ، وفى ذلك إشارة إلى أن درء المفسدة أهم من جلب المصلحة ، وذكر بعضهم أن علمه عليه السلام بأنهم ملائكة من حيث بشروه بغيب *

﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ ﴾ سارة لما سمعت بشارتهم إلى بيتها وكانت فى زاوية تنظر اليهم ، وفى التفسير الكبير إنها كانت فى خدمتهم فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحيت وأعرضت عنهم فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الاقبال على الأهل دون الإدبار عن الملائكة ، وهو إن صح مثله عن نقل وأثر لا يأباه الخطاب الآتى لأنه يقتضى الاقبال دون الادبار إذ يكفى لصحته أن يكون بمسمع منها وإن كانت مدبرة ، نعم فى الكلام عليه استعارة ضدية ولا قرينة ههنا تصححها ، وقيل : أقبلت بمعنى أخذت كما تقول أخذ يشتمنى ﴿ فِى صَرَّةٍ ﴾ فى صيحة من الصرير قاله ابن عباس ، وقال قتادة وعكرمة : صرتها رنتها ، وقيل: قولها أوه ، وقيل: ياويلتى ، وقيل : فى شدة ، وقيل : الصرة الجماعة المنضم بعضهم إلى بعض كأنهم صروا أى جمعوا فى وعاء - وإلى هذا ذهب ابن بحر - قال: أى أقبلت فى صرة من نسوة تبادرن نظراً إلى الملائكة عليهم السلام ، والجار والمجرور فى موضع الحال ، أو المفعول به إن فسر (أقبلت) بأخذت قيل: إن (فى) عليه زائدة كما فى قوله : * يجرح فى عراقيبها نصلى * والتقدير أخذت صيحة ، وقيل : بل الجار والمجرور فى موضع الخبر لأن الفعل حينئذ من أفعال المقاربة ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ قال مجاهد: ضربت بيدها على جبهتها وقالت: ياويلتاه ، وقيل: إنها وجدت حرارة الدم فلطمت وجهها من الحياء ، وقيل: إنها لطمته تعجباً وهو فعل النساء إذا تعجبن من شئ ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ ﴾ أى أنا عجوز ﴿ عَقِيمٌ ٢٩ ﴾ عاقر فكيف ألد ، وعقيم فعيل قيل : بمعنى فاعل أو مفعول وأصل معنى العقم اليبس ﴿ قَالُوا كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل ذلك القول الكريم الذى أخبرنا به ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ وإنما نحن معبرون نخبرك به عنه عز وجل لا أنا نقوله من تلقاء أنفسنا ، وروى أن جبريل عليه السلام قال لها : انظرى إلى سقف بيتك فنظرت فاذا جذوعه مورقة مثمرة ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ٣٠ ﴾ فيكون قوله عز وجل حقاً وفعله سبحانه متقناً لا محالة ، وهذه المفاوضة لم تكن مع سارة فقط بل كانت مع إبراهيم أيضاً حسبما تقدم فى سورة الحجر ، وإنما لم يذكر ههنا اكتفاءاً بما ذكر هناك كما أنه لم يذكر هناك سارة اكتفاءاً بما ذكر - ههنا وفى سورة هود - *

﴿ قَالَ ﴾ أى إبراهيم عليه السلام لما علم أنهم ملائكة أرسلوا لأمر ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ أى شأنكم الخطير الذى لأجله أرسلتم سوى البشارة ﴿ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ٣١ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ٣٢ ﴾ يعنون قوم لوط عليه السلام ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى بعد قلب قراهم عاليها سافلها حسبما فصل فى سائر السور الكريمة

Marfat.com

﴿ حجَارَةً مِّنْ طين ٣٣ ﴾ أى طين متحجر وهو السجيل ؛ وفى تقييد كونها من طين رفع توهم كونها برداً فان بعض الناس يسمى البرد حجارة ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ معلمة من السومة وهى العلامة على كل واحدة منها اسم من يهلك بها ؛ وقيل: أعلمت بأنها من حجارة العذاب، وقيل : بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا، وقيل : مسومة مرسلة من أسمت الابل فى المرعى ، ومنه قوله تعالى : (ومنه شجر فيه تسيمون) ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أى فى محل ظهور قدرته سبحانه وعظمته عز وجل ، والمراد إنها معلمة فى أول خلقها ، وقيل : المعنى إنها فى علم الله تعالى معدة ﴿ لِّلْمُسْرِفِينَ ٣٤ ﴾ المجاوزين الحد فى الفجور ، و ـ أل ـ عند الامام للعهد أى لهؤلاء المسرفين، ووضع الظاهر موضع الضمير ذماً لهم بالاسراف بعد ذمهم بالاجرام ، وإشارة إلى علة الحكم ، وقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ إلى آخره حكاية من جهته تعالى لما جرى على قوم لوط عليه السلام بطريق الاجمال بعد حكاية ما جرى بين الملائكة وبين إبراهيم عليهم السلام من الكلام ، والفاء فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ثقة بذكرها فى موضع آخر كأنه قيل : فقاموا منه وجاءوا لوطا فجرى بينهم وبينه ما جرى فباشروا ما أمروا به فأخرجنا بقولنا (فأسر بأهلك) الخ ﴿ مَن كَانَ فِيهَا ﴾ أى فى قرى قوم لوط وإضمارها بغير ذكر لشهرتها *

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٣٥ ﴾ ممن آمن بلوط عليه السلام ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْت ﴾ أى غير أهل بيت للبيان بقوله تعالى : ﴿ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٣٦ ﴾ فالكلام بتقدير مضاف ، وجوز أن يراد بالبيت نفسه الجماعة مجازاً ، والمراد بهم ـ كما أخرج ابن المنذر . وابن أبى حاتم ـ عن مجاهد لوط وابنتاه ، واخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير أنه قال : كانوا ثلاثة عشر ، واستدل بالآية على اتحاد الإيمان والإسلام للاستثناء المعنوى فان المعنى فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فلم يكن المخرج إلا أهل بيت واحد وإلا لم يستقم الكلام، وأنت تعلم أن هذا يدل على أنهما صادقان على الأمر الواحد لا ينفك أحدهما عن الآخر كالناطق والانسان إما على الاتحاد فى المفهوم وهو المختلف فيه عند أهل الأصول والحديث فلا ، فالاستدلال بها على اتحادهما فيه ضعيف، نعم تدل على أنهما صفتا مدح من أوجه عديدة استحقاق الاخراج واختلاف الوصفين وجعل كل مستقلا بأن يجعل سبب النجاة وما فى قوله تعالى: (من كان) أولا، و(غير بيت) ثانياً من الدلالة على المبالغة فان صاحبهما محفوظ (من كان) وأين كان إلى غير ذلك ، ومعنى الوجدان منسوباً إليه تعالى العلم على ما قاله الراغب، وذهب بعض الأجلة إلى أنه لا يقال: ما وجدت كذا إلا بعد الفحص والتفتيش، وجعل عليه معنى الآية فأخرج ملائكتنا (من كان فيها من المؤمنين) فما وجد ملائكتنا فيها (غير بيت من المسلمين) أو فى الكلام ضرب آخر من المجاز فلا تغفل *

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا ﴾ أى فى القرى ﴿ ءَايَةً ﴾ علامة دالة على ما أصابهم من العذاب ، قال ابن جريج : هى أحجار كثيرة منضودة ، وقيل : تلك الاحجار التى أهلكوا بها ، وقيل : ماء منتن قال الشهاب : كأنه بحيرة طبرية ، وجوز أبو حيان كون ضمير (فيها) عائداً على الاهلاكة التى أهلكوها فانها من أعاجيب الاهلاك بجعل أعالى القرية أسافل ، وإمطار الحجارة ، والظاهر هو الأول ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٣٧ ﴾ أى من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوى القلوب القاسية فانهم لا يعتدون بها

Marfat.com

ولا يعدونها آية ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ ﴾ عطف على (وتركنا فيها) بتقدير عامل له أى وجعلنا فى موسى ، والجملة معطوفة على الجملة ، أو هو عطف على(فيها) بتغليب معنى عامل الآية، أو سلوك طريق المشاكلة فى عطفه على الاوجه التى ذكرها النحاة فى نحو ٭ علفتها تبناً وماءاً بارداً ٭ لايصح تسليط الترك بمعنى الإبقاء على قوله سبحانه . (وفى موسى) فقول أبى حيان · لاحاجة إلى إضمار (تركنا) لانه قد أمكن العامل فى المجرور تركنا الاول فيه بحث ، وقيل : (فى موسى) خبر لمبتدأ محذوف أى (وفى موسى) آية ، وجوز ابن عطية. وغيره أن يكون معطوفا على قوله تعالى. (وفى الارض وما بينهما) اعتراض لتسليته عليه الصلاة والسلام على مامر،وتعقبه فى البحر بأنه بعيد جداً ينزه القرآن الكريم عن مثله ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ ﴾ قيل: بدل من (موسى)، وقيل. هو منصوب بآية ، وقيل · بمحذوف أى كائنة وقت إرسالنا ، وقيل:بتركنا ٭

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ٣٨ ﴾ هو ماظهر على يديه من المعجزات الباهرة،والسلطان يطلق على ذلك مع شموله للواحد والمتعدد لأنه فى الأصل مصدر ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ فأعرض عن الإيمان بموسى عليه السلام على أن ركنه جانب بدنه وعطفه،والتولى به كناية عن الإعراض ، والباء للتعدية لان معناه ثنى عطفه ، أو للملابسة ، وقال قتادة : تولى بقومه على أن الركن بمعنى القوم لأنه يركن إليهم ويتقوى بهم ، والباء للمصاحبة أو الملابسة وكونها للسببية غير وجيه ، وقيل: تولى بقوته وسلطانه ، والركن يستعار للقوة ـ كما قال الراغب ـ وقرئ بركنه بضم الكاف اتباعا للراء ﴿ وَقَالَ سَٰحِرٌ ﴾ أى هو ساحر ﴿ أَوْ مَجْنُونٌ ٣٩ ﴾ كان اللعين جعل ماظهر على يديه عليه السلام من الخوارق العجيبة منسوبة إلى الجن وتردد فى أنه حصل باختياره فيكون سحراً ، أو بغير اختياره فيكون جنوناً ، وهذا مبنى على زعمه الفاسد وإلا فالسحر ليس من الجن كما بين فى محله ـ فأو ـ للشك ، وقيل : للإبهام ، وقال أبو عبيدة : هى بمعنى الواو لأن اللعين قال الامرين قال : (إن هذا لساحر عليم) وقال : (إن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون) وأنت تعلم أن اللعين يتلون تلون الحرباء فلا ضرورة تدعو إلى جعلها بمعنى الواو ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ ﴾ طرحناهم غير معتدين بهم ﴿ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ فى البحر، والمراد فأغرقناهم فيه ، وفى الكلام من الدلالة على غاية عظم شأن القدرة الربانية ونهاية قمأة فرعون وقومه ما لايخفى ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ٤٠ ﴾ أى آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان فالافعال هنا للاتيان بما يقتضى معنى ثلاثيه كأغرب إذا أتى أمراً غريباً ،وقيل : الصيغة للنسب ، أو الاسناد للسبب ـ وهو كما ترى ـ وكون الملام عليه هنا الكفر والطغيان هو الذى يقتضيه حال فرعون وهو مما يختلف باعتبار من وصف به فلا يتوهم أنه كيف وصف اللعين بما وصف به ذو النون عليه السلام ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا ﴾ على طرز ما تقدم ﴿ عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ٤١ ﴾ الشديد التى لاتلقح شيئا مما أخرجه جماعة عن ابن عباس وصححه الحاكم،وفى لفظ هى ريح لا بركة فيها ولا منفعة ولا ينزل منها غيث ولا يلقح بها شجر كأنه شبه عدم تضمن المنفعة بعقم المرأة فعيل بمعنى فاعل من اللازم وكون هذا المعنى لا يصح هنا مكابرة ، وقال بعضهم وهو حسن : سميت عقيما لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم على أن هناك استعارة تبعية شبه إهلاكهم وقطع دابرهم بعقم النساء وعدم

Marfat.com

حملهن لما فيه من إذهاب النسل ثم أطلق المشبه به على المشبه واشتق منه العقيم ، وفعيل قيل : بمعنى فاعل أو مفعول ، وهذه الريح كانت الدبور لما صح من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » وأخرج الفريابى وابن المنذر عن على كرم الله تعالى وجهه أنها النكباء ، وأخرج ابن جرير وجماعة عن ابن المسيب أنها الجنوب ، وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أنها الصبا ، والمعول عليه ماذكرنا أولا ، ولعل الخبر عن الأمير كرم الله تعالى وجهه غير صحيح ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَىْءٍ ﴾ ماتدع شيئا ﴿ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ جرت عليه ﴿ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ٤٢ ﴾ الشىء البالى من عظم ، أو نبات ، أوغير ذلك من رمّ الشىء بلى ، ويقال للبالى : رمام كغراب ، وأرم أيضاً لكن قال الراغب : يختص الرم بالفتات من الخشب والتبن ، والرمة بالكسر تختص بالعظم البالى ، والرمة بالضم بالحبل البالى ، وفسره السدى هنا بالتراب ، وقتادة بالهشيم ، وقطرب بالرماد ، وفسره ابن عيسى بالمنسحق الذى لا يرم أى لا يصلح كأنه جعل الهمزة فى أرم للسلب ، والجملة بعد (إلا) حالية ، والشىء هنا عام مخصوص أى من شىء أراد الله تعالى تدميره وإهلاكه من ناس . أو ديار . أو شجر . أوغير ذلك ، روى أن الريح كانت تمر بالناس فيهم الرجل من عاد فتنتزعه من بينهم وتهلكه ﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ٤٣ ﴾ أخرج البيهقى فى سننه عن قتادة أنه ثلاثة أيام ـ وإليه ذهب الفراء . وجماعة ـ قال : تفسيره قوله تعالى : (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام) واستشكل بأن هذا التمتع مؤخر عن العتو لقوله تعالى : (فعقروها فقال تمتعوا) الخ ، وقوله تعالى : ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ يدل على أن العتو مؤخر ، وأجيب بأن هذا مرتب على تمام القصة كأنه قيل : وجعلنا فى زمان قولنا ذلك لثمود آية أو وفى زمان قولنا ذلك لثمود آية ، ثم أخذ فى بيان كونه آية فقيل . (فعتوا عن أمر ربهم) أى فاستكبروا عن الامتثال به إلى الآخر . فالفاء للتفصيل قال فى الكشف . وهو الظاهر من هذا المساق ، وكذلك قوله تعالى : (فتولى بركنه) مرتب على القصة زمان إرسال موسى عليه السلام بالسلطان ، وإن كان هناك لا مانع من الترتب على الارسال وذلك لأنه جىء بالظرف لمجىء الفضلة حيث جعل فيه الآية ، والقصة من توليهم إلى هلاكهم انتهى ، وقال الحسن . هذا أى ـ القول لهم تمتعوا حتى حين ـ كان حين بعث اليهم صالح أمروا بالايمان بما جاء به ، والتمتع إلى أن تأتى آجالهم ـ ثم عتوا بعد ذلك ـ قال فى البحر ، ولذلك جاء العطف بالفاء المقتضية تأخر العتو عما أمروا به فهو مطابق لفظاً ووجوداً واختاره الامام فقال . قال بعض المفسرين . المراد بالحين الأيام الثلاثة التى أمهلوها بعد عقر الناقة وهو ضعيف لأن ترتب فعتوا بالفاء دليل على أن العتو كان بعد القول المذكور ، فالظاهر أنه ما قدر الله تعالى من الآجال فما من أحد إلا وهو يمهل مدة الأجل كأنه يقول له . تمتع إلى آخر أجلك فان أحسنت فقد حصل لك التمتع فى الدارين وإلا فالك فى الآخرة من نصيب انتهى ، وما تقدم أبعد مغزى ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ ﴾ أى أهلكتهم ، روى أن صالحا عليه السلام وعدهم الهلاك بعد ثلاثة أيام ، وقال لهم . تصبح وجوهكم غداً مصفرة . وبعد غد محمرة . واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب ، ولما رأوا الآيات التى بينها عليه السلام عمدوا إلى قتله فنجاه الله تعالى فذهب إلى أرض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم الصاعقة وهى نار من السماء ، وقيل . صيحة منها فهلكوا ، وقرأ عمر . وعثمان رضى الله تعالى عنهما . والكسائى الصعقة

Marfat.com

وهى المرة من الصعق بمعنى الصاعقة أيضا ، أوالصيحة ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ٤٤ ﴾ اليها ويعاينونها ويحتاج إلى تنزيل المسموع منزلة المبصر على القول بأن الصاعقة الصيحة وأن المراد ينظرون اليها ، وقال مجاهد: (ينظرون) بمعنى ينتظرون أى وهم ينتظرون الأخذ والعذاب فى تلك الايام الثلاثة التى رأوا فيها علاماته وانتظار العذاب أشد من العذاب ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا من قيَام ﴾ كقوله تعالى: (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) وقيل: هو من قولهم: مايقوم فلان بكذا إذا عجز عن دفعه ، وروى ذلك عن قتادة فهو معنى مجازى ، أو كناية شاعت حتى التحقت بالحقيقة ﴿ وَمَا كَانُوا مُنتَصرِينَ ٤٥ ﴾ بغيرهم كما لم يتمنعوا بأنفسهم ﴿ وَقَوْمَ نُوح ﴾ أى وأهلكنا قوم ، فان ماقبله يدل عليه ، أو واذكر ، وقيل : عطف على الضمير فى (فأخذتهم) ، وقيل : فى (فنبذناهم) لأن معنى كل فأهلكناهم - وهو كما ترى - وجوز أن يكون عطفاً على محل (وفى عاد) أو (وفى ثمود) وأيد بقراءة عبدالله . وأبى عمرو . وحمزة . والكسائى . وقوم بالجر ، وقرأ عبد الوارث . ومحبوب . والاصمعى عن أبى عمرو . وأبو السمال . وابن مقسم . وقوم بالرفع والظاهر أنه على الابتداء ، والخبر محذوف أى أهلكناهم ﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ أى من قبل هؤلاء المهلكين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَسقِينَ ٤٦ ﴾ خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصى ﴿ وَالسَّمَاءَ ﴾ أى وبنينا السماء ﴿ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ ﴾ أى بقوة قاله ابن عباس . ومجاهد . وقتادة ، ومثله -الآد- وليس جمع (يد) وجوزه الامام وإن صحت التورية به ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧ ﴾ أى لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة ، فالجملة تذييل إثباتا لسعة قدرته عز وجل كل شئ فضلا عن السماء ، وفيه رمز إلى التعريض الذى فى قوله تعالى : (وما مسنا من لغوب) ، وعن الحسن (لموسعون) الرزق بالمطر وكأنه أخذه من أن المساق مساق الامتنان بذلك على العباد لاإظهار القدرة فكأنه أشير فى قوله تعالى : (والسماء بنيناها بأيد) إلى ماتقدم من قوله سبحانه : (وفى السماء رزقكم) على بعض الأقوال فناسب أن يتمم بقوله تعالى :(وإنا لموسعون) مبالغة فى المن ولايحتاج أن يفسر الأيد بالأنعام على هذا القول لأنه يتم المقصود دونه ، واليد بمعنى النعمة لاالإنعام ، وقيل : أى لموسعوها بحيث أن الأرض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة اليها كحلقة فى فلاة ، وقيل : أى لجاعلون بينها وبين الأرض سعة ، والمراد السعة المكانية ، وفيه على القولين تتميم أيضا ﴿ وَالْأَرْضَ ﴾ أى وفرشنا الارض ﴿ فَرَشْنَاهَا ﴾ أى مهدناها وبسطناها لتستقروا عليها ولا ينافى ذلك شبهها للكرة على ما يزعمه فلاسفة العصر ﴿ فَنِعْمَ الْمَهِدُونَ ٤٨ ﴾ أى نحن ، وقرأ أبو السمال . ومجاهد . وابن مقسم برفع السماء ورفع الأرض على أنهما مبتدآن وما بعدهما خبر لهما ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْ ﴾ أى من كل جنس من الحيوان ﴿ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ نوعين ذكراً وأنثى - ابن زيد . وغيره - وقال مجاهد : هذا إشارة إلى المتضادات والمتقابلات كالليل . والنهار . والشقوة . والسعادة . والهدى . والضلال . والسماء . والأرض . والسواد . والبياض . والصحة . والمرض . إلى غير ذلك ، ورجحه الطبرى بأنه أدل على القدرة ، وقيل : أريد بالجنس

Marfat.com

المنطقى ، وأقل مايكون تحته نوعان فخلق سبحانه من الجوهر مثلا المادى والمجرد ، ومن المادى النامى والجامد ، ومن النامى المدرك والنبات ، ومن المدرك الصامت والناطق وهو كما ترى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٤٩ ﴾ أى فعلنا ذلك كله كى تتذكروا فتعرفوا أنه عزوجل الرب القادر الذى لا يعجزه شئ فتعملوا بمقتضاه ولا تعبدوا ماسواه، وقيل :خلقناذلك كى تتذكروافتعلموا أن التعددمن خواص الممكنات وأن الواجب بالذات سبحانه لا يقبل التعدد والانقسام،وقيل:المراد التذكر بجميع ماذكر لامر الحشر والنشر لأن من قدر على إيجادذلك فهو قادر على إعادة الاموات يوم القيامة وله وجه،وقرأ أبى تتذكرون بتاءين وتخفيف الذال ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ تفريع على قوله سبحانه : (لعلكم تذكرون) وهو تمثيل للاعتصام به سبحانه وتعالى وبتوحيده عز وجل ، والمعنى قل يامحمد : (ففروا إلى الله) لمكان ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ ﴾ أى من عقابه تعالى المعدلمن لم يفر إليه سبحانه ولم يوحده ﴿ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٥٠ ﴾ بين كونه منذراً من الله سبحانه بالمعجزات ، أو (مبين) ما يجب أن يحذر عنه *

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ عطف على الأمر ، وهو نهى عن الإشراك صريحاً على نحو وحدوه ولا تشركوا ، ومن الأذكار المأثورة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وكرر قوله تعالى :

﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٥١ ﴾ لاتصال الأول بالأمر واتصال هذا بالنهى والغرض من كل ذلك الحث على التوحيد والمبالغة فى النصيحة ، وقيل : إن المراد بقوله تعالى : (ففروا إلى الله) الأمر بالإيمان وملازمة الطاعة ، وذكر (ولا تجعلوا) الخ ، إفراداً لأعظم مايجب أن يفر منه ، و(إنى لكم) الخ ، الأول مرتب على ترك الإيمان والطاعة ، والثانى على الإشراك فهما متغايران لتغاير ماترتب كل منهما عليه ووقع تعليلا له ولا يخلو عن كدر ، وقال الزمخشرى : فى الآية : (فروا إلى)طاعته وثوابه من معصيته وعقابه ووحدوا ولا تشركوا به ، وكرر (إنى لكم) الخ عند الأمر بالطاعة والنهى عن الشرك ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل كما أن العمل لا ينفع إلا مع الايمان وأنه لا يفوز عند الله تعالى إلا الجامع بينهما انتهى ، وفيه أنه لادلالة فى الآية على ذلك بوجه ثم تفسير الفرار إلى الله بما فسره أيضاً لينطبق على العمل وحده غير مسلم على أنه لو سلم الانذار بترك العمل فمن أين يلزم عدم النفع ، وأهل السنة لاينازعون فى وقوع الانذار بارتكاب المعصية ، فالمنساق إلى الذهن على تقدير كون المراد بالفرار إلى الله تعالى العبادة أنه تعالى أمربها أولا وتوعد تاركها بالوعيد المعروف له فى الشرع وهو العذاب دون خلود ، ونهى جل شأنه ثانياً أن يشرك بعبادته سبحانه غيره وتوعد المشرك بالوعيد المعروف له وهو الخلود ، وعلى هذا يكون الوعيدان متغايرين وتكون الآية فى تقديم الأمر على النهى فيها نظير قوله تعالى : (فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) ، وقوله سبحانه : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) وأين هذا مما ذكره الزمخشرى عامله الله تعالى بعدله *

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى الأمر مثل ذلك تقرير وتوكيد على مامر غير مرة،ومن فصل الخطاب لأنه لما أراد سبحانه أن يستأنف قصة قولهم المختلف فى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن تقدمت عموماً أوخصوصاً فى قوله تعالى: (إنكم لفى قول مختلف) وكان قد توسط ماتوسط قال سبحانه : الأمر كذلك أى مثل مايذكر ويأتيك

Marfat.com

خبره إشارة إلى الكلام الذى يتلوه أعنى قوله عز وجل : ﴿ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ من قَبْلهم ﴾ إلى آخره فهو تفسير ماأجمل وهو مراد من قال: الإشارة إلى تكذيبهم الرسول عليه الصلاة والسلام وتسميتهم إياه وحاشاه ساحراً ومجنوناً ، ويعلم ماذكر أن كذلك خبر مبتدأ محذوف ولا يجوز نصبه بأتى على أنه صفة لمصدره ، والإشارة إلى الإتيان أى (ماأتى الذين من قبلهم) من رسول إتياناً مثل إتيانهم (إلاقالوا) إلخ لأن مابعد (ما) النافية لا يعمل فيما قبلها على المشهور ، ولا يأتى مقدراً على شريطة التفسير لأن مالا يعمل لا يفسر عاملا فى مثل ذلك كما صرح به النحاة ، وجعله معمولا لقالوا، والإشارة للقول أى إلاقالوا ساحر أو مجنون قولا مثل ذلك القول لا يجوز أيضاً على تعسفه لمكان (ما) وضمير قبلهم لقريش أى ماأتى الذين من قبل قريش ﴿ مِّن رَّسُولٍ ﴾ أى رسول من رسل الله تعالى ﴿إِلَّا قَالُواْ﴾ فى حقه ﴿ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ٥٢ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هو ساحر، و ـ أو ـ قيل : من الحكاية أى (إلا قالوا ساحر)، أو (قالوا مجنون) وهى لمنع الخلو وليست من المحكى ليكون مقول كل مجموع (ساحر أو مجنون) وفى البحر هى للتفصيل أى قال بعض: ساحر؛ وقال بعض: مجنون، وقال بعض: ساحر ومجنون لجمع القائلون فى الضمير ودلت ـ أو ـ على التفصيل انتهى فلا تغفل .

واستشكلت الآية بأنها تدل على أنه مامن رسول إلا كذب مع أن الرسل المقررين شريعة من قبلهم كيوشع عليه السلام لم يكذبوا وكذا آدم عليه السلام أرسل ولم يكذب . وأجاب الامام بقوله : لانسلم أن المقرر رسول بل هو نبي على دين رسول ومن كذب رسوله فهو يكذبه أيضاً وتعقب بأن الأخبار وكذا الآيات دالة على أن المقررين رسل، وأيضا يبقى الاستشكال بآدم عليه السلام وقد اعترف هو بأنه أرسل ولم يكذب وأجاب بعض عن الاستشكال بالمقررين بأن الآية إنما تدل على أن الرسل الذين أتوا من قبلهم كلهم قد قيل فى حقهم ما قيل، ولا يدخل فى عموم ذلك المقررون لان المتبادر من إتيان الرسول قوما مجيئه إياهم مع عدم تبليغ غيره إياهم ماأتى به من قبله وذلك لم يحصل للمقرر شرع من قبله كما لايخفى ، وعن الاستشكال بآدم عليه السلام بأن المراد ـ ماأتى الذين من قبلهم من الامم الذين كانوا موجودين على نحو وجود هؤلاء رسول إلا قالوا ـ الخ ، وآدم عليه السلام لم يأت أمة كذلك إذ لم يكن حين أرسل إلا زوجته حواء ، ولعله أولى مما قيل : إن المراد من رسول من بنى آدم فلا يدخل هو عليه السلام فى ذلك، واستشكلت أيضا بأن (إلاقالوا) يدل على أنهم كلهم كذبوا مع أنه ما من رسول إلا آمن به قوم، وأجاب الامام بأن إسناد القول إلى ضمير الجمع على إرادة الكثير بل الأكثر ، وذكر المكذب فقط لأنه الأوفق بغرض التسلية ، وأخذ منه بعضهم الجواب عن الاستشكال السابق فقال : الحكم باعتبار الغالب لا أن كل أمة من الامم أتاها رسول فكذبته ليرد آدم والمقررون حيث لم يكذبوا ـ وفيه مافيه ـ وحمل بعضهم الذين من قبلهم على الكفار ودفع به الاستشكالين ـ وفيه مالايخفى ـ فتأمل جميع ذلك ولا تظن انحصار الجواب فيما سمعت فأمعن النظر والله تعالى الهادى لأحسن المسالك ﴿أَتَوَاصَوْاْ به﴾ تعجيب من إجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة أى كأن الاولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول حتى قالوه جميعاً ، وقيل : إنكار للتواصى أى ماتواصوا به .

Marfat.com

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ٥٣ ﴾ إضراب عن أن التواصى جامعهم إلى أن الجامع لهم على ذلك القول مشاركتهم فى الطغيان الحامل عليه *

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عن جدالهم فقد كررت عليهم الدعوة ولم تأل جهداً فى البيان فأبوا إلا إباءاً وعناداً ﴿ فَمَآ أَنْتَ بِمَلُومٍ ٥٤ ﴾ على التولى بعد مابذلت المجهود وجاوزت فى الابلوغ كل حد معهود *

﴿ وَذَكِّرْ ﴾ آدم على فعل التذكير والموعظة ولاتدع ذلك ؛ فالأمر بالتذكير للدوام عليه والفعل منزل منزلة اللازم ، وجوز أن يكون المفعول محذوفا أى فذكرهم وحذف لظهور الامر *

﴿ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٥٥ ﴾ أى الذين قدر الله تعالى إيمانهم ، أو المؤمنين بالفعل فإنها تزيدهم بصيرة وقوة فى اليقين ، وفى البحر يدل ظاهر الآية على الموادعة وهى منسوخة بآية السيف ، وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله تعالى : (فتول عنهم) الخ ، قال: أمره الله تعالى أن يتولى عنهم ليعذبهم وعذر محمداً ﷺ ثم قال سبحانه : (وذكر) الخ فنسختها *

وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم . والبيهقى فى الشعب . والضياء فى المختارة . وجماعة من طريق مجاهد عن على كرم الله تعالى وجهه قال : لما نزلت (فتول عنهم فما أنت بملوم) لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة إذ أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتولى عنا فنزلت (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) فطابت أنفسنا ، وعن قتادة أنهم ظنوا أن الوحى قد انقطع وأن العذاب قد حضر فأنزل الله تعالى (وذكر) الخ *

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦ ﴾ استئناف مؤكد للامر مقرر لمضمون تعليله فان خلقهم للذكر سبحانه وتعالى مما يدعوه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى تذكيرهم ويوجب عليهم التذكر والاتعاظ ، ولعل تقديم الجن فى الذكر لتقدم خلقهم على خلق الانس فى الوجود ، والظاهر أن المراد من يقابلون بهم وبالملائكة عليهم السلام ولم يذكر هؤلاء قيل : لأن الامر فيهم مسلم ، أو لأن الآية سيقت لبيان صنيع المكذبين حيث تركوا عبادة الله تعالى وقد خلقوا لها ؛ وهذا الترك مما لايكون فيهم بل هم عباد مكرمون لايستكبرون عن عبادته عز وجل ، وقيل : لانه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس مبعوثاً اليهم فليس ذكرهم فى هذا الحكم مما يدعوه عليه الصلاة والسلام إلى تذكيرهم ، وأنت تعلم أن الاصح عموم البعثة فالاولى ماقيل بدله لاستغنائهم عن التذكير والموعظة ، وقيل : المراد بالجن مايتناولهم لانه من الاستتار وهم مستترون عن الانس ، وقيل : لايصح ذكرهم فى حيز الخلق لانهم كالأرواح من عالم الأمر المقابل لعالم الخلق ، وقد أشير اليهما بقوله تعالى : (له الخلق والامر) ورد بقوله سبحانه : (خالق كل شئ وله الخلق والامر) ليس كما ظن والعبادة غاية التذلل ، والظاهر أن المراد بها ماكانت بالاختيار دون التى بالتسخير الثابتة لجميع المخلوقات وهى الدلالة المنبهة على كونها مخلوقة وأنها خلق فاعل حكيم ، ويعبر عنها بالسجود كما فى قوله تعالى : (والنجم والشجر يسجدان) وأل فى الجن والانس على المشهور للاستغراق ، واللام قيل : للغاية والعبادة وإن لم تكن غاية مطلوبة من الخلق لقيام الدليل على أنه عز وجل لم يخلق الجن والانس لاجلها أى لارادتها منهم إذ لو أرادها سبحانه منهم لم يتخلف ذلك لاستلزام

Marfat.com

الإرادة الالهـية للمراد كما بين فى الاصول مع أن التخلف محقق بالمشاهدة، وأيضا ظاهر قوله تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس) يدل على إرادة المعاصى من الكثير ليستحقوا بها جهنم فينافى إرادة العبادة لكن لما كان خلقهم على حالة صالحة للعبادة مستعدة لها حيث ركب سبحانه فيهم عقولا وجعل لهم حواس ظاهرة وباطنة إلى غير ذلك من وجوه الاستعداد جعل خلقهم مغياً بها مبالغة بتشبيه المعدّ له الشئ بالغاية ومثله شائع فى العرف، ألا تراهم يقولون للقوى جسمه: هو مخلوق للمصارعة، وللبقر: هى مخلوقة للحرث *

وفى الكشف أن أفعاله تعالى تنساق إلى الغايات الكمالية واللام فيها موضوعها ذلك، وأما الارادة فليست من مقتضى اللام إلا إذا علم أن الباعث مطلوب فى نفسه وعلى هذا لا يحتاج إلى تأويل فانهم خلقوا بحيث يتأتى منهم العبادة وهدوا اليها وجعلت تلك غاية كمالية لخلقهم، وتعوق بعضهم عن الوصول اليها لا يمنع كون الغاية غاية، وهذا معنى مكشوف انتهى. فتأمل، وقيل: المراد بالعبادة التذلل والخضوع بالتسخير، وظاهر أن الكل عابدون إياه تعالى بذلك المعنى لا فرق بين مؤمن، وكافر، وبر، وفاجر، ونحوه ماقيل: المعنى ماخلقت الجن والانس إلا ليذلوا لقضائى، وقيل: المعنى ماخلقتهم إلا ليكونوا عباداً لى، ويراد بالعبد العبد بالايجاد وعموم الوصف عليه ظاهر لقوله تعالى: (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) لكن قيل عليه: إن عبد بمعنى صار عبداً ليس من اللغة فى شىء، وقيل: العبادة بمعنى التوحيد بناءاً على ما روى عن ابن عباس أن كل عبادة فى القرآن فهو توحيد فالكل يوحدونه تعالى فى الآخرة أما توحيد المؤمن فى الدنيا هناك فظاهر، وأما توحيد المشرك فيدل عليه قوله تعالى: (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) وعليه قول من قال: لا يدخل النار كافر، أو المراد كما قال الكلبى: إن المؤمن يوحده فى الشدة والرخاء والكافر يوحده سبحانه فى الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء، كما قال عز وجل: (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) ولا يخفى بعد ذلك عن الظاهر والسياق، ونقل عن على كرم الله تعالى وجهه، وابن عباس رضى الله تعالى عنهما ما خلقتهم إلا لآمرهم وأدعوهم للعبادة فهو كقوله تعالى: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) فذكر العبادة المسببة شرعاً عن الأمر أو اللازمة له، وأريد سببها أو ملزومها فهو مجاز مرسل، وأنت تعلم أن أمر كل من أفراد الجن وكل من أفراد الانس غير متحقق لاسيما إذا كان غير المكلفين كالأطفال الذين يموتون قبل زمان التكليف داخلين فى العموم، وقال مجاهد: إن معنى (ليعبدون) ليعرفون وهو مجاز مرسل أيضاً من إطلاق اسم السبب على المسبب على ما فى الارشاد، ولعل السر فيه التنبيه على أن المعتبر هى المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة قيل: وهو حسن لأنهم لو لم يخلقهم عز وجل لم يعرف وجوده وتوحيده سبحانه وتعالى، وقد جاء «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف» وتعقب بأن المعرفة الصحيحة لم تتحقق فى كل بل بعض قد أنكر وجوده عز وجل كالطبيعيين اليوم فلا بد من القول السابق فى توجيه التعليل ثم الخبر بهذا اللفظ ذكره سعد الدين سعيد الفرغانى فى منتهى المدارك، وذكر غيره كالشيخ الأكبر فى الباب المائة والثمانية والتسعين من الفتوحات بلفظ آخر وتعقبه الحفاظ فقال ابن تيمية: إنه ليس من كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وكذا قال الزركشى والحافظ ابن حجر، وغيرهما: ومن

Marfat.com

يرويه من الصوفية معترف بعدم ثبوته نقلا لـكن يقول : إنه ثابت كشفاً ، وقد نص على ذلك الشيخ الأكبر قدس سره فى الباب المذكور ، والتصحيح الـكشفى شنشنة لهم ، ومع ذلك فيه إشكال معنى إلا أنه أجيب عنه ثلاث أجوبة ستأتى إن شاء الله تعالى ، وقيـل : أل فى (الجن والانس) للعهد ، والمراد بهم المؤمنون لقوله تعالى : (ولقد ذرأنا) الآية أى بناءاً على أن اللام فيها ليست للعاقبة ، ونسب هذا القول لزيد بن أسـلم . وسفيان ، وأيد بقوله تعالى قبل : (فان الذكرى تنفع المؤمنين) وأيده فى البحر برواية ابن عباس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين » ورواها بعضهم قراءة لابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، ومن الناس من جعلها للجنس ، وقال . يكفى فى ثبوت الحـكم له ثبوته لبعض أفراده وهو هنا المؤمنون الطائعون وهو فى المآل متحد مع سابقه ، ولا إشكال على ذلك فى جعل اللام للغاية المطلوبة حقيقة وكذا فى جعلها للغرض عند من يجوز تعليل أفعاله تعالى بالأغراض مع بقاء الغنى الذاتى وعدم الاستـكمال بالغير ـ كما ذهب اليه كثير من السلف ، والمحدثين ـ وقد سمعت أن منهم من يقسم الارادة إلى شرعية تتعلق بالطاعات وتـكوينية تتعلق بالمعاصى وغيرها ، وعليه يجوز أن يبقى (الجن والإنس) على شمولهما للعاصين ، ويقال : إن العبادة مرادة منهم أيضاً لـكن بالارادة الشرعية إلا أنه لا يتم إلا إذا كانت هـــذه الارادة لا تستلزم وقوع المراد كالارادة التفويضية القائل بها المعتزلة *

هذا وإذا أحطت خبراً بالأقوال فى تفسير هذه الآية هان عليك دفع مايتراءى من المنافاة بينها وبين قوله تعالى : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) على تقدير كون الاشارة إلى الاختلاف بالتزام بعض هاتيك الأقوال فيها ، ودفعه بعضهم بكون اللام فى تلك الآية للعاقبة والذى ينساق إلى الذهن أن الحصر إضافى أى خلقتهم للعبادة دون ضدها أو دون طلب الرزق والاطعام على مايشير اليه كلام بعضهم أخذاً من تعقيب ذلك بقوله سبحانه : ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ٥٧ ﴾ وهو لبيان أن شأنه تعالى شأنه مع عباده ليس كشأن السادة مع عبيدهم لأنهم إنما يملـكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم وأرزاقهم ، ومالك ملاك العبيد نفى عز وجل أن يكون ملكه إياهم لذلك فكأنه قال سبحانه : ماأريد أن أستعين بهم كما يستعين ملاك العبيد بعبيدهم فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتى ، وذكر الامام فيه وجهين : الأول أن يكون لدفع توهم الحاجة من خلقهم للعبادة ، والثانى أن يكون لتقرير كونهم مخلوقين لها ، وبين هذا بأن الفعل فى العرف لا بد له من منفعة لـكن العبيد على قسمين : قسم يتخذون لاظهار العظمة بالمثول بين أيادى ساداتهم وتعظيمهم إياهم كعبيد الملوك ، وقسم يتخذون للانتفاع بهـــم فى تحصيل الأرزاق أو لاصلاحها ، فـكأنه قال سبحانه : إنى خلقتهم ولا بد فيهم من منفعة فليتفـكروا فى أنفسهم هل هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق وليسوا كذلك فما أريد منهم من رزق ، وهل هم ممن يطلب منهم إصـلاح قوت كالطباخ ومن يقرب الطعام ؟ وليسوا كذلك (فما أريد أن يطعمون) فاذا هم عبيد من القسم الأول ، فينبغى أن لا يتركوا التعظيم ، والظاهر أن المعنى ما أريد منهم من رزق لى لـكان قوله سبحانه : (وما أريد أن يطعمون) واليه ذهب الامام ؛ وذكر فى الآية لطائف : الاولى أنه سبحانه كرر نفى الارادتين لان السيد قد يطلب من العبـد التـكسب له وهو طلب الرزق وقد لا يطلب حيث كان له مال وافر لـكنه يطلب قضاء

Marfat.com

حوائجه من حفظ المال وإحضار الطعام من ماله بين يديه،فنفى الارادة الاولى لا يستلزم نفى الارادة الثانية فكرر النهى على معنى لا أريد هذا ولا أريد ذلك ، الثانية أن ترتيب النفيين كما تضمنه النظم الجليل من باب الترقى فى بيان غناه عز وجل كأنه قال سبحانه : لا أطلب منهم رزقاً ولا ماهو دون ذلك وهو تقديم الطعام بين يدى السيد فان ذلك أمر كثيراً ما يطلب من العبيد إذا كان التكسب لا يطلب منهم ، الثالثة أنه سبحانه قال: ما أريد منهم من رزق دون ما أريد منهم أن يرزقون لان التكسب لطلب العين لا الفعل ، وقال سبحانه : (ما أريد أن يطعمون) دون ما أريد من طعام لأن ذلك الإشارة الى الاستغناء عما يفعله العبد الغير المأمور بالتكسب كعبد وافر المال والحاجة اليه للفعل نفسه ، الرابعة أنه جل وعلا خص الاطعام بالذكر لأن أدنى درجات الاستعانة أن يستعين السيد بعبده فى تهيئة أمر الطعام ونفى الأدنى يتبعه نفى الأعلى بطريق الأولى فكأنه قيل : ما أريد منهم من عين ولا عمل ، الخامسة أن (ما) لنفى الحال إلا أن المراد به الدنيا وتعرض له دون نفى الاستقبال لأن من المعلوم البين أن العبد بعد موته لا يصلح أن يطلب منه رزق أو إطعام انتهى ، فتأمله *

ويفهم من ظاهر كلام الزمخشرى أن المعنى ماأريد منهم من رزق لى ولهم ، وفى البحر ما أريد منهم من رزق أى أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم (وما أريدأن يطعمون) أى أن يطعموا خلقى فهو على حذف مضاف قاله ابن عباس انتهى ، ونحوه ماقيل : المعنى ماأريد أن يرزقوا أحداً من خلقى ولا أريد أن يطعموه ، وأسند الإطعام إلى نفسه سبحانه لأن الخلق كلهم عيال الله تعالى . ومن أطعم عيال أحد فكأنما أطعمه ، وفى الحديث « ياعبدى مرضت فلم تعدنى وجعت فلم تطعمنى » فانه كما يدل عليه آخره على معنى مرض عبدى فلم تعده وجاع فلم تطعمه ؛ وقيل : الآية مقدرة بقل فتكون بمعنى قوله سبحانه : (قل لاأسألكم عليه أجراً) والغيبة فيها رعاية للحكاية إذ فى مثل ذلك يجوز الأمران الغيبة والخطاب ، وقد قرئ بهما فى قوله تعالى : (قل للذين كفروا ستغلبون) ، وقيل : المراد قل لهم وفى حقهم فتلائمه الغيبة فى (منهم) و (يطعمون) ولا ينافى ذلك قراءة- أنى أنا الرزاق- فيما بعد لانه حينئذ تعليل للأمر بالقول ، أو الائتمار لالعدم الارادة ، نعم لاشك فى أنه قول بعيد جداً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ الذى يرزق كل مفتقر إلى الرزق لاغيره سبحانه استقلالا ؛ أو اشتراكا و يفهم من ذلك استغناؤه عز وجل عن الرزق ﴿ ذُو ٱلْقُوَّةِ ﴾ أى القدرة ﴿ ٱلْمَتِينُ ٥٨ ﴾ شديد القوة ، والجملة تعليل لعدم الارادة قال الامام : كونه تعالى هو الرزاق ناظر إلى عدم طلب الرزق لأن من يطلبه يكون فقيراً محتاجا ، وكونه عز وجل هو ذو القوة المتين ناظر إلى عدم طلب العمل المراد من قوله سبحانه: (وما أريد أن يطعمون) لأن من يطلبه يكون عاجزاً لاقوة له فكأنه قيل : ما أريد منهم من رزق لأنى أنا الرزاق وما أريد منهم من عمل لأنى قوى متين ، وكان الظاهر - أنى أنا الرزاق - كما جاء فى قراءة له ﷺ لكن التفت إلى الغيبة ، والتعبير بالاسم الجليل لاشتهاره بمعنى المعبودية فيكون فى ذلك إشعار بعلة الحكم ولتخرج الآية مخرج المثل كما قيل ذلك فى قوله تعالى : (إن الباطل كان زهوقاً) والتعبير به على القول بتقدير قل فيما تقدم هو الظاهر ، وتحتاج القراءة الاخرى إلى ماذكرناه آنفا ، وآثر سبحانه ذو القوة على القوى قيل : لأن فى (ذو) كما قال ابن حجر الهيتمى وغيره تعظيم ما أضيفت اليه ، والموصوف بها والمقام يقتضيه ولذا جئ

Marfat.com

بالمتين بعد ولم يكتف به عن الوصف بالقوة ؛ وقال الامام : لما كان المقصود تقرير ماتقدم من عدم إرادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير جئ بوصف الرزق على صيغة المبالغة لأنه بدونها لا يكفى فى تقرير عدم إرادة الرزق وبوصف القوة بما لامبالغة فيه لكفايته فى تقرير عدم الاستعانة فان من له قوة دون الغاية لا يستعين بغيره لكن لما لم يدل ذو القوة على أكثر من أن له تعالى قوة (ما) زيد الوصف بالمتين وهو الذى له ثبات لا يتزلزل ،ثم قال: إن القوى أبلغ من ذى القوة والعزة أكمل من المتانة وقد قرن الاكمل بالاكمل وما دونه بما دونه فى قوله تعالى:(ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز) وفى قوله تعالى : (إن الله هو الرزاق) الخ لما اقتضى المقام ذلك ، وقد أطال الكلام فى هذا المقام وما أظنه يصفو عن كدر ، وقرأ ابن محيصن - الرازق- بزنة الفاعل ، وقرأ الاعمش . وابن وثاب - المتين- بالجر،وخرج على أنه صفة القوة ،وجاز ذلك مع تذكيره لتأويلها بالاقتدار أو لكونه على زنة المصادر التى يستوى فيها المذكر والمؤنث ، أولاجرائه مجرى فعيل بمعنى مفعول ، وأجاز أبو الفتح أن يكون صفة - لذو- وجر على الجوار- كقولهم هذا جحر ضب خرب -وضعف

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى إذا ثبت أن الله تعالى ماخلق الجن والانس إلا ليعبدوه وأنه سبحانه مايريد منهم من رزق إلى آخر ماتقدم فان للذين ظلموا أنفسهم باشتغالهم بغير ماخلقوا له من العبادة وإشراكهم بالله عز وجل وتكذيبهم رسوله عليه الصلاة والسلام وهم أهل مكة وأضرابهم من كفار العرب ﴿ ذَنُوباً ﴾ أى نصيبا من العذاب ﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ ﴾ أى نصيب ﴿ أَصْحَابِهِمْ ﴾ أى نظرائهم من الامم السالفة ،وأصل الذنوب الدلو العظيمة الممتلئة ماءآ،أو القريبة من الامتلاء،قال الجوهرى : ولا يقال لها ذنوب وهى فارغة ،وهى تذكر وتؤنث وجمعها أذنبة وذنائب فاستعيرت للنصيب مطلقاً شراً كان كالنصيب من العذاب فى الآية ،أو خيراً كما فى العطاء فى قول علقمة بن عبدة التميمى يمدح الحرث بن أبى شمر الغسانى وكان أسر أخاه شأسا يوم عين أباغ:

وفى كل حى قد خبطت بنعمة فحق لشأس من نداك (ذنوب)

يروى أن الحرث لما سمع هذا البيت قال نعم وأذنبة (١) ومن استعمالها فى النصيب قول الاخر :

لعمرك والمنايا طارقات لكل بنى أب منها(ذنوب)

وهو استعمال شائع ، وفى الكشاف هذا تمثيل أصله فى السقاة يقتسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب قال الراجز :

إنا إذا نازلنا غريب له (ذنوب) ولنا (ذنوب) وإن أبيتم فلنا القليب

﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ٥٩ ﴾ أى لا يطلبوا منى أن أعجل فى الاتيان به يقال استعجله أى حثه على العجلة وطلبها منه ، ويقال: استعجلت كذا أن طلبت وقوعه بالعجلة ، ومنه قوله تعالى : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وهو على مافى الارشاد جواب لقولهم : (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(١) « شأس » هو جد علقمة بن عبيدة مدح بهذه القصيدة الحرث بن أبى شمر الغسانى لما كان عنده أسيراً فأمر باطلاقه وجميع أسرى بنى تميم و« الخابط» الطالب ، ومعنى البيت أنت الذى أنعمت على كل حى بنعمة واستحق نداك ذنوباً اه إدارة الطباعة

Marfat.com

أى فويل لهم، ووضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بما فى حيز الصلة من الكفر وإشعاراً بعلة الحكم، والفاء لترتيب ثبوت الويل لهم على أن لهم عذاباً عظيما كما أن الفاء التى قبلها لترتيب النهى عن الاستعجال على ذلك ، و (مِنْ) فى قوله سبحانه : ﴿ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ٦٠ ﴾ للتعليل ؛ والعائد على الموصول محذوف أى يوعدونه أو يوعدون به على قول ، والمراد بذلك اليوم قيل: يوم بدر، ورجح بأنه الأوفق لما قبله من حيث أنه ذنوب من العذاب الدنيوى ، وقيل : يوم القيامة ، ورجح بأنه الأنسب لما فى صدر السورة الكريمة الآتية ، والله تعالى أعلم.

ومما قاله بعض أهل الاشارة فى بعض الآيات : (والذاريات ذروا) إشارة إلى الرياح التى تحمل أنين المشتاقين المتعرضين لنفحات الألطاف إلى ساحات العزة ، ثم تأتى بنسيم نفحات الحق إلى مشام المحبين فيجدون راحة تامن غلبات اللوعة (فالحاملات وقرا) إشارة إلى سحائب ألطاف الألوهية تحمل أمطار مراحم الربوبية فتمطر على قلوب الصديقين (فالجاريات يسرا) إشارة إلى سفن أفئدة المحبين تجرى برياح العناية فى بحر التوحيد على أيسر حال (فالمقسمات أمرا) إشارة إلى الملائكة النازلين من حظائر القدس بالبشائر والمعارف على قلوب أهل الاستقامة ، وإن شئت جعلت الكل إشارة إلى أنواع رياح العناية فمنها مايطير بالقلوب فى جو الغيوب، وقد قال العاشق المجازى :

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه فقد كاد رياها يطير بلبه
وإيا كما ذاك النسيم فانه متى هب كان الوجد أيسر خطبه

ومنها (الحاملات وقرا) دواء قلوب العاشقين كما قيل :

أيا جبلى نعمان بالله خليا نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها
أجد بردها أو تشف منى حرارة على كبد لم يبق إلا صميمها
فان الصبا ريح إذا ماتنسمت على نفس مهموم تجلت همومها

ومنها (الجاريات) من مهاب حضرات القدس إلى أفئدة أهل الانس بسهولة لتنعش قلوبهم ، ومنها (المقسمات) ما جاءت به مما عبق بها من آثار الحضرة الإلهية على نفوس المستعدين حسب استعداداتهم وإن شئت قلت غير ذلك فالباب واسع (والسماء ذات الحبك) إشارة إلى سماء القلب فانها ذات طرائق إلى الله عز وجل (إن المتقين فى جنات وعيون) إشارة إلى جنات الوصال وعيون الحكمة (وبالأسحار هم يستغفرون) يطلبون غفر أى ستر وجودهم بوجود محبوبهم ، أو يطلبون غفران ذنب رؤية عبادتهم من أول الليل إلى السحر (ومن كل شىء خلقنا زوجين) إشارة إلى أن جميع ما يرى بارزاً من الموجودات ليس واحداً وحدة حقيقية بل هو مركب ولا أقل من كونه مركباً من الامكان ، وشىء آخر فليس الواحد الحقيقى إلا الله تعالى الذى حقيقته سبحانه إنيته (ففروا الى الله) بترك ما سواه عز وجل (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) أى ليعرفون ، وهو عندهم إشارة إلى ما صححوه كشفاً من روايته صلى الله تعالى عليه وسلم عن ربه سبحانه أنه قال: « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف) وفى كتاب الأنوار السنية للسيد نور الدين السمهودى بلفظ «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت هذا الخلق ليعرفونى فبي عرفونى » وفى المقاصد الحسنة للسخاوى بلفظ « كنت كنزاً لا أعرف فخلقت خلقاً فعرفتهم بى

Marfat.com

فعرفونى »إلى غير ذلك،وهو مشكل لأن الخفاء أمر نسبى فلا بد فيه من مخفى ومخفى عنه فحيث لم يكن خلق لم يكن مخفى عنه فلا يتحقق الخفاء،وأجيب أولا بأن الخفاء عن الأعيان الثابتة لأن الأشياء فى ثبوتها لا إدراك لها وجودياً فكان الله سبحانه مخفياً عنها غير معروف لها معرفة وجودية ـ فأحب أن يعرف معرفة حادثة من موجود حادث ـ فخلق الخلق لأن معرفتهم الوجودية فرع وجودهم فتعرف سبحانه إليهم بأنواع التجليات على حسب تفاوت الاستعدادات فعرفوا أنفسهم بالتجليات فعرفوا الله تعالى من ذلك فيه سبحانه عرفوه،وثانيا بأن المراد بالخفاء لازمه وهو عدم معرفة أحد به جل وعلا ، ويؤيده مافى لفظ السخاوى من قوله: لاأعرف بدل مخفياً ، وثالثاً بأن مخفيا بمعنى ظاهراً من أخفاه أى أظهره على أن الهمزة للازالة أى أزال خفاءه،وترتيب قوله سبحانه: « فأحببت أن أعرف » الخ عليه باعتبار أن الظهور متى كان قوياً أوجب الجهالة بحال الظاهر فخلق سبحانه الخلق ليكونوا كالحجاب فيتمكن معه من المعرفة ، ألا يرى أن الشمس لشدة ظهورها لاتستطيع أكثر الابصار الوقوف على حالها إلا بواسطة وضع بعض الحجب بينها وبينها وهو كما ترى لايخلو عن بحث ، وأما إطلاق الكنز عليه عز وجل فقد ورد ، روى الديلمى فى مسنده عن أنس مرفوعا كنز المؤمن ربه أى فان منه سبحانه كل ماينا له من أمر نفيس فى الدارين ، والشيخ محيى الدين قدس سره ذكر فى معنى الكنز غير ذلك فقال فى الباب الثلثمائة والثمانية والخمسين من فتوحاته : لولم يكن فى العالم من هو على صورة الحق ماحصل المقصود من العلم بالحق أعنى العلم الحادث فى قوله : « كنت كنزاً » الخ فجعل نفسه كنزاً ، والكنز لايكون إلا مكتنزاً فى شئ فلم يكن كنز الحق نفسه إلا فى صورة الانسان الكامل فى شيئية ثبوته هناك كان الحق مكنوزاً فلما ألبس الحق الانسان ثوب شيئية الوجود ظهر الكنز بظهوره فعرفه الانسان الكامل بوجوده وعلم أنه سبحانه كان مكنوزاً فيه فى شيئية ثبوته وهو لايشعر به انتهى ، وهو منطق الطير الذى لانعرفه نسأل الله تعالى التوفيق لما يحب ويرضى بمنه وكرمه ٭

﴿ سورة الطور ﴾

﴿ مكية ﴾ كما روى عن ابن عباس . وابن الزبير رضى الله تعالى عنهم ولم نقف على استثناء شىء منها،وهى تسع وأربعون آية فى الكوفى والشامى ، وثمان وأربعون فى البصرى ، وسبع وأربعون فى الحجازى،ومناسبة أولها لآخر ماقبلها اشتمال كل على الوعيد ، وقال الجلال السيوطى : وجه وضعها بعد الذاريات تشابههما فى المطلع والمقطع فان فى مطلع كل منهما صفة حال المتقين،وفى مقطع كل منهما صفة حال الكفار،ولايخفى مابين السورتين الكريمتين من الاشتراك فى غير ذلك ٭

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلطُّورِ ١ ﴾ الطور اسم لكل جبل على ماقيل: فى اللغة العربية عند الجمهور، وفى اللغة السريانية عند بعض ، ورواه ابن المنذر . وابن جرير عن مجاهد،والمراد به هنا (طور سينين) الذى كلم الله تعالى موسى عليه السلام عنده ، ويقال له : طور سيناء أيضا.والمعروف اليوم بذلك ماهو بقرب التيه بين مصر والعقبة ، وقال أبو حيان فى تفسير سورة (والتين): لم يختلف فى طور سيناء أنه جبل بالشام وهو الذى كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام ، وقال فى تفسيره : هذه السورة فى الشام جبل يسمى الطور وهو طور سيناء فقال نوف البكالى : إنه الذى أقسم الله سبحانه به لفضله على الجبال ، قيل: وهو الذى كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام انتهى فلا تغفل ، وحكى الراغب أنه جبل محيط بالأرض ولايصح عندى،وقيل: جبل من جبال

Marfat.com

الجنة،وروى فيه ابن مردويه عن أبى هريرة ، وعن كثير بن عبدالله حديثاً مرفوعاً ولاأظن صحته،واستظهر أبو حيان أن المراد الجنس لاجبل معين،وروى ذلك عن مجاهد . والكلبي ، والذى أعول عليه ماقدمته ۞

﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ٢ ﴾ مكتوب على وجه الانتظام فان السطر ترتيب الحروف المكتوبة ، والمرادبه على ماقال الفراء الكتاب الذى يكتب فيه الاعمال ويعطاه العبد يوم القيامة بيمينه أو بشماله وهو المذكور فى قوله تعالى: (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً) ، وقال الكلبي: هو التوراة،وقيل: هى.والانجيل.والزبور وقيل:القرآن ، وقيل:اللوح المحفوظ ، وفى البحر لاينبغى أن يحمل شئ من هذه الاقوال على التعيين وإنما تورد، على الاحتمال،والتنكير قيل:للافراد نوعا،وذلك على القول بتعدده،أو للافراد شخصاً،وذلك على القول المقابل، وفائدته الدلالة على اختصاصه من جنس الكتب بأمر يتميز به عن سائرها ، والاولى على وجهى التنكير إذا حمل على أحد الكتابين أعنى القرآن والتوراة أن يكون من باب (ليجزى قوما) ففى التنكير كمال التعريف، والتنبيه على أن ذلك الكتاب لايخفى نكر أو عرف ، ومن هذا القبيل التنكير فى قوله تعالى :

﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ٣ ﴾ والرق بالفتح ويكسر ، وبه قرأ أبو السمال جلد رقيق يكتب فيه وجمعه رقوق وأصله على مافى مجمع البيان من اللمعان يقال . ترقرق الشئ إذا لمع . أومن الرقة ضد الصفاقة على ماقيل ، وقد تجوز فيه عما يكتب فيه الكتاب من ألواح وغيرها . والمنشور المبسوط والوصف به قيل : للاشارة إلى صحة الكتاب وسلامته من الخطأ حيث جعل معرضاً لنظر كل ناظر آمنا عليه من الاعتراض لسلامته عما يوجبه ، وقيل : هو لبيان حاله التى تضمنتها الآية المذكورة آنفا بناءاً على أن المراد به صحائف الأعمال ولبيان أنه ظاهر للملائكة عليهم السلام يرجعون اليه بسهولة فى أمورهم بناءاً على أنه اللوح ، أو للناس لايمنعهم مانع عن مطالعته والاهتداء بهديه بناءاً على الأقوال الأخر، وفى البحر (منشور)منسوخ مابين المشرق والمغرب ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ٤ ﴾ هو بيت فى السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لايعودون اليه حتى تقوم الساعة كما أخرج ذلك ابن جرير . وابن المنذر . والحاكم وصححه . وابن مردويه . والبيهقى فى الشعب عن أنس مرفوعاً ۞

وأخرج عبد الرزاق . وجماعة عن أبى الطفيل أن ابن الكواء سأل علياً كرم الله تعالى وجهه فقال ذلك الضُّرَاحُ بيت فوق سبع سموات تحت العرش يدخله كل يوم سبعون ألف ملك الخ ، وجاء فى رواية عنه كرم الله تعالى وجهه ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه حيال الكعبة بحيث لوسقط سقط عليها ۞

وروى عن مجاهد . وقتادة . وابن زيد أن فى كل سماء بحيال الكعبة بيتاً حرمته كحرمتها وعمارته بكثرة الواردين عليه من الملائكة عليهم السلام كما سمعت ، وقال الحسن:هو الكعبة يعمره الله تعالى كل سنة بستمائة ألف من الناس فان نقصوا أتم سبحانه العدد من الملائكة، وأنت تعلم أن من المجاز المشهور مكان معمور - بمعنى مأهول مسكون تحل الناس فى محل هو فيه،فعمارة الكعبة بالمجاورين عندها وبحجاجها صح خبر الحسن المذكور أم لا ﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ٥ ﴾ أى السماء كما رواه جماعة،وصححه الحاكم عن الامير كرم الله تعالى وجهه وعن ابن عباس هو العرش وهو سقف الجنة ، وأخرجه أبو الشيخ عن الربيع بن أنس ، وعليه لابأس فى تفسير البيت المعمور بالسماء كما روى عن مجاهد ، وعمارتها بالملائكة أيضا فما فيها موضع إهاب إلا وعليه ملك ساجد

Marfat.com

أو قائم ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ٦ ﴾ أى الموقد ناراً ۞

أخرج ابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . وأبو الشيخ فى العظمة عن سعيد بن المسيب قال : قال على كرم الله تعالى وجهه لرجل من اليهود : أين موضع النار فى كتابكم ؟ قال: البحر فقال كرم الله تعالى وجهه: ماأراه إلا صادقا ، وقرأ (والبحر المسجور) (وإذا البحار سجرت) وبذلك قال مجاهد . وشمر بن عطية . والضحاك . ومحمد بن كعب . والأخفش ، وقال قتادة : المسجور المملوء يقال : سجره أى ملأه ، والمراد به عند جمع البحر المحيط ، وقيل : بحر فى السماء تحت العرش ، وأخرج ذلك ابن أبى حاتم وغيره عن على كرم الله تعالى وجهه ، وابن جرير عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ، وفى البحر إنهما قالا فيه ماء غليظ ، ويقال له : بحر الحياة يمطر العباد منه بعد النفخة الاولى أربعين صباحا فينبتون فى قبورهم ، وأخرج أبو الشيخ عن الربيع أنه الملأ الأعلى الذى تحت العرش وكأنه أراد به الفضاء الواسع المملوء ملائكة ، وعن ابن عباس (المسجور) الذى ذهب ماؤه ، وروى ذو الرمة الشاعر ، وليس له كما قيل حديث غير هذا عن الحبر قال : خرجت أمة لتستقى فقالت : إن الحوض مسجور أى فارغ فيكون من الاضداد ، وحمل كلامه رضى الله تعالى عنه على إرادة البحر المعروف ، وأن ذهاب مائه يوم القيامة ، وفى رواية عنه أنه فسره بالمحبوس ، ومنه ساجور الكلب وهى القلادة التى تمسكه وكأنه عنى المحبوس من أن يفيض فيغرق جميع الارض ، أو يغيض فتبقى الارض خالية منه ، وقيل : (المسجور) المختلط ، وهو نحو قولهم للخليل المخالط : سجير ، وجعله الراغب من سجرت التنور لأنه سجير فى مودة صاحبه ، والمراد بهذا الاختلاط تلاقى البحار بمياهها واختلاط بعضها ببعض ، وعن الربيع اختلاط عذبها بملحها ، وقيل : اختلاطها بحيوانات الماء ، وقيل : المفجور أخذاً من قوله تعالى : (وإذا البحار فجرت) ويحتمله ما أخرجه ابن المنذر عن ابن عباس من تفسيره بالمرسل ، وإذا اعتبر هذا مع ماتقدم عنه آنفا من تفسيره بالمحبوس يكون من الاضداد أيضا ، وقال منبه بن سعيد : هو جهنم سميت بحراً لسعتها وتموجها ، والجمهور على أن المراد به بحر الدنيا - وبه أقول - وبأن المسجور بمعنى الموقد ، ووجه التناسب بين القرائن بعد تعين ماسيق له الكلام لائح ، وهو ههنا إثبات تأكيد عذاب الآخرة وتحقيق كينونته ووقوعه ، فأقسم سبحانه له بأمور كلها دالة على كمال قدرته عز وجل مع كونها متعلقة بالمبدأ والمعاد ، فالطور لأنه محل مكالمة موسى عليه السلام ، ومهبط آيات البدأ والمعاد يناسب حديث إثبات المعاد وكتاب الاعمال كذلك مع الايماء إلى أن إيقاع العذاب عدل منه تعالى فقد تحقق ، ودون فى (الكتاب) مايجر اليه قبل ، (والبيت المعمور) لأنه مطاف الرسل السماوية ، ومظهر لعظمته تعالى ، ومحل لتقديسهم وتسبيحهم إياه جل وعلا ، (والسقف المرفوع) لأنه مستقرهم ومنه تنزل الآيات ، وفيه الجنة : (والبحر المسجور) لانه محل النار ، وإذا حمل الكتاب على التوراة كان التناسب مع ماقبله حسب النظر الجليل أظهر ولم يحمله عليها كثير لزعم أن - الرق المنشور - لاينا سبها لانها كانت فى الألواح ، ولايخفى عليك أن شيوع الرق فيما يكتب فيه الكتاب مطلقاً يضعف هذا الزعم فى الجملة ، ثم إن المعروف أن التوراة لا يكتبها اليهود اليوم إلا فى - رق - وكأنهم أخذوا ذلك من أسلافهم ، وقال الامام : يحتمل أن تكون الحكمة فى القسم - بالطور . والبيت المعمور . والبحر المسجور - أنها أماكن خلوة لثلاثة أنبياء مع ربهم سبحانه ، أما الطور فلموسى عليه السلام وقد خاطب عنده ربه عز وجل بما خاطب ، وأما البيت المعمور فلرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد قال عنده : « سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين لاأحصى

Marfat.com

ثناءآ عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ؛ وأما البحر فليونس عليه السلام قال فيه : (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) فلشرفها بذلك أقسم الله تعالى بها ، وأما ذكر (الكتاب) فلأن الانبياء كان لهم فى هذه الاماكن كلام والكلام فى الكتاب ، وأما ذكر السقف المرفوع فلبيان رفعة البيت المعمور ليعلم عظمة شأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم ذكر وجها آخر ، ولعمرى إنه لم يأت بشئ فيهما ، والواو الاولى للقسم ومابعدها على ماقال أبو حيان للعطف ، والجملة المقسم عليها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ٧ ﴾ أى لكائن على شدة كأنه مهيأ فى مكان مرتفع فيقع على من يحل به من الكفار ؛ وفى إضافته إلى الرب مع إضافة الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام أمان له صلى الله تعالى عليه وسلم وإشارة إلى أن العذاب واقع بمن كذبه ، وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما - واقع - بدون لام ، وقوله تعالى : ﴿ مَّالَهُۥ مِن دَافِعٍ ٨ ﴾ خبر ثان - لان - أوصفة (لواقع) أوهو جملة معترضة ، و (من دافع) إما مبتدأ للظرف أو مرتفع به على الفاعلية ، و(من) مزيدة للتأكيد ولايخفى مافى الكلام من تأكيد الحكم وتقريره ؛ وقد روى أن عمر رضى الله تعالى عنه قرأ من أول السورة إلى هنا فبكى ثم بكى حتى عيد من وجعه وكان عشرين يوما ، وأخرج أحمد . وسعيد بن منصور. وابن سعد عن جبير بن مطعم قال : قدمت المدينة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأكلمه فى أسارى بدر فدفعت اليه وهو يصلى بأصحابه صلاة المغرب فسمعته يقرأ (والطور) إلى (إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) فكأنما صدع قلبى ، وفى رواية فأسلمت خوفا من نزول العذاب وما كنت أظن أن أقوم من مقامى حتى يقع بى العذاب ، وهو لا يأبى أن يكون المراد الوقوع يوم القيامة ﴿ومن غريب مايحكى﴾ أن شخصاً رأى مكتوباً فى كفه خمس واوات فعبرت له بخير فسأل ابن سيرين فقال : تهيأ لما لا يسر فقال له : من أين أخذت هذا ؟ فقال : من قوله عزوجل : (والطور) إلى (إن عذاب ربك لواقع) فما مضى يومان أو ثلاثة حتى أحيط بذلك الشخص، وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ٩ ﴾ منصوب على الظرفية (١) وناصبه (واقع) أو (دافع) أومعنى النفى وإيهام أنه لا ينتفى دفعه فى غير ذلك اليوم بناءآ على اعتبار المفهوم لاضير فيه لعدم مخالفته للواقع لانه تعالى أمهلهم فى الدنيا ومااهملهم ، ومنع مكى أن يعمل فيه - واقع - ولم يذكر دليل المنع ولادليل له فيما يظهر ، ومعنى (تمور) تضطرب كما قال ابن عباس أى ترتج وهى فى مكانها ، وفى رواية عنه تشقق ، وقال مجاهد : تدور ، وأصل المور التردد فى المجئ والذهاب ، وقيل : التحرك فى تموج ، وقيل: الجريان السريع ، ويقال للجرى مطلقا وأنشدوا للأعشى

كأن مشيتها من بيت جارتها (مور السحابة لاريث ولاعجل)

﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ١٠ ﴾ عن وجه الارض فتكون هباءآ منبثاً ، والإتيان بالمصدرين للايذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة أى مورآ عجيباً وسيراً بديعاً لايدرك كنههما ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى إذا وقع ذلك (٢) أو إذا كان الامر كما ذكر فويل يوم إذ يقع ذلك ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢ ﴾ أى فى اندفاع عجيب فى الاباطيل والاكاذيب يلهون ، وأصل الخوض المشى فى الماء ثم تجوز فيه عن الشروع

(١) لانه مفعول فيه (٢) يشير إلى أن الفاء فصيحة فى جواب شرط مقدر ، اه إدارة الطباعة

Marfat.com

فى كل شئ وغلب فى الخوض فى الباطل كالاحضار عام فى كل شئ ثم غلب استعماله فى الاحضار للعذاب *

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣ ﴾ أى يدفعون دفعاً عنيفاً شديداً بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار ويطرحون فيها ، وقرأ زيد بن على . والسلمى . وأبو رجاء (يدعون) بسكون الدال وفتح العين من الدعاء فيكون (دعا) حالا أى ينادون اليها مدعوعين (١) و (يوم) إما بدل من يوم (تمور) أوظرف لقول مقدر محكى به قوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ ﴾ أى فيقال لهم ذلك (يوم) الخ ، ومعنى التكذيب بها تكذيبهم بالوحى الناطق بها ، وقوله تعالى :

﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾ توبيخ وتقريع لهم حيث كانوا يسمونه سحراً كأنه قيل: كنتم تقولون للوحى الذى أنذركم بهذا سحراً أفهذا المصدق له سحر أيضا وتقديم الخبر لأنه المقصود بالانكار والمدار للتوبيخ *

﴿ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥ ﴾ أى أم أنتم عمى عن المخبر به كما كنتم فى الدنيا عميا عن الخبر والفاء مؤذنة بما ذكر وذلك لأنها لما كانت تقتضى معطوفا عليه يصح ترتب الجملة أعنى سحر هذا عليه وكانت هذه جملة واردة تقريعا مثل هذه النار الخ لم يكن بد من تقدير ذلك على وجه يصح الترتب ويكون مدلولا عليه من السياق فقدر كنتم تقولون إلى آخره ، ودل عليه قوله تعالى: (فى خوض يلعبون) وقوله سبحانه: (هذه النار التى كنتم بها تكذبون) وفى الكشف إن هذا نظير ما تستدل بحجة فيقول الخصم: هذا باطل فتأتى بحجة أوضح من الأول مسكتة وتقول: أفباطل هذا ؟! تعيره بالالزام بأن مقالته الأولى كانت باطلة ، وفى مثله جاز أن يقدر القول على معنى أفتقول باطل هذا وأن لا يقدر لابتنائه على كلام الخصم وهذا أبلغ ، و(أم) كما هو الظاهر منقطعة ، وفى البحر لما قيل لهم : هذه النار وقفوا على الجهتين اللتين يمكن منهما دخول الشك فى أنها النار وهى إما أن يكون ثم سحر يلبس ذات المرأى ، وإما أن يكون فى ناظر الناظر اختلال ، والظاهر أنه جعل (أم) معادلة والأول أبعد مغزى *

﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾ أى ادخلوها وقاسوا شدائدها فافعلوا ماشئتم من الصبر وعدمه *

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى الامران سواء عليكم فى عدم النفع إذ كل لا يدفع العذاب ولا يخففه - فسواء - خبر مبتدأ محذوف وصح الإخبار به عن المثنى لانه مصدر فى الاصل ، وجوز كونه مبتدأ محذوف الخبر وليس بذاك ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦ ﴾ تعليل للاستواء فان الجزاء حيث كان متحتم الوقوع لسبق الوعيد به وقضائه سبحانه إياه بمقتضى عدله كان الصبر وعدمه مستويين فى عدم النفع *

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ١٧ ﴾ شروع فى ذكر حال المؤمنين بعد ذكر حال الكافرين كما هو عادة القرآن الجليل فى الترهيب والترغيب ، وجوز أن يكون من جملة المقول للكفار إذ ذاك زيادة فى غمهم وتنكيدهم والاول أظهر ، والتنوين فى الموضعين للتعظيم أى فى جنات عظيمة ونعيم عظيم ، وجوز أن يكون للنوعية أى نوع من الجنات ونوع من النعيم مخصوصين بهم وكونه عوضاً عن المضاف اليه أى جناتهم ونعيمهم ليس بالقوى كما لا يخفى *

﴿ فَٰكِهِينَ ﴾ متلذذين ﴿ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ من الاحسان ، وقرئ - فكهين - بلا ألف ، ونصبه فى القراءتين على الحال من الضمير المستتر فى الجار والمجرور أعنى فى جنات الواقع خبراً لان ، وقرأ خالد - فاكهون - بالرفع على أنه

(١) الحال مقدرة لان الدفع بعد الدعوة ، وقيل : إنها مقارنة باجراء قرب الوقوع مجرى المقارنة ؛ وفيه نظر

Marfat.com

الخبر ، وفى جنات متعلق به لكنه قدم عليه للاهتمام ، ومن أجاز تعدد الخبر أجاز أن يكون خبراً بعد خبر ﴿ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ١٨ ﴾ عطف على (فى جنات) على تقدير كونه خبراً كأنه قيل: استقروا (فى جنات) (ووقاهم ربهم) الخ، أو على (أتاهم) إن جعلت (ما) مصدرية أى فاكهين بإيتائهم ربهم ووقايتهم عذاب الجحيم، ولم يجوز كثير عطفه عليه إن جعلت موصولة إذ يكون التقدير فاكهين بالذى وقاهم ربهم فلا يكون راجعاً إلى الموصول؛ وجوزه بعض بتقدير الراجع أى وقاهم به على أن الباء للملابسة ، وفى الكشف لم يحمل على حذف الراجع لكثرة الحذف ولو درج لصاً ، والفعل من المتعدى إلى ثلاثة مفاعيل وهو مسموع عند بعضهم ، ولا يخفى أنه وجه سديد أيضاً ، والمعنى عليه أسد لأن الفكاهة تلذذ يشتغل به صاحبه والتلذذ بالايتاء يحتمل التجدد باعتبار تعدد المؤتى إما بالوقاية أى على تقدير المصدرية فلا ، وأقول لعله هو المنساق إلى الذهن، وجوز أن يكون حالا بتقدير قد أو بدونه إما من المستكن فى الخبر أو فى الحال. وإما من فاعل آتى. أو من مفعوله . أو منهما، وإظهار الرب فى موقع الاضمار مضافا إلى ضميرهم للتشريف والتعليل. وقرأ أبو حيوة (وقاهم) بتشديد القاف

﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا ﴾ أى يقال لهم (كلوا واشربوا) أكلا وشربا هنيئا ، أو طعاما وشرابا هنيئاً ، فالكلام بتقدير القول ، و(هنيئاً) نصب على المصدرية لانه صفة مصدر . أو على أنه مفعول به ، وأياً ما كان فقد تنازعه الفعلان ، والهنئ كل مالا يلحق فيه مشقة ولا يعقب وخامة ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٩ ﴾ أى بسببه أو بمقابلته والباء عليهما متعلق - بكلوا واشربوا - على التنازع ، وجوز الزمخشرى كونها زائدة وما بعدها فاعل هنيئاً كما فى قول كثير :

هنيئا مريئا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت (١)

فان ما فيه فاعل هنيئا على أنه صفة فى الاصل بمعنى المصدر المحذوف فعله وجوبا لكثرة الاستعمال كأنه قيل : هنؤ لعزة المستحل من أعراضنا ، وحينئذ كما يجوز أن يجعل ما هنا فاعلا على زيادة الباء على معنى هنأكم ما كنتم تعملون يجوز أن يجعل الفاعل مضمراً راجعاً إلى الاكل أو الشرب المدلول عليه بفعله ، وفيه أن الزيادة فى الفاعل لم تثبت سماعا فى السعة فى غير فاعل كفى على خلاف ولا هى قياسية فى مثل هذا ومع ذلك يحتاج الكلام إلى تقدير مضاف أى جزاء ما كنتم الخ، وفيه نوع تكلف ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ ﴾ نصب على الحال قال أبو البقاء : من الضمير فى (كلوا) أو فى (وقاهم) أو فى (آتاهم) أو فى (فاكهين) أو فى الظرف يعنى فى جنات، واستظهر أبو حيان الأخير ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ ﴾ جمع سرير معروف ، ويجمع على أسرّة وهو من السرور إذ كان لأولى النعمة ، وتسمية سرير الميت به للتفاؤل بالسرور الذى يلحق الميت برجوعه إلى جوار الله تعالى وخلاصه من سجن الدنيا، وقرأ أبو السمال سرر بفتح الراء وهى لغة لكلب فى المضعف فراراً من توالى ضمتين مع التضعيف *

---

(١) هذا البيت من قصيدة مشهورة لكثير أولها

خليلى هذا ربع عزة فاعقلا قلوصكما ثم احللا حيث حلت

قيل كان كثير فى حلقة البصرة ينشد أشعاره فمرت به عزة مع زوجها فقال لها : أغضيه فاستحيت من ذلك فقال لتغضيه أو لأضربنك فدنت من الحلقة فأغضبته ، وذلك أن قالت: هذا وهذا بفم الشاعر فقال ذلك.

Marfat.com

﴿ مَّصْفُوفَة ﴾ مجعولة على صف وخط مستو ﴿ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُور عِين ٢٠ ﴾ أى قرناهم بهن ـ قاله الراغب ـ ثم قال : ولم يجئ فى القرآن زوجناهم حوراً كما يقال زوجته امرأة تنبيها على أن ذلك لا يكون على حسب المتعارف فيما بيننا من المناكحة ، وقال الفراء : تزوجت بامرأة لغة أزد شنوءة ، والمشهور أن التزوج متعد إلى مفعول واحد بنفسه و التزويج متعد بنفسه إلى مفعولين ، وقيل : فيما هنا أن الباء لتضمين الفعل معنى القران أو الالصاق، واعترض بأنه يقتضى معنى التزويج بالعقد وهو لا يناسب المقام إذ العقد لا يكون فى الجنة لانها ليست دار تكليف أو أنها للسببية والتزويج ليس بمعنى الانكاح بل بمعنى تصييرهم زوجين زوجين أى صيرناهم كذلك بسبب حور عين ، وقرأ عكرمة بحور عين على إضافة الموصوف إلى صفته بالتأويل المشهور ، وقوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الخ كلام مستأنف مسوق لبيان حال طائفة من أهل الجنة إثر بيان حال الكل وهم الذين شاركتهم ذريتهم فى الايمان ، والموصول مبتدأ خبره ألحقنا بهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم ﴾ عطف على آمنوا ، وقيل اعتراض للتعليل ، وقوله تعالى : ﴿ بِإِيمَـٰن ﴾ متعلق بالاتباع أى أتبعتهم ذريتهم بايمان فى الجملة قاصر عن رتبة إيمان الآباء إما بنفسه بناءاً على تفاوت مراتب نفس الايمان، وإما باعتبار عدم انضمام أعمال مثل أعمال الآباء اليه ، واعتبار هذا القيد للايذان بثبوت الحكم فى الايمان الكامل أصالة لا إلحاقا قيل : هو حال من الذرية ، وقيل : من الضمير وتنوينه للتعظيم، وقيل : منهما وتنوينه للتنكير والمعول عليه ماقدمنا ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ فى الدرجة. أخرج سعيد بن منصور ، وهناد . وابن جرير. وابن المنذر. وابن أبى حاتم. والحاكم . والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : «إن الله تعالى ليرفع ذرية المؤمن معه فى درجته فى الجنة وإن كانوا دونه فى العمل لتقر بهم عينه ثم قرأ الآية » وأخرجه البزار . وابن مردويه عنه مرفوعا إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفى رواية ابن مردويه . والطبرانى عنه أنه قال: « إن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال له : إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك فيقول : يارب قد عملت لى ولهم فيؤمر بإلحاقهم به » وقرأ ابن عباس الآية ، وظاهر الاخبار أن المراد بإلحاقهم بهم إسكانهم معهم لا مجرد رفعهم اليهم واتصالهم بهم أحيانا ولو للزيارة . وثبوت ذلك على العموم لا يبعد من فضل الله عز وجل ، وماقيل : لعله مخصوص ببعض دون بعض تحجير لإحسانه الواسع جل شأنه ، وقد يستأنس للتخصيص بمارو ى عن ابن عباس إن الذين آمنوا المهاجرون والانصار ، والذرية التابعون لكن لا أظن صحته ﴿ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم ﴾ أى وما نقصنا الآباء بهذا الالحاق ﴿ مِّنْ عَمَلِهِم ﴾ أى من ثواب عملهم ﴿ مِّن شَىْءٍ ﴾ أى شيئاً بأن أعطينا بعض مثوباتهم أبناءهم فتنقص مثوباتهم وتنحط درجتهم وإنما رفعنا هم إلى منزلتهم بمحض التفضل والاحسان ، وقال ابن زيد ـ الضمير عائد على الأبناء أى وما نقصنا الأبناء الملحقين من جزاء عملهم الحسن والقبيح شيئاً بل فعلنا ذلك بهم بعد مجازاتهم بأعمالهم كملا ـ وليس بشئ وإن قال أبو حيان يحسن هذا الاحتمال قوله تعالى : (كل امرئ بما كسب رهين) وإلى الأول ذهب ابن عباس . وابن جبير . والجمهور. والآية على ماذهب اليه المعظم فى الكبار من الذرية ، وقال منذر بن سعيد : هى فى الصغار * وروى عن الحبر. والضحاك أنهما قالا : إن الله تعالى يلحق الأبناء الصغار وإن لم يبلغوا زمن الايمان بآبائهم

Marfat.com

المؤمنين ، وجعل بإيمان عليه متعلقاً بألحقنا أى ألحقنا بسبب إيمان الآباء بهم ذريتهم الصغار الذين ماتوا ولم يبلغوا التكليف فهم فى الجنة مع آبائهم قيل : و كأن من يقول بذلك يفسر (اتبعتهم ذريتهم) بماتوا ودرجوا على أثرهم قبل أن يبلغوا الحلم ، وجوز أن يتعلق بإيمان باتبعتهم على معنى اتبعوهم بهذا الوصف بأن حكم لهم به تبعاً لآبائهم فكانوا مؤمنين حكما لصغرهم وإيمان آبائهم ، والصغير يحكم بايمانه تبعاً لأحد أبويه المؤمن والكل كما ترى ،وقيل : الموصول معطوف على حور ، والمعنى قرناهم بالحور وبالذين آمنوا أى بالرفقاء والجلساء منهم فيتمتعون تارة بملاعبة الحور ؛ وأخرى بمؤانسة الاخوان المؤمنين ، وقوله تعالى : (واتبعتهم) عطف على زوجناهم ، وقوله سبحانه : بإيمان متعلق بما بعده أى بسبب إيمان عظيم رفيع المحل ، وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم وإن كانوا لا يستأهلونها تفضلا عليهم وعلى آبائهم ليتم سرورهم ويكمل نعيمهم ، أو بسبب إيمان دانى المنزلة وهو إيمان الذرية كأنه قيل : بشئ من الايمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم ، وصنيع الزمخشرى ظاهر فى اختيار العطف على حور فقد ذكره وجهاً أول ، وتعقبه أبو حيان بأنه لا يتخيل ذلك أحد غير هذا الرجل ، وهو تخيل أعجمى مخالف لفهم العربى القح كابن عباس . وغيره ، وقيل عليه : إنه تعصب منه ، والانصاف أن المتبادر الاستئناف ، وإن أحسن الأوجه فى الآية وأوفقه للمقام ما تقدم *

وقرأ أبو عمرو (وأتبعناهم) بقطع الهمزة وفتحها ، وإسكان التاء ، و نون بعد العين وألف بعدها أى جعلناهم تابعين لهم فى الايمان، وقرأ أيضا ذرياتهم جمعاً نصباً ،وابن عامر كذلك رفعاً ،وقرأ ذرياتهم بكسر الذال (واتبعتهم ذريتهم) بتاء الفاعل، ونصب ذريتهم على المفعولية، وقرأ الحسن. وابن كثير - ألتناهم - بكسر اللام من ألت يألت كعلم يعلم، وعلى قراءة الجمهور من باب ضرب يضرب، وابن هرمز آلتناهم بالمد من آلت يؤلت، وابن مسعود. وأبى لتناهم من لات يليت وهى قراءة طلحة. والاعمش، ورويت عن شبل. وابن كثير ، وعن طلحة. والاعمش أيضا - لتناهم - بفتح اللام، قال سهل: لا يجوز فتح اللام من غير ألف بحال وأنكر أيضا آلتناهم بالمد ، وقال لا يروى عن أحد ولا يدل عليه تفسير ولا عربية - وليس كما قال - بل نقل أهل اللغة آلت بالمد كما قرأ هرمز ، وقرئ وما ولتناهم من ولت يلت، ومعنى الكل واحد ، وجاء ألت بمعنى غلظ يروى أن رجلا قام إلى عمر رضى الله تعالى عنه فوعظه فقال: لا تألت على أمير المؤمنين أى لا تغلظ عليه ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ ﴾ أى بكسبه وعمله ﴿ رَهِينٌ ٢١ ﴾ أى مرهون عند الله كأن الكسب بمنزلة الدين ونفس العبد بمنزلة الرهن ولا ينفك الرهن مالم يؤد الدين فان كان العمل صالحا فقد أدى لأن العمل الصالح يقبله ربه سبحانه ويصعد اليه عز وجل وإن كان غير ذلك فلا أداء فلا خلاص إذ لا يصعد اليه سبحانه غير الطيب ، ولذا قال جل وعلا : (كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين) فان المراد كل نفس رهن بكسبها عند الله تعالى غير مفكوك إلا أصحاب اليمين فانهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم *

ووجه الاتصال على هذا أنه سبحانه لما ذكر حال المتقين وأنه عز وجل وفر عليهم ماأعده لهم من الثواب والتفضل عقب بذلك الكلام ليدل على أنهم فكوا رقابهم وخلصوها وغيرهم بقى معذباً لأنه لم يفك رقبته، وكان ممنعه من حيث الظاهر أن يكون عقيب قوله تعالى : (هو البر الرحيم) ليكون كلاماً راجعاً إلى حال الفريقين - المذ - ب . والمتقين - وإنما جعل متخللا بين أجزية المتقين عقيب ذكر توفير ماأعدلهم ، قال فى الكشف :

Marfat.com

ليدل على أن الخلاص من بعض أجزيتهم أيضاً ويلزم أن عدم الخلاص جزاء المقابلين من طريق الايماء وموقعه موقع الاعتراض تحقيقاً لتوفير ماعدد لأنه إنما يكون بعد الخلاص ، وفيه إيماء إلى أن إلحاق الأبناء إنما كان تفضلا على الآباء لاعلى الأبناء ابتداءاً لأن التفضل فرع الفك وهؤلاء هم الذين فكوا فاستحقوا التفضل ، وجعله استئنافا بيانياً لهذا المعنى كما فعل الطيبي بعيد ، وقيل : (رهين) فعيل بمعنى الفاعل والمعنى كل امرئ بما كسب راهن أى دائم ثابت ، وفى الارشاد أنه أنسب بالمقام فان الدوام يقتضى عدم المفارقة بين المرء وعمله ، ومن ضرورته أن لاينقص من ثواب الآباء شئ ، فالجملة تعليل لما قبلها ، وأنت تعلم أن فعيلا بمعنى المفعول أسرع تبادراً إلى الذهن فاعتباره أولى ووجه الاتصال عليه أوفق وألطف كما لايخفى *

﴿ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢٢ ﴾ أى وزدناهم على ماكان لهم من مبادى التنعم وقتاً فوقتاً مما يشتهون من فنون النعماء وألوان الآلاء ، وأصل المد الجر ، ومنه المدة للوقت الممتد ثم شاع فى الزيادة ، وغلب الإمداد فى المحبوب ، والمد فى المكروه وكونه وقتا بعد وقت مفهوم المد نفسه ﴿ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أى يتجاذبونها فى الجنة هم وجلساؤهم تجاذب ملاعبة كما يفعل ذلك الندامى بينهم فى الدنيا لشدة سرورهم قال الاخطل :

نازعته طيب الراح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة الساري

وقيل : التنازع مجاز عن التعاطى ، والكأس مؤنث سماعى كالخمر ، ولاتسمى كأسا على المشهور إلا إذا امتلأت خمراً أوكانت قريبة من الامتلاء ، وقد تطلق على الخمر نفسها مجازاً لعلاقة المجاورة ، وقال الراغب : الكأس الإناء بما فيه من الشراب ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأسا ، وفسرها بعضهم هنا بالإناء بمافيه من الخمر ، وبعضهم بالخمر ، والاول أوفق بالتجاذب ، والثانى بقوله سبحانه : ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أى فى شربها حيث لايتكلمون فى أثناء الشرب بلغو الحديث وسقط الكلام ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ ولا يفعلون مايؤثم به فاعله أى ينسب إلى الاثم لو فعله فى دار التكليف كما هو ديدن الندامى فى الدنيا وإنما يتكلمون بالحكم وأحاسن الكلام ويفعلون مايفعله الكرام ، وقرأ ابن كثير . وأبو عمرو (لالغو) (ولاتأثيم) بفتحهما ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى بالكأس ﴿ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ أى مماليك مختصون بهم كما يؤذن به اللام ولم يقل غلمانهم بالاضافة لئلا يتوهم أنهم الذين كانوا يخدمونهم فى الدنيا فيشفق كل من خدم أحداً فى الدنيا أن يكون خادماً له فى الجنة فيحزن بكونه لايزال تابعا ، وقيل : أولادهم الذين سبقوهم فالاختصاص بالولادة لا بالملك ، وفيه أن التعبير عنهم بالغلمان غير مناسب وكذا نسبة الخدمة إلى الاولاد لاتناسب مقام الامتنان ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ٢٤ ﴾ مصون فى الصدف لم تنله الايدى - كما قال ابن جبير - ووجه الشبه البياض والصفاء ، وجوز أن يراد بمكنون مخزون لانه لايخزن إلا الحسن الغالى الثمن ، أخرج عبد الرزاق . وابن جرير . وابن المنذر عن قتادة قال : « بلغنى أنه قيل : يارسول الله هذا الخادم مثل اللؤلؤ فكيف بالمخدوم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « والذى نفسى بيده إن فضل مابينهم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » وروى « أن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجئ ألف ببابه لبيك لبيك » *

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ٢٥ ﴾ أى يسأل كل بعض منهم بعضاً آخر عن أحواله وأعماله فيكون

Marfat.com

كل بعض سائلا ومسئولا لا أنه يسأل بعض معين منهم بعضاً آخر معيناً ثم هذا التساؤل فى الجنة كما هو الظاهر، وحكى الطبرى عن ابن عباس أنه إذا بعثوا فى النفخة الثانية ولا أراه يصح عنه لبعده جداً ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أى المسئولون وهم كل واحد منهم فى الحقيقة ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ ﴾ أى قبل هذا الحال ﴿ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ٢٦ ﴾ أرقاء القلوب خائفين من عصيان الله عز وجل معتنين بطاعته سبحانه ، أو وجلين من العاقبة ، و (فى أهلنا) قيل: يحتمل أنه كناية عن كون ذلك فى الدنيا، ويحتمل أن يكون بياناً لكون إشفاقهم كان فيهم وفى أهلهم لتبعيتهم لهم فى العادة ويكون قوله تعالى : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أى بالرحمة والتوفيق ﴿ وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ ﴾ أى عذاب النار النافذة فى المسام نفوذ السموم وهو الريح الحارة المعروفة ، ووجه الشبه وإن كان فى النار أقوى لكنه فى ريح السموم لمشاهدته فى الدنيا أعرف فلذا جعل مشبهاً به ، وقال الحسن : (السموم) اسم من أسماء جهنم عاماً لهم ولأهلهم، فالمراد بيان مامنّ الله تعالى به عليهم من اتباع أهلهم لهم، وقيل : ذكر (فى أهلنا) لإثبات خوفهم فى سائر الأوقات والأحوال بطريق الاولى فان كونهم بين أهليهم مظنة الأمن ولا أرى فيه بأساً ، نعم كون ذلك لأن السؤال عما اختصوا به من الكرامة دون أهليهم ليس بشئ ، وقيل : لعل الاولى أن يجعل ذلك إشارة إلى الشفقة على خلق الله تعالى كما أن قوله عزوجل : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ إلى آخره إشارة إلى التعظيم لامر الله تعالى وترك العاطف بجعل الثانى بيانا للاول ادعاءاً للمبالغة فى وجوب عدم انفكاك كل منهما للآخر ولا يخفى مافيه ، والذى يظهر أن هذا إشارة إلى الرجاء وترك العطف لقصد تعداد ماكانوا عليه أى إنا كنا من قبل ذلك نعبده تعالى ونسأله الوقاية ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ﴾ أى المحسن كما يدل عليه اشتقاقه من البر بسائر مواده لأنها ترجع إلى الاحسان - كبرّ فى يمينه - أى صدق لأن الصدق إحسان فى ذاته ويلزمه الاحسان للغير ،وأبرّ الله تعالى حجه أى قبله لأن القبول إحسان وزيادة ، وأبرّ فلان على أصحابه أى علاهم لانه غالباً ينشأ عن الاحسان لهم فتفسيره باللطيف كما روى عن ابن عباس ، أو العالى فى صفاته ، أو خالق البرّ ، أو الصادق فيما وعد أولياءه كما روى عن ابن جريج بعيد إلا أن يراد بعض ماصدقات ، أو غايات ذلك البر ؟ ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الكثير الرحمة الذى إذا عبد أثاب وإذا سئل أجاب ،وقرأ أبو حيوة (ووقانا) بتشديد القاف ، والحسن . وأبو جعفر . ونافع. والكسائى (أنه) بفتح الهمزة لتقدير لام الجر التعليلية قبلها أى لأنه ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ فاثبت على ماأنت عليه من التذكير بما أنزل عليك من الآيات والذكر الحكيم ولا تكترث بما يقولون مما لاخير فيه من الاباطيل •

﴿ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ ﴾ هو الذى يخبر بالغيب بضرب من الظن ، وخص الراغب الكاهن بمن يخبر بالأخبار الماضية الخفية كذلك، والعراف بمن يخبر بالأخبار المستقبله كذلك ، والمشهور فى الكهانة الاستمداد من الجن فى الاخبار عن الغيب ، والباء فى (بكاهن) مزيدة للتأكيد أى ماأنت كاهن ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ٢٩ ﴾ واختلف فى باء (بنعمة) فقال أبو البقاء : للملابسة ، والجار والمجرور فى موضع الحال والعامل فيه كاهن ، أو مجنون ، والتقدير ماأنت كاهن ولا مجنون ملتبسا بنعمة ربك وهى حال لازمة لانه عليه الصلاة والسلام مازال ملتبسا بنعمة ربه عز وجل ، وقيل : للقسم فنعمة ربك مقسم به ، وجواب القسم ماعلم من الكلام وهو - ماأنت بكاهن ولا مجنون - وهذا كما تقول : ماز يد والله بقائم وهو بعيد ، والاقرب عندى أن الباء للسببية

Marfat.com

وهو متعلق بمضمون الكلام ،والمعنى انتفى عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله تعالى عليك ، وهذا كما تقول ماأنا معسر بحمد الله تعالى وإغنائه ، والمراد الرد على قائل ذلك ، وإبطال مقالتهم فيه عليه الصلاة والسلام وإلا فلا امتنان عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بانتفاء ماذكر مع انتفائه عن أكثر الناس ، وقيل : الامتنان بانتفاء ذلك بسبب النعمة المراد بها ماأوتيه صلى الله تعالى عليه وسلم من صدق النبوة ورجاحة العقل التى لم يؤتها أحد قبله ، والقائلون بذلك هم الكفرة قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون ، وممن قال كاهن : شيبة بن ربيعة ، وممن قال مجنون : عقبة بن أبى معيط ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ أى بل أيقولون ﴿ شَاعِرٌ ﴾ أى هو شاعر ﴿ نَّتَرَبَّصُ ﴾ أى ننتظر ﴿ به رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ٣٠ ﴾ أى الدهر ،وهو فعول من المنّ بمعنى القطع لأنه يقطع الأعمار وغيرها ، ومنه حبل منين أى مقطوع ، والريب مصدر رابه إذا أقلقه أريد به حوادث الدهر وصروفه لانها تقلق النفوس وعبر عنها بالمصدر مبالغة ، وجوز أن يكون من راب عليه الدهر أى نزل ، والمراد بنزوله إهلاكه ، وتفسير المنون بالدهر مروى عن مجاهد . وعليه قول الشاعر :

(تربص بها ريب المنون) لعلها تطلق يوماً أو يموت حليلها

وبيت أبى ذؤيب

أمن (المنون وريبه) يتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

قيل: ظاهره ذلك ، وكذلك قول الأعشى :

أأن رأت رجلا أعشى أضرّ به (ريب المنون) ودهر متبل خبل

ولهذا أنشده الجوهرى شاهداً له، وأخرج ابن جرير. وغيره عن ابن عباس تفسيره بالموت وهو مشترك بين المعنيين فقد قال المرزوقى فى شرح بيت أبى ذؤيب المار آنفا : المنون قد يراد به الدهر فيذكر وتكون الرواية ريبه ، وقد يراد به المنية فيؤنث ، وقد روى ريبها ،وقد يرجع له ضمير الجمع لقصد أنواع المنايا وريبها نزولها انتهى فلا تغفل ، وهو أيضا من المنّ بمعنى القطع فانها قاطعة الأمانى واللذات ، ولذا قيل : المنية تقطع الأمنية ، وريب المنون عليه نزول المنية ، وجوز أن يكون بمعنى حادث الموت على أن الاضافة بيانية ، روى أن قريشاً اجتمعت فى دار الندوة وكثرت آراؤهم فيه عليه الصلاة والسلام حتى قال قائل منهم وهم بنو عبد الدار ـ كما قال الضحاك ـ تربصوا به ريب المنون فانه شاعر سيهلك كما هلك زهير . والنابغة. والاعشى فافترقوا على هذه المقالة فنزلت ، وقرأ زيد بن على (يتربص) بالياء مبنياً للمفعول ، وقرئ (ريب) بالرفع على النيابة ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ ﴾ تهكم بهم ،وتهديد لهم ﴿ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ٣١ ﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكى ، وفيه عدة كريمة بإهلاكهم ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم ﴾ أى عقولهم وكانت قريش يدعون أهل الاحلام والنهى ـ وذلك على ما قال الجاحظ ـ لأن جميع العالم يأتونهم ويخالطونهم وبذلك يكمل العقل وهو يكمل بالمسافرة وزيادة رؤية البلاد المختلفة والاماكن المتباينة ومصاحبة ذوى الاخلاق المتفاوتة وقد حصل لهم الغرض بدون مشقة ،وقيل لعمرو بن العاص : مابال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله تعالى بالعقل ؟! فقال : تلك عقول كادها الله عز وجل أى لم يصحبها التوفيق فلذا لم يؤمنوا وكفروا ـ وأنا لا أرى فى الآية دلالة على رجحان عقولهم ـ

Marfat.com

ولعلها تدل على ضد ذلك ﴿ بِهَٰذَا ﴾ التناقص فى المقال فان الكاهن والشاعر يكونان ذا عقل تام وفطنة وقادة والمجنون مغطى عقله مختل فكره وهذا يعرب عن أن القوم لتحيرهم وعصبيتهم وقعوا فى حيص بيص حتى اضطربت عقولهم وتناقضت أقوالهم و كذبوا أنفسهم من حيث لا يشعرون ، وأمر الاحلام بذلك مجاز عن التأدية اليه بعلاقة السببية كما قيل ،وقيل : جعلت الاحلام آمرة على الاستعارة المكنية فتشبه الاحلام بسلطان مطاع تشبيها مضمراً فى النفس،وتثبت له الامر على طريق التخييل ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ٣٢ ﴾ مجاوزون الحدود فى المكابرة والعناد لايحومون حول الرشد والسداد ولذلك يقولون مايقولون من الاكاذيب المحضة الخارجة عن دائرة العقول ، وقرأ مجاهد (بل هم) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أى اختلقه من تلقاء نفسه ۞

وقال ابن عطية : معناه قال : عن الغير أنه قاله فهو عبارة عن كذب مخصوص،وضمير المفعول للقرآن ﴿ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ٣٣ ﴾ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه الاباطيل كيف لا ومارسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا واحد من العرب فكيف أتى بماعجز عنه كافة الأمم من العرب والعجم ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ مماثل القرآن فى النعوت التى استقل بها من حيث النظم ومن حيث المعنى ﴿ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ٣٤ ﴾ فيما زعموا فان صدقهم فى ذلك يستدعى قدرتهم على الاتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه الصلاة والسلام فى البشرية والعربية مع مابهم من طول الممارسة للخطب والاشعار، وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر،والمبالغة فى حفظ الوقائع والأيام ؛ ولاريب فى أن القدرة على الشئ من موجبات الاتيان به ودواعى الأمر بذلك ، فالكلام ردّ للأقوال المذكورة فى حقه عليه الصلاة والسلام ، والقرآن بالتحدى فاذا تحدوا وعجزوا علم رد ماقالوه وصحة المدعى ، وجوز أن يكون ردّاً لزعمهم النقول خاصة فان غيره مما تقدم حتى الكهانة كما لايخفى أظهر فساداً منه ومع ذلك إذاظهر فساد زعم التقول ظهر فساد غيره بطريق اللزوم،وقرأ الجحدرى،وأبو السمال بحديث مثله على الاضافة أى بحديث رجل مثل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى كونه أمياً لم يصحب أهل العلم ولا رحل عن بلده ، أومثله فى كونه واحداً منهم فلا يجوز أن يكون فى العرب مثله فى الفصاحة فليأت بمثل ماأتى به ولن يقدر على ذلك أبداً ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ أى أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير مقدر وخالق ، وقال الطبرى: المراد أم خلقوا من غير شئ حى فهم لا يؤمرون ولا ينهون كالجمادات.وقيل: المعنى أم خلقوا من غير علة ولالغاية ثواب وعقاب فهم لذلك لا يسمعون، و(من) عليه للسببية،وعلى ماتقدم لابتداء الغاية والمعول عليه من الأقوال ماقدمنا،وسيأتى إن شاء الله تعالى زيادة إيضاح له،ويؤيده قوله سبحانه: ﴿ أَمْ هُمُ الْخَٰلِقُونَ ٣٥ ﴾ أى الذين خلقوا أنفسهم فلذلك لا يعبدون الله عز وجل ولا يلتفتون إلى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ على القولين لا يظهر حسن المقابلة ، وإرادة خلقوا أنفسهم يشعر به قوله تعالى : ﴿ام خلقوا السموات والأرض ﴾ إذ لو أريد العموم لعدم ذكر المفعول لم يظهر حسن المقابلة أيضاً،وقال ابن عطية: المراد أهم الذين خلقوا الاشياء فهم لذلك يتكبرون ثم خص من تلك الاشياء السموات والأرض لعظمهما وشرفهما فى المخلوقات وفيه ماسمعته ﴿ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦ ﴾ أى إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات

Marfat.com

والأرض؟ قالوا: الله وهم غير موقنين بما قالوا إذ لو كانوا موقنين لما أعرضوا عن عبادته تعالى فان من عرف خالقه وأيقن به امتثل أمره وانقاد له ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ أى خزائن رزقه تعالى ورحمته حتى يرزقوا النبوة من شاءوا ، ويمسكوها عمن شاءوا ، وقال الرمانى: خزائنه تعالى مقدوراته سبحانه ، وقال ابن عطية : المعنى أم عندهم الاستغناء عن الله تعالى فى جميع الامور لان المال والصحة والعزة وغير ذلك من الاشياء من خزائن الله تعالى ، وقال الزهرى : يريد بالخزائن العلم واستحسنه أبو حيان ، وسيأتى إن شاء الله تعالى مايعلم حاله منه *(أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ٣٧)* الارباب الغالبون حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الامور على إرادتهم ومشيئتهم فالمسيطر الغالب ، وفى معناه قول ابن عباس : المساط القاهر وهو من سيطر على كذا إذا راقبه وأقام عليه وليس مصغراً كما يتوهم ولم يأت على هذه الزنة إلا خمسة ألفاظ أربعة من الصفات، وهى مهيمن. ومسيطر. ومبيقر. ومبيطر ، وواحد من الاسماء ، وهو بجيم اسم جبل ، وقرأ الاكثر (المصيطرون) بالصاد لمكان حرف الاستعلاء وهو الطاء ، وأشم خلف عن حمزة وخلاد عنه بخلاف الزاى *(أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ)* هو مايتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ثم جعل اسماً لكل مايتوصل به إلى شىء رفيع كالسبب أى أم لهم سلم منصوب إلى السماء *(يَسْتَمِعُونَ فيه)* أى صاعدين فيه على أن الجار والمجرور متعلق بكون خاص محذوف وقع حالا والظرفية على حقيقتها ، وقيل : هو متعلق -بيستمعون- على تضمينه معنى الصعود *

وقال أبو حيان : أى يستمعون عليه أو منه إذ حروف الجر قد يسد بعضها مسد بعض ومفعول (يستمعون) محذوف أى كلام الله تعالى ، قيل: ولو نزل منزلة اللازم جاز ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ٣٨ ﴾ أى بحجة واضحة تصدق استماعه ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ٣٩ ﴾ تسفيه لهم وتركيك لعقولهم ، وفيه إيذان بأن من هذا رأيه لا يكاد يعد من العقلاء فضلا عن الترقى إلى عالم الملكوت وسماع كلام ذى العزة والجبروت والالتفات إلى الخطاب لتشديد الانكار والتوبيخ ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً ﴾ أى على تبليغ الرسالة وهو رجوع إلى خطابه صلى الله تعالى عليه وسلم وإعراض عنهم ﴿ فَهُم ﴾ لأجل ذلك ﴿ مِّن مَّغْرَمٍ ﴾ مصدر ميمى من الغرم والغرامة وهو - كما قال الراغب - ما ينوب الانسان فى ماله من ضرر لغير جناية منه ، فالكلام بتقدير مضاف أى من التزام مغرم ، وفسره الزمخشرى بالتزام الانسان ماليس عليه فلا حاجة إلى تقدير - لكن الذى تقتضيه اللغة هو الأول - ﴿ مُّثْقَلُونَ ٤٠ ﴾ أى محملون الثقل فلذلك لا يتبعونك ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ ﴾ أى اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ٤١ ﴾ منه ويخبرون به الناس - قاله ابن عباس - وقال ابن عطية : أم عندهم علم الغيب فهم يثبتون ما يزعمون للناس شرعاً ، وذلك عبادة الاوثان وتسييب السوائب وغير ذلك من سيرهم ،وقال قتادة : (أم عندهم الغيب) فهم يعلمون متى يموت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذى يتربصون به ، وفسر بعضهم (يكتبون) بيحكمون ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ بك وبشرعك وهو ما كان منهم فى حقه ﷺ بدار الندوة مما هو معلوم من السير ، وهذا من الاخبار بالغيب فان قصة دار الندوة وقعت فى وقت الهجرة وكان نزول السورة قبلها كما تدل عليه الآثار ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ هم المذكورون المريدون كيده عليه الصلاة والسلام،

Marfat.com

ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بما فى حيز الصلة من الكفر وتعليل الحكم به ، وجوز أن يراد جميع الكفرة وهم داخلون فيه دخولا أولياً ﴿ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ٤٢ ﴾ أى الذين يحيق بهم كيدهم ويعود عليهم وباله لامن أرادوا أن يكيدوه وكان وباله فى حق أولئك قتلهم يوم بدر فى السنة الخامسة عشر من النبوة قيل: ولذا وقعت كلمة (أم) مكررة هنا خمس عشرة مرة للاشارة لما ذكر ، ومثله على ماقال الشهاب : لا يستبعد من المعجزات القرآنية وإن كان الانتقال لمثله خفى ومناسبته أخفى ، وجوز أن يكون المعنى هم المغلوبون فى الكيد من كايدته فكدته ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه عز وجل • ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٤٣ ﴾ أى عن إشراكهم على أن ما مصدرية ، أو عن شركة الذى يشركونه على أنها موصولة وقبلها مضاف مقدر والعائد محذوف ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفاً ﴾ قطعة فهو مفرد وقد قرئ فى جميع القرآن كسفاً وكسفاً جمعا وإفراداً إلا هنا فانه على الافراد وحده ، وتنوينه للتفخيم أى وإن يروا كسفاً عظيما ٭(مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطاً)٭ لتعذيبهم ٭(يَقُولُوا)٭ من فرط طغيانهم وعنادهم ٭(سَحَابٌ)٭ أى هو سحاب ٭(مَّرْكُومٌ ٤٤)٭ متراكم ملقى بعضه على بعض أى هم فى الطغيان بحيث لو أسقطنا عليهم حسبما قالوا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً لقالوا هو سحاب متراكم يمطرنا ولم يصدقوا أنه كسف ساقط لعذابهم ٭ ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ فدعهم غير مكترث بهم وهو على مافى البحر أمر موادعة منسوخ بآية السيف ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ ﴾ وقرأ أبو حيوة يلقوا مضارع لقى ﴿ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ٤٥ ﴾ على البناء للمفعول وهى قراءة عاصم. وابن عامر. وزيد بن على. وأهل مكة فى قول شبل بن عباد: من صعقته الصاعقة ، أو من أصعقته ، وقرأ الجمهور وأهل مكة فى قول إسمعيل: يصعقون بفتح الياء والعين ، والسلمى بضم الياء وكسر العين من أصعق رباعيا ، والمراد بذلك اليوم يوم بدر ، وقيل : وقت النفخة الأولى فانه يصعق فيه من فى السموات ومن فى الارض ، وتعقب بأنه لا يصعق فيه إلا من كان حيا حينئذ وهؤلاء ليسوا كذلك وبأن قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ أى شيئا من الاغناء بدل من يومهم ، ولا يخفى أن التعرض لبيان عدم نفع كيدهم يستدعى استعمالهم له طمعا بالانتفاع به وليس ذلك إلا مادبروه فى أمره صلى الله تعالى عليه وسلم من الكيد الذى من جملته مناصبتهم يوم بدر ، وأما النفخة الاولى فليست مما يجرى فى مدافعته الكيد والحيل ، وأجيب عن الأول بمنع اختصاص الصعق بالحى فالموتى أيضا يصعقون وهم داخلون فى عموم (من) وإن لم يكن صعقهم مثل صعق الاحياء من كل وجه وهو خلاف الظاهر فيحتاج إلى نقل صحيح ، وعن الثانى بأن الكلام على نهج قوله :

• على لاحب لا يهتدى بمناره • فالمعنى يوم لا يكون لهم كيد ولا إغناء. وهو كثير فى القرآن وباب من أبواب البلاغة والاحسان ، وقيل: هو يوم القيامة - وعليه الجمهور - وفيه بحث ، وقيل: هو يوم موتهم ، وتعقب بأن فيه مافيه مع أنه تأباه الاضافة المنبئة عن اختصاصه بهم فلا تغفل ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤٦ ﴾ من جهة الغير فى دفع العذاب عنهم ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ أى لهم ووضع الموصول موضع الضمير لما ذكر قبل وجوز العموم وهم داخلون دخولا أوليا ﴿ عذابا ﴾ آخر ﴿ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ دون ما لاقوه من القتل أى قبله وهو - كما قال مجاهد -

Marfat.com

القحط الذى أصابهم سبع سنين *

وعن ابن عباس هو ماكان عليهم يوم بدر والفتح ، وفسر (دون ذلك) بقبل يوم القيامة بناءاً على كون يومهم الذى فيه يصعقون ذلك ، وعنه أيضاً . وعن البراء بن عازب أنه عذاب القبر وهو مبنى على نحو ذلك التفسير، وذهب اليه بعضهم بناءاً على أن (دون ذلك) بمعنى وراء ذلك كما فى قوله * يريك القذى من دونها وهو دونها * وإذا فسر اليوم بيوم القيامة ونحوه ، و(دون ذلك) بقبله ، وأريد العموم من الموصول فهذا العذاب عذاب القبر ، أو المصائب الدنيوية ، وفى مصحف عبدالله - دون ذلك قريباً - ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٤٧ ﴾ إن الامر كما ذكر ، وفيه إشارة إلى أن فيهم من يعلم ذلك وإنما يصر على الكفر عناداً ، أولا يعلمون شيئاً * ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ بإمهالهم إلى يومهم الموعود وإبقائك فيما بينهم مع مقاساة الاحزان ومعاناة الهموم ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أى فى حفظنا وحراستنا ، فالعين مجاز عن الحفظ ، ويتجوز بها أيضاً عن الحافظ وهو مجاز مشهور ، وفى الكشاف هو مثل أى بحيث نراك ونكلؤك ، وجمع العين هنا لإضافته إلى ضمير الجمع ووحد فى (طه) لاضافته إلى ضمير الواحد ، ولوح الزمخشرى - فى سورة المؤمنين - إلى أن فائدة الجمع الدلالة على المبالغة فى الحفظ كأن معه من الله تعالى حفاظاً يكلؤونه بأعينهم ، وقال العلامة الطيبي: إنه أفرد هنالك لافراد الفعل وهو كلاءة موسى عليه السلام ، وههنا لما كان لتصبير الحبيب على المكايد ومشاق التكاليف والطاعات ناسب الجمع لأنها أفعال كثيرة كل منها يحتاج إلى حراسة منه عز وجل انتهى ، ومن نظر بعين بصيرته علم من الآيتين الفرق بين الحبيب والكليم عليهما أفضل الصلاة وأكمل التسليم ، ثم إن الكلام فى نظير هذا على مذهب السلف مشهور ، وقرأ أبو السمال - بأعينا - بنون مشددة ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أى قل سبحان الله ملتبسا بحمده تعالى على نعمائه الفائتة الحصر ، والمراد سبحه تعالى واحمده ﴿ حِينَ تَقُومُ ٤٨ ﴾ من كل مجلس قاله عطاء . ومجاهد. وابن جبير ، وقد صح من رواية أبى داود . والنسائى . وغيرهما عن أبى برزة الاسلمى « أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقول إذا أراد أن يقوم من المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب اليك فسئل عن ذلك فقال : كفارة لما يكون فى المجلس » والآثار فى ذلك كثيرة ، وقيل : حين تقوم إلى الصلاة، أخرج أبو عبيد . وابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال : « حق على كل مسلم حين يقوم إلى الصلاة أن يقول : سبحان الله وبحمده لأن الله تعالى يقول لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم : (وسبح بحمد ربك حين تقوم) » وأخرج سعيد بن منصور وغيره عن الضحاك أنه قال فى الآية : حين تقوم إلى صلاة تقول هؤلاء الكلمات « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك » وحكاه فى البحر عن ابن عباس؛ وأخرج عنه ابن مردويه أنه قال : «سبح بحمد ربك حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل فى الصلاة» وروى نحوه عن ابن السائب ، وقال زيد أسلم: « حين تقوم من القائلة والتسبيح إذ ذاك هو صلاة الظهر » وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ إفراد لبعض الليل بالتسبيح لما أن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد عن الرياء كما يلوح به تقديمه على الفعل ﴿ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ أى وقت إدبارها من آخر الليل أى غيبتها بضوء الصباح، وقيل: التسبيح من الليل صلاة المغرب والعشاء ، (وإدبار النجوم) ركعتا الفجر ، وعن عمر رضى الله تعالى عنه .

Marfat.com

وعلى كرم الله تعالى وجهه . وأبى هريرة . والحسن رضى الله تعالى عنهما التسبيح من الليل النوافل ، و(إدبار النجوم) ركعتا الفجر ، وقرأسالم بن أبى الجعد . والمنهال بن عمرو .ويعقوب ـ أدبار ـ بفتح الهمزة جمع دبر بمعنى عقب أى فى أعقابها إذا غربت ، أوخفيت بشعاع الشمس *

هذا ونظم الآيات من قوله تعالى : (أم يقولون شاعر) إلى قوله سبحانه : (أم لهم إله غير الله) الخ فيه غرابة ولم أر أحداً كشف عن لثامه كصاحب الكشف جزاه الله تعالى خيراً،ولغاية حسنه ـ وكونه مما لامزيد عليه ـ أحببت نقله بحذافيره لكن مع اختصار ما،فأقول: قال . أوماً الزمخشرى إلى وجهين فى ذلك فى قوله تعالى : (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر) : أحدهما أنه حكاية قولهم المضطرب على وجهه،والثانى أنه تدرج منه سبحانه فى حكاية ماقالوه من المنكر إلى ماهو أدخل فيه ، والاول ضعيف فيما نحن فيه لأن ماسيق له الكلام ليس اضطراب أقوالهم فتحكى على ماهى عليه بل تسليته عليه الصلاة والسلام وأنه لامحالة ينتقم له منهم وأن العذاب المكذب به واقع بهم جزاءاً لتكذيبهم بالمنبئ والنبأ والمنبأ به ، فالمتعين هو الثانى ،ووجهه ـ والله تعالى أعلم ـ أن قوله : (فذكر)معناه إذ ثبت كون العذاب واقعاً و كون الفريقين المصدقين والمكذبين مجزيين بأعمالهم ، وإنك على الحق المبين الذى من كذب به استحق الهوان ، ومن صدق استحق الرضوان فدم على التذكير ولاتبال بما تكايدفإنك أنت الغالب حجة وسيفاً فى هذه الدار ، ومنزلة ورفعة فى دار القرار، ومن قوله تعالى :(فما أنت) إلى قوله سبحانه : (هم المكيدون) تفصيل هذا المجمل مع التعريض بفساد مقالاتهم الحمقاء وأنهم بمرأى من الله تعالى ومسمع فلا محالة ينتقم لنبيه عليه الصلاة والسلام منهم،وفيه أن النبى ﷺ من الله تعالى بمكان لايقادر قدره فهو شئ من عضد التسلى،وقوله سبحانه :(فما أنت بنعمة ربك) الخ فيه أن من أنعم عليه بالنبوة يستحيل أن يكون أحد هذين،وبدأ بقولهم المتناقض لينبه أولا على فساد آرائهم ويجعله دستوراً فى إعراضهم عن الحق وإيثار اتباع أهوائهم فما أبعد حال من كان أتقنهم رأياوأرجحهم عقلا وأبينهم آياً منذ ترعرع الى أن بلغ الأشد عن الجنون والكهانة على أنهما متناقضان لأن الكهان كانوا عندهم من كامليهم وكان قولهم إماماً متبعاً عندهم فأين الكهانة من الجنون،ثم ترقى مضربا إلى قولهم فيه وحاشاه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه شاعر لأنه أدخل فى الكذب من الكاهن والمجنون وقدماً قيل:أحسن الشعر أكذبه ليبين حال تلجلجهم واضطرابهم، وقوله تعالى : (قل تربصوا) من باب المجازاة بمثل صنيعهم وفيه تتميم للوعيد ، فهذا باب من إنكارهم هدمه سبحانه أولا تلويحاً بقوله تعالى: (بنعمة ربك) وثانيا تصريحا بقوله جل وعلا . (أم تأمرهم أحلامهم) كأنه قيل دعهم وتلك المقالة وما فيها من الاضطراب ففيها عبرة ، ثم قيل : لابل ذلك من طغيانهم لأنه أدخل فى الذم من نقصان العقل وأبلغ فى التسلية لأن من طغى على الله عز وجل فقد باء بغضبه،ثم أخذ فى باب أوغل فى الانكار وهو نسبة الافتراء اليه صلى الله تعالى عليه وسلم وذلك لأن الافتراء أبعد شئ من حاله لاشتهاره بالصدق على أن كونه افتراءاً وعجزهم عن الأتيان بأقصر سورة من هذا المفترى متنافيان لدلالته على الصدق على مامر ـ فى الأحقاف ـ ولأن الشاعر لايتعمد الكذب لذاته ، ثم قد يكون شعره حكما ومواعظ وهو لاينسب فيه إلى عار ، والتدرج عن الشعر ههنا عكس التدرج اليه فى الأنبياء لأن بناء الكلام ههنا على التدرج فى المناقضة والتوغل فى القدح فيه عليه الصلاة والسلام ونفى رسالته ، وهنالك عن القدح فى بعض من الذكر متجدد النزول فقيل : إن افتراءه لايبعد ممن هو شاعر ذو افتراءآت كثيرة ، وأين هذا من ذاك ؟ وللتنبيه على التوغل

Marfat.com

جىء بصريح حرف الاضراب فى الرد فقيل : (بل لا يؤمنون) وعقب بقوله تعالى:(فليأتوا) ثم من لا يؤمن أشد إنكاراً له من الطاغى كما أن المفترى أدخل فى الكذب من الشاعر ، ثم أخذ فى أسلوب أبلغ فى الرد على مقالاتهم الجنون والكهانة لتقاربهما ، ثم الشعر ، ثم الأفتراء حيث نزل القائلين منزلة من يدعى أنه خلق من غير شىء أى مقدر وخالق وإلا لأهمهم البحث عن صفاته وأفعاله فلم ينكروا منك ماأنكروا ، ومن حسب أنه مستغن عن الموجد نسب رسوله إلى الجنون والكهانة لا بل كمن يدعى أنه خالق نفسه فلا خالق له ليبحث عن صفاته فهو ينسبه إلى الشعر إذ لا يرسل إليه البتة ، والشعر أدخل فى الكذب لا بل كمن يدعى أنه خلق السموات والأرض وما بينهما فهو ينسبه الى الأفتراء حيث لم يرسله ، ثم أضرب صريحاً عنه بقوله تعالى : (بل لا يوقنون) ومن لا إيقان له بمثل هذا البديهى لا يبعد أن يزنك بما زن ، فكأنه قيل : مقالتهم تلك تؤدى إلى هذه لأنهم كانوا قائلين بها إظهاراً لتماديهم فى العناد ، ثم بولغ فيه فجىء بما يدل على أن الرسول لا بد أن يكون مفتريا غير صالح للنبوة فى زعمهم ، فالأول لما لم يمنع تعدد الآلهة إنما يدل على افترائه من حيث أن أحد الخالقين لا يدعو الآخر إلى عبادته ، والثانى يمنعه بالكلية لأنه إذا كان عندهم جميع خزائن ربه وهم ما أرسلوه لزم أن يكون مفتريا ألبتة ، وأدمج فيه إنكارهم للمعاد ، ونسبتهم إياه صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك أيضا خاصة إلى الافتراء ، والحمل على خزائن القدرة أظهر لأن (أم عندهم الغيب) إشارة إلى خزائن العلم ولما كان المقصود هنالك أمر البعث على ما سيحقق إن شاء الله تعالى كان هذا القول أيضا من القبول بمكان ولا يخفى ما فى قوله تعالى : (أم هم المسيطرون) من الترقى ثم لما فرغ من ذلك وبين فساد ما بنوا عليه أمر الانكار بدليل العقل قيل : لم يبق إلا المشاهدة والسماع منه تعالى وهو أظهر استحالة فتهكم بهم ، وقيل : (بل لهم سلم يستمعون) وذيل بقوله تعالى : (أم له البنات) إشعاراً بأن من جعل خالقه أدون حالا منه لم يستبعد منه تلك المقالات الخرقاء كأنه سلى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيل : ناهيك بتساوى الطعنين فى البطلان وبما يلقون من سوء مغبتهما ، ثم قيل : (أم تسألهم أجراً) أى إن القوم أرباب ألباب وليسوا من تلك الأوصاف فى شىء بل الذى زهدهم فيك أنك تسألهم أجراً مالا ، أو جاها ، أو ذكراً ، وفيه تهكم بهم وذم لهم بالحسد واللؤم وأنهم مع قصور نظرهم عن أمر الميعاد لا يبنون الأمر على المتعارف المعتاد إذ لا أحد من أهل الدنيا وذوى الأخطار يجبه الناصح المبرأ ساحته عن لوث الطمع بتلك المقالات على أنه حسد لا موقع له عند ذويه فليسوا فى أن يحصل لهم نعمة النبوة ولا هو ممن يطمع فى نعمهم إحدى الثلاث ، ثم قيل : (أم عندهم الغيب) على معنى بل أعندهم اللوح فيعلمون كل ما هو كائن ويكتبون فيه تلك المعلومات وقد علموا أن ما تدعيه من المعاد ليس من الكائن المكتوب ، والمقصود من هذا نفى المنبأ به أعنى البعث على وجه يتضمن دفع النبوة أيضا إدماجا عكس الأول ولهذا أخره عن قوله تعالى : (أم لهم سلم) فقد سلف أن مصب الغرض حديث النبأ والمنبأ والمنبأ به فقضى الوطر من الأولين مع الرمز الى الأخير ، ثم أخذ فيه مع الرمز اليهما قضاءاً لحق الاعجاز ، ففى الغيب إشارة إلى الغيب أعنى الساعة أول كل شىء وفيه ترق فى الدفع من وجه أيضا لأن العلم أشمل مورداً من القدرة ولأن الأول إنكار من حيث أنهم لم يرسلوه ، وهذا من تلك الحيثية ، ومن حيث أنهم ما علموا بإرسال غيره إياه أيضا مع إحاطة علمهم لكنه غير مقصود قصداً أولياً ، ثم ختم الكلام بالإضراب عن الإنكار إلى الاخبار عن حالهم بأنهم يريدون بك كيداً فهم ينصبون لك الحبائل قولا وفعلا

Marfat.com

لا يقفون على هذه المقالة وحدها وهم المـكيدون لا أنت قولا وفعلا وحجة وسيفاً ، وحقق ماضمنه من الوعيد بقوله سبحانه : (أم لهم إله غير الله) فينجيهم من كيده وعذابه لا والله سبحان الله عن أن يكون إله غيره، ومنه يظهر أن حمل الذين كفروا على المريدين به كيداً أظهر فى هذا المسـاق انتهى ، وكأن ما بعد تأكيداً لأمر (١) طغيانهم ومزيد تحقيق للوعيد ومبالغة فى التسلية ، ويعلم مما ذكره ـ لازالت رحمة الله تعـالى عليه متصلة ـ أن (أم) فى كل ذلك منقطعة وهى مقدرة ببل الاضرابية ، والاضراب ههنا واقع على سبيل الترقى وبالهمزة وهى للإنكار وهو ما اختاره أبو البقاء و كثير من المفسرين ، وحكى الثعلبى عن الخليـل أنها متصلة والمراد بها الاستفهام ، وعليك بما أفاده كلام ذلك الهمام والله تعالى أعلم*

﴿ ومما ذكروه من باب الاشارة فى بعض الآيات ﴾ (والطور) إشارة إلى قالب الانسان (وكتاب مسطور) إشارة إلى سره (فى رق منشور) إشارة إلى قلبه (والبيت المعمور) إشارة إلى روحه (والسقف المرفوع) إشارة إلى صفته (والبحر المسجور) إشارة إلى نفسه المسجورة بنيران الشهوة والغضب والكبر، وقيل : ـ الطور ـ إشارة إلى ماطار من الارواح من عالم القدس والملـكوت حتى وقع فى شباك عالم الملك ـ والـكتاب المسطور فى الرق المنشور ـ إشارة إلى النقوش الإلهية المدركة بأبصار البصائر القدسية المكتوبة فى صحائف الآفاق (والبيت المعمور) إشارة إلى قلب المؤمن المعمور بالمعرفة والاخلاص (والسقف المرفوع) إشارة إلى العالم العلوى المرفوع عن أرض الطبيعة (والبحر المسجور) إشارة إلى بحر القدرة المملوء من أنواع المقدورات التى لا تتناهى، وقيل : إشارة إلى الفضاء الذى فيه الملائـكة المهيمون ، ووصفه ـ بالمسجور ـ إما لأنه مملوء منهم ، وإما لأنه سجر بنيران الهيام ولذا لا يعلم أحدهم بسوى الله عز وجل ، وقيل : غير ذلك (فويل يومئذ للمكذبين الذين هم فى خوض يلعبون) أى يخوضون فى غمرات البحر اللجى الدنيوى ويلعبون فيها بزبدها الباطل ومتاعها القليل ويكذبون المستخلصين عن الاكدار المتحلين بالانوار إذ أنذروهم أن المتقين هم أضداد أولئك (فاكهين بما آتاهم ربهم) مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) وهو عذاب الحجاب (كلوا) من ثمرات المعارف المختصة باللطيفة النفسية (واشربوا) من مياه العيون المختصة باللطيفة القلبية (وسبح بحمد ربك حين تقوم) أى مقام العبودية (ومن الليل فسبحه) أى عند نزول السكينة عليك (وإدبار النجوم) أى عند ظهور نور شمس الوجه ، وتسبيحه سبحانه عند ذلك بالاحتراز عن إثبات وجود غير وجوده تعالى الحق فان إثبات ذلك شرك مطلق فى ذلك المقام أعاذنا الله تعالى وإياكم من الشرك بحرمة الحبيب عليه الصلاة والسلام*

(١) هكذا الأصل وصوابه «تأكيد لأمر طغيانهم» برفع تأكيد

Marfat.com

﴿سورة والنجم﴾

وتسمى أيضا سورة - النجم - بدون واو وهى ﴿مكية﴾ على الاطلاق ، وفى الاتقان استثنى منها (الذين يجتنبون) إلى اتقى ، وقيل : (أفرأيت الذى تولى) الآيات التسع ، ومن الغريب حكاية الطبرسى عن الحسن أنها مدنية . ولاأرى صحة ذلك عنه أصلا ، وآيها اثنتان وستون آية فى الكوفى ، وإحدى وستون فى غيره، وهى كما أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أول سورة أعلن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقراءتها فقرأها فى الحرم والمشركون يسمعون ، وأخرج البخارى . ومسلم . وأبو داود . والنسائى عنه قال: « أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم) فسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسجد الناس كلهم إلا رجلا رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافراً » وهو أمية بن خلف ، وفى البحر أنه عليه الصلاة والسلام سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والانس غير أبى لهب فانه رفع حفنة من تراب وقال : يكفى هذا ، فيحتمل أنه وأمية فعلا كذلك ، وهى شديدة المناسبة لماقبلها فان الطور ختمت بقوله تعالى : (إدبار النجوم) وافتتحت هذه بقوله سبحانه :(والنجم)وأيضا فى مفتتحها ما يؤكد رد الكفرة فيما نسبوه اليه صلى الله تعالى عليه وسلم من التقول والشعر والكهانة والجنون،وذكر أبو حيان أن سبب نزولها قول المشركين: إن محمداً عليه الصلاة والسلام يختلق القرآن ، وذكر الجلال السيوطى فى وجه مناسبتها أن الطور فيها ذكر ذرية المؤمنين وأنهم تبع لآبائهم وهذه فيها ذكر ذرية اليهود فى قوله تعالى : (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الارض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم) الآية فقد أخرج ابن المنذر . وابن أبى حاتم .والطبرى . وأبو نعيم فى المعرفة .والواحدى عن ثابت بن الحرث الانصارى « قال : كانت اليهود إذا هلك لهم صبى صغير قالوا هو صديق فبلغ ذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: كذبت يهود مامن نسمة يخلقها الله فى بطن أمها إلا أنه شقى أو سعيد فأنزل الله تعالى عند ذلك ﴿ وهو أعلم بكم) الآية كلها » وأنه تعالى لما قال هناك فى المؤمنين : (ألحقنا بهم ذريتهم) الخ قال سبحانه هنا فى الكفار ،أوفى الكبار : (وأن ليس للانسان إلا ماسعى) خلاف مادخل فى المؤمنين الصغار ، ثم قال : وهذا وجه بديع فى المناسبة من وادى التضاد ، وفى صحة كون قوله تعالى : (هو أعلم بكم) الآية نزل لما ذكر نظر عندى ، وكون قوله تعالى :(ألحقنا بهم ذريتهم) فى الصغار لم يتفق عليه المفسرون كما سمعت غير بعيد ، نعم من تأمل ظهر له وجوه من المناسبات غير ماذكر فتأمل ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أقسم سبحانه بجنس النجم المعروف على ماروى عن الحسن ومعمر بن المثنى ، ومنه قوله :

فباتت تعد النجم فى مستحيرة سريع بأيدى الآكلين جمودها

ومعنى (هوى) غرب ، وقيل: طلع يقال هوى يهوى كرمى يرمى هويا بالفتح فى السقوط والغروب لمشابهته له ؛ وهويا بالضم للعلو ،والطلوع ، وقيل: الهوى بالفتح للاصعاد والهوى بالضم للانحدار ؛ وقيل: الهوى بالفتح والضم السقوط ويقال أهوى بمعنى هوى ، وفرق بعض اللغويين بينهما بأن هوى إذا انقض لغير صيد،وأهوى

Marfat.com

إذا انقض له ، وقال الحسن . وأبو حمزة الثمالى: أقسم سبحانه بالنجوم إذا انتثرت فى القيامة ، وعن ابن عباس فى رواية أقسم عز وجل بالنجوم إذا انقضت فى إثر الشياطين، وقيل: المراد بالنجم معين فقال مجاهد. وسفيان: هو الثريا فإن النجم صار علما بالغلبة لها ، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : «إذا طلع النجم صباحا ارتفعت العاهة» وقول العرب: ـ طلع النجم عشاءاً فابتغى الراعى كساء ، طلع النجم غدية فابتغى الراعى كسية ـ وفسر هويها بسقوطها مع الفجر، وقيل: هو الشعرى المرادة بقوله تعالى: (وأنه هو رب الشعرى) والكهان يتكلمون على المغيبات عند طلوعها ، وقيل: الزهرة وكانت تعبد ، وقال ابن عباس . ومجاهد . والفراء. ومنذر بن سعيد : (النجم) المقدار النازل من القرآن على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، (وإذا هوى) بمعنى إذا نزل عليه مع ملك الوحى جبريل عليه السلام، وقال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه : هو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهويه نزوله من السماء ليلة المعراج، وجوز على هذا أن يراد بهويه صعوده وعروجه عليه الصلاة والسلام إلى منقطع الأين ، وقيل: هو الصحابة رضى الله تعالى عنهم، وقيل: العلماء على إرادة الجنس، والمراد بهويهم قيل: عروجهم فى معارج التوفيق إلى حضائر التحقيق ، وقيل : غوصهم فى بحار الافكار لاستخراج درر الأسرار . وأظهر الاقوال القول بأن المراد بالنجم جنس النجم المعروف فان أصله اسم جنس لكل كوكب، وعلى القول بالتعيين فالأظهر القول بأنه الثريا، ووراء هذين القولين القول بأن المراد به المقدار النازل من القرآن، وفى الإقسام بذلك على نزاهته عليه الصلاة والسلام عن شائبة الضلال والغواية من البراعة البديعة وحسن الموقع مالا غاية وراءه ، أما على الأولين فلأن النجم شأنه أن يهتدى به السارى إلى مسالك الدنيا كأنه قيل : (والنجم) الذى تهتدى به السابلة إلى سواء السبيل ﴿ مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ أى ماعدل عن طريق الحق الذى هو مسلك الآخرة فهو استعارة وتمثيل لكونه عليه الصلاة والسلام على الصواب فى أقواله وأفعاله ﴿ وَمَاغَوَىٰ ٢ ﴾ أى وما اعتقد باطلا قط لان الغى الجهل مع اعتقاد فاسد وهو خلاف الرشد فيكون عطف هذا على (ماضل) من عطف الخاص على العام اعتناءاً بالاعتقاد ، وإشارة إلى أنه المدار ٭

وأما على الثالث فلأنه تنويه بشأن القرآن وتنبيه على مناط اهتدائه عليه الصلاة والسلام ومدار رشاده كأنه قيل : وما أنزل عليك من القرآن الذى هو علم فى الهداية إلى مناهج الدين ومسالك الحق واليقين (ماضل) عنها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم (وماغوى) فهو من باب ٭ وثنايا كأنها إغريض ٭ والخطاب لقريش وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان المصاحبة لهم للايذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة وإحاطتهم خبراً ببراءته صلى الله تعالى عليه وسلم مما نفى عنه بالكلية وباتصافه عليه الصلاة والسلام بغاية الهدى والرشاد فان طول صحبتهم له عليه الصلاة والسلام ومشاهدتهم لمحاسن شئونه العظيمة مقتضية لذلك حتما فنى ذلك تأكيد لاقامة الحجة عليهم ، واختلف فى متعلق إذا قال بعضهم : فاوضت جار الله فى قوله تعالى : (والنجم إذا هوى) فقال: العامل فيه ما تعلق به الواو فقلت : كيف يعمل فعل الحال فى المستقبل ؟! وهذا لأن معناه أقسم الآن لا أقسم بعد هذا ، فرجع وقال : العامل فيه مصدر محذوف، والتقدير ـ وهوى النجم اذا هوى ـ فعرضته على بعض المشايخ فلم يستحسن قوله الثانى ، والوجه تعلقه بأقسم وهو قد انسلخ عنه معنى الاستقبال وصار للوقت المجرد ونحوه آتيك إذا احمر البسر أي وقت احمراره ، وقال عبد القاهر : إخبار الله تعالى بالمتوقع يقام مقام الإخبار بالواقع

Marfat.com

إذا لاخلف فيه فيجرى المستقبل مجرى المحقق الماضى ، وقيل : إنه متعلق بعامل هو حال من النجم ، وأورد عليه أن الزمان لايكون خبرا ولا حالا عن جثة كما هنا ، وأن (إذا) للمستقبل فكيف يكون حالا إلا أن تكون حالا مقدرة أوتجرد (إذا) لمطلق الوقت كما يقال بصحبة الحالية إذا أفادت معنى معتداً به ، فمجىء الزمان خبراً أو حالا عن جثة ليس ممنوعا على الاطلاق كما ذكره النحاة ، أو النجم لتغيره طلوعا وغروبا أشبه الحدث ، والانصاف أن جعله حالا كتعلقه بمصدر محذوف ليس بالوجه ، وإنما الوجه ، - على ما قيل - ما سمعت من تعلقه بأقسم منسلخا عنه معنى الاستقبال وهو الذى اختاره فى المغنى ، وتخصيص القسم بوقت الهوى ظاهر على الأخير من الأقوال الثلاثة ، وأما على الأولين فقيل : لان النجم لايهتدى به السارى عند كونه فى وسط السماء ولا يعلم المشرق من المغرب ولا الشمال من الجنوب ، وإنما يهتدى به عند هبوطه ، أو صعوده مع مافيه من كمال المناسبة لما سيحكى من التدلى والدنو ، وقيل: لدلالته على حدوثه الدال على الصانع وعظيم قدرته عز وجل كما قال الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأكمل السلام (لاأحب الآفلين) وسيأتى إن شاء الله تعالى آخر الكتاب تمام الكلام فى تحقيق إعراب مثل هذا التركيب فلاتغفل ﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لتقدم ذكره فى قوله سبحانه:(صاحبكم) والنطق مضمن معنى الصدور فلذا عدى بعن فى قوله تعالى : ﴿عَنِ الْهَوَىٰ ٣﴾ وقيل : هى بمعنى الباء وليس بذاك أى مايصدر نطقه فيما آتاكم به من جهته عز وجل كالقرآن ، أومن القرآن عن هوى نفسه ورأيه أصلا فان المراد استمرار النفى كما مر مراراً فى نظائره ﴿إِنْ هُوَ﴾ أى ما الذى ينطق به من ذلك أو القرآن وكل ذلك مفهوم من السياق ﴿إِلَّا وَحْىٌ﴾ من الله عز وجل ﴿يُوحَىٰ ٤﴾ يوحيه سبحانه اليه ، والجملة صفة مؤكدة لوحى رافعة لاحتمال المجاز مفيدة للاستمرار التجددى ، وقيل : ضمير (ينطق) للقرآن فالآية كقوله تعالى : (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) وهو خلاف الظاهر ، وقيل : المراد مايصدر نطقه عليه الصلاة والسلام مطلقاً عن هوى وهو عائد لما ينطق به مطلقا أيضا.

واحتج بالآية على هذا التفسير من لم ير الاجتهاد له عليه الصلاة والسلام كابى على الجبائى وابنه أبى هاشم ، ووجه الاحتجاج أن الله تعالى أخبر بأن جميع ماينطق به وحى وما كان عن اجتهاد ليس بوحى فليس مما ينطق ، وأجيب بأن الله تعالى إذا سوغ له عليه الصلاة والسلام الاجتهاد كان الاجتهاد وما يسند اليه وحياً لانطقاً عن الهوى ، وحاصله منع كبر القياس ، واعترض عليه بأنه يلزم أن تكون الأحكام التى تستنبطها المجتهدون بالقياس وحياً ، وأجيب بأن النبى عليه الصلاة والسلام أوحى اليه أن يجتهد بخلاف غيره من المجتهدين ، وقال القاضى البيضاوى : إنه حينئذ بالوحى لاوحى ، وتعقبه صاحب الكشف بأنه غير قادح لأنه بمنزلة أن يقول الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : متى ما ظننت بكذا فهو حكمى أى كل ما ألقيته فى قلبك فهو مرادى فيكون وحياً حقيقة ، والظاهر أن الآية واردة فى أمر التنزيل بخصوصه وإن كان مثله الاحاديث القدسية والاستدلال بها على أنه عليه الصلاة والسلام غير متعبد بالوحى محوج لارتكاب خلاف الظاهر وتكلف فى دفع نظر البيضاوى عليه الرحمة كما لايخفى على المنصف ، ولا يبعد عندى أن يحمل قوله تعالى :(وما ينطق عن الهوى) على العموم فان من يرى الاجتهاد له عليه الصلاة والسلام كالامام أحمد . وأبى يوسف عليهما الرحمة

Marfat.com

لا يقول بأن ما ينطق به صلى الله تعالى عليه وسلم مما أدى اليه اجتهاده صادر عن هوى النفس وشهوتها حاشا حضرة الرسالة عن ذلك وإنما يقول هو واسطة بين ذلك وبين الوحى ويجعل الضمير فى قوله سبحانه : (إن هو إلا وحى) للقرآن على أن الكلام جواب سؤال مقدر كأنه قيل . إذا كان شأنه عليه الصلاة والسلام أنه ماينطق عن الهوى فما هذا القرآن الذى جاء به وخالف فيه ما عليه قومه واستمال به قلوب كثير من الناس وكثرت فيه الاقاويل ؟ فقيل : ماهو إلا وحى يوحيه الله عز وجل اليه صلى الله تعالى عليه وسلم فتأمل ،وفى الكشف أن فى قوله تعالى : (ماينطق)مضارعاً مع قوله سبحانه :(ماضل)(وماغوى)مايدل على أنه عليه الصلاة والسلام حيث لم يكن له سابقة غواية وضلال منذ تميز وقبل تحنكه واستنبائه لم يكن له نطق عن الهوى كيف وقد تحنك ونبئ، وفيه حث لهم على أن يشاهدوا منطقه الحكيم ﴿عَلَّمَهُ﴾ الضمير للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والمفعول الثانى محذوف أى القرآن، أو الوحى ،وجوز أبو حيان كون الضمير للقرآن، وأن المفعول الأول محذوف أى علمه الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ ٥﴾هو جبريل عليه السلام كما قال ابن عباس. وقتادة . والربيع ، فانه الواسطة فى إبداء الخوارق وناهيك دليلا على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط من الماء الاسود الذى تحت الثرى وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح بثمود صيحة فأصبحوا جاثمين وكان هبوطه على الأنبياء عليهم السلام وصعوده فى أسرع من رجعة الطرف ، فهو لعمرى أسرع من حركة ضياء الشمس على ماقرروه فى الحكمة الجديدة ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذو حصافة واستحكام فى العقل كما قال بعضهم ، فكأن الأول وصف بقوة الفعل ، وهذا وصف بقوة النظر والعقل لكن قيل : إن ذاك بيان لما وضع له اللفظ فان العرب تقول لكل قوى العقل والرأى (ذو مرة) من أمررت الحبل إذا أحكمت فتله. وإلا فوصف الملك بمثله غير ظاهر فهو كناية عن ظهور الآثار البديعة ، وعن سعيد بن المسيب ذو حكمة لأن كلام الحكماء متين، وروى الطستى أن نافع بن الازرق سأل ابن عباس عنه فقال:ذو شدة فى أمر الله عز وجل واستشهد له ، وحكى الطيبى عنه أنه قال:ذو منظر حسن واستصوبه الطبرى، وفى معناه قول مجاهد،ذو خلق حسن:وهو فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لاتحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوىّ » بمعنى ذى قوة ،وفى الكشف إن المِرّةَ لأنها فى الأصل تدل على المرة بعد المرة تدل على زيادة القوة فلا تغفل ﴿فَاسْتَوَىٰ ٦﴾ أى فاستقام على صورته الحقيقية التى خلقه الله تعالى عليها وذلك عند حراء فى مبادى النبوة وكان له عليه الصلاة والسلام - كما فى حديث أخرجه الامام أحمد . وعبد بن حميد . وجماعة عن ابن مسعود - ستمائة جناح كل جناح منها يسد الأفق فالاستواء ههنا بمعنى اعتدال الشئ فى ذاته كما قال الراغب ، وهو المراد بالاستقامة لاضد الاعوجاج ، ومنه استوى الثمر إذا نضج ، وفى الكلام على ماقال الخفاجى : طى لأن وصفه عليه السلام بالقوة وبعض صفات البشر يدل على أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رآه فى غير هيئته الحقيقية وهذا تفصيل لجواب سؤال مقدر كأنه قيل : فهل رآه على صورته الحقيقية :فقيل؟ نعم رآه فاستوى الخ، وفى الارشاد أنه عطف على علمه بطريق التفسير فانه إلى قوله تعالى: (ماأوحى) بيان لكيفية التعليم،وتعقب بأن الكيفية غير منحصرة فيما ذكر،ومن هنا قيل : إن الفاء للسببية فان تشكله عليه السلام بشكله يتسبب عن قوته وقدرته على الخوارق أو عاطفة على (علمه) على معنى علمه على غير صورته الاصلية،ثم استوى على صورته الاصلية وتعقب بأنه لايتم به التئام الكلام ويحسن به النظام ، وقيل:

Marfat.com

استوى بمعنى ارتفع والعطف على علم ، والمعنى ارتفع إلى السماء بعد أن علمه وأكثر الآثار تقتضى ماتقدم * ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ٧ ﴾ أى الجهة العليا من السماء المقابلة للناظر ،وأصله الناحية وما ذكره أهل الهيئة معنى اصطلاحى وينقسم عندهم إلى حقيقى وغيره كما فصل فى محله ، وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس أن المراد به هنا مطلع الشمس وفى معناه قول الحسن : هو أفق المشرق،والجملة فى موضع الحال من فاعل استوى،وقال الفراء . والطبرى:إن هو عطف على الضمير المستتر فى استوى وهو عائد إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كما أن ذلك عائد لجبريل عليه السلام،وجوز العكس،والجار متعلق باستوى وفيه العطف على الضمير المرفوع من غير فصل، وهو مذهب الكوفيين مع أن المعنى ليس عليه عند الأكثرين ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ أى ثم قرب جبريل عليه السلام من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ فَتَدَلَّىٰ ٨ ﴾ فتعلق جبريل عليه عليه الصلاة والسلام فى الهواء،ومنه تدلت الثمرة ودلى رجليه من السرير . والدوالى الثمر المعلق كعناقيد العنب وأنشدوا لابى ذؤيب يصف مشتار عسل:

تدلى عليها بين سب وخيطة بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها

ومن أسجاع ابنة الخس - كن حذراً كالقرلى إن رأى خيراً تدلى،وإن رأى شراً تولى-فالمراد بالتدلى دنو خاص فلا قلب ولا تأويل بإرادة الدنو كما فى الايضاح،نعم إن جعل بمعنى التنزل من علو كما يرشد إليه الاشتقاق كان له وجه ﴿ فَكَانَ ﴾ أى جبريل عليه السلام من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ أى من قسى العرب لأن الاطلاق ينصرف إلى متعارفهم ،والقاب،وكذا القيب.والقاد.والقيد.والقيس المقدار، وقرأ زيد بن على قاد ، وقرىء قيد وقدر ،وقد جاء التقدير بالقوس كالرمح والذراع وغيرهما ، ويقال على ما بين مقبض القوس وسيتها،وهى ماعطف من طرفيها فلكل قوس قابان،وفسر به هنا قيل:وفى الكلام عليه قلب أى فكان قابى قوس،وفى الكشف لك أن تقول قابا قوس وقاب قوسين واحد دون قلب ، وعن مجاهد.والحسن أن قاب القوس ما بين وترها ومقبضها ولا حاجة إلى القلب عليه أيضا فإن هذا على ما قال:الخفاجى إشارة إلى ما كانت العرب فى الجاهلية تفعله إذا تحالفوا فإنهم كانوا يخرجون قوسين ويلصقون إحداهما بالأخرى فيكون القاب ملاصقا للآخر حتى كأنهما ذا قاب واحد ثم ينزعونهما معا ويرمون بهما سهماً واحداً فيكون ذلك إشارة إلى أن رضا أحدهم رضا الآخر وسخطه سخطه لا يمكن خلافه،وعن ابن عباس القوس هنا ذراع يقاس به الأطوال وإليه ذهب أبو رزين،وذكر الثعلبى أنه من لغة الحجاز،وأياً ما كان فالمعنى على حذف مضاف- أى فكان ذا قاب قوسين - ونحوه قوله :

فادرك إبقاء العرادة ظلعها وقد جعلتنى من (خزيمة أصبعا)

فإنه على معنى ذا مقدار أصبع وهو القرب فكأنه قيل فكان قريبا منه،وجوز أن يكون ضمير كان للمسافة بتأويلها بالبعد ونحوه فلا حاجة الى اعتبار الحذف وليس بذاك ﴿ أَوْ أَدْنَىٰ ٩ ﴾ أى أو أقرب من ذلك،و(أو) لله تعالى من جهة العباد على معنى إذا رآه الرائى يقول هو قاب قوسين أو أدنى،والمراد إفادة شدة القرب ﴿ فَأَوْحَىٰ ﴾ أى جبريل عليه السلام ﴿ إِلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ أى عبد الله وهو النبي ﷺ ، والاضمار ولم يجر له تعالى ذكر لكونه فى غاية الظهور ومثله كثير فى الكلام ، ومنه (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة)

Marfat.com

وقوله سبحانه: (إناأنزلناة فى ليلة القدر) ﴿مَا أَوْحَىٰ ١٥﴾ أى الذى أوحاه والضمير المستتر لجبريل عليه السلام أيضا، وإبهام الموحى به للتفخيم فهذا نظير قوله تعالى :(فغشيهم من اليم ماغشيهم) وقال أبو زيد:الضمير المستتر لله عز وجل أى أوحى جبريل إلى عبد الله ماأوحاه الله إلى جبريل، والأول مروى عن الحسن وهو الأحسن، وقيل.ضمير(أوحى) الأول والثانى لله تعالى، والمراد بالعبد جبريل عليه السلام وهو كما ترى ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ أى فؤاد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿مَا رَأَىٰ ١١﴾ مارآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام أى ماقال فؤاده صلى الله تعالى عليه وسلم لما رآه ببصره لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذبا لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره فهو من قولهم كذب إذاقال كذبا فما كذب بمعنى ماقال الكذب، وقيل: أى(ما كذب الفؤاد) البصر فيما حكاه له من صورة جبريل عليه السلام وما فى عالم الملكوت تدرك أولا بالقلب ثم تنتقل منه إلى البصر . قرأ أبو رجاء وأبو جعفر . وقتادة.والجحدرى . وخالد بن الياس . وهشام عن ابن عامر(ما كذب) مشدداً أى صدقه ولم يشك أنه جبريل عليه السلام بصورته، وفى الآيات من تحقيق أمر الوحى مافيها ، وفى الكشف أنه لما قال سبحانه : (إن هو إلا وحى) أى من عند الله تعالى(يوحى) ذكر جل وعلا مايصور هذا المعنى ويفصله ليتأكد أنه وحى وأنه ليس من الشعر وحديث الكهان فى شىء فقال تعالى (علم صاحبكم) هذاالوحى من هو على هذه الصفات، وقوله تعالى : (فاستوى) وحديث قيامه بصورته الحقيقية ليؤكد أن مايأتيه فى صورة دحية هو هو فقد رآه بصورة نفسه وعرفه حق معرفته فلا يشتبه عليه بوجه ، وقوله تعالى : (ثم دنا فتدلى) تتميم لحديث نزوله اليه عليه الصلاة.والسلام وإتيانه بالمنزل ، وقوله سبحانه : (فأوحى) أى جبريل ذلك الوحى الذى مر أنه من عند الله تعالى إلى عبدالله وإنما قال سبحانه : - ما أوحى - ولم يأت بالضمير تفخيما لشأن المنزل وأنه شىء يجل عن الوصف فأنى يستجيز أحد من نفسه أن يقول إنه شعر أو حديث كاهن، وإيثار عبده بدل اليه أى إلى صاحبكم لإضافة الاختصاص وإيثار الضمير على الاسم العلم فى هذا المقام لترشيحه وأنه ليس عبداً إلا له عز وجل فلا لبس لشهرته بأنه عبد الله لاغير ، وجاز أن يكون التقدير فأوحى الله تعالى بسببه أى بسبب هذا المعلم إلى عبده ففى الفاء دلالة على هذا المعنى وهذا وجه أيضا سديد ، ثم قال سبحانه : (ما كذب الفؤاد ما رأى) على معنى أنه لما عرفه وحققه لم يكذبه فؤاده بعد ذلك ولو تصور بغير تلك الصورة إنه جبريل ، فهذا نظم سرى مرعى فيه النكت حق الرعاية مطابق للوجود لم يعدل به عن واجب الوفاق بين البداية والنهاية انتهى *

وهو كلام نفيس يرجح به ماروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها وسيأتى ذلك إن شاء الله عز وجل بماله وعليه

﴿أَفَتُمَارُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢﴾ أى أتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة فتمارونه عطف على محذوف على ماذهب اليه الزمخشرى من المراء وهو المجادلة واشتقاقه من مرى الناقة إذا مسح ظهرها وضرعها ليخرج لبنها وتدر به فشبه به الجدال لأن كلا من المتجادلين يطلب الوقوف على ماعند الآخر ليلزمه الحجة فكأنه يستخرج درّه *

وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . وعبدالله.وابن عباس.والجحدرى.ويعقوب.وابن سعدان.وحمزة.والكسائى. وخلف (أفتمرونه) بفتح التاء وسكون الميم مضارع مريت أى جحدت يقال:مريته حقه إذا جحدته ، وأنشدوا لإياه قول الشاعر :

لئن هجرت أخا صدق ومكرمة لقد (مريت) أخا ماكان يمريكا

Marfat.com

أو مضارع مريته إذا غلبته فى المراء على أنه من باب المغالبة، ويجوز حمل مافى البيت عليه وعدى الفعل بعلى وكان حقه أن يعدى بفى لتضمينه معنى المغالبة فان المجادل والجاحد يقصدان بفعلهما غلبة الخصم، وقرأ عبدالله فيما حكى ابن خالويه. والشعبي فيما ذكر شعبة (أفتمرونه) بضم التاء وسكون الميم مضارع أمريت قال أبو حاتم: وهو غلط ، والمراد بما يرى مارآه من صورة جبريل عليه السلام، وعبر بالمضارع استحضاراً للصورة الماضية لما فيها من الغرابة، وفى البحر جئ بصيغة المضارع وإن كانت الرؤية قد مضت إشارة إلى ما يمكن حدوثه بعد، وقيل: المراد (أفتمارونه على مايرى) من الصور التى يظهر بها جبريل عليه السلام بعد مارآه قبل وحققه بحيث لا يشتبه عليه بأى صورة ظهر فالتعبير بالمضارع على ظاهره ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ ﴾ أى رأى النبى جبريل ﷺ فى صورته التى خلقه الله تعالى عليها ﴿ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣ ﴾ أى مرة أخرى من النزول وهى فعلة من النزول أقيمت مقام المرة ونصبت نصبها على الظرفية لأن أصل المرة مصدر مرّ يمر ولشدة اتصال الفعل بالزمان يعبر به عنه ولم يقل مرة بدلها ليفيد أن الرؤية فى هذه المرة كانت بنزول ودنو كالرؤية فى المرة الاولى الدال عليها مامر ، وقال الحوفى. وابن عطية: إن نزلة منصوب على المصدرية للحال المقدرة أى نازلا نزلة ، وجوز أبو البقاء كونه منصوبا على المصدرية - لرأى - من معناه أى رؤية أخرى وفيه نظر ، والمراد من الجملة القسمية نفى الريبة والشك عن المرة الاخيرة وكانت ليلة الاسراء ﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ هى شجرة نبق عن يمين العرش فى السماء السابعة على المشهور، وفى حديث أخرجه أحمد. ومسلم. والترمذى. وغيرهم فى السماء السادسة نبقها كقلال هجر وأوراقها مثل آذان الفيلة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها، وأخرج الحاكم وصححه عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنهما مرفوعا « يسير الراكب فى الفنن منها مائة سنة » والاحاديث ظاهرة فى أنها شجرة نبق حقيقة ٭ والنبات فى الشاهد يكون ترابيا ومائيا وهوائيا ، ولا يبعد من الله تعالى أن يخلقه فى أى مكان شاء وقد أخبر سبحانه عن شجرة الزقوم أنها تنبت فى أصل الجحيم ، وقيل : إطلاق السدرة عليها مجاز لانها تجتمع عندها الملائكة عليهم السلام كما يجتمع الناس فى ظل السدرة، و(المنتهى) اسم مكان وجوز كونه مصدراً ميمياً ، وقيل : لها (سدرة المنتهى) لانها كما أخرج عبد بن حميد. وابن أبى حاتم عن ابن عباس اليها ينتهى علم كل عالم وماوراءها لا يعلمه إلا الله تعالى ، أو لانها ينتهى اليها علم الانبياء عليهم السلام ويعزب علمهم عما وراءها . أو لانها تنتهى اليها أعمال الخلائق بأن تعرض على الله تعالى عندها، أو لانها ينتهى اليها ماينزل من فوقها وما يصعد من تحتها . أو لانها تنتهى اليها أرواح الشهداء أو أرواح المؤمنين مطلقا . أو لانتهاء من رفع اليها فى الكرامة ، وفى الكشاف كأنها منتهى الجنة وآخرها، وإضافة (سدرة) إلى (المنتهى) من إضافة الشئ لمحله كما فى أشجار البستان، وجوز أن تكون من إضافة المحل إلى الحال كما فى قولك كتاب الفقه ، وقيل : يجوز أن يكون المراد بالمنتهى الله عز وجل فالاضافة من إضافة الملك إلى المالك أى (سدرة) الله الذى اليه (المنتهى) كما قال سبحانه : (وأن إلى ربك المنتهى) وعد ذلك من باب الحذف والايصال ولا يخفى أن هذا القول يكاد يكون المنتهى فى البعد ﴿ عِندَهَا ﴾ أى عند السدرة ، وجوز أن يكون الضمير للنزلة وهو نازل عن رتبة القبول ﴿ جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ١٥ ﴾ التى يأوى اليها المتقون يوم القيامة كما روى عن الحسن ، واستدل به على أن الجنة فى السماء ، وقال ابن عباس بخلاف عنه . وقتادة:

Marfat.com

هى جنة تأوى اليها أرواح الشهداء وليست بالتى وعد المتقون ،وقيل : هى جنة تأوى اليها الملائكة عليهم السلام والاول أظهر ، والمأوى على مانص عليه الجمهور اسم مكان وإضافة الجنة اليه بيانية ، وقيل : من إضافة الموصوف إلى الصفة كما فى مسجد الجامع ، وتعقب بأن اسم المكان لا يوصف به ، والجملة حالية ،وقيل : الحال هو الظرف، و(جنة) مرتفع به على الفاعلية ، وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . وأبو الدرداء . وأبو هريرة . وابن الزبير . وأنس . وزر . ومحمد بن كعب . وقتادة : (جنه) بهاء الضمير وهو ضمير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجن فعل ماض أى عندها ستره إيواء الله تعالى ، وجميل صنعه به ، أو ستره المأوى بظلاله ودخل فيه على أن (المأوى) مصدر ميمى ، أو اسم مكان ، وجنه بمعنى ستره ، قال أبو البقاء :شاذ والمستعمل أجنه ،ولهذا قالت عائشة رضى الله تعالى عنها . وكذا جمع من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين : من قرأ به فأجنه الله تعالى أى جعله مجنوناً أو أدخله الجنن وهو القبر ، وأنت تعلم أنه إذا صح أنه قرأ به الامير كرم الله تعالى وجهه ومن معه من أكابر الصحابة فليس لأحد رده من حيث الشذوذ فى الاستعمال ، وعائشة قد حكى عنها الاجازة أيضا ه

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ متعلق برآه ، وقيل : بما بعد من الجملة المنفية ولا يضر التقدم على (ما) النافية للتوسع فى الظرف والغشيان بمعنى التغطية والستر ،ومنه الغواشى أو بمعنى الاتيان يقال فلان يغشى زيداً كل حين أى يأتيه . والأول هو الأليق بالمقام،وفى إبهام (مايغشى) من التفخيم مالا يخفى فكأن الغاشى أمر لا يحيط به نطاق البيان ولا تسعه أردان الاذهان،وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها البديعة،وجوز أن يكون للايذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد،وورد فى بعض الاخبار تعيين هذا الغاشى،فعن الحسن غشيها نور رب العزة جل شأنه فاستنارت . ونحوه ماروى عن أبى هريرة يغشاها نور الخلاق سبحانه ، وعن ابن عباس غشيها رب العزة عز وجل وهو من المتشابه،وقال ابن مسعود . ومجاهد . وابراهيم : يغشاها جراد من ذهب ،وروى عن مجاهد أن ذلك تبدل أغصانها لؤلؤاً وياقوتا وزبرجداً ه

وأخرج عبد بن حميد عن سلمة قال : استأذنت الملائكة الرب تبارك وتعالى أن ينظروا إلى النبي ﷺ فأذن لهم فغشيت الملائكة السدرة لينظروا اليه عليه الصلاة والسلام ، وفى حديث «رأيت على كل ورقة من ورقها ملكا قائماً يسبح الله تعالى» وقيل : يغشاها رفرف من طير خضر ، والابهام على هذا كله على نحو ماتقدم ه

﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ ﴾ أى ما مال بصر رسول الله صلى الله تعالى عليه عما رآه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما تجاوزه بل أثبته إثباتا صحيحاً مستيقناً،وهذا تحقيق للامر ونفى للريب عنه ، أو ماعدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها وما جاوزها إلى مالم يؤمر برؤيته ه

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ١٨﴾ أى والله لقد رأى الآيات الكبرى من آياته تعالى وعجائبه الملكية والملكوتية ليلة المعراج.فالكبرى.صفة موصوف محذوف مفعول لرأى أقيمت مقامه بعد حذفه وقدر مجموعا ليطابق الواقع،وجوز أن تكون (الكبرى) صفة المذكور على معنى،و(لقد رأى) بعضا من الآيات الكبرى،ورجح الأول بأن المقام يقتضى التعظيم والمبالغة فينبغى أن يصرح بأن المرأى الآيات الكبرى وجوزت الوصفية المذكورة مع كون من مزيدة،وأنت تعلم أن زيادة من فى الاثبات ليس مجمعا على جوازه ، وجاء فى بعض الأخبار تعيين مارأى عليه الصلاة والسلام،أخرج البخارى.وابن جرير.وابن المنذر.وجماعة عن ابن مسعود أنه قال فى

Marfat.com

الآية رأى رفرفا أخضر من الجنة قد سد الأفق . وعن ابن زيد رأى جبريل عليه السلام فى الصورة التى هو بها،والذى ينبغى أن لايحمل ذلك على الحصر كما لايخفى فقد رأى عليه الصلاة والسلام آيات كبرى ليلة المعراج لاتحصى ولا تكاد تستقصى ﴿هذا وفى الآيات﴾ أقوال غير ما تقدم ، فعن الحسن أن (شديد القوى) هو الله تعالى،وجمع (القوى) للتعظيم ويفسر (ذومرة) عليه بذى حكمة ونحوه مما يليق أن يكون وصفا له عزوجل،وجعل أبو حيان الضميرين فى قوله تعالى: (فاستوى وهو بالأفق الأعلى) عليه له سبحانه أيضاً.وقال: إن ذلك على معنى العظمة والقدرة والسلطان،ولعل الحسن يجعل الضمائر فى قوله سبحانه:(ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أوأدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى) له عز وجل أيضاً،وكذا الضمير المنصوب فى قوله تعالى : (ولقد رآه نزلة أخرى) فقد كان عليه الرحمة يحلف بالله تعالى ، لقد رأى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ربه وفسر دنوه تعالى من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم برفع مكانته ﷺ عنده سبحانه وتدليه جل وعلا بجذبه بشراشره إلى جانب القدس ، ويقال لهذا الجذب : الفناء فى الله تعالى عند المتألهين ، وأريد بنزوله سبحانه نوع من دنوه المعنوى جل شأنه *

ومذهب السلف فى مثل ذلك إرجاع علمه إلى الله تعالى بعد نفى التشبيه ، وجوز أن تكون الضمائر فى(دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) على ماروى عن الحسن للنبى ﷺ ، والمراد ثم دنا النبى عليه الصلاة والسلام من ربه سبحانه فكان منه عز وجل (قاب قوسين أو أدنى) والضمائر فى(فأوحى) الخ لله تعالى ، وقيل : (إلى عبده) ولم يقل اليه للتفخيم ، وأمر المتشابه قد علم، وذهب غير واحد فى قوله تعالى : (علمه شديد القوى) إلى قوله سبحانه: (وهو بالأوفق الأعلى) إلى أنه فى أمر الوحى وتلقيه من جبريل عليه السلام على ماسمعت فيما تقدم، وفى قوله تعالى : (ثم دنا فتدلى) الخ إلى أنه فى أمر العروج إلى الجناب الأقدس ودنوه سبحانه منه صلى الله تعالى عليه وسلم ورؤيته عليه السلام إياه جل وعلا فالضمائر فى (دنا،وتدلى) وكان و(أوحى) وكذا الضمير المنصوب فى(رآه) لله عز وجل،ويشهد لهذا ما فى حديث أنس عند البخارى من طريق شريك بن عبدالله «ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى اليه فيما أوحى خمسين صلاة » الحديث ، فأنه ظاهر فيما ذكر *

واستدل بذلك مثبتو الرؤية كحبر الامة ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وغيره،وادعت عائشة رضى الله تعالى عنها خلاف ذلك ،أخرج مسلم عن مسروق قال : « كنت متكئا عند عائشة فقالت: ياأبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله تعالى الفرية قلت ماهن؟قالت:من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية،قال: وكنت متكئا فجلست فقلت : يا أم المؤمنين أنظرينى ولا تعجلينى ألم يقل الله تعالى: (ولقد رآه بالأفق المبين) (ولقد رآه نزلة أخرى)؟فقالت : أنا أول هذه الامة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقال:لا إنما هو جبريل لم أره على صورته الذى خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء ساداً عظم خلقه مابين السماء إلى الأرض» الحديث ، وفى رواية ابن مردويه من طريق أخرى عن داود بن أبى هند عن الشعبى عن مسروق « فقالت : أنا أول من سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن هذا فقلت: يارسول الله هل رأيت ربك؟ فقال : إنما رأيت جبريل منهبطا » ولا يخفى أن جواب رسول الله عليه الصلاة والسلام ظاهر فى أن الضمير المنصوب فى (رآه) ليس راجعاً اليه تعالى بل إلى جبريل عليه السلام ، وشاع أنها تنفى أن يكون صلى الله تعالى عليه وسلم رأى ربه سبحانه مطلقاً ، وتستدل لذلك بقوله تعالى : (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) وقوله

Marfat.com

سبحانه (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) وهو ظاهر ماذكره البخارى فى صحيحه فى تفسير هذه السورة ، وقال بعضهم : إنها إنما تنفى رؤية تدل عليها الآية التى نحن فيها وهى التى احتج بها مسروق *

وحاصل ماروى عنها نفى صحة الاحتجاج بالآية المذكورة على رؤيته عليه الصلاة والسلام ربه سبحانه ببيان أن مرجع الضمير فيها إنما هو جبريل عليه السلام على مايدل عليه جواب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إياها، وحمل قوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى جوابها «لا» على أنه نفى للرؤية المخصوصة وهى التى يظن دلالة الآية عليها ويرجع إلى نفى الدلالة ولا يلزم من انتفاء الخاص انتفاء المطاق ، والانصاف أن الاخبار ظاهرة فى أنها تنفى الرؤية مطلقاً ، وتستدل عليه بالآيتين السابقتين ، وقد أجاب عنهما مثبتو الرؤية بما هو مذكور فى محله، والظاهر أن ابن عباس لم يقل بالرؤية إلا عن سماع ، وقد أخرج عنه أحمد أنه قال: «قال رسول الله ﷺ : رأيت ربى » ذكره الشيخ محمد الصالحى الشامى تلميذ الحافظ السيوطى فى الآيات البينات وصححه ، وجمع بعضهم بين قولى ابن عباس. وعائشة بأن قول عائشة محمول على نفى رؤيته تعالى فى نوره الذى هو نوره المنعوت بأنه لا يقوم له بصر، وقول ابن عباس محمول على ثبوت رؤيته تعالى فى نوره الذى لا يذهب بالأبصار بقرينة قوله فى جواب عكرمة عن قوله تعالى : (لاتدركه الأبصار) : ويحك ذاك إذا تجلى بنوره الذى هو نوره ، وبه يظهر الجمع بين حديثى أبى ذر ، أخرج مسلم من طريق يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبى ذر قال : سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : « نورانى أراه » ومن طريق هشام . وهمام كلاهما عن قتادة عن عبد الله قال : قلت لأبى ذر لو رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لسألته فقال : عن أى شئ كنت تسأله ؟ قال : كنت أسأله هل رأيت ربك ؟ فقال أبو ذر : قد سألته فقال : « رأيت نوراً » فيحمل النور فى الحديث الاول على النور القاهر للابصار بجعل التنوين للنوعية أو للتعظيم ، والنور فى الثانى على مالا يقوم له البصر والتنوين للنوعية، وإن صحت رواية الاول كما حكاه أبو عبد الله المازرى بلفظ «نورانى» بفتح الراء وكسر النون وتشديد الياء لم يكن اختلاف بين الحديثين ويكون نورانى بمعنى المنسوب إلى النور على خلاف القياس ويكون المنسوب اليه هو نوره الذى هو نوره ، والمنسوب هو النور المحمول على الحجاب حمل مواطأة فى حديث السبحات فى قوله عليه الصلاة والسلام : « حجابه النور » وهو النور المانع من الإحراق الذى يقوم له البصر

ثم إن القائلين بالرؤية اختلفوا، فمنهم من قال : إنه عليه الصلاة والسلام رأى ربه سبحانه بعينه ، وروى ذلك ابن مردويه عن ابن عباس ، وهو مروى أيضا عن ابن مسعود . وأبى هريرة . وأحمد بن حنبل ، ومنهم من قال : رآه عز وجل بقلبه ، وروى ذلك عن أبى ذر ، أخرج النسائى عنه أنه قال : « رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه ولم يره ببصره » وكذا روى عن محمد بن كعب القرظى بل أخرج عبد بن حميد . وابن المنذر . وابن أبى حاتم عنه أنه قال : قالوا : يارسول الله رأيت ربك ؟ قال : « رأيته بفؤادى مرتين ولم أره بعينى ثم قرأ ما كذب الفؤاد مارأى » وفى حديث عن ابن عباس يرفعه « فجعل نور بصرى فى فؤادى فنظرت اليه بفؤادى » وكأن التقدير فى الآية على هذا (ما كذب الفؤاد فيما رأى) ، ومنهم من ذهب إلى أن إحدى الرؤيتين كانت بالعين والاخرى بالفؤاد وهى رواية عن ابن عباس، أخرج الطبرانى. وابن مردويه عنه أنه قال: إن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم رأى ربه عز وجل مرتين مرة ببصره ومرة بفؤاده ، ونقل القاضى عياض عن بعض مشايخه أنه توقف أى

Marfat.com

فى الرؤية بالعين ، وقال : إنه ليس عليه دليل واضح قال فى الكشف : لأن الروايات مصرحة بالرؤية أما أنها بالعين فلا ، وعن الامام أحمد أنه كان يقول : إذا سئل عن الرؤية رآه رآه حتى ينقطع نفسه ولا يزيد على ذلك وكأنه لم يثبت عنده ماذكرناه ، واختلف فيما يقتضيه ظاهر النظم الجليل فجزم صاحب الكشف بأنه ماعليه الأكثرون من أن الدنو والتدلى مقسم مابين النبي وجبريل صلاة الله تعالى وسلامه عليهما أى وأن المرئى هو جبريل عابه السلام ، وإذا صح خبر جوابه عليه الصلاة والسلام لعائشة رضى الله تعالى عنها لم يكن لأحد محيص عن القول به، وقال العلامة الطيبي: الذى يقتضيه النظم إجراء الكلام إلى قوله تعالى : (وهو بالأفق الأعلى) على أمر الوحى وتلقيه من الملك ورفع شبه الخصوم ، ومن قوله سبحانه : (ثم دنا فتدلى) إلى قوله سبحانه : (من آيات ربه الكبرى) على أمر العروج إلى الجناب الأقدس ، ثم قال : ولا يخفى على كل ذى لب إباء مقام (فأوحى) الحمل على أن جبريل أوحى إلى عبد الله (ما أوحى) إذ لا يذوق منه أرباب القلوب إلا معنى المناغاة بين المتسارين وما يضيق عنه بساط الوهم ولا يطيقه نطاق الفهم ، وكلمة (ثم) على هذا للتراخى الرتبي والفرق بين الوحيين أن أحدهما وحى بواسطة وتعليم، والآخر بغير واسطة بجهة التكريم فيحصل عنه عنده الترقى من مقام (وما منا إلا له مقام معلوم) إلى مخدع (قاب قوسين أو أدنى) وعن جعفر الصادق عليه الرضا أنه قال : لما قرب الحبيب غاية القرب نالته غاية الهيبة فلاطفه الحق سبحانه بغاية اللطف لأنه لا تتحمل غاية الهيبة إلا بغاية اللطف ،وذلك قوله تعالى : (فأوحى إلى عبده ما أوحى) أى كان ما كان وجرى ماجرى قال الحبيب للحبيب مايقول الحبيب لحبيبه وألطف به إلطاف الحبيب بحبيبه وأسر اليه مايسر الحبيب إلى حبيبه فأخفيا ولم يطلعا على سرهما أحداً وإلى نحو هذا يشير ابن الفارض بقوله :

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سرّ أرق من النسيم إذا سرى

ومعظم الصوفية على هذا فيقولون بدنو الله عز وجل من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ودنوه منه سبحانه على الوجه اللائق وكذا يقولون بالرؤية كذلك ، وقال بعضهم فى قوله تعالى : (مازاغ البصر وماطغى) : مازاغ بصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وما التفت إلى الجنة ومزخرفاتها ولا إلى الجحيم وزفراتها بل كان شاخصاً إلى الحق (وماطغى) عن الصراط المستقيم ، وقال أبو حفص السهروردى : مازاغ البصر حيث لم يتخلف عن البصيرة ولم يتقاصر (وماطغى) لم يسبق البصر البصيرة ويتعدى مقامه ، وقال سهل بن عبدالله التسترى : لم يرجع رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى شاهد نفسه وإلى مشاهدتها ،إنما كان مشاهداً لربه تعالى يشاهد مايظهر عليه من الصفات التى أوجبت الثبوت فى ذلك المحل ، وأرجع بعضهم الضمير فى قوله تعالى : (وهو بالأفق الأعلى) إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو منتهى وصول اللطائف ، وفسر (سدرة المنتهى) بما يكون منتهى سير السالكين اليه ولا يمكن لهم مجاوزته إلا بجذبة من جذبات الحق ، وقالوا فى (قاب قوسين) ماقالوا وأنا أقول برؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم ربه سبحانه وبدنوه منه سبحانه على الوجه اللائق ذهبت فيما اقتضاه ظاهر النظم الجليل إلى ماقاله صاحب الكشف أم ذهبت فيه إلى ماقاله الطيبي فتأمل والله تعالى الموفق ه

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ٢٠ ﴾ هى أصنام كانت لهم فاللات كما قال قتادة: لثقيف بالطائف ، وأنشدوا

وفرت ثقيف إلى (لاتها) بمنقلب الخائب الخاسر

Marfat.com

وقال أبو عبيدة . وغيره : كان بالكعبة ، وقال ابن زيد : كان بنخلة عند سوق عكاظ يعبده قريش ، ورجح ابن عطية قول قتادة ، وقال أبو حيان : يمكن الجمع بأن يكون المسمى بذلك أصناما فأخبر عن كل صنم بمكانه ، والتاء فيه قيل : أصلية وهى لام الكلمة كالباء فى باب ، وألفه منقلبة فيما يظهر من ياء لان مادة (ل ى ت) موجودة فان وجدت مادة (ل و ت) جاز أن تكون منقلبة من واو ، وقيل : تاء العوض ، والاصل لوية بزنة فعلة من لوى لانهم كانوا يلوون عليه ويعتكفون للعبادة ، أو يلتون عليه أى يطوفون فخفف بحذف الياء وأبدلت واوه ألفاً ، وعوض عن الياء تاء أفصارت كتاء أخت وبنت ، ولذا وقف عليها بالتاء ، وقرأ ابن عباس . ومجاهد. ومنصور بن المعتمر . وأبو صالح . وطلحة. وأبو الجوزاء . ويعقوب . وابن كثير فى رواية بتشديد التاء على أنه اسم فاعل من لت يلت إذا عجن قيل : كان رجل يلت السويق للحاج على حجر فلما مات عبدوا ذلك الحجر إجلالا له وسموه بذلك ، وعن مجاهد أنه كان على صخرة فى الطائف يصنع حيسا ويطعم من يمر من الناس فلما مات عبدوه ، وأخرج ابن أبى حاتم . وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يلت السويق على الحجر فلا يشرب منه أحد إلا سمن فعبدوه ، وأخرج الفاكهى عنه أنه لما مات قال لهم عمرو بن لحى : إنه لم يمت ولكنه دخل الصخرة فعبدوها وبنوا عليها بيتاً ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال : كان رجل من ثقيف يلت السويق بالزيت فلما توفى جعلوا قبره وثناً ، وزعم الناس أنه عامر بن الظرب أحد عدوان ، وقيل : غير ذلك (والعزى) لغطفان وهى على المشهور سمرة بنخلة - كما قال قتادة - وأصلها تأنيث الأعز ، وأخرج النسائى . وابن مردويه عن أبى الطفيل قال : « لما فتح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى فأتاها خالد وكانت ثلاث سمرات فقطع السمرات وهدم البيت الذى كان عليها ثم أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره فقال : ارجع فانك لم تصنع شيئاً فرجع خالد فلما أبصرته السدنة مضوا وهم يقولون ياعزى ياعزى فأتاها فاذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها ثم رجع إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره فقال عليه الصلاة والسلام : تلك العزى » وفى رواية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم بعث إليها خالداً فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية ويلها واضعة يدها على رأسها فضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول :

ياعز كفرانك لاسبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

ورجع فأخبر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام : تلك العزى ولن تعبد أبداً » وقال ابن زيد : كانت العزى بالطائف ، وقال أبو عبيدة : كانت بالكعبة ، وأيده فى البحر بقول أبى سفيان فى بعض الحروب للمسلمين لنا العزى ولا عزى لكم ، وذكر فيه أنه صنم وجمع بمثل ماتقدم ، (ومناة) قيل : صخرة كانت لهذيل . وخزاعة ، وعن ابن عباس لثقيف ، وعن قتادة للأنصار بقديد ، وقال أبو عبيدة : كانت بالكعبة أيضا ، واستظهر أبو حيان أنها ثلاثتها كانت فيها قال : لأن المخاطب فى قوله تعالى : أفرأيتم قريش ؟ وفيه بحث ، ومناة مقصورة قيل : وزنها فعلة ، وسميت بذلك لان دماء النسائك كانت تمنى عندها أى تراق ، وقرأ ابن كثير على مافى البحر مناءة بالمد والهمز كما فى قوله :

ألا هل أتى تيم بن عبد (مناءة) على النأى فيما بيننا ابن تميم

ووزنها مفعلة فالألف منقلبة عن واو كما فى مقالة ، والهمزة أصل وهى مشتقة من النوء كأنهم كانوا

Marfat.com

يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها ، والظاهر أن (الثالثة الأخرى) صفتان لمناة وهما على ماقيل: للتأكيد فان كونها ثالثة وأخرى مغايرة لما تقدمها معلوم غير محتاج للبيان ، وقال بعض الأجلة : (الثالثة) للتأكيد ، و(الاخرى) للذم بأنها متأخرة فى الرتبة وضيعة المقدار ، وتعقبه أبو حيان بأن آخر ومؤنثه أخرى لم يوضع الذم ولا لمدح وإنما يدلان على معنى غير ، والحق أن ذلك باعتبار المفهوم الاصلى وهى تدل على ذم السابقتين أيضا قال فى الكشف: هى اسم ذم يدل على وضاعة السابقتين بوجه أيضا لان (أخرى) تأنيث آخر تستدعى المشاركة مع السابق فاذا أتى بها لقصد التأخر فى الرتبة عملا بمفهومها الاصلى إذ لا يمكن العمل بالمفهوم العرفى لان السابقتين ليستا ثالثة أيضا استدعت المشاركة قضاءاً لحق التفضيل ، وكأنه قيل : (الاخرى) فى التأخر انتهى وهو حسن ، وذكر فى نكتة ذم مناة بهذا الذم أن الكفرة كانوا يزعمون أنها أعظم الثلاثة فأكذبهم الله تعالى بذلك *

وقال الامام : (الاخرى) صفة ذم كأنه قال سبحانه: (ومناة الثالثة) الذليلة وذلك لأن اللات كان على صورة آدمى (والعزى) صورة نبات (ومناة) صورة صخرة ، فالآدمى أشرف من النبات ، والنبات أشرف من الجماد - فالجماد متأخر - ومناة جماد فهى فى أخريات المراتب ، وأنت تعلم أنه لا يتأتى على كل الاقوال ، وقيل : (الاخرى) صفة للعزى لأنها ثانية اللات ، والثانية يقال لها (الاخرى) وأخرت لموافقة رءوس الآى ، وقال الحسن ابن المفضل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير والعزى الأخرى (ومناة الثالثة) ولعمرى إنه ليس بشئ ، والكلام خطاب لعبدة هذه المذكورات وقد كانوا مع عبادتهم لها يقولون : إن الملائكة عليهم السلام وتلك المعبودات الباطلة بنات الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فقيل لهم توبيخاً وتبكيتا: (أفرأيتم) الخ والهمزة للانكار والفاء لتوجيهه إلى ترتيب الرؤية على ماذكر من شئون الله تعالى المنافية لها غاية المنافاة وهى علمية عند كثير ، ومفعولها الثانى على ما اختاره بعضهم محذوف لدلالة الحال عليه ، فالمعنى أعقيب ماسمعتم من آثار كمال عظمة الله عز وجل فى ملكه وملكوته وجلاله وجبروته وإحكام قدرته ونفاذ أمره رأيتم هذه الاصنام مع غاية حقارتها بنات الله سبحانه وتعالى *

وقوله تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ٢١ ﴾ توبيخ مبنى على ذلك التوبيخ ومداره تفضيل جانب أنفسهم على جنابه عز وجل حيث جعلوا له تعالى الاناث واختاروا لأنفسهم الذكور ، ومناط الاول نفس تلك النسبة ، وقيل: المعنى (أرأيتم) هذه الاصنام مع حقارتها وذلتها شركاء لله سبحانه مع ماتقدم من عظمته ، وقيل: المعنى أخبرونى عن آلهتكم هل لها شئ من القدرة والعظمة التى وصف بها رب العزة فى الآى السابقة ، وقيل: المعنى أظننتم أن هذه الاصنام التى تعبدونها تنفعكم ، وقيل المعنى (أفرأيتم) هذه الاصنام إن عبدتموها لا تنفعكم وإن تركتموها لا تضركم ، ولا يخفى أن قوله تعالى : (ألكم) الخ لا يلتئم مع ماقبله على جميع هذه الاقوال التئامه على القول السابق ، وقيل : إن قوله سبحانه : (ألكم) الخ فى موضع المفعول الثانى للرؤية وخلوها عن العائد إلى المفعول الاول لما أن الاصل أخبرونى أن اللات والعزى ومناة ألكم الذكر وله هن أى تلك الاصنام فوضع موضعها الانثى لمراعاة الفواصل وتحقيق مناط التوبيخ وهو على تكلفه يقتضى اقتصار التوبيخ على ترجيح جانبهم الحقير الذليل على جناب الله تعالى العزيز الجليل من غير تعرض للتوبيخ على نسبة الولد اليه سبحانه ، وفى الكشف وجه النظم الجليل أنه بعد ماصور أمر الوحى تصويراً تاماً وحققه بأن مايستمعه وحى لاشبهة فيه لانه رأى الآتى به وعرفه حق المعرفة قال سبحانه : (أفتمارونه على مايرى) على معنى أتلاحونه بعد هذه البيانات على مايرى من الآيات المحققة لانه على بينة من ربه سبحانه هادياً مهديا ، وأنى يبقى للمراء مجال - وقد رآه نزلة أخرى - ؟!

Marfat.com

وعرفه حق المعرفة،ثم قيل : (لقد رأى من آيات) الخ تنبيها على أن ماعد منها فهو أيضا نفى للضلالة والغواية وتحقيق للدراية والهداية *

وقوله تعالى : (أفرأيتم)عطف على تمارونه وإدخال الهمزة لزيادة الانـكار والفاء لأن القول بأمثاله مسبب عن الطبع والعناد وعدم الاصغاء لداعى الحق،والمعنى أبعد هذا البيان تستمرون على ماأنتم عليه من المراء فترون اللات والعزى ومناة أولاداً له تعالى ثم أخسها وسد مسد المفعول الثانى قوله تعالى : (ألـكم) الخ زيادة للانـكار فعلى هذا ليس (أفرأيتم)فى معنى الاستخبار وجاز أن يكون فى معناه على معنى (أفتمارونه) فأخبرونى هل لـكم الذكر وله الانثى ، والقول مقدر أى فقل لهم أخبرونى والمعنى هو كذا تهكما وتنبيها على أنه نتيجة مرائهم وأن من كان هذا معتقده فهو على الضلال الذى لاضلال بعده ولا يبعد عن أمثاله نسبة الهادين المهديين إلى ماهو فيه من النقص انتهى،وماذكره أولا أولى وهو ليس بالبعيد عما ذكرنا ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى القسمة المنفهمة من الجملة الاستفهامية ﴿ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ٢٢ ﴾ أى جائرة حيث جعلتم له سبحانه ماتستنكفون منه وبذلك فسر ضيزى ابن عباس . وقتادة ، وفى معناه قول سفيان منقوصة،وابن زيد مخالفة.ومجاهد.ومقاتل عوجاء،والحسن غير معتدلة،والظاهر أنه صفة،واختلف فى يائه فقيل:منقلبة عن واو ،وقيل:أصلية،ووزنه فعلى بضم الفاء كحبلى وأنثى،ثم كسرت لتسلم الياء كما فعل ذلك فى بيض جمع أبيض فان وزنه فعل بضم الفاء كحمر ثم كسرت الفاء لما ذكر ومثله شائع،ولم يجعل وزنه فعلى بالـكسر ابتداءاً لما ذهب اليه سيبويه من أن فعلى بالـكسر لم يجئ عن العرب فى الصفات وجعله بعضهم كذلك متمسكا بورود ذلك . فقد حكى ثعلب مشية حيكى،ورجل كيصى،وغيره امرأة عزهى وامرأة سعلى،ورد بأنه من النوادر والحمل على الـكثير المطرد فى بابه أولى ، وأيضاً يمكن أن يقال فى حيكى و كيصى ماقيل فى ضيزى،ويمنع ورود عزهى وسعلى فان المعروف عزهاة وسعلاة،وجوز أن يكون ضيزى فعلى بالكسر ابتداءاً على أنه مصدر كذكرى ووصف به مبالغة،ومجئ هذا الوصف فى المصادر كما ذكر،والاسماء الجامدة كدفلى وشعرى،والجموع كحجلى كثير، وقرأ ابن كثير ضئزى بالهمز على أنه مصدر وصف به،وجوز أن يكون وصفا وهو مضموم عومل معاملة المعتل لانه يؤول اليه . وقرأ ابن زيد ضيزى بفتح الضاد وبالياء على أنه كدعوى أو كسكرى ، ويقال ضؤزى بالواو والهمز وضم الفاء ؛ وقد حكى الـكسائى ضأزيضأز ضأزاً بالهمز وأنشد الاخفش :

فان تنأ عنها تقتنصك وإن تغب فسهمك (مضئوز) وأنفك راغم

والاكثر ضاز بلا همز كما فى قول امرئ القيس :

(ضازت) بنو أسد بحكمهم إذ يجعلون الرأس كالذنب

وأنشده ابن عباس على تفسيره السابق ﴿ إِنْ هِيَ ﴾ الضمير للاصنام أى ما الاصنام باعتبار الالوهية التى تدعونها ﴿ إِلَّا أَسْمَاءٌ ﴾ محضة ليس فيها شىء مما أصلا من معنى الالوهية،وقوله تعالى:﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ صفة للاسماء وضميرها لها لا للاصنام،والمعنى جعلتموها أسماء فان التسمية نسبة بين الاسم والمسمى فاذا قيست إلى الاسم فمعناها جعله اسما للمسمى وإن قيست إلى المسمى فمعناها جعله مسمى للاسم وإنما اختير ههنا

Marfat.com

المعنى الاول من غير تعرض للمسمى لتحقيق أن تلك الاصنام التى يسمونها آلهة أسماء مجردة ليس لها مسميات قطعا كما فى قوله سبحانه : (ماتعبدون من دونه إلا أسماء) الآية لا أن هناك مسميات لكنها لا تستحق التسمية ، وقيل: هى للاسماء الثلاثة المذكورة حيث كانوا يطلقونها على تلك الاصنام لاعتقادهم أنها تستحق العكوف على عبادتها والاعزاز والتقرب اليها بالقرابين ، وتعقب بأنه لو سلم دلالة الاسماء المذكورة على ثبوت تلك المعانى الخاصة للاصنام فليس فى سلبها عنها مزيد فائدة بل إنما هى فى سلب الالوهية عنها كما هو زعمهم المشهور فى حق جميع الاصنام على وجه برهانى فان انتفاء الوصف بطريق الاولوية أى ماهى شئ من الاشياء إلا أسماء خالية عن المسميات وضعتموها ﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ بمقتضى الاهواء الباطلة ﴿ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ﴾ برهان يتعلقون به ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ أى ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بها ﴿ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ إلا توهم أن ماهم عليه حق توهما باطلا ، فالظن هنا مراد به التوهم وشاع استعماله فيه ، ويفهم من كلام الراغب أن التوهم من أفراد الظن ﴿ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ أى والذى تشتهيه أنفسهم الامارة بالسوء على أن (ما) موصولة وعائدها مقدر ـ وأل ـ فى الانفس للعهد ، أو عوض عن المضاف اليه ،وجوز كون (ما)مصدرية وكذا جوز كون ـ أل ـ للجنس والنفس من حيث هى إنما تهوى غير الأفضل لأنها مجبولة على حب الملاذ وإنما يسوقها إلى حسن العاقبة العقل ، والالتفات فى (يتبعون) إلى الغيبة للايذان بأن تعداد قبائحهم اقتضى الاعراض عنهم،وحكاية جناياتهم لغيرهم،وقرأ ابن عباس . وابن مسعود . وابن وثاب.وطلحة.والاعمش وعيسى بن عمر ـ تتبعون ـ بتاء الخطاب ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ حال من ضمير ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ مقررة لبطلان ماهم عليه من اتباع الظن والهوى ، والمراد بالهدى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أو القرآن العظيم على أنه بمعنى الهادى أو جعله هدى مبالغة أى ما يتبعون إلا ذلك ، والحال لقد جاءهم من ربهم جل شأنه ما ينبغى لهم معه تركه واتباع سبيل الحق *

وحاصله (يتبعون) ذلك فى حال ينافيه ، وجوز أن تكون الجملة معترضة وهى أيضا مؤكدة لبطلان ذلك ﴿أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ٢٤ ﴾ (أم) منقطعة مقدرة ـ ببل ـ وهى للانتقال من بيان أن ماهم عليه غير مستند إلا إلى توهمهم وهوى أنفسهم إلى بيان أن ذلك مما لايجدى نفعاً أصلا ؛ والهمزة وهى للانكار والنفى أى بل ليس للانسان كل مايتمناه وتشتهيه نفسه ، ومفاده قيل : رفع الإيجاب الكلى ومرجعه إلى سالبة جزئية ، واليه يشير قول بعضهم : المراد نفى أن يكون للكفرة ماكانوا يطمعون فيه من شفاعة الآلهة والظفر بالحسنى عند الله تعالى يوم القيامة وماكانوا يشتهونه من نزول القرآن على رجل من إحدى القريتين عظيم ونحو ذلك،ويفهم من كلام بعض المحققين أن المراد السلب الكلى،والمعنى لاشىء مما يتمناه الانسان مملوكا له مختصا به يتصرف فيه حسب إرادته ويتضمن ذلك نفى أن يكون للكفرة ماذكر وليس الانسان خاصاً بهم كما قيل،وقوله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ٢٥ ﴾ تعليل لانتفاء ذلك فان اختصاص ملك أمور الآخرة والاولى جميعاً به تعالى مقتض لانتفاء أن يكون للانسان أمر من الامور بل ماشاء الله تعالى له كان وما لم يشأ لم يكن ، وقدمت الآخرة اهتماما برد ما هو أهم أطماعهم عندهم من الفوز فيها ، ولذا أردف ذلك بقوله تعالى :

Marfat.com

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ وإقناطهم عما طمعوا به من شفاعة الملائكة عليهم السلام موجب لاقناطهم عن شفاعة الاصنام بطريق الاولوية (وكم) خبرية مفيدة للتكثير محلها الرفع على الابتداء والخبر الجملة المنفية، وجمع الضمير فى شفاعتهم مع إفراد الملك باعتبار المعنى أى وكثير من الملائكة لا تغنى شفاعتهم عند الله تعالى شيئاً من الإغناء فى وقت من الاوقات ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ ﴾ لهم فى الشفاعة * ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أن يشفعوا له ﴿ وَيَرْضَىٰٓ ٢٦ ﴾ ويراه سبحانه أهلا للشفاعة من أهل التوحيد والايمان، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من إذن الله تعالى بمعزل. وعنه بألف ألف منزل، وجوز أن يكون المراد إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء من الملائكة بالشفاعة ويراه عز وجل أهلا لها، وأيّاما كان فالمعنى على أنه إذا كان حال الملائكة فى باب الشفاعة كما ذكر فما ظنهم بحال الاصنام، والكلام قيل من باب:

* على لاحب لا يهتدى بمناره * فحاصله لاشفاعة لهم ولا غناء بدون أن يأذن الله سبحانه الخ، وقيل: هو وارد على سبيل الفرض فلا يخالف قوله تعالى: (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه)، وقرأ زيد بن على شفاعته بإفراد الشفاعة والضمير، وابن مقسم شفاعاتهم بجمعهما وهو اختيار صاحب الكامل أبى القاسم الهذلى، وأفردت الشفاعة فى قراءة الجمهور قال أبو حيان: لأنها مصدر ولانهم لو شفع جميعهم لواحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئاً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ وبما فيها من العقاب على ما يتعاطونه من الكفر والمعاصى ﴿ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ﴾ المنزهين عن سمات النقصان على الاطلاق ﴿ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ٢٧ ﴾ فانهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عما يقولون، (والملائكة) فى معنى استغراق المفرد فيكون التقدير ليسمون كل واحد من (الملائكة تسمية الانثى) أى يسمونه بنتاً لأنهم إذا قالوا ذلك فقد جعلوا كل واحد منهم بنتاً، فالكلام على وزان كسانا الامير حلة أى كسا كل واحد منا حلة، والإفراد لعدم اللبس، ولذا لم يقل تسمية الإناث فلا حاجة إلى تأويل الانثى بالإناث ولا إلى كون المراد الطائفة الانثى، وما ذكر أولا قيل: مبنى على أن تسمية الانثى فى النظم الجليل ليس نصباً على التشبيه وإلا فلا حاجة اليه أيضا، وفى تعليق التسمية بعدم الايمان بالآخرة إشعار بأنها فى الشناعة والفظاعة واستتباع العقوبة فى الاخرة بحيث لا يجترىء عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ حال من فاعل (يسمون) وضمير به للمذكور من التسمية وبهذا الاعتبار ذكر، أو باعتبار القول أى يسمونهم إناثاً، والحال أنهم لا علم لهم بما يقولون أصلا، وقرأ أبىّ بها أى بالتسمية، أو بالملائكة ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ أى ما يتبعون فى ذلك ﴿ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ أى التوهم الباطل ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ ﴾ أى جنس الظن كما يلوح به الإظهار فى موقع الاضمار، وقيل: الإظهار ليستقل الكلام استقلال المثل *

﴿ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ من الإغناء فان الحق الذى هو عبارة عن حقيقة الشئ وما هو عليه إنما يدرك إدراكا معتداً به إذا كان عن يقين لا عن ظن وتوهم فلا يعتد بالظن فى شأن المعارف الحقيقية أعنى المطالب الاعتقادية التى يلزم فيها الجزم ولو لم يكن عن دليل، وإنما يعتد به فى العمليات وما يؤدى اليها *

وفسر بعضهم الحق بالله عزوجل لقوله سبحانه: (ذلك بأن الله هو الحق)، واستدل بالآية من لم يعتبر

Marfat.com

التقليد فى الاعتقاديات ـ وفيه بحث ـ والظاهرية على إبطاله مطلقاً ، وإبطال القياس ورده على أتم وجه فى الاصول ، وما أخرج ابن أبى حاتم عن أيوب قال : قال عمر بن الخطاب : احذروا هذا الرأى على الدين فانما كان الرأى من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مصيباً لأن الله تعالى كان يريه وإنما هو منا تكلف وظن (وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً) هو أحد أدلتهم على إبطال القياس أيضاً ، وقد حكى الآمدى فى الاحكام نحوه عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما فقال : قال ابن عمر : اتهموا الرأى عن الدين فان الرأى منا تكلف وظن (وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً) وأجاب عنه بأن غايته الدلالة على احتمال الخطأ فيه وليس فيه مايدل على إبطاله ، وأن المراد بقوله : (إن الظن) الخ استعمال الظن فى مواضع اليقين وليس المراد به إبطال الظن بدليل صحة العمل بظواهر الكتاب والسنة ، ويقال نحو هذا فى كلام عمر رضى الله تعالى عنه ، وقد ذكر جملة من الآثار استدل بها المبطل على ما زعمه وردها كلها فمن أراد ذلك فليراجعه ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أى عنهم ووضع الموصول موضع ضميرهم للتوسل به إلى وصفهم بما فى حيز صلته من الأوصاف القبيحة ، وتعليل الحكم بها أى فأعرض عمن أعرض عن ذكرنا المفيد للعلم الحق وهو القرآن العظيم . المنطوى على بيان الاعتقادات الحقة . المشتمل على علوم الاولين والآخرين . المذكر للآخرة وما فيها من الامور المرغوب فيها والمرهوب عنها ، والمراد بالاعراض عنه ترك الأخذ بما فيه وعدم الاعتناء به ، وقيل : المراد بالذكر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وبالاعراض عنه ترك الأخذ بما جاء به ، وقيل : المراد به الايمان ، وقيل : هو على ظاهره والاعراض عنه كناية عن الغفلة عنه عز وجل ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ٢٩ ﴾ راضياً بها قاصراً نظره عليها جاهداً فيما يصلحها كالنضر بن الحرث . والوليد بن المغيرة ، والمراد من الأمر المذكور النهى عن المبالغة فى الحرص على هداهم كأنه قيل · لا تبالغ فى الحرص على هدى من تولى عن ذكرنا وانهمك فى الدنيا بحيث كانت منتهى همته وقصارى سعيه ، وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى أمر الحياة الدنيا المفهوم من الكلام ولذا ذكر اسم الاشارة ، وقيل : أى ما أداهم إلى ما هم فيه من التولى وقصر الإرادة على الحياة الدنيا ، وقيل : ذلك إشارة إلى الظن الذى يتبعونه ، وقيل : إلى جعلهم الملائكة بنات الله سبحانه وكلا القولين كما ترى ﴿ مَّبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ أى منتهى علمهم لا علم لهم فوقه اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها من قصر الإرادة على الحياة الدنيا ٭

والمراد بالعلم مطلق الادراك المنتظم للظن الفاسد ، وضمير (مبلغهم) ـ لمن ـ وجمع باعتبار معناه كما أن إفراده قبل باعتبار لفظه ، وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ٣٠ ﴾ تعليل للأمر بالاعراض ، وتكرير قوله تعالى: (هو أعلم) لزيادة التقرير والايذان بكمال تباين المعلومين ، والمراد (بمن ضل) من أصر على الضلال ولم يرجع إلى الهدى أصلا ، و(بمن اهتدى) من شأنه الاهتداء فى الجملة ، أى هو جل شأنه المبالغ فى العلم بمن لا يرعوى عن الضلال أبداً ، وبمن يقبل الاهتداء فى الجملة لا غيره سبحانه فلا تتعب نفسك فى دعوتهم ولا تبالغ فى الحرص عليها فانهم من القبيل الأول ، وقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ﴾ أى له ذلك على الوجه الأتم أى خلقاً وملكا لا لغيره عز وجل أصلا لا استقلالا ولا اشتراكا ، ويشعر بفعل يتعلق به

Marfat.com

قوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ أى خلق مافيهما ليجزى الضالين بعقاب ماعملوا من الضلال الذى عبر عنه بالاساءة بياناً لحاله ؛ أو بمثل ماعملوا ، أو بسبب ماعملوا على أن الباء صلة الجزاء بتقدير مضاف أو للسببية بلا تقدير ﴿ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ﴾ أى اهتدوا ﴿ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أى بالمثوبة الحسنى التى هى الجنة ، أو بأحسن من أعمالهم أو بسبب الأعمال الحسنى تكميل لما قبل لأنه سبحانه لما أمره عليه الصلاة والسلام بالاعراض نفى توهم أن ذلك لأنهم يتركون سدى ، وفى العدول عن ضمير ربك إلى الاسم الجامع ماينبئ عن زيادة القدرة وأن الكلام مسوق لوعيد المعرضين وأن تسوية هذا الملك العظيم لهذه الحكمة فلا بد من ضال ومهتد، ومن أن يلقى كل مايستحقه ، وفيه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يلقى الحسنى جزاءاً لتبليغه وهم يلقون السوأى جزاءاً لتكذيبهم ، وكرر فعل الجزاء لابراز كمال الاعتناء به والتنبيه على تباين الجزاءين *

وجوز أن يكون معنى (فأعرض) الخ لاتقابلهم بصنيعهم وكلهم إلى ربك أنه أعلم بك وبهم فيجزى كلا مايستحقه ، ولا يخفى مافى العدول عن الضميرين فى (بمن ضل) (وبمن اهتدى) وجعل قوله تعالى: (ليجزى) على هذا متعلقا بما يدل عليه قوله تعالى:(إن ربك هو أعلم) الخ أى ميز الضال عن المهتدى وحفظ أحوالهم (ليجزى) الخ ، وقوله سبحانه : (ولله ملك السموات)جملة معترضة تؤكد حديث أنهم يجزون البتة ولا يهملون كأنه قيل:هو سبحانه أعلم بهم وهم تحت ملكه وقدرته،وجوز على ذلك المعنى أن يتعلق (ليجزى) بقوله تعالى: (ولله مافى السموات) كما تقدم على تأكيد أمر الوعيد ، أى -هو أعلم بهم- وإنما سوى هذا الملك للجزاء ، ورجح بعضهم ذلك المعنى بالوجهين المذكورين على مامر ، وجوز فى جملة (لله مافى السموات) كونها حالا من فاعل أعلم سواء كان بمعنى عالم أولا ، وفى (ليجزى) تعلقه -بضل . واهتدى- على أن اللام للعاقبة أى هو تعالى (أعلم بمن ضل) ليؤول أمره إلى أن يجزيه الله تعالى بعمله ، و(بمن اهتدى) ليؤول أمره إلى أن يجزيه بالحسنى، ولايخفى بعده ، وأبعد منه بمراحل تعلقه بقوله سبحانه : (لا تغنى شفاعتهم) كما ذكره مكى ، وقرأ زيد بن على- لنجزى- ونجزى بالنون فيهما ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ ﴾ بدل من الموصول الثانى وصيغة الاستقبال فى صلته للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره . أو بيان . أو نعت . أو منصوب على المدح . أو مرفوع على أنه خبر محذوف ؛ و(الاثم) الفعل المبطئ عن الثواب وهو الذنب . وكبائره مايكبر عقابه ، وقرأ حمزة.والكسائى. وخلف -كبير الاثم- على إرادة الجنس ، أو الشرك ﴿ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ ماعظم قبحه من الكبائر فعطفه على ماتقدم من عطف الخاص على العام ، وقيل: الفواحش والكبائر مترادفان ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ ماصغر من الذنوب وأصله ماقل قدره ، ومنه لمة الشعر لأنها دون الوفرة ، وفسره أبو سعيد الخدرى بالنظرة . والغمزة.والقبلة وهو من باب التمثيل ، وقيل : معناه الدنو من الشئ دون ارتكاب له من ألممت بكذا أى نزلت به وقاربته من غير مواقعة -وعليه قول الرمانى -هو الهم بالذنب وحديث النفس دون أن يواقع،وقول ابن المسيب:ماخطر على القلب ، وعن ابن عباس.وابن زيد هو ماألموا به من الشرك والمعاصى فى الجاهلية قبل الاسلام،والآية نزلت لقول الكفار للمسلمين قد كنتم بالأمس تعملون أعمال النافهى مثل قوله تعالى:(وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف) على مافى البحر، وقيل:هو مطلق الذنب ٥

Marfat.com

وفى رواية عن ابن عباس أنه ما يلم به المرء فى الحين من الذنوب ثم يتوب، والمعظم على تفسيره بالصغائر والاستثناء منقطع، وقيل: إنه لااستثناء فيه أصلا، و(إلا) صفة بمعنى غير إما لجعل المضاف إلى المعرف باللام الجنسية أعنى كبائر الاثم فى حكم النكرة، أو لأن غير و(إلا) التى بمعناها قد يتعرفان بالاضافة كما فى (غير المغضوب) وتعقبه بعضهم بأن شرط جواز وقوع (إلا) صفة كونها تابعة لجمع منكر غير محصور ولم يوجد هنا، وردبأن هذا ماذهب اليه ابن الحاجب، وسيبويه يرى جواز وقوعها صفة مع جواز الاستثناء فهو لا يشترط ذلك، وتبعه أكثر المتأخرين، نعم كونها هنا صفة خلاف الظاهر ولا داعى إلى ارتكابه، والآية عند الاكثرين دليل على أن المعاصى منها كبائر ومنها صغائر وأنكر جماعة من الأئمة هذا الانقسام وقالوا: سائر المعاصى كبائر، منهم الاستاذ أبو إسحق الاسفراينى، والقاضى أبو بكر الباقلانى، وإمام الحرمين فى الارشاد، وتقى الدين السبكى. وابن القشيرى فى المرشد بل حكاه ابن فورك عن الاشاعرة. واختاره فى تفسيره فقال معاصى الله تعالى كلها عندنا كبائر وإنما يقال لبعضها صغيرة وكبيرة بالاضافة، وحكى الانقسام عند المعتزلة، وقال: إنه ليس بصحيح، وقال القاضى عبد الوهاب: لا يمكن أن يقال فى معصية إنها صغيرة إلا على معنى أنها تصغر باجتناب الكبائر ويوافق ذلك مارواه الطبرانى عن ابن عباس لكنه منقطع أنه ذكر عنده الكبائر فقال: كل مانهى الله تعالى عنه فهو كبيرة، وفى رواية كل شئ عصى الله تعالى فيه فهو كبيرة، والجمهور على الانقسام قيل: ولا خلاف فى المعنى، وإنما الخلاف فى التسمية، والاطلاق لاجماع الكل على أن من المعاصى ما يقدح فى العدالة ومنها مالا يقدح فيها وإنما الاولون فروا من التسمية فكرهوا تسمية معصية الله تعالى صغيرة نظراً إلى عظمة الله عز وجل وشدة عقابه سبحانه وإجلالا له جل شأنه عن تسمية معصيته صغيرة لأنها بالنظر إلى باهر عظمته كبيرة أى كبيرة، ولم ينظر الجمهور إلى ذلك لأنه معلوم؛ وقسموها إلى ماذكر لظواهر الآيات والاحاديث ولذلك قال الغزالى: لا يليق إنكار الفرق بين الكبائر والصغائر وقد عرفنا من مدارك الشرع، ثم القائلون بالفرق اختلفوا فى حد الكبيرة فقيل: هى ماالحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة وهى عبارة كثير من الفقهاء، وقيل: كل معصية أوجبت الحد - وبه قال البغوى. وغيره - والأول أوفق لما ذكروه فى تفصيل الكبائر إذ عدوا الغيبة والنميمة والعقوق وغير ذلك منها ولا حد فيه فهو أصح من الثانى وإن قال الرافعى: إنهم إلى ترجيحه أميل، وقد يقال: يرد على الاول أيضا أنهم عدوا من الكبائر مالم يرد فيه بخصوصه وعيد شديد *

وقيل: هى كل مانص الكتاب على تحريمه أووجب فى جنسه حد وترك فريضة تجب فوراً والكذب فى الشهادة والرواية واليمين، زاد الهروى. وشريح وكل قول خالف الاجماع العام، وقيل: كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة وهو المحكى عن إمام الحرمين، ورجحه جمع لما فيه من حسن الضبط، وتعقب بأنه بظاهره يتناول صغيرة الخسة، والامام - كما قال الاذرعى - إنما ضبط به مايبطل العدالة من المعاصى الشاملة لذلك لا الكبيرة فقط، نعم هو أشمل من التعريفين الاولين، وقيل: هى ماأوجب الحد أو توجه اليه الوعيد ذكره الماوردى فى فتاويه، وقيل: كل محرم لعينه منهى عنه لمعنى فى نفسه فان فعله على وجه يجمع وجهين أووجوها من التحريم كان فاحشة، فالزنا كبيرة وبحليلة الجار فاحشة والصغيرة تعاطى ماتنقص رتبته عن رتبة المنصوص عليه. أو تعاطيه على وجه دون المنصوص عليه فان تعاطاه على وجه يجمع وجهين أو أكثر من التحريم

Marfat.com

كان كبيرة.فالقبلة · واللمس . والمفاخذة صغيرة ، ومع حليلةالجار كبيرة كذا نقله ابن الرفعةوغيره عن القاضى حسين عن الحليمى ، وقيل : هى كل فعل نص الكتاب على تحريمه أى بلفظ التحريم وهو أربعةأشياء ، أكل الميتة ، ولحم الخنزير ، ومال اليتيم ، والفرار من الزحفورد بمنع الحصر ، وقيل : إنها كل ذنب قرن به حد ، أو وعيد . أولعن بنص كتاب . أو سنة.أو علم أن مفسدته كمفسدة ماقرن به ذلك . أو أكثر.أو أشعر بتهاون مرتكبه فى دينه إشعاراً صغر الكبائر المنصوص عليها بذلك كما لوقتل من يعتقده معصوما فظهر أنه مستحق لدمه أو وطئ امرأة ظانا أنه زان بها فاذا هى زوجته أو أمته ، واليه ذهب شيخ الاسلام البارزى وقال:هو التحقيق،وقيل : غير ذلك،واعتمد الواحدىأنها لاحد لها يحصرهافقال:الصحيحأن الكبيرة ليس لها حد يعرفها العباد به وإلا لاقتحم الناس الصغائر واستباحوها ولكن الله تعالى أخفى ذلك عنهم ليجتهدوا فى اجتناب المنهى عنه رجاء أن تجتنب الكبائر،ونظير ذلك إخفاء الاسم الاعظم.والصلاة الوسطى.وليلة القدر .وساعة الاجابة ، وقال العلامة ابن حجر الهيتمى : كل ماذكر من الحدود إنما قصد به التقريب فقط وإلا فهى ليست بحدود جامعة، وكيف يمكن ضبط مالا مطمع فى ضبطه؟وذهب جمع إلى تعريفها بالحد ، فعن ابن عباس أنها ماذكره الله تعالى فى أول سورة النساء إلى قوله سبحانه : (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) *

وقيل : هى سبع وروى ذلك عن على كرم الله تعالى وجهه . وعطاء .وعبيد بن عمير ، واستدل له بما فى الصحيحين«اجتنبوا السبع الموبقات . الاشراك بالله تعالى.والسحر.وقتل النفس التى حرم الله تعالى إلا بالحق. وأكل مال اليتيم . وأكل الربا . والتولى يوم الزحف . وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وقيل : خمس عشرة، وقيل : أربع عشرة ، وقيل : أربع ، وعن ابن مسعود ثلاث ؛ وفى روايةَ أخرى عشرة ، وقال شيخ الاسلام العلائى : المنصوص عليه فى الاحاديث أنه كبيرة خمس وعشرون ، وتعقبه ابن حجر بزيادة على ذلك ،وقال أبو طالب المكى:هى سبع عشرة أربع فى القلب.الشرك . والاصرار على المعصية . والقنوط . والأمن من المكر، وأربع فى اللسان . القذف . وشهادة الزور. والسحر ، وهو كل كلام يغير الانسان أو شيئا من أعضائه . واليمين الغموس وهى التى تبطل بها حقاً أو تثبت بها باطلا ، وثلاث فى البطن .أكل مال اليتيم ظلماً . وأكل الربا . وشرب كل مسكر ، واثنان فى الفرج . الزنا . واللواط ؛ واثنتان فى اليد القتلة . والسرقة ، وواحدة فى الرجل . الفرار من الزحف ، وواحدة فى جميع الجسد عقوق الوالدين ، وفيه مافيه ، وروى الطبرانى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رجلا قال له : كم الكبائر سبع هى ؟ فقال هى إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولاصغيرة مع الاصرار ، وقد ألف فيها غير واحد من العلماء ، وفى كتاب الزواجر تأليف العلامة ابن حجر مافيه كفاية فليراجع ، والله تعالى الموفق وإنا لنستغفره ونتوب اليه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، فالجملة تعليل لاستثناء اللمم ، وتنبيه على أن إخراجه عن حكم المؤاخذة ليس لخلوه عن الذنب فى نفسه بل لسعة المغفرة الربانية ، وجوز أن يكون المعنى له سبحانه أن يغفر لمن يشاء من المؤمنين مايشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها ، ولعل تعقيب وعيد المسيئين ووعد المحسنين بذلك حينئذ لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته تعالى ولا يتوهم وجوب العقاب عليه عز وجل ، وزعم بعض جواز كون الموصول مبتدأ وهذه الجملة خبره والرابط محذوف أى (واسع المغفرة) لهم ليس بشئ كما لايخفى *

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أى بأحوالكم من كل أحد ﴿ إِذْ أَنشَأَكُم ﴾ فى ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السلام *

Marfat.com

﴿ مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ إنشاءاً إجمالياً حسبما مر تحقيقه ، وقيل : إنشاؤهم من الارض باعتبار أن المنى الذى يتكونون منه من الاغذية التى منشؤها من الارض ، وأياًما كان ـ فإذا ـ ظرف ـ لأعلم ـ وهو على بابه من التفضيل ٭

وقال مكى : هو بمعنى عالم إذ تعلق علمه تعالى بأحوالهم فى ذلك الوقت لامشارك له تعالى فيه، وتعقب بأنه قد يتعلق علم من أطلعه الله تعالى من الملائكة عليه، وقيل : (إذ) منصوب بمحذوف ، والتقدير اذكروا (إذ أنشأكم) وهو كما ترى ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ ووقت كونكم أجنة ﴿ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ على أطوار مختلفة مترتبة لايخفى عليه سبحانه حال من أحوالكم وعمل من أعمالكم التى من جملتها اللمم الذى لولا المغفرة الواسعة لأصابكم وباله .فالجملة استئناف مقرر لما قبلها وذكر (فى بطون أمهاتكم) مع أن الجنين ما كان فى البطن للاشارة إلى الاطوار كما أشرنا اليه ، وقيل : لتأكيد شأن العلم لما أن بطن الام فى غاية الظلمة ، والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ لترتيب النهى عن تزكية النفس على ماسبق من أن عدم المؤاخذة باللمم ليس لعدم كونه من قبيل الذنوب بل لمحض مغفرته تعالى مع علمه سبحانه بصدوره عنكم أى إذا كان الامر كذلك فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة عن المعاصى بالكلية أو بزكاء العمل وزيادة الخير بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته جل شأنه ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ المعاصى جميعاً وهو استئناف مقرر للنهى ومشعر بأن فيهم من يتقيها بأسرها كذا فى الارشاد ، وقيل: اتقى الشرك ، وقيل: اتقى شيئاً من المعاصى ، والآية نزلت على ماقيل: فى قوم من المؤمنين كانوا يعملون أعمالا حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا وهذا مذموم منهى عنه إذا كان بطريق الاعجاب ، أو الرياء أما إذا لم يكن كذلك فلا بأس به ولا يعد فاعله من المزكين أنفسهم ، ولذا قيل: المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر ، ولافرق فى التزكية بين أن تكون عبارة وأن تكون إشارة وعد منها التسمية بنحو برّة ، أخرج أحمد . ومسلم . وأبو داود . وابن مردويه . وابن سعد عن زينب بنت أبى سلمة أنها سميت برّة فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لاتزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم سموها زينب» وكذا غير عليه الصلاة والسلام إلى ذلك اسم برة بنت جحش ، وتغيير مثل ذلك مستحب وكذا مايوقع نفيه بعض الناس فى شىء من الطيرة كبركة ويسار، والنهى عن التسمية به للتنزيه وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم كما روى جابر : «إن عشت إن شاء الله أنهى أمتى أن يسموا نافعا وأفلح وبركة» محمول كما قال النووى على إرادة أنهى نهى تحريم ، والظاهر أن كراهة مايشعر بالتزكية مخصوصة بما إذا كان الاشعار قويا كما إذا كان الاسم قبل النقل ظاهر الدلالة على التزكية مستعملا فيها فلا كراهة فى التسمية بما يشعر بالمدح إذا لم يكن كذلك كسعيد وحسن، وقد كان لعمر رضى الله تعالى عنه ابنة يقال لها : عاصية فسماها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جميلة كذا قيل ، والمقام بعد لايخلو عن بحث فليراجع ، وقيل : معنى ـ لاتزكوا أنفسكم ـ لايزكى بعضكم بعضاً ،والمراد النهى عن تزكية السمعة أو المدح للدنيا ، أو تزكية على سبيل القطع ، وأما التزكية لاثبات الحقوق ونحوه فهى جائزة ، وذهب بعضهم إلى أن الآية نزلت فى اليهود ٭

أخرج الواحدى.وابن المنذر . وغيرهما عن ثابت بن الحرث الانصارى قال: « كانت اليهود إذا هلك لهم صبى صغير قالوا : هو صديق فبلغ ذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : كذبت يهود مامن نسمة يخلقها الله تعالى فى بطن أمها إلا يعلم سعادتها أوشقاوتها » فأنزل الله سبحانه عندذلك (هو أعلم بكم) الآية ٭

Marfat.com

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ٣٣ ﴾ أى عن اتباع الحق والثبات عليه ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا ﴾ أى شيئاً قليلا ، أو إعطاءاً قليلا ﴿ وَأَكْدَىٰ ٣٤ ﴾ أى قطع العطاء من قولهم حفر فأكدى إذا بلغ إلى كديه أى صلابة فى الارض فلم يمكنه الحفر ، قال مجاهد. وابن زيد: نزلت فى الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجلس اليه ووعظه فقرب من الاسلام وطمع فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم إنه عاتبه رجل من المشركين ، وقال له : أتترك ملة آبائك ؟ ! ارجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمل عنك كل شىء تخافه فى الآخرة لكن على أن تعطينى كذا و كذا من المال فوافقه الوليد على ذلك ورجع عما هم به من الاسلام وصل ضلالا بعيداً ، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح ، وقال الضحاك : هو النضر بن الحرث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حتى ارتد عن دينه وضمن له أن يحمل عنه مأثم رجوعه ، وقال السدى: نزلت فى العاص بن وائل السهمى كان يوافق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى بعض الأمور ، وقال محمد بن كعب : فى أبى جهل قال : والله ما يأمر محمد إلا بمكارم الاخلاق، والاول هو الأشهر الأنسب لما بعده من قوله سبحانه : ﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ ﴾ إلى آخره ، وأما ما فى الكشاف من أنها نزلت فى عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه كان يعطى ماله فى الخير فقال له عبدالله بن سعيد بن أبى سرح : يوشك أن لا يبقى لك شىء فقال عثمان: إن لى ذنوباً وخطايا وإنى أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه فقال عبد الله : أعطنى ناقتك برحلها وأنا أحمل عنك ذنوبك كلها فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء فباطل -كما قال ابن عطية- ولا أصل له ، وعثمان رضى الله تعالى عنه منزه عن مثل ذلك ، و(أفرأيت) هنا على ما فى البحر بمعنى أخبرنى ومفعولها الأول الموصول ، والثانى الجملة الاستفهامية، والفاء فى قوله تعالى: ﴿ فَهُوَ يَرَىٰ ﴾ للتسبب عما قبله أى أعنده علم بالأمور الغيبية فهو بسبب ذلك يعلم أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ما يخافه ، وقيل: يرى أن ما سمعه من القرآن باطل، وقال الكلبى: المعنى أأنزل عليه قرآن فرأى أن ما صنعه حق ، وأيا ما كان -فيرى- من الرؤية القلبية ، وجوز أن تكون من الرؤية البصرية أى فهو يبصر ما خفى عن غيره مما هو غيب ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ ﴾ أى بل ألم يخبر ﴿ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ وهى التوراة ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ وبما فى صحف إبراهيم التى نزلت عليه ﴿ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ أى وفر وأتم ما أمر به ، أو بالغ فى الوفاء بما عاهد عليه الله تعالى ، وقال ابن عباس: وفى بسهام الاسلام كلها ولم يوفها أحد غيره وهى ثلاثون سهماً منها عشرة فى براءة (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) الآيات ، وعشرة فى الأحزاب (إن المسلمين والمسلمات) الآيات ، وست فى -قد أفلح المؤمنون- الآيات التى فى أولها ، وأربع فى سأل سائل (والذين يصدقون بيوم الدين) الآيات، وفى حديث ضعيف عن أبى أمامة يرفعه ، ووفى بأربع ركعات كان يصليهن فى كل يوم ، وفى رواية يصليهن أول النهار ●

وأخرج أحمد من حديث معاذ بن أنس مرفوعاً أيضاً ألا أخبركم لم سمى الله تعالى إبراهيم خليله الذى وفى أنه كان يقول كلما أصبح وأمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الآية» وقال عكرمة: (وفى) بتبليغ هذه العشرة أن لا تزر إلى آخره (وقيل: وقيل:) والاولى العموم وهو مروى عن الحسن قال: ما أمره الله تعالى بشئ إلا وى به وتخصيصه عليه السلام بهذا الوصف لاحتماله ما لا يحتمله غيره ، وفى قصة الذبح ما فيه كفاية

Marfat.com

وخص هذان النبيان عليهما السلام بالذكر قيل: لأنه فيما بين نوح . وإبراهيم كانوا يأخذون الرجل بابنه وبأبيه وعمه وخاله ، والزوج بامرأته ، والعبد بسيده فأول من خالفهم إبراهيم وقرر ذلك موسى ولم يأت قبله مقرر مثله عليه السلام ، وتقديمه لما أن صحفه أشهر عندهم وأكثر ، وقرأ أبو أمامة الباهلى . وسعيد بن جبير . وأبو مالك الغفارى . وابن السميقع . وزيد بن على (وفى) بتخفيف الفاء ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أى أنه لا تحمل نفس من شأنها الحمل حمل نفس أخرى على أن (أن) هى المخففة من الثقيلة وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف، والجملة المنفية خبرها ومحل الجملة الجر على أنها بدل مما فى صحف موسى ، او الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف والاستئناف بيانى كأنه قيل: ما فى صحفهما؟ فقيل: هو (أن لا تزر) الخ ، والمعنى أنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ليتخلص الثانى عن عقابه ، ولا يقدح فى ذلك قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » فان ذلك وزر الاضلال الذى هو وزره لا وزر غيره ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ ﴾ بيان لعدم إثابة الانسان بعمل غيره إثر بيان عدم مؤاخذته بذنب غيره (وأن) كأختها السابقة ، و(ما) مصدرية وجوز كونها موصولة أى ليس له إلا سعيه ، أو إلا الذى سعى به وفعله ، واستشكل بأنه وردت أخبار صحيحة بنفع الصدقة عن الميت ، منها ما أخرجه مسلم . والبخارى . وأبو داود . والنسائى عن عائشة «أن رجلا قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إن أمى افتلتت نفسها وأظنها لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال: نعم» وكذا بنفع الحج .

أخرج البخارى . ومسلم . والنسائى عن ابن عباس قال : « أتى رجل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : إن أختى نذرت لأن تحج وأنها ماتت فقال النبى عليه الصلاة والسلام: لو كان عليها دين أكنت قاضيه ؟ قال: نعم قال: فحق الله أحق بالقضاء » وأجيب بأن الغير لما نوى ذلك الفعل له صار بمنزلة الوكيل عنه القائم مقامه شرعا فكأنه بسعيه ، وهذا لا يتأتى إلا بطريق عموم المجاز ، أو الجمع بين الحقيقة والمجاز عند من يجوزه ، وأجيب أيضاً بأن سعى غيره لما لم ينفعه إلا مبنياً على سعى نفسه من الايمان فكأنه سعيه ، ودل على بنائه على ذلك ما أخرجه أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن العاص بن وائل نذر فى الجاهلية أن ينحر مائة بدنة وأن هشاما ابنه نحر حصته خمسين وأن عمراً سأل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك فقال : « أما أبوك فلو كان أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك » وأجيب بهذا عما قيل : إن تضعيف الثواب الوارد فى الآيات ينافى أيضاً القصر على سعيه وحده ، وأنت تعلم ما فى الجواب من النظر ، وقال بعض أجلة المحققين إنه ورد فى الكتاب والسنة ما هو قطعى فى حصول الانتفاع بعمل الغير وهو ينافى ظاهر الآية فتقيد بما لا يهبه العامل، وسأل والى خراسان عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن هذه الآية مع قوله تعالى: (والله يضاعف لمن يشاء) فقال : ليس له بالعدل إلا ما سعى وله بالفضل ما شاء الله تعالى فقبل عبد الله رأس الحسين ، وقال عكرمة : كان هذا الحكم فى قوم إبراهيم . وموسى عليهما السلام ، وأما هذه الأمة فللانسان منها سعى غيره يدل عليه حديث سعد بن عبادة « هل لأمى إذا تطوعت عنها ؟ قال صلى الله تعالى عليه وسلم : نعم » وقال الربيع : الانسان هنا الكافر ، وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره ، وعن ابن عباس أن الآية منسوخة بقوله تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم)وقد أخرج عنه ما يشعر به أبو داود

Marfat.com

والنحاس كلاهما فى الناسخ ، وابن جرير . وابن المنذر . وابن مردويه ، وتعقب أبو حيان رواية النسخ بأنها لاتصح لأن الآية خبر لم تتضمن تكليفاً ولانسخ فى الاخبار .ومايتوهم جوابا من أنه تعالى أخبر فى شريعة موسى . وإبراهيم عليهما السلام أن لايجعل الثواب لغير العامل ثم جعله لمن بعدهم من أهل شريعتنا مرجعه إلى تقييد الأخبار لا إلى النسخ إذ حقيقته أن يراد المعنى ، ثم من بعد ذلك ترتفع إرادته ، وهذا تخصيص الارادة بالنسبة إلى أهل الشرائع فافهمه ، وقيل : اللام بمعنى على أى ليس على الانسان غير سعيه ، وهو بعيد من ظاهرها ومن سياق الآية أيضافانها وعظ للذى تولى وأعطى قليلاوأكدى،والذى أميل اليه كلام الحسين ، ونحوه كلام ابن عطية قال: والتحرير عندى فى هذه الآية أن ملاك المعنى هو اللام من قوله سبحانه:(للانسان) فاذا حققت الشئ الذى حق الانسان أن يقول فيه لى كذا لم تجده إلا سعيه وما يكون من رحمة بشفاعة ، أو رعاية أب صالح ، أو ابن صالح ، أو تضعيف حسنات،أو نحو ذلك فليس هو للانسان ولا يسعه أن يقول لى كذا وكذا إلا على تجوّز ، وإلحاق بما هو حقيقة انتهى ٭

ويعلم من مجموع ماتقدم أن استدلال المعتزلة بالآية على أن العبد إذاجعل ثواب عمله أى عمل كان لغيره لاينجعل ويلغو جعله غير تام ؛ وكذا استدلال الامام الشافعى بها على أن ثواب القراءة لاتلحق الأموات ـ وهو مذهب الامام مالك ـ بل قال الامام ابن الهمام : إن مالكا . والشافعى لايقولان بوصول العبادات البدنية المحضة كالصلاة والتلاوة بل غيرها كالصدقة والحج ، وفى الاذكار للنووى عليه الرحمة المشهور من مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه وجماعة أنها لاتصل ، وذهب أحمد بن حنبل وجماعة من العلماء ومن أصحاب الشافعى إلى أنها تصل ، فالاختيار أن يقول القارئ بعد فراغه اللهم أوصل ثواب ماقرأته إلى فلان ، والظاهر أنه إذا قال ذلك ونحوه كوهبت ثواب ماقرأته لفلان بقلبه كفى ، وعن بعضهم اشتراط نية النيابة أول القراءة وفى القلب منه شئ ، ثم الظاهر أن ذلك إذا لم تكن القراءة بأجرة أما إذا كانت بها كما يفعله أكثر الناس اليوم فانهم يعطون حفظة القرآن أجرة ليقرءوا لموتاهم فيقرءون لتلك الأجرة فلا يصل ثوابها إذ لاثواب لها ليصل لحرمة أخذ الاجرة على قراءة القرآن وإن لم يحرم على تعليمه كما حققه خاتمة الفقهاء المحققين الشيخ محمد الأمين بن عابدين الدمشقى رحمه الله تعالى ، وفى الهداية من كتاب الحج عن الغير إطلاق صحة جعل الانسان عمله لغيره ولو صلاة وصوماً عند أهل السنة والجماعة ، وفيه ماعلمت مامر آنفا ٭

وقال الخفاجى : هو محتاج إلى التحرير وتحريره أن محل الخلاف العبادة البدنية هل تقبل النيابة فتسقط عمن لزمته بفعل غيره سواء كان باذنه أم لا بعد حياته أم لا فهذا وقع فى الحج كما ورد فى الاحاديث الصحيحة، أما الصوم فلا ، وما ورد فى حديث « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » وكذا غيره من العبادات فقال الطحاوى : إنه كان فى صدر الاسلام ثم نسخ وليس الكلام فى الفدية وإطعام الطعام فانه بدل وكذا إهداء الثواب سواء كان بعينه أو مثله فانه دعاء وقبوله بفضله عز وجل كالصدقة عن الغير فاعرفه انتهى فلا تغفل ٭

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ٤٠ ﴾ أى يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة فى صحيفته وميزانه من أريته الشئ، وفى البحر يراه حاضرو القيامة ويطلعون عليه تشريفاً للمحسن وتوبيخاً للمسئ ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ﴾ أى يجزى الانسان سعيه ، يقال : جزاه الله عز وجل بعمله وجزاه على عمله وجزاه عمله بحذف الجار وإيصال الفعل ، وقوله تعالى:

Marfat.com

﴿ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ٤١ ﴾ مصدر مبين للنوع وإذا جاز وصف المجزى به بالأوفى جاز وصف الحدث عن الجزاء لملابسته له ، وجوز كونه مفعولا به بمعنى المجزى به وحينئذ يكون الفعل فى حكم المتعدى إلى ثلاثة مفاعيل . ولا بأس لأن الثانى بالحذف والايصال لا التوسع فيجئ فيه الخلاف ، وبعضهم يجعل الجزاء منصوباً بنزع الخافض، وجوز أن يكون الضمير المنصوب فى (يجزاه) للجزاء للسعى ، و (الجزاء الأوفى) عليه عطف بيان، أو بدل كما فى قوله تعالى : (وأسروا النجوى الذين ظلموا) وتعقبه أبو حيان بأن فيه إبدال الظاهر من الضمير وهى مسألة خلافية والصحيح المنع ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ٤٢ ﴾ أى إن انتهاء الخلق ورجوعهم اليه تعالى لا إلى غيره سبحانه استقلالا ولا اشتراكا ، والمراد بذلك رجوعهم اليه سبحانه يوم القيامة حين يحشرون ولهذا قال غير واحد : أى إلى حساب ربك أو إلى ثوابه تعالى من الجنة وعقابه من النار الانتهاء ، وقيل : المعنى أنه عز وجل منتهى الافكار فلا تزال الافكار تسير فى بيداء حقائق الاشياء وماهياتها والاحاطة بما فيها حتى إذا وجهت إلى حرم ذات الله عز وجل وحقائق صفاته سبحانه وقفت وحرنت وانتهى سيرها ، وأيد بما أخرجه البغوى عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال فى الآية : « لا فكرة فى الرب » وأخرجه أبو الشيخ فى العظمة عن سفيان الثورى ، وروى عنه عليه الصلاة والسلام « إذا ذكر الرب فانتهوا » ، وأخرج ابن ماجه عن ابن عباس قال : « مر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على قوم يتفكرون فى الله فقال : تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق فانكم لن تقدروه » وأخرج أبو الشيخ عن أبى ذر قال : « قال رسول الله ﷺ : تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا » .

واستدل بذلك من قال باستحالة معرفته عز وجل بالكنه ، والبحث فى ذلك طويل، وأكثر الأدلة النقلية على عدم الوقوع ، وقرأ أبو السمال ، وإن بالكسر هنا وفيما بعد على أن الجمل منقطعة عما قبلها فلا تكون مما فى الصحف ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ٤٣ ﴾ خلق فعلى الضحك والبكاء ، وقال الزمخشرى : خلق قوتى الضحك والبكاء ، وفيه دسيسة اعتزال ، وقال الطيبى : المراد خلق السرور والحزن أو ما يسر ويحزن من الاعمال الصالحة والطالحة ، ولذا قرن بقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ٤٤ ﴾ وعليه فهو مجاز ولا يخفى أن الحقيقة أيضا تناسب الاماتة والاحياء لاسيما والموت يعقبه البكاء غالبا والاحياء عند الولاد الضحك وما أحسن قوله :

ولدتك أمك يا ابن آدم باكياً والناس حولك يضحكون سروراً
فاجهد لنفسك أن تكون إذا بكوا فى يوم موتك ضاحكا مسروراً

وقال مجاهد . والكلبى : (أضحك) أهل الجنة (وأبكى) أهل النار ، وقيل: (أضحك) الأرض بالنبات (وأبكى) السماء بالمطر ، وتقديم الضمير وتكرير الاسناد للحصر أى أنه تعالى فعل ذلك لا غيره سبحانه، وكذا فى أنه (هو أمات وأحيا) فلا يقدر على الإماتة والإحياء غير عز وجل ، والقاتل إنما ينقض البنية الانسانية ويفرق أجزاءها والموت الحاصل بذلك فعل الله تعالى على سبيل العادة فى مثله فلا إشكال فى الحصر ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ٤٥ ﴾ من نوع الانسان وغيره من أنواع الحيوانات ولم يذكر الضمير على طرز ما تقدم لأنه لا يتوهم نسبة خلق الزوجين إلى غيره عز وجل ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ٤٦ ﴾ أى تدفق فى الرحم

Marfat.com

يقال : أمنى الرجل ومنى بمعنى ، وقال الاخفش : أى تقدر يقال منى لك المانى أى قدر لك المقدر ، ومنه المنا الذى يوزن به فيما قيل ، والمنية وهى الاجل المقدر للحيوان ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهُ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ٤٧ ﴾ أى الاحياء بعد الاماتة وفاءاً بوعده جل شأنه، وفى البحر لما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ بقوله تعالى عليه كأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه ، وفى الكشاف قال سبحانه : (عليه) لأنها واجبة فى الحكمة ليجازى على الاحسان والاساءة وفيه مع كونه على طريق الاعتزال نظر ، وقرأ ابن كثير . وأبو عمرو - النشاءة - بالمد وهى أيضاً مصدر نشأه الثلاثى ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ٤٨ ﴾ وأعطى القنية وهو مايبقى ويدوم من الأموال ببقاء نفسه أو أصله كالرياض والحيوان والبناء ، وإفراد ذلك بالذكر مع دخوله فى قوله تعالى : (أغنى) لأن القنية أنفس الأموال وأشرفها ، وفى البحر يقال : قنيت المال أى كسبته ويعدى أيضا بالهمزة والتضعيف فيقال: أقناه الله تعالى مالا وقناه الله تعالى مالا ، وقال الشاعر :

كم من غنى أصاب الدهر ثروته ومن فقير (يقنى) بعد إقلال

أى يقنى المال، وعن ابن عباس (أغنى) مول ، (وأقنى) أرضى . وهو بهذا المعنى مجاز من القنية قال الراغب : وتحقيق ذلك أنه جعل له قنية من الرضا والطاعة وذلك أعظم القنائن ، ولله تعالى در من قال :

هل هى إلا مدة وتنقضى ما يغلب الايام إلا من رضى

وعن ابن زيد . والاخفش (أقنى) أفقر، ووجه بأنهما جعلا الهمزة فيه للسلب والازالة كما فى أشكى، وقيل: إنهما جعلا (أقنى) بمعنى جعل له الرضا والصبر قنية كناية عن ذلك ليظهر فيه الطباق كما فى (أمات وأحيا) (وأضحك) (وأبكى) وفسره بأفقر أيضا الحضرمى إلا أنه كما أخرج عنه ابن جرير . وأبو الشيخ قال (أغنى) نفسه سبحانه و(أفقر) الخلائق اليه عز وجل ، والظاهر على تقدير اعتبار المفعول فى جميع الافعال المتقدمة أن يكون من المحدثات الصالحة لتعلق الفعل ، وعندى أن (أغنى) سبحانه نفسه كما وجد جل شأنه نفسه لايخلو عن سماجة وإيهام محذور ، وإنما لم يذكر مفعول لأن القصد إلى الفعل نفسه ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ٤٩ ﴾ هى (الشعرى) العبور بفتح العين المهملة والباء الموحدة والراء المهملة بعد الواو، وتقال (الشعرى) أيضا على الغميصاء بغين معجمة مضمومة وميم مفتوحة بعدها ياء مثناة تحتية وصاد مهملة ومد ؛ والأولى فى الجوزاء ، وإنما قيل لها العبور لانها عبرت المجرة فلقيت سهيلا ولأنها تراه إذا طلع كأنها ستعبر وتسمى أيضاً كلب الجبار لانها تتبع الجوزاء المسماة بالجبار كما يتبع الكلب الصائد أو الصيد، والثانية فى ذراع الاسد المبسوطة، وإنما قيل لها الغميصاء لانها بكت من فراق سهيل فغمصت عينها، والغمص ماسال من الرمص وهو وسخ أبيض يجتمع فى الموق، وذلك من زعم العرب أنهما أختا سهيل ، وفى القاموس من أحاديثهم أن الشعرى العبور قطعت المجرة فسميت عبوراً وبكت الاخرى على أثرها حتى غمصت ويقال لها الغموص أيضاً ، وقيل: زعموا أن سهيلا و(الشعرى) كانا زوجين فانحدر سهيل وصار يمانياً فاتبعه الشعرى فعبرت المجرة فسميت العبور وأقامت الغميصاء وسميت بذلك لانها دون الاولى ضياءاً، وكل ذلك من تخيلاتهم الكاذبة التى لاحقيقة لها، والمتبادر عند الاطلاق وعدم الوصف العبور لأنها أكبر جرماً وأكثر ضياءاً وهى التى عبدت من دون الله سبحانه فى الجاهلية .

قال السدى : عبدتها حمير . وخزاعة، وقال غيره: أول من عبدها أبو كبشة رجل من خزاعة ، أوهو سبدم

Marfat.com

واسمه وخز بن غالب وكان المشركون يقولون للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : ابن أبى كبشة شبهوه به لمخالفته قومه فى عبادة الاصنام ، وذكر بعضهم أنه أحد أجداده عليه الصلاة والسلام من قبل أمه وأنهم كانوا يزعمون أن كل صفة فى المرء تسرى اليه من أحد أصوله فيقولون نزع اليه عرق كذا ، وعرق الخال نزاع ، وقيل: هو كنية وهب بن عبد مناف جده صلى الله تعالى عليه وسلم من قبل أمه ، وقولهم له عليه الصلاة والسلام ذلك على ما يقتضيه ظاهر القاموس لانه صلى الله تعالى عليه وسلم فى الشبه الخلقى دون المخالفة ، وقيل : كنية زوج حليمة السعدية مرضعته عليه الصلاة والسلام ، وقيل : كنية عم ولدها ولكونها عبدت من دونه عز وجل خصت بالذكر ليكون ذلك تجهيلا لهم بجعل المربوب ربا ، ولمزيد الاعتناء بذلك جىء بالجملة على مانطق به النظم الجليل ۞

ومن العرب من كان يعظمها ويعتقد تأثيرها فى العالم ويزعمون أنها تقطع السماء عرضاً وسائر النجوم تقطعها طولا ويتكلمون على المغيبات عند طلوعها فنى قوله تعالى: (وأنه هو رب الشعرى) إشارة إلى نفى تأثيرها ۞

۞(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَىٰ)۞ أى القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكا بعد قوم نوح كما قاله ابن زيد والجمهور ، وقال الطبرى: وصفت بالأولى لأن فى القبائل (عاداً) أخرى وهى قبيلة كانت بمكة مع العماليق وهم بنو لقيم بن هزال ، وقال المبرد: عاد الأخرى هى ثمود ، وقيل: الجبارون ، وقيل: عاد الاولى ولد عاد بن إرم بن عوف بن سام بن نوح ، وعاد الأخرى من ولد عاد الأولى ، وفى الكشاف (الأولى) قوم هود والأخرى إرم ، والله تعالى أعلم ۞

وجوز أن يراد بالأولى المتقدمون الاشراف ؛ وقرأ قوم عاد الولى بحذف الهمزة ونقل ضمها إلى اللام قبلها ، وقرأ نافع . وأبو عمرو - عادا لولى - بإدغام التنوين فى اللام المنقول اليها حركة الهمزة المحذوفة ، وعاب هذه القراءة المازنى . والمبرد ، وقالت العرب: فى الابتداء بعد النقل - الحمر ، ولحمر - فهذه القراءة جاءت على لحمر فلا عيب فيها ، وأتى قالون بعد ضمة اللام بهمزة ساكنة فى موضع الواو كما فى قوله :

۞ أحب الموقدين إلى مؤسى ۞ وكما قرأ بعضهم - على سؤقه - وفيه شذوذ ، وفى حرف أبى "عاد غير مصروف للعلمية والتأنيث ومن صرفه فباعتبار الحى ، أو عامله معاملة هند لكونه ثلاثياً ساكن الوسط ﴿وَثَمُودَ﴾ عطف على (عاداً) ولا يجوز أن يكون مفعولا - لأبقى - فى قوله تعالى: ﴿ فَمَا أَبْقَىٰ ﴾ لأن - ما - النافية لها صدر الكلام والفاء على ماقيل: مانعة أيضاً فلا يتقدم معمول مابعدها ، وقيل : هو معمول - لأهلك - مقدر ولا حاجة اليه ، وقرأ عاصم . وحمزة . - ثمود - بلا تنوين ويقفان بغير ألف . والباقون بالتنوين ويقفون بالألف ، والظاهر أن متعلق (أبقى) يرجع إلى عاد وثمود معاً أى فما أبقى عليهم ، أى أخذهم بذنوبهم ، وقيل: أى ما أبقى منهم أحداً ، والمراد ما أبقى من كفارهم ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ عطف على (عاداً) أيضا ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أى من قبل إهلاك عاد وثمود ، وصرح بالقبلية لأن نوحا عليه السلام آدم الثانى وقومه أول الطاغين والهالكين ۞(إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ)۞ أى من الفريقين حيث كانوا يؤذونه ويضربونه حتى لا يكاد يتحرك وكان الرجل منهم يأخذ بيد ابنه يتمشى به إليه يحذره منه ويقول: يابنى إن أبى مشى بى إلى هذا وأنا مثلك يومئذ فإياك أن تصدقه فيموت الكبير على الكفر وينشأ الصغير على وصية أبيه ولم يتأثروا من دعائه وقد دعاهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وقيل: ضمير (إنهم) يعود على جميع من تقدم عاد وثمود وقوم نوح أى كانوا أظلم من قريش وأطغى منهم ، وفيه من التسلية للنبي عليه الصلاة والسلام

Marfat.com

مالا يخفى ، و (هم) يجوز أن يكون تاكيداً للضمير المنصوب ويجوز أن يكون فصلا لأنه واقع بين معرفة وأفعل التفضيل ، وحذف المفضول مع الواقع خبراً لكان لأنه جار مجرى خبر المبتدأ وحذفه فصيح فيه فكذلك فى خبر كان ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ ﴾ هى قرى قوم لوط سميت بذلك لأنها ائتفكت بأهلها أى انقلبت بهم ، ومنه الإفك لأنه قلب الحق ، وجوز أن يراد بالمؤتفكة كل ماانقلبت مساكنه ودثرت أماكنه *

وقرأ الحسن ـ والمؤتفكات ـ جمعاً ﴿ أَهْوَىٰ ﴾ أى أسقطها إلى الارض بعد أن رفعها على جناح جبريل عليه السلام إلى السماء ، وقال المبرد : جعلها تهوى *

والظاهر أن أهوى ناصب للمؤتفكة وأخر العامل لكونه فاصلة ، وجوز أن يكون ـ المؤتفكة ـ معطوفا على ماقبله و(أهوى) مع فاعله جملة فى موضع الحال بتقدير قد ، أو بدونه توضح كيفية إهلاكهم *

﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ فيه تهويل للعذاب وتعميم لما أصابهم منه لأن الموصول من صيغ العموم والتضعيف فى غشاها يحتمل أن يكون للتعدية فيكون (ما) مفعولا ثانياً والفاعل ضميره تعالى ، ويحتمل أن يكون للتكثير والمبالغة فـ(ما) هى الفاعل ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ تتشكك والتفاعل هنا مجرد عن التعدد فى الفاعل والمفعول للمبالغة فى الفعل ، وقيل : إن فعل التمارى للواحد باعتبار تعدد متعلقه وهو الآلاء المتمارى فيها ، والخطاب قيل : لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أنه من باب الإلهاب والتعريض بالغير ، وقيل : للانسان على الاطلاق وهو أظهر والاستفهام للانكار ، والآلاء جمع إلى النعم ، والمراد بها ماعد فى الآيات قبل وسمى الكل بذلك مع أن منه نقما لما فى النقم من العبر والمواعظ للمعتبرين والانتفاع للانبياء والمؤمنين فهى نعم بذلك الاعتبار أيضا ، وقيل : التعبير بالآلاء للتغليب وتعقب بأن المقام غير مناسب له ، وقرأ يعقوب . وابن محيصن ـ ربك تمارى ـ بتاء مشددة ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ الإشارة إلى القرآن . وقال أبو مالك : إلى الأخبار عن الامم ، أو الاشارة إلى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم . والنذير يجىء مصدراً ووصفاً ، والنذر جمعه مطلقا وكل من الامرين محتمل هنا ، ووصف (النذر) جمعاً للوصف بالاولى على تاويل الفرقة ، أو الجماعة ، واختير على غيره رعاية للفاصلة ، وأياً ما كان فالمراد (هذا نذير من) جنس (النذر الاولى) *

وفى الكشف أن قوله تعالى : (هذا نذير) الخ فذلكة للكلام إما لما عدد من المشتمل عليه الصحف وإما لجميع الكلام من مفتتح السورة فتدبر ولا تغفل ﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴾ أى قربت الساعة الموصوفة بالقرب فى غير آية من القرآن ، فأل فى (الآزفة) كاللعهد لا للجنس ، وقيل : (الآزفة) علم بالغلبة للساعة هنا ، وقيل : لا بأس بارادة الجنس ووصف القريب بالقرب للمبالغة ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أى غير الله تعالى أو إلا الله عز وجل ﴿ كَاشِفَةٌ ٥٨ ﴾ نفس قادرة على كشفها إذا وقعت لكنه سبحانه لا يكشفها ، والمراد بالكشف الازالة ، وقريب من هذا ماروى عن قتادة . وعطاء . والضحاك أى إذا غشيت الخلق أهوالها وشدائدها لم يكشفها ولم يردها عنهم أحد ، أو ليس لها الآن نفس كاشفة أى مزيلة للخوف منها فانه باق إلى أن يأتى الله سبحانه بها وهو مراد الزمخشرى بقوله : أو ليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير ، وقيل : معناه لو وقعت الآن لم يردها الى وقتها أحد إلا الله تعالى ، فالكشف بمعنى التأخير وهو إزالة مخصوصة ، وقال الطبرى . والزجاج : المعنى

Marfat.com

ليس لها من دون الله تعالى نفس كاشفة تكشف وقت وقوعها وتبينه لأنها من أخفى المغيبات ، فالكشف بمعنى التبيين والآية كقوله تعالى:(لا يجليها لوقتها إلا هو) والتاء فى(كاشفة)على جميع الاوجه للتأنيث ،وهو لتأنيث الموصوف المحذوف كما سمعت ، وبعضهم يقدر الموصوف حالا ، والاول أولى ؛ وجوز أن تكون للمبالغة مثلها فى علامة ، وتعقب بأن المقام يأباه لا يهامه ثبوت أصل الكشف لغيره عز وجل وفيه نظر ، وقال الرمانى. وجماعة : يحتمل أن يكون (كاشفة) مصدراً كالعافية ، وخائنة الاعين أى ليس لها كشف من دون الله تعالى ﴿ أَفَمِنْ هَـٰذَا الْحَدِيثِ ﴾ أى القرآن ﴿ تَعْجَبُونَ ٥٩ ﴾ إنكاراً ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاءاً مع كونه أبعد شئ من ذلك ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ٦٠ ﴾ حزناً على مافرطتم فى شأنه وخوفا من أن يحيق بكم ماحاق بالامم المذكورة ﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ٦١ ﴾ أى لاهون كما روى عن ابن عباس جوابا لنافع بن الازرق ، وأنشد عليه قول هزيلة بنت بكر وهى تبكى قوم عاد :

ليت (عاداً) قبلوا الحق ولم يبدوا جحودا
قيل : قم فانظر اليهم ثم دع عنك (السمودا)

وفى رواية أنه رضى الله تعالى عنه سئل عن السمود ، فقال : البرطمة وهى رفع الرأس تكبراً أى وأنتم رافعون رءوسكم تكبراً ، وروى تفسيره بالبرطمة عن مجاهد أيضا ، وقال الراغب: السامد اللاهى الرافع رأسه - من سمد البعير فى سيره - إذا رفع رأسه ، وقال أبو عبيدة : السمود الغناء بلغة حمير يقولون: ياجارية اسمدى لنا أى غنى لنا ، وروى نحوه عن عكرمة ، وأخرج عبد الرزاق . والبزار . وابن جرير . والبيهقى فى سننه . وجماعة عن ابن عباس أنه قال : هو الغناء باليمانية وكانوا إذا سمعوا القرآن غنوا تشاغلا عنه ، وقيل : يفعلون ذلك ليشغلوا الناس عن استماعه ، والجملة الاسمية على جميع ذلك حال من فاعل - لاتبكون - ومضمونها قيد للنفى والانكار متوجه إلى نفى البكاء ووجود السمود ، وقال المبرد : السمود الجمود والخشوع كما فى قوله :

رمى الحدثان نسوة آل سعد بمقدار سمدن له (سمودا)
فرد شعورهن السود بيضاً ورد وجوههن البيض سودا

والجملة عليه حال من فاعل - تبكون - أيضا إلا أن مضمونها قيد للمنفى ، والانكار وارد على نفى البكاء والسمود معاً فلا تغفل،وفى حرف أبىّ . وعبد الله - تضحكون - بغير واو ، وقرأ الحسن - تعجبون تضحكون- بغير واو وضم التاءين وكسر الجيم والحاء ، واستدل بالآية كما فى أحكام القرآن على استحباب البكاء عند سماع القرآن وقراءته ، أخرج البيهقى فى شعب الايمان عن أبى هريرة قال : « لما نزلت (أفمن هذا الحديث)الآية بكى أصحاب الصفة حتى جرت دموعهم على خدودهم فلما سمع رسول الله ﷺ حنينهم بكى معهم فبكينا ببكائه فقال عليه الصلاة والسلام : لا يلج النار من بكى من خشية الله تعالى ولا يدخل الجنة مصر على معصيته ولو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم» وأخرج أحمد فى الزهد . وابن أبى شيبة . وهناد. وغيرهم عن صالح أبى الخليل قال : لما نزلت هذه الآية (أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون)ماضحك النبى ﷺ بعد ذلك إلا أن يتبسم » ولفظ عبد بن حميد « فما رؤى النبى عليه الصلاة والسلام ضاحكا ولا متبسما حتى ذهب من الدنيا » وفيه سد باب الضحك عند قراءة القرآن ولو لم يكن استهزاءاً والعياذ بالله عز وجل *

Marfat.com

﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ٦٢ ﴾ الفاء لترتيب الأمر أو موجبه على ما تقرر من بطلان مقابلة القرآن بالتعجب والضحك وحقية مقابلته بما يليق به ، ويدل على عظم شأنه أى وإذا كان الامر كذلك فاسجدوا لله تعالى الذى أنزله واعبدوه جل جلاله ، وهذه آية سجدة عند أكثر أهل العلم ، وقد سجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندها. أخرج الشيخان . وأبو داود . والنسائى . وابن مردويه عن ابن مسعود قال : « أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم) فسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسجد الناس كلهم إلا رجلا » الحديث . وأخرج ابن مردويه . والبيهقى فى السنن عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما « قال : صلى بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقرأ النجم فسجد بنا فأطال السجود » وكذا عمر رضى الله تعالى عنه ، أخرج سعيد ابن منصور عن سبرة قال : صلى بنا عمر بن الخطاب الفجر فقرأ فى الركعة الأولى سورة يوسف ، ثم قرأ فى الثانية سورة النجم فسجد ، ثم قام فقرأ إذا زلزلت ثم ركع ، ولا يرى مالك السجود هنا ، واستدل له بما أخرجه أحمد . والشيخان . وأبو داود . والترمذى . والنسائى والطبرانى وغيرهم عن زيد بن ثابت قال : قرأت النجم عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلم يسجد فيها ، وأجيب بأن الترك إنما ينافى وجوب السجود وليس بمجمع عليه وهو عند القائل به على التراخى فى مثل ذلك على المختار وليس فى الحديث ما يدل على نفيه بالكلية فيحتمل أنه عليه الصلاة والسلام سجد بعد ، وكذا زيد رضى الله تعالى عنه ، نعم التأخير مكروه تنزيهاً ولعله فعل لبيان الجواز ، أو لعذر لم نطلع عليه ، وما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس من قوله : « إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يسجد فى شئ من المفصل منذ تحول إلى المدينة » ناف وضعيف ، وكذا قوله فيما رواه أيضا عنه « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسجد فى النجم بمكة فلما هاجر إلى المدينة تركها » على أن الترك إنما ينافى ما سمعت الوجوب ، والله تعالى أعلم .

﴿ سورة القمر ﴾

وتسمى أيضا (اقتربت) وعن ابن عباس أنها تدعى فى التوراة المبيضة تبيض وجه صاحبها يوم تسود الوجوه ، أخرجه عنه البيهقى فى شعب الايمان لكن قال : إنه منكر ﴿ وهى مكية ﴾ فى قول الجمهور ، وقيل : مما نزل يوم بدر ، وقال مقاتل : مكية إلا ثلاث آيات (أم يقولون) إلى (وأمر) واقتصر بعضهم على استثناء (سيهزم الجمع) الخ ، ورد بما أخرجه ابن أبى حاتم . والطبرانى فى الاوسط . وابن مردويه عن أبى هريرة قال : أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة قبل يوم بدر (سيهزم الجمع ويولون الدبر) وقال عمر بن الخطاب : قلت : يارسول الله أى جمع يهزم ؟ فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله ﷺ فى آثارهم مصلتاً بالسيف وهو يقول : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) فكانت ليوم بدر ، وفى الدر المنثور : أخرج البخارى عن عائشة قالت : « نزل على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة وإنى لجارية ألعب (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) » ويرد به وبما قبله ما حكى عن مقاتل أيضا ، وقيل : (إلا أن المتقين) الآيتين وآيها خمس وخمسون بالاجماع ، ومناسبة أولها لآخر السورة التى قبلها ظاهرة فقد قال سبحانه : (ثم أزفت الآزفة) وهنا (اقتربت الساعة) وقال الجلال السيوطى : لا يخفى ما فى توالى هاتين السورتين من حسن التناسق

Marfat.com

للتناسب فى التسمية لما بين ـ النجم ، والقمر ـ من الملابسة ، وأيضا إن هذه بعد تلك ـ كالاعراف بعد الانعام، وكالشعراء بعد الفرقان ، وكالصافات بعد يس ـ فى أنها تفصيل لاحوال الامم المشار إلى إهلاكهم فى قوله تعالى: (وأنه أهلك عاداً الاولى وثمود فما أبقى وقوم نوح) إلى قوله سبحانه : (والمؤتفكة أهوى) ٥

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ أى قربت جداً ﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ١ ﴾ انفصل بعضه عن بعض وصار فرقتين وذلك على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل الهجرة بنحو خمس سنين فقد صح من رواية الشيخين . وابن جرير عن أنس أن أهل مكة سألوه عليه الصلاة والسلام أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما ، وخبر أبى نعيم من طريق الضحاك عن ابن عباس ـ أن أحبار اليهود سألوا آية فأراهم الله تعالى القمر قد انشق ـ لا يعوّل عليه ، وفى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود «انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرقتين فرقة على الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا» ومن حديثه أيضاً «انشق القمر على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة فقال رجل: انتظروا ما يأتيكم به السفار فان محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فجاء السفار فأخبروهم بذلك» رواه أبو داود . والطيالسى ، وفى رواية البيهقى « فسألوا السفار وقد قدموا من كل وجه فقالوا : رأيناه » فأنزل الله تعالى: (اقتربت الساعة وانشق القمر) *

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس من وجه ضعيف قال: «اجتمع المشركون على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منهم الوليد بن المغيرة . وأبو جهل بن هشام . والعاص بن وائل . والعاص بن هشام . والاسود بن عبد يغوث. والاسود بن المطلب. وربيعة بن الاسود. والنضر بن الحرث فقالوا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين نصفاً على أبى قبيس ونصفاً على قينقاع فقال لهم النبى ﷺ : «إن فعلت تؤمنوا؟ قالوا: نعم وكانت ليلة بدر فسأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ربه عز وجل أن يعطيه ماسألوا فأمسى القمر قدمثل نصفاً على أبى قبيس ونصفاً على قينقاع ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينادى يا أبا سلمة بن عبد الاسد . والأرقم بن الأرقم اشهدوا» *

والاحاديث الصحيحة فى الانشقاق كثيرة ، واختلف فى تواتره فقيل : هو غير متواتر ، وفى شرح المواقف الشريفى أنه متواتر وهو الذى اختاره العلامة ابن السبكى قال فى شرحه لمختصر ابن الحاجب : الصحيح عندى أن انشقاق القمر متواتر منصوص عليه فى القرآن مروى فى الصحيحين وغيرهما من طرق شتى بحيث لا يمترى فى تواتره انتهى باختصار ، وقد جاءت أحاديثه فى روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة منهم على كرم الله تعالى وجهه . وأنس . وابن مسعود. وابن عباس . وحذيفة . وجبير بن مطعم . وابن عمر . وغيرهم، نعم إن منهم من لم يحضر ذلك كابن عباس فانه لم يكن مولوداً إذ ذاك وكأنس فانه كان ابن أربع أو خمس بالمدينة، وهذا لا يطعن فى صحة الخبر كما لا يخفى ، ووقع فى رواية البخارى . وغيره عن ابن مسعود « كنا مع رسول الله صلى تعالى الله عليه وسلم بمنى فانشق القمر » ولا يعارض ماصح عن أنس أن ذلك كان بمكة لأنه لم يصرح بأنه عليه الصلاة والسلام كان ليلتئذ بمكة ، فالمراد أن الانشاق كان والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذ ذاك مقيم بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، ووقع فى نظم السيرة للحافظ أبى الفضل العراقى ما هو نص فى وقوع الانشقاق مرتين. وظاهر فى أنه مجمع على وقوعه كذلك حيث قال: وانشق مرتين بالاجماع، وكأن مستند الاول ما أخرجه

Marfat.com

عبدبن حميد.والحاكم وصححه.وابن مردويه . والبيهقى فى الدلائل من طريق مجاهد عن أبى معمر عن ابن مسعود قال: رأيت القمر منشقا شقتين مرتين بمكة قبل مخرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الحديث ، وأما الاجماع فغير مسلم ، وفى المواهب قال الحافظ ابن حجر : أظن أن قوله:بالاجماع يتعلق-بانشق-لا بمرتين فانى لا أعلم من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشقاق فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم،ولعل قائل مرتين أراد فرقتين،وهذا الذى لا يتجه غيره جمعاً بين الروايات انتهى،ولا يخفى أن هذا التأويل مع بعده لا يتسنى فى خبر ابن مسعود المذكور آنفا لمكان شقتين وهى بمعنى فرقتين ومرتين معاً ، والذى عندى فى تأويل ذلك أن مرتين فى كلام ابن مسعود قيد للرؤية وتعددها لا يقتضى تعدد الانشقاق بأن يكون رآه منشقا فصرف نظره عنه ثم أعاده فرآه كذلك لم يتغير ففيه إشارة إلى أنها رؤية لاشبهة فيها وقد فعل نحو ذلك الكفرة ، أخرج أبو نعيم من طريق عطاء عن ابن عباس قال : انتهى أهل مكة إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : هل من آية نعرف بها أنك رسول الله؟ فهبط جبريل عليه السلام فقال : يا محمد قل لاهل مكة أن يجتمعوا هذه الليلة يروا آية فأخبرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمقالة جبريل عليه السلام فخرجوا ليلة أربع عشرة فانشق القمر نصفين نصفاً على الصفا ونصفاً على المروة فنظروا ثم قالوا بأبصارهم فمسحوها ثم أعادوا النظر فنظروا ثم مسحوا أعينهم ثم نظروا فقالوا ماهذا إلا سحر فأنزل الله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر)فلو قال أحد هؤلاء رأيت القمر منشقاً ثلاث مرات على معنى تعدد الرؤية صح بلا غبار ولم يقتض تعدد الانشقاق فليخرج كلام ابن مسعود على هذا الطرز ليجمع بين الروايات ، ثم هذا الحديث إن صح كان دليلا لما أشار اليه البوصيرى فى قوله :

شق عن صدره وشق له البد ر ومن شرط كل شرط جزاء

من أن الشق كان ليلة أربع عشرة لأن البدر هو القمر ليلة أربع عشرة ويعلم من ذلك ما فى قول العلامة ابن حجر الهيتمى فى شرحه : ظاهر التعبير بالبدر دون القمر أن الشق كان ليلة أربع عشرة ولم أر له فى ذلك سلفا ، ولعله أراد بالبدر مطلق القمر ، ويؤيد كونه ليلة البدر ما أخرجه الطبرانى ، وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : كسف القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : سحر القمر فنزلت (اقتربت الساعة) إلى (مستمر) فان الكسوف وإن جاز عادة أن يكون ليلة الثالث عشر وليلة الخامس عشر إلا أن الأغلب كونه ليلة الرابع عشر ولا ضرورة إلى حمل الكسوف فى هذا الخبر على الانشقاق إذ لا مانع كما فى البداية والنهاية أن يكون قد حصل للقمر مع انشقاقه كسوف ، نعم ذكر فيها أن سياق الخبر غريب»

ثم إن القمر بعد انشقاقه لم تفارق قطعتاه السماء بل بقيتا فيها متباعدتين تباعداً ما لحظة ثم اتصلتا، وما يذكره بعض القصاص من أنه دخل فى جيب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وخرج من كمه فباطل لا أصل له كما حكاه الشيخ بدر الدين الزركشى عن شيخه العماد بن كثير ولعنة الله تعالى على من وضعه . ومافى خبر أبى نعيم - الذى أخرجه من طريق الضحاك عن ابن عباس من أنه انشق فصار قمرين أحدهما على الصفا والآخر على المروة قدر مابين العصر إلى الليل ينظرون اليه ثم غاب - لا يعول عليه، كيف وقد تضمن ذلك الخبر أن الانشقاق وقع لطلب أحبار اليهود وأن القائل (هذا سحر مستمر) هم ، وهو مخالف لما نطقت به الاخبار الصحيحة الكثيرة كما لا يخفى على المتتبع ، وقد شاع « أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أشار إلى القمر بسبابته الشريفة فانشق» ولم أره فى خبر صحيح والله تعالى أعلم .

Marfat.com

وأنكر الفلاسفة أصل الانشقاق بناءاً على زعمهم استحالة الخرق والالتئام على الاجرام العلوية ودليلهم على ذلك أوهن من بيت العنكبوت وقد خرق بأدنى نسمة من نسمات أفكار أهل الحق العلويين خرقا لا يقبل الالتئام كما بين فى موضعه ، وقال بعض الملاحدة : لو وقع لنقل متواتراً واشترك أهل الارض كلهم فى معرفته ولم يختص بها أهل مكة لأنه أمر محسوس مشاهد والناس فيه شركاء والطباع حريصة على رواية الغريب ونقل مالم يعهد ، ولا أغرب من انشقاق هذا الجرم العظيم ولم يعهد أصلا فى الزمن القديم ولو كان له أصل لخلد أيضا فى كتب التسيير والتنجيم ولذكره أهل الارصاد فقد كانت موجودة قبل البعثة بكثير وإطباقهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره مما لا تجوزه العادة، وايضا لا يعقل سبب لخرق هذا الجرم العظيم وأيضاً خرقه يوجب صوتا هائلا أشد من أصوات الصواعق المهلكة بأضعاف مضاعفة لا يبعد هلاك أكثر أهل الأرض منه ، وأيضاً متى خرق وصار قطعتين ذهبت منه قوة التجاذب كالجبل إذا انشق فيلزم بقاؤه منشقاً ولا أقل من أن يبقى كذلك سنين كثيرة ، والجواب عن ذلك أنه وقع فى الليل وزمان الغفلة وكان فى زمان قليل ورؤية القمر فى بلد لا تستلزم رؤيته فى جميع البلاد ضرورة اختلاف المطالع فقد يكون القمر طالعاً على قوم غائباً عن آخرين ومكسوفا عند قوم غير مكسوف عند آخرين والاعتناء بأمر الارصاد لم يكن بمثابته اليوم وغفلة أهلها لحظة غير مستبعد والانشقاق لا تختلف به منازله ولا يتغير به سيره غاية ما فى الباب أن يحدث فى القطعة الشرقية قوة سير لتلحق أختها الغربية، وأى مانع من أن يخلق الله تعالى فيها من السرعة نحو ما خلق الله سبحانه فى ضوء الشمس فقد قال أهل الحكمة الجديدة: إن بين الأرض والشمس ثلثمائة ألف فرسخ وأربعون ألف فرسخ وأن ضوءها ليصل إلى الأرض فى مدة ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية فيقطع الضوء فى كل ثانية سبعين ألف فرسخ ولا يلزم أن يعلم سبب كل حادث بل كثير من الحوادث المتكررة المشاهدة لم يوقف على أسبابها كرؤية الكواكب قريبة مع بعدها المفرط فقد ذكروا أنهم لم يقفوا على سببه ويكفى فى ذلك عدم وقوفهم على سبب الإبصار بالعين على الحقيقة ولو أخبرهم مخبر بفرض إن لم يكن لهم أبصار بخواص البصر مع كونه قطعة شحم صغيرة معروفة أحوالها عند أهل التشريح لأنكروا عليه غاية الانكار وكذبوه غاية التكذيب ونسبوه إلى الجنون ه

ومن سلم تأثير النفوس إلى حد أن يصرع الشخص آخر بمجرد النظر اليه وتوجيه نفسه نحوه لم يستبعد أن يكون هناك سبب نحو ذلك ، وقد صح فى إصابة العين أن بعض الاعراب ممن له عين صائبة يفلق سنام الناقة فلقتين ، وربما تصور له من رمل فينظر إليه ويفلقه فينفلق سنامها مع عدم رؤيته لها نفسها وهذا كله من باب المشاة وإلا فإرادة الله تعالى كافية فى الانشقاق وكذا فى كل المعجزات وخوارق العادات ولو كان لكل حادث سبب لزم التسلسل وقد قامت الادلة على بطلانه ، وكون الخرق يوجب صوتاً هائلا ممنوع فيما نحن فيه ومثله ذهاب التجاذب والاجسام مختلفة من حيث الخواص فلا يلزم اتحاد جرم القمر والارض فيها ويمكن أن يكون إحدى القطعتين كالجبل العظيم بالنسبة إلى الارض إذا ارتفع عنها بقاسر مثلا جذبته إليه إذ لم يخرج عن حد جذبها على ما زعموه ويلتزم فى تلك القطعة عدم الخروج عن حد الجذب على أنا فى غنى عن كل ذلك أيضا بعد إثبات الامكان بل قدرته عز وجل وأنه سبحانه فعال لما يريد *

والحاصل أنه ليس عند المنكر سوى الاستبعاد ولا يستطيع أن يأتى بدليل على الاستحالة الذاتية ولو انشق، والاستبعاد فى مثل هذه المقامات قريب من الجنون عند من له عقل سلم ، وروى عن الحسن أنه قال : هذا

Marfat.com

الانشقاق بعد النفخة الثانية، والتعبير بالماضى لتحقق الوقوع ، وروى ذلك عن عطاء أيضاً، ويؤيده ما تقدم الذى عليه الاكثرون قراءة حذيفة وقد انشق القمر فان الجملة عليها حالية فتقتضى المقارنة لاقتراب الساعة ووقوع الانشاق قبل يوم القيامة ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ فانه يقتضى أن الانشقاق آية رأوها وأعرضوا عنها ، وزعم بعضهم أن انشقاق القمر عبارة عن انشقاق الظلمة عند طلوعه وهذا كما يسمى الصبح فلقاً عند انفلاق الظلمة عنه وقد يعبر عن الانفلاق بالانشقاق كما فى قوله النابغة :

فلما أدبروا ولهم دوى دعاناعند (شق) الصبح داعى

وزعم آخر أن معنى انشق القمر وضح الامر وظهر وكلا الزعمين مما لا يعول عليه ولا يلتفت اليه ولا أظن الداعى اليهما عند من يقر بالساعة التى هى أعظم من الانشقاق ويعترف بالعقائد الاسلامية التى وقع عليها الاتفاق سوى عدم ثبوت الاخبار فى وقوع ذلك على عهده عليه الصلاة والسلام عنده، ومنشأ ذلك القصور التام والتمسك بشبه هى على طرف الثمام، ومع هذا لا يكفر المنكر بناءاً على عدم الاتفاق على تواتر ذلك وعدم كون الآية نصاً فيه ، والاخراج من الدين أمر عظيم فيحتاط فيه ما لا يحتاط فى غيره والله تعالى الموفق ٠

والظاهر أن المراد باقتراب الساعة القرب الشديد الزمانى، وكل آت قريب، وزمان العالم مديد ، والباقى بالنسبة إلى الماضى شئ يسير ، ومال الامام إلى ان المراد به قربها فى العقول والاذهان ، وحاصله أنها ممكنة إمكانا قريبا لا ينبغى لاحد إنكارها ، واستعمال الاقتراب مع أنه أمر مقطوع به كاستعمال (لعل) فى قوله تعالى : (لعل الساعة تكون قريباً) مع أن الامر معلوم عند الله تعالى وانشقاق القمر آية ظاهرة على هذا القرب، وعلى الاول قيل : هو آية لاصل الامكان الذى يقتضيه قرب الوقوع ، وقيل : هو آية لقرب الوقوع ومعجزة للنبى ﷺ باعتبار أن الله تعالى مخبر فى كتبه السالفة بأنه إذا قربت الساعة انشق القمر معجزة وكلاهما كما ترى ، واختار بعضهم أنه آية لصدق النبى عليه الصلاة والسلام فى جميع مايقول ويبلغ ربه سبحانه لانه معجزة له ﷺ ومنه دعوى الرسالة والاخبار باقتراب الساعة وغير ذلك ، و(آية) نكرة فى سياق الشرط فتعم ، فالمعنى (وإن يروا كل آية يعرضوا) عن التأمل فيها ليقفوا على وجه دلالتها وعلو طبقتها ﴿ وَيَقُولُوا سِحْرٌ ﴾ أى هذا أو هو أى مانراه سحر ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ٢ ﴾ أى مطرد دائم يأتى به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم على مر الزمان وهو ظاهر فى ترادف الآيات وتتابع المعجزات ٠

وقال أبو العالية . والضحاك: (مستمر) محكم موثق من المرة بالفتح أو الكسر بمعنى القوة وهو فى الأصل مصدر مررت الحبل مرة إذا فتلته فتلا محكما وأريد به مطلق المحكم مجازاً مرسلا ، وقال أنس . وعيمان . ومجاهد. والكسائى . والفراء ـ واختاره النحاس ـ مستمر أى مار ذاهب زائل عن قريب عللوا بذلك أنفسهم ومنوها بالأمانى الفارغة كأنهم قالوا : إن حاله عليه الصلاة والسلام وما ظهر من معجزاته سبحانه

٠ سحابة صيف عن قريب تقشع ٠ (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) وقيل:(مستمر) مشتد المرارة أى مستبشع عندنا منفور عنه لشدة مرارته يقال : مر الشئ وأمر إذا صار مراً وأمر غيره ومره يكون لازماً ومتعدياً ، وقيل : (مستمر) يشبه بعضه بعضاً أى استمرت أفعاله على هذا الوجه من التخييلات، وقيل: (مستمر)مار من الأرض إلى السماء أى بلغ من سحره أنه سحر القمر وهذا ليس بشئ ،ولعل الأنسب

Marfat.com

بغلوهم فى العناد والمكابرة ماروى عن أنس ومن معه ، وقرئ - وأن يروا - بالبناء للمفعول من الاراءة ﴿ وَكَذَّبُواْ ﴾ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وبما أظهره الله تعالى على يده من الآيات ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ التى زينها الشيطان لهم ،وقيل:(كذبوا) الآية التى هى انشقاق القمر (واتبعوا أهواءهم) وقالوا سحر القمر أو سحرت أعيننا والقمر بحاله، والعطف على الجزاء السابق وصيغة الماضى للدلالة على التحقق،وقيل : العطف على (اقتربت) والجملة الشرطية اعتراض لبيان عادتهم إذا شاهدوا الآيات،وقوله تعالى:﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ ﴾ استئناف مسوق للرد على الكفار فى تكذيبهم ببيان أنه لا فائدة لهم فيه ولا يمنع علو شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم،أو لإقناطهم عما علقوا به أمانيهم الفارغة من عدم استقرار أمره عليه الصلاة والسلام حسبما قالوا:(سحر مستمر) ببيان ثبوته ورسوخه أى وكل أمر من الامور منته إلى غاية يستقر عليها لامحالة ومن جملتها أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فسيصير إلى غاية يتبين عندها حقيته وعلو شأنه ، وللاشارة إلى ظهور هذه الغاية لامره عليه الصلاة والسلام لم يصرح بالمستقر عليه ، وفى الكشاف أى كل أمر لابد أن يصير إلى غاية يستقر عليها وأن أمره ﷺ سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق أو باطل وسيظهر له عاقبتهم أو وكل أمر من أمره عليه الصلاة والسلام،وأمرهم مستقر أى سيثبت ويستقر على حالة نصرة أو خذلان فى الدنيا أو سعادة وشقاوة فى الآخرة ، قال فى الكشف: والكلام على الاول تذييل جار مجرى المثل وعلى الثانى تذييل غير مستقل ، وقرأ شيبة (مستقر) بفتح القاف ورويت عن نافع ، وزعم أبو حاتم أنها لاوجه لها وخرجت على أن مستقراً مصدر بمعنى استقرار، وحمله على كل أمر بتقدير مضاف أى ذو مستقر ولو لم يقدر وقصد المبالغة صح ، وجوز كونه اسم زمان أو مكان بتقدير مضاف أيضا أى ذو زمان استقرار،أو ذو موضع استقرار،وتعقب بأن كون كل أمر لابد له من زمان أو مكان أمر معلوم لافائدة فى الاخبار به ، وأجيب بأن فيه إثبات الاستقرار له بطريق الكناية وهى أبلغ من التصريح*

وقرأ زيد بن على (مُستقر) بكسر القاف والجر ، وخرج على أنه صفة أمر وأن كل معطوف على الساعة أى اقتربت الساعة ، واقترب كل أمر يستقر ويتبين حاله أى بقربها ، قال فى الكشف :وفيه شمة من التجريد وتهويل عظيم حيث جعل فى اقترابها اقتراب كل أمر يكون له قرار وتبين حال مما له وقع ،وقوله تعالى: (وانشق القمر) على هذا إما على تقدير قد وينصره القراءة بها ،وإما منزل منزلة الإعراض لكونه مؤكداً لقرب الساعة ، وقوله سبحانه :(وإن يروا آية) الخ مستطرد عند ذكر انشقاق القمر*

واعترض ذلك أبو حيان بأنه بعيد لكثرة الفواصل بين المعطوف والمعطوف عليه وجعل الكلام عليه نظير - أكلت خبزاً ، وضربت خالداً،وإن يجئ زيد أكرمه، ورحل إلى بنى فلان ، ولحماً بعطف - لحماً على خبزاً - ثم قال بل لا يوجد مثله فى كلام العرب ، وتعقب بأنه ليس بشئ لأنه إذا دل على العطف الدليل لا يعد ذلك مانعاً منه على أن بين الآية والمثال فرقا لايخفى، وقال صاحب اللوامح إن(مستقر) خبر كل ، والجر للجوار ،واعترضه أبو حيان أيضاً بأنه ليس بجيد لأن الجر على الجوار فى غاية الشذوذ فى مثله إذ لم يعهد فى خبر المبتدأ ، وإنما عهد فى الصفة على اختلاف النحاة فى وجوده ، واستظهر كون كل مبتدأ وخبره مقدر كآت ، أو معمول به ونحوه مما يشعر به الكلام أو مذكور بعد وهو قوله تعالى : (حكمة بالغة) وقد اعترض بينهما بقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم ﴾ فى القرآن ﴿ مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ ﴾ أى أخبار القرون الخالية . أو أخبار الآخرة،والجار والمجرور

Marfat.com

فى موضع الحال من مافى قوله عز وجل : ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ٤ ﴾ قدم عليه رعاية للفاصلة وتتويقاً اليه و(من) للتبعيض ، أو للتبيين بناءً على المختار من جواز تقديمه على المبين ، قال الرضى : إنما جاز تقديم (من) المبينة على المبهم فى نحو - عندى من المال مايكفى - لانه فى الاصل صفة لمقدر أى شئ من المال ، والمذكور عطف بيان للمبين المقدر قبلها ليحصل البيان بعد الابهام أى بالله لقد جاءهم كائناً من الانباء مافيه ازدجار لهم ومنع عما هم فيه من القبائح ، أوموضع ازدجار ومنع ، وهى أنباء التعذيب ، أو أنباء الوعيد ، وأصل (مزدجر) مزتجر بالتاء موضع الدال وتاء الافتعال تقلب دالا مع الدال والذال والراء للتناسب ، وقرئ مزجر بقلبها زايا وإدغام الزاى فيها ، وقرأ زيد بن على مزجر اسم فاعل من أزجر أى صار ذازجر كأعشب صار ذاعشب ﴿ حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ ﴾ أى واصلة غاية الإحكام لاخلل فيها ، ورفع (حكمة) على أنها بدل كل ، أو اشتمال من (ما) ، وقيل : من (مزدجر) أو خبر مبتدأ محذوف أى هى ، أوهذه على أن الاشارة لما يشعر به الكلام من إرسال الرسل وإيضاح الدليل والانذار لمن مضى ، أو إلى مافى الأنباء ، أو إلى الساعة المقتربة ، والآية الدالة عليها - كما قاله الامام وتقدم آنفا - احتمال كونها خبراً عن كل فى قراءة زيد ، وقرأ اليمانى (حكمة بالغة) بالنصب حالا من (ما) فانها موصولة أو نكرة موصوفة ، ويجوز مجئ الحال منها مع تأخرها أوهو بتقدير أعنى *

﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ٥ ﴾ نفى للاغناء أو استفهام إنكارى والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجئ الحكمة البالغة مع كونه مظنة للإغناء وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار ، و(ما) على الوجه الثانى فى محل نصب على أنها مفعول مطلق أى فأى إغناء تغنى النذر ، وجوز أن تكون فى محل رفع على الابتداء ، والجملة بعدها خبر ، والعائد مقدر أى فما تغنيه النذر وهو جمع نذير بمعنى المنذر ، وجوز أن يكون جمع نذير بمعنى الانذار ، وتعقب بأن حق المصدر أن لايثنى ولايجمع وأن يكون مصدراً كالانذار ، وتعقب بأنه يأباه تأنيث الفعل المسند اليه وكونه باعتبار أنه بمعنى النذارة لايخفى حاله ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ الفاء للسببية والمسبب التولى أو الامر به والسبب عدم الاغناء أو العلم به ، والمراد بالتولى إما عدم القتال ، فالآية منسوخة ، وإما ترك الجدال للجلاد فهى محكمة ، والظاهر الأول ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ ﴾ ظرف - ليخرجون - أو مفعول به لاذكر مقدراً ، وقيل : لانتظر ، وجوز أن يكون ظرفا لتغنى ، أولمستقر ومابينهما اعتراض ، أو ظرفا - ليقول الكافر - أو - لتول - أى تول عن الشفاعة لهم يوم القيامة ، أو هو معمول له بتقدير إلى ، وعليه قول الحسن - فتول عنهم إلى يوم - *

والمراد استمرار التولى والكل كما ترى ، والداعى إسرافيل عليه السلام ، وقيل : جبرائيل عليه السلام ، وقيل : ملك غيرهما موكل بذلك ، وجوز أن يكون الدعاء للاعادة فى ذلك اليوم كالأمر فى (كن فيكون) على القول بأنه تمثيل ، فالداعى حينئذ هو الله عز وجل ، وحذفت الواو من (يدع) لفظاً لالتقاء الساكنين ورسما اتباعا للفظ ، والياء من (الداع) تخفيفاً ، وإجراءً لال مجرى التنوين لأنها تعاقبه ، والشئ يحمل على ضده كما يحمل على نظيره ﴿ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ أى فظيع تنكره النفوس لعدم العهد بمثله وهو هول القيامة ويكنى بالنكر عن الفظيع لأنه فى الغالب منكر غير معهود ، وجوز أن يكون من الإنكار ضد الإقرار وأيما كان فهو وصف على فعل بضمتين وهو قليل فى الصفات ، ومنه - دوضة أنف لم ترع ، ورجل شلل خفيف فى الحاجة سريع حسن الصحبة

Marfat.com

طيب النفس ، وسجح لين سهل . وقرأ الحسن . وابن كثير . وشبل (نكر) بإسكان الكاف كما قالوا : شغل وشغل، وعسر وعسر وهو إسكان تخفيف ، أو السكون هو الاصل والضم للاتباع ، وقرأ مجاهد . وأبو قلابة . والجحدرى . وزيد بن على (نكر) فعلا ماضياً مبنياً للمفعول بمعنى أنكر ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ ﴾ حال من فاعل ﴿ يَخْرُجُونَ ﴾ أى يخرجون ﴿ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أى القبور أذلة أبصارهم من شدة الهول أى أذلاء من ذلك ، وقدم الحال لتصرف العامل والاهتمام ، وفيه دليل على بطلان مذهب الجرمى من عدم تجويز تقدم الحال على الفعل وإن كان متصرفا ، ويرده أيضا قولهم : شتى تؤوب الحلبة ، وقوله :

سريعاً يهون الصعب عند ألى النهى إذا برّ جاء صادق قابلوا البأسا

وجعل حالا من ذلك لقوله تعالى : (يوم يخرجون من الاجداث سراعا) إلى قوله تعالى : (خاشعة أبصارهم) . وقيل : هو حال من الضمير المفعول المحذوف فى (يدع الداع) أى يدعوهم الداع ؛ وتعقب بأنه لا يطابق المنزل وأيضا يصير حالا مقدرة لأن الدعاء ليس حال خشوع البصر وليست فى الكثرة كغيرها وكذلك جعله مفعول - يدعو - على معنى يدعو فريقاً خاشعاً أبصارهم أى سيخشع وإن كان هذا أقرب مما قبل ، وقيل : هو حال من الضمير المجرور فى قوله تعالى : (فتولى عنهم) وفيه مالا يخفى ، وأبصارهم فاعل خشعاً وطابقه الوصف فى الجمع لأنه إذا كسر لم يشبه الفعل لفظاً فتحسن فيه المطابقة وهذا بخلاف ما إذا جمع جمع مذكر سالم فانه لم يتغير رتبته وشبهه للفعل فينبغى أن لا يجمع إذا رفع الظاهر المجموع على اللغة الفصيحة دون لغة أكلونى البراغيث ، لكن الجمع حينئذ فى الاسم أخف منه فى الفعل كما قال الرضى ، ووجهه ظاهر ، وفى التسهيل إذا رفعت الصفة اسما ظاهراً مجموعا فان أمكن تكسيرها - كمررت برجل (قيام) غلمانه - فهو أولى من إفرادها - كمررت برجل (قائم) غلمانه - وهذا قول المبرد ومن تبعه والسماع شاهد له كقوله :

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجملى

وقوله : بمطرد لدن صحاح كعوبه وذى رونق عضب يقد القوانسا

وقال الجمهور : الافراد أولى والقياس معهم ، وعليه قوله :

ورجال حسن أوجههم من إياد بن نزار بن معد

وقيل : إن تبع مفرداً فالافراد أولى - كرجل (قائم) غلمانه - وإن تبع جمعاً فالجمع أولى - كرجال قيام غلمانهم - وأما التثنية والجمع السالم فعلى لغة أكلونى البراغيث ؛ وجوز أن يكون فى (خشعاً) ضمير مستتر ، و(أبصارهم) بدلا منه ، وقرأ ابن عباس . وابن جبير . ومجاهد . والجحدرى . وأبو عمرو . وحمزة . والكسائى - خاشعاً - بالإفراد ، وقرأ أبىّ . وابن مسعود - خاشعة - وقرئ - خشع - على أنه خبر مقدم ، و (أبصارهم) مبتدأ ، والجملة فى موضع الحال ، وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۝٧ ﴾ حال أيضا وتشبيههم بالجراد المنتشر فى الكثرة والتموج والانتشار فى الاقطار ، وجاء تشبيههم بالفراش المبثوث ولهم يوم الخروج سهم من الشبه لكل ، وقيل : يكونون أولا كالفراش حين يموجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون لان الفراش لا جهة لها تقصدها ، ثم كالجراد المنتشر إذا توجهوا إلى المحشر فهما تشبيهان باعتبار وقتين ، وحكى ذلك عن مكى بن أبى طالب ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ مسرعين اليه قال أبو عبيدة : وزاد بعضهم ماذى أعناقهم ، وآخر مع هز ورهق ومد بصر ،

Marfat.com

وقال عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت ، وعن ابن عباس ناظرين اليه لا تقلع أبصارهم عنه وأنشد قول تبع :

تعبدنى نمر بن سعد وقد أرى ونمر بن سعد لى (مطيع ومهطع)

وفى رواية أنه فسره بخاضعين وأنشد البيت ، وقيل: خافضين ما بين أعينهم ، وقال سفيان : شاخصة أبصارهم إلى السماء ، وقيل : أصل الهطع مد العنق ، أو مد البصر ، ثم يكنى به عن الاسراع ، أو عن النظر والتأمل فلا تغفل ، ﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ٨ ﴾ صعب شديد لما يشاهدون من مخايل هوله وما يرتقبون من سوء منقلبهم فيه ، وفى إسناد القول المذكور إلى الكفار تلويح بأنه على المؤمنين ليس كذلك ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ شروع فى تعداد بعض ماذكر من الأنباء الموجبة للازدجار ، ونوع تفصيل لها وبيان لعدم تأثرهم بها تقريراً لفحوى قوله تعالى : (فما تغنى النذر) والفعل منزل منزلة اللازم أى فعلت التكذيب قبل تكذيب قومك قوم نوح ، وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا ﴾ تفسير لذلك التكذيب المبهم كما فى قوله تعالى : (ونادى نوح ربه فقال) الخ ، وفيه مزيد تحقيق وتقرير للتكذيب ، وجوز أن يكون المعنى كذبوا تكذيباً إثر تكذيب كلما خلا منهم قرن مكذب جاء عقيبه قرن آخر مكذب مثله ، أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا أى لما كانوا مكذبين للرسل جاحدين للنبوة رأساً كذبوا نوحا لانه من جملة الرسل ، والفاء عليه سببية ، وقيل : معنى كذبت قصدت التكذيب وابتدأته ، ومعنى فكذبوا أتموه وبلغوا نهايته كما قيل فى قوله : ٥ قد جبر الدين الإله فجبر ٥ وفى ذكره عليه السلام بعنوان العبودية مع الاضافة إلى نون العظمة تفخيم له عليه السلام ورفع لمحله وتشنيع لمكذبيه ٥ ﴿ وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ ﴾ أى لم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه إلى الجنون فقالوا هو مجنون ﴿ وَٱزْدُجِرَ ٩ ﴾ عطف على ـ قالوا ـ وهو إخبار منه عز وجل أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذية والتخويف قاله ابن زيد ، وقرأ (لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين) وقال مجاهد : هو من تمام قولهم أى هو مجنون ، وقد ازدجرته الجن وذهبت بلبه وتخبطته ، والأول أظهر وأبلغ ، وجعل مبنياً للمفعول لغرض الفاصلة ، وطهر الألسنة عن ذكرهم دلالة على أن فعلهم أسوأ من قولهم ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى ﴾ أى بأنى ٥

وقرأ ابن أبى إسحق . وعيسى . والأعمش . وزيد بن على ـ ورويت عن عاصم ـ (إنى) بكسر الهمزة على إضمار القول عند البصريين ، وعلى إجراء الدعاء مجرى القول عند الكوفيين ﴿ مَغْلُوبٌ ﴾ من جهة قومى مالى قدرة على الانتقام منهم ﴿ فَٱنتَصِرْ ١٠ ﴾ فانتقم لى منهم ، وقيل: فانتصر لنفسك إذ كذبوا رسولك ، وقيل : المراد ـ بمغلوب ـ غلبتنى نفسى حتى دعوت عليهم بالهلاك وهو خلاف الظاهر وما دعا عليه السلام عليهم إلا بعد اليأس من إيمانهم ، والتأكيد لمزيد الاعتناء بأمر الترحم المقصود من الاخبار ٥

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ١١ ﴾ أى منصب ، وقيل : كثير قال الشاعر :

أعيناى جودا بالدموع (الهوامر) على خير باد من معد وحاضر

والباء للآلة مثلها فى فتحت الباب بالمفتاح ، وجوز أن تكون للملابسة والاول أبلغ ، وفى الكلام استعارة تمثيلية بتشبيه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء وانشق أديم الخضراء . وهو الذى ذهب إليه الجمهور ، وذهب قوم إلى أنه على حقيقته وهو ظاهر كلام ابن عباس ٥

Marfat.com

أخرج ابن المنذر . وابن أبى حاتم عنه أنه قال : لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم فالتقى الماآن ، وفى رواية لم تقلع أربعين يوما ،وعن النقاش أنه أريد بالأبواب المجرة وهى شرج السماء كشرج العيبة ، والمعروف من الارصاد أن المجرة كواكب صغار متقاربة جداً ، والله تعالى أعلم ☆

ومن العجيب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم الله تعالى بمطلوبهم، وقرأ ابن عامر . وأبو جعفر . والاعرج. ويعقوب (ففتحنا) بالتشديد لكثرة الابواب ، والظاهر أن جمع القلة هنا للكثرة ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ وجعلنا الارض كلها كأنها عيون متفجرة وأصله فجرنا عيون الارض فغير إلى التمييز للمبالغة بجعل الارض كلها متفجرة مع الابهام والتفسير ، فالتمييز محول عن المفعول، وجعله بعضهم محولا عن الفاعل بناءاً على أنه الأكثر، والاصل انفجرت عيون الارض وتحويله كما يكون عن فاعل الفعل المذكور يكون عن فاعل فعل آخر يلاقيه فى الاشتقاق - وهذا منه - وهو تكلف لاحاجة اليه ، ومنع بعضهم مجىء التمييز من المفعول فأعرب (عيوناً) حالا مقدرة ، وجوز عليه أن يكون مفعولا ثانياً لفجرنا على تضمينه ما يتعدى اليه أى صيرنا بالتفجير الارض عيوناً وكان ذلك على ما فى بعض الروايات أربعين يوما، وقرأ عبد الله . وأصحابه . وأبو حيوة . والمفضل عن عاصم (فجرنا) بالتخفيف ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾ أى ماء السماء وماء الارض، والإفراد لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة بل بطريق الاختلاط والاتحاد ، وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . والحسن . ومحمد بن كعب . والجحدرى - الماآن - والتثنية لقصد بيان اختلاف النوعين وإلا فالماء شامل لماء السماء وماء الارض ، ونحوه قوله :

لنا (إبـــلان) فيهما ماعلمتم فعن (أيها) ماشئتم فتنكبوا

وقيل: فيها إشارة إلى أن ماء الارض فار بقوة وارتفع حتى لاقى ماء السماء وفى ذلك مبالغة لا تفهم من الافراد، وقرأ الحسن أيضاً - ماوان - بقلب الهمزة واواً كقولهم: علباوان كما قال الزمخشرى، ولم يرد أنه نظيره بل أراد كما أن هنالك إبدالا بعلة أنها غير أصلية لانها زائدة للالحاق كذلك ههنا لانها مبدلة والبدل وإن كان من الهاء لكنها أجريت مجرى البدل عن الواو فقيل فى النسبة فيه : ماوى ، وجاء فى جمعه أمواء كما جاء أمواه ، ولا يبعد أن يكون من ثناه بالواو قاسه على النسبة كذا فى الكشف ، وعنه أيضاً المايان بقلب الهمزة ياءاً ☆

﴿ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ اى كائناً على حال قد قدرها الله تعالى فى الازل من غير تفاوت أو على حال قدرت وسويت وهى أن مانزل على قدر ماخرج ☆

وقيل : إن ماء الأرض علا سبعة عشر ذراعا ونزل ماء السماء مكملا أربعين ، وقيل : ماء الأرض كان أكثر وله مقدار معين عند الله عز وجل ، أو على أمر قدره الله تعالى وكتبه فى اللوح المحفوظ وهو هلاك قوم نوح بالطوفان ، ورجحه أبو حيان بأن كل قصة ذكرت بعد ذكر الله تعالى فيها هلاك المكذبين فيكون هذا كناية عن هلاك هؤلاء . و(على) عليه للتعليل ، ويحتمل تعلقها بالتقى. وفيه رد على أهل الأحكام النجومية حيث زعموا أن الطوفان لاجتماع الكواكب السبعة ماعدا الزهرة فى برج مائى، وقرأ أبو حيوة . وابن مقسم (قدر) بتشديد الدال ﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ أى نوحا عليه السلام ﴿ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ أخشاب عريضة ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ أى مسامير كما قاله الجمهور . وابن عباس فى رواية ابن جرير ، وابن المنذر جمع دسار ككتاب و كتب ، وقيل :

Marfat.com

(دسر) كسقف وسقف. وأصل الدسر الدفع الشديد بقهر فسمى به المسمار لأنه يدق فيدفع بشدة . وقيل : حبال من ليف تشد بها السفن . وقال الليث : خيوط تشد بها ألواحها ، وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة . والحسن أنها مقاديم السفينة وصدرها الذى تضرب به الموج وتدفعه . وروى عن ابن عباس نحوه . وأخرج عن مجاهد أنها عوارض السفينة أى الخشبات التى تعرض فى وسطها . وفى رواية عنه هى أضلاع السفينة. وأياما كان فقوله تعالى: (ذات ألواح ودسر) من الصفات التى تقوم مقام الموصوفات على سبيل الكناية كقولهم: حى مستوى القامة عريض الاظفار فى الكناية عن الانسان وهو من فصيح الكلام وبديعه . ونظير الآية قول الشاعر :

مفرشى صهوة الحصان ولكن (قميصى) مسرودة من حديد

فانه أراد قميصى درع . وقوله يصف هزال الابل :

تراءى الها فى كل عين مقابل ولو فى (عيون النازيات بأكرع)

فانه أراد فى عيون الجراد لأن النزو بالأكرع يختص بها . وأما كونه على حذف الموصوف لدلالة الصفة عليه على ما فى المفصل وغيره فكلام نحوى ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منا. وكنى به عن الحفظ أى تجرى فى ذلك الماء بحفظنا وكلاءتنا ، وقيل : بأوليائنا يعنى نوحا عليه السلام ومن آمن معه يقال : مات عين من عيون الله تعالى أى ولى من أوليائه سبحانه ، وقيل : بأعين الماء التى فجرناها ، وقيل : بالحفظة من الملائكة عليهم السلام سماهم أعيناً وأضافهم اليه جل شأنه والاول أظهر ، وقرأ زيد بن على . وأبو السمال ـ بأعينا ـ بالادغام ۞

﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ ﴾ أى فعلنا ذلك جزاءاً لنوح عليه السلام فانه كان نعمة أنعمها الله تعالى على قومه فكفروها وكذا كل نبى نعمة من الله تعالى على أمته ، وجوز أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل إلى الضمير واستتاره فى الفعل بعد انقلابه مرفوعا اى لمن كفر به وهو نوح عليه السلام أيضا أى جحدت نبوته ، فالكفر عليه ضد الايمان ، وعلى الأول كفران النعمة ، وعن ابن عباس . ومجاهد من يراد به الله تعالى كأنه قيل: غضباً وانتصاراً لله عز وجل وهو كما ترى، وقرأ مسلمة بن محارب ـ كفر ـ بإسكان الفاء خفف فعل كما فى قوله:

۞ لو عصر منه البان والمسك (انعصر) ۞ وقرأ يزيد بن رومان بمر قتادة . وعيسى (كفر) مبنياً للفاعل فمن يراد بها قوم نوح عليه السلام لاغير ، وفى هذه القراءة دليل على وقوع الماضى بغير قد خبراً لكان وهو مذهب البصريين وغيرهم يقول لابد من وقوع قد ظاهرة أو مقدرة ، وجوز أن تكون (كان) زائدة كأنه قيل: جزاءاً لمن (كفر) ولم يؤمن ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَا ﴾ أى أبقينا السفينة ﴿ ءَايَةً ﴾ بناءاً على ماروى عن قتادة. والنقاش أنه بقى خشبها على الجودى حتى رآه بعض أوائل هذه الأمة ، أو أبقينا خبرها ، أو أبقينا جنسها وذلك بإبقاء السفن ، أو ـ تركنا ـ بمعنى جعلنا ، وجوز كون الضمير للفعلة وهى إنجاء نوح عليه السلام ومن معه وإغراق الكافرين ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أى معتبر بتلك الآية الحرية بالاعتبار ، وقرأ قتادة على ما نقل ابن عطية ـ مذكر ـ بالذال المعجمة على قلب تاء الافتعال ذالا وإدغام الذال فى الذال ، وقال صاحب اللوامح : قرأ قتادة فهل من ـ مذكر ـ بتشديد الكاف من التذكير أى من يذكر نفسه أو غيره بها، وقرئ مذتكر بذال معجمة بعدها تاء الافتعال كما هو الاصل ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ١٥ ﴾ استفهام تعظيم وتعجيب أى كانا على كيفية هائلة

Marfat.com

لايحيط بها الوصف، و-النذر- مصدر كالانذار، وقيل: جمع نذير بمعنى الانذار، وجعله بعضهم بمعنى المنذر منه، وليس بشئ، وكذا جعله بمعنى المنذر، وكان يحتمل أن تكون ناقصة فكيف فى موضع الخبر؟ وتامة فكيف فى موضع الحال ؟ ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ ﴾ الخ جملة قسمية وردت فى آخر القصص الأربع تقريراً لمضمون ماسبقَ من قوله تعالى : (ولقد جاءهم) الخ وتنبيها على أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الادكار كافية فى الازدجار ، ومع ذلك لم يحصل فيها اعتبار، أى وبالله لقد سهلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم وشحناه بأنواع المواعظ والعبر وصرفنا فيه من الوعيد والوعد ﴿ لِلذِّكْرِ ﴾ أى للتذكر والاتعاظ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ إنكار ونفى للمتعظ على أبلغ وجه وآكده يدل على أنه لا يقدر أحد أن يجيب المستفهم بنعم، وقيل: المعنى سهلنا القرآن للحفظ لما اشتمل عليه من حسن النظم وسلاسة اللفظ وشرف المعانى وصحتها وعرؤه عن الوحشى ونحوه فله تعلق بالقلوب وحلاوة فى السمع فهل من طالب لحفظه ليعان عليه ؟ ومن هنا قال ابن جبير: لم يستظهر شئ من الكتب الالهية غير القرآن ، وأخرج ابن المنذر . وجماعة عن مجاهد أنه قال: يسرنا القرآن هونا قراءته ٭

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس لولا أن الله تعالى يسره على لسانِ الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله تعالى ٭

وأخرج الديلمى عن أنس مرفوعا مثله ٭ وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين أنه مرّ برجل يقول سورة خفيفة فقال: لاتقل ذلك ولكن قل سورة يسيرة لأن الله تعالى يقول : (ولقد يسرنا القرآن للذكر)والمعنى الذى ذكر أولا أنسب بالمقام ، ولعل خبر أنس إن صح ليس تفسيراً للآية ، وجوز تفسير(يسرنا) بهيأنا من قولهم : يسر ناقته للسفر إذا رحلها ، ويسر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه قال الشاعر :

وقمت إليه باللجام (ميسراً) هنالك يجزينى الذى كنت أصنع

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ شروع فى قصة أخرى ولم تعطف وكذا مابعدها من القصص إشارة إلى أن كل قصة مستقلة فى القصد والاتعاظ ولما لم يكن لقوم نوح اسم علم ذكروا بعنوان الإضافة ولما كان لقوم هود علم وهو (عاد) ذكروا به لأنه أبلغ فى التعريف ، والمراد كذبت عاد هوداً عليه السلام ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم له عليه السلام روما للاختصار ومسارعة إلى بيان مافيه الازدجار من العذاب ، وقوله :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ١٨ ﴾ لتوجيه قلوب السامعين نحو الإصغاء إلى مايلقى اليهم قبل ذكره لالتهويله وتعظيمه وتعجيبهم من حاله بعد بيانه كما قبله ومابعده كأنه قيل : (كذبت عاد) فهل سمعتم ، أوفاسمعوا كيف عذابى وإنذارى لهم، وقيل : هو للتهويل أيضا لغرابة ماعذبوا به من الريح وانفراده بهذا النوع من العذاب ، وفيه بحث، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ استئناف لبيان ماأجمل أولا، والصرصر الباردة على ماروى عن ابن عباس . وقتادة . والضحاك ، وقيل : شديدة الصوت وتمام الكلام قد مر فى (فصلت) ٭

﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ شؤم عليهم ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ١٩ ﴾ ذلك الشؤم لانهم بعد أن أهلكوا لم يزالوا معذبين فى البرزخ حتى يدخلوا جهنم يوم القيامة ، والمراد باليوم مطلق الزمان لقوله تعالى : (فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات) ، وقوله سبحانه : (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً) والمشهور أنه يوم الاربعاء

Marfat.com

وكان آخر شوّال على معنى أن ابتداء إرسال الريح كان فيه فلا ينافى آيتى (فصلت . والحاقة) ٥

وجوز كون (مستمر) صفة يوم أى فى يوم استمر عليهم حتى أهلكهم ، أو شمل كبيرهم وصغيرهم حتى لم تبق منهم نسمة على أن الاستمرار بحسب الزمان أو بحسب الاشخاص والافراد لكن على الاول لابد من تجوز بإرادة استمرار نحسه ، أو بجعل اليوم بمعنى مطلق الزمان لأن اليوم الواحد لم يستمر فتدبر، وجوز كون (مستمر) بمعنى محكم وكونه بمعنى شديد المرارة وهو مجاز عن بشاعته وشدة هوله إذ لا طعم له ، وجوز كونه بدلا ، أو عطف بيان وهو كما ترى، وقرأ الحسن (يوم نحس) بتنوين يوم وكسر حاء نحس ، وجعله صفة ليوم فيتعين كون (مستمر) صفة ثانية له ، وأيد بعضهم بالآية ما أخرجه وكيع فى الغرر . وابن مردويه . والخطيب البغدادى عن ابن عباس مرفوعا آخر أربعاء فى الشهر يوم نحس مستمر وأخذ بذلك كثير من الناس فتطيروا منه وتركوا السعى لمصالحهم فيه ويقولون له : أربعاء لا تدور ، وعليه قوله :

لقاؤك للمبكر فأل سوء ووجهك ـ أربعاء لا تدور ـ

وذلك مما لا ينبغى ، والحديث المذكور فى سنده مسلمة بن الصلت قال أبو حاتم : متروك ، وجزم ابن الجوزى بوضعه؛ وقال ابن رجب: حديث لا يصح ورفعه غير متفق عليه فقد رواه الطيورى من طريق آخر موقوفا على ابن عباس، وقال السخاوى: طرقه كلها واهية، وضعفوا أيضا خبر الطبرانى يوم الاربعاء يوم نحس مستمر ، والآية قد علمت معناها، وجاء فى الأخبار والآثار ما يشعر بمدحه ففى منهاج الحليمى، وشعب البيهقى أن الدعاء يستجاب يوم الاربعاء بعيد الزوال ، وذكر برهان الاسلام فى تعليم المتعلم عن صاحب الهداية أنه ما بدىء شئ يوم الاربعاء إلا وتم وهو يوم خلق الله تعالى فيه النور فلذلك كان جمع من المشايخ يتحرون ابتداء الجلوس للتدريس فيه، واستحب بعضهم غرس الاشجار فيه لخبر ابن حبان . والديلمى عن جابر مرفوعا «من غرس الاشجار يوم الاربعاء وقال: سبحان الباعث الوارث أتته أكلها » نعم جاءت أخبار وآثار تشعر بخلاف ذلك ، ففى الفردوس عن عائشة مرفوعا « لولا أن تكره أمتى لأمرتها أن لا يسافروا يوم الاربعاء . وأحب الايام إلى الشخوص فيها يوم الخميس» وهو غير معلوم الصحة عندى *

وأخرج أبو يعلى عن ابن عباس . وابن عدى . وتمام فى فوائده عن أبى سعيد مرفوعا يوم السبت يوم مكر وخديعة . ويوم الاحد يوم غرس وبناء . ويوم الاثنين يوم سفر وطلب رزق . ويوم الثلاثاء يوم حديد وبأس . ويوم الاربعاء لا أخذ ولا عطاء . ويوم الخميس يوم طلب الحوائج والدخول على السلطان . والجمعة يوم خطبة ونكاح، وتعقبه السخاوى بأن سنده ضعيف ، وروى ابن ماجه عن ابن عمر مرفوعا ، وخرجه الحاكم من طريقين آخرين « لا يبدو جذام ولا برص إلا يوم الاربعاء » وفى بعض الآثار النهى عن قص الاظفار يوم الاربعاء وأنه يورث البرص ، وكره بعضهم عيادة المرضى فيه ، وعليه قيل:

لم يؤت فى الأربعا مريض إلا دفنـــاه فى الخميس

وحكى عن بعضهم أنه قال لاخيه : أخرج معى فى حاجة فقال : هو الاربعاء قال : فيه ولد يونس قال: لا جرم قد بانت له بركته فى اتساع موضعه وحسن كسوته حتى خلصه الله تعالى قال : وفيه ولد يوسف عليه السلام قال : فما أحسن ما فعل أخوته حتى طال حبسه وغربته قال : وفيه نصر المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الأحزاب قال : أجل لكن ـ بعد أن زاغت الابصار ، وبلغت القلوب الحناجر ـ ونقل المناوى عن البحر أن

Marfat.com

أخباره عليه الصلاة والسلام عن نحوسة آخر أربعاء فى الشهر من باب التطير ضرورة أنه ليس من الدين بل فعل الجاهلية ولامبنى على قول المنجمين أنه يوم عطاردوهو نحس مع النحوس سعد مع السعود فانه قول باطل، ويجوز أن يكون من باب التخويف والتحذير أى احذروا ذلك اليوم لما نزل فيه من العذاب وكان فيه من الهلاك وجددوا فيه لله تعالى توبة خوفاً أن يلحقكم فيه بؤس كما وقع لمن قبلهم ، وهذا كما قال حين أتى الحجر : لاتدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين إلى غير ذلك ، وحكى أيضا عن بعضهم أنه قال : التطير مكروه كراهية شرعية إلا أن الشرع أباح لمن أصابه فى آخر أربعاء شئ فى مصالحه أن يدع التصرف فيه لاعلى جهة التطير واعتقاد أنه يضر أو ينفع بغير إذن الله تعالى بل على جهة اعتقاد إباحة الامساك فيه لما كرهته النفس لااقتفاءاً للتطير ولـكن إثباتا للرخصة فى التوقى فيه لمن يشاء مع وجوب اعتقاد أن شيئاً لايضر شيئاً ؛ ونقل عن الحليمى أنه قال : علمنا ببيان الشريعة أن من الأيام نحساً ، ويقابل النحس السعد وإذا ثبت الاول ثبت الثانى أيضاً ، فالايام منها نحس ومنها سعد كالأشخاص منهم شقى ومنهم سعيد ،لـكن زعم أن الأيام والـكواكب تنحس أو تسعد باختيارها أوقاتاً وأشخاصا باطل ، والقول - إن الـكواكب قد تكون أسبابا للحسن والقبيح والخير والشر والـكل فعل الله تعالى وحده - مما لابأس به ، ثم قال المناوى : والحاصل أن توقى الاربعاء على جهة الطيرة وظن اعتقاد المنجمين حرام شديد التحريم إذ الأيام كلها لله تعالى لاتنفع ولاتضر بذاتها وبدون ذلك لاضير ولامحذور فيه ؛ ومن تطير حاقت به نحوسته ، ومن أيقن بأنه لايضر ولاينفع إلا الله عز وجل لم يؤثر فيه شئ من ذلك كما قيل :

تعلم أنه لاطير إلا على (متطير) وهو الثبور

انتهى ، وأقول كل الايام سواء ولا اختصاص لذلك بيوم الأربعاء ومامن ساعة من الساعات إلا وهى سعد على شخص نحس على آخر باعتبار مايحدث الله تعالى فيها من الملائم والمنافر والخير والشر ، فـكل يوم من الأيام يتصف بالامرين لاختلاف الاعتبار وإن استنحس يوم الأربعاء لوقوع حادث فيه فليستنحس كل يوم فما أولج الليل فى النهار والنهار فى الليل إلا لايلاد الحوادث ،وقد قيل :

ألا إنما الايام أبناء واحد وهذى الليالى كلها أخوات

وقد حكى أنه صبح ثمود العذاب يوم الاحد ، وورد فى الأثر ولا أظنه يصح- نعوذ بالله تعالى من يوم الأحد فان له حداً أحد من السيف - ولو صح فلعله فى أحد مخصوص علم بالوحى مايحدث فيه ، وزعم بعضهم - أن من المجرب الذى لم يخط قط أنه متى كان اليوم الرابع عشر من الشهر القمرى الأحد وفعل فيه شئ لم يتم - غير مسلم ، وورد فى الفردوس من حديث ابن مسعود - خلق الله تعالى الامراض يوم الثلاثاء ، وفيه أنزل إبليس إلى الارض ، وفيه خلق جهنم ، وفيه سلط الله تعالى ملك الموت على أرواح بنى آدم . وفيه قتل قابيل هابيل، وفيه توفى موسى وهرون عليهم السلام ، وفيه ابتلى أيوب - الحديث ، وهو إن صح لايدل على نحوسته غايته أنه وقع فيه ماوقع وقد وقع فيه غير ذلك مما هو خير ، ففى رواية مسلم - خلق المنفق أى مايقوم به المعاش يوم الثلاثاء - وإذا تتبعت التواريخ وقفت على حوادث عظيمة فى سائر الايام ، ويكفى فى هذا الباب أن حادثة عاد استوعبت أيام الأسبوع فقد قال سبحانه : (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً) فان كانت النحوسة لذلك فقل لى أى يوم من الاسبوع خلا منها ؟ ! ومثل أمر النحوسة فيما أرى أمر تخصيص كل يوم بعمل كما

Marfat.com

يزعمه كثير من الناس ، ويذكرون فى ذلك أبياتا نسبها الحافظ الدمياطى لعلىّ كرم الله تعالى وجهه وهى

فنعم اليوم (يوم السبت) حقا لصيد إن أردت بلا امتراء
وفى (الاحد) البناء لان فيه تبدى الله فى خلق السماء
وفى (الاثنين) إن سافرت فيه سترجع بالنجاح وبالثراء
ومن يرد الحجامة (فالثلاثا) ففى ساعاته هرق الدماء
وإن شرب امرؤ يوماً دواءاً فنعم اليوم يوم (الاربعاء)
وفى (يوم الخميس) قضاء حاج فان الله يأذن بالقضاء
وفى (الجمعات) تزويج وعرس ولذات الرجال مع النساء
وهذا العلم لايدريه إلا نبي أو وصى الانبياء

ولا أظنها تصح ، وقصارى ماأقول: ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لادخل فى ذلك لوقت ولالغيره، نعم لبعض الاوقات شرف لاينكر كيوم الجمعة وشهر رمضان وغير ذلك ، ولبعضها عكس ذلك كالأوقات التى تكره فيها الصلاة لكن هذا أمر ومحل النزاع أمر فاحفظ ذاك ، والله تعالى يتولى هداك ، وقوله تعالي :

﴿ تَنزِعُ النَّاسَ ﴾ يجوز أن يكون صفة للريح وأن يكون حالا منها لأنها وصفت فقربت من المعرفة ، وجوز أن يكون مستأنفاً، وجئ - بالناس - دون ضمير عادقيل: ليشمل ذكورهم وإناثهم - والنزع - القلع، روى أنهم دخلوا الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فقلعتهم الريح وصرعتهم موتى *

﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ ٢٠ ﴾ أى منقلع عن مغارسه ساقط على الارض ، وقيل: شبهوا بأعجاز النخل وهى أصولها بلا فروع لأن الريح كانت تقلع رءوسهم فتبقى أجساداً وجثثاً بلا رءوس ، ويزيد هذا التشبيه حسناً أنهم كانوا ذوى جثث عظام طوال ، والنخل اسم جنس يذكر نظراً للفظ كماهنا ويؤنث نظراً للمعنى كما فى قوله تعالى: (أعجاز نخل خاوية) واعتبار كل فى كل من الموضعين للفاصلة، والجملة التشبيهية حال من الناس وهى حال مقدرة ، وقال الطبرى: فى الكلام حذف والتقدير فتركتهم كأنهم الخ ، فالكاف على مافى البحر فى موضع نصب بالمحذوف وليس بذاك ، وقرأ أبو نهيك أعجز على وزن أفعل نحو ضبع وأضبع ، وقوله تعالى :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٢١ ﴾ تهويل لهما وتعجيب من أمرهما بعد بيانهما فليس فيه شائبة تكرار مع ماتقدم، وقيل : إن الأول لماحاق بهم فى الدنيا والثانى لمايحيق بهم فى الآخرة، و(كان) للمشاكلة، أو للدلالة على تحققه على عادته سبحانه فى إخباره ، وتعقب بأنه يأباه ترتيب الثانى على العذاب الدنيوى *

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ٢٢ ﴾ الكلام فيه كالذى مر ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ٢٣ ﴾ بالرسل عليهم الصلاة والسلام فان تكذيب أحدهم وهو صالح عليه السلام هنا تكذيب للكل لاتفاقهم على أصول الشرائع ، وجوز أن يكون مصدراً ، أو جمعاً له وأن يكون جمع نذير بمعنى المنذر منه فلا تغفل *

﴿ فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا ﴾ أى كائناً من جنسنا على أن الجار والمجرور فى موضع الصفة - لبشراً - وانتصابه بفعل يفسره - نتبع - بعد أى أنتبع بشراً ﴿ وَاحِداً ﴾ أى منفرداً لاتبع له ، أو واحداً من آحادهم لا من أشرافهم كما يفهم من التنكير

Marfat.com

الدال على عدم التعيين وهو صفة أخرى لبشر وتأخيره مع إفراده عن الصفة الأولى مع كونها شبه الجملة للتنبيه على أن كلا من الجنسية والوحدة مما يمنع الاتباع ولو قدم عليها لفات هذا التنبيه ، وقرأ أبو السمال فيما ذكر الهذلى فى كتابه الكامل. وأبو عمرو الدانى -أبشر منا واحد- برفعهما على أن -بشر- مبتدأ ، ومابعد صفته ، وقوله تعالى : ﴿ نَّتَّبِعُهُۥٓ ﴾ خبره . ونقل ابن خالويه . وصاحب اللوامح. وابن عطية عن أبى السمال رفع -بشر- ونصب (واحداً) وخرج ذلك ابن عطية على أن رفع -بشر- إما على إضمار فعل مبنى للمفعول والتقدير أينبأ بشر ، وإما على الابتداء والخبر جملة (نتبعه)، ونصب (واحداً) على الحال إما من ضمير النصب فى (نتبعه). وإما من الضمير المستقر فى (منا) وخرج صاحب اللوامح نصب (واحداً) على هذا أيضاً ، وأما رفع بشر فخرجه على الابتداء وإضمار الخبر أى أبشر منا يبعث إلينا أو يرسل أونحوهما، وتقدم الاستفهام يرجح تقدير فعل يرفع به (إنَّا إذاً) أى إذا اتبعنا بشراً منا واحداً ﴿ لَّفِى ضَلَٰلٍ ﴾ عظيم عن الحق ﴿وَسُعُرٍ ٢٤﴾ أى نيران جمع سعير وروى أن صالحا عليه السلام كان يقول لهم : إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق وسعر فعكسوا عليه لغاية عتوهم فقالوا : إن اتبعناك كنا إذاً كما تقول ، فالكلام من باب التعكيس والقول بالموجب ، وجمع السعير باعتبار الدركات ، أوللمبالغة ، وروى عن ابن عباس مايحتمل ماقلنا فانه قال : أى لفى بعد عن الحق وعذاب، وفى رواية أخرى عنه تفسير السعر بالجنون على أنه اسم مفرد بمعنى ذلك يقال ناقة مسعورة إذا كانت تفرط فى سيرها كأنها مجنونة قال الشاعر :

كأن بها (سعراً) إذا العيس هزها ذميل وإرخاء من السير متعب

والأول أوجه وأفصح ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ أى أأنزل عليه الوحى من بيننا وفينا من هو أحق منه بذلك ، والتعبير بألقى دون أنزل قيل : لأنه يتضمن العجلة فى الفعل ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ٢٥ ﴾ أى شديد البطر وهو على ماقال الراغب: دهش يعترى من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها ووضعها إلى غير وجهها، ويقاربه الطرب وهو خفة أكثر ماتعترى من الفرح. ومرادهم ليس الامر كذلك بل هو كذا وكذا حمله شدة بطره وطلبه التعظيم علينا على ادعاء ذلك ، وقرأ قتادة . وأبو قلابة - بل هو الكذب الأشر - بلام التعريف فيهما وبفتح الشين وشد الراء ، وسيأتى إن شاء الله تعالى قريباً مافى ذلك ، وقوله تعالى :

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ٢٦ ﴾ حكاية لماقاله سبحانه وتعالى لصالح عليه السلام وعداً له ووعيداً لقومه ، والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده ، والمراد بالغد وقت نزول العذاب الدنيوى بهم ، وقيل : يوم القيامة فهو لمطلق الزمان المستقبل وعبر به لتقريبه ، وعليه قول الطرماح :

ألا عللانى قبل نوح النوائح وقبل اضطراب النفس بين الجوانح
وقبل (غد) ياللهف نفسى على غد إذا راح أصحابى ولست برائح

أى (سيعلمون) البتة عن قريب (من الكذاب الأشر) الذى حمله أشره وبطره على ماحمله أصالح أم من كذبه ، والمراد سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون لكن أورد ذلك مورد الابهام إيماءاً إلى أنه مما لايكاد يخفى ، ونحوه قول الشاعر :

Marfat.com

فلئن لقيتك خاليين لتعلمن (أبى وأيك) فارس الاحزاب

وقرأ ابن عامر . وحمزة . وطلحة . وابن وثاب . والأعمش - ستعلمون - بتاء الخطاب على حكاية ماقال لهم صالح مجيبا لهم،وفى الكشاف أو هو كلام على سبيل الالتفات،قال صاحب الكشف : أى هو كلام الله تعالى لقوم ثمود على سبيل الالتفات اليهم إما فى خطابه تعالى لرسولنا صلى الله تعالى عليه وسلم وهو نظير ماحكاه سبحانه عن شعيب (فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم) بعد ماستؤصلوا هلاكا وهو من بليغ الكلام فيه دلالة على أنهم أحقاء بهذا الوعيد وكأنهم حضور فى المجلس حول اليهم الوجه لينعى عليهم جناياتهم . وإما فى خطابه عزوجل لصالح عليه السلام والمنزل حكاية ذلك الكلام المشتمل على الالتفات . وعلى التقديرين لاإشكال فيه كما توهم.ولفظ الزمخشرى على الأول أدل وهو أبلغ انتهى،ومن التفت إلى ما قاله الجمهور فى الالتفات لا أظنه تسكن نفسه بما ذكر فتأمل ، وقرأ مجاهد فيما ذكره صاحب اللوامح . وأبو قيس الاودى (الأشر) بثلاث ضمات وتخفيف الراء . ويقال : أشر وأشر كحذر وحذر فضمة الشين لغة وضم الهمزة تبع لها *

وحكى الكسائى عن مجاهد ضم الشين دون الهمزة فهو كندس . وقرأ أبو حيوة (الأشر) أفعل تفضيل أى الأبلغ فى الشرارة وكذا قرأ قتادة . وأبو قلابة أيضا وهو قليل الاستعمال وإن كان على الأصل كالأخير فى قول رؤبة:

* بلال خير الناس وابن الاخير * وقال أبو حاتم:لاتكاد العرب تتكلم بالأخير - و(الأشر) إلا فى ضرورة الشعر وأنشد البيت ، وقال الجوهرى :لايقال (الأشر) إلا فى لغة رديئة ، وقوله تعالى :

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ الخ استئناف مسوق لبيان مبادى الموعود على ماهو الظاهر،وبه يتعين كون المراد بالغد وقت نزول العذاب الدنيوى بهم دون يوم القيامة،والارسال حقيقة فى البعث وقد جعل هنا كناية عن الإخراج ، وأريد المعنى الحقيقى معه كما أومأ اليه بعض الأجلة أى إنا مخرجوا الناقة التى سألوها من الهضبة وباعثوها ﴿ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ امتحاناً ، وجوز إبقاؤها على معناها المعروف ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ فانتظرهم وتبصر ماهم فاعلون ﴿ وَاصْطَبِرْ ٢٧ ﴾ على أذاهم ولاتعجل حتى يأتى أمر الله تعالى ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ ﴾ وأخبرهم بأن ماء البئر التى لهم ﴿قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ مقسوم لها يوم ولهم يوم،و(بينهم) لتغليب العقلاء،وقرأ معاذ عن أبى عمرو (قسمة) بفتح القاف ﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾ نصيب وحصة منه ﴿ مُّحْتَضَرٌ ٢٨ ﴾ يحضره صاحبه فى نوبته فتحضر الناقة تارة ويحضرونه أخرى، وقيل: يتحول عنه غير صاحبه من حضر عن كذا تحول عنه وقيل: يمنع عنه غير صاحبه مجاز عن الحظر بالظاء بمعنى المنع بعلاقة السببية فانه مسبب عن حضور صاحبه فى نوبته وهو كما ترى ، وقيل : يحضرون الماء فى نوبتهم واللبن فى نوبتها،والمعنى كل شرب من الماء واللبن تحضرونه أنتم ﴿فَنَادَوْا﴾ أى فأرسلنا الناقة وكانوا على هذه الوتيرة من القسمة فملوا ذلك وعزموا على عقر الناقة (فنادوا) لعقرها ﴿ صَاحِبَهُمْ ﴾ وهو قدار بن سالف أحيمر ثمود وكان أجرأهم ﴿فَتَعَاطَى﴾ العقر أى فاجترأ على تعاطيه مع عظمه غير مكترث به *

﴿فَعَقَرَ ٢٩﴾ فأحدث العقر بالناقة ، وجوز أن يكون المراد فتعاطى الناقة فعقرها ، أو فتعاطى السيف فقتلها ، وعلى كل فمفعول تعاطى محذوف والتفريع لاغبار عليه ، وقيل: تعاطى منزل منزلة اللازم على أن معناه أحدث

Marfat.com

ماهية التعاطى، وقوله تعالى: (فعقر) تفسير له لا متفرع عليه ولا يخفى ركاكته، والتعاطى التناول مطلقاً على ما يفهم من كلام غير واحد، وزاد بعضهم قيد بتكلف ونسبة العقر اليهم فى قوله تعالى: (فعقروا الناقة) لأنهم كانوا راضين به ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ٣٠ ﴾ الكلام فيه كالذى تقدم ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ هى صيحة جبريل عليه السلام صاح صباح يوم الاحد كما حكى المناوى عن الزمخشرى فى طرف منازلهم ﴿ فَكَانُوا ﴾ أى فصاروا ﴿ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ٣١ ﴾ أى كالشجر اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لما شيته فى الشتاء ٭

وفى البحر الهشيم ماتفتت وتهشم من الشجر ، و(المحتظر) الذى يعمل الحظيرة فانه يتفتت منه حالة العمل ويتساقط أجزاء مما يعمل به ، أو يكون الهشيم ما يبس من الحظيرة بطول الزمان تطؤه البهائم فيتهشم، وتعقب هذا بأن الاظهر عليه كهشيم الحظيرة ، والحظيرة الزريبة التى تصنعها العرب. وأهل البوادى للمواشى والسكنى من الأغصان والشجر المورق والقصب من الحظر وهو المنع ٭

وقرأ الحسن. وأبو حيوة . وأبو السمال. وأبو رجاء . وعمرو بن عبيد (المحتظر) بفتح الظاء على أنه اسم مكان. والمراد به الحظيرة نفسها أو هو اسم مفعول قيل : ويقدر له موصوف أى (كهشيم) الحائط (المحتظر) أو لا يقدر على أن (المحتظر) الزريبة نفسها كما سمعت. وجوز أن يكون مصدراً أى كهشيم الاحتظار أى ما تفتت حالة الاحتظار ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ٣٢ ﴾ كامر ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ٣٣ ﴾ على قياس النظير السابق ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ ملكا على ما قيل - يحصبهم أى يرميهم بالحصباء والحجارة أو هو اسم للريح التى تحصب ولم يرد بها الحدوث كما فى ناقة ضامر وهو وجه التذكير ، وقال ابن عباس : هو ما حصبوا به من السماء من الحجارة فى الريح ، وعليه قول الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام تضربنا (بحاصب) كنديف القطن منثور

﴿ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ ﴾ خاصته المؤمنين به ، وقيل : آله ابنتاه ﴿ نَجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ ٣٤ ﴾ أى فى سحر وهو آخر الليل ، وقيل : السدس الأخير منه ، وقال الراغب : السحر والسحرة اختلاط ظلام آخر الليل بصفاء النهار وجعل اسما لذلك الوقت، ويجوز كون الباء للملابسة والجار والمجرور فى موضع الحال أى ملتبسين (بسحر) داخلين فيه ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أى إنعاماً منا وهو علة لنجينا ، ويجوز نصبه بفعل مقدر من لفظه ، أو بنجينا لأن التنجية إنعام فهو كقعدت جلوساً ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿ نَجْزِى مَن شَكَرَ ٣٥ ﴾ نعمتنا بالايمان والطاعة ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم ﴾ لوط عليه السلام ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ أخذتنا الشديدة بالعذاب ٭

وجوز أن يراد بها نفس العذاب ﴿ فَتَمَارَوْا ﴾ فكذبوا ﴿ بِالنُّذُرِ ٣٦ ﴾ متشاكين ، فالفعل مضمن معنى التكذيب ولولاه تعدى بفى ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ ﴾ صرفوه عن رأيه فيهم وطلبوا الفجور بهم وهذا من إسناد ما للبعض للجميع لرضاهم به ﴿ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾ أى أزلنا أثرها وذلك بمسحها وتسويتها كسائر الوجه ، وهو كما قال أبو عبيدة ، وروى أن جبريل عليه السلام استأذن ربه سبحانه فى عقوبتهم ليلة جاءوا وعالجوا الباب ليدخلوا عليهم فصفقهم بجناحه فتركهم عمياناً يترددون لا يهتدون إلى طريق خروجهم حتى أخرجهم لوط عليه السلام

Marfat.com

وقال ابن عباس. والضحاك : إنما حجب إدراكهم فدخلوا المنزل ولم يروا شيئاً فجعل ذلك كالطمس فعبر به عنه *

وقرأ ابن مقسم (فطمسنا) بتشديد الميم للتكثير فى المفعول ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ٣٧ ﴾ أى فقلنا لهم ذلك على ألسنة الملائكة عليهم السلام ، فالقول فى الحقيقة لهم وأسند إليه تعالى مجازاً لأنه سبحانه الآمر أو القائل ظاهر الحال فلا قول وإنما هو تمثيل ، والمراد بالعذاب الطمس وهو من جملة ما أنذروه *

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً ﴾ أول النهار وهى أخص من الصباح فليس فى ذكرها بعده زيادة وكان ذلك أول شروق الشمس ، وقرأ زيد بن على (بكرة) غير مصروفة للعلمية والتأنيث على أن المراد بها أول نهار مخصوص*

(عَذَابٌ مُسْتَقِرٌ ٣٨) يستقر بهم ويدوم حتى يسلمهم إلى النار، أو لا يدفع عنهم، أو يبلغ غايته *

(فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ٣٩) حكاية لما قيل لهم بعد التصحيح من جهته تعالى تشديداً للعذاب ، أو هو تمثيل *

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ٤٠) تقدم ما فيه من الكلام *(وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ٤١)* صدرت قصتهم بالتوكيد القسمى لابراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها وهول ما لاقوه من العذاب وقوة إيجابها للاتعاظ والاكتفاء بذكر آل فرعون للعلم بأن نفسه أولى بذلك فانه رأس الطغيان ومدعى الألوهية ، والقول بأنه إشارة إلى إسلامه مما لا يلتفت إليه ، و(النذر) إن كان جمع نذير بمعنى الانذار فالأمر ظاهر وكذا إن كان مصدراً ، وأما إن كان جمع نذير بمعنى المنذر فالمراد به موسى. وهرون. وغيرهما لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون أى وبالله تعالى لقد جاءهم المنذرون، أو الانذرات، أو الانذار، وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية مجىء النذر كأنه قيل: فماذا فعل آل فرعون حينئذ ؟ فقيل : كذبوا بجميع آياتنا وهى آيات الأنبياء كلهم عليهم السلام فان تكذيب البعض تكذيب للكل، أو هى الآيات التسع، وجوز الواحدى أن يراد بالنذر نفس الآيات فقوله سبحانه: (بآياتنا) من إقامة الظاهر مقام الضمير والأصل كذبوا بها ، وزعم بعض غلاة الشيعة وهم المسلمون بالكشفية فى زماننا أن المراد -بالآيات كلها- على كرم الله تعالى وجهه فإنه الإمام المبين المذكور فى قوله تعالى: (وكل شئ أحصيناه فى إمام مبين) وأنه كرم الله تعالى وجهه ظهر مع موسى عليه السلام لفرعون وقومه فلم يؤمنوا - وهذا من الهذيان بمكان - نسأل الله تعالى العفو والعافية ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ أى آل فرعون ، وزعم بعض أن ضمير (كذبوا) وضمير أخذناهم عائدان على جميع من تقدم ذكره من الأمم وتم الكلام عند قوله تعالى: (النذر) وليس بشئ ، والفاء للتفريع أى (فأخذناهم) وقهرناهم لأجل تكذيبهم *(أَخْذَ عَزِيزٍ)* لا يغالب ﴿ مُقْتَدِرٍ ٤٢)* لا يعجزه شىء ، ونصب أخذ على المصدرية لا على قصد التشبيه *(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَـٰئِكُمْ)* أى الكفار المعدودين قوم نوح . وهود . وصالح . ولوط . وآل فرعون ، والمراد الخيرية باعتبار الدنيا وزينتها كالكثرة القوة والشدة ووفور العدد والعدة ، أو باعتبار لين الشكيمة فى الكفر بأن يكون الكفار المحدث عنهم بالخيرية أقل عناداً وأقرب طاعة وانقياداً، وظاهر كلام كثير أن الخطاب هنا عام للمسلمين وغيرهم حيث قالوا: (أكفاركم) يا معشر العرب (خير) الخ والاستفهام إنكارى فى معنى النفى فكأنه قيل: ما كفاركم خير من اولئكم الكفار المعدودين بأن يكونوا أكثر منهم قوة وشدة وأوفر عدداً وعدة، أو بأن يكونوا ألين شكيمة فى الكفر والعصيان

Marfat.com

والضلال والطغيان بل هم دونهم فى القوة وماأشبهها من زينة الدنيا،أوأسوأ حالا منهم فى الكفر ، وقدأصاب من هو خير ماأصاب فكيف يطمعون هم فى أن لايصيبهم نحو ذلك ، وكذا قيل : فى الخطاب فى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِى الزُّبُرِ﴾ وجعل بتقدير أم لكفاركم وهو إضراب وانتقال إلى تنكيت آخر فكأنه قيل: بل ألكفاركم براءة وأمن من تبعات مايعملون من الكفر والمعاصى وغوائلها فى الكتب السماوية فلذلك يصرون على ماهم عليه ولايخافون،واختار بعضهم فى هذا أنه خاص بالكفار ، وقالوا فى قوله تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرٌ ٤٣ ﴾ إنه إضراب من التبكيت المذكور إلى تبكيت آخر بطريق الالتفات للايذان بإفضاء حالهم إلى الاعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية قبائحهم لغيرهم،أى بل أيقولون واثقين بشوكتهم نحن جماعة أمرنا مجتمع لايرام ولايضام،أو(منتصر)من الأعداء لايغلب،أومتناصرينصر بعضنا بعضاً ٭

والذى يترجح فى نظر الفقير أن الخطاب فى الموضعين خاص على مايقتضيه السياق بكفار أهل مكة أوالعرب وهو ظاهر فى الموضع الثانى لايحتاج إلى شئ ، وأمافى الموضع الاول فوجهه أن تكون الاضافة مثلهافى الدراهم كلها كذا ، وطورسيناء ، ويوم الأحد ولم يقل أأنتم للتنصيص على كفرهم المقتضى لهلاكهم ، ويجوز أن يعتبر فى (أكفاركم)ضرب من التجريد الذى ذكروه فى نحو (لهم فيها دار الخلد) فكأنه جرد منهم كفار وأضيفوا اليهم ، وفى ذلك من المبالغة مافيه ، ويجوز أن يكون هذا وجهاً للعدول عن أأنتم ، وربمايترجح به كون الخيرية المنفية باعتبار لين الشكيمة فى الكفر وكأنه لماخوف سبحانه الكفار الذين كذبوا الآيات وأعرضوا عنها ، وقالوا هى سحر مستمر بذكر ماحل بالامم السالفة مما تبرق وترعد منه أسارير الوعيد قال عز وجل لهم :لم لاتخافون أن يحل بكم مثل ماحل بهم أأنتم أقل كفراً وعناداً منهم ليكون ذلك سببا للأمن من حلول نحو عذابهم بكم أم أعطاكم الله عز وجل براءة من عذابه أم أنتم أعز منهم منتصرون على جنود الله تعالى وعدل سبحانه عن أم أنتم جميع منتصر إلى مافى النظم الجليل للاشارة إلى أن ذلك مما لاتحقق له أصلا إلا باللفظ ومحض الدعوى التى لايوافق عليها فتأمل ، فأسرار كلام الله تعالى لاتتناهى ، ثم لاتعجل بالاعتراض على ماقلناه وإن لم يكن لناسلف فيه حسبما تتبعنا،ثم إن (جميع) على ماأشير اليه بمعنى الجماعة التى أمرها مجتمع وليس من التأكيد فى شئ بل هو خبر (نحن) ، وجوز أن يكون بمعنى مجتمع خبر مبتدأ محذوف وهو(أمرنا)والجملة خبر (نحن) وأن يكون هو الخبر والاسناد مجازى،و(منتصر) على ماسمعت إما بمعنى ممتنع يقال: نصره فانتصر إذا منعه فامتنع ٭

والمراد بالامتناع عدم المغلوبية أو هو بمعنى منتقم من الاعداء أوهو من النصر بمعنى العون، والافتعال بمعنى التفاعل كالاختصام والتخاصم وكان الظاهر منتصرون إلا أنه أفرد باعتبار لفظ الجميع فانه مفرد لفظاً جمع معنى ورجح هنا جانب اللفظ عكس بل أنتم قوم تجهلون لخفة الإفراد مع رعاية الفاصلة وليس فى الآية رعاية جانب المعنى أولا ، ثم رعاية جانب اللفظ ثانيا على عكس المشهور ، وإن كان ذلك جائزاً على الصحيح كما لايخفى على الخبير ، وقرأ أبو حيوة . وموسى الأسوارى . وأبو البرهسم - أم تقولون - بتاء الخطاب ، وقوله تعالى :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ ردلقولهم ذلك والسين للتأكيدأى يهزم جمعهم البتة ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ٤٥ ﴾ أى الادبار، وقد قرئ كذلك ، والإفراد لإرادة الجنس الصادق على الكثير مع رعاية الفواصل ومشاكلة القرائن ، أولأنه فى تأويل يولى كل واحد منهم دبره على حد كسانا الأمير حلة مع الرعاية المذكورة أيضا وقد كان هذا يوم بدر وهو من دلائل النبوة لأن الآية مكية ، وقد نزلت حيث لم يفرض جهاد ولا كان قتال ولذا قال عمر

Marfat.com

رضى الله تعالى عنه : يوم نزلت أى جمع يهزم أى من جموع الكفار ؟ ولم يتعرض لقتال أحد منهم ، وقد تقدم الخبر ۞ وعما أشرنا اليه يعلم أن قول الطيبى فى هذه الرواية نظر لأن همزة الإنكار فى (أم يقولون) الخ دلت على أن المنهزمين من هم ناشئ عن الغفلة عن مراد عمر رضى الله تعالى عنه ، وقرأ أبو حيوة . وموسى الاسوارى . وأبو البرهسم - ستهزم الجمع - بفتح التاء وكسر الزاى خطاباً لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونصب الجمع على المفعولية ، وقرأ أبو حيوة أيضا . ويعقوب - سنهزم - بالنون مفتوحة وكسر الزاى على إسناد الفعل إلى ضمير العظمة ، وعن أبى حيوة . وابن أبى عبلة (سيهزم) الجمع بفتح الياء مبنياً للفاعل ونصب الجمع أى سيهزم الله تعالى الجمع ، وقرأ أبو حيوة . وداود بن أبى سالم عن أبى عمرو - وتولون - بتاء الخطاب ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ أى ليس هذا تمام عقوبتهم بل الساعة موعد عذابهم وهذا من طلائعه ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ ﴾ أى أعظم داهية وهى الامر المنكر الفظيع الذى لا يهتدى إلى الخلاص عنه ﴿ وَأَمَرُّ ٤٦ ﴾ وأشد مرارة فى الذوق وهو استعارة لصعوبتها على النفس ، وقيل : أقوى وليس بذاك وإظهار الساعة فى موضع إضمارها التربية تهويلها ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ ﴾ من الأولين والآخرين ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ فى هلاك ﴿ وَسُعُرٍ ٤٧ ﴾ ونيران مسعرة أو فى ضلال عن الحق ونيران فى الآخرة ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : فى خسران وجنون ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ ﴾ أى يجرون ﴿ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ متعلق بقول مقدر بعده أى يوم يسحبون يقال لهم ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ٤٨ ﴾ وجوز أن يكون متعلقاً بمقدر يفهم مما قبل أى يعذبون ، أو يهانون ، أو نحوه ، وجملة القول عليه حال من ضمير (يسحبون) وجوز كونه متعلقاً - بذوقوا - على أن الخطاب للمكذبين المخاطبين فى قوله تعالى : (أكفاركم) الخ أى ذوقوا أيها المكذبون محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم يوم يسحب المجرمون المتقدمون ، والمراد حشرهم معهم والتسوية بينهم فى الآخرة كما ساووهم فى الدنيا وهو كما ترى ، والمراد - بمس سقر - ألمها على أنه مجاز مرسل عنه بعلاقة السببية فان مسها سبب للتألم بها وتعلق الذوق بمثل ذلك شائع فى الاستعمال ، وفى الكشاف (مس سقر) كقولك وجد مس الحمى وذاق طعم الضرب لان النار إذا أصابتهم بحرها ولحقتهم بايلامها فكأنها تمسهم مساً بذلك كما يمس الحيوان ويباشر بما يؤذى ويؤلم وهو مشعر بأن فى الكلام استعارة مكنية نحو (ينقضون عهد الله) ويحتمل غير ذلك ، (وسقر) علم لجهنم - أعاذنا الله تعالى منها ببركة كلامه العظيم وحرمة حبيبه عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم - من سقرته النار وصقرته بابدال السين صاداً لاجل القاف إذا لوحته وغيرت لونه قال ذو الرمة يصف ثور الوحش :

إذا ذابت الشمس اتقى صقراتها بأفنان مربوع الصريمة معبل

وعدم الصرف للعلمية والتأنيث ، وقرأ عبد الله إلى النار ، وقرأ محبوب عن أبى عمرو (مس ستقر) بادغام السين فى السين ، وتعقب ذلك ابن مجاهد بأن إدغامه خطأ لأنه مشدد ، والظن بأبى عمرو أنه لم يدغم حتى حذف إحدى السينين لاجتماع الأمثال ثم أدغم ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء ﴿ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ أى مقدراً مكتوبا فى اللوح قبل وقوعه ، فالقدر بالمعنى المشهور الذى يقابل القضاء ، وحمل الآية على ذلك هو المأثور عن كثير من السلف ، وروى الامام أحمد . ومسلم . والترمذى . وابن ماجه عن أبى هريرة قال : « جاء مشركو قريش يخاصمون

Marfat.com

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى القدر فنزلت ﴿ يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شئ خلقناه بقدر ﴾» وأخرج البخارى فى تاريخه. والترمذى وحسنه . وابن ماجه. وابن عدى . وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « صنفان من أمتى ليس لهما فى الاسلام نصيب المرجئة والقدرية » أنزلت فيهم آية فى كتاب الله (إن المجرمين فى ضلال وسعر) إلى آخر الآيات ، وكان ابن عباس يكره القدرية جداً ، أخرج عبد بن حميد عن أبى يحيى الأعرج قال سمعت ابن عباس - وقد ذكر القدرية - يقول : لو أدركت بعضهم لفعلت به كذا وكذا ثم قال : الزنا بقدر . والسرقة بقدر . وشرب الخمر بقدر *

وأخرج عن مجاهد أنه قال : قلت لابن عباس : ماتقول فيمن يكذب بالقدر؟ قال: اجمع بينى وبينه قلت: ماتصنع به؟ قال : أخنقه حتى أقتله ، وقد جاء ذمهم فى أحاديث كثيرة ، منها ماأخرجه أحمد. وأبو داود. والطبرانى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال :« لكل أمة مجوس ومجوس أمتى الذين يقولون لاقدر إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم » . وجوز كون المعنى إنا كل شئ خلقناه مقدراً محكما مستوفى فيه مقتضى الحكمة التى يدور عليها أمر التكوين ، فالآية من باب (وخلق كل شئ فقدره تقديراً) ونصب (كل) بفعل يفسره مابعده أى إنا خلقنا كل شئ خلقناه ، وقرأ أبو السمال قال : ابن عطية . وقوم من أهل السنة برفع كل وهو على الابتداء، وجملة (خلقناه) هو الخبر، و(بقدر) متعلق به كما فى القراءة المتواترة ، فتدل الآية أيضاً على أن كل شئ مخلوق بقدر ولا ينبغى أن تجعل جملة خلقناه صفة، ويجعل الخبر (بقدر) لاختلاف القراءتين معنى حينئذ ، والاصل توافق القرا آت ، وقال الرضى : لا يتفاوت المعنى لان مراده تعالى بكل شئ كل مخلوق سواء نصبت (كل) أو رفعته وسواء جعلت (خلقناه) صفة مع الرفع ، أو خبراً عنه، وذلك إن خلقنا كل شئ بقدر لا يريد سبحانه به خلقنا كل ما يقع عليه اسم شئ لانه تعالى لم يخلق جميع الممكنات غير المتناهية واسم الشئ يقع على كل منها ، وحينئذ نقول: إن معنى (كل شئ خلقناه بقدر) على أن خلقناه هو الخبر (كل) مخلوق مخلوق (بقدر) وعلى أن (خلقناه) صفة (كل شئ) مخلوق كائن (بقدر) والمعنيان واحد إذ لفظ (كل) فى الآية مختص بالمخلوقات سواء كان (خلقناه)صفة له أو خبراً ، وتعقبه السيد السند قدس سره بأنه لقائل أن يقول: إذا جعلنا (خلقناه) صفة كان المعنى (كل) مخلوق متصف بأنه مخلوقنا كائن بقدر ، وعلى هذا لايمتنع نظراً إلى هذا المعنى أن يكون هناك مخلوقات غير متصفة بتلك الصفة فلا تندرج تحت الحكم ، وأما إذا جعلناه خبراً أو نصبنا (كل شئ) فلا مجال لهذا الاحتمال نظراً إلى نفس المعنى المفهوم من الكلام فقد اختلف المعنيان قطعا ولا يجديه نفعا أن كل مخلوق متصف بتلك الصفة فى الواقع لأنه إنما يفهم من خارج الكلام ولاشك أن المقصود ذلك المعنى الذى لا احتمال فيه ، وذكر نحوه الشهاب الخفاجى ولكون النصب نصا فى المقصود اتفقت القرآت المتواترة عليه مع احتياجه إلى التقدير وبذلك يترجح على الرفع الموهم لخلافه وإن لم يحتج اليه * ﴿ وَمَا أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ ﴾ أى ماشأننا إلا فعلة واحدة على نهج لايختلف ووتيرة لا تتعدد وهى الايجاد بلا معالجة ومشقة ، أوماأمرنا إلا كلمة واحدة ، وهى قوله تعالى :(كن) فالامر مقابل النهى وواحد الأمور ، فاذا أراد عز وجل شيئا قال له :(كن فيكون) ﴿ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ٥٠ ﴾ أى فى السير والسرعة ، وقيل: هذا فى قيام الساعة فهو كقوله تعالى : (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر) ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أى أشباهكم فى الكفر

Marfat.com

من الامم السالفة ، وأصله جمع شيعة وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع ولما كانوا فى الغالب من جنس واحد أريد به ماذكر إما باستعماله فى لازمه ، أو بطريق الاستعارة ، والحال قرينة على ذلك ، وقيل : هو باق على حقيقته أى أتباعكم ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ متعظ بذلك ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ ﴾ من الكفر والمعاصى ، والضمير المرفوع للأشياع كما روى عن ابن عباس. والضحاك .وقتادة . وابن زيد ، وجملة (فعلوه) صفة (شئ) والرابط ضمير النصب ، وقوله تعالى: ﴿ فِى الزُّبُرِ ﴾ متعلق بكون خاص خبر المبتدا أى كل شئ فعلوه فى الدنيا مكتوب فى كتب الحفظة غير مغفول عنه، وتفسير (الزبر) اللوح المحفوظ كما حكاه الطبرسى ليس بشىء ، ولم يختلف القراء فى رفع (كل) وليست الآية من باب الاشتغال فلا يجوز النصب لعدم بقاء المعنى الحاصل بالرفع لو عمل المشتغل بالضمير فى الاسم السابق كما هو اللازم فى ذلك الباب إذ يصير المعنى ههنا حينئذ فعلوا (فى الزبر) كل شىء إن علقنا الجار - بفعلوا وهم لم يفعلوا شيئاً من أفعالهم فى الكتب بل فعلوها فى أماكنهم والملائكة عليهم السلام كتبوها عليهم فى الكتب ، أو فعلوا كل شىء مكتوب (فى الزبر) إن جعلنا الجار نعتاً لكل شىء ، وهذا وإن كان معنى مستقيما إلا أنه خلاف المعنى المقصود حالة الرفع وهو ما تقدم آنفا ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ من الاعمال كما روى عن ابن عباس . ومجاهد وغيرهما ، وقيل : منها ومن كل ماهو كائن إلى يوم القيامة ﴿ مُسْتَطَرٌ ﴾ مسطور مكتتب فى اللوح بتفاصيله وهو من السطر بمعنى الكتب ، ويقال: سطرت واستطرت بمعنى ، وقرأ الأعمش .وعمران . وعصمة عن أبى بكر عن عاصم (مستطر) بتشديد الراء ، قال صاحب اللوامع : يجوز أن يكون من - طر - النبات والشارب إذا ظهر ، والمعنى كل (صغير و كبير) ظاهر فى اللوح مثبت فيه ويجوز أن يكون من الاستطار لكن شدد الراء للوقف على لغة من يقول - جعفرّ ويفعلّ - بالتشديد وقفاً أى ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ووزنه على التوجيه الأول مستفعل وعلى الثانى مفتعل ، ولما كان بيان حال سوء الكفرة بقوله تعالى : (إن المجرمين) الخ مما يستدعى بيان حسن حال المؤمنين ليتكافأ الترهيب والترغيب بين سبحانه مالهم من حسن الحال بطريق الاجمال فقال عز قائلا: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى من الكفر والمعاصى ، وقيل : من الكفر ﴿ فِى جَنَّاتٍ ﴾ عظيمة الشأن ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ أى أنهار كذلك ، والافراد للاكتفاء باسم الجنس مراعاة للفواصل ، وعن ابن عباس تفسيره بالسعة ، وأنشد عليه قول لبيد بن ربيعة - كما فى الدر المنثور - أو قيس بن الخطيب - كما فى البحر - يصف طعنة :

ملكت بها كفى (فأنهرت) فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

أى أوسعت فتقها ، والمراد بالسعة سعة المنازل على ماهو الظاهر ، وقيل: سعة الرزق والمعيشة ، وقيل: مايعمهما وأخرج الحكيم والترمذى فى نوادر الأصول عن محمد بن كعب قال : (ونهر) أى فى نور وضياء وهو على الاستعارة بتشبيه الضياء المنتشر بالماء المتدفق من منبعه ، وجوز أن يكون بمعنى النهار على الحقيقة ، والمراد أنهم لاظلمة ولا ليل عندهم فى الجنات ، وقرأ الأعرج. ومجاهد. وحميد. وأبو السمال . والفياض بن غزوان (ونهر) بسكون الهاء ، وهو بمعنى (نهر) مفتوحها ، وقرأ الأعمش. وأبو نهيك. وأبو مجلز. واليمانى (ونهر) بضم النون والهاء ، وهو جمع نهر المفتوح أو الساكن - كأسد وأسد ، ورهن ورهن - وقيل: جمع نهار ، والمراد أنهم لاظلمة ولا ليل

Marfat.com

عندهم كما حكى فيما مر ، وقيل: قرئ بضم النون وسكون الهاء ﴿ فى مَقْعَدصِدْق ﴾ فى مكان مرضى على أن الصدق مجاز مرسل فى لازمه أو استعارة، وقيل: المراد صدق المبشر به وهو الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، أو المراد أنه ناله من ناله بصدقه وتصديقه للرسل عليهم السلام ، فالاضافة لأدنى ملابسة، وقال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه: مدح المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق ، وهو المقعد الذى يصدق الله تعالى فيه مواعيد أوليائه بأنه يبيح عز وجل لهم النظر إلى وجهه الكريم ، وإفراد المقعد على إرادة الجنس *

وقرأ عثمان البتى -فى مقاعد- على الجمع وهى توضح أن المراد بالمقعد المقاعد ﴿ عِنْدَمَلِيك ﴾ أى ملك عظيم الملك، وهو صيغة مبالغة وليست الياء من الاشباع ﴿ مُقْتَدِر ٥٥ ﴾ قادر عظيم القدرة، والظرف فى موضع الحال من الضمير المستقر فى الجار والمجرور ، أو خبر بعد خبر ، أو صفة لمقعد صدق، أو بدل منه، والعندية للقرب الرتبى، وذكر بعضهم أنه سبحانه أبهم العندية والقرب ونكر -مليكا ، ومقتدراً- للإشارة إلى أن ملكه تعالى وقدرته عز وجل لاتدرى الافهام كنههما وأن قربهم منه سبحانه بمنزلة من السعادة والكرامة بحيث لاعين رأت ولا أذن سمعت مما يجل عن البيان وتكل دونه الأذهان *

وأخرج الحكيم الترمذى عن بريدة -عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله تعالى: (إن المتقين) الخ قال: إن أهل الجنة يدخلون على الجبار كل يوم مرتين فيقرأ عليهم القرآن وقد جلس كل امرئ منهم مجلسه الذى هو مجلسه على منابر الدر والياقوت والزمرد والذهب والفضة بالأعمال فلا تقر أعينهم قط كما تقر بذلك ولم يسمعوا شيئاً أعظم منه ولا أحسن منه ثم ينصرفون إلى رحالهم قريرة أعينهم ناعمين إلى مثلها من الغد - وإذا صح هذا فهو من المتشابه كالآية فلا تغفل ، ولهذين الاسمين الجليلين شأن فى استجابة الدعاء على ما فى بعض الآثار *

أخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن المسيب قال: دخلت المسجد وأنا أرى أنى أصبحت فاذا على ليل طويل وليس فيه أحد غيرى فنمت فسمعت حركة خلفى ففزعت فقال: أيها الممتلئ قلبه فرقا لا تفرق أولا تفزع وقل اللهم إنك مليك مقتدر ماتشاء من أمر يكون ثم سل مابدالك قال: فماسألت الله تعالى شيئاً إلا استجاب لى وأنا أقول: اللهم إنك مليك مقتدر ماتشاء من أمر يكون فأسعدنى فى الدارين وكن لى ولا تكن على وانصرنى على من بغى على وأعذنى من هم الدين وقهر الرجال وشماتة الأعداء ، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، والحمد لله رب العالمين *

﴿ سورة الرحمن عز وجل ﴾

وسميت فى حديث أخرجه البيهقى عن على كرم الله تعالى وجهه مرفوعا « عروس القرآن » ورواه موسى ابن جعفر رضى الله تعالى عنهما عن آبائه الأطهار كذلك (وهى مكية) فى قول الجمهور ، وأخرج ذلك ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير . وعائشة رضى الله تعالى عنهم . وابن النحاس عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وأخرج ابن الضريس . وابن مردويه . والبيهقى فى الدلائل عنه أنها نزلت بالمدينة ، وحكى ذلك عن مقاتل، وحكاه فى البحر عن ابن مسعود أيضا ، وحكى أيضا قولا آخر عن ابن عباس وهو أنها مدنية سوى قوله تعالى:

Marfat.com

(يسأله من فى السموات والارض) الآية ، وحكى الاستثناء المذكور فى جمال القراء عن بعضهم ولم يعينه، وعدد آياتها ثمان وسبعون آية فى الكوفى والشامى، وسبع وسبعون فى الحجازى ، وست وسبعون فى البصرى*

ووجه مناسبتها لما قبلها على ماقال الجلال السيوطى: أنه لما قال سبحانه فى آخر ماقيل (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) ثم وصف عز وجل حال المجرمين (فى سقر) ؛ وحال المتقين (فى جنات ونهر) فصل هذا الاجمال فى هذه السورة أتم تفصيل على الترتيب الوارد فى الاجمال فبدأ بوصف مرارة الساعة ، والاشارة إلى شدتها، ثم وصف النار وأهلها ، ولذا قال سبحانه : (يعرف المجرمون بسيماهم) ولم يقل الكافرون ، أونحوه لاتصاله معنى بقوله تعالى هناك : (إن المجرمين) ، ثم وصف الجنة وأهلها، ولذا قال تعالى فيهم : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وذلك هو عين التقوى ولم يقل ولمن آمن ، أو أطاع ، أونحوه لتتوافق الألفاظ فى التفصيل والمفصل؛ ويعرف بما ذكر أن هذه السورة كالشرح لآخر السورة قبلها ، وقال أبو حيان فى ذلك : أنه تعالى لما ذكر هناك مقر المجرمين فى سعر ، ومقر المتقين (فى جنات ونهر عند مليك مقتدر) ذكر سبحانه هنا شيئا من آيات الملك وآثار القدرة ، ثم ذكر جل وعلا مقر الفريقين على جهة الإسهاب إذ كان ذكره هناك على جهة الاختصار، ولما أبرز قوله سبحانه : (عند مليك مقتدر) بصورة التنكير فكأن سائلا يسأل ويقول من المتصف بهاتين الصفتين الجليلتين ؟ فقيل : (الرحمن) الخ ، والأولى عندى أن يعتبر فى وجه المناسبة أيضا مافى الإرشاد وهو أنه تعالى لما عدد فى السورة السابقة مانزل بالامم السالفة من ضروب نقم الله عز وجل ، وبين عقيب كل ضرب منها أن القرآن قد يسر لتذكر الناس واتعاظهم ونعى عليهم إعراضهم عن ذلك عدد فى هذه السورة الكريمة ما أفاض على كافة الانام من فنون نعمه الدينية والدنيوية والأنفسية والآفاقية وأنكر عليهم إثر كل فن منها إخلالهم بواجب شكرها، وهذا التكرار أحلى من السكر إذا تكرر ، وفى الدرر والغرر لعلم الهدى السيد المرتضى التكرار فى سورة (الرحمن) إنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعددة ، فكلما ذكر سبحانه نعمة أنعم بها وبخ على التكذيب بها كما يقول الرجل لغيره ألم أحسن اليك بأن خولتك فى الاموال ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا؟ فيحسن فيه التكرير لاختلاف مايقرر به وهو كثير فى كلام العرب وأشعارهم كقول مهلهل يرثى كليبا:

على أن ليس عدلا من كليب إذا ماضيم جيران المجير
على أن ليس عدلا من كليب إذا رجف العضاه من الدبور
على أن ليس عدلا من كليب إذا خرجت مخبأة الخدور
على أن ليس عدلا من كليب إذا ما أعلنت نجوى الأمور
على أن ليس عدلا من كليب إذا خيف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلا من كليب غداة تأثل الأمر الكبير
على أن ليس عدلا من كليب إذا ماخار جاش المستجير

ثم أنشد قصائد أخرى على هذا النمط ولولا خوف الملل لأوردتها ، ولايرد على ماذكره أن هذه الآية قد ذكرت بعد ماليس نعمة لما ستعلمه إن شاء الله تعالى فى محله ، وقسم فى الاتقان التكرار إلى أقسام ، وذكر أن منه ما هو لتعدد المتعلق بأن يكون المكرر ثانياً متعلقا بغير ما تعلق به الاول؛ ثم قال : وهذا القسم يسمى بالترديد وجعل منه قوله تعالى :(فبأى آلاء ربكما تكذبان) فانها وإن تكررت إحدى وثلاثين مرة فكل واحدة

Marfat.com

تتعلق بما قبلها ولذلك زادت على ثلاثة ولو كان الجميع عائداً على شئ واحد لما زاد على ثلاثة لان التأكيد لا يزيد عليها كما قال ابن عبد السلام . وغيره ، وهو حسن إلا أنه نظر فى إطلاق قوله : إن التأكيد الخ بأن ذلك فى التأكيد الذى تابع أما ذكر الشئ فى مقامات متعددة أكثر من ثلاثة فلا يمتنع وإن لزم منه التأكيد فافهم ، وبدأ سبحانه من النعم بتعليم القرآن فقال عز قائلا :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَٰنُ ١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢ ﴾ لانه أعظم النعم شأنا وأرفعها مكانا كيف لا وهو مدار للسعادة الدينية والدنيوية وعيار على الكتب السماوية ما من مرصد ترنو اليه أحداق الامم إلا وهو منشؤه ومناطه ، ولا مقصد تمتد نحوه أعناق الهمم إلا وهو منهجه وصراطه ، ونصبه على أنه مفعول ثان - لعلم - ومفعوله الأول محذوف لدلالة المعنى عليه - أى علم الانسان القرآن - وهذا المفعول هو الذى كان فاعلا قبل نقل فعل الثلاثى إلى فعل المضعف ، وسها الامام فحسب أن المحذوف المفعول الثانى حيث قال : علم لابد له من مفعول ثان وترك للاشارة إلى أن النعمة فى التعليم لافى تعليم شخص دون شخص ، ويمكن أن يقال : أراد أنه لابد له من مفعول آخر مع هذا المفعول فلا جزم بسهوه ، وقيل : المقدر جبريل عليه السلام أو الملائكة المقربين عليهم السلام ، وقيل : محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلى القولين يتضمن ذلك الاشارة إلى أن القرآن كلام الله عز وجل ، والقول الأول أظهر وأنسب بالمقام ، ولى فى تعليم غير جبريل عليه السلام من الملائكة الكرام تردد ما بناءاً على ما فى الانقان نقلا عن ابن الصلاح من أن قراءة القرآن كرامة أكرم الله تعالى بها البشر فقد ورد أن الملائكة لم يعطوا ذلك وأنهم حريصون لذلك على استماعه من الإنس ، وإنما لم أعتبر عمومه للنصوص الدالة على أن جبريل عليه السلام كان يقرأ القرآن وكأنى بك لاتسلم صحة ماذكر وإن استثنى منه جبريل عليه السلام ، وقيل : (علم) من العلامة ولا تقدير أى جعل القرآن علامة وآية لمن اعتبر ، أو علامة للنبوة ومعجزة ، وهذا على ماقيل : يناسب ماذكر فى مفتتح السورة السابقة من قوله تعالى : (وانشق القمر) وتتناسب السورتان فى المفتتح حيث افتتحت الاولى بمعجزة من باب الهيبة وهذه بمعجزة من باب الرحمة *

وقد أبعد القائل ولو أبدى ألف مناسبة ، فالذى ينبغى أن يعلم أنه من التعليم ، والمراد بتعليم القرآن قيل : إفادة العلم به لا بمعنى إفادة العلم بألفاظه فقط بل بمعنى إفادة ذلك والعلم بمعانيه على وجه يعتد به وهو متفاوت وقد يصل إلى العلم بالحوادث الكونية من إشاراته ورموزه إلى غير ذلك فان الله تعالى لم يغفل شيئاً فيه * أخرج أبو الشيخ فى كتاب العظمة عن أبى هريرة مرفوعا « إن الله لو أغفل شيئا لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة »

وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم عن ابن مسعود أنزل فى هذا القرآن علم كل شئ وبين لنا فيه كل شئ ولكن علمنا يقصر عما بين لنا فى القرآن ، وقال ابن عباس : لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله تعالى ؛ وقال المرسى : جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به ، ثم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خلا ما استأثر به سبحانه ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم كالخلفاء الأربعة ، ثم ورث عنهم التابعون لهم باحسان ، ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه ، وفسر بعضهم التعليم بتنبيه النفس لتصور المعانى ، وجوز الامام أن يراد به هنا جعل الشخص بحيث يعلم القرآن فالآية كقوله تعالى : (ولقد يسرنا القرآن للذكر) وهو بهذا المعنى مجاز كما لايخفى ، و ﴿ الرحمن ﴾ مبتدأ . والجملة بعده خبره كما هو الظاهر ، وإسناد

Marfat.com

تعليمه إلى اسم (الرحمن) للايذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة وأحكامها ، وتقديم المسند اليه إما للتأكيد أو للحصر ، وفيه من تعظيم شأن القرآن مافيه ، وقيل : (الرحمن) خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ خبره محذوف أى الله الرحمن ، أو الرحمن ربنا ومابعد مستأنف لتعديد نعمه عز وجل وهو خلاف الظاهر ، ثم أتبع سبحانه نعمة تعليم القرآن بخلق الانسان فقال تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ٣ ﴾ لأن أصل النعم عليه ، وإنما قدم ماقدم منها لأنه أعظمها ، وقيل : لأنه مشير إلى الغاية من خلق الانسان وهو كماله فى قوة العلم والغاية متقدمة على ذى الغاية ذهناً وإن كان الأمر بالعكس خارجا ، والمراد بالانسان الجنس وبخلقه إنشاؤه على ماهو عليه من القوى الظاهرة والباطنة ، ثم أتبع عز وجل ذلك بنعمة تعليم (البيان) فقال سبحانه: ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ٤ ﴾ لأن البيان هو الذى به يتمكن عادة من تعلم القرآن وتعليمه ، والمراد به المنطق الفصيح المعرب عما فى الضمير *

والمراد بتعليمه نحو مامر ، وفى الإرشاد أن قوله تعالى : (خلق الانسان) تعيين للمتعلم ، وقوله سبحانه : (علمه البيان) تبيين لكيفية التعليم ، والمراد بتعليم البيان تمكين الانسان من بيان نفسه ، ومن فهم بيان غيره إذ هو الذى يدور عليه تعليم القرآن . وقيل : بناءاً على تقدير المفعول المحذوف الملائكة المقربين إن تقديم تعليم القرآن لتقدمه وقوعا فهم قد علموه قبل خلق الانسان وربما يرمز اليه قوله تعالى : (انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون) وفى النظم الجليل عليه حسن زائد حيث أنه تعالى ذكر أموراً علوية وأموراً سفلية وكل علوى قابله بسفلى ويأتى هذا على تقدير المفعول جبريل عليه السلام أيضاً ؛ وقال الضحاك : (البيان) الخير والشر ، وقال ابن جريج : سبيل الهدى وسبيل الضلالة ، وقال يمان : الكتابة والكل كما ترى ، وجوز أن يراد به القرآن وقد سماه الله تعالى بياناً فى قوله سبحانه : (هذا بيان) وأعيد ليكون الكلام تفصيلا لإجمال علم القرآن وهذا فى غاية البعد . وقال قتادة : (الانسان) آدم . و (البيان) علم الدنيا والآخرة ، وقيل : (البيان) أسماء الاشياء كلها . وقيل : التكلم بلغات كثيرة ، وقيل : الاسم الاعظم الذى علم به كل شىء ، ونسب هذا إلى جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه *

وقال ابن كيسان : (الانسان) محمد صلى الله تعالى عليه وسلم . وعليه قيل : المراد بالبيان بيان المنزل . والكشف عن المراد به كما قال تعالى: (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم) أو الكلام الذى يشرح به المجمل والمبهم فى القرآن أو القرآن نفسه على ماسمعت آنفا ، أو نحو ذلك مما يناسبه عليه الصلاة والسلام ويليق به من المعانى السابقة ، ولعل ابن كيسان يقدر مفعول علم الانسان مراداً به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أيضا ، وهذه أقوال بين يديك ، والمتبادر من الآيات الكريمة لايخفى عليك ولا أظنك فى مرية من تبادر ماذكرناه فيها أولا . ثم إن كلا من الجملتين الاخيرتين خبر عن المبتدأ كجملة (علم القرآن) وكذا قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥ ﴾ والجار والمجرور فيه خبر بتقدير مضاف أى جرى (الشمس والقمر) كائن أو مستقر (بحسبان) أو الخبر محذوف والجار متعلق به أى يجريان بحسبان وهو مصدر كالغفران بمعنى الحساب - كما قال قتادة . وغيره - أى هما يجريان (بحسبان) مقدرى بروجهما ومنازلهما بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والاوقات ويعلم السنون والحساب ، وقال الضحاك . وأبو عبيدة : هو جمع حساب كشهاب وشهبان أى هما يجريان بحسابات شتى فى بروجهما ومنازلهما ، وقال مجاهد : الحسبان الفلك المستدير من حسبان الرحا وهو ماأحاط بها من أطرافها المستديرة ، وعليه فالباء للظرفية ، والجار والمجرور فى موضع

Marfat.com

الخبر من غير احتياج إلى ماتقدم ، والمراد كل من (الشمس والقمر) فى فلك ، والجمهور على الأول وجريان الشمس والقمر مما لاينبغى أن يشك فيه ٥

وفلاسفة العصر كانوا يزعمون أن الشمس لاتجرى أصلا ، وأن القمر يجرى على الأرض،والارض تجرى على الشمس ، وقد سمعنا أنهم عدلوا منذ أعوام عن ذلك ، فزعموا أن للشمس حركة على كوكب آخر وهذا يدل على أنهم لم يكن عندهم برهان على دعواهم الاولى كما كان يقوله من كان ينتصر لهم ، والظاهر أن حالهم اليوم بل وغداً مثل حالهم بالامس ، ونحن مع الظواهر حتى يقوم الدليل القطعى على خلافها وحينئذ نميل إلى التأويل وبابه واسع ، ومثل هذه الجملة قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ فان المعطوف على الخبر خبر ، والمراد ـ بالنجم ـ النبات الذى ينجم أى يظهر ويطلع من الارض ولاساق له ، وبالشجر النبات الذى له ساق، وهو المروى عن ابن عباس.وابن جبير . وأبى رزين ، والمراد بسجودهما انقيادهما له تعالى فيما يريد بهما طبعاً، شبه جريهما على مقتضى طبيعتيهما بانقياد الساجد لخالقه وتعظيمه له . ثم استعمل اسم المشبه به فى المشبه فهناك استعارة مصرحة تبعية ، وقال مجاهد .وقتادة . والحسن ـ النجم ـ نجم السماء وسجوده بالغروب ونحوه ، وسجود الشجر بالظل واستدارته عند مجاهد . والحسن ، وفى رواية أخرى عن مجاهد أن سجودهما عبارة عن انقيادهما لما يريد سبحانه بهما طبعاً ، والجمهور على تفسير النجم بما سمعت أولا قبل لأن اقترانه بالشجر يدل عليه ، وإن كان تقدم (الشمس والقمر) يتوهم منه أنه بمعناه المعروف ففيه تورية ظاهرة ، وإخلاء الجمل الثانية . والثالثة . والرابعة عن العاطف لورودها على نهج التعديد مع الاشارة إلى أن كلا مما تضمنته نعمة مستقلة تقتضى الشكر ، وقد قصروا فى أدائه ولو عطفت مع شدة اتصالها وتناسبها ربما توهم أن الكل نعمة واحدة ٥

وتوسيط العاطف بين الرابعة والخامسة رعاية لتناسبهما من حيث التقابل لما أن (الشمس والقمر) علويان (والنجم والشجر) سفليان ، ومن حيث أن كلا من حال العلويين وحال السفليين من باب الانقياد لأمر الله عز وجل وخلوهما عن الرابط اللفظى مع كونهما خبرين للتعويل على كمال قوة الارتباط المعنوى إذ لا يتوهم ذهاب الوهم إلى كون حال (الشمس والقمر) بتسخير غيره تعالى ، ولا إلى كون سجود النجم والشجر لسواه سبحانه فكأنه قيل :الشمس والقمر بحسبانه (والنجم والشجر يسجدان) له كذا قالوه ، وفى الكشف : تبينا لما ذكره صاحب الكشاف فى هذا المقام أخلى الجمل أى التى قبل الشمس والقمر بحسبان عن العاطف لأن الغرض تعديد النعم وتبكيت المنكر كما يقال : زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك مالم يفعل أحد بأحد فما تنكر من إحسانه كأنه لما عد نعمة حرك منه حتى يتأمل هل شكرها حق شكرها أم لا ، ثم يأخذ فى أخرى ولو جئ بالعاطف صارت كواحدة ولم يكن من التحريك فى شئ ، ولما قضى الوطر من التعديد المحرك والتبكيت بذكر ماهو أصل النعم على نمط رد الكلام على منهاجه الاصلى من تعداد النعم واحدة بعد أخرى على التناسب والتقارب بحرف النسق،وفيه تنبيه على أن النعم لاتحصى فليكتف بتعديد أجلها رتبة للغرض المذكور ٥

وجملة (الشمس والقمر بحسبان) ليست من أخبار المبتدا ، والزمخشرى إنما سأل عن وجه الربط ، وأجاب بأن الربط حاصل بالوصل المعنوى كأنه بعد مابكت ونبه أخذ يعد عليه أصول النعم ليثبت على ماطلب منه من الشكر ، وهذا كما تقول فى المثال السابق بعد قولك : فعل بك مالم يفعل أحد بأحد دانت له أقرانك وأطاعته إخوانك وبسط نواله فيمن تحت ملكته ولم يخرج أحد من حياطة عدله ونصفته ، فلا يشك ذو أرب أنها جمل

Marfat.com

منقطعة عن الأولى إعرابا متصلة بها اتصالا معنوياً أورثها قطعها لأنها سيقت لغرض وهذه لآخر ، وقريب من هذا الاتصال اتصال قوله تعالى : (إن الذين كفروا سواء عليهم) الآية بقوله تعالى : (الذين يؤمنون بالغيب) الآية انتهى *

وقد أبعد المغزى فيما أرى إلا أن ظاهر كلام الكشاف يقتضى كون قوله تعالى :(الشمس والقمر بحسبان) من الأخبار فتأمل ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا ﴾ أى خلقها مرفوعة ابتداءاً لأنها كانت مخفوضة ورفعها ، والظاهر أن المراد برفعها الرفع الصورى الحسى، ويجوز أن يكون المراد به مايشمل الصورى والمعنوى بطريق عموم المجاز أو الجمع بين الحقيقة والمجاز عند من يرى جوازه .ورفعها المعنوى الرتبى لأنها منشأ أحكامه تعالى وقضاياه ومنزل أوامره سبحانه ومحل ملائكته عز وجل،وقرأ أبو السمال (والسماء) بالرفع على الابتداء ، ولا إشكال فيه لأن الجملة عليه اسمية معطوفة على مثلها ،وإنما الاشكال فى النصب لأنه بفعل مضمر على شريطة التفسير أى ورفع السماء فتكون الجملة فعلية فان عطفت على جملة ـ النجم والشجر يسجدان ـ الكبرى لزم تخالف الجملتين المعطوفة والمعطوف عليها بالاسمية والفعلية وهو خلاف الاولى ، وإن عطفت على جملة (يسجدان) الصغرى لزم أن تكون خبراً ـ للنجم والشجر ـ مثلها ، وذلك لا يصح إذ لاعائد فيها اليهما ، وكذا يقال فى العطف على كبرى وصغرى (الشمس والقمر بحسبان)وأجاب أبو على باختيار الثانى ، وقال : لا يلزم فى المعطوف على الشئ ان يعتبر فيه حال ذلك الشئ ، وتلا باب قولهم متقلداً سيفاً ورمحاً،وبعضهم باختيار الأول ويحسن التخالف إذا تضمن نكتة،قال الطيبى: الظاهر أن يعطف على جملة (الشمس والقمر بحسبان) ليؤذن بأن الاصل أجرى الشمس والقمر، وأسجد النجم والشجر ،فعدل إلى معنى دوام التسخير والانقياد فى الجملتين الأوليين، ومعنى التوكيد فى الأخيرة والكلام فيما يتعلق بالرفع والنصب فيما إذا ولى العاطف جملة ذات وجهين مفصل فى كتب النحو ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ ﴾ أى شرع العدل وأمر به بأن وفر على كل مستعد مستحقه ، ووفى كل ذى حق حقه حتى انتظم أمر العالم واستقام كما قال عليه الصلاة والسلام : « بالعدل قامت السموات والأرض» أى بقيتا على أبلغ نظام وأتقن إحكام،وقال بعضهم:المراد بقاء من فيهما من الثقلين إذ لولا العدل أهلك أهل الأرض بعضهم بعضاً،وأما الملأ الأعلى فلا يقع بينهم مايحتاج للحكم والعدل ، فذكرهم المبالغة ،والذى أختاره أن المراد بالسموات والأرض العالم جميعه ولا شك أنه لولا العدل لم يكن العالم منتظما.ومنشأ ماذكره القائل ظن أن المراد بالعدل فى الحديث العدل فى الحكم لفصل الخصومات ونحوه وليس كما ظن بل المراد به عدل الله عزوجل وإعطاؤه سبحانه كل شئ خلقه . وتفسير الميزان بما ذكر هو المروى عن مجاهد . والطبرى . والاكثرين ، وهو مستعار للعدل استعارة تصريحية؛ وعن ابن عباس . والحسن. وقتادة . والضحاك أن المراد به مايعرف به مقادير الاشياء من الآلة المعروفة والمكيال المعروف ونحوهما ، فالمعنى خلقه موضوعا مخفوضاً على الارض حيث علق به أحكام عباده وقضاياهم المنزلة من السماء وماتعبدهم به من التسوية والتعديل فى أخذهم وإعطائهم ، والمشهور أنه بهذا المعنى مجاز أيضا من استعمال المقيد فى المطلق ، وقيل : هو حقيقة . فالواضع لم يضعه إلا لما يعرف به المقادير على أى هيئة ومن أى جنس كان ، والناس لما ألفوا المعروف لا يكاد يتبادر إلى أذهانهم من لفظ (الميزان) سواه ، وقيل : المراد به المعروف واللفظ فيه حقيقة ولا يسلم الوضع للعام ٥

Marfat.com

ورجح القولان الأخيران بأن مابعد أشد ملاءمة لهما وبين الوضع والرفع عليهما تقابل،وقد قرأ عبد الله ـ وخفض الميزان ـ والأول بأنه أتم فائدة فزن ذلك بميزان ذهنك ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ ﴾ أى لئلا تطغوا فيه أى حقه وشأنه بأن تعتدوا وتتجاوزوا ماينبغى فيه على أن (أن) ناصبة و(لا) نافية ولام العلة مقدرة متعلقة بقوله تعالى: (وضع الميزان) وجوز ابن عطية . والزمخشرى كون (أن) تفسيرية ، و(لا) ناهية ٭

واعترضه أبو حيان بأنه لم يتقدم جملة فيها معنى القول وهو شرط فى صحة جعل (أن) مفسرة ، وأجيب بأن وضع الميزان فيه ذلك لأنه بالوحى وإعلام الرسل عليهم السلام،وزعم بعضهم أن التفسير متعين لأنه لامعنى لوضع الميزان لئلا تطغوا فى الميزان إذ المناسب الموزون ونحوه ، وفيه مالا يخفى،وفى البحر قرأ إبراهيم (ووضع الميزان) بإسكان الضاد ، وخفض الميزان على أن (وضع) مصدر مضاف إلى مابعده ولم يبين هل (وضع) مرفوع أو منصوب ، فان كان مرفوعاً فالظاهر أنه مبتدأ (وأن لاتطغوا) بتقدير الجار فى موضع الخبر.وإن كان منصوبا فالظاهر أن عامله مقدر أى وفعل (وضع الميزان) أو ووضع وضع الميزان (أن لاتطغوا) الخ ، وقرأ عبدالله ـ لاتطغوا ـ بغير (أن) على إرادة القول أى قائلا ، أو نحوه لاقل ـ كما قيل ـ و(لا) ناهية بدليل الجزم ٭

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ قوموا وزنكم بالعدل ، وقال الراغب:هذا إشارة إلى مراعاة المعدلة فى جميع مايتحراه الانسان من الأفعال والاقوال،وعن مجاهد أن المعنى أقيموا لسان الميزان بالعدل إذا أردتم الاخذ والإعطاء ، وقال سفيان بن عيينة: الاقامة باليد ، والقسط بالقلب،والظاهر أن الجملة عطف على الجملة المنفية قبلها ولا يضر فى ذلك كونها إنشائية ، وتلك خبرية لأنها لتأويلها بالمفرد تجردت عن معنى الطلب ، وجعل بعضهم (لا) فى الاولى مطلقاً ناهية حرصاً على التوافق ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝ ﴾ أى لاتنقصوه فان من حقه أن يسوى لانه المقصود من وضعه وكرر لفظ (الميزان) بدون إضماره كما هو مقتضى الظاهر تشديداً للتوصية وتأكيداً للامر باستعماله والحث عليه،بل فى الجمل الثلاث تكرار ما معنى لذلك،وقرئ (ولاتخسروا) بفتح التاء وضم السين، وقرأ زيد بن على . وبلال بن أبى بردة بفتح التاء وكسر السين ٭

وحكى ابن جنى . وصاحب اللوامح عن بلال أنه قرأ بفتحهما ، وخرج ذلك الزمخشرى على أن الاصل ـ ولاتخسروا فى الميزان ـ فحذف الجار ،وأوصل الفعل بناءاً على أنه لم يجئ إلا لازماً ، وتعقبه أبو حيان بأن خسر قد جاء متعديا كقوله تعالى :(خسروا أنفسهم) (وخسر الدنيا والآخرة)فلا حاجة إلى دعوى الحذف والإيصال،وأجيب بأنه على تقدير أن يكون متعدياً هنا لابد من القول بالحذف والايصال لان المعنى على حذف المفعول به أى لاتخسروا أنفسكم فى الميزان أى لاتكونوا خاسريها يوم القيامة بسبب الميزان بأن لاتراعوا ماينبغى فيه ، والراغب جوز حمل الآية على القراءة المشهورة على نحو هذا فقال : إن قوله تعالى :(وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) يجوز أن يكون إشارة إلى تحرى العدالة فى الوزن وترك الحيف فيما يعاطاه فيه ، ويجوز أن يكون إشارة إلى تعاطى مالا يكون به فى القيامة خاسراً فيكون ممن قال سبحانه فيه : (من خفت موازينه) وكلا المعنيين متلازمان ، وقيل:المعنى على التعدى بتقدير مضاف أى موزون الميزان،أو جعل الميزان مجازاً عن الموزون فيه فتأمل ولاتغفل ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا ﴾ خلقها موضوعة مخفوضة عن السماء حسبما يشاهد ، وقال الراغب :الوضع هنا الايجاد والخلق وكأن مراده ماذكر ، وقيل: أى خفضها مدحوة على الماء ،

Marfat.com

والظاهر على تقدير اعتبار الدحو أنه لاحاجة إلى اعتبار أنه سبحانه خلقها كذلك بل لا يصح لانها لم تخلق مدحوة وإنما دحيت بعد على ماروى عن ابن عباس ، ثم إن كونها على الماء مبنى على مااشتهر أنه عز وجل خلق الماء قبلها وخلقها سبحانه من زبده ﴿ لِلْأَنَامِ ١٠ ﴾ قال ابن عباس . وقتادة . وابن زيد . والشعبي . ومجاهد على مافى مجمع البحرين : الحيوان كله ، وقال الحسن : الانس والجن ٥

وفى رواية أخرى عن ابن عباس هم بنو آدم فقط ولم أر هذا التخصيص لغيره رضى الله تعالى عنه ، ففى القاموس الانام الخلق أو الجن والانس ، أو جميع ماعلى وجه الارض ، ويحتمل أنه أراد أن المراد به هناذلك بناءاً على أن اللام للانتفاع وأنه محمول على الانتفاع التام وهو للانس أتم منه لغيرهم ، والاولى عندى ماحكى عنه أولا ، وقرأ أبو السمال (والارض) بالرفع ، وقوله تعالى : ﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ الخ استئناف مسوق لتقرير ماأفادته الجملة السابقة من كون الارض موضوعة لنفع الانام ، وقيل : حال مقدرة من الارض ، أو من ضميرها ، فالأحسن حينئذ أن يكون الحال هو الجار والمجرور ، و (فاكهة) رفع على الفاعلية والتنوين بمعونة المقام للتكثير أى فيها ضروب كثيرة مما يتفكه به ﴿ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ١١ ﴾ هى أوعية التمر أعنى الطلع على ماروى عن ابن عباس جمع ـ كم ـ بكسر الكاف وقد تضم ، وهذا فى ـ كم ـ الثمر ، وأما ـ كم ـ القميص فهو بالضم لاغير ، أو كل مايكم ويغطى من ليف وسعف وطلع فانه مما ينتفع به كالمكموم من الثمر والجمار مثلا ، واختاره من اختاره ، ومما ذكر يعلم فائدة التوصيف ﴿ وَٱلْحَبُّ ﴾ هو مايتغذى به كالحنطة والشعير ﴿ ذُو ٱلْعَصْفِ ﴾ قيل : هو ورق الزرع ، وقيده بعضهم باليابس ، وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه التبن ، وأخرج ابن جرير . وابن المنذر عن الضحاك أنه القشر الذى يكون على الحب ، وعن السدى . والفراء أنه بقل الزرع وهو أول ماينبت ، وأخرجه غير واحد عن الحبر أيضاً ، واختار جمع ماروى عنه أولا ، وفى توصيف الحب بماذكر تنبيه على أنه سبحانه كما أنعم عليهم بما يقوتهم من الحب أنعم عليهم بما يقوت بهائمهم من العصف ﴿ وَٱلرَّيْحَانُ ١٢ ﴾ هو كل مشموم طيب الريح من النبات على ماأخرجه ابن جرير عن ابن زيد ، وأخرج عن الحسن أنه قال : هو ريحانكم هذا أى الريحان المعروف ؛ وأخرج عن مجاهد أنه الرزق بل قال ابن عباس : كما أخرج هو أيضا عنه كل ريحان فى القرآن فهو رزق ، وزعم الطبرسى أنه قول الأكثر ، وعليه قول بعض الاعراب ، وقد قيل له : إلى أين أطلب من ريحان الله فانه أراد من رزقه عز وجل ، ووجه إطلاقه عليه أنه يرتاح له ، وظاهر كلام الكشاف أنه أطلق وأريد منه اللب ليطابق العصف ويوافق المراد منه فى قراءة حمزة . والكسائى . والاصمعى عن أبى عمرو (والريحان) بالجر عطفاً على (العصف) إذ يبعد عليها حمله على المشموم والقريب حمله على اللب فكأنه قيل : والحب ذو العصف الذى هو رزق دوابكم ، وذو اللب الذى هو رزق لكم ، وجوز أن يكون الريحان فى هذه القراءة عطفاً على فاكهة كما فى قراءة الرفع ، والجر للمجاورة وهو كما ترى ، والزمخشرى بعد أن فسر (الأكمام) بماذكرناه ثانيا فيها (والريحان) باللب قال : أراد سبحانه فيها مايتلذذ به من الفواكه ، والجامع بين التغذى والتلذذ ـ وهو ثمر النخل ـ ومايتغذى به ـ وهو الحب ـ وهو على مافى الكشف بيان لاظهار وجه الامتنان وأنه مستوعب لأقسام مايتناول فى حال الرفاهية لأنه إما للتلذذ الخالص وهو الفاكهة ، أوله وللتغذى أيضاً

Marfat.com

وهو ثمر النخل ، أو للتغذى وحده وهو الحب ، ولما كان الأخيران أدخل فى الامتنان شفع كلا بعلاوة فيها منة أيضاً ، وأنت تعلم أنه إذا كان المقصود من النخل ثمره المعروف فالعطف على أسلوب ملائكته وجبريل كما قيل به فى قوله تعالى : (فيها فاكهة ونخل ورمان) وإذا كان ما يعمه وسائر ما ينتفع به منه كالجمار والكفرى، فالعطف ليس على ذلك ، وجعل صاحب الكشف قول الزمخشرى بعد تفسير (الاكمام) بالمعنى الأعم وكله منتفع به كالكموم إشارة إلى هذا ، ثم قال : ولا ينافى جعله منه فى قوله تعالى : (فيها فاكهة) الخ نظراً إلى أن الجنة دار تخلص للتلذذ فالنظر هنالك إلى المقصود وهو الثمر فقط فتأمل ۞

وقرأ ابن عامر . وأبو حيوة . وابن أبى عبلة - والحب ذا العصف والريحان - بنصب الجميع ، وخرج على أنه بتقدير وخلق الحب الخ ، وقيل : يجوز تقدير أخص . وفيه دغدغة ، وجوزوا أن يكون الريحان بمعنى اللب حالة الرفع وحالة النصب على حذف مضاف . والأصل وذو أو وذا الريحان فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه و (الريحان) فيعلان من الروح . فأصله ريوحان قلبت الواو ياء لاجتماعها مع ياء ساكنة قبلها وأدغمت فى الياء فصار ريحان بالتشديد ثم حذفت الياء الثانية التى هى عين الكلمة فقيل : ريحان كما قيل: ميت وهين بسكون الياء ۞

وعن أبى على الفارسى أنه فعلان وأصله روحان بفتح الراء وسكون الواو قلبت واوه ياءً للتخفيف وللفرق بينه وبين الروحان بمعنى ماله روح ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣ ﴾ الخطاب للثقلين لانهما داخلان فى الأنام على ما اخترناه ، أو لأن الانام عبارة عنهما على ماروى عن الحسن، وسينطق بهما فى قوله تعالى: (سنفرغ لكم أيه الثقلان) وفى الاخبار كما ستعلمه إن شاء الله تعالى قريبا ما يؤيده ، وقد أبعد من ذهب إلى أنه خطاب للذكر والانثى من بنى آدم، وأبعد أكثر منه من قال : إنه خطاب على حد (ألقيا فى جهنم) وياشرطى أضربا عنقه ، يعنى أنه خطاب للواحد بصورة الاثنين والفاء لترتيب الإنكار ، والتوبيخ على مافصل من فنون النعماء وصنوف الآلاء الموجبة للايمان والشكر حتما ، والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية الكلية والتربية مع الاضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ ومعنى تكذيبهم بشىء من آلائه تعالى كفرهم به إما بانكار كونه منه عز وجل مع عدم الاعتراف بكونه نعمة فى نفسه كتعليم القرآن وما يستند اليه من النعم الدينية ، وإما بانكار كونه منه تعالى مع الاعتراف بكونه نعمة فى نفسه كالنعم الدنيوية الواصلة اليهم باسناده إلى غيره سبحانه استقلالا ، أو اشتراكا صريحا ، أو دلالة فان إشراكهم لآلهتهم به تعالى فى العبادة من دواعى إشراكهم لها به تعالى فيما يوجبها ، والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر شهادة منها بذلك فكفرهم بها تكذيب لا محالة أى فاذا كان الأمر كما فصل (فبأى) فرد من أفراد نعم مالككما ومربيكما بتلك النعم (تكذبان) مع أن كلا منها ناطق بالحق شاهد بالصدق ويندب أن يقول سامع هذه الآية: لا بشئ من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد، فقد أخرج البزار. وابن جرير. وابن المنذر. والدارقطنى فى الافراد . وابن مردويه . والخطيب فى تاريخه بسند صحيح عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما « أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قرأ سورة (الرحمن) على أصحابه فسكتوا فقال : مالى أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم ما أتيت على قول الله تعالى : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) إلا قالوا : لا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » ۞

وأخرج الترمذى وجماعة وصححه الحاكم عن جابر بن عبد الله نحوه، وقرئ (فبأى) بالتنوين فى جميع السورة

Marfat.com

كانه حذف منه المضاف إليه وأبدل منه (آلاء ربكما) بدل معرفة من نكرة ۞

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ من صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّار ١٤ ﴾ تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بمواجب شكر النعمة المتعلقة بذاتى كل واحد من الثقلين ، والمراد بالانسان آدم عند الجمهور . وقيل: الجنس وساغ ذلك لأن أباهم مخلوق مما ذكر، والصلصال الطين اليابس الذى له صلصلة ، وأصله - كما قال الراغب - تردد الصوت من الشئ اليابس. ومنه قيل: صل المسمار ، وقيل: هو المنتن من الطين من قولهم: صل اللحم: وكأن أصله صلال فقلبت إحدى اللامين صاداً ويبعد ذلك قوله سبحانه: (كالفخار) وهو الخذف أعنى ما أحرق من الطين حتى تحجر وسمى بذلك لصوته إذا نقر كأنه تصور بصورة من يكثر التفاخر ، وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصالا فلا تنافى بين الآية الناطقة بأحدهما وبين ما نطق بأحد الآخرين ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ ﴾ هو أبو الجن وهو إبليس قاله الحسن ، وقال مجاهد : هو أبو الجن وليس بإبليس ، وقيل: هو اسم جنس شامل للجن كلهم ﴿ من مَّارِجٍ ﴾ من لهب خالص لا دخان فيه - كما هو رواية عن ابن عباس - وقيل : هو اللهب المختلط بسواد النار ، أو بخضرة وصفرة وحمرة - كما روى عن مجاهد - من مرج الشئ إذا اضطرب واختلط ، و(من) لابتداء الغاية، وقوله تعالى: ﴿ مِّن نَّارٍ ١٥ ﴾ بيان لمارج والتنكير للمطابقة ولان التعريف لكنه عليه فكأنه قيل: خلق من نار خالصة ، أو مختلطة على التفسيرين، وجوز جعل (من) فيه ابتدائية فالتنكير لانه أريد نار مخصوصة متميزة من بين النيران لا هذه المعروفة ، وأيا ما كان فالمارج بالنسبة إلى الجان كالتراب بالنسبة إلى الانسان، وفى الآية رد على من يزعم أن الجن نفوس مجردة ۞ (فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦) ۞ مما أفاض عليكما فى تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم ۞ (رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ١٧) ۞ خبر مبتدأ محذوف أى هو رب الخ، أو الذى فعل ما ذكر من الافاعيل البديعة - رب مشرقى الشمس صيفاً وشتاءاً ومغربيها - كذلك على ما أخرجه جماعة عن ابن عباس، وروى عن مجاهد . وقتادة . وعكرمة أن (المشرقين) مشرقا الشتاء ومشرق الصيف، و(المغربين) مغرب الشتاء ومغرب الصيف بدون ذكر الشمس ، وقيل: المشرقان مشرقا الشمس والقمر ، والمغربان مغرباهما ۞

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن (المشرقين) مشرق الفجر ومشرق الشفق ، و(المغربين) مغرب الشمس ومغرب الشفق ، وحكى أبو حيان فى المغربين نحو هذا، وفى المشرقين أنهما مطلع الفجر ومطلع الشمس والمعول ما عليه الأكثرون من مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما ، ومن قضية ذلك أن يكون سبحانه رب ما بينهما من الموجودات ، وقيل : (رب) مبتدأ والخبر قوله تعالى : (مرج) الخ ، وليس بذاك ۞

وقرأ أبو حيوة . وابن أبى عبلة (رب) بالجر على أنه بدل من ربكما ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨ ﴾ مما فى ذلك من فوائد لا تحصى كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل فى وقته ۞ ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ أى أرسلهما وأجراهما من - مرجت - الدابة - فى المرعى - أرسلتها فيه ، والمعنى أرسل البحر الملح والبحر العذب ﴿ يَلْتَقِيَانِ ١٩ ﴾ أى يتجاوران وتتماس سطوحهما لا فصل بينهما فى مرأى العين، وقيل : أرسل بحرى فارس والروم يلتقيان فى المحيط لانهما خليجان ينشعبان منه، وروى هذا عن قتادة لكنه

Marfat.com

أورد عليه أنه لايوافق قوله تعالى: (مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج) والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، وعليه قيل : جملة (يلتقيان) حال مقدرة إن كان المراد - إرسالهما إلى المحيط، أو المعنى اتحادأصليهما إن كان المراد إرسالهما اليه ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ أى حاجز من قدرة الله تعالى،أو من أجرام الارض كما قال قتادة ﴿ لَّا يَبْغِيَانِ ٢٠ ﴾ أى لايبغى أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية بالكلية بناءاً على الوجه الأول فيما سبق ، أولايتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما بناءاً على الوجه الثانى ، وروى هذا عن قتادة أيضا، وفى معناه ماأخرجه عبد الرزاق . وابن المنذر عن الحسن (لايبغيان) عليكم فيغرقانكم،وقيل:المعنى لايطلبان حالا غير الحال التى خلقا عليها وسخرا لها ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١ ﴾ مما لكما فى ذلك من المنافع ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ ﴾ صغار الدر ﴿ وَالْمَرْجَانُ ٢٢ ﴾ كباره كما أخرج ذلك عبد بن حميد . وابن جرير عن على كرم الله تعالى وجهه .ومجاهد ، وأخرجه عبد عن الربيع.وجماعة منهم المذكوران.وابن المنذر . وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس ، وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: (اللؤلؤ)ماعظم منه (والمرجان)اللؤلؤ الصغار ، وأخرج هو . وعبد الرزاق . وعبد بن حميد عن قتادة نحوه ، وكذا أخرج ابن الانبارى فى الوقف والابتداء عن مجاهد ، وأظن أنه إن اعتبر فى اللؤلؤ معنى التلألؤ واللمعان وفى المرجان معنى المرج والاختلاط فالأوفق لذلك ما قيل : ثانياً فيهما ، وأخرج عبد الرزاق . والفريابى . وعبد بن حميد . وابن جرير . وابن المنذر . والطبرى عن ابن مسعود أنه قال : - المرجان - الخرز الأحمر أعنى البسذ وهو المشهور المتعارف ، و (اللؤلؤ) عليه شامل للكبار والصغار، ثم إن اللؤلؤ بناء غريب قيل : لايحفظ منه فى كلام العرب أكثر من خمسة هو ، والجؤجؤ الصدر وقرية بالبحرين ، والدؤدؤ آخر الشهر أو ليلة خمس وست وسبع وعشرين . أو ثمان وتسع وعشرين . أو ثلاث ليال من آخره،والبؤبؤ بالباء الموحدة الاصل . والسيد الظريف . ورأس المكحلة . وإنسان العين . ووسط الشئ،واليؤيؤ بالياء آخر الحروف طائر كالباشق ، ورأيت فى كتب اللغة على هذا البناء غيرها وهو الضؤضؤ الأضل للطائر . والنؤنؤ بالنون المكثر تقليب الحدقة . والعاجز الجبان،ومن ذلك شؤشؤ دعاء الحمار إلى الماء وزجر الغنم والحمار للمضى . أو هو دعاء للغنم لتأكل ، أو تشرب . وأما المرجان فقد ذكره صاحب القاموس فى مادة - مرج - ولم يذكر ما يفهم منه أنه معرب ،وقال أبو حيان فى البحر : هو اسم أعجمى معرب . وقال ابن دريد : لم أسمع فيه بفعل متصرف . وقرأ طلحة - اللؤلئ - بكسر اللام الأخيرة . وقرئ اللؤلى بقلب الهمزة المتطرفة ياءاً ساكنة بعد كسر ماقبلها وكل من ذلك لغة . وقرأ نافع . وأبو عمرو (يخرج) مبنياً للمفعول من الاخراج، وقرئ (يخرج) مبنياً للفاعل منه ونصب (اللؤلؤ والمرجان) أى يخرج الله تعالى.واستشكلت الآية على تفسير البحرين بالعذب والملح دون بحرى فارس والروم بأن المشاهد خروج (اللؤلؤ والمرجان) من أحدهما وهو الملح . فكيف قال سبحانه : (منهما)؟وأجيب بأنهما لما التقيا وصارا كالشىء الواحد جاز أن يقال:يخرجان منهما كما يقال يخرجان من البحر ولايخرجان من جميعه ولكن من بعضه ، وكما تقول خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله بل من دار واحدة من دوره ، وقد ينسب إلى الاثنين ماهو لاحدهما كما يسند إلى الجماعة ماصدر من واحد منهم . ومثله على مافى الانتصاف (على رجل من القريتين عظيم) وعلى مانقل عن الزجاج

Marfat.com

(سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نوراً) ، وقيل: إنهما لا يخرجان إلا من ملتقى العذب والملح ويرده المشاهدة وكأن من ذكره مع ماتقدم لم يذكره لكونه قولا آخر بل ذكره لتقوية الاتحاد فحينئذ تكون علاقة التجوز أقوى ه

وقال أبو على الفارسى : هذا من باب حذف المضاف والتقدير يخرج من أحدهما وجعل (من القريتين) من ذلك . وهو عندى تقدير معنى لا تقدير إعراب . وقال الرمانى: العذب منهما كاللقاح للملح فهو كما يقال الولد يخرج من الذكر والانثى أى بواسطتهما ، وقال ابن عباس، وعكرمة : تكون هذه الأشياء فى البحر بنزول المطر لأن الأصداف فى شهر نيسان تتلقى ماء المطر بأفواهها فتتكون منه ، ولذا تقل فى الجدب ، وجعل عليه ضمير (منهما) للبحرين باعتبار الجنس ولا يحتاج إليه بناءاً على ماأخرجه ابن جرير عنه أن المراد بالبحرين بحر السماء وبحر الأرض *

وأخرج هو. وابن المنذر عن ابن جبير نحوه إلا أن فى تكون المرجان بناءاً على تفسيره بالبسذ من ماء المطر كاللؤلؤ تردداً وإن قالوا: إنه يتكون فى نيسان ، وقال بعض الأئمة :ظاهر كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من كلام الناس، ومن علم أن اللؤلؤ لا يخرج من الماء العذب وهب أن الغواصين ماأخرجوه إلا من الملح ، ولكن لم قلتم أن الصدف لا يخرج بأمر الله تعالى من الماء العذب إلى الماء الملح فان خروجه محتمل تلذذاً بالملوحة كما تلتذ المتوحمة بها فى أوائل حملها حتى إذا خرج لم يمكنه العود ، وكيف يمكن الجزم بما قلتم وكثير من الأمور الأرضية الظاهرة خفيت عن التجار الذين قطعوا المفاوز وداروا البلاد فكيف لا يخفى أمر مافى قعر البحر عليهم، والله تعالى أعلم ﴿ومن غريب التفسير﴾ ماأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال :(مرج البحرين يلتقيان) على . وفاطمة رضى الله تعالى عنهما (بينهما برزخ لا يبغيان) النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما *

وأخرج عن إياس بن مالك (١) نحوه لكن لم يذكر فيه البرزخ ، وذكر الطبرسى من الأمامية فى تفسيره مجمع البيان الأول بعينه عن سلمان الفارسى . وسعيد بن جبير . وسفيان الثورى ، والذى أراه أن هذا إن صح ليس من التفسير فى شىء بل هو تأويل كتأويل المتصوفة لكثير من الآيات ، وكل من علىّ . وفاطمة رضى الله تعالى عنهما عندى أعظم من البحر المحيط علماً وفضلا ، وكذا كل من الحسنين رضى الله تعالى عنهما أبهى وأبهج من اللؤلؤ والمرجان بمراتب جاوزت حد الحسبان ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٣ ﴾ مما فى ذلك من الزينة والمنافع الجليلة فقد ذكر الاطباء أن (اللؤلؤ) يمنع الخفقان . والبحر . وضعف الكبد . والكلى . والحصى . وحرقة البول . والسدد . واليرقان . وأمراض القلب . والسموم . والوسواس . والجنون . والتوحش . والربو شرباً . والجذام . والبرص . والبهق . والآثار مطلقاً بالطلى إلى غير ذلك ، وأن المرجان أعنى البسذ يفرح ويزيل فساد الشهوة ولو تعليقاً . ونفث الدم . والطحال شرباً . والدمعة . والبياض . والسلاق . والجرب كحلا إلى غير ذلك مما هو مذكور فى كتبهم ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ ﴾ السفن جمع جارية وخصها سبحانه بأنها له وهو تعالى له ملك السموات والارض ومافيهن للاشارة إلى أن كونهم هم منشئيها لا يخرجها من ملكه عز وجل حيث كان تمام منفعتها إنما هو منه عز وجل ، وقرأ عبد الله . والحسن . وعبد الوارث عن أبى عمرو - الجوار -

(١) هكذا بالاصل ولعله انس بن مالك فدخله التصحيف *

Marfat.com

بإظهار الرفع على الراء لان المحذوف لما تناسوه أعطوا ماقبل الآخر حكمه كما فى قوله :

لها ثنايا أربع حسان وأربع فكلها (ثمان)

﴿ ٱلْمُنشَـَٔاتُ ﴾ أى المرفوعات الشرع ـ كما قال مجاهد ـ من أنشأه بمعنى رفعه ، وقيل: المرفوعات على الماء وليس بذاك ، وكذا ماقيل المصنوعات ، وقرأ الاعمش . وحمزة . وزيد بن على . وطلحة . وأبو بكر بخلاف عنه (المنشآت) بكسر الشين أى الرافعات الشرع ، أو اللاتى ينشئن الامواج بجريهن ، أو اللاتى ينشئن السير إقبالا وإدبار ، وفى الكل مجاز، وشدد الشين ابن أبى عبلة، وقرأ الحسن (المنشئات) وحد الصفة ودل على الجمع الموصوف كقوله تعالى : (أزواج مطهرة) وقلب الهمزة ألفا على حد قوله * إن السباع (لتهدا) فى مرابضها * يريد لتهدأ والتاء لتأنيث الصفة كتبت تاءاً على لفظها فى الاصل ﴿ فى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ٢٤ ﴾ كالجبال الشاهقة جمع علم وهو الجبل الطويل ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٥ ﴾ من خلق مواد السفن والارشاد إلى أخذها وكيفية تركيبها وإجرائها فى البحر بأسباب لايقدر على خلقها وجمعها وترتيبها غيره سبحانه وتعالى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا ﴾ أى على الارض التى وضعت للانام من الحيوانات والمركبات و(مَن) للتغليب ؛ أو للثقلين ﴿ فَانٍ ٢٦ ﴾ هالك ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أى ذاته عز وجل ، والمراد هو سبحانه وتعالى ، فالاضافة بيانية وحقيقة الوجه فى الشاهد الجارحة واستعماله فى الذات مجاز مرسل كاستعمال الأيدى فى الانفس ، وهو مجاز شائع ، وقيل : أصله الجهة واستعماله فى الذات من باب الكناية وتفسيره بالذات هنا مبنى على مذهب الخلف القائلين بالتأويل ، وتعيين المراد فى مثل ذلك دون مذهب السلف ، وقد قررناه لك غير مرة فتذكره وعض عليه بالنواجذ *

والظاهر أن الخطاب فى ـ ربك ـ للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وفيه تشريف عظيم له عليه الصلاة والسلام ، وقيل : هو للصالح له لعظم الأمر وفخامته ، وفى الآية عند المؤولين كلام كثير منه ماسمعت، ومنه ماقيل: الوجه بمعنى القصد ويراد به المقصود ، أى ويبقى مايقصد به ربك عز وجل من الأعمال ، وحمل كلام من فسره بالعمل الصالح على ذلك وفيه مافيه ، وأقرب منه ماقيل : وجهه تعالى الجهة التى أمرنا عز وجل بالتوجه إليها والتقرب بها اليه سبحانه ، ومرجع ذلك العمل الصالح أيضاً والله جل شأنه يبقيه للعبد إلى أن يجازيه عليه ولذا وصف بالبقاء ؛ أو لأنه بالقبول صار غير قابل للفناء لما أن الجزاء عليه قام مقامه وهو باق ، ولا يخفى أن كلا القولين غير مناسب للتعليم فى (كل من عليها) وقيل: وجهه سبحانه الجهة التى يليها الحق أى يتولاها بفضله ويفيضها على الشئ من عنده أى إن ذلك باق دون الشئ فى حد ذاته فانه فان فى كل وقت، وقيل: المراد بوجهه سبحانه وجهه الممكن وهى جهة حيثية ارتباطه وانتسابه إليه تعالى ، والاضافة لأدنى ملابسة فالممكن فى حد ذاته أى إذا اعتبر مستقلا غير مرتبط بعلته أعنى الوجود الحق كان معدوماً لان ظهوره إنما نشأ من العلة ولولاها لم يك شيئاً مذكوراً ، وقول العلامة البيضاوى: لو استقريت جهات الموجودات وتفحصت وجوهها وجدتها بأسرها فانية فى حد ذاتها إلا وجه الله تعالى أى الوجه الذى يلى جهته سبحانه محمول على ذلك عند بعض المحققين وإن كان قد فسر الوجه قبل بالذات ، وللعلماء فى تقرير كلامه اختلاف، فمنهم من يجعل قوله: لو استقريت الخ تتمة لتفسيره الأول،

Marfat.com

ومنهم من يجعله وجها آخر ، وهو على الأول أخذ بالحاصل ، وعلى الثانى قيل : يحتمل التطبيق على كل من مذاهب فى الممكنات الموجودة ، وذلك أنها إما موجودة حقيقة بمعنى أنها متصفة بالوجود اتصافاً حقيقياً بأن يكون الوجود زائداً عليها قائما بها ، وهو مذهب جمهور الحكماء. والمتكلمين، وإما موجودة مجازاً وليس لها اتصاف حقيقى بالوجود بأن يكون الوجود قائما بها بل إطلاق الموجود عليها كإطلاق الشمس على الماء ، وإليه ذهب المتألهون من الحكماء . والمحققون من الصوفية إلا أن ذوق المتألهين أن علاقة المجاز أن لها نسبة مخصوصة إلى حضرة الوجود الواجبي على وجوه مختلفة و أنحاء شتى، والطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق، فالوجود عندهم جزئى حقيقى قائم بذاته لا يتصور عروضه لشئ ولا قيامه به ومعنى كون الممكن موجوداً أنه مظهر له ومجلى ينجلى فيه نوره -فالله نور السموات والأرض- والممكنات بمنزلة المرايا المختلفة التى تنعكس اليها أشعة الشمس و ينصبغ كل منها بصبغ يناسبه، ومذاق المحققين من الصوفية أن علاقة المجاز أنها بمنزلة صفات قائمة بذات الواجب سبحانه إذ ليس فى الوجود على مذاقهم ذوات متعددة بعضها واجب وبعضها ممكن بل ذات واحدة لها صفات متكثرة وشئونات متعددة وتجليات متجددة (قل الله ثم ذرهم) والمشهور أنه لا فرق بين المذاقين ٥

ووجه التطبيق على الأول أن يقال : المراد من الوجه الذى يلى جهته تعالى هو الوجوب بالغير إذ الممكن -وإن كان موجوداً حقيقة عند الجمهور - لكن وجوده مستفاد من الواجب بالذات ، وجهة الاستفادة ليست هى الذات ولا شيئاً آخر من الجهات والوجوه كالامكان . والمعلولية. والجوهرية. والعرضية. والبساطة . والتركيب وسائر الأمور العامة لان كلا منها جهته الخسة، ومقتضى الفطرة الإمكانية البعيدة بمراحل عن الوجوب الذاتى المنافية له ، وإنما جهة الشرف القريبة المناسبة للوجوب الذاتى جهة الوجوب بالغير فهو وجه يلى جهة الواجب ويناسبه فى كونه وجوباً وإن كان بالغير ، ولذا يعقبه فيضان الوجود ، ولذا تسمعهم يقولون : الممكن مالم يجب لم يوجد ٥

ووجه التطبيق على الثانى أن يقال: الوجه الذى يلى جهته تعالى هو تلك النسبة المخصوصة المصححة لإطلاق لفظ الموجود عليها ولو مجازاً. فالمعنى (كل من عليها فان) معدوم لا يصح أن يطلق لفظ الموجود عليه ولو مجازاً إلا باعتبار الوجه الذى يلى جهته تعالى أى النسبة المخصوصة إلى حضرته تعالى ، هى كونه مظهراً له سبحانه ، ووجه التطبيق على الثالث أن يقال: المراد بالوجه الذى يلى جهته تعالى كونها شئونات واعتبارات له تعالى. فالمعنى (كل من عليها) معدوم من جميع الوجوه والاعتبارات إلا من الوجه الذى يلى جهته سبحانه والاعتبار الذى يحصل مقيساً إليه عز وجل، وهو كونه شأناً من شئونه واعتباراً من اعتباراته جل شأنه فتامل مستعيناً بالله عز وجل٥

﴿ ذُو الْجَلَٰلِ وَالْإِكْرَام ٢٧ ﴾ أى يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه ويثبتون له مايليق بشأنه تعالى شأنه فهذا راجع إلى ماله سبحانه من التعظيم فى قلوب من عرفه عز وجل أو الذى يقال فى شأنه : ما أجلك وما أكرمك أى هو سبحانه من يستحق أن يقال فى شأنه ذلك قيل أو لم يقل فهو راجع إلى ماله تعالى من الكمال فى نفسه باعتبار قصور الإدراك عن شأوه ، أو من عنده الجلال والاكرام للموحدين فهو راجع إلى الفعل أى يجل الموحدين ويكرمهم ، وفسر بعض المحققين (الجلال) بالاستغناء المطاق (والاكرام) بالفضل التام وهذا ظاهر ، ووجه الأول بأن الجلال العظمة وهى تقتضى ترفعه تعالى عن الموجودات ويستلزم أنه سبحانه غنى عنها ، ثم ألحق بالحقيقة ،ولذا قال الجوهرى :عظمة الشئ الاستغناء عن غيره وكل محتاج حقير ، وقال الكرمانى:

Marfat.com

إنه تعالى له صفات عدمية مثل (لاشريك له) وتسمى صفات الجلال لما أنها تؤدى بجل عن كذا جل عن كذا وصفات وجودية - كالحياة . والعلم - وتسمى صفات الإكرام ، وفيه تأمل ٭

والظاهر أن (ذو) صفة للوجه ، ويتضمن الوصف بما ذكر على ماذكره البعض الإشارة إلى أن فناء (من عليها) لايخل بشأنه عز وجل لأنه الغنى المطلق ، والاشارة إلى أنه تعالى بعد فنائهم يفيض على الثقلين من آثار كرمه مايفيض وذلك يوم القيامة ، ووصف الوجه بما وصف يبعد كونه عبارة عن العمل الصالح أو الجهة على ما سمعت آنفاً وكأن من يقول بذلك يقول :(ذو) خبر مبتدا محذوف هو ضمير راجع إلى الرب وهو فى الأصل صفة له ، ثم قطعت عن التبعية ، ويؤيده قراءة أبى . وعبد الله - ذى الجلال - بالياء على أنه صفة تابعة للرب ، وذكر الراغب أن هذا الوصف قد خص به عز وجل ولم يستعمل فى غيره ، فهو من أجل أوصافه سبحانه ، ويشهد له مارواه الترمذى عن أنس . والامام أحمد عن ربيعة بن عامر مرفوعاً « ألظوا بياذا الجلال والاكرام » أى الزموه واثبتوا عليه وأكثروا من قوله والتلفظ به فى دعائكم ، وروى الترمذى. وأبو داود . والنسائى عن أنس « أنه كان مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ورجل يصلى ثم دعا فقال: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والارض ذو الجلال والاكرام ياحى ياقيوم ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : لأصحابه أتدرون بما دعا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : والذى نفسى بيده لقد دعا الله باسمه الاعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى » ٭

﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٨ ﴾ مما يتضمنه ماذكر فان الفناء باب للبقاء ، والحياة الأبدية ، والإثابة بالنعمة السرمدية ، وقال الطيبى : المراد من الآية السابقة ملزوم معناها لأنها كناية عن مجئ وقت الجزاء وهو من أجل النعم ، ولذلك خص (الجلال والاكرام) بالذكر لأنهما يدلان على الإثابة والعقاب المراد منها تخويف العباد وتحذيرهم من ارتكاب ما يترتب عليه العقاب ، والتحذير من مثل ذلك نعمة ، فلذا رتب عليها بالفاء قوله تعالى: (فبأى آلاء)الخ ، وليس بذاك ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قاطبة مايحتاجون اليه فى ذواتهم حدوثاً وبقاءاً وفى سائر أحوالهم سؤالا مستمراً بلسان المقال أو بلسان الحال فانهم كافة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل من استحقاق الوجود وما يتفرع عليه من الكمالات بالمرة بحيث لو انقطع مابينهم وبين العناية الالهية من العلاقة لم يشموا رائحة الوجود أصلا فهم فى كل آن سائلون ٭

وأخرج عبد بن حميد . وابن المنذر عن أبى صالح (يسأله من فى السموات) الرحمة ، ومن فى - الأرض - المغفرة والرزق ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج (يسأله) الملائكة عليهم السلام الرزق لأهل الارض والمغفرة. وأهل الأرض يسألونهما جميعاً وماتقدم أولى . ولا دليل على التخصيص ٭

والظاهر أن الجملة استئناف . وقيل : هى حال من - الوجه - والعامل فيها (يبقى) أى هو سبحانه دائم فى هذه الحال ، ولايخفى حاله على ذى تمييز ﴿ كُلَّ يَوْمٍ ﴾ كل وقت من الاوقات ولحظة من اللحظات ٭

﴿ هُوَ فِى شَأْنٍ ٢٩ ﴾ من الشئون التى من جملتها إعطاء ماسألوا فانه تعالى لايزال ينشئ أشخاصاً ، ويفنى آخرين ويأتى بأحوال ويذهب بأحوال حسبما تقتضيه مشيئته عز وجل المبنية على الحكم البالغة ، وأخرج البخارى فى تاريخه . وابن ماجه . وابن حبان. وجماعة عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية :« من شأنه

Marfat.com

أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين » زاد البزار « ويجيب داعياً » ، وقيل : إن الله تعالى فى كل يوم ثلاث عساكر . عسكر من الاصلاب إلى الارحام . وعسكر من الارحام إلى الدنيا . وعسكر من الدنيا إلى القبور ، والظاهر أن المراد بيان كثرة شئونه تعالى فى الدنيا فكل يوم على معنى كل وقت من أوقات الدنيا *

وقال ابن عيينة : الدهر عند الله تعالى يومان، أحدهما اليوم الذى هو مدة الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهى والإماتة والاحياء . وثانيهما اليوم الذى هو يوم القيامة فشأنه سبحانه فيه الجزاء والحساب ، وعن مقاتل إن الآية نزلت فى اليهود قالوا : إن الله تعالى لا يقضى يوم السبت شيئاً فرد عز وجل عليهم بذلك ، وسأل عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن الجمع بين هذه الآية وما صح من أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة فقال : شئون يبديها لا شئون يبتديها ، وانتصب (كل يوم) على الظرف ، والعامل فيه هو العامل فى قوله تعالى: (فى شأن)، و(هو) ثابت المحذوف: فكأنه قيل هو ثابت فى شأن كل يوم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٠﴾ مما يسعف به سؤالكما وما يخرج لكما بيديه من مكمن العدم حيناً فحيناً ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ الفراغ فى اللغة يقتضى سابقة شغل * والفراغ للشئ يقتضى لاحقيته أيضاً ، والله سبحانه لا يشغله شأن عن شأن فجعل انتهاء الشئون المشار اليها بقوله تعالى :(كل يوم هو فى شأن) يوم القيامة إلى واحد هو جزاء المكلفين فراغاً لهم على سبيل التمثيل لأن من ترك أشغاله إلى شغل واحد يقال : فرغ له واليه فشبه حال هؤلاء - وأخذه تعالى فى جزائهم فحسب - بحال من فرغ له ، وجازت الاستعارة التصريحية التبعية فى (سنفرغ) بأن يكون المراد سنأخذ فى جزائكم فقط الاشتراك الاخذ فى الجزاء فقط ، والفراغ عن جميع المهام إلى واحد فى أن المعنى به ذلك الواحد ، وقيل :المراد التوفر فى الانتقام والنكاية ، وذلك أن الفراغ للشئ يستعمل فى التهديد كثيراً كأنه فرغ عن كل شئ لأجله فلم يبق له شغل غيره فيدل على التوفر المذكور ، وهو كناية فيمن يصح عليه ،ومجاز فى غيره كالذى نحن فيه ،ولعل مراد ابن عباس.والضحاك بقولهما - كما أخرج ابن جرير عنهما - هذا وعيد من الله تعالى لعباده ماذكر ، والخطاب عليه قيل : للمجرمين ، وتعقب بأن النداء الآتى يأباه ، نعم المقصود بالتهديد هم ، وقيل : لامانع من تهديد الجميع ، ثم إن هذا التهديد إنما هو بما يكون يوم القيامة ، وقول ابن عطية : يحتمل أن يكون ذلك توعداً بعذاب الدنيا مما لا يكاد يلتفت اليه ، وقيل : إن فرغ يكون بمعنى قصد ، واستدل عليه بما أنشده ابن الانبارى لجرير :

ألان وقد (فرغت) إلى نمير فهذا حين كنت لهم عذاباً

أى قصدت ، وأنشد النحاس ه فرغت إلى العبد المقيد فى الحجل * وفى الحديث « لأتفرغن لك ياخبيث» قاله صلى الله تعالى عليه وسلم مخاطباً به أزب العقبة يوم بيعتها أى لأقصدن إبطال أمرك ، ونقل هذا عن الخليل . والكسائى . والفراء ، والظاهر أنهم حملوا ما فى الآية على ذلك ، فالمراد حينئذ تعلق الارادة تعلقاً تنجيزيا بجزائهم ، وقرأ حمزة . والكسائى . وأبو حيوة . وزيد بن على - سيفرغ - بياء الغيبة ، وقرأ قتادة . والاعرج (سنفرغ) بنون العظمة . وفتح الراء مضارع فرغ بكسرها - وهو لغة تميم - كما أن (سنفرغ) فى قراءة الجمهور مضارع فرغ بفتحها لغة الحجاز ، وقرأ أبو السمال . وعيسى (سنفرغ) بكسر النون وفتح الراء وهى - على ماقال أبو حاتم - لغة سفلى مضر ، وقرأ الأعمش . وأبو حيوة بخلاف عنهما . وابن أبى عبلة . والزعفرانى

Marfat.com

- سيفرغ - بضم الياء وفتح الراء مبنياً للمفعول ؛ وقرأ عيسى أيضاً (سنفرغ) بفتح النون وكسر الراء ، والاعرج أيضاً - سيفرغ - بفتح الياء والراء وهى لغة ، وقرئ سأفرغ بهمزة المتكلم وحده، وقرأ أبى (سنفرغ) إليكم عداه بإلى فقيل: للحمل على القصد، أو لتضمينه معناه أى (سنفرغ) قاصدين إليكم ﴿ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ٣١ ﴾ هما الانس والجن من ثقل الدابة وهو مايحمل عليها جعلت الارض كالحمولة والانس والجن ثقلاها، وماسواهما على هذا كالعلاوة، وقال غير واحد: سميا بذلك لثقلهما على الارض ، أو لرزانة رأيهما وقدرهما وعظم شأنهما . ويقال لكل عظيم القدر مما يتنافس فيه : ثقل ، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم :«إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى» وقيل: سميا بذلك لأنهما مثقلان بالتكليف ، وعن الحسن لثقلهما بالذنوب ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٢ ﴾ التى من جملتها التنبيه على ماستلقونه يوم القيامة للتحذير عما يؤدى إلى سوء الحساب ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ هما الثقلان خوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير ولأن الجن مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقة فخوطبوا بما ينبىء عن ذلك لبيان أن قدرتهم لاتفى بما كلفوه وكأنه لما ذكر سبحانه أنه مجاز للعباد لامحالة عقب عز وجل ذلك ببيان أنهم لايقدرون على الخلاص من جزائه وعقابه إذا أراده فقال سبحانه : (يامعشر الجن والانس) ﴿ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ إن قدرتم ، وأصل الاستطاعة طلب طواعية الفعل وتأتيه *

﴿ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أن تخرجوا من جوانب السموات والارض هاربين من الله تعالى فارين من قضائه سبحانه ﴿ فَٱنفُذُواْ ﴾ فاخرجوا منها وخلصوا أنفسكم من عقابه عز وجل، والأمر للتعجيز ﴿ لَا تَنفُذُونَ ﴾ لاتقدرون على النفوذ ﴿ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ٣٣ ﴾ أى بقوة وقهر وأنتم عن ذلك بمعزل وألف ألف منزل، روى أن الملائكة عليهم السلام ينزلون يوم القيامة فيحيطون بجميع الخلائق فاذا رآهم الجن والانس هربوا فلا يأتون وجها إلا وجدوا الملائكة أحاطت به، وقيل: هذا أمر يكون فى الدنيا ، قال الضحاك : بينما الناس فى أسواقهم انفتحت السماء ونزلت الملائكة فتهرب الجن والانس فتحدق بهم الملائكة وذلك قبيل قيام الساعة، وقيل: المراد إن استطعتم الفرار من الموت ففروا، وقيل: المعنى إن قدرتم أن تنفذوا لتعلموا بما فى السموات والارض فانفذوا لتعلموا لكن (لاتنفذون) ولاتعلمون إلا ببينة وحجة نصبها الله تعالى فتعرجون عليها بأفكاركم ، وروى مايقاربه عن ابن عباس والأنسب بالمقام لايخفى *

وقرأ زيد بن على إن استطعتما رعاية للنوعين وإن كان تحت كل أفراد كثيرة والجمع لرعاية تلك الكثرة وقد جاء كل فى الفصيح نحو قوله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤ ﴾ أى من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة على العقوبة، وقيل : على الوجه الأخير فيما تقدم أى مما نصب سبحانه من المصاعد العقلية والمعارج النقلية فتنفذوا إلى مافوق السموات العلا ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ استئناف فى جواب سؤال مقدر عن الداعى للفرار أو عما يصيبهم أى يصب عليكما ﴿ شُوَاظٌ ﴾ هو اللهب الخالص كما روى عن ابن عباس ، وأنشد عليه أبو حيان قول حسان:

هجوتك فاختضعت لنا بذل بقافية تأجج (كالشواظ)

Marfat.com

وقيل : اللهب المختلط بالدخان، وقال مجاهد : اللهب الأحمر المنقطع، وقيل: اللهب الاخضر ،وقال الضحاك : الدخان الذى يخرج من اللهب ، وقيل : هو النار والدخان جميعاً ، وقرأ عيسى . وابن كثير . وشبل (شواظ) بكسر الشين ﴿ مِّن نَّار ﴾ متعلق - بيرسل - أو بمضمر هو صفة - لشواظ - و(من) ابتدائية أى كائن من نار والتنوين للتفخيم ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ هو الدخان الذى لالهب فيه كما قاله ابن عباس لنافع بن الازرق وأنشد له قول الأعشى ، أو النابغة الجعدى :

تضئ كضوء السراج السلي ط لم يجعل الله فيه (نحاسا)

وروى عنه أيضا ، وعن مجاهد أنه الصفر المعروف أى يصب على رءوسكما صفر مذاب ، والراغب فسره باللهب بلا دخان ثم قال : وذلك لشبهه فى اللون بالنحاس ، وقرأ ابن أبى إسحق . والنخعى . وابن كثير . وأبو عمرو (ونحاس) بالجر على أنه عطف على نار ، وقيل : على (شواظ) وجر للجوار فلا تغفل *

وقرأ الكلبي . وطلحة . ومجاهد بالجر أيضاً لكنهم كسروا النون وهو لغة فيه ، وقرأ ابن جبير - ونحس - كما تقول يوم نحس ، وقرأ عبد الرحمن بن أبى بكرة . وابن أبى إسحق أيضا - ونحس - مضارعا ، وماضيه حسه أى قتله أى ونقتل بالعذاب، وعن ابن أبى إسحق أيضا - ونحس - بالحركات الثلاث فى الحاء على التخيير . وحنظلة ابن عثمان - ونحس - بفتح النون وكسر السين ، والحسن . وإسمعيل - ونحس - بضمتين والكسر ؛ وهو جمع - نحاس - كلحاف ولحف، وقرأ زيد بن على - نرسل - بالنون - شواظا - بالنصب - ونحاسا - كذلك عطفاً على شواظا

﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥ ﴾ فلا تمتنعان وهذا عند الضحاك فى الدنيا أيضاً *

أخرج ابن أبى شيبة عنه أنه قال فى الآية: تخرج نار من قبل المغرب تحشر الناس حتى إنها لتحشر القردة والخنازير تبيت معهم حيث باتوا وتقيل حيث قالوا ، وقال فى البحر : المراد تعجيز الجن والانس أى أنتما بحال من يرسل عليه هذا فلا يقدر على الامتناع مما يرسل عليه ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٦ ﴾ فان التهديد لطف والتمييز بين المطيع والعاصى بالجزاء والانتقام من الكفار من عداد الآلاء ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ أى انصدعت يوم القيامة ، وحديث امتناع الخرق حديث خرافة ، ومثله مايقوله أهل الهيئة اليوم فى السماء على أن الانشقاق فيها على زعمهم أيضا متصور ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ أى كالوردة فى الحمرة ، والمراد بها النور المعروف قاله الزجاج . وقتادة ، وقال ابن عباس . وأبو صالح : كانت مثل لون الفرس الورد ، والظاهر أن مرادهما كانت حمراء *

وقال الفراء : أريد لون الفرس الورد يكون فى الربيع إلى الصفرة، وفى الشتاء إلى الحمرة، وفى اشتداد البرد إلى الغبرة فشبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل ، وروى هذا عن الكلبي أيضا، وقال أبو الجوزاء : (وردة) صفراء والمعول عليه إرادة الحمرة، ونصب (وردة) على أنه خبر - كان - ، وفى الكلام تشبيه بليغ، وقرأ عبيد بن عمير (وردة) بالرفع على أن - كان - تامة أى فحصلت سماء وردة فيكون من باب التجريد لانه بمعنى كانت منها ، أو فيها سماء وردة مع أن المقصود أنها نفسها كذلك فهو كقول قتادة بن مسلمة :

فلئن بقيت لأرحلن بغزوة نحو المغانم أو يموت كريم

حيث عنى بالكريم نفسه ،وقوله تعالى : ﴿ كَٱلدِّهَانِ ٣٧ ﴾ خبر ثان لكانت - أو نعت - لوردة - أو حال

Marfat.com

من اسم ـ كانت ـ على رأى من أجازه أى كدهن الزيت كما قال تعالى : (كالمهل) وهو دردى الزيت ، وهو إما جمع دهن كقرط وقراط ، أواسم لمايدهن به كالحزام والادام ، وعليه قوله فى وصف عينين كثيرتى التذارف:

كأنهما مزادتا متعجل فريان لماتدهنا (بدهان)

وهو الدهن أيضا إلا أنه أخص لأنه الدهن باعتبار إشرابه الشئ،ووجه الشبه الذوبان وهو فى السماء على ما قيل من حرارة جهنم وكذا الحمرة ، وقيل : اللمعان ، وقال الحسن:أى كالدهان المختلفة لانها تتلون ألوانا ؛ وقال ابن عباس:الدهان الأديم الاحمر ؛ ومنه قول الاعشى :

وأجرد من كرام الخيل طرف كأن على شواكله (دهانا)

وهو مفرد ،أوجمع ، واستدل للثانى بقوله :

تبعن(الدهان)الحمر كل عشية بموسم بدر أو بسوق عكاظ

وإذا شرطية جوابها مقدر أى كان ماكان مما لاتطيقه قوة البيان،أووجدت أمراً هائلا،أورأيت مايذهل الناظرين وهو الناصب لإذا ، ولهذا كان مفرعاً ومسبباً عما قبله لأن فى إرسال الشواظ ماهو سبب لحدوث أمر هائل ، أورؤيته فى ذلك الوقت ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٨ ﴾ فان الاخبار بنحو ماذكر مما يزجر عن الشر فهو لطف أىّ لطف ونعمة أىّ نعمة ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم إذ تنشق السماء حسبما ذكر ٭

﴿ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ٣٩ ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم وهذا فى موقف ، وما دل على السؤال من نحو قوله تعالى : (فوربك لنسألنهم أجمعين) فى موقف آخر قاله عكرمة.وقتادة،وموقف السؤال على ماقيل : عند الحساب ، وترك السؤال عند الخروج من القبور ، وقال ابن عباس:حيث ذكر السؤال فهو سؤال توبيخ وتقرير ، وحيث نفى فهو استخبار محض عن الذنب ، وقيل: المنفى هو السؤال عن الذنب نفسه والمثبت هو السؤال عن الباعث عليه ، وأنت تعلم أن فى الآيات مايدل على السؤال عن نفس الذنب ٭

وحكى الطبرسى عن الرضا رضى الله تعالى عنه أن من اعتقد الحق ثم أذنب ولم يتب عذب فى البرزخ ويخرج يوم القيامة وليس له ذنب يسأل عنه ، ولعمرى إن الرضا لم يقل ذلك ، وحمل الآية عليه مما لايلتفت إليه بعين الرضا كما لايخفى ، وضمير ذنبه للانس وهو متقدم رتبة لأنه نائب عن الفاعل ، وإفراده باعتبار اللفظ،وقيل: لما أن المراد فرد من الانس كأنه قيل: لايسأل عن ذنبه إنسى ولاجنى،وقرأ الحسن.وعمرو بن عبيد ـ ولاجأن ـ بالهمز فراراً من التقاء الساكنين وإن كان على حده ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٠ ﴾ يقال فيه نحو ماسمعت فى سابقه ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ ﴾ استئناف يجرى مجرى التعليل لانتفاء السؤال،و(المجرمون)قيل: من وضع الظاهر موضع الضمير للاشارة إلى أن المراد بعض من الانس وبعض من الجن وهم المجرمون فيكون ذلك كقوله تعالى : (لايسأل عن ذنوبهم المجرمون) ، و ـ سيماهم ـ على ماروى عن الحسن سواد الوجوه وزرقة العيون،وقيل : مايعلوهم من الكآبة والحزن ، وجوز أن تكون أموراً أخر ـ كالعمى . والبكم . والصمم ـ ٭

وقرأ حماد بن سليمان بسيمائهم ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى ﴾ جمع ناصية وهى مقدم الرأس ﴿ وَٱلْأَقْدَامِ ٤١ ﴾ جمع قدم وهى قدم الرجل المعروفة والباء للآلة مثلها فى أخذت بخطام الدابة ، والجار والمجرور نائب الفاعل،

Marfat.com

وقال أبوحيان: إن الباء للتعدية والفعل مضمن معنى مايعدى بها أى فيسحب بالنواصى الخ، وفيه بحث. وظاهر كلام غير واحد أن ـأل ـ عوض عن المضاف إليه الضمير أى بنواصيهم وأقدامهم، ونص عليه أبو حيان فقال: ـأل ـ فيهما عوض عن الضمير على مذهب الكوفيين، والضمير محذوف على مذهب البصريين أى بالنواصى والاقدام منهم، وأنت تعلم أن الخلاف بين أهل البلدين فيما إذا احتيج إلى الضمير المربط ولا احتياج إليه هنا، نعم المعنى على الضمير وكيفية هذا الأخذ على ماروى عن الضحاك أن يجمع الملك بين ناصية أحدهم وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره ثم يكسر ظهره ويلقيه فى النار، وقيل: تأخذ الملائكة عليهم السلام بعضهم سحباً بالناصية وبعضهم سحباً بالقدم، وقيل: تسحبهم الملائكة عليهم السلام تارة بأخذ النواصى وتارة بأخذ الأقدام، فالواو بمعنى أو التى للتقسيم وهو خلاف الظاهر، وإبهام الفاعل لانه كالمتعين، وقيل: للرمز إلى عظمته فقد أخرج ابن مردويه. والضياء المقدسى فى صفة النار عن أنس قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: «والذى نفسى بيده لقد خلقت ملائكة جهنم قبل أن تخلق جهنم بألف عام فهم كل يوم يزدادون قوة إلى قوتهم حتى يقبضوا على من قبضوا بالنواصى والاقدام» ﴿فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقال فيه نحو ما تقدم، وقوله تعالى:

﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ مقول قول مقدر معطوف على قوله تعالى: (يؤخذ) الخ أى ويقال هذه الخ. أو مستأنف فى جواب ماذا يقال لهم لأنه مظنة للتوبيخ والتقريع، أو حال من أصحاب النواصى بناءاً على أن التقدير نواصيهم أو النواصى منهم، ومافى البين اعتراض على الأول والاخير وكان أصل (التى يكذب بها المجرمون) التى كذبتم بها فعدل عنه لماذكر للدلالة على استمرار ذلك وبيان لوجه توبيخهم وعلته ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أى يترددون بين نارها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماء حار ﴿ءَانٍ ٤٤﴾ متناه إناه وطبخه بالغ فى الحرارة أقصاها، قال قتادة: الحميم يغلى منذ خلق الله تعالى جهنم والمجرم يعاقب بين تصلية النار وشرب الحميم، وقيل: يحرقون فى النار ويصب على رءوسهم الحميم، وقيل: إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم، وقيل: يغمسون فى واد فى جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فتنخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله تعالى لهم خلقا جديداً، وعن الحسن أنه قال: (حميم آن) النحاس انتهى حره، وقيل: (آن) حاضر ٭

وقرأ السلمى يطافون، والاعمش. وظلحة. وابن مقسم (يطوفون) بضم الياء وفتح الطاء وكسر الواو مشددة، وقرئ (يطوفون) أى يتطوفون ﴿فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٥﴾ هو أيضا كما تقدم ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ الخ شروع فى تعديد الآلاء التى تفاض فى الآخرة، و(مقام) مصدر ميمى بمعنى القيام مضاف إلى الفاعل أى (ولمن خاف) قيام ربه وكونه مهيمنا عليه مراقباً له حافظاً لأحواله، فالقيام هنا مثله فى قوله تعالى: (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) وهذا مروى عن مجاهد. وقتادة، أو هو اسم مكان، والمراد به مكان وقوف الخلق فى يوم القيامة للحساب، والاضافة اليه تعالى لامية اختصاصية لان الملك له عز وجل وحده فيه بحسب نفس الامر، والظاهر والخلق قائمون له كما قال سبحانه: (يقوم الناس لرب العالمين) منتظرون مايحل عليهم من قبله جل شأنه، وزعم بعضهم أن الاضافة على هذا الوجه لادنى ملابسة وليس بشىء، وقيل: المعنى (ولمن خاف) مقامه عند ربه على أن المقام مصدر أو اسم مكان وهو للخائف نفسه، وإضافته

Marfat.com

للرب لانه عنده تعالى فهى مثلها فى قولهم :شاة رقود الحلب ، وهى بمعنى ـ عند ـ عند الكوفيين أى رقود عند الحلب،وبمعنى اللام عند الجمهور كما صرح به شراح التسهيل وليست لأدنى ملابسة كما زعم أيضا ،ثم إن المراد بالعندية هنا مما لايخفى ، وجوز أن يكون مقحما على سبيل الكناية ، فالمراد ولمن خاف ربه لكن بطريق برهانى بليغ،ومثله قول الشماخ :

ذعرت به القطا ونفيت عنه (مقام الذئب) كالرجل اللعين(١)

وهو الاظهر على ماذكره صاحب الكشف ، والظاهر أن المراد ولكل فرد فرد من الخائفين:

﴿ جَنَّتَانِ ٤٦ ﴾ فقيل :إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه له ، والأخرى منزل أزواجه وخدمه ، واليه ذهب الجبائى ، وقيل : بستانان بستان داخل قصره وبستان خارجه ، وقيل : منزلان ينتقل من أحدهما إلى الآخر لتتوفر دواعى لذته وتظهر ثمار كرامته ، وأين هذا ممن يطوف بين النار ، وبين حميم آن ؟ ؟ ۞

وجوز أن يقال : جنة لعقيدته وجنة لعمله ،أوجنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصى ،أو جنة يثاب بها وأخرى يتفضل بها عليه،أو إحداهما روحانية والاخرى جسمانية،ولا يخفى أن الصفات الآتية ظاهرة فى الجسمانية ۞

وقال مقاتل : جنة عدن وجنة نعيم ، وقيل : المراد لكل خائفين منكما جنتان جنة للخائف الإنسى وجنة للخائف الجنى،فان الخطاب للفريقين،وهذا عندى خلاف الظاهر،وفى الآثار مايبعده،فقد أخرج البيهقى فى شعب الايمان عن الحسن أنه كان شاب على عهد رضى الله تعالى عنه ملازم للمسجد والعبادة فعشقته جارية فأتته فى خلوة فكلمته فحدثته نفسه بذلك فشهق شهقة فغشى عليه فجاء عم له فحمله إلى بيته فلما أفاق قال : ياعم انطلق إلى عمر فاقرئه منى السلام وقل له ماجزاء من خاف مقام ربه؟فانطلق فأخبر عمر وقد شهق الفتى شهقة أخرى فمات فوقف عليه عمر رضى الله تعالى عنه فقال : لك جنتان لك جنتان ۞

والخوف فى الاصل توقع مكروه عند أمارة مظنونة أو معلومة ويضاده الأمن قال الراغب : والخوف من الله تعالى لايراد به مايخطر بالبال من الرعب كاستشعار الخوف من الأسد بل إنما يراد به الكف عن المعاصى وتحرى الطاعات ، ولذلك قيل : لايعد خائفاً من لم يكن للذنوب تاركا ، ويؤيد هذا تفسير ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الخائف هنا كما أخرج ابن جرير عنه بمن ركب طاعة الله تعالى وترك معصيته ۞

وقول مجاهد : هو الرجل يريد الذنب فيذكر الله تعالى فيدع الذنب،والذى يظهر أن ذلك تفسير باللازم ، وقد يقال : إن ارتكاب الذنب قد يجامع الخوف من الله تعالى وذلك كما إذا غلبته نفسه ففعله خائفاً من عقابه تعالى عليه ، وأيد ذلك بما أخرجه أحمد . والنسائى. والطبرانى . والحكيم الترمذى فى نوادر الاصول .وابن أبى شيبة . وجماعة عن أبى الدرداء « أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قرأ هذه الآية (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقلت : وإن زنى وإن سرق يارسول الله ؟ فقال النبى عليه الصلاة والسلام : الثانية (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ فقال الثالثة : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقلت : وإن زنى وإن سرق؟قال : نعم وإن رغم أنف أبى الدرداء » وأخرج الطبرانى.وابن مردويه من طريق الجريرى عن أخيه قال : سمعت محمد بن سعد يقرأ ـ ولمن خاف مقام ربه جنتان وإن زنى وإن سرق ـ فقلت : ليس فيه وإن زنى وإن سرق

(١) ضمير (به)و(عنه)راجع الى الماء فى البيت قبله ۞ وماء قد وردت لوصل أروى ۞ عليه الطير كالورق اللجين ۞ وهو من قصيدة للشماخ مدح بها عرابة بن أوس الخزرجى . والشاهد فى قوله: (مقام الذئب) ●

Marfat.com

فقال : سمعت أبا الدرداء رضى الله تعالى عنه يقرؤها كذلك فأنا أقرؤها كذلك حتى أموت، وصرح بعضهم أن المراد بالخوف فى الآية أشده فتأمل . وجاء فى شأن هاتين الجنتين من حديث عياض بن غنم مرفوعاً « إن عرض كل واحدة منهما مسيرة مائة عام» والآية على ماروى عن ابن الزبير . وابن شوذب نزلت فى أبى بكر *

وأخرج ابن أبى حاتم . وأبو الشيخ فى العظمة عن عطاء أن أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ذكر ذات يوم وفكر فى القيامة . والموازين . والجنة . والنار . وصفوف الملائكة . وطى السموات . ونسف الجبال وتكوير الشمس.وانتثار الكواكب فقال: وددت أنى كنت خضراً من هذه الخضر تأتى على بهيمة فتأكلنى وأنى لم أخلق فنزلت (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٧ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ٤٨ ﴾ صفة لجنتان وما بينهما اعتراض وسط بينهما تنبيها على أن تكذيب كل من الموصوف والصفة موجب للانكار والتوبيخ ، وجوز أن يكون خبر مبتدأ مقدر أى هما ذواتا ، وأياً ما كان فهو تثنية - ذات - بمعنى صاحبة فانه إذا ثنى فيه لغتان ذاتا على لفظه وهو الأقيس كما يثنى مذكره ذوا ، والاخرى (ذواتا) برده إلى أصله فان التثنية ترد الأشياء إلى أصولها ، وقد قالوا: أصل ذات ذوات لكن حذفت الواو تخفيفاً ، وفرقا بين الواحد والجمع ودلت التثنية ورجوع الواو فيها على أصل الواحد وليس هو تثنية الجمع كما يتوهم وتفصيله فى باب التثنية من شرح التسهيل،والأفنان إما جمع فن بمعنى النوع ولذا استعمل فى العرف بمعنى العلم أى ذواتا أنواع من الاشجار والثمار ، وروى ذلك عن ابن عباس . وابن جبير . والضحاك ، وعليه قول الشاعر :

ومن كل (أفنان) اللذاذة والصبا لهوت به والعيش أخضر ناضر

وإما جمع فنن وهو مادق ولان من الأغصان كما قال ابن الجوزى ، وقد يفسر بالغصن ، وحمل على التسامح وتخصيصها بالذكر مع أنها ذواتا قصب وأوراق وثمار أيضا لانها هى التى تورق وتثمر . فمنها تمتد الظلال . ومنها تجنى الثمار ففى الوصف تذكير لهما فكأنه قيل : (ذواتا) ثمار وظلال لكن على سبيل الكناية وهى أخصر وأبلغ ، وتفسيره بالأغصان على أنه جمع فنن مروى عن ابن عباس أيضا ، وأخرجه ابن جرير عن مجاهد قال أبو حيان : وهو أولى لأن أفعالا فى فعل أكثر منه فى فعل بسكون العين كفن ، ويجمع هو على فنون *

﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٩ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ٥٠ ﴾ صفة أخرى لجنتان أو خبر ثان للمبتدا المقدر أى فى كل منهما عين تجرى بالماء الزلال تسمى إحدى العينين بالتسنيم ، والأخرى بالسلسبيل، وروى هذا عن الحسن، وقال عطية العوفى : (عينان) إحداهما من ماء غير آسن ، والاخرى من خمر لذة للشاربين ، وقيل : (عينان) من الماء (تجريان) حيث شاء صاحبهما من الاعالى والاسافل من جبل من مسك ، وعن ابن عباس (عينان) مثل الدنيا أضعافا مضاعفة (تجريان) بالزيادة والكرامة على أهل الجنة *

﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥١ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ٥٢ ﴾ صنفان معروف وغريب لم يعرفوه فى الدنيا ، أو رطب ويابس ولا يقصر يابسه عن رطبه فى الفضل والطيب ، وأخرج عبد بن حميد . وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : قال ابن عباس فى هذه الآية : ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحنظل ، ونقل هذا فى البحر عن ابن عباس أيضاً بزيادة إلا أنه حلو ، والجملة كالجملة التى قبلها *

﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٣ مُتَّكِـِٔينَ ﴾ حال من قوله تعالى : -ولمن خاف- وجمع رعاية للمعنى بعد الافراد

Marfat.com

رعاية للفظ ، وقيل : العامل محذوف أى يتنعمون متكئين ، وقيل : مفعول به بتقدير أعنى ، والاتكاء من صفات المتنعم الدالة على صحة الجسم وفراغ القلب ، والمعنى متكئين فى منازلهم ﴿ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ اسْتَبْرَقٍ ﴾ من ديباج ثخين قال ابن مسعود - كما رواه عنه جمع . وصححه الحاكم - أخبرتم بالبطائن فكيف بالظهائر ، وقيل : ظهائرها من سندس ، وعن ابن جبير من نور جامد ، وفى حديث من نور يتلألأ وهو إن صح وقف عنده * وأخرج ابن جرير . وغيره عن ابن عباس أنه قيل له : (بطائنها من إستبرق) فماذا الظواهر ؟ قال : ذلك مما قال الله تعالى : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وقال الحسن : البطائن هى الظهائر وروى عن قتادة ، وقال الفراء : قد تكون البطانة الظهارة والظهارة البطانة لان كلا منهما يكون وجهاً والعرب تقول: هذا ظهر السماء وهذا بطن السماء ، والحق أن البطائن هنا مقابل الظهائر على الوجه المعروف ، وقرأ أبو حيوة (فرش) بسكون الراء ، وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : قرأ عبد الله على (سرر . وفرش بطائنها من إستبرق) ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ ﴾ أى ما يجنى ويؤخذ من أشجارهما من الثمار ، فجنى اسم أو صفة مشبهة بمعنى المجنى ﴿ دَانٍ ٥٤ ﴾ قريب يناله القائم . والقاعد . والمضطجع ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولى الله تعالى إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء مضطجعاً ، وعن مجاهد ثمار الجنتين دانية إلى أفواه أربابها فيتناولونها متكئين فاذا اضطجعوا نزلت بإزاء أفواههم فيتناولونها مضطجعين لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك ، وقرأ عيسى (وجنى) بفتح الجيم وكسر النون كأنه أمال النون وإن كانت الألف قد حذفت فى اللفظ كما أمال أبو عمرو (حتى نرى الله جهرة) وقرئ (وجنى) بكسر الجيم وهو لغة فيه *

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٥ فِيهِنَّ ﴾ أى الجنان المدلول عليها بقوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فانه يلزم من أنه لكل خائف جنتان تعدد الجنان ، وكذا على تقدير أن يكون المراد لكل خائفين من الثقلين جنتان لاسيما وقد تقدم اعتبار الجمعية فى قوله تعالى : (متكئين) وقال الفراء : الضمير لجنتان ، والعرب توقع ضمير الجمع على المثنى ولا حاجة اليه بعد ما سمعت ، وقيل : الضمير للبيوت والقصور المفهومة من الجنتين أو للجنتين باعتبار ما فيهما مما ذكر ، وقيل : يعود على الفرش ، قال أبو حيان : وهذا قول حسن قريب المأخذ ، وتعقب بأن المناسب للفرش - على - ، وأجيب بأنه شبه تمكنهن على الفرش بتمكن المظروف فى الظرف وإيثاره للاشعار بأن أكثر حالهن الاستقرار عليها ، ويجوز أن يقال : الظرفية للاشارة إلى أن الفرش إذا جلس عليها ينزل مكان الجالس منها ويرتفع ما أحاط به حتى يكاد يغيب فيها كما يشاهد فى فرش الملوك المترفهين التى حشوها ريش النعام ونحوه ، وقيل : الضمير للآلاء المعدودة من - الجنتين . والعينين . والفاكهة والفرش . والجنى والمراد معهن ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أى نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ، أو يقصرن طرف الناظر اليهن عن التجاوز إلى غيرهن ، قال ابن رشيق فى قول امرىء القيس :

من (القاصرات الطرف) لو (دب محول من الذر فوق الانف منها لأثرا)

أراد بالقاصرات الطرف أنها منكسرة الجفن خافضة النظر غير متطلعة لما بعد ولا ناظرة لغير زوجها ، ويجوز أن يكون معناه أن طرف الناظر لا يتجاوزها كقول المتنبي :

Marfat.com

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقاً

انتهى فلاتغفل، والأكثرون على أول المعنيين اللذين ذكرناهما بل فى بعض الأخبار مايدل على أنه تفسير نبوى * أخرج ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال فى ذلك « لاينظرن إلا إلى أزواجهن » ومتى صح هذا ينبغى قصر الطرف عليه ، وفى بعض الآثار تقول الواحدة منهن لزوجها : وعزة ربى ماأرى فى الجنة أحسن منك فالحمد لله الذى جعلنى زوجك وجعلك زوجى ، و(الطرف) فى الأصل مصدر فلذلك وحد ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ٥٦ ﴾ قال ابن عباس: لم يفتضهن قبل أزواجهن إنس ولاجان ، وفيه إشارة إلى أن ضمير قبلهن للازواج ، ويدل عليه (قاصرات الطرف) وفى البحر هو عائد على من عاد عليه الضمير فى (متكئين) ، وأصل الطمث خروج الدم ولذلك يقال للحيض طمث ، ثم أطلق على جماع الابكار لما فيه من خروج الدم ، وقيل : ثم عمم لكل جماع ، وهو المروى هنا عن عكرمة ، وإلى الأول ذهب الكثير ، وقيل : إن التعبير به للاشارة إلى أنهن يوجدن أبكاراً كلما جومعن ، ونفى طمثهن عن الانس ظاهر ، وأما عن الجن فقال مجاهد . والحسن: قد تجامع الجن نساء البشر مع أزواجهن إذا لم يذكر الزوج اسم الله تعالى فنفى هنا جميع المجامعين وقيل: لاحاجة إلى ذلك إذ يكفى فى نفى الطمث عن الجن إمكانه منهم ، ولاشك فى إمكان جماع الجنى إنسية بدون أن يكون مع زوجها الغير الذاكر اسم الله تعالى ، ويدل على ذلك مارواه أبو عثمان سعيد بن داود الزبيدى قال: كتب قوم من أهل اليمن إلى مالك يسألونه عن نكاح الجن وقالوا : إن ههنا رجلا من الجن يزعم أنه يريد الحلال فقال ماأرى بذلك بأساً فى الدين ولكن أكره إذا وجدت امرأة حامل قيل: من زوجك ؟ قالت: من الجن فيكثر الفساد فى الاسلام، ثم إن دعوى أن الجن تجامع نساء البشر جماعاً حقيقياً مع أزواجهن إذا لم يذكروا اسم الله تعالى غير مسلمة عند جميع العلماء ، وقوله تعالى: (وشاركهم فى الأموال والأولاد) غير نص فى المراد كما لايخفى ، وقال ضمرة بن حبيب: الجن فى الجنة لهم قاصرات الطرف من الجن نوعهم ، فالمعنى لم يطمث الانسيات أحد من الانس ، ولا الجنيات أحد من الجن قبل أزواجهن ، وقد أخرج نحو هذا عنه ابن أبى حاتم ، وظاهره أن ماللجن لسن من الحور *

ونقل الطبرسى عنه أنهن من الحور وكذا الانسيات ، ولامانع من أن يخلق الله تعالى فى الجنة حوراً للانس يشاكلنهم يقال لهن لذلك إنسيات ، وحوراً للجن يشاكلنهم يقال لهن لذلك جنيات ، ويجوز أن تكون الحور كلهن نوعاً واحداً ويعطى الجنى منهن لكنه فى تلك النشأة غيره فى هذه النشأة ، ويقال: مايعطاه الانسى منهن لم يطمثها إنسى قبله ، ومايعطاه الجنى لم يطمثها جنى قبله وبهذا فسر البلخى الآية ، وقال الشعبى . والكلبى: تلك القاصرات الطرف من نساء الدنيا لم يمسسهن منذ أنشئن النشأة الآخرة خلق قبل ، والذى يعطاه الإنسى زوجته المؤمنة التى كانت له فى الدنيا ويعطى غيرها من نسائها المؤمنات أيضاً. وكذا الجنى يعطى زوجته المؤمنة التى كانت له فى الدنيا من الجن ويعطى غيرها من نساء الجن المؤمنات أيضاً ، ويبعد أن يعطى الجنى من نساء الدنيا الإنسانيات فى الآخرة * والذى يغلب على الظن أن الانسى يعطى من الانسيات والحور والجنى يعطى من الجنيات والحور ولا يعطى إنسى جنية ، ولاجنى إنسية ومايعطاه المؤمن إنسياً كان أو جنياً من الحور شئ يليق به وتشتهيه نفسه ، وحقيقة تلك النشأة وراء مايخطر بالبال ، واستدل بالآية على أن الجن يدخلون الجن ويجامعون فيها كالانس فهم باقون فيها منعمين كبقاء المعذبين منهم فى النار ، وهو مقتضى ظاهر ماذهب اليه أبو يوسف . ومحمد . وابن أبى ليلى .

Marfat.com

والاوزاعى . وعليه الأكثر-كما ذكره العينى فى شرح البخارى-من أنهم يثابون على الطاعة ويعاقبون على المعصية، ويدخلون الجنة فان ظاهره أنهم كالانس يوم القيامة،وعن الامام أبى حنيفة ثلاث روايات الاولى أنهم لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ثم يقال لهم كونوا ترابا كسائر الحيوانات ، الثانية أنهم من أهل الجنة ولا ثواب لهم أى زائد على دخولها،الثالثة التوقف قال الكردرى:وهو فى أكثر الروايات،وفى فتاوى أبى إسحق بن الصفار أن الامام يقول: لا يكونون فى الجنة ولا فى النار ولكن فى معلوم الله تعالى ٭

ونقل عن مالك وطائفة أنهم يكونون فى ربض الجنة ، وقيل : هم أصحاب الاعراف ، وعن الضحاك أنهم يلهمون التسبيح والذكر فيصيبون من لذته ما يصيبه بنو آدم من نعيم الجنة وعلى القول بدخولهم الجنة قيل: نراهم ولا يرونا عكس ما كانوا عليه فى الدنيا ، واليه ذهب الحرث المحاسبى، وفى اليواقيت الخواص منهم يرونا كما أن الخواص منا يرونهم فى الدنيا ،وعلى القول بأنهم يتنعمون فى الجنة قيل :إن تنعمهم بغير رؤيته عزوجل فانهم لا يرونه ، وكذا الملائكة عليهم السلام ما عدا جبريل عليه السلام فانه يراه سبحانه مرة ولا يرى بعدها على ما حكاه أبو إسحق إبراهيم بن الصفار فى فتاويه عن أبيه ،والاصح ما عليه الاكثر مما قدمناه وأنهم لا فرق بينهم وبين البشر فى الرؤية وتمامه فى محله ، وقرأ طلحة . وعيسى.وأصحاب عبد الله (يطمثهن) بضم الميم هنا وفيما بعد ، وقرأ أناس بضمه فى الاول وكسره فى الثانى . وناس بالعكس . وناس بالتخيير، والجحدرى بفتح الميم فيهما ، والجملة صفة ـ لقاصرات الطرف ـ لأن إضافتها لفظية أو حال منها لتخصيصها بالإضافة

﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٧ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ٥٨ ﴾ إما صفة لقاصرات الطرف،أو حال منها كالتى قبل أى مشبهات بالياقوت والمرجان ، وقول النحاس:إن الكاف فى موضع رفع على الابتداء ليس بشئ كما لا يخفى ، أخرج عبد الرزاق . وعبد بن حميد . وابن جرير عن قتادة أنه قال فى الآية فى صفاء الياقوت وبياض اللؤلؤ ، وعن الحسن نحوه ، وفى البحر عن قتادة فى صفاء الياقوت . وحمرة المرجان فحمل المرجان على ما هو المعروف ، وقيل : مشبهات بالياقوت فى حمرة الوجه وبالمرجان أى صغار الدر فى بياض البشرة وصفائها وتخصيص الصغار على ما فى الكشاف لأنه أنصع بياضاً من الكبار، وقيل : يحسن هنا إرادة الكبار كما قيل فى معناه لانه أوفق بقوله تعالى : (كأنهن بيض مكنون) فلا تغفل ٭

وأخرج أحمد . وابن حبان . والحاكم وصححه . والبيهقى فى البعث والنشور عن أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قوله تعالى : (كأنهن) الخ قال : ينظر إلى وجهها فى خدرها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها تضئ ما بين المشرق والمغرب وأنه يكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يوضح ساقها من وراء ذلك ٭

وأخرج عبد بن حميد . والطبرانى.والبيهقى فى البعث عن ابن مسعود قال :إن المرأة من الحور العين يرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم من تحت سبعين حلة كما يرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء ٭

﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٩ ﴾ وقوله تعالى :﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ٦٠ ﴾ استئناف مقرر لمضمون ماقبله أى ما جزاء الاحسان فى العمل إلا الإحسان فى الثواب ، وقيل:المراد ما جزاء التوحيد إلا الجنة وأيد بظواهر كثير من الآثار ،أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول . والبغوى فى تفسيره . والديلمى فى مسند الفروس . وابن النجار فى تاريخه عن أنس قال : «قرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

Marfat.com

(هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)فقال:وهل تدرون ماقال ربكم؟قالوا : الله ورسوله أعلم قال:يقول:هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة» وأخرج ابن النجار فى تاريخه عن على كرم الله تعالى وجهه مرفوعا بلفظ «قال الله عزوجل هل جزاء من أنعمت عليه» الخ ووراء ذلك أقوال تقرب من مائة قول،واختير العموم ويدخل التوحيد دخولا أولياً ، والصوفية أوردوا الآية فى باب الاحسان وفسروه بما فى الحديث «أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » قالوا : فهو اسم يجمع أبواب الحقائق ، وقرأ ابن أبى إسحق إلا الحسان يعنى بالحسان قاصرات الطرف اللاتى تقدم ذكرهن ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦١ ﴾ وقوله تعالى :

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ٦٢ ﴾ مبتدأ وخبر أى ومن دون تينك الجنتين فى المنزلة والقدر جنتان أخريان،قال ابن زيد والاكثرون الأوليان للسابقين وهاتان لاصحاب اليمين ، وقد أخرج ابن جرير. وابن أبى حاتم . وابن مردويه عن أبى موسى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله تعالى :(ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقوله سبحانه: (ومن دونهما جنتان) قال:جنتان من ذهب للمقربين وجنتان من ورق لأصحاب اليمين » وقال الحسن:الأوليان للسابقين والاخريان للتابعين،وروى موقوفا وصححه الحاكم عن أبى موسى،وزعم بعضهم أن الاوليين للخائفين والاخريين لذرياتهم الذين ألحقوا بهم ولم أجد له مستنداً من الآثار ، وحكى فى البحر عن ابن عباس أنه قال : (ومن دونهما) فى القرب للمنعمين والمؤخرتا الذكر أفضل من الأوليين ،وادعى أن الصفات الآتية أمدح من الصفات السابقة ووافقه من وافقه ، وسيأتى تمام الكلام فى ذلك إن شاء الله تعالى *

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٣ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ٦٤ ﴾ صفة لجنتان وسط بينها الاعتراض لما تقدم من التنبيه على أن تكذيب كل من الموصوف والصفة حقيق بالانكار والتوبيخ أو خبر مبتدا محذوف أى هما مدهامتان من الدهمة وهى فى الاصل على ماقال الراغب سواد الليل ويعبر بها عن سواد الفرس وقد يعبر بها عن الخضرة الكاملة اللون كما يعبر عنها بالخضرة إذا لم تكن كاملة وذلك لتقاربهما فى اللون،ويقال:ادهام ادهيماما فهو مدهام على وزن مفعال إذا اسود أو اشتدت خضرته ، وفسرها هنا ابن عباس.ومجاهد.وابن جبير. وعكرمة.وعطاء بن أبى رباح.وجماعة بخضراوان ، بل أخرج الطبرانى.وابن مردويه عن أبى أيوب رضى الله تعالى عنه قال:«سألت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن قوله تعالى : (مدهامتان) فقال عليه الصلاة والسلام: خضراوان» والمراد أنهما شديدتا الخضرة والخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد وذلك من الرى من الماء كما روى عن ابن عباس.وابن الزبير.وأبى صالح قيل : إن فى وصف هاتين الجنتين بما ذكر إشعاراً بأن الغالب عليهما النبات والرياحين المنبسطة على وجه الارض كما أن فى وصف السابقتين بذواتا أفنان إشعاراً بأن الغالب عليهما الاشجار فان الاشجار توصف بأنها ذوات أفنان والنبات يوصف بالخضرة الشديدة فالاقتصار فى كل منهما على أحد الأمرين مشعر بما ذكر وبنى على هذا كون هاتين الجنتين دون الاوليين فى المنزلة والقدر كيف لا والجنة الكثيرة الظلال والثمار أعلى وأغلى من الجنة القليلة الظلال والثمار ، ومن ذهب إلى تفضيل هاتين الجنتين مع اختصاص الوصف بالخضرة بالنبات وكذا كونه أغلب من وصف الأشجار به فكثيراً ماتسمع الناس يقولون إذا مدحوا بستاناً أشجاره خضر يانعة وهو أظهر فى مدحه بأنه ذو ثمار من ذى أفنان ، وهو يشعر أيضا بكثرة مائه والاعتناء بشأنه وبعده عن التصوح والهلاك *

Marfat.com

﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٥ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ٦٦ ﴾ فوارتان بالماء على ماهو الظاهر ، وفى البحر النضخ فوران الماء ، وفى الكشاف . وغيره النضخ أكثر من النضح بالحاء المهملة لانه مثل الرش وهو عند من فضل الجنتين الأوليين دون الجرى ، فالمدح به دون المدح به ، وعليه قول البراء بن عازب فيما أخرج ابن المنذر . وابن أبى حاتم العينان اللتان تجريان خير من النضاختين ، ومن ذهب إلى تفضيل هاتين يقول فى الفوران جرى مع زيادة حسن فان الماء إذا فار وارتفع وقع متناثر القطرات كحبات اللؤلؤ المتناثرة كما يشاهد فى الفوارات المعروفة ، أو يقول بما أخرجه ابن أبى شيبة . وابن أبى حاتم عن أنس (نضاختان) بالمسك والعنبر تنضخان على دور الجنة كما ينضخ المطر على دور أهل الدنيا ، أو بما أخرجه ابن أبى شيبة . وعبد بن حميد عن مجاهد (نضاختان) بالخير ، ولفظ ابن أبى شيبة بكل خير *

﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٧ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ٦٨ ﴾ عطف الأخيرين على الفاكهة عطف جبريل وميكال عليهما السلام على الملائكة بياناً لفضلهما ، وقيل: إنهما فى الدنيا لما لم يخلصا للتفكه فان النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء عدا جنساً آخر فعطفا على الفاكهة وإن كان كل ما فى الجنة للتفكه لأنه تلذذ خالص ، ومنه قال الامام أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه : إذا حلف لا يأكل فاكهة فأكل رمانا أو رطباً لم يحنث، وخالفه صاحباه ثم إن نخل الجنة ورمانها وراء مانعرفه *

أخرج ابن المبارك . وابن أبى شيبة . وهناد . وابن أبى الدنيا . وابن المنذر . والحاكم وصححه . وآخرون عن ابن عباس نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر وكرانيفها ذهب أحمر وسعفها كسوة أهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم وثمرها أمثال القلال أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد وليس له عجم وحكمه حكم المرفوع. وفى حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعاً أصوله فضة وجذوعه فضة وسعفه حلل وحمله الرطب الخ*

وأخرج ابن أبى حاتم . وابن عساكر عن أبى سعيد مرفوعاً قال عليه الصلاة والسلام: «نظرت إلى الجنة فاذا الرمانة من رمانها كمثل البعير المقتب» وهذا المدح بحسب الظاهر دون المدح فى قوله تعالى فى الجنتين السابقتين: (فيهما من كل فاكهة زوجان) ومن ذهب إلى تفضيلهما يقول إن التنوين فى فاكهة للتعميم بقرينة المقام نظير ما قيل فى قوله تعالى : (علمت نفس ماأحضرت) فيكون فى قوة فيها كل (فاكهة) ويزيد ما فى النظم الجليل على ماذكر بتضمنه الاشارة إلى مدح بعض أنواعها ، وقال الامام الرازى: إن (ما) هنا كقوله تعالى : (فيهما من كل فاكهة زوجان) وذلك لأن الفاكهة أنواع أرضية وشجرية كالبطيخ وغيره من الارضيات المزروعات والنخل وغيرها من الشجريات فقال تعالى: (مدهامتان) لأنواع الخضر التى فيها الفواكه الارضية، وفيها أيضاً الفواكه الشجرية وذكر سبحانه منها نوعين الرطب والرمان لانهما متقابلان أحدهما حلو والآخر فيه حامض، وأحدهما حار والآخر بارد ، وأحدهما فاكهة وغذاء والآخر فاكهة ، واحدهما من فواكه البلاد الحارة والآخر من فواكه البلاد الباردة ، وأحدهما أشجاره تكون فى غاية الطول والآخر ليس كذلك ، وأحدهما ما يؤكل منه بارز ومالا يؤكل كامن والآخر بالعكس فهما كالضدين ، والاشارة إلى الطرفين تتناول الاشارة إلى مابينهما كما فى قوله تعالى: (رب المشرقين ورب المغربين) انتهى، ولعل الأول أولى ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٩ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ ﴾ صفة أخرى لجنتان ، أو خبر بعد خبر للمبتدأ المحذوف كالجملة التى قبلها ،

Marfat.com

ويجوز أن تكون مستأنفة والكلام فى ضمير الجمع هنا كالكلام فيه فى قوله تعالى: (فيهن قاصرات الطرف) و(خيرات) قال أبو حيان: جمع خيرة وصف بنى على فعلة من الخير كما بنوا من الشر فقالوا شرة، وقال الزمخشرى: أصله (خيرات) بالتشديد فخفف كقوله عليه الصلاة والسلام: «هينون لينون» وليس جمع خير بمعنى أخير فانه لا يقال فيه خيرون ولا خيرات، ولعله لأن أصل اسم التفضيل أن لا يجمع خصوصاً إذا نكر، وقرأ بكر بن حبيب. وأبو عثمان النهدى. وابن مقسم (خيرات) بتشديد الياء وهو يؤيد أن أصله كذلك، وروى عن أبى عمرو (خيرات) بفتح الياء كأنه جمع خائرة جمع على فعلة ﴿حِسَانٌ ٧٠﴾ قيل: أى حسان الخلق والخلق ☆

وأخرج عبد الرزاق. وعبد بن حميد. وابن جرير عن قتادة أنه قال فى الآية: (خيرات) الأخلاق (حسان) الوجوه، وأخرج ذلك ابن جرير. والطبرانى. وابن مردويه عن أم سلمة مرفوعا *

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧١﴾ وقوله تعالى: ﴿حُورٌ﴾ بدل من (خيرات) وهو جمع حوراء وكذا جمع أحور، والمراد بيض كما أخرجه ابن المنذر. وغيره عن ابن عباس وروته أم سلمة أيضاً عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال ابن الأثير: الحوراء هى الشديدة بياض العين الشديدة سوادها، وفى القاموس الحور بالتحريك أن يشتد بياض بياض العين وسواد سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها ويبيض ما حواليها أو شدة بياضها وسوادها فى بياض الجسد، أو اسوداد العين كلها مثل الظباء ولا يكون فى بنى آدم بل يستعار لها، وإذا صح حديث أم سلمة لم يعدل فى القرآن عن تفسير رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ☆

﴿مَقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ ٧٢﴾ أى مخدرات يقال: امرأة قصيرة ومقصورة أى مخدرة ملازمة لبيتها لا تطوف فى الطرق، قال كثير عزة:

وأنت التى حببت كل قصيرة إلىّ ولم تشعر بذاك القصائر
عنيت (قصيرات الحجال) ولم أرد قصار الخطا شر النساء البحاتر

والنساء يمدحن بملازمتهن البيوت لدلالتها على صيانتهن كما قال قيس بن الاسلت:

وتكسل عن جاراتها فيزرنها وتغفل عن أبياتهن (فتعذر)

وهذا التفسير مأثور عن ابن عباس. والحسن. والضحاك وهو رواية عن مجاهد، وأخرج ابن أبى شيبة. وهناد بن السرى. وابن جرير عنه أنه قال: (مقصورات) قلوبهن وأبصارهن ونفوسهن على أزواجهن، والأول أظهر، و(فى الخيام) عليه متعلق بمقصورات، وعلى الثانى يحتمل ذلك، ويحتمل كونه صفة ثانية لحور فلا تغفل، والخيام جمع خيمة - وهى على ما فى البحر - بيت من خشب وثمام وسائر الحشيش، وإذا كان من شعر فهو بيت ولا يقال له خيمة. وقال غير واحد: هى كل بيت مستدير أو ثلاثة أعواد أو أربعة يلقى عليها الثمام ويستظل بها فى الحر أو كل بيت يبنى من عيدان الشجر وتجمع أيضاً على خيمات وخيم بفتح فسكون وخيم بالفتح وكعنب - والخيام هنا بيوت من لؤلؤ - أخرج ابن أبى شيبة وجماعة عن ابن عباس أنه قال: الخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة أربعة فراسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب، وأخرج جماعة عن أبى الدرداء أنه قال: الخيمة لؤلؤة واحدة لها سبعون بابا من در، وأخرج البخارى. ومسلم. والترمذى. وغيرهم عن أبى موسى الاشعرى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا فى كل زاوية منها للمؤمن

Marfat.com

أهل لايراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن،إلى ذلك من الاخبار ، وقوله سبحانه :(فيهن) الخ دون ماتقدم فى الجنتين السابقتين أعنى قوله عز وجل: (فيهن قاصرات الطرف)إلى قوله تعالى: (كأنهن الياقوت والمرجان) فى المدح عند من فضلهما على الأخيرتين قيل لما فى (مقصورات) على التفسير الثانى من الإشعار بالقسر فى القصر ،وأما على تفسيره الاول فكونه دونه ظاهر وإن لم يلاحظ كونها مخدرة فيما تقدم ، أو يجعل قوله تعالى: (كأنهن الياقوت والمرجان) كناية عنه لانهما مما يصان كما قيل ٭ جوهرة أحقاقها الخدور ٭

ومن ذهب إلى تفضيل الأخيرتين يقول : هذا أمدح لعموم (خيرات حسان) الصفات الحسنة خَلْقاً وخُلُقاً ويدخل فى ذلك قصر الطرف وغيره مما يدل عليه التشبيه بالياقوت والمرجان ، والمراد بالقاصر على التفسير الثانى لمقصورات القاصر الطبيعى بقرينة المقام فيكون فيه إشارة إلى تعذر ترك القصر منهن ، و (قاصرات الطرف) ربما يوهم أن القصر باختيارهن فمتى شئن قصرن ومتى لم يشأن لم يقصرن ٭

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٣﴾ وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ٧٤﴾ الكلام فيه كالكلام فى نظيره ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٥﴾ وقوله سبحانه : ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ قيل : بتقدير يتنعمون متكئين أو أعنى متكئين ، والضمير لاهل الجنتين المدلول عليهم بذكرهما ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ اسم جنس أو اسم جمع واحده رفرفة ، وعلى الوجهين يصح وصفه بقوله تعالى : ﴿خُضْرٍ﴾ وجعله بعضهم جمعاً لهذا الوصف ولايخفى أن أمر الوصفية لايتوقف على ذلك الجعل ، وفسره فى الآية علىّ كرم الله تعالى وجهه . وابن عباس . والضحاك بفضول المحابس وهى مايطرح على ظهر الفراش للنوم عليه ، وقال الجوهرى : الرفرف ثياب خضر تتخذ منها المحابس واشتقاقه من رف إذا ارتفع ، وقال الحسن ـ فيما أخرجه ابن المنذر وغيره عنه ـ هى البسط ٭ وأخرج عن عاصم الجحدرى أنها الوسائد، وروى ذلك عن الحسن أيضا. وابن كيسان. وقال الجبائى: الفرش المرتفعة، وقيل : ماتدلى من الأسرة من غالى الثياب ، وقال الراغب : ضرب من الثياب مشبهة بالرياض ، وأخرج ابن جرير . وجماعة عن سعيد بن جبير أنه قال : الرفرف رياض الجنة ، وأخرج عبد بن حميد نحوه عن ابن عباس وهو عليه ـ كما فى البحر ـ من رف النبت نعم وحسن ، ويقال الرفرف لكل ثوب عريض وللرقيق من ثياب الديباج ولاطراف الفسطاط والخباء الواقعة على الارض دون الاطناب والاوتاد ، وظاهر كلام بعضهم أنه قيل بهذا المعنى هنا وفيه شئ ﴿وَعَبْقَرِىٍّ﴾ هو منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه اسم بلد الجن فينسبون اليه كل عجيب غريب من الفرش وغيرها فمعناه الشئ العجيب النادر ، ومنه ماجاء فى عمر الفاروق رضى الله تعالى عنه فلم أرى عبقرياً يفرى فريه ،ولتناسى تلك النسبة قيل : إنه ليس بمنسوب بل هو مثل كرسى وبختى كما نقل عن قطرب ، والمراد الجنس ولذلك وصف بالجمع وهو قوله تعالى : ﴿حِسَانٍ ٧٦﴾ حملا على المعنى ، وقيل: هو اسم جمع أو جمع واحده عبقرية ، وفسره الأكثرون بعتاق الزرابى ، وعن أبى عبيدة هو ما كله وشى من البسط ٭

وروى غير واحد عن مجاهد أنه الديباج الغليظ ، وعن الحسن أنها بسط فيها صور وقد سمعت مانقل عنه فى الرفرف فلا تغفل عما يقتضيه العطف٭

وقرأ عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه .ونصر بن عاصم الجحدرى .ومالك بن دينار .وابن محيصن .

Marfat.com

وزهير الفرقبي .وغيرهم رفارف جمع لاينصرف (حضر)بسكون الضاد ، وعباقرى بكسر القاف وفتح الياء مشددة ، وعنهم أيضا ضم الضاد ، وعنهم أيضا فتح القاف قاله صاحب اللوامح ،ثم قال أما منع الصرف من عباقرى.فلمجاورته لرفارف يعنى للمشاكلة وإلافلاوجه لمنع الصرف،مع ياءى النسب إلافى ضرورة الشعر انتهى *

وقال ابن خالويه.قرأ ـ على رفارف خضر وعباقرى ـ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم،والجحدرى.وابن محيصن، وقد روى عمن ذكرنا ـ على رفارف خضر وعباقرى ـ بالصرف،وكذلك روى عن مالك بن دينار ، وقرأ أبو محمد . المروزى وكان نحويا ـ على رفارف خضار ـ بوزن فعال ، وقال صاحب الكامل :قرأ رفارف بالجمع ابن مصرف . وابن مقسم . وابن محيصن ، واختاره شبل . وأبو حيوة .والجحدرى.والزعفرانى وهو الاختيار لقوله تعالى: (خضر) ، وعباقرى بالجمع وبكسر القاف من غير تنوين ابن مقسم .وابن محيصن ، وروى عنهما التنوين * وقال ابن عطية:قرأ زهير القرقبي(١) رفارف بالجمع وترك الصرف،وأبو طعمة المدنى.وعاصم فيما روى عنه رفارف بالصرف . وعثمان رضى الله تعالى عنه كذلك ، وعباقرى بالجمع والصرف ، وعنه وعباقرى بفتح القاف والياء على أن اسم الموضع عباقر بفتح القاف ، والصحيح فيه عبقر ، وقال الزمخشرى : قرىء عباقرى كمدايني * وروى أبو حاتم عباقرى بفتح القاف ومنع الصرف وهذا لاوجه لصحته،وقال الزجاج:هذه القراءة لامخرج لها لان ماجاوز الثلاثة لايجمع بياء النسب فلو جمعت عبقرى قلت : عباقرة نحو مهلبي ومهالبة ولا تقول مهالبي * وقال ابن جنى:أما ترك صرف عباقرى فشاذ فى القياس ولا يستنكر شذوذه مع استعماله،وقال ابن هشام: كونه من النسبة إلى الجمع كمدايني باطل فان من قرأ بذلك قرأ رفارف خضر بقصد المجانسة ولو كان كما ذكر كان مفرداً ولا يصح منع صرفه كمدايني وقد صحت الرواية بمنعه الصرف عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهو من باب كرسى وكراسى وهو من صيغة منتهى الجموع لكنها خالفت القياس فى زيادة مابعد الألف على المعروف كما ذكره السهيلى،وقال صاحب الكشف :فتح القاف لاوجه له بوجه والمذكور فى المنتقى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الكسر *

وأمامنع الصرف فليس بمتعين ليرد بل وجهه أنه نصب على محل رفرف على حد يذهبن فى نجد وغوراً.وإضافته إلى (حسان) مثل إضافة حور إلى عين فى قراءة عكرمة كأنه قيل: عباقرى مفارش ، أونمارق حسان فهو من باب أخلاق ثياب لان أحد الوصفين قائم مقام الموصوف ، ولعل عبقر وعباقر مثل عرفة وعرفات انتهى، فأحط بجوانب الكلام ولا تغفل ، وقرأ ابن هرمز (خضر) بضم الضاد وهى لغة قليلة ومن ذلك قول طرفة:

أيها القينات فى مجلسنا جردوا منها وراداً (وشقر)

وقول الآخر: وماانتميت إلى خودولا (كشف) ولالئام غداة الروع أوزاع

فشقر جمع أشقر،وكشف جمع أكشف وهو من ينهزم فى الحرب،هذا والوصف بقوله تعالى.(متكئين على رفرف) الخ دون الوصف بقوله سبحانه:(متكئين على فرش بطائنها من استبرق) عند القائل بتفضيل الجنتين السابقتين لما فى هذا الوصف من الاشارة إلى أن الظهائر مما يعجز عنها الوصف * ومن ذهب إلى تفضيل الأخيرتين يقول : الرفرف مايطرح على ظهر الفراش وليست الفرش التى يطرح عليها الرفرف مذكورة فيجوز أن يكون ترك ذكرها للاشارة إلى عدم إحاطة الوصف بها ظهارة وبطانة وهو أبلغ من الأول،ولا يسلم أن تلك الفرش هى العبقرى ، أو يقول الرفرف الفرش المرتفعة وترك التعرض لسوى لونها وهو الخضرة التى ميل الطباع

(١) هكذا بقافين وقد مر بالفاء بعد الراء قاف،وفى البحر العرقبى بالعين المهملة تدبر

Marfat.com

اليها أشدوهى جامعة لأصول الألوان الثلاثة على ما بينه الإمام يشير إلى أنها مما لا تكاد تحيط بحقيقتها العبارات، وقد يقال غير ذلك فتأمل، وينبغى على القول بتفضيل الأخيرتين وكونهما لطائفة غير الطائفة المشار اليهم بمن خاف أن لا يفسر من خاف بمن له شدة الخوف بحيث يختص بأفضل المؤمنين وأجلهم، أو يقال إنهما مع الأوليين لمن خاف مقام ربه ويكون المعنى (ولمن خاف مقام ربه) أيضا (جنتان) صفتهما كيت وكيت من دون تينك الجنتين، وعليه قيل: (جنتان) عطف على (جنتان) قبله {ومن دونهما) فى موضع الحال، وذهب بعضهم إلى أن هاتين الجنتين سواء كانتا أفضل من الاوليين أم لا لمن خاف مقام ربه عز وجل فله يوم القيامة أربع جنان *

قال الطبرسى: والاخيرتان دون الأوليين أى أقرب إلى قصره ومجالسه ليتضاعف له السرور بالتنقل من جنة إلى جنة على ماهو معروف من طبع البشر من شهوة مثل ذلك وهو أبعد عن الملل الذى طبع عليه البشر، وأنت تعلم أن الآية تحتمل ذلك احتمالا ظاهراً لكن ماتقدم من حديث أبى موسى رضى الله تعالى عنه يأباه فاذا صح ولو موقوفا - إذ حكم مثله حكم المرفوع - لم يكن لنا العدول عما يقتضيه، وقد روى عنه أيضاً حديث مرفوع ذكره الجلال السيوطى فى الدر المنثور يشعر بأن الجنان الاربع هى جنان الفردوس *

وأخرج عنه أحمد. والبخارى. ومسلم. والترمذى. والنسائى. وابن ماجه. وغيرهم أنه قال: إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «جنان الفردوس أربع. جنتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما. وجنتان من فضة حليتهما وآنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» والظاهر على هذا أنه يشترك الألوف فى الجنة الواحدة من هذه الجنان، ومعنى قوله تعالى: (ولمن خاف) الخ عليه مما لا يخفى، ثم إن قاصرات الطرف إن كن من الانس فهن أجل قدراً وأحسن منظراً من الحور المقصورات فى الخيام بناءاً على أنهن النساء المخلوقات فى الجنة *

فقد جاء من حديث أم سلمة «قلت يارسول الله: أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة، قلت: يارسول الله وبم ذاك؟ قال: بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير بيض الوجوه خضر الثياب صفر الحلى مجامرهن الدر وأمشاطهن الذهب يقلن ألا نحن الخالدات فلا نموت أبداً ألا ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً طوبى لمن كنا له وكان لنا» إلى غيره من الأخبار ويكون هذا مؤيداً للقول بتفضيل الجنتين الاوليين على الاخيرتين ولعله إنما قدم سبحانه ذكر الاتكاء أولا على ذكر النساء لأنه عز وجل ذكر فى صدر الآية الخوف حيث قال سبحانه: (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فناسب التعجيل بذكر مايشعر بزواله إشعاراً ظاهراً وهو الاتكاء فانه من شأن الآمنين، وأخر سبحانه ذكره ثانياً عن ذكرهن لعدم مايستدعى التقديم وكونه مما يكون للرجل عادة بعد فراغ ذهنه عما يحتاجه المنزل من طعام وشراب وقينة تكون فيه، وإذا قلنا: إن الحور كالجوارى فى المنزل كان أمر التقديم والتأخير أوقع، وقال الامام فى ذلك: إن أهل الجنة ليس عليهم تعب وحركة فهم متنعمون دائما لكن الناس فى الدنيا على أقسام منهم من يجتمع مع أهله اجتماع مستوفز وعند قضاء وطره يغتسل وينتشر فى الارض للكسب، ومنهم من يكون متردداً فى طلب الكسب وعند تحصيله يرجع إلى أهله ويستريح عما لحقه من تعب قبل قضاء الوطر أو بعده فالله عز وجل قال فى أهل الجنة: (متكئون) قبل اجتماعهم بأهاليهم متكئون بعد الاجتماع ليعلم أنهم دائمون على السكون، ولا يخفى أن هذا على مافيه لا يحسم السؤال إذ لقائل

Marfat.com

أن يقول لم لم يعكس أمر التقديم والتأخير فى الموضعين مع أنه يتضمن الإشارة إلى ذلك أيضاً ، ثم ذكر فى ذلك وجهاً ثانياً وهو على مافيه مبنى على مالامستند له فيه من الآثار فتدبر ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٧ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ تنزيه وتقديس له تعالى فيه تقرير لما ذكر فى هذه السورة الكريمة من آلائه جل شأنه الفائضة على الانام ، ـ فتبارك ـ بمعنى تعالى لأنه يكون بمعناه وهو أنسب بالوصف الآتى، وقد ورد فى الاحاديث « تعالى اسمه » أى تعالى اسمه الجليل الذى من جملته ماصدرت به السورة من اسم (الرحمن) المنبئ عن إفاضة الآلاء المفصلة ، وارتفع مما لا يليق بشأنه من الامور التى من جملتها جحود نعمائه وتكذيبها ، وإذا كان حال اسمه تعالى بملابسة دلالته عليه سبحانه كذلك فما ظنك بذاته الاقدس الاعلى ؟ ؟ *

وقيل: الاسم بمعنى الصفة لأنها علامة على موصوفها، وقيل : هو مقحم كما فى قول من قال : ثم اسم السلام عليكما ، وقيل : هو بمعنى المسمى ، وزعم بعضهم إن الأنسب بما قصد من هذه السورة الكريمة وهو تعدد الآلاء والنعم تفسير (تبارك) بكثرت خيراته ثم إنه لا بعد فى إسناده بهذا المعنى لاسمه تعالى إذ به يستمطر فيغاث ويستنصر فيعان، وقوله سبحانه : ﴿ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ٧٨ ﴾ صفة للرب ووصف جل وعلا بذلك تكميلا لما ذكر من التنزيه والتقرير ، وقرأ ابن عامر . وأهل الشام ـ ذو ـ بالرفع على أنه وصف للاسم ووصفه بالجلال والاكرام بمعنى التكريم واضح *

هذا ﴿ ومن باب الاشارة ﴾ فى بعض الآيات (الرحمن علم القرآن) إشارة إلى ماأودعه سبحانه فى الأرواح الطيبة القدسية من العلوم الحقانية الاجمالية عند استوائه عز وجل على عرش الرحمانية (خلق الانسان) الكامل الجامع (علمه البيان) وهو تفصيل تلك العلوم الاجمالية (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) (الشمس والقمر بحسبان) يشير إلى شمس النبوة وقمر الولاية الدائرتين فى فلك وجود الانسان بحساب التجليات ومراتب الاستعدادات، و(النجم) القوى السفلية (والشجر) الاستعدادات العلوية (يسجدان) يتذللان بين يديه تعالى عند الرجوع إليه سبحانه (والسماء) سماء القوى الالهية القدسية (رفعها) فوق أرض البشرية (ووضع الميزان) القوة المميزة (أن لاتطغوا فى الميزان) لاتتجاوزوا عند أخذ الحظوظ السفلية وإعطاء الحقوق العلوية ؛

وجوز أن يكون (الميزان) الشريعة المطهرة فانها ميزان يعرف به الكامل من الناقص (والأرض) أرض البشرية (وضعها) بسطها وفرشها (للانام) للقوى الانسانية (فيها فاكهة) من فواكه معرفة الصفات الفعلية (والنخل ذات الأكمام) وهى الشجرة الانسانية التى هى المظهر الأعظم وذات أطوار كل طور مستور بطور آخر (والحب) هو حب الحب المبذور فى مزارع القلوب السليمة من الدغل (ذو العصف) أوراق المكاشفات (والريحان) ريحان المشاهدة (رب المشرقين ورب المغربين) رب مشرق شمس النبوة ومشرق قمر الولاية فى العالم الجسمانى ورب مغربهما فى العالم الروحانى (مرج البحرين) بحر سماء القوى العلوية وبحر أرض القوى السفلية (يلتقيان بينهما برزخ) حاجز القلب (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) أنواع أنوار الأسرار ونيران الأشواق (وله الجوار المنشآت) سفن الخواطر المسخرة فى بحر الانسان (كل من عليها فان) ماشم رائحة الوجود (ويبقى وجه ربك) الجهة التى تليه سبحانه وهى شئوناته عز وجل (ذو الجلال) أى الاستغناء التام عن جميع المظاهر (والاكرام) الفيض العام يفيض على القوابل حسبما استعدت له وسألته بلسان حالها، وإليه الاشارة بقوله تعالى: (يسأله من فى السموات

Marfat.com

والارض) الخ ، واستدل الشيخ الاكبر محي الدين قدس سره بقوله سبحانه:(كل يوم هوفى شأن) على شرف التلون ، وكذا استدل به على عدم بقاء الجوهر آنين ، وعلى هذا الطرز ماقيل فى الآيات بعد ، وذكر بعض أهل العلم أن قوله تعالى: (فبأى ءالاء ربكما تكذبان) قد ذكر إحدى وثلاثين مرة، ثمانية منها عقيب تعداد عجائب خلقه تعالى . وذكر المبدأ والمعاد ، وسبعة عقيب ذكر مايشعر بالنار وأهوالها على عدد أبواب جهنم ، وثمانية فى وصف الجنتين الاوليين ومثلها فى وصف الجنتين اللتين دونهما على عدد أبواب الجنة فكأنه أشير بذلك إلى أن من اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق كلتا الجنتين من الله تعالى ووقاه جهنم ذات الأبواب السبعة ؛ والله تعالى أعلم بإشارات كتابه وحقائق خطابه ودقائق كلامه التى لاتحيط بها الافهام وتبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام *

﴿ سورة الواقعة ﴾

﴿مكية﴾ كما أخرجه البيهقى فى الدلائل وغيره عن ابن عباس . وابن مردويه عن ابن الزبير ، واستثنى بعضهم قوله تعالى:(ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) كما حكاه فى الاتقان وكذا استثنى قوله سبحانه :(فلا أقسم بمواقع النجوم) إلى (تكذبون) لما أخرجه مسلم فى سبب نزوله وسيأتى إن شا الله تعالى ، وفى مجمع البيان حكاية استثناء قوله تعالى:(وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) عن ابن عباس . وقتادة وعدد آيها تسع وتسعون فى الحجازى والشامى ، وسبع وتسعون فى البصرى ، وست وتسعون فى الكوفى ، وتفصيل ذلك فيما أعد لمثله ، وهى وسورة الرحمن متواخية فى أن فى كل منهما وصف القيامة والجنة والنار ، وقال فى البحر : مناسبتها لما قبلها أنه تضمن العذاب للمجرمين والنعيم للمؤمنين ، وفاضل سبحانه بين جنتى بعض المؤمنين وجنتى بعض آخر منهم فانقسم المكلفون بذلك إلى كافر ومؤمن فاضل ومؤمن مفضول ؛ وعلى هذا جاء ابتداء هذه السورة من كونهم أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة وسابقين ، وقال بعض الأجلة انظر إلى اتصال قوله تعالى : (إذا وقعت الواقعة) بقوله سبحانه :(فاذا انشقت السماء) وأنه اقتصر فى الرحمن على ذكر انشقاق السماء ، وفى الواقعة على ذكر رج الارض فكأن السورتين لتلازمهما واتحادهما سورة واحدة فذكر فى كل شىء ، وقد عكس الترتيب فذكر فى أول هذه مافى آخر تلك وفى آخر هذه مافى أول تلك فافتتح فى سورة الرحمن بذكر القرآن ، ثم ذكر الشمس والقمر ، ثم ذكر النبات ، ثم خلق الانسان والجان ، ثم صفة يوم القيامة ، ثم صفة النار ، ثم صفة الجنة ، وهذه ابتداؤها بذكر القيامة ، ثم صفة الجنة ، ثم صفة النار ؛ ثم خلق الانسان ، ثم النبات ، ثم الماء ، ثم النار ، ثم ذكرت النجوم ولم تذكر فى الرحمن كما لم يذكر هنا الشمس والقمر ، ثم ذكر الميزان فكانت هذه كالمقابلة لتلك وكالمتضمنة لرد العجز على الصدر ، وجاء فى فضلها آثار *

أخرج أبو عبيد فى فضائله . وابن الضريس . والحرث بن أبى أسامة . وأبو يعلى . وابن مردويه . والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال : « سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول :من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا » . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس نحوه مرفوعا ، وأخرج ابن مردويه عن أنس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « سورة الواقعة سورة الغنى فاقرءوها وعلموها أولادكم » *

Marfat.com

وأخرج الديلمى عنه مرفوعا «علموا نساءكم سورة الواقعة فانها سورة الغنى» ٭

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ١ ﴾ أى إذا حدثت القيامة على أن (وقعت) بمعنى حدثت و(الواقعة) علم بالغلبة أو منقول للقيامة، وصرح ابن عباس بأنها من أسمائها وسميت بذلك للايذان بتحقق وقوعها لامحالة كأنها واقعة فى نفسها مع قطع النظر عن الوقوع الواقع فى حيز الشرط فليس الاسناد كما فى ـ جاءنى جاء ـ فانه لغو لدلالة كل فعل على فاعل له غير معين، وقال الضحاك: (الواقعة) الصيحة وهى النفخة فى الصور، وقيل: (الواقعة) صخرة بيت المقدس تقع يوم القيامة وليس بشئ، و(إذا) ظرف متضمن معنى الشرط على ما هو الظاهر، والعامل فيها عند أبى حيان الفعل بعدها فهى عنده فى موضع نصب ـ بوقعت ـ كسائر أسماء الشرط وليست مضافة إلى الجملة، والجمهور على إضافتها فقيل: هى هنا قد سلبت الظرفية ووقعت مفعولا به لاذكر محذوفا، وقيل: لم تسلب ذلك وهى منصوبة بليس، وصنيع الزمخشرى يشعر باختياره ٭

وقيل: بمحذوف وهو الجواب أى (إذا وقعت الواقعة) كان كيت وكيت، قال فى الكشف: هذا الوجه العربى الجزل فالنصب باضمار اذكر إنما كثر فى إذ، وبليس إنما يصح إذا جعلت لمجرد الظرفية وإلا لوجب الفاء فى ليس، وأبو حيان تعقب النصب بليس بأنه لايذهب اليه نحوى لأن ليس فى النفى كـ(ما) وهى لاتعمل، فكذا ليس فانها مسلوبة الدلالة على الحدث والزمان، والقول: بأنها فعل على سبيل المجاز، والعامل فى الظرف إنما هو مايقع فيه من الحدث فحيث لاحدث فيها لاعمل لها فيه، ثم ذكر نحو ماذكر صاحب الكشف من وجوب الفاء فى ليس إذا لم تجرد عن الشرطية؛ واعترض دعواه أن (ما) لاتعمل بأنهم صرحوا بجواز تعلق الظرف بها لتأويلها بانتفى وأنه يكفى له رائحة الفعل، ويقاس عليها فى ذلك ليس، وكذا دعوى وجوب الفاء فى ليس إذا لم تجرد (إذا) عن الشرطية بأن لزوم الفاء مع الافعال الجامدة إنما هو فى جواب إن الشرطية لعملها كما صرحوا به. وأما (إذا) فدخول الفاء فى جوابها على خلاف الأصل. وسيأتى إن شاء الله تعالى فيها قولان آخران، وبعد القيل والقال الأولى كون العامل محذوفا وهو الجواب كما سمعت. وفى إبهامه تهويل وتفخيم لأمر الواقعة ٭

وقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ٢ ﴾ إما اعتراض يؤكد تحقيق الوقوع. أو حال من الواقعة كما قال ابن عطية، و(كاذبة) اسم فاعل وقع صفة لموصوف محذوف أى نفس، وقيل: مقالة والأول أولى لأن وصف الشخص بالكذب أكثر من وصف الخبر به. و(الواقعة) السقطة القوية وشاعت فى وقوع الأمر العظيم وقد تخص بالحرب ولذا عبر بها هنا واللام للتوقيت مثلها فى قولك: كتبته لخمس خلون أى لايكون حين وقوعها نفس كاذبة على معنى تكذب على الله تعالى وتكذب فى تكذيبه سبحانه وتعالى فى خبره بها، وإيضاحه أن منكر الساعة الآن مكذب له تعالى فى أنها تقع وهو كاذب فى تكذيبه سبحانه لانه خبر على خلاف الواقع وحين تقع لايبقى كاذباً مكذباً، بل صادقاً مصدقاً، وقيل: على معنى ليس فى وقت وقوعها نفس كاذبة فى شئ من الأشياء، ولايخفى أن صحته مبنية على القول بأنه لايكذب من أحد كذب يوم القيامة؛ وأن قولهم: (والله ربنا ما كنا مشركين) مجاب عنه بماهو مذكور فى محله واللام على حقيقتها، و(كاذبة) صفة لذلك المحذوف أيضاً أى (ليس لوقعتها) نفس كاذبة بمعنى لاينكر وقوعها أحد ولا يقول للساعة لم تكونى لان الكون قد تحقق بما ترك لها فى الدنيا بلسان القول أو الفعل لان من اغتر بزخارف الدنيا فقد كذب الساعة فى وقعتها

Marfat.com

باسان الحال لن تـكونى، وهذا كماتقول لمخاطبك ليس لنا ملك ولمعروفك كاذب أى لا يكـذبك أحد فيقول.إنه غير واقع ، وفيه استعارة تمثيلية لان الساعة لاتصلح مخاطباً إلا على ذلك إما على سبيل التخييل من باب لوقيل: للشحم أين تذهب ، وهو الاظهر وإما على التحقيق ، وجوز كون (كاذبة) من قولهم كذبت نفسه وكـذبته إذا منته الأمانى وقربت له الامور البعيدة وشجعته على مباشرة الخطب العظيم ، واللام قيل : على حقيقتها أيضا أى ليس لها إذا وقعت نفس تحدث صاحبها باطاقة شدتها واحتمالها وتغريه عليها ٭

وفى الـكشف إن اللام على هذا الوجه للتوقيت كما على الوجه الاول ، وجوز أيضا كون (كاذبة) مصدراً بمعنى التكذيب وهو التثبيط وأمر اللام ظاهر أى ليس لوقعتها ارتداد ورجعة كالحملة الصادقة من ذى سطوة قاهرة ؛ وروى نحوه عن الحسن . وقتادة ، وذكر أن حقيقة التكذيب بهذا المعنى راجعة إلى تكذيب النفس كذبها وإغرائها وتشجيعها وأنشد على ذلك لزهير :

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا ماالليث (كذب عن أقرانه) صدقا

ويجوز جعل الـكاذبة بمعنى الـكـذب على معنى ليس للوقعة كـذب بل هى وقعة صادقة لاتطاق على نحو ـ حملة صادقة ،وحملة لها صادق ـ أو على معنى ليس هى فى وقت وقوعها كذب لانه حق لاشبهة فيه ،ولعل ماذكر أظهر مماتقدم وإن روى نحوه عمن سمعت. نعم قيل:عليهما إن مجئ المصدر على زنة الفاعل نادر ،وقوله عز وجل : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ٣ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هى خافضة لأقوام رافعة لآخرين كما قال ابن عباس ، وأخرجه عنه جماعة ، والجملة تقرير لعظمتها وتهويل لامرها فان الوقائع العظام شأنها الخفض والرفع كما يشاهد فى تبدل الدول وظهور الفتن من ذل الأعزة وعز الأذلة ، وتقديم الخفض على الرفع لتشديد التهويل،أو بيان لمايكون يومئذ من حط الاشقياء إلى الدركات ورفع السعداء إلى درجات الجنات ، وعلى هذا قول عمر رضى الله تعالى عنه: خفضت أعداء الله تعالى إلى النار ورفعت أولياءه إلى الجنة ، أو بيان لمايكون من ذلك ومن إزالة الأجرام عن مقارها ونثر الكواكب وتسيير الجبال فى الجو كالسحاب،والضحاك بعد أن فسر الواقعة بالصيحة قال : خافضة تخفض قوتها لتسمع الأدنى (رافعة) ترفعها لتسمع الأقصى ، وروى ذلك أيضاً عن ابن عباس . وعكرمة،وقدر أبو على المبتدأ مقروناً بالفاء أى فهى (خافضة) وجعل الجملة جواب إذا فكأنه قيل:(إذاوقعت الواقعة) خفضت قوماً ورفعت آخرين ، وقرأ زيد بن على . والحسن . وعيسى . وأبو حيوة . وابن أبى عبلة. وابن مقسم.والزعفرانى . واليزيدى فى اختياره (خافضة رافعة) بنصبهما،ووجهه أن يجعلا حالين عن الواقعة على أن (ليس لوقعتها كاذبة) اعتراض أوحالين عن وقعتها ، وقوله سبحانه : ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجّاً ٤ ﴾ أى زلزلت وحركت تحريكا شديداً بحيث ينهدم مافوقها من بناء وجبل متعلق ـ بخافضة ـ أو ـ برافعة.. على أنه من باب الأعمال ، أو بدل من (إذا وقعت) كما قال به غير واحد ، وقال ابن جنى . وأبو الفضل الرازى : (إذا رجت) فى موضع رفع على أنه خبر للمبتدا الذى هو (إذا وقعت) وليست واحدة منهما شرطية بل هى بمعنى وقت أى وقت وقوعها وقت رج الأرض ، وادعى ابن مالك أن (إذا) تكون مبتدأ ، واستدل بهذه الآية ، وقال أبو حيان: هو بدل من (إذا وقعت) وجواب الشرط عندى ملفوظ به وهو قوله تعالى: (فأصحاب الميمنة) والمعنى إذا كان كذا وكذا ، فأصحاب الميمنة ماأسعدهم وماأعظم مايجازون به أى إن سعادتهم وعظم رتبهم

Marfat.com

عند الله عزوجل تظهر فى ذلك الوقت الشديد الصعب على العالم، وفيه بعد ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسّاً ٥ ﴾ أى فتت كما قال ابن عباس . ومجاهد حتى صارت كالسويق الملتوت من بس السويق إذا لتّه ، وقيل: سيقت وسيرت من أماكنها من بس الغنم إذا ساقها فهو كقوله تعالى: (وسيرت الجبال) *

وقرأ زيد بن على (رجت، وبست) بالبناء للفاعل أى ارتجت وتفتتت ، وفى كلام هند بنت الخس تصف ناقة بما يستدل به على حملها - عينها هاج وصلاها راج ، وهى تمشى وتفاج - ﴿ فَكَانَتْ ﴾ فصارت بسبب ذلك ﴿ هَبَاءً ﴾ غباراً ﴿ مُنبَثّاً ٦ ﴾ متفرقا ، والمراد مطلق الغبار عند الاكثرين ، وقال ابن عباس: هو مايثور مع شعاع الشمس إذا دخلت من كوة ، وفى رواية أخرى عنه أنه الذى يطير من النار إذا اضطرمت *

وقرأ النخعى - منبتاً - بالتاء المنطوقة بنقطتين من فوق من البت بمعنى القطع ، والمراد به ماذكر من البث بالمثلثة ﴿ وَكُنتُمْ ﴾ خطاب للامة الحاضرة والامم السالفة تغليباً كما ذهب اليه الكثير ، وقال بعضهم : خطاب للامة الحاضرة فقط، والظاهر إن - كان - أيضاً بمعنى صار أى وصرتم ﴿ أَزْوَاجاً ﴾ أى أصنافا ﴿ ثَلَٰثَةً ٧ ﴾ وكل صنف يكون مع صنف آخر فى الوجود أو فى الذكر فهو زوج ، قال الراغب : الزوج يكون لكل واحد من القرينين من الذكر والانثى فى الحيوانات المتزاوجة ولكل قرينين فيها، وفى غيرها كالخف والنعل، ولكل مايقترن بآخر مماثلا له أو مضاداً ، وقوله تعالى :

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ٩ ﴾ تفصيل للازواج الثلاثة مع الاشارة الاجمالية إلى أحوالهم قبل تفصيلها ، والدائر على ألسنتهم أن أصحاب الميمنة مبتدأ ، وقوله تعالى : (ماأصحاب الميمنة) (ما) فيه استفهامية مبتدأ ثان. و(أصحاب) خبره ، والجملة خبر المبتدا الاول والرابط الظاهر القائم مقام الضمير ، وكذا يقال فى قوله تعالى:(وأصحاب المشأمة) الخ ، والأصل فى الموضعين ماهم ؟ أى أىّ شئ هم فى حالهم وصفتهم فان (ما) وإن شاعت فى طلب مفهوم الاسم والحقيقة لكنها قد تطلب بها الصفة والحال كما تقول مازيد ؟ فيقال : عالم ، أو طبيب فوضع الظاهر موضع الضمير لكونه أدخل فى المقصود وهو التفخيم فى الأول والتفظيع فى الثانى ، والمراد تعجيب السامع من شأن الفريقين فى الفخامة والفظاعة كأنه قيل : (فأصحاب الميمنة)فى غاية حسن الحال (وأصحاب المشأمة) فى نهاية سوء الحال، وقيل: جملة (ما أصحاب) خبر بتقدير القول على ماعرف فى الجملة الانشائية إذا وقعت خبراً أى مقول فى حقهم (ما اصحاب) الخ فلا حاجة إلى جعله من إقامة الظاهر مقام الضمير وفيه نظر ، و(الميمنة) ناحية اليمين ، أو اليمن والبركة ، (والمشأمة) ناحية الشمال من اليد الشؤمى وهى الشمال ، أو هى من الشؤم مقابل اليمن ، ورجح إرادة الناحية فيهما بأنها أوفق بما يأتى فى التفصيل ، واختلفوا فى الفريقين فقيل : أصحاب الميمنة أصحاب المنزلة السنية ، وأصحاب المشأمة أصحاب المنزلة الدنية أخذاً من تيمنهم بالميامن وتشؤمهم بالشمائل كما تسمع فى السانح والبارح ، وهو مجاز شائع ، وجوز أن يكون كناية ، وقيل: الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم والذين يؤتونها بشمائلهم ، وقيل : الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة والذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، وقيل: أصحاب اليمن وأصحاب الشؤم، فان السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم والاشقياء مشائيم على أنفسهم

Marfat.com

بمعاصيهم ، وروى هذا عن الحسن . والربيع ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ هو الصنف الثالث من الازواج الثلاثة ،ولعل تأخير ذكرهم مع كونهم أسبق الأصناف وأقدمهم فى الفضل ليردف ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم على أن إيرادهم بعنوان السبق مطلقاً معرض عن إحرازهم قصب السبق من جميع الوجوه ٭

واختلف فى تعيينهم فقيل : هم الذين سبقوا إلى الايمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تلعثم وتوان، وروى هذا عن عكرمة . ومقاتل، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت فى حزقيل مؤمن آل فرعون. وحبيب النجار الذى ذكر فى يس . وعلىّ بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه و كل رجل منهم سابق أمته وعلىّ أفضلهم، وقيل: هم الذين سبقوا فى حيازة الكمالات من العلوم اليقينية ومراتب التقوى الواقعة بعد الايمان ، وقيل .هم الانبياء عليهم السلام لأنهم مقدمو أهل الأديان ، وقال ابن سيرين : هم الذين صلوا إلى القبلتين كما قال تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) وعن ابن عباس هم السابقون إلى الهجرة ، وعن علىّ كرم الله تعالى وجهه هم السابقون إلى الصلوات الخمس ، وأخرج أبو نعيم . والديلمى عن ابن عباس مرفوعا أول من يهجر إلى المسجد وآخر من يخرج منه ٭

وأخرج عبد بن حميد . وابن المنذر عن عبادة بن أبى سودة مولى عبادة بن الصامت قال: بلغنا أنهم السابقون إلى المساجد والخروج فى سبيل الله عز وجل ،وعن الضحاك هم السابقون إلى الجهاد ،وعن ابن جبير هم السابقون إلى التوبة وأعمال البر، وقال كعب : هم أهل القرآن ،وفى البحر فى الحديث « سئل عن السابقين فقال : هم الذين إذا أعطوا الحق قبلوه وإذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لانفسهم »، وقيل: الناس ثلاثة فرجل ابتكر الخير فى حداثة سنه ثم دام عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق ، ورجل ابتكر عمره بالذنب وطول الغفلة ثم تراجع بتوبته فهذا صاحب اليمين ، ورجل ابتكر الشر فى حداثة سنه ثم لم يزل عليه حتى خرج من الدنيا فهذا صاحب الشمال، وعن ابن كيسان أنهم المسارعون إلى كل مادعا الله تعالى اليه ورجحه بعضهم بالعموم ، وجعل ماذكر فى أكثر الاقوال من باب التمثيل ، وأيّاما كان فالشائع أن الجملة مبتدأ وخبر والمعنى (والسابقون) هم الذين اشتهرت أحوالهم وعرفت فخامتهم كقوله :

* أنا أبو النجم وشعرى شعرى ٭ وفيه من تفخيم شأنهم والايذان بشيوع فضلهم مالايخفى، وقيل متعلق السبق مخالف لمتعلق السبق الثانى أى السابقون إلى طاعة الله تعالى (السابقون) إلى رحمته سبحانه، أو (السابقون) إلى الخير (السابقون) إلى الجنة ، والتقدير الأول محكى عن صاحب المرشد *

وأنت تعلم أن الحمل مفيد بدون ذلك كما سمعت بل هو أبلغ وأنسب بالمقام وأيّا ما كان فقوله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ١١ ﴾ ،مبتدأ وخبر والجملة استئناف بيانى ،وقيل: (السابقون) السابق مبتدأ (والسابقون) اللاحق تأكيد له وما بعد خبر وليس بذاك أيضا لفوات مقابلة ماذكر لقوله تعالى:(فأصحاب) الخ ولان القسمة لاتكون مستوفاة حينئذ ، ولفوات المبالغة المفهومة من نحو هذا التركيب على ماسمعت مع أنهم أعنى السابقين أحق بالمدح والتعجيب من حالهم من السابقين ولفوات مافى الاستئناف بأولئك المقربون من الفخامة وإنما لم يقل- السابقون ما السابقون- على منوال الاولين لأنه جعل أمر آمفروغا مسلما مستقلا فى المدح والتعجيب، والاشارة بأولئك إلى السابقين وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل،

Marfat.com

و(المقربون) من القربة بمعنى الحظوة أى أولئك الموصوفون بذلك النعت الجليل الذين أنيلوا حظوة ومكانة عند الله تعالى ، وقال غير واحد :المراد الذين قربت إلى العرش العظيم درجاتهم۞

هذا وفى الارشاد الذى تقتضيه جزالة التنزيل أن قوله تعالى: (فأصحاب الميمنة) خبر مبتدا محذوف وكذا قوله سبحانه : (وأصحاب المشأمة) وقوله جل شأنه : (والسابقون)فان المترقب عند بيان انقسام الناس إلى الاقسام الثلاثة بيان أنفس الاقسام ۞

وأما أوصافها وأحوالها فحقها أن تبين بعد ذلك بإسنادها اليها ، والتقدير فأحدها أصحاب الميمنة والآخر أصحاب المشأمة ، والثالث السابقون خلا أنه لما أخر بيان أحوال القسمين الأولين عقب كلا منهما بجملة معترضة بين القسمين منبئة عن ترامى أحوالهما فى الخير والشر إنباءاً إجمالياً مشعراً بأن لأحوال كل منهما تفصيلا مترقباً لكن لاعلى أن (ما) الاستفهامية مبتدأ وما بعدها خبر على مارآه سيبويه فى أمثاله بل على أنها خبر لما بعدها فان مناط الافادة بيان أن أصحاب الميمنة أمر بديع كما يفيده كون (ما) خبراً لا بيان أن أمراً بديعاً أصحاب الميمنة كما يفيده كونها مبتدأ وكذا الحال فى(ماأصحاب المشأمة) ، وأما القسم الأخير فحيث قرن به بيان محاسن أحواله لم يحتج فيه إلى تقديم الأنموذج فقوله تعالى : (السابقون) مبتدأ والإظهار فى مقام الاضمار للتفخيم و (أولئك) مبتدأ ثان ، أو بدل من الاول ومابعده خبر له ، أو للثانى ، والجملة خبر للاول انتهى ،وقيل عليه : إنه ليس فى جعل جملتى الاستفهام وقوله سبحانه : (السابقون) إخباراً لما قبلها بيان لأوصاف الأقسام وأحوالها تفصيلا حتى يقال : حقها أن تبين بعد أنفس الاقسام بل فيه بيان الاقسام مع إشارة إلى ترامى أحوالها فى الخير والشر والتعجيب من ذلك ۞

وأيضا مقتضى ماذكره أن لايذكر (ماأصحاب اليمين) و (ماأصحاب الشمال) فى التفصيل ، وتعقب هذا بأن الذكر محتاج إلى بيان نكتة على الوجه الدائر على ألسنتهم كاحتياجه اليه على هذا الوجه ، ولعلها عليه أنه لما عقب الأولين بما يشعر بأن لاحوال كل تفاصيل مترقبة أعيد ذلك للاعلام بأن الاحوال العجيبة هى هذه فلتسمع ، والذى يتبادر للنظر الجليل مافى الارشاد من كون أصحاب الميمنة وكذا كل من الأخيرين خبر مبتدا محذوف كما سمعت لأن المتبادر بعد بيان الانقسام ذكر نفس الاقسام على أن تكون هى المقصودة أولا وبالذات دون الحكم عليها وبيان أحوالها مطلقاً وإن تضمن ذلك ذكرها لكن ماذكروه أبعد مغزى ومع هذا لايتعين على ماذكر كون تينك الجملتين الاستفهاميتين معترضتين بل يجوز أن يكون كل منهما صفة لماقبلها بتقدير القول كأنه قيل : فأحدها أصحاب الميمنة المقول فيهم (ماأصحاب الميمنة) وكذا يقال فى (وأصحاب المشأمة) الخ ، ويجعل أيضا (السابقون)صفة ـ للسابقون ـ قبله ، والتأويل فى الوصفية كالتأويل فى الخبرية ويكون الوصف بذلك قائماً مقام تينك الجملتين فى المدح ، والجملة بعد مستأنفة استئنافا بيانياً كما فى الوجه الشائع ،ومايقال: إن فى هذا الوجه حذف الموصول مع بعض أجزاء الصلة يجاب عنه بمنع كون ـ أل ـ فى الوصف حيث لم يرد منه الحدوث موصولة فتأمل ولا تغفل ،وقوله تعالى : ﴿ فى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢ ﴾ متعلق بالمقربون، أو بمضمر هو حال من ضميره أى كائنين فى جنات النعيم ، وعلى الوجهين فيه إشارة إلى أن قربهم محض لذة وراحة لا كقرب خواص الملك القائمين بأشغاله عنده بل كقرب جلسائه وندمائه الذين لاشغل لهم ولايرد عليهم أمر ، أو نهى ولذا قيل : (فى جنات النعيم)دون جنات الخلود ونحوه ، وقيل : خبر ثان لاسم الاشارة وتعقب بأن الاخبار

Marfat.com

بكونهم فيها بعد الاخبار بكونهم مقربين ليس فيه مزيد مزية ، وأجيب بأن الإخبار الأول للاشارة إلى اللذة الروحانية والإخبار الثانى للاشارة إلى اللذة الجسمانية ۞

وقرأ طلحة فى جنة النعيم بالافراد ، وقوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ١٣ ﴾ خبر مبتدا مقدر أى هم ثلة الخ ، وجوز كونه مبتدأ خبره محذوف أى منهم ، أوخبراً أولا أوثانيا ـ لأولئك ـ وجوز أبو البقاء كونه مبتدأ والخبر (على سرر) ، والثلة فى المشهور الجماعة كثرت أوقلّت ، وقال الزمخشرى : الأمة من الناس الكثيرة وأنشد قوله :

وجاءت اليهم (ثلة) خندفية (بجيش كتيار من السيل مزبد)

وقوله تعالى بعد : (وقليل) الخ كفى به دليلا على الكثرة انتهى ، والظاهر أنه أنشد البيت شاهداً لمعنى الكثرة فى الثلة فان كانت الباء تجريدية وهو الظاهر فنص وإلا فالاستدلال عليها من أن المقام مقام مبالغة ومدح، وأما استدلاله بما بعد فذلك لان التقابل مطلوب لان الثلة لم توضع للقليل بالاجماع حتى يحمل مابعد على التفنن بل هى إما للكثرة والاشتقاق عليها أدل لان الثل بمعنى الصب وبمعنى الهدم بالكلية، والثلة بالكسر الضأن الكثيرة وإما لمطلق الجماعة كالفرقة والقطعة من الثل بمعنى الكسر كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم إلا أن الاستعمال غلب على الكثير فيها فالمعنى جماعة كثيرة من الاولين وهم الناس المتقدمون من لدن آدم إلى نبينا عليهما الصلاة والسلام وعلى من بينهما من الانبياء العظام ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ١٤ ﴾ وهم الناس من لدن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم إلى قيام الساعة ولا يخالفه قوله عليه الصلاة والسلام : «إن أمتى يكثرون سائر الأمم» أى يغلبونهم فى الكثرة لان أكثرية سابقى المتقدمين من سابقى هذه الامة لاتمنع أكثرية تابعى هؤلاء من تابعى أولئك ۞

وحاصل ذلك غلبة مجموع هذه الامة كثرة على من سواها كقرية فيها عشرة من العلماء ومائة من العوام وأخرى فيها خمسة من العلماء وألف من العوام فخواص الاولى أكثر من خواص الثانية وعوام الثانية ومجموع أهلها أضعاف أولئك ، لا يقال يأبى أكثرية تابعى هؤلاء قوله تعالى : (ثلة من الاولين وثلة من الآخرين) فانه فى حق أصحاب اليمين وهم التابعون ، وقد عبر فى كل بالثلة أى الجماعة الكثيرة لأنا نقول لادلالة فى الآية على أكثر من وصف كل من الفريقين بالكثرة وذلك لاينافى أكثرية أحدهما فتحصل أن سابقى الامم السوالف أكثر من سابقى أمتنا. وتابعى أمتنا أكثر من تابعى الامم ، والمراد بالامم مايدخل فيه الانبياء وحينئذ لايبعد أن يقال: إن كثرة سابقى الاولين ليس إلا بأنبيائهم فما على سابقى هذه الامة بأس إذا كثرهم سابقو الامم بضم الانبياء عليهم السلام ، وأخرج الامام أحمد. وابن المنذر. وابن أبى حاتم. وابن مردويه عن أبى هريرة قال: « لما نزلت (ثلة من الاولين وقليل من الآخرين) شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فنزلت (ثلة من الاولين وثلة من الآخرين) فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: إنى لارجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة بل أنتم نصف أهل الجنة ـ أو شطر أهل الجنة ـ وتقاسمونهم النصف الثانى» وظاهره أنه شق عليهم قلة من وصف بها وأن الآية الثانية أزالت ذلك ورفعته وأبدلته بالكثرة ، ويدل على ذلك ماأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : لما نزلت (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) حزن أصحاب رسول الله ﷺ

Marfat.com

وقالوا إذاً لايكون من أمة محمد ﷺ إلا قليل فنزلت نصف النهار (ثلة من الاولين وثلة من الآخرين) فنسخت (وقليل من الآخرين) وأبى ذلك الزمخشرى فقال: إن الرواية غير صحيحة لامرين: أحدهما أن الآية الاولى واردة فى السابقين، والثانية فى أصحاب اليمين، والثانى أن النسخ فى الأخبار غير جائز فاذا أخبر تعالى عنهم بالقلة لم يجز أن يخبر عنهم بالكثرة من ذلك الوجه وماذكر من عدم جواز النسخ فى الأخبار أى فى مدلولها مطلقا هو المختار *

وقيل: يجوز النسخ فى المتغير إن كان عن مستقبل لجواز المحو لله تعالى فيما يقدره والاخبار يتبعه، وعلى هذا البيضاوى، وقيل: يجوز عن الماضى أيضاً وعليه الامام الرازى. والآمدى، وأما نسخ مدلول الخبر إذا كان مما لا يتغير كوجود الصانع وحدوث العالم فلا يجوز اتفاقاً فان كان مانحن فيه مما يتغير فنسخه جائز عند البيضاوى ويوافقه ظاهر خبر أبى هريرة الثانى، ولا يجوز على المختار الذى عليه الشافعى وغيره فقول صاحب الكشف: لاخلاف فى عدم جواز النسخ فى مثل ماذكر من الخبر إذ لا يتضمن حكما شرعياً لايخلو عن شئ ه

وأقول: قد يتعقب ماذكره الزمخشرى بأن الحديث قد صح وورود الآية الأولى فى السابقين والثانية فى أصحاب اليمين لا يرد مقتضاه فانه يجوز أن يقال: إن الصحابة رضى الله تعالى عنهم لما سمعوا الآية الاولى حسبوا أن الامر فى هذه الأمة يذهب على هذا النهج فيكون أصحاب اليمين ثلة من الاولين وقليلا منهم فيكثرهم الفائزون بالجنة من الامم السوالف فحزنوا لذلك فنزل قوله تعالى فى أصحاب اليمين: (ثلة من الاولين وثلة من الآخرين) وقال لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ماقال مما أذهب به حزنهم وليس فى هذا نسخ للخبر كما لايخفى *

وقول أبى هريرة فنسخت (وقليل من الآخرين) إن صح عنه ينبغى تأويله بأن يقال أراد به فأزالت حسبان أن يذكر نحوه فى الفائزين بالجنة من هذه الامة غير السابقين فتدبر، وعن عائشة رضى الله تعالى عنها: الفرقتان أى فى قوله تعالى: (ثلة من الاولين وقليل من الآخرين) فى أمة كل نبى فى صدرها ثلة وفى آخرها قليل، وقيل: هما من الأنبياء عليهم السلام كانوا فى صدر الدنيا كثيرين وفى آخرها قليلين *

وقال أبو حيان: جاء فى الحديث- الفرقتان فى أمتى فسابق أول الامة ثلة وسابق سائرها إلى يوم القيامة قليل - انتهى، وجاء فى فرقتى أصحاب اليمين نحو ذلك، أخرج مسدد فى مسنده. وابن المنذر. والطبرانى. وابن مردويه بسند حسن عن أبى بكرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله سبحانه: (ثلة من الاولين وثلة من الآخرين) قال: هما جميعا من هذه الامة، وأخرج جماعة بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعا مالفظه هما جميعاً من أمتى؛ وعلى هذا يكون الخطاب فى قوله عز وجل: (وكنتم أزواجا ثلاثة) لهذه الأمة فقط ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ حال من المقربين أو من ضميرهم فى قوله تعالى: (فى جنات النعيم) بناءاً على أنه فى موضع الحال كما تقدم، وقيل: هو خبر آخر للضمير المحذوف المخبر عنه أولا - بثلة - وفيه وجه آخر أشرنا اليه فيما مر، (وموضونة) من الوضن وهو نسج الدرع قال الاعشى:

ومن (نسج داود) موضونة تسير مع الحى عيراً فعيرا

واستعير لمطلق النسج أو لنسج محكم مخصوص، ومن ذلك وضين الناقة وهو حزامها لأنه موضون أى مفتول؛ والمراد هنا على ماأخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس مرمولة أى منسوجة بالذهب، وفى رواية عنه بقضبان الفضة، وقال عكرمة: مشبكة بالدر والياقوت، وقيل: (موضونة) متصل بعضها ببعض كحلق الدرع، والمراد متقاربة، وقرأ زيد بن على. وأبو السمال (سرر) بفتح الراء وهى لغة لبعض تميم، وكلب يفتحون

Marfat.com

عين فعل جمع فعيل المضعف نحو سرير ﴿ مُتَّكِـينَ عَلَيْهَا ﴾ حال من الضمير المستقر فى الجار والمجرور أعنى على سرر ، وقوله تعالى : ﴿ مُتَقَـٰبِلِينَ ١٦ ﴾ حال منه أيضاً ولك أن تعتبر الحالين متداخلين *

والمراد كما قال مجاهد : لا ينظر أحدهم فى قفا صاحبه وهو وصف لهم بحسن العشرة وتهذيب الاخلاق ورعاية الآداب وصفاء البواطن ، وقوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِـمْ ﴾ حال أخرى أو استئناف أى يدور حولهم للخدمة ﴿ وِلْدَانٌ مُّخَـلَّدُونَ ١٧ ﴾ أى مبقون أبداً على شكل الولدان وحد الوصافة لا يتحولون عن ذلك ، وإلا فكل أهل الجنة مخلد لا يموت ، وقال الفراء . وابن جبير : مقرطون بخلدة وهى ضرب من الاقراط قيل : هم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيآت فيعاقبوا عليها ، وروى هذا أمير المؤمنين على كرم الله تعالى وجهه ، وعن الحسن البصرى - واشتهر أنه عليه الصلاة والسلام - قال : أولاد الكفار خدم أهل الجنة - وذكر الطيبى أنه لم يصح بل صح مايدفعه ؛ أخرج البخارى . وأبو داود . والنسائى عن عائشة قالت : توفى صبى فقلت : طوبى له عصفور من عصافير الجنة فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : أو لا تدرين أن الله تعالى خلق الجنة وخلق النار فخلق لهذه أهلا ولهذه أهلا ، وفى رواية خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم *

وأخرج أبو داود عنها أنها قالت : قلت : يارسول الله ذرارى المؤمنين فقال من آبائهم فقلت : يارسول الله بلا عمل قال . الله أعلم بما كانوا عاملين قلت : يارسول الله فذرارى المشركين قال : من آبائهم فقلت : بلا عمل قال : الله أعلم بما كانوا عاملين ، وقيل : إنهم يمتحنون يوم القيامة فتخرج لهم نار ويؤمرون بالدخول فيها فمن دخلها وجدها برداً وسلاماً وأدخل الجنة ، ومن أبى أدخل النار مع سائر الكفار ويروون فى ذلك أثراً *

ومن الغريب ماقيل : إنهم بعد الاعادة يكونون تراباً كالبهائم ، وفى الكشف الاحاديث متعارضة فى المسألة وكذلك المذاهب ، والمسألة ظنية والعلم عند الله تعالى وهو عز وجل أعلم انتهى ؛ والاكثر على دخولهم الجنة بفضل الله تعالى ومزيد رحمته تبارك وتعالى ، وسيأتى إن شاء الله تعالى تمام الكلام فى ذلك ﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ بآنية لاعرا لها ولاخراطيم ، والظاهر أنها الاقداح وبذلك فسرها عكرمة وهى جمع كوب ﴿ وَأَبَارِيقَ ﴾ جمع إبريق وهو إناء له خرطوم قيل : وعروة ، وفى البحر أنه من أوانى الخمر ، وأنشد قول عدى بن زيد :

ودعوا بالصبوح يوما فجاءت فى (قينة يمينها إبريق)

وفيه أيضا أنه إفعيل من البريق ، وذكر غير واحد أنه معرب - آب ريزاى - صاب الماء وهو أنسب مما فى بعض نسخ القاموس أنه معرب - آب رى - بلا زاى ، وأياما كان فهو ليس مأخوذاً من البريق ، نعم الإبريق بمعنى المرأة الحسنة البراقة والسيف البراق والقوس فيها تلاميع مأخوذ من ذلك ، ولعله يقول بأنه عربى لا معرب ، وأن البريق بما فيه من الخمر والشعراء يصفونها بذلك كقوله :

(مشعشعة) كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا

أولانه غالباً يتخذ مما له نوع برق كالبلور والفضة ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ١٨ ﴾ أى خمر جارية من العيون كما قال ابن عباس . وقتادة أى لم يعصر كخمر الدنيا ، وقيل : خمر ظاهرة للعيون مرئية بها لأنها كذلك أهنأ ، وأفرد الكأس على ماقيل لأنها لاتسمى كأسا إلا إذا كانت مملوءة ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ أى بسببها وحقيقته

Marfat.com

لا يصدر صداعهم عنها ، والمراد أنهم لا يلحق رءوسهم صداع لأجل خمار يحصل منها كما فى خمور الدنيا ، وقيل: لا يفرقون عنها بمعنى لا تقطع عنهم لذتهم بسبب من الأسباب كما تفرق أهل خمر الدنيا بأنواع من التفريق *

وقرأ مجاهد (لا يصدعون) بفتح الياء وشد الصاد على أن أصله يتصدعون فأدغم التاء فى الصاد أى لا يتفرقون كقوله تعالى: (يومئذ يصدعون) ، وقرىء (لا يصدعون) بفتح الياء والتخفيف أى لا يصدع بعضهم بعضاً ولا يفرقونهم أى لا يجلس داخل منهم بين اثنين فيفرق بين المتقاربين فانه سوء الأدب وليس من حسن العشرة ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ ﴾ قال مجاهد. وقتادة . والضحاك : لا تذهب عقولهم بسكرها من نزف الشارب كعنى إذا ذهب عقله ، ويقال للسكران نزيف ومنزوف ، قيل : وهو من نزف الماء نزحه من البئر شيئاً فشيئاً فكان الكلام على تقدير مضاف *

وقرأ ابن أبى إسحق . وعبد الله . والسلمى . والجحدرى . والاعمش وطلحة . وعيسى . وعاصم كما أخرج عنه عبد بن حميد (ولا ينزفون) بضم الياء وكسر الزاى من أنزف الشارب إذا ذهب عقله أو شرابه ، ومعناه صار ذا نزف ؛ ونظيره أقشع السراب وقشعته الريح وحقيقته دخل فى القشع ، وقرأ ابن أبى إسحاق أيضا (ولا ينزفون) بفتح الياء وكسر الزاى قال : فى المجمع وهو محمول على أنه لا يفنى خمرهم ، والتناسب بين الجملتين على ما سمعت فيهما أولا على قراءة الجمهور أن الاولى لبيان نفى الضرر عن الاجسام ، والثانية لبيان نفى الضرر عن العقول وتأمل لتعرفه إن شاء الله تعالى على ماعدا ذلك ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ ﴾ أى يأخذون خيره وأفضله والمراد مما يرضونه ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢١ ﴾ مما تميل نفوسهم اليه وترغب فيه ، والظاهر أن فاكهة ولحم معطوفان على أكواب فتفيد الآية أن الولدان يطوفون بهما عليهم ، واستشكل بأنه قد جاء فى الآثار أن فاكهة الجنة وثمارها ينالها القائم والقاعد والنائم ، وعن مجاهد أنها دانية من أربابها فيتناولونها متكئين فاذا اضطجعوا نزلت بإزاء أفواههم فيتناولونها مضطجعين، وأن الرجل من أهل الجنة يشتهى الطير من طيور الجنة فيقع فى يده مقلياً نضجاً ، وقد أخرج هذا ابن أبى الدنيا عن أبى أمامة *

وأخرج عن ميمونة مرفوعا أن الرجل ليشتهى الطير فى الجنة فيجئ مثل البختى حتى يقع على خوانه لم يصبه دخان ولم تمسه نار فيأكل منه حتى يشبع ثم يطير إلى غير ذلك، وإذا كان الأمر كما ذكر استغنى عن طوافهم بالفاكهة واللحم ، وأجيب بأن ذلك - والله تعالى أعلم - حالة الاجتماع والشرب ، ويفعلون ذلك للاكرام ومزيد المحبة والتعظيم والاحترام ، وهذا كما يناول أحد الجلساء على خوان الآخر بعض ما عليه من الفواكه ونحوها وإن كان ذلك قريباً منه اعتناءاً بشأنه وإظهاراً لمحبته والاحتفال به ، وجوز أن يكون العطف على جنات النعيم وهو من باب - متقلداً سيفاً ورمحاً - أو من بابه المعروف ، وتقديم الفاكهة على اللحم للاشارة إلى أنهم ليسوا بحالة تقتضى تقديم اللحم كما فى الجائع فان حاجته إلى اللحم أشد من حاجته إلى الفاكهة بل هم بحالة تقتضى تقديم الفاكهة واختيارها كما فى الشبعان فانه إلى الفاكهة أميل منه إلى اللحم ، وجوز أن يكون ذلك لأن عادة هل الدنيا لاسيما أهل الشرب منهم تقديم الفاكهة فى الأكل وهو طباً مستحسن لأنها ألطف وأسرع انحداراً وأقل احتياجا إلى المكث فى المعدة للهضم ، وقد ذكروا أن أحد أسباب الهيضة إدخال اللطيف من الطعام على الكثيف منه ولأن الفاكهة تحرك الشهوة للاكل واللحم يدفعها غالبا *

ويعلم من الوجه الاول وجه تخصيص التخير بالفاكهة والاشتهاء باللحم ، وفيه إشارة إلى أن الفاكهة

Marfat.com

لم تزل حاضرة عندهم و بمرأى منهم دون اللحم ووجه ذلك أنها مما تلذه الاعين دونه ، وقيل : وجه التخصيص كثرة أنواع الفاكهه واختلاف طعومها وألوانها وأشكالها وعدم كون اللحم كذلك ، وفى التعبير بيتخيرون دون يختارون وإن تقار بامعنى إشارة لمكان صيغة التفعل إلى أنهم يأخذون ما يكون منها فى نهاية الكمال وأنهم فى غاية الغنى عنها، والله تعالى أعلم بأسرار كلامه ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ٢٢ ﴾ عطف على (ولدان) أو على الضمير المستكن فى (متكئين) أوعلى مبتدا حذف هو وخبره أى لهم هذا كل (وحور) أومبتدأ حذف خبره أى لهم ، أو فيها حور ، وتعقب الوجه الأول بأن الطواف لايناسب حالهن، وأجيب بأنه لا يبعد أن يكون من الحور ماليس بمقصورات فى الخيام ولامخدرات هن كالخدم لهن لايبالى بطوافهن ولا ينكر ذلك عليهن ، وأن الطواف فى الخيام أنفسها وهو لا ينافى كونهن مقصورات فيها ، أوأن العطف على معنى لهم (ولدان،وحور) والثانى بأنه خلاف الظاهر جداً ، والثالث بكثرة الحذف ، و(عين) جمع عيناء وأصله عين على فعل كما تقول حمراء وحمر فكسرت العين لئلا تنقلب الياء واواً ، وليس فى كلام العرب ياءاً ساكنة قبلها ضمة كما أنه ليس فيه واو ساكنة قبلها كسرة.

وقرأ السلمى . والحسن. وعمرو بن عبيد . وأبو جعفر .وشيبة .والاعمش.وطلحة والمفضل.وأبان.وعصمة عن عاصم . وحمزة . والكسائى(وحور عين)بالجر ،وقرأ النخعى كذلك إلاأنه قلب الواو ياءأوالضمة قبلها كسرة فى(حور) فقال : وحير على الاتباع ـ لعين ـ وخرج على العطف على (جنات النعيم) وفيه مضاف محذوف كأنه قيل : هم فى جنات وفاكهة ولحم ومصاحبة حور على تشبيه مصاحبة الحور بالظرف على نهج الاستعارة المكنية ، وقرينتها التخييلية إثبات معنى الظرفية بكلمة (فى) فهى باقية على معناها الحقيقى ولاجمع بين الحقيقة والمجاز ،وذهب إلى العطف المذكور الزمخشرى ، وتعقبه أبو حيان فقال :فيه بعد وتفكيك كلام مرتبط بعضه ببعض،وهو فهم أعجمى ـ وليس كما قال كما لايخفى ـ أو على (أكواب)ويجعل من باب ـ متقلداً سيفاً ورمحاً ـ كما سمعت آنفاً ـ كأنه قيل : ينعمون بأكواب وبحور،وجوز أن يبقى على ظاهره المعروف، وأن الولدان يطوفون عليهم بالحور أيضاً لعرض أنواع اللذات عليهم من المأكول والمشروب والمنكوح كما تأتى الخدام بالسرارى للملوك ويعرضوهن عليهم ، وإلى هذا ذهب أبو عمر . وقطرب،وأبى ذلك صاحب الكشف فقال:أما العطف على الولدان على الظاهر فلا لان الولدان لايطوفون بهن طوافهم بالاكواب،والقلب إلى هذا أميل إلا أن يكون هناك أثر يدل على خلافه ، وكون الجر للجوار يأباه الفصل أو يضعفه . وقرأ أبى . وعبد الله-وحوراً عيناً ـ بالنصب،وخرج على العطف على محل (بأكواب) لان المعنى يعطون أكواباً وحوراً على أنه مفعول به لمحذوف أى ويعطون حوراً أوعلى العطف على محذوف وقع مفعولا به لمحذوف أيضاً أى يعطون هذا كله وحوراً، وقرأ قتادة (وحور)بالرفع مضافا إلى (عين) ، وابن مقسم(وحور)بالنصب مضافا ، وعكرمة ـ وحوراء عيناء ـ على التوحيد اسم جنس وبفتح الهمزة فيهما فاحتمل الجر والنصب ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ٢٣ ﴾ أى فى الصفاء ،وقيد بالمكنون أى المستور بما يحفظه لانه أصفى وأبعد من التغير، وفى الحديث صفاؤهن كصفاء الدر الذى لاتمسه الأيدى ، ووصف الحسنات بذلك شائع فى العرب ،ومنه قوله :

قامت تراءى بين سجفى كلة كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

Marfat.com

أودرة صـــدفية غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد

والجار والمجرور فى موضع الصفة لحور ، أوالحال،والاتيان بالكاف للمبالغة فى التشبيه ، ولعل الأمر عليه نحو زيد قمر ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٤﴾ مفعول له لفعل محذوف أى يفعل بهم ذلك كله جزاءاً بأعمالهم أو بالذى استمروا على عمله أوهو مصدر مؤكد أى يجزون جزاء ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً﴾ مالا يعتد به من الكلام وهو الذى يورد لاعن روية وفكر فيجرى مجرى اللغا - وهوصوت العصافير ونحوها من الطير - وقد يسمى كل كلام قبيح لغواً ﴿وَلَا تَأْثِيماً ٢٥﴾ أى ولانسبة إلى الاثم أى لا يقال لهم أثمتم ، وعن ابن عباس كما أخرج ابن المنذر . وابن أبى حاتم تفسيره بالكذب ، وأخرجه هناد عن الضحاك - وهو من المجاز كما لايخفى - والكلام من باب ۞

۞ ولاترى الضب بها ينجحر * ﴿إِلَّا قِيلًا﴾ أى قولا فهو مصدر مثله ﴿سَلَامًا سَلَامًا ٢٦﴾ بدل من (قيلا) كقوله تعالى :(لايسمعون فيها لغواً إلاسلاماً) وقال الزجاج : هو صفة له بتأويله بالمشتق أى سالماً من هذه العيوب أو مفعوله ، والمراد لفظه فلذا جاز وقوعه مفعولا للقول مع إفراده ، والمعنى إلا أن يقول بعضهم لبعض(سلاماً)،وقيل:هو مصدر لفعل مقدر من لفظه وهو مقول القول ومفعوله حينئذ أى نسلم سلاما ، والتكرير للدلالة على فشو السلام وكثرته فيما بينهم لان المراد سلاما بعد سلام،والاستثناء منقطع وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم محتمل لأن يكون من الضرب الأول منه، وهو أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشئ صفة مدح له بتقدير دخولها فيها بأن يقدر السلام هنا داخلا فيما قبل فيفيد التأكيد من وجهين، وأن يكون من الضرب الثانى منه وهو أن يثبت لشئ صفة مدح ويعقب بأداة استثناء يليها صفة مدح أخرى بأن لا يقدر ذلك،ويجعل الاستثناء من أصله منقطعا فيفيد التأكيد من وجه،ولولا ذكر التأثيم-على ماقاله السعد-جاز جعل الاستثناء متصلا حقيقة لان معنى السلام الدعاء بالسلامة وأهل الجنة أغنياء عن ذلك فكان ظاهره من قبيل اللغو وفضول الكلام لولا مافيه من فائدة الاكرام ،وإنما منع التأثيم الذى هو النسبة إلى الاثم لأنه لايمكن جعل السلام من قبيله وليس لك فى الكلام أن تذكر متعددين ثم تأتى بالاستثناء المتصل من الاول مثل أن تقول : ماجاء من رجل ولا امرأة إلا زيداً ولو قصدت ذلك كان الواجب أن تؤخر ذكر الرجل ، وقرىء - سلام سلام- بالرفع على الحكاية،وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ الخ شروع فى بيان تفاصيل شئونهم بعد بيان تفاصيل شئون السابقين (وأصحاب) مبتدأ وقوله: ﴿مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ٢٧﴾ جملة استفهامية مشعرة بتفخيمهم والتعجيب من حالهم وهى على ماقالوا : إما خبر للمبتدا ، وقوله سبحانه : ﴿فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ خبر ثان له ، أوخبر لمبتدا محذوف أى هم فى سدر ، والجملة استئناف لبيان ماأبهم فى قوله عز وجل: (ماأصحاب اليمين) من علو الشأن ، وإما معترضة والخبر هو قوله تعالى شأنه : (فى سدر) وجوز أن تكون تلك الجملة فى موضع الصفة والخبر هو هذا الجار والمجرور ، والجملة عطف على قوله تبارك وتعالى فى شرح أحوال السابقين :(أولئك المقربون فى جنات النعيم)أى(وأصحاب اليمين) المقول فيهم (ماأصحاب اليمين) كائنون (فى سدر) الخ ، والظاهر أن التعبير بالميمنة فيما مر،وباليمين هنا للتفنن وكذا يقال فى المشأمة والشمال فيما بعد ، وقال الامام : الحكمة فى ذلك أن فى الميمنة وكذا المشأمة

Marfat.com

دلالة على الموضع والمكان والازواج الثلاثة فى أول الامر يتميز بعضهم عن بعض ويتفرقون بالمكان فلذا جىء أولا بلفظ يدل على المكان وفيما بعد يكون التميز والتفرق بأمر فيهم فلذا لم يؤت بذلك اللفظ ثانياً، والسدر شجر النبق، والمخضود الذى خضد أى قطع شوكه ، أخرج الحاكم وصححه . والبيهقى عن أبى أمامة قال: « كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون إن الله تعالى ينفعنا بالأعراب ومسائلهم أقبل أعرابى يوماً فقال: يارسول الله لقد ذكر الله تعالى فى القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى أن فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها قال : وماهى؟ قال: السدر فان له شوكا فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أليس الله يقول: (فى سدر مخضود) خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة وأن الثمرة من ثمره تفتق عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام مافيها لون يشبه الآخر » *

وأخرج عبد بن حميد عن بن عباس . وقتادة . وعكرمة . والضحاك أنه الموقر حملا على أنه من خضد الغصن إذا ثناه وهو رطب فمخضود مثنى الاغصان كنى به عن كثير الحمل *

وقد أخرج ابن المنذر عن يزيد الرقاشى أن النبقة أعظم من القلال والظرفية مجازية للمبالغة فى تمكنهم من التنعم والانتفاع بما ذكر ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُود ﴾ قد نضد حمله من أسفله إلى أعلاه ليست له ساق بارزة وهو شجر الموز كما أخرج ذلك عبد الرزاق . وهناد . وعبد بن حميد . وابن جرير . وابن مردويه عن على كرم الله تعالى وجهه ، وأخرجه جماعة من طرق عن ابن عباس ورواه ابن المنذر عن أبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى. وعبد بن حميد عن الحسن ، ومجاهد . وقتادة ، وعن الحسن أنه قال: ليس بالموز ولكنه شجر ظله باردرطب، وقال السدى: شجر يشبه طلح الدنيا ولكن له ثمر أحلى من العسل، وقيل: هو شجر من عظام العضاه ، وقيل: شجر أم غيلان وله نوار كثير طيب الرائحة ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ممتد منبسط لا يتقاص ولا يتفاوت كظل مابين طلوع الفجر وطلوع الشمس ، وظاهر الآثار يقتضى أنه ظل الاشجار *

أخرج أحمد . والبخارى . ومسلم . والترمذى . وابن ماجه . وغيرهم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها اقرءوا إن شئتم (وظل ممدود) » *

وأخرج أحمد . والبخارى. ومسلم. والترمذى . وابن مردويه . عن أبى سعيد قال: «قال رسول الله ﷺ: فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها وذلك الظل الممدود» *

وأخرج ابن أبى حاتم . وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : الظل الممدود شجرة فى الجنة على ساق ظلها قدر مايسير الراكب فى كل نواحيها مائة عام يخرج اليها أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون فى ظلها فيشتهى بعضهم ويذكر لهو الدنيا فيرسل الله تعالى ريحا من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو فى الدنيا ؛ وعن مجاهد أنه قال : هذا الظل من سدرها وطلحها، وأخرج عبد بن حميد . وابن جرير . وابن المنذر عن عمرو بن ميمون أنه قال : الظل الممدود مسيرة سبعين ألف سنة ﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ قال سفيان وغيره : جار من غير أخاديد ، وقيل: منساب حيث شاءوا لا يحتاجون فيه إلى سانية ولا رشاء وذكر هذه الاشياء لما أن كثيراً من المؤمنين لبداوتهم تمنوها ، أخرج عبد بن حميد . وابن جرير . والبيهقى عن مجاهد قال : كانوا يعجبون بوج وظلاله من طلحه وسدره فأنزل الله تعالى : (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضود) الخ، وفى رواية عن الضحاك «نظر المسلمون إلى وج فأعجبهم سدره وقالوا : ياليت لنا مثل هذا فنزلت هذه الآية» *

Marfat.com

وقيل : كأنه لما شبه حال السابقين بأقصى مايتصور لأهل المدن من كونهم على سرر تطوف عليهم خدامهم بأنواع الملاذ شبه حال أصحاب اليمين بأكمل مايتصور لأهل البوادى من نزولهم فى أماكن مخصبة فيها مياه وأشجار وظلال إيذاناً بأن التفاوت بين الفريقين كالتفاوت بين أهل المدن والبوادى ، وذكر الامام مدعياً أنه مماوفق له أن قوله تعالى : (فى سدر مخضود وطلح منضود) من باب قوله سبحانه:(رب المشرق والمغرب) لأن السدر أوراقه فى غاية الصغر والطلح يعنى الموز أوراقه فى غاية الكبر فوقعت الاشارة إلى الطرفين فيراد جميع الأشجار لأنها نظراً إلى أوراقها محصورة بينهما وهو مما لا بأس به ، وقرأ على كرم الله تعالى وجهه ، وجعفر بن محمد . وعبد الله رضى الله تعالى عنهم -وطلع- بالعين بدل(وطلح) بالحاء،وأخرج ابن الانبارى فى المصاحف.وابن جرير عن قيس بن عباد قال :قرأت على على كرم الله تعالى وجهه (وطلح منضود) فقال : مابال الطلح ؟ أما تقرأ وطلع،ثم قرأ قوله تعالى: (لها طلع نضيد) فقيل له : ياأمير المؤمنين أنحكها من المصحف؟ فقال :لا يهاج القرآن اليوم وهى رواية غير صحيحة كما نبه على ذلك الطيبى ، وكيف يقبل أمير المؤمنين كرم الله تعالى وجهه تحريفاً فى كتاب الله تعالى المتداول بين الناس،أو كيف يظن بأن نقلة القرآن ورواته وكتابه من قبل تعمدوا ذلك أو غفلوا عنه ؟ هذا والله تعالى قد تكفل بحفظه سبحانك هذا بهتان عظيم *

ثم إن الذى يقتضيه النظم الجليل كما قال الطيبى: حمل (فى سدر مخضود) الخ على معنى التظليل ، وتكاثف الأشجار على سبيل الترقى لأن الفواكه مستغنى عنها بما بعد وليقابل قوله تعالى: (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم وظل من يحموم) قوله سبحانه : (وأصحاب اليمين) الخ فاذن لامدخل لحديث الطلع فى معنى الظل وما يتصل به لكن قال صاحب الكشف: إن وصف الطلح بكونه منضوداً لا يظهر له كثير ملاءمة لكون المقصود منفعة التظليل وينبغى أن يحمل الطلح على أنه من عظام العضاه على ماذكره فى الصحاح فشجر أم غيلان والموز لاظل لهما يعتد به ، ثم قال.ولو حمل الطلح على المشموم لكان وجهاً انتهى، وقد قدمنا لك خبر سبب النزول فلا تغفل ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أى بحسب الأنواع والاجناس على مايقتضيه المقام *

﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ فى وقت من الاوقات كفواكه الدنيا ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ عمن يريد تناولها بوجه من الوجوه ولا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا،وقرىء (وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولا ممنوعة) بالرفع فى الجميع على تقدير وهناك (فاكهة) الخ ﴿وَفُرُشٍ﴾ جمع فراش كسراج وسرج ، وقرأ أبو حيوة بسكون الراء ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ منضدة مرتفعة أو مرفوعة على الاسرة فالرفع حسى كما هو الظاهر، وقد أخرج أحمد . والترمذى وحسنه .والنسائى. وجماعة عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام ولا تستبعد ذلك من حيث العروج والنزول ونحوهما فالعالم عالم آخر وراء طور عقلك *

وأخرج هناد عن الحسن أن ارتفاعها مسيرة ثمانين سنة وليس بمثابة الخبر السابق ، وقال بعضهم : أى رفيعة القدر على أن رفعها معنوى بمعنى شرفها وأياما كان فالمراد بالفرش مايفرش للجلوس عليه . وقال أبو عبيدة : المراد بها النساء لأن المرأة يكنى عنها بالفراش كما يكنى عنها باللباس ورفعهن فى الاقدار والمنازل *

وقيل: على الأرائك وأيد إرادة النساء بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ٣٥﴾ لأن الضمير فى الأغلب

Marfat.com

يعود على مذكور متقدم وليس إلا الفرش ولا يناسب العود اليه إلا بهذا المعنى والاستخدام بعيد هنا ،وعلى القول فى الفرش الضمير للنساء وإن لم يجر لها ذكر لتقدم مايدل عليها فهو تتميم بياناً لمقدر يدل عليه السياق كأنه قيل وفرش مرفوعة ونساء أو وحور عين،ثم استؤنف وصفهن بقوله سبحانه : (إنا أنشأناهن)تتميما للبيان زيادة للترغيب لالتعليل الرفع ، وقيل : إن المرجع مضمر وتقدير المنزل وفرش مرفوعة لأزواجهم أو لنسائهم فإنا الخ استئناف علة للرفع أى وفرش مرفوعة لأزواجهم لأنا أنشأناهن ، والأول أوفق لبلاغة القرآن العظيم ، والمراد بأنشأناهن أعدنا إنشاءهن من غير ولادة لأن المخبر عنهن بذلك نساء كن فى الدنيا ٭

فقد أخرج ابن جرير . وعبد بن حميد . والترمذى . وآخرون عن أنس قال : « قال رسول الله ﷺ : فى الآية إن المنشآت اللاتى كن فى الدنيا عجائز عمشاً رمصاً» وأخرج الطبرانى . وابن أبى حاتم .وجماعة عن سلمة بن مرثد الجعفى قال : « سمعت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول فى قوله تعالى : (إنا أنشأناهن إنشاءاً) الثيب والابكار اللاتى كن فى الدنيا » وأخرج الترمذى فى الشمائل . وابن المنذر . وغيرهما عن الحسن قال : « أتت عجوز فقالت : يارسول الله ادع الله أن يدخلنى الجنة فقال :يا أم فلان إن الجنة لاتدخلها عجوز فولت تبكى قال:أخبروها أنها لاتدخلها وهى عجوز إن الله تعالى يقول : (إنا أنشأناهن إنشاءاً) الخ ، وقال أبو حيان: الظاهر أن الإنشاء هو الاختراع الذى لم يسبق بخلق ويكون ذلك مخصوصاً بالحور العين فالمعنى إنا ابتدأناهن ابتداءاً جديداً من غير ولادة ولا خلق أول ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا ٣٦ ﴾ تفسير لما تقدم ، والجعل إما بمعنى التصيير ، و(أبكاراً) مفعول ثان ، أو بمعنى الخلق و(أبكاراً) حال أو مفعول ثان ، والكلام من قبيل ضيق فم الركية ، وفى الحديث «إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً» أخرجه الطبرانى فى الصغير .والبزار عن أبى سعيد مرفوعا ﴿ عُرُبًا ﴾ متحببات إلى أزواجهن جمع عروب كصبور وصبر ، وروى هذا عن جماعة من السلف وفسرها جماعة أخرى بغنجات ، ولايخفى أن الغنج ألطف أسباب التحبب ، وعن زيد بن أسلم العروب الحسنة الكلام ، وفى رواية عن ابن عباس . والحسن . وابن جبير . ومجاهد هن العواشق لازواجهن ، ومنه على ما قيل قول لبيد :

وفى الخدور (عروب غير فاحشة) ريا الروادف يعشى دونها البصر

وفى رواية أخرى عن مجاهد أنهن الغلمات اللاتى يشتهين أزواجهن ، وأخرج ابن عدى بسند ضعيف عن أنس مرفوعا - خير نسائكم العفيفة الغلمة - وقال اسحق بن عبد الله بن الحرث النوفلى : العروب الخفرة المتبذلة لزوجها ، وأنشد :

(يعرين عند بعولهن) إذا خلوا وإذا (هم خرجوا فهن خفار)

ويرجع هذا إلى التحبب ، وأخرج ابن أبى حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى : (عرباً) كلامهن عربى ، ولاأظن لهذا صحة ،والتفسير بالمتحببات هو الذى عليه الاكثر ٭

وقرأ حمزة .وجماعة - منهاعباس .والاصمعى - عن أبى عمرو ، وأخرى - منهاخارجة .وكردم - عن نافع ،وأخرى منها حماد . وأبوبكر . وأبان - عن عاصم (عرباً) بسكون الراء وهى لغة تميم ، وقال غير واحد: هى للتخفيف كما فى عنق وعنق ﴿ أَتْرَابًا ٣٧ ﴾ مستويات فى سن واحد كما قال أنس .وابن عباس .ومجاهد .والحسن .وعكرمة .

Marfat.com

وقتادة . وغيرهم كأنهن شبهن فى التساوى بالترائب التى هى ضلوع الصدر . أو كأنهن وقعن معاً على التراب أى الأرض وهن بنات ثلاث وثلاثين سنة وكذا أزواجهن ٭

وأخرج الترمذى عن معاذ مرفوعاً «يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاثين ، أو ثلاث وثلاثين» والمراد بذلك كمال الشباب ، وقوله تعالى: ﴿ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ٣٨ ﴾ متعلق -بأنشانا- أو بجعلنا ، وقيل: متعلق -بأترابا- كقولك فلان ترب لفلان أى مساوله فهو محتاج إلى التأويل،وتعقب بأنه مع هذا ليس فيه كثير فائدة وفيه نظر،وقيل : بمحذوف هو صفة -لأبكاراً- أى كائنات لأصحاب اليمين ، وفيه إقامة الظاهر مقام الضمير لطول العهد أو للتأكيد والتحقيق،وقوله تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ٤٠ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هم ثلة ، أو خبر ثان لهم المقدر مبتدأ مع (فى سدر) أو (لأصحاب اليمين) فى قوله تعالى: (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) أو مبتدأ خبره محذوف أى منهم،أو مبتدأ خبره الجار والمجرور قبله احتمالات اعترض الاخير منها بأن المعنى عليه غير ظاهر ولا طلاوة فيه ، وجعل اللام بمعنى من كما فى قوله :

٭ ونحن لكم يوم القيامة أفضل ٭ لايخفى حاله -والاولون والآخرون- المتقدمون والمتأخرون إما من الأمم وهذه الأمة ، أو من هذه الامة فقط على ماسمعت فيما تقدم،هذا ولم يقل سبحانه فى حق أصحاب اليمين -جزاءاً بما كانوا يعملون- كما قاله عز وجل فى حق السابقين رمزاً إلى أن الفضل فى حقهم متمحض كأن عملهم لقصورة عن عمل السابقين لم يعتبر اعتباره . ثم الظاهر أن ماذكر من حال أصحاب اليمين هو حالهم الذى ينتهون إليه فلا ينافى أن يكون منهم من يعذب لمعاص فعلها ومات غير تائب عنها ثم يدخل الجنة،ولا يمكن أن يقال: إن المؤمن العاصى من أصحاب الشمال لان صريح أوصافهم الآتية يقتضى أنهم كانوا كافرين ويلزم من جعل هذا قسما على حدة كون القسمة غير مستوفاة فليتأمل ، والله تعالى أعلم ٭

والكلام فى قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ٤١ فِى سَمُومٍ ﴾ على نمط ماسلف فى نظيره ، والسموم قال الراغب : الريح الحارة التى تؤثر تأثير السم ، وفى الكشاف حر نار ينفذ فى المسام والتنوين للتعظيم وكذا فى قوله تعالى : ﴿ وَحَمِيمٍ ٤٢ ﴾ وهو الماء الشديد الحرارة ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ٤٣ ﴾ أى دخان أسود كما قال ابن عباس . وأبو مالك . وابن زيد . والجمهور وهى على وزن يفعول ، وله نظائر قليلة من الحممة القطعة من الفحم وتسميته ظلا على التشبيه التهكمى ، وعن ابن عباس أيضاً أنه سرادق النار المحيط بأهلها يرتفع من كل ناحية حتى يظلهم ، وقال ابن كيسان:هو من أسماء جهنم فانها سوداء وكذا كل مافيها أسود بهيم نعوذ بالله تعالى منها . وقال ابن بريدة.وابن زيد أيضاً : هو جبل فى النار أسود يفزع أهل النار إلى ذراه فيجدونه أشد شئ ، والجار والمجرور فى موضع الصفة-لظل- وكذا قوله سبحانه : ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤ ﴾ صفتان له ، وتقديم الصفة الجار والمجرور على الصفة المفردة جائز كما صرح به الرضى وغيره أى لا بارد كسائر الظلال ، ولا نافع لمن يأوى اليه من أذى الحر - وذلك كرمه - فهناك استعارة ، ونفى ذلك ليمحق توهم مافى الظل من الاسترواح اليه وإن وصف أولا بقوله تعالى : (من يحموم) والمعنى أنه ظل حار ضار إلا أن للنفى شأنا ليس للاثبات ومن ذلك جاء التهكم والتعريض بأن الذى يستأهل الظل الذى فيه برد وإكرام غير هؤلاء فيكون

Marfat.com

أشجى لحلوقهم وأشد لتحسرهم ، وقيل : الكرم باعتبار أنه مرضى فى بابه،فالظل الكريم هو المرضى فى برده وروحه ، وفيه أنه لايلائم ماهنا لقوله تعالى : (لابارد) وجوز أن يكون ذلك نفياً لكرامة من يستروح اليه ونسب إلى الظل مجازاً ، والمراد أنهم يستظلون به وهم مهانون ، وقد يحتمل المجاس الردئ لنيل الكرامة، وفى البحر يجوز أن يكونا صفتين - ليحموم - ويلزم منه وصف الظل بهما ، وتعقب بأن وصف اليحموم وهو الدخان بذلك ليس فيه كبير فائدة ، وقرأ ابن أبى عبلة (لابارد ولا كريم) برفعهما أى لاهو بارد ولا كريم على حد قوله * فأبيت لاحرج ولا محروم * أى لاأنا حرج ولا محروم ، وقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ٤٥ ﴾ تعليل لابتلائهم بما ذكر من العذاب ، وسلك هذا المسلك فى تعليل الابتداء بالعذاب اهتماما بدفع توهم الظلم فى التعذيب ، ولما كان إيصال الثواب مما ليس فيه توهم نقص أصلا لم يسلك فيه نحو هذا ، والمترف هنا بقرينة المقام هو المتروك يصنع مايشاء لايمنع ، والمعنى أنهم عذبوا لأنهم كانوا قبل ماذكر من العذاب فى الدنيا متبعين هوى أنفسهم وليس لهم رادع منها يردعهم عن مخالفة أوامره عز وجل وارتكاب نواهيه سبحانه كذا قيل ، وقيل : هو العاتى المستكبر عن قبول الحق والاذعان له ، والمعنى أنهم عذبوا لانهم كانوا فى الدنيا مستكبرين عن قبول ماجاءتهم به رسلهم من الايمان بالله عز وجل وماجاء منه سبحانه، وقيل : هو الذى أترفته النعمة أى أبطرته وأطغته ، وقريب منه ماقيل :هو المنعم المنهمك فى الشهوات،وعليه قول أبى السعود أى أنهم كانوا قبل ماذكر من سوء العذاب فى الدنيا منعمين بأنواع النعم من المآكل والمشارب والمساكن الطيبة والمقامات الكريمة منهمكين فى الشهوات فلا جرم عذبوا بنقائضها ، وتعقب بأن كثيراً من أهل الشمال ليسوا مترفين بالمعنى الذى اعتبره فكيف يصح تعليل عذاب الكل بذلك ولا يرد هذا على ماقدمناه من القولين كما لايخفى *

ومن الناس من فسر المترف بما ذكر وتفصى عن الاعتراض بأن تعليل عذاب الكل بما ذكر فى حيز العلة لايستدعى أن يكون كل من المذكورات موجوداً فى كل من أصحاب الشمال بل وجود المجموع فى المجموع وهذا لايضر فيه اختصاص البعض بالبعض فتأمله ، وقيل :المترف المجعول ذا ترفة أى نعمة واسعة والكل مترفون بالنسبة إلى الحالة التى يكونون عليها يوم القيامة ، وهو على مافيه لايظهر أمر التعليل عليه ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ ﴾ يتشددون ويمتنعون من الاقلاع ويداومون ﴿ عَلَى الْحِنثِ ﴾ أى الذنب ﴿ الْعَظِيمِ ٤٦ ﴾ وفسر بعضهم الحنث بالذنب العظيم لابمطلق الذنب وأيد بأنه فى الاصل العدل العظيم فوصفه بالعظيم للمبالغة فى وصفه بالعظم كما وصف الطود وهو الجبل العظيم به أيضاً،والمراد به كما روى عن قتادة . والضحاك .وابن زيد الشرك وهو الظاهر *

وأخرج عبد بن حميد عن الشعبى أن المراد به الكبائر وكأنه جعل المعنى - وكانوا يصرون على كل حنث عظيم - وفى رواية أخرى عنه أنه اليمين الغموس وظاهره الاطلاق،وقال التاج السبكى فى طبقاته :سألت الشيخ - يعنى والده تقى الدين -ماالحنث العظيم ؟- فقال : هو القسم على إنكار البعث المشار اليه بقوله تعالى :(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت) وهو تفسير حسن لأن الحنث وإن فسر بالذنب مطلقاً أو العظيم فالمشهور استعماله فى عدم البر فى القسم ، وتعقب بأنه يأباه قوله تعالى :

﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ﴾ إلى آخره للزوم التكرار ، وأجيب بأن المراد بالأول

Marfat.com

وصفهم بالثبات على القسم الكاذب و بالثانى وصفهم بالاستمرار على الانكار و الرمز إلى استدلال ظاهر الفساد مع أنه لا محذور فى تكرار ما يدل على الانكار وهو توطئة وتمهيد لبيان فساده، والمراد بقولهم:- كنا ترابا وعظاما- كان بعض أجزائنا من اللحم والجلد ونحوهما ترابا وبعضها عظاما نخرة، وتقديم التراب لأنه أبعد عن الحياة التى يقتضيها ماهم بصدد إنكاره من البعث ، -وإذا- متمحضة للظرفية والعامل فيها مادل عليه قوله تعالى :

﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ٤٧ ﴾ لامبعوثون نفسه لتعدد مايمنع من عمل مابعده فيماقبله - وهو نبعث- وهو المرجع للانكار وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيص إنكاره به فانهم منكرون للإحياء بعد الموت وإن كان البدن على حاله لتقوية الانكار للبعث بتوجيهه اليه فى حالة منافية له بالكلية وهذا كالاستدلال على مايزعمونه، وتكرير الهمزة لتأكيد النكير وتحلية الجملة بأن لتأكيد الانكار لالإنكار التأكيد، وقوله سبحانه:﴿ أَوَءَابَاؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ٤٨ ﴾ عطف على محل -إن- واسمها .أو على الضمير المستترفى مبعوثون وحسن للفصل بالهمزة وإن كانت حرفا واحداً - كما قال الزمخشرى - ولا يضر عمل ماقبل هذه الهمزة فى المعطوف بعدها لأنها مكررة للتأكيد وقد زحلقت عن مكانها ، وقولهم : الحرف إذا كرر للتأكيد فلا بد أن يعاد معه ماأتصل به أولا أوضمير لا يسلم اطراده لورود * * ولا -للما- بهم أبدا أدواء * وأمثاله، وجوز أن يكون (آباؤنا) مبتدأ وخبره محذوف دل عليه ماقبل أى مبعوثون، والجملة عطف على الجملة السابقة وهو تكلف يغنى عنه العطف المذكور والمعنى -أيبعث أيضا آباؤنا- على زيادة الاستبعاد يعنون أنهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل ، وقرأ قالون . وابن عامر(أو آباؤنا) بإسكان الواو وعلى هذه القراءة لا يعطف على الضمير إذ لا فاصل*

﴿ قُلْ ﴾ رداً لإنكارهم وتحقيقاً للحق ﴿ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ٤٩ ﴾ من الامم الذين من جملتهم أنتم وآباؤكم ، وتقديم الأولين للمبالغة فى الرد حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشد من إنكارهم لبعثهم مع مراعاة الترتيب الوجودى ﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ بعد البعث ، وقرئ (لمجمعون) ﴿ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ٥٠ ﴾ وهو يوم القيامة ومعنى كونه معلوماً كونه معيناً عند الله عز وجل ، والميقات ما وقت به الشئ أى حد، ومنه مواقيت الإحرام وهى الحدود التى لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرما ، وإضافته (إلى يوم) بيانية كما فى خاتم فضة ، وكون يوم القيامة ميقاتاً لأنه وقتت به الدنيا ، و(إلى) للغاية والانتهاء ، وقيل : والمعنى (لمجموعون) منتهين إلى ذلك اليوم ، وقيل :ضمن معنى السوق فلذا تعدى بها ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّالُّونَ ﴾ عطف على (إن الأولين) داخل فى حيز القول ، و(ثم) للتراخى الزمانى أو الرتبى ﴿ ٱلْمُكَذِّبُونَ ٥١ ﴾ بالبعث ، أو بما يعمه وغيره ويدخل هو دخولا أولياً للسياق على ماقيل ، والخطاب لأهل مكة وأضرابهم ﴿ لَأَكِلُونَ ﴾ بعد البعث والجمع ودخول جهنم ﴿ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ٥٢ ﴾ (من) الأولى لابتداء الغاية والثانية لبيان الشجر وتفسيره أى مبتدءون للأكل من شجر هو زقوم ، وجوز كون الأولى تبعيضية و(من)الثانية على حالها ، وجوز كون (من زقوم) بدلا من قوله تعالى : (من شجر) فمن تحتمل الوجهين ، وقيل : الاولى زائدة ، وقرأ عبد الله من شجرة فوجه التأنيث ظاهر فى قوله تعالى :

﴿ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ٥٣ ﴾ أى بطونكم من شدة الجوع فانه الذى اضطرهم وقسرهم على أكل مثلها مما

Marfat.com

لا يؤكل ، وأما على قراءة الجمهور فوجهه الحمل على المعنى لأنه بمعنى الشجرة ، أو الاشجار إذا نظر لصدقه على المتعدد ، وأما التذكير على هذه القراءة فى قوله سبحانه : ﴿ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ ﴾ أى عقيب ذلك بلا ريث ﴿ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ٥٤ ﴾ أى الماء الحار فى الغاية لغلبة العطش فظاهر لايحتاج إلى تأويل ، وقال بعضهم: التأنيث أولا باعتبار المعنى والتذكير ثانيا باعتبار اللفظ ، فقيل عليه : إن فيه اعتبار اللفظ بعد اعتبار المعنى على خلاف المتعارف فلو أعيد الضمير المذكر على الشجر باعتبار كونه مأكولا ليكون التذكير والتأنيث باعتبار المعنى كان أولى وفيه بحث ، ووجهه على القراءة الثانية أن الضمير عائد على الزقوم أو على الشجر باعتبار أنها زقوم أو باعتبار أنها مأكول ، وقيل : هو مطلقاً عائد على الأكل ،وتعقب بأنه بعيد لأن الشرب عليه لاعلى تناوله مع ما فيه من تفكيك الضمائر وكونه مجازاً شائعاً وغير ملبس لايدفع البعد فتأمل ۞

﴿ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ٥٥ ﴾ قال ابن عباس. ومجاهد. وعكرمة. والضحاك جمع أهيم وهو الجمل الذى أصابه الهيام بضم الهاء وهو داء يشبه الاستسقاء يصيب الابل فتشرب حتى تموت ، أو تسقم سقماً شديداً ، ويقال إبل هيماء وناقة هيماء كما يقال : جمل أهيم قال الشاعر :

فأصبحت (كالهيماء لا الماء مبرد صداها) ولا يقضى عليها هيامها

وجعل بعضهم (الهيم) هنا جمع الهيماء ، وقيل : هو جمع هائم أو هائمة ، وجمع فاعل على فعل كبازل وبزل شاذ ، وعن ابن عباس أيضا . وسفيان (الهيم) الرمال التى لاتروى من الماء لتخلخلها ومفرده هيام بفتح الهاء على المشهور كسحاب وسحب ثم خفف وفعل به مافعل بجمع أبيض من قلب الضمة كسرة لتسلم الياء ويخف اللفظ فكسرت الهاء لاجل الياء وهو قياس مطرد فى بابه ، وقال ثعلب : هو بالضم كقراد وقرد ثم خفف وفعل به مافعل بما سمعت والعطف بالفاء قيل : لأن الافراط بعد الأصلى ، وقيل : لأن كلا من المتعاطفين أخص من الآخر فان شارب الحميم قد لايكون به داء الهيام ومن به داء الهيام قد يشرب غير الحميم ، والشرب الذى لايحصل الرى ناشئ عن شرب الحميم لانه لا يبل الغليل ، والذى اختاره ماقاله مفتى الديار الرومية : إن ذلك كالتفسير لما قبله أى لايكون شربكم شربا معتاداً بل يكون مثل شرب الهيم ،والشرب بالفتح مصدر ، وقيل : اسم لما يشرب ،وقرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم - كما روى جماعة منهم الحاكم وصححه - عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما « شرب » بفتح الشين وهو مصدر شرب المقيس ، وبذلك قرأ جمع من السبعة. والاعرج . وابن المسيب. وشعيب. ومالك بن دينار . وابن جريج ،وقرأ مجاهد . وأبو عثمان النهدى بكسر الشين وهو اسم بمعنى المشروب لامصدر كالطحن والرعى ﴿ هَٰذَا ﴾ الذى ذكر من ألوان العذاب ﴿ نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ٥٦ ﴾ يوم الجزاء فاذا كان ذلك نزلهم وهو مايقدم للنازل مما حضر فما ظنك بما لهم بعد مااستقر لهم القرار واطمأنت لهم الدار فى النار ، وفى جعله نزلا مع أنه مما يكرم به النازل من التهكم مالايخفى ، ونظير ذلك قوله :

وكنا إذ الجبار بالجيش ضافنا (جعلنا القنا والمرهفات له نزلا)

وقرأ ابن محيصن . وخارجة عن نافع . ونعيم . ومحبوب . وأبو زيد . وهرون . وعصمة. وعباس كلهم عن أبى عمرو نزلهم بتسكين الزاى المضمومة للتخفيف كما فى البيت ،والجملة مسوقة من جهته سبحانه وتعالى بطريق الفذلكة مقررة لمضمون الكلام الملقن غير داخلة تحت القول ، وقوله تعالى :

Marfat.com

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ٥٧ ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الكفرة بطريق الالزام والتبكيت والفاء لترتيب التحضيض على ماقبلها أى فهلا تصدقون بالخلق بقرينة (نحن خلقناكم) ولما لم يحقق تصديقهم المشعر به قوله تعالى:(ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) عملهم حيث لم يقترن بالطاعة والاعمال الصالحة بل اقترن بما ينبىء عن خلافه من الشرك والعصيان نزل منزلة العدم والانكار فحضوا على التصديق بذلك ، وقيل : المراد فهلا تصدقون بالبعث لتقدمه وتقدم إنكاره فى قولهم (أئنا لمبعوثون) فيكون الكلام إشارة إلى الاستدلال بالابداء على الاعادة فان من قدر عليه قدر عليها حتما ، والاول هو الوجه كما يظهر مما بعد إن شاء الله تعالى ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ أى ماتقذفونه فى الارحام من النطف ، وقرأ ابن عباس . وأبو التمال (تمنون) بفتح التاء من منى النطفة بمعنى أمناها أى أزالها بدفع الطبيعة ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ ﴾ أى تقدرونه وتصورونه بشراً سوياً تام الخلقة ،فالمراد خلق مايحصل منه على أن فى الكلام تقديراً أو تجوزاً ،وجوز إبقاء ذلك على ظاهره أى (أأنتم تخلقونه) وتنشئون نفس ذات ماتمنونه ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ٥٩ ﴾ له من غير دخل شئ فيه ـ وأرأيتم ـ قد مر الكلام غير مرة فيه ، ويقال هنا : إن اسم الموصول مفعوله الأول والجملة الاستفهامية مفعوله الثانى ، وكذا يقال فيما بعد من نظائره وما يعتبر فيه الرؤية بصرية تكون الجملة الاستفهامية فيه مستأنفة لامحل لها من الاعراب ، وجوز فى ـ أنتم ـ أن يكون مبتدأ ، والجملة بعده خبره ، وأن يكون فاعلا لفعل محذوف والاصل أتخلقون فلما حذف الفعل انفصل الضمير ، واختاره أبو حيان ، و(أم) قيل : منقطعة لأن مابعدها جملة فالمعنى ـ بل أنحن الخالقون ـ على أن الاستفهام للتقرير ، وقال قوم من النحاة : متصلة معادلة للهمزة كأنه قيل : (أأنتم تخلقونه أم نحن) ثم جئ ـ بالخالقون ـ بعد بطريق التأكيد لابطريق الخبرية أصالة ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ قسمناه عليكم ووقتنا موت كل أحد بوقت معين حسبما تقتضيه مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة ،وقرأ ابن كثير (قدرنا) بالتخفيف ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٦٠ ﴾ أى لايغلبنا أحد ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ ﴾ أى على أن نذهبكم ونأتى مكانكم أشباهكم من الخلق فالسبق مجاز عن الغلبة استعارة تصريحية أو مجاز مرسل عن لازمه ،وظاهر كلام بعض الأجلة أنه حقيقة فى ذلك إذا تعدى بعلى، والجملة فى موضع الحال من ضمير (قدرنا) وكأن المراد (قدرنا) ذلك ونحن قادرون على أن نميتكم دفعة واحدة ونخلق أشباهكم .

﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ٦١ ﴾ من الخلق والاطوار التى لاتعهدونها ، وقال الحسن: من كونكم قردة وخنازير ، ولعل اختيار ذلك لان الآية تنحو إلى الوعيد ، والمراد ونحن قادرون على هذا أيضا وجوز أن يكون أمثالكم جمع مثل بفتحتين بمعنى الصفة لاجمع مثل بالسكون بمعنى الشبه كما فى الوجه الاول أى ونحن نقدر على أن نغير صفاتكم التى أنتم عليها خَلْقاً وَخُلُقاً وننشئكم فى صفات لاتعلمونها ،وقيل : المعنى وننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا ،وقيل : المعنى وما يسبقنا أحد فيهرب من الموت أو يغير وقته الذى وقتناه ، على أن المراد تمثيل حال من سلم من الموت أو تأخر أجله عن الوقت المعين له بحال من طلبه طالب فلم يلحقه وسبقه ، وقوله تعالى :(على أن نبدل) الخ فى موضع الحال من الضمير المستتر فى مسبوقين أى حال كونا قادرين

Marfat.com

أو عازمين على تبديل أمثالكم، والجملة السابقة على حالها ، وقال الطبرى : (على أن نبدل) متعلق ـ بقدرنا ـ وعلة له وجملة (وما نحن بمسبوقين) اعتراض ، والمعنى نحن قدرنا بينكم الموت لان نبدل أمثالكم أى نميت طائفة ونبدلها بطائفة هكذا قرنا بعد قرن ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ من خلقكم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة ؛ وقال قتادة : هى فطرة آدم عليه السلام من التراب ولا ينكرها أحد من ولده ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ٦٢ ﴾ فهلا تتذكرون أن من قدر عليها فهو على النشأة الأخرى أقدر وأقدر فانها أقل صنعا لحصول المواد وتخصيص الاجزاء وسبق المثاق ، وهذا ـ على ماقالوا ـ دليل على صحة القياس لكن قيل : لا يدل إلا على قياس الأولى لانه الذى فى الآية ، وفى الخبر عجباً كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة الاولى ، وعجباً للمصدق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور *

وقرأ طلحة تذكرون بالتخفيف وضم الكاف ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ٦٣ ﴾ ماتبذرون حبه وتعملون فى أرضه ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ ﴾ تنبتونه وتردونه نباتاً يرف وينمى إلى أن يبلغ الغاية ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤ ﴾ أى المنبتون لا أنتم والكلام فى ـ أنتم ـ و (أم) كما مر آنفا ، وأخرج البزار . وابن جرير . وابن مردويه . وأبو نعيم . والبيهقى فى شعب الايمان ـ وضعفه ـ وابن حبان ـ كما قال الخفاجى ـ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا يقولن أحدكم زرعت ولكن ليقل حرثت ، ثم قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه ألم تسمعوا الله تعالى يقول : (أفرأيتم ماتحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) » يشير رضى الله تعالى عنه إلى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ النهى من هذه الآية فانه أسند الحرث إلى المخاطبين دون الزرع ، وقال القرطبى : إنه يستحب للزارع أن يقول بعد الاستعاذة وتلاوة هذه الآية الله تعالى الزارع والمنبت والمبلغ اللهم صل على محمد وارزقنا ثمره وجنبنا ضرره واجعلنا لأنعمك من الشاكرين ، قيل : وقد جرب هذا الدعاء لدفع آفات الزرع كلها وإنتاجه ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ هشيما متكسراً متفتتاً لشدة يبسه بعدما أنبتناه وصار بحيث طمعتم فى حيازة غلاله ﴿ فَظَلْتُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ تَفَكَّهُونَ ٦٥ ﴾ تتعجبون من سوء حاله إثر ماشاهدتموه على أحسن ما يكون من الحال على ماروى عن ابن عباس . ومجاهد . وقتادة ، وقال الحسن : تندمون أى على ماتعبتم فيه ، وأنفقتم عليه من غير حصول نفع ، أو على ماافترفتم لأجله من المعاصى ، وقال عكرمة : تلاومون على مافعلتم ، وأصل التفكه التنقل بصنوف الفاكهة واستعير للتنقل بالحديث وهو هنا ما يكون بعد هلاك الزرع وقد كنى به فى الآية عن التعجب ، أو الندم . أو التلاوم على اختلاف التفاسير ، وفى البحر كل ذلك تفسير باللازم ، ومعنى (تفكهون) تطرحون الفكاهة عن أنفسكم وهى المسرة ، ورجل فكه منبسط النفس غير مكترث بشىء وتفكه من أخوات تحرج وتحوب أى إن التفعل فيه للسلب *

وقرأ أبو حيوة . وأبو بكر فى رواية العتكى عنه (فظلتم) بكسر الظاء كما قالوا : مست بالكسر ومست بالفتح ، وحكاها الثورى عن ابن مسعود وجاءت عن الأعمش ، وقرأ عبد الله . والجحدرى ـ فظللتم ـ بلامين أولاهما مكسورة ، وقرأ الجحدرى أيضاً كذلك مع فتح اللام والمشهور ظللت بالكسر ، وقرأ أبو حزام تفكنون بالنون بدل الهاء ، قال ابن خالويه : تفكه بالهاء تعجب ، وتفكن بالنون تندم ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ٦٦ ﴾ أى معذبون

Marfat.com

مهلكون من الغرام وهو الهلاك قال الشاعر :

إن يعذب يكن (غراما) وإن يع ط جزيلا فانـــه لا يبالى

والمراد مهلكون بهلاك رزقنا ، وقيل : بالمعاصى أو ملزمون غرامة بنقص رزقنا ، وقرأ الاعمش . والجحدرى . وأبو بكر ـ أئنا بالاستفهام والتحقيق ، والجملة على القراءتين بتقدير قول هو فى حيز النصب على الحالية من فاعل تفكهون أى قائلين أو تقولون ذلك ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ٦٧ ﴾ محدودون لا مجدودون أو محرومون الرزق كأنهم لما قالوا إنا مهلكون لهلاك رزقنا أضربوا عنه وقالوا : بل هذا أمر قدر علينا النحوسة طالعنا وعدم بختنا ، أو لما قالوا : إنا ملزمون غرامة بنقص أرزاقنا أضربوا فقالوا : (بل نحن محرمون) الرزق بالكلية ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ٦٨ ﴾ عذباً فراتاً ، وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه لأن الشرب أهم المقاصد المنوطة به ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ﴾ أى السحاب واحدته مزنة ، قال الشاعر :

فلا (مزنة ودقت ودقها) ولا أرض أبقل إبقالها

وقيل : هو السحاب الأبيض وماؤه أعذب ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ٦٩ ﴾ له بقدرتنا ۞

﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا ﴾ ملحاً ذعاقا لا يمكن شربه من الأجيج وهو تلهب النار . وقيل : الأجاج كل مايلذع الفم ولا يمكن شربه فيشمل الملح والمر والحار ، فإما أن يراد ذلك ، أو الملح بقرينة المقام وحذفت اللام من جواب لو ههنا للقرينة اللفظية والحالية ومتى جاز حذف ـ لم أر ـ فى قول أوس :

حتى إذا الـكلاب قال لها (. . .) كاليوم مطلوبا ولا طالبا

والقرينة حالية فأولى أن يجوز حذفها وحدها لذلك على ما قرره الزمخشرى ، وقرر وجهاً آخر حاصله أن اللام لمجرد التأكيد فتناسب مقام التأكيد فأدخلت فى آية المطعوم دون المشروب للدلالة على أن أمره مقدم على أمره ، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب تبع له ألا يرى أن الضيف يسقى بعد أن يطعم ، وقد ذكر الأطباء أن الماء مبذرق ، ويؤيد ذلك تقديمه على المشروب فى النظم الجليل ، وللامام فى هذا المقام كلام طويل اعترض به على الزمخشرى وبين فيه وجه الذكر أولا والحذف ثانياً ، ولم أره أتى بما يشرح الصدر ، وخير منه عندى قول ابن الاثير فى المثل السائر : إن اللام أدخلت فى المطعوم دون المشروب لأن جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً فى العرف والعادة والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب ، وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الاراضى المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة فلم يحتج فى جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد فلذا لم تدخل لام التأكيد المفيدة لزيادة التحقيق ، وأما المطعوم فان جعله حطاماً من الاشياء الخارجة عن المعتاد وإذا وقع يكون عن سخط شديد ، فلذا قرن باللام لتقرير إيجاده وتحقيق أمره انتهى ۞

﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ٧٠ ﴾ تحضيض على شكر الـكل لأنه أفيد دون عذوبة الماء فقط كما ذهب اليه البعض ۞

نعم أخرج ابن أبى حاتم عن أبى جعفر رضى الله تعالى عنه «أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان إذا شرب الماء قال : الحمد لله الذى سقانا عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاجا بذنوبنا» ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ٧١ ﴾ أى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ ﴾ التى منها الزناد وهى المرخ والعفار ، وقيل :

Marfat.com

المراد بالشجرة نفس النار كأنه قيل: نوعها أو جنسها فاستعير الشجرة لذلك وهو قول متكلف بلاحاجة ٭

﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ٧٢ ﴾ لها بقدرتنا والتعبير عن خلقها بالانشاء المنبئ عن بديع الصنع المعرب عن كمال القدرة والحكمة لما فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الأشجار التى لاتخلو عن النار حتى قيل - فى كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار - كما أن التعبير عن نفخ الروح بالانشاء فى قوله تعالى: (ثم أنشأناه) خلقاً آخر لذلك ٭

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ استئناف معين لمنافعها أى جعلناها تذكيراً لنار جهنم حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها ويذكروا بها ما أوعدوا به ، أوجعلناها تذكرة وأنموذجا من جهنم لما فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة عنه صلى الله تعالى عليه وسلم « ناركم هذه التى توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » وعلى الوجهين التذكرة من الذكر المقابل للنسيان ولم ينظر فى الأول إلى أنها من جنس نار جهنم أولا وفى الثانى نظر إلى ذلك، وقيل: تبصرة فى أمر البعث لأن من أخرج النار من الشجر الأخضر المضاد لها قادر على إعادة ماتفرقت مواده، وقيل : تبصرة فى الظلام يبصر بضوئها ، وفيه أن التذكرة لاتكون بمعنى التبصرة المأخوذة من البصر وكون المراد تذكرة لنار جهنم هو المأثور عن الكثيرين ، ومنهم ابن عباس . ومجاهد . وقتادة ﴿ وَمَتَاعاً ﴾ ومنفعة ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ٧٣ ﴾ للذين ينزلون القواء وهى القفر من أقوى دخل القواء كأصحر دخل الصحراء وتخصيص المقوين بذلك لانهم أحوج إليها فان المقيمين ، أو النازلين بقرب منهم ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح بالزناد ٭

وقيل:(للمقوين) أى المسافرين، ورواه جمع عن ابن عباس . وعبد بن حميد عن الحسن ، وهو . وابن جرير . وعبد الرزاق عن قتادة بزيادة كم من قوم قد سافروا ثم أرملوا فأججوا ناراً فاستدفئوا وانتفعوا بها، وكان إطلاق المقوين على المسافرين لانهم كثيراً مايسلكون القفراء والمفاوز ، وقيل : (للمقوين) للفقراء يستضيئون بها فى الظلمة ويصطلون من البرد كأنه تصور من حال الحاصل فى القفر الفقر ، فقيل : - أقوى - فلان أى افتقر كقولهم أترب وأرمل ، وقال ابن زيد: للجائعين لانهم أقوت أى خلت بطونهم ومزاودهم من الطعام فهم يحتاجون اليها لطبخ مايأكلون وخصوا - على ماقيل - لأن غيرهم يتنعم بها لايجعلها متاعا، وتعقب بأنه بعيد لعدم انحصار مايهمهم ويستدخلتهم فيما لايؤكل إلا بالطبخ ، وقال عكرمة . ومجاهد : المقوين المستمتعين بها من الناس أجمعين المسافرين والحاضرين يستضيئون بها ويصطلون من البرد وينتفعون بها فى الطبخ والخبز ، قال العلامة الطيبى. والطبرسى: وعلى هذا القول - المقوى - من الاضداد يقال للفقير : مقو لخلوه من المال ، وللغنى مقو لقوته على مايريد يقال : أقوى الرجل إذا صار إلى حال القوة والمعنى متاعا للاغنياء والفقراء لانه لاغنى لاحد عنها انتهى ٭

وفيه بحث لايخفى، ولعل الأقرب عليه أنه أريد بالاقواء الاحتياج والمستمتع بها محتاج اليها فتدبر، وتأخير هذه المنفعة للتنبيه على أن الأهم هو النفع الاخروى وتقديم أمر الماء على أمر النار لان الاحتياج اليه أشدوا كثر والانتفاع به أعم وأوفر ، وقال بعضهم : قدم أمر خلق الانسان من نطفة لان النعمة فى ذلك قبل النعمة فى الثلاثة بعد ، ثم ذكر بعده مابه قوام الانسان من فائدة الحرث وهو الطعام الذى لايستغنى عند الجسد الحى وذلك الحب الذى يختبز فيحتاج بعد حصوله إلى حصول الماء ليعجن به فلذا ذكر بعده ثم إلى النار لتصيره خبزاً فلذا ذكرت بعد الماء وهو كما ترى ، واستحسن بعضهم من القارىء أن يقول بعد كل جملة استفهامية من الجمل السابقة : بل أنت يارب ، فقد أخرج عبد الرزاق . وابن المنذر . والحاكم . والبيهقى فى سننه عن حجر المروى

Marfat.com

قال : بت عند علىّ كرم تعالى وجهه فسمعته وهو يصلى بالليل يقرأ فمر بهذه الآية (أفرأيتم ماتمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) فقال : بل أنت يارب ثلاثا ، ثم قرأ (أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) فقال : بل أنت يارب ثلاثا ، ثم قرأ (أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) فقال : بل أنت يارب ثلاثا ، ثم قرأ (أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) فقال : بل أنت يارب ثلاثا ، وأنت تعلم أن فى استحسان قوله مثل ذلك فى الصلاة اختلافا بين العلماء ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ٧٤ ﴾ مرتب على ماعدد من بدائع صنعه عز وجل وودائع نعمه سبحانه وتعالى ، والمراد على ماقيل : أحدث التسبيح تنزيلا للفعل المتعدى منزلة اللازم وأريد من إحداثه استمراره لإيجاده لانه عليه الصلاة والسلام غير معرض عنه ، وتعقبه الطيبى بأن هذا عكس مايقتضيه لفظ الإحداث ، فالمراد تجديد التسبيح ، وفى الكلام إضمار أى سبح بذكر اسم ربك ، أو الاسم مجاز عن الذكر فان إطلاق الاسم للشىء ذكره ، والباء للاستعانة أو الملابسة وكونها للتعدية مما هو ظاهر كلام أبى حيان ليس بشىء ، والعظيم صفة للاسم ، أو للرب ، وتعقيب الأمر بالتسبيح لماعدد إما لتنزيهه تعالى عما يقوله الجاحدون لوحدانيته عز وجل الكافرون بنعمه سبحانه مع عظمها وكثرتها ، أو للشكر على تلك النعم السابقة لان تنزيهه تعالى وتعظيمه جل وعلا بعد ذكر نعمه سبحانه مدح عليها فهو شكر للمنعم فى الحقيقة ، أو للتعجب من أمر الكفرة فى غمط تلك النعم الباهرة مع جلالة قدرها وظهور أمرها ؛ وسبحان ترد للتعجب مجازاً مشهوراً فسبح بمعنى تعجب ، وأصله فقل سبحان الله للتعجب وفيه بعد وماتقدم أظهر *

هذا وجوز أن لايكون فى (باسم ربك) إضمار ولا مجاز بل يبقى على ظاهره فقد قالوا فى قوله تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى) : كما يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته سبحانه عن النقائص يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها عن سوء الأدب وهو أبلغ لانه يلزمه تقديس ذاته عز وجل بالطريق الاولى على طريق الكناية الرمزية ، وفيه أنه إنما يتأتى لو لم تذكر الباء ، وجعلها زائدة خلاف الظاهر ، وحال كونها للتعدية قد سمعته ، وجعل بعضهم على هذا الخطاب لغير معين فقال : إنه تعالى لما ذكر ماذكر من الأمور وكان الكل معترفين بأنها من الله تعالى وكان الكفار إذا طولبوا بالوحدانية قالوا : نحن لانشرك فى المعنى وإنما نتخذ أصناما آلهة وذلك إشراك فى الاسم ، والذى خلقنا وخلق السموات والارض هو الله تعالى فنحن ننزهه فى الحقيقة قال سبحانه : (فسبح باسم ربك) على معنى كما أنك أيها الغافل اعترفت بعدم اشتراكها فى الحقيقة اعترف بعدم اشتراكها فى الاسم ، لا تقل لغيره تعالى إلها فان الاسم يتبع المعنى والحقيقة ، فالخطاب كالخطاب فى قول الواعظ يامسكين أفنيت عمرك وماأصلحت أمرك لايريد به أحداً بعينه ، وإنما يريد أيها المسكين السامع وهو كما ترى ، نعم احتمال عموم الخطاب مما لاينكر لكن لايتعين عليه هذا التقرير ، ثم الظاهر أن المراد بذكر الرب أو ذكر اسمه سبحانه على ماتقرر سابقاً ماهو المتبادر المعروف *

وفى الكشف إن المراد بذلك تلاوته صلى الله تعالى عليه وسلم للقرآن أو لهذه السورة الكريمة المتضمنة لاثبات البعث والجزاء ومراتب أهله لينطبق عليه قوله تعالى بعد : (فلا أقسم) وعلى الاول لابد من إضمار - أى فسبح باسم ربك وامتثل ماأمرت به - فأقسم أنه لقرآن ، والغرض تأكيد الامر بالتسبيح ، وأنا أقول يتأتى الانطباق على الظاهر أيضاً سوى أنه يعتبر فى الكلام إضمار ولا بأس بأن يقال : إنه تعالى لما ذكر ماذكر من النعم الجليلة الداعية لتوحيده سبحانه ووصفه بما يليق به عز وجل قال سبحانه : (فسبح باسم ربك) أى فنزهه تعالى عما يقولون فى وصفه سبحانه : وأقبل على إنذارهم بالقرآن والاحتجاج عليهم به بعد الاحتجاج بما ذكرنا فأقسم أنه لقرآن كيت وكيت

Marfat.com

فلا فى قوله عز وجل : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ مزيدة للتأكيد مثلها فى قوله تعالى : (لئلا يعلم أهل الكتاب) أو هى لام القسم أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف نظير مافى قوله * أعوذ بالله من العقراب * واختاره أبو حيان ثم قال :وهو وإن كان قليلا فقد جاء نظيره فى قوله تعالى :(فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم) بياء بعد الهمزة وذلك فى قراءة هشام۞

ويؤيد قراءة الحسن . وعيسى . فلا قسم - وهو مبنى على ماذهب اليه تبعاً لبعض النحويين من أن فعل الحال يجوز القسم عليه فيقال : والله تعالى ليخرج زيد وعليه قول الشاعر * ليعلم ربى أن بيتى واسع * وحينئذ لا يصح أن يقرن الفعل بالنون المؤكدة لأنها تخلصه للاستقبال وهو خلاف المراد ، والذى اختاره ابن عصفور . والبصريون أن فعل الحال كما هنا لا يجوز أن يقسم عليه ومتى أريد من الفعل الاستقبال لزمت فيه النون المؤكدة فقيل : لأقسمن وحذفها ضعيف جداً ، ومن هنا خرجوا قراءة الحسن . وعيسى على أن اللام لام الابتداء والمبتدا محذوف لأنها لا تدخل على الفعل والتقدير فلأنا أقسم ،وقيل : نحوه فى قراءة الجمهور على أن الألف قد تولدت من الاشباع،وتعقب بأن المبتدا إذا دخل عليه لام الابتداء يمتنع أو يقبح حذفه لأن دخولها لتأكيده وهو يقتضى الاعتناء به وحذفه يدل على خلافه،وقال سعيد بن جبير .وبعض النحاة : - لا - نفى ورد لما يقوله الكفار فى القرآن من أنه سحر وشعر وكهانة كأنه قيل : فلا صحة لما يقولون فيه ثم استؤنف فقيل : (أقسم)الخ ، وتعقبه أبو حيان بأنه لا يجوز لما فيه من حذف اسم - لا - وخبرها فى غير جواب سؤال نحو - لا - فى جواب هل من رجل فى الدار، وقيل : الاولى فيما إذا قصد بلا نفى لمحذوف واستئناف لما بعدها فى اللفظ الاتيان بالواو نحو - لا - وأطال الله تعالى بقاءك ، وقال : بعضهم إن - لا - كثيراً ما يؤتى بها قبل القسم على نحو الاستفتاح كما فى قوله :

(لا وأبيك)ابنة العامرى لا يدعى القوم إنى أفر

وقال أبو مسلم وجمع: إن الكلام على ظاهره المتبادر منه،والمعنى لا أقسم إذ الامر أوضح من أن يحتاج إلى قسم أى لا يحتاج إلى قسم مّا فضلا عن أن هذا القسم العظيم،فقول مفتى الديار الرومية أنه يأباه تعيين المقسم به وتفخيمه ناشىء عن الغفلة على مالا يخفى على فطن ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ ﴾ أى بمساقط كواكب السماء ومغاربها كما جاء فى رواية عن قتادة . والحسن على أن الوقوع بمعنى السقوط والغروب وتخصيصها بالقسم لما فى غروبها من زوال أثرها، والدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير ، ولذا استدل الخليل عليه السلام بالأفول على وجود الصانع جل وعلا ، أو لأن ذلك وقت قيام المتهجدين والمبتهلين إليه تعالى وأوان نزول الرحمة والرضوان عليهم * وقد أخرج البخارى.ومسلم عن أبى هريرة مرفوعاً »ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعونى فأستجيب له من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له » وعن الحسن أيضاً المراد مواقعها عند الانكدار يوم القيامة قيل:وموقع عليه مصدر ميمى أواسم زمان ولعل وقوعها ذلك اليوم ليس دفعة واحدة والتخصيص لما فى ذلك من ظهور عظمته عز وجل وتحقق ماينكره الكفار من البعث ، وعن أبى جعفر . وأبى عبد الله على آبائهما وعليهما السلام المراد مواقعها عند الانقضاض إثر المسترقين السمع من الشياطين،وقد مرّ لك تحقيق أمر هذا الانقضاض فلا تغفل،وقيل:مواقع النجوم هى الأنواء التى يزعم الجاهلية

Marfat.com

أنهم يمطرون بها ، ولعله مأخوذ من بعض الآثار الواردة فى سبب النزول وسنذكره إن شاء الله تعالى وليس نصاً فى إرادة الأنواء بل يجوز عليه أن يراد المغارب مطلقا ٭

وأخرج عبد الرزاق . وابن جرير عن قتادة أنها منازلها ومجاريها على أن الوقوع النزول كما يقال: على الخبير سقطت وهو شائع والتخصيص لأن له تعالى فى ذلك من الدليل على عظيم قدرته وكمال حكمته مالا يحيط به نطاق البيان ، وقال جماعة منهم ابن عباس: النجوم نجوم القرآن ومواقعها أوقات نزولها ٭

وأخرج النسائى . وابن جرير . والحاكم وصححه . والبيهقى فى الشعب عنه أن قال: «أنزل القرآن فى ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم فرق فى السنين» وفى لفظ «ثم نزل من السماء الدنيا إلى الارض نجوماً ثم قرأ فلا أقسم بمواقع النجوم » وأيد هذا القول بأن الضمير فى قوله تعالى بعد : (إنه لقرآن) يعود حينئذ على ما يفهم من مواقع النجوم حتى يكاد يعدّ كالمذكور صريحا ولا يحتاج إلى أن يقال يفسره السياق كما فى سائر الأقوال، ووجه التخصيص أظهر من أن يخفى، ولعل الكلام عليه من باب ٭ وثنا ياك إنها إغريض ٭

وقرأ ابن عباس . وأهل المدينة . وحمزة . والكسائى (بموقع) مفرداً مراداً به الجمع ٭

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ ﴾ مشتمل على اعتراض فى ضمن آخر فقوله تعالى : (إنه لقسم)(عظيم) معترض بين القسم والمقسم عليه وهو قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ٧٧ ﴾ وهو تعظيم للقسم مقرر مؤكد له ، وقوله عز وجل (لو تعلمون) معترض بين الصفة والموصوف وهو تأكيد لذلك التعظيم وجواب (لو) إما متروك أريد به نفى علمهم أو محذوف ثقة بظهوره أى لعظمتموه أو لعملتم بموجبه ،ووجه كون ذلك القسم عظيما قد أشير اليه فيما مر ، أو هو ظاهر بناءً على أن المراد (بمواقع النجوم) ماروى عن ابن عباس. والجماعة، ومعنى كون القرآن كريماً انه حسن مرضى فى جنسه من الكتب أو نفاع جم المنافع ، وكيف لا وقد اشتمل على أصول العلوم المهمة فى إصلاح المعاش، والمعاد، والكرم على هذا مستعار - كما قال الطيبى - من الكرم المعروف، وقيل: الكرم أعم من كثرة البذل والاحسان والاتصاف بما يحمد من الأوصاف ككثرة النفع فانه وصف محمود فكونه كرما حقيقة ، وجوز أن يراد كريم على الله تعالى قيل : وهو يرجع لما تقدم، وفيه تقدير من غير حاجة وأياما كان فمحط الفائدة الوصف المذكور قيل: إن مرجع الضمير هو القرآن لا من حيث عنوان كونه قرآنا فبمجرد الاخبار عنه بأنه قرآن تحصل الفائدة أى إنه لمقروء على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا أنه أنشأه كما زعمه الكفار ،وقوله تعالى : ﴿ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ٧٨ ﴾ وصف آخر للقرآن أى كائن فى كتاب مصون عن غير المقربين من الملائكة عليهم السلام لا يطلع عليه من سواهم ، فالمراد به اللوح المحفوظ كما روى عن الربيع بن أنس وغيره ،وقيل :أى فى كتاب مصون عن التبديل والتغيير وهو المصحف الذى بأيدى المسلمين ويتضمن ذلك الإخبار بالغيب لأنه لم يكن إذ ذاك مصاحف ، وأخرج عبد بن حميد. وابن جرير عن عكرمة أنه قال: فى كتاب أى التوراة والانجيل ، وحكى ذلك فى البحر ثم قال: كأنه قال: ذكر فى كتاب مكنون كرمه وشرفه، فالمعنى على هذا الاستشهاد بالكتب المنزلة انتهى ٭

والظاهر أنه أريد على هذا بالكتاب الجنس لتصح إرادة التوراة والانجيل ،وفى وصف ذلك بالمكنون خفاء ولعله أريد به جليل الشأن عظيم القدر فان الستر كاللازم للشئ الجليل ، وجوز إرادة هذا المعنى المجازى

Marfat.com

على غير هذا القول من الأقوال ، وقيل : الكتاب المكنون قلب المؤمن وهو كما ترى *

وقيل : المراد من كونه فى كتاب مكنون كونه محفوظاً من التغيير والتبديل ليس إلا كما قال تعالى: (وإنا له لحافظون) والمعول عليه ماتقدم ، وجوز تعلق الجار بكريم كما يقال زيد كريم فى نفسه ، والمعنى إنه كريم فى اللوح المحفوظ وإن لم يكن كريماً عند الكفار ، والوصفية أبلغ كما لا يخفى ، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ إما صفة بعد صفة لكتاب مراداً به اللوح ، فالمراد بالمطهرون الملائكة عليهم السلام أى المطهرون المنزهون عن كدر الطبيعة ودنس الحظوظ النفسية ، وقيل : عن كدر الاجسام ودنس الهيولى والطهارة عليهما طهارة معنوية ، ونفى مسه كناية عن لازمه وهو نفى الاطلاع عليه وعلى ما فيه ، وإما صفة أخرى لقرآن *

والمراد بالمطهرون المطهرون عن الحدث الأصغر والحدث الأكبر بحمل الطهارة على الشرعية ، والمعنى لا ينبغى أن يمس القرآن إلا من هو على طهارة من الناس فالنفى هنا نظير مافى قوله تعالى : (الزانى لا ينكح إلا زانية) وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه » الحديث وهو بمعنى النهى بل أبلغ من النهى الصريح ، وهذا أحد أوجه ذكروها للعدول عن جعل ـ لا ـ ناهية ، وثانيها أن المتبادر كون الجملة صفة والاصل فيها أن تكون خبرية ولا داعى لاعتبار الإنشائية وارتكاب التأويل ، وثالثها أن المتبادر من الضمة أنها إعراب فالحمل على غيره فيه إلباس ، ورابعها أن عبد الله قرأ مايمسه وهى تؤيد أن لا نافية وكون المراد بالمطهرين الملائكة عليهم السلام مروى من عدة طرق عن ابن عباس ، وكذا أخرجه جماعة عن أنس . وقتادة . وابن جبير . ومجاهد . وأبى العالية . وغيرهم إلا أن فى بعض الآثار عن بعض هؤلاء ماهو ظاهر فى أن الضمير فى (لا يمسه) مع كون المراد بالمطهرين الملائكة عليهم السلام راجع إلى القرآن *

أخرج عبد بن حميد . وابن جرير عن قتادة انه قال : فى الآية ذاك عند رب العالمين لا يمسه إلا المطهرون من الملائكة فأما عندكم فيمسه المشرك والنجس ، والمنافق الرجس ، وأخرجاهما . وابن المنذر . والبيهقى فى المعرفة عن الحبر قال : فى الآية الكتاب المنزل فى السماء لا يمسه إلا الملائكة ، ويشير اليه ماأخرج ابن المنذر عن النعيمى قال : قال مالك : أحسن ماسمعت فى هذه الآية (لا يمسه إلا المطهرون) أنها بمنزلة الآية التى فى عبس (كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام بررة) و كون المراد بهم المطهرين من الاحداث مروى عن محمد الباقر على آبائه وعليه السلام . وعطاء . وطاوس . وسالم *

وأخرج سعيد بن منصور . وابن أبى شيبة فى المصنف . وابن المنذر . والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن زيد قال : كنا مع سلمان - يعنى الفارسى - رضى الله تعالى عنه فانطلق إلى حاجة فتوارى عنا فخرج الينا فقلنا لو توضأت فسالناك عن أشياء من القرآن ؟ فقال : سلونى فإنى لست أمسه إنما يمسه المطهرون ثم تلا (لا يمسه إلا المطهرون) ، وقيل : الجملة صفة لقرآن ، والمراد - بالمطهرون - المطهرون من الكفر ، والمس مجاز عن الطلب كاللمس فى قوله تعالى : (إنا لمسنا السماء) أى لا يطلبه إلا المطهرون من الكفر ، ولم أر هذا مرويا عن أحد من السلف ، والنفى عليه على ظاهره ، ورجح جمع جعل الجملة وصفاً للقرآن لأن الكلام مسوق لحرمته وتعظيمه لا لشأن الكتاب المكنون ، وإن كان فى تعظيمه تعظيمه . وصحح الامام جعلها وصفاً للكتاب - وفيه نظر - وعلى الوصفية للقرآن ذهب من ذهب إلى اختيار تفسير المطهرين بالمطهرين عن الحدث الاكبر والاصغر *

وفى الاحكام للجلال السيوطى استدل الشافعى بالآية على منع المحدث من مس المصحف وهو ظاهر فى

Marfat.com

اختيار ذلك ، والاحتمال جعل الجملة صفة للكتاب المكنون أو للقرآن ، وكون المراد بالمطهرين الملائكة المقربين عليهم السلام على ماسمعت عن ابن عباس . وقتادة عدل الاكثرون عن الاستدلال بها على ذلك إلى الاستدلال بالاخبار ، فقدأخرج الامام مالك. وعبدالرزاق. وابن أبى داود . وابن المنذر عن عبدالله بن أبى بكر عن أبيه قال فى كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لعمرو بن حزم « ولا تمس القرآن إلا على طهور » * وأخرج الطبرانى. وابن مردويه عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : «قال رسول الله ﷺ : لا يمس القرآن إلا طاهر » إلى غير ذلك ، وقال بعضهم : يجوز أن يؤخذ منع مس غير الطاهر القرآن من الآية على الاحتمالين الآخرين أيضاً ، وذلك لأنها أفادت تعظيم شأن القرآن وكونه كريماً ، والمس بغير طهر مخل بتعظيمه فتأباه الآية وهو كما ترى ، وأطال الامام الكلام فى هذا المقام بما لا يخفى حاله على من راجعه ، نعم لا شك فى دلالة الآية على عظم شأن القرآن ومقتضى ذلك الاعتناء بشأنه ولا ينحصر الاعتناء بمنع غير الطاهر عن مسه بل يكون بأشياء كثيرة كالإكثار من تلاوته والوضوء لها وأن لا يقرأه الشخص وهو متنجس الفم فانه مكروه *

وقيل: حرام كالمس باليد المتنجسة ، وكون القراءة فى مكان نظيف ، والقارىء مستقبل القبلة متخشعا بسكينة ووقار مطرقاً رأسه ، والاستياك لقراءته ، والترتيل ، والتدبر ، والبكاء ، أو التباكى ، وتحسين الصوت بالقراءة وأن لا يتخذه معيشة ، وأن يحافظ على أن لا ينسى آية أوتيها منه ، فقد أخرج أبو داود وغيره « عرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها ، وأن لا يجامع بحضرته فان أراد ستره ، وأن لا يضع غيره من الكتب السماوية وغيرها فوقه ، وأن لا يقلب أوراقه بأصبع عليها بزاق ينفصل منه شىء فقد قيل : بكفر من يفعل ذلك . إلى أمور أخر مذكورة فى محالها ، وفى وجوب كون القارىء طاهراً من الاحداث خلاف ، فعن ابن عباس فى رواية أنه يجوز للجنب قراءة القرآن ، وروى ذلك أيضا عن الامام أبى حنيفة ، وعن ابن عمر أحب إلى أن لا يقرأ إلا طاهر وكأنهم اعتبروه كسائر الاذكار والفرق مثل الشمس ظاهر *

وقرأ عيسى (المطهرون) اسم مفعول مخففاً من أطهر ، ورويت عن نافع. وأبى عمرو ، وقرأ سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه (المطهرون) بتخفيف الطاء وتشديد الهاء وكسرها اسم فاعل من طهر أى (المطهرون) أنفسهم ، أو غيرهم بالاستغفار لهم والالهام ، وعنه أيضا (المطهرون) بتشديدهما وأصله المتطهرون فأدغم التاء بعد إبدالها فى الطاء ؛ ورويت عن الحسن. وعبد الله بن عون ، وقرئ المتطهرون على الاصل ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٨٠ ﴾ صفة أخرى للقرآن أى منزل ، أو وصف بالمصدر لأنه ينزل نجوماً من بين سائر كتب الله تعالى فكأنه فى نفسه تنزيل ولذلك أجرى مجرى بعض أسمائه فقيل جاء فى التنزيل كذا ونطق به التنزيل *

وجوز كونه خبر مبتدأ محذوف أى هو تنزيل على الاستئناف ، وقرىء تنزيلا بالنصب على نزل تنزيلا ﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ ﴾ أى أتعرضون فبهذا الحديث الذى ذكرت نعوته الجليلة الموجبة لإعظامه وإجلاله والإيمان بما تضمنه وأرشد اليه وهو القرآن الكريم ﴿ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ٨١ ﴾ متهاونون به كمن يدهن فى الأمر أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا به ، وأصل الادهان كما قيل : جعل الأديم ونحوه مدهونا بشىء من الدهن ولما كان ذلك ملينا ليناً محسوسا يراد به اللين المعنوى على أنه تجوز به عن مطلق اللين أو استعير له ، ولذا سميت المداراة مداهنة وهذا مجاز معروف ، ولشهرته صار حقيقة عرفية ، ولذا تجوز به هنا عن التهاون أيضا لأن المتهاون بالامر

Marfat.com

لا يتصلب فيه. وعن ابن عباس. والزجاج (مدهنون) أى مكذبون، وتفسيره بذلك لان التكذيب من فروع التهاون، وعن مجاهد أى منافقون فى التصديق به تقولون للمؤمنين آمنا به وإذا خلوتم إلى إخوانكم قلتم إنا معكم والخطاب عليه للمنافقين وما قدمناه أولى، والخطاب عليه للكفار كما يقتضيه السياق *

وجوز أن يراد بهذا الحديث ما تحدثوا به من قبل فى قوله سبحانه: (وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون) فالكلام عود إلى ذلك بعد رده كأنه قيل: أفبهذا الحديث الذى تتحدثون به فى إنكار البعث أنتم مدهنون أصحابكم أى تعلمون خلافه وتقولونه مداهنة أم أنتم به جازمون وعلى الإصرار عليه عازمون، ولا يخفى بعده، وفيه مخالفة لسبب النزول وستعلمه قريبا إن شاء الله تعالى ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ شكركم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ٨٢ ﴾ تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا، أخرج ذلك الامام أحمد. والترمذى وحسنه. والضياء فى المختارة. وجماعة عن على كرم الله تعالى وجهه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو إما إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى أن فى الكلام مضافا مقدراً أى شكر رزقكم أو إشارة إلى أن الرزق مجاز عن لازمه وهو الشكر، وحكى الهيثم بن عدى أن من لغة ازدشنوءة مارزق فلان فلاناً بمعنى شكره، ونقل عن الكرمانى أنه نقل فى شرح البخارى أن الرزق من أسماء الشكر واستبعد ذلك ولعله هو ماحكاه الهيثم، وفى البحر وغيره أن علياً كرم الله تعالى وجهه. وابن عباس قرءا - شكركم - بدل (رزقكم) وحمله بعض شراح البخارى على التفسير من غير قصد للتلاوة وهو خلاف الظاهر، وقد أخرج ابن مردويه عن أبى عبد الرحمن السلمى قال: قرأ على كرم الله تعالى وجهه (الواقعة) فى الفجر فقال: (وتجعلون - شكركم - أنكم تكذبون) فلما انصرف قال: إنى قد عرفت أنه سيقول قائل لِمَ قرأها هكذا إنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأ كذلك كانوا إذا أمطروا قالوا: أمطرنا بنوء كذا وكذا فأنزل الله تعالى - وتجعلون - شكركم أنكم إذا مطرتم تكذبون - ومعنى جعل شكرهم التكذيب جعل التكذيب مكان الشكر فكأنه عينه عندهم فهو من باب * تحية بينهم ضرب وجيع * ومنه قول الراجز:

وكان شكر القوم عند المنن (كى الصحيحات وفقء الأعين)

وأكثر الروايات أن قوله تعالى: (وتجعلون) الخ نزل فى القائلين: مطرنا بنوء كذا من غير تعرض لما قبله وأخرج مسلم. وابن المنذر. وابن مردويه عن ابن عباس قال: «مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال النبى عليه الصلاة والسلام: أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر قالوا: هذه رحمة وضعها الله وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا فنزلت هذه الآية (فلا أقسم بمواقع النجوم) حتى بلغ (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون)*

وأخرج نحوه ابن عساكر فى تاريخه عن عائشة رضى الله تعالى عنها وكان ذلك على ما أخرج ابن أبى حاتم عن أبى عروة رضى الله تعالى عنه فى غزوة تبوك نزلوا الحجر فأمرهم ﷺ أن لايحملوا من مائه شيئاً ثم ارتحلوا ونزلوا منزلا آخر وليس معهم ماء فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقام عليه الصلاة والسلام فصلى ركعتين ثم دعا فأمطروا وسقوا فقال رجل من الانصار يتهم بالنفاق: إنما مطرنا بنوء كذا فنزل مانزل، ولعل جمعا من الكفار قالوا نحو ذلك أيضا بل هم لم يزالوا يقولون ذلك، والأخبار متضافرة على أن الآية فى القائلين بالانواء، بل قال ابن عطية: أجمع المفسرون على أنها توبيخ لأولئك، وظاهر مقابلة الشكر بالكفر فى الحديث السابق أن المراد بالكفر كفران النعمة إذا أضيفت لغير موجدها جل جلاله؛

Marfat.com

وقد صح ذكره مع الايمان ، أخرج البخارى . ومسلم . وأبوداود . والنسائى .وغيرهم عن زيدبن خالد الجهنى قال: صلى بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الصبح بالحديبية فى إثرسماء كانت من الليل فلماسلم أقبل علينا فقال: هل تدرون ماقال ربكم فى هذه الليلة؟قالوا: الله ورسوله أعلم فقال: قال: ماأنعمت على عبادى نعمة إلاأصبح فريق منهم بها كافرين فأما من آمن بى وحمدنى على سقياى فذلك الذى آمن بى وكفر بالكوكب وأمامن قال مطرنا بنوء كذاوكذا فذلك الذى آمن بالكوكب وكفر بى» والآية على القول بنزولها فى قائلى ذلك ظاهرة فى كفرهم المقابل للايمان فكأنهم كانوا يقولونه عن اعتقاد أن الكواكب مؤثرة حقيقة موجدة للمطر وهو كفر بلا ريب بخلاف قوله مع اعتقاد أنه من فضل الله تعالى ، والنوء ميقات وعلامة له فانه ليس بكفر ، وقيل : تسميته كفراً لأنه يفضى إليه إذا اعتقد أنه مؤثر حقيقة ٠

هذا وقيل : معنى الآية ـ وتجعلون شكركم ـ لنعمة القرآن ـ أنكم تكذبون ـ به ، ويشير إلى ذلك مارواه قتادة عن الحسن بئس ما أخذ القوم لأنفسهم لم يرزقوا من كتاب الله تعالى إلا التكذيب ٠

وفى الارشاد أنه الأوفق لسياق النظم الكريم وسباقه ، وأقول ماقدمناه تفسير مأثور نطقت به السنة المقبولة ، وذهب اليه الجمهور وليس فيه ما يأبى إرادة معنى مطابق لسبب النزول وموافق لسياق النظم الكريم وسباقه ، وذلك بأن يقال : إنه عز وجل بعد أن وصف القرآن بما دل على جلالة شأنه وعزة مكانه وأشعر باشتماله على ما فيه تزكية النفوس وتحليتها بما يوجب كمالها من العقائد الحقة ونحوها حيث قال سبحانه :(تنزيل من رب العالمين)فعبر جل وعلا عن ذاته سبحانه بلفظ الرب الدال على التربية وهى تبليغ الشئ إلى كماله شيئاً فشيئاً ٠

وقد يستفاد ذلك من وصفه بكريم بناءاً على أن المراد به نفاع جم المنافع فانه لامنفعة أجل مماذكر وكان قدذكر عزوجل غير بعيد مايدل على أنه تعالى هو المنزل لماء المطر لاغيره سبحانه استقلالا ولا اشتراكا قال عز قائلا : أفبهذا القرآن الجليل الشأن المشتمل على العقائد الحقة المرشد إلى مافيه نفعكم أنتم متهاونون فلا تشكرون الله تعالى عليه وتجعلون بدل شكركم أنكم تكذبون به،ومن ذلك أنكم تقولون إذامطرتم مطرنا بنوء كذا وكذا فتسندون إنزال المطر إلى الكواكب وقد أرشدكم غير مرة إلى مايأبى ذلك من العقائد وهداكم إلى أنه تعالى هو المنزل للمطر لاالكواكب ولا غيرها أصلا ـ فما جاء من تفسير تكذبون بتقولون مطرنا بنوء كذا وكذا ليس المرادمنه إلا بيان نوع اقتضاه الحال من التكذيب بالقرآن المنعوت بتلك النعوت الجليلة وكون ذلك على الوجه الذى يزعمه الكفار تكذيباً به مما لاينتطح فيه كبشان ، وهذا لاتمحل فيه ، وقد يقال على تقدير أن يراد بالرزق المطر وكون (تكذبون) على معنى تكذبون بكونه ـ أى المطر ـ من الله تعالى حيث تنسبونه إلى الأنواء وإن لم أقف على التصريح به فى أثر يعول عليه ، المعنى أفبهذا القرآن الجليل المرشد إلى أن كل نعمة منه تعالى لاغير المصرح عن قريب بأنه المنزل للمطر وحده (أنتم مدهنون)أى تكذبون على ماسمعت عن ابن عباس.والزجاج ومن ذلك أنكم (تجعلون) موضع شكر مايرزقكم من المطر وينزله لكم أنكم تكذبون بكونه من الله تعالى وتنسبونه إلى الانواء ، والتبكيت الآتى مبنى على تكذيبهم بالقرآن المفهوم من (تكذبون) أو من قوله سبجانه :(أنتم مدهنون) لكن التكذيب به باعتبار التكذيب ببعض مانطق به بما سبق وتوقف المراد بالآية على الخبر غير بدع فى القرآن الكريم ، وحال عطف (تجعلون رزقكم أنكم تكذبون) على ما قبله لايخفى على نبيه ، فتأمل والله تعالى الموفق لفهم كتابه الكريم ٠

Marfat.com

وقرأ المفضل عن عاصم (تكذنون) بالتخفيف من الكذب وهو قولهم فى القرآن إنه ـ وحاشاه ـ افتراء ويرجع إلى هذا قولهم فى المطر : إنه من الأنواء لأن القرآن ناطق بخلافه ، وقوله تعالى :

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ٨٣ ﴾ الخ تبكيت كما سمعت وذلك باعتبار تكذيبهم بما نطق به قوله تعالى: (نحن خلقناكم) الخ أعنى الآيات الدالة على كونهم تحت ملكوته تعالى من حيث ذواتهم ومن حيث طعامهم وشرابهم وسائر أسباب معايشهم ـ ولولا ـ للتحضيض بإظهار عجزهم ، و(إذا) ظرفية ، و (الحلقوم) مجرى الطعام ؛ وضمير (بلغت) للنفس لانفهامها من الكلام وإن لم يجر لها ذكر قبل ، والمراد بها الروح بمعنى البخار المنبعث عن القلب دون النفس الناطقة فانها لاتوصف بما ذكر وكأنه مبنى على القول بتجرد النفس الناطقة وهى المسماة بالروح الامرية ، وأنها لاداخل البدن ولاخارجه ولاتتصف بصفات الاجسام كالصعود والنزول وغيرهما على مااختاره حجة الإسلام الغزالى وجماعة من المحققين ، ومذهب السلف أن النفس الناطقة وهى الروح المشار اليها بقوله تعالى : (يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) جسم لطيف جداً سار فى البدن سريان ماء الورد فى الورد وهو حى بنفسه يتصف بالخروج والدخول وغيرهما من صفات الاجسام ، وقد رد العلامة ابن القيم قول الغزالى ومن وافقه بأدلة كثيرة ذكرها فى كتابه الروح، ووصفها ببلوغ الحلقوم عليه ظاهر *

وأما على القول بالتجرد وعدم التحيز فقيل : المراد به ضعف التعلق بالبدن وقرب انقطاعه عنه فكأنه قيل: فلولا إذا حان انقطاع تعلق الروح بالبدن ﴿ وَأَنتُمْ ﴾ أيها الحاضرون حول صاحبها ﴿ حِينَئِذٍ ﴾ أى حين إذ بلغت الحلقوم ووصلت اليه أو حان انقطاع تعلقها ﴿ تَنظُرُونَ ٨٤ ﴾ إلى مايقاسيه من الغمرات ، وقيل : (تنظرون) حالكم ووجه أنهم يعلمون أن ماجرى عليه يجرى عليهم فكأنهم شاهدوا حال أنفسهم وليس بذاك *

وقرأ عيسى حينئذ بكسر النون اتباعا لحركة الهمزة فى إذ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ أى المحتضر المفهوم من الكلام ﴿ مِنكُمْ ﴾ والمراد بالقرب العلم وهو من إطلاق السبب وإرادة المسبب فان القرب أقوى سبب للاطلاع والعلم ، وقال غير واحد: المراد القرب علماً وقدرة أى نحن أقرب اليه فى كل ذلك منكم حيث لاتعرفون من حاله إلا ماتشاهدونه من آثار الشدة من غير أن تقفوا على كنهها وكيفيتها وأسبابها الحقيقية ولا أن تقدروا على مباشرة دفعها إلا بما لاينجع شيئا ونحن المستولون لتفاصيل أحواله بعلمنا وقدرتنا أو بملائكة الموت ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ٨٥ ﴾ لاتدركون كوننا أقرب اليه منكم لجهلكم بشئوننا وقد علمت أن الخطاب للكفار ، وقيل: لاتدركون كنه مايجرى عليه على أن الاستدراك من تنظرون ؛ والابصار من البصر بالعين تجوز به عن الادراك أو هو من البصيرة بالقلب، وقيل: أريد بأقربيته تعالى اليه منهم أقربية رسله عز وجل أى ورسلنا الذين يقبضون روحه ويعالجون إخراجها أقرب اليه منكم ولكن لاتبصرونهم ﴿ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أى غير مربوبين من دان السلطان الرعية إذا ساسهم وتعبدهم ؛ ومنه قيل للعبد : مدين وللأمة مدينة قال الاخطل :

دبت وربا فى حجرها ابن (مدينة) تراه على مسحاته يتركل

والكلام ناظر إلى قوله تعالى : (نحن خلقناكم فلولا تصدقون)، وقيل : هو من دان بمعنى انقاد وخضع، وتجوز به عن الجزاء كما فى قولهم ـ كما تدين تدان ـ أى فلولا إن كنتم غير مجزيين وجعل ناظراً لإنكارهم البعث وليس بشئ ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ أى الروح إلى مقرها والقائلون بالتجرد يقولون أى ترجعون تعلقها كما كان أولا *

Marfat.com

﴿إن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ٨٧﴾ فى اعتقادكم عدم خالقيته تعالى فان عدم تصديقهم بخالقيته سبحانه لهم عبارة عن تصديقهم بعدمها على مذهبهم، وفى البحر وغيره إن كنتم صادقين فى تعطيلكم وكفركم بالحي المميت المبدىء المعيد ونسبتكم إنزال المطر إلى الأنواء دونه عز وجل ، وترجعون المذكور هو العامل - بإذا - الظرفية فى (إذا بلغت الحلقوم) وهو المحضض عليه - بلولا - الأولى، و(لولا) الثانية تكرير للتأكيد ، و(لولا) الاولى مع ما فى حيزها دليل جواب الشرط الاول أعنى (إن كنتم غير مدينين) والشرط الثانى مؤكد للأول مبين له، وقدم أحد الشرطين على (ترجعونها) للاهتمام والتقدير - فلولا ترجعونها إذا بلغت الحقوم إن كنتم غير مربوبين صادقين فيما تزعمونه من الاعتقاد الباطل فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم - وحاصل المعنى أنكم إن كنتم غير مربوبين كما تقتضيه أقوالكم وأفعالكم فما لكم لاترجعون الروح إلى البدن إذا بلغت الحلقوم وتردونها كما كانت بقدرتكم أو بواسطة علاج للطبيعة ، وقوله تعالى :(وأنتم حينئذ تنظرون) جملة حالية من فاعل (بلغت) والاسمية المقترنة بالواو لاتحتاج فى الربط للضمير لكفاية الواو فلا حاجة إلى القول بأن العائد ما تضمنه حينئذ لأن التنوين عوض عن جملة أى فلولا ترجعونها زمان بلوغها الحلقوم حال نظركم اليه وما يقاسيه من هول النزع مع تعطفكم عليه وتوفركم على إنجائه من المهالك ، وقوله سبحانه : (ونحن أقرب) الخ اعتراض يؤكد ماسيق له الكلام من توبيخهم على صدور مايدل على سوء اعتقادهم بربهم سبحانه منهم ، وفى جواز جعله حالا مقالة وقال أبو البقاء :(ترجعونها) جواب (لولا) الأولى ، وأغنى ذلك عن جواب الثانية ، وقيل : عكس ذلك*

وقيل : (إن كنتم) شرط دخل على شرط فيكون الثانى مقدما فى التقدير - أى إن كنتم صادقين إن كنتم غير مربوبين فارجعوا الارواح إلى الابدان - وما ذكرناه سابقاً اختيار جار الله وأياً ما كان فقوله تعالى :

﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ٨٨﴾ إلى آخره شروع فى بيان حال المتوفى بعد الممات إثر بيان حاله عند الوفاة وضمير (كان) للمتوفى المفهوم مما مر أى فأما إن كان المتوفى الذى بين حاله من السابقين من الازواج الثلاثة عبر عنهم بأجل أوصافهم ﴿فَرَوْحٌ﴾ أى فله روح على أنه مبتدأ خبره محذوف مقدم عليه لأنه نكرة ، وقيل: خبر مبتدأ محذوف أى فجزاؤه ، روح أى استراحة ، والفاء واقعة فى جواب أما، قال بعض الأجلة : تقدير هذا الكلام مهما يكن من شئ فروح الخ إن كان من المقربين فحذف مهما يكن من شئ ، وأقيم أما مقامه ولم يحسن أن يلى الفاء أما ، فأوقع الفصل بين أما والفاء بقوله سبحانه : (إن كان من المقربين) لتحسين اللفظ كما يقع الفصل بينهما بالظرف والمفعول ، والفاء فى (فروح) وأخويه جواب أما دون (إن) ، وقال أبو البقاء : جواب أما (فروح)، وأما (إن) فاستغنى بجواب أما عن جوابها لأنه يحذف كثيراً ، وفى البحر أنه إذا اجتمع شرطان فالجواب للسابق منهما ، وجواب الثانى محذوف ، فالجواب ههنا لأما ، وهذا مذهب سيبويه *

وذهب الفارسى إلى أن المذكور جواب (إن) وجواب أما محذوف ، وله قول آخر موافق لمذهب سيبويه *

وذهب الأخفش إلى أن المذكور جواب لهما معا، وقد أبطلنا المذهبين فى شرح للتسهيل انتهى ، والمشهور أنه لابد من لصوق الاسم - لأما - وهو عند الرضى وجماعة أكثرى لهذه الآية، والذاهبون إلى الأول قالوا: هى بتقدير فأما المتوفى (إن كان) وتعقب بأنه لايخفى أن التقدير مستغنى عنه ولادليل عليه إلا اطراد الحكم ، ثم إن كون - أما - قائمة مقام مهما يكن أغلبى إذ لا يطرد فى نحو أما قريشاً فأنا أفضلها إذ التقدير مهما ذكرت قريشاً

Marfat.com

فأنا أفضلها ، وتمام الكلام فى هذا المقام يطلب من كتب العربية ٥

وأخرج الامام أحمد . والبخارى فى تاريخه . وأبو داود . والنسائى . والترمذى وحسنه . والحاكم وصححه . وآخرون عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأ (فروح) بضم الراء ، وبه قرأ ابن عباس . وقتادة . ونوح القارى . والضحاك . والاشهب . وشعيب . وسليمان التيمى . والربيع بن خثيم . ومحمد بن على . وأبو عمران الجونى . والكلبى . وفياض . وعبيد . وعبد الوارث عن أبى عمرو . ويعقوب ابن حسان . وزيد . ورويس عنه . والحسن وقال: (الروح) الرحمة لأنها كالحياة للمرحوم ، أو سبب لحياته الدائمة فإطلاقه عليها من باب الاستعارة أو المجاز المرسل ، وروى هذا عن قتادة أيضا ، وقال ابن جنى: معنى هذه القراءة يرجع إلى معنى الروح فكأنه قيل : فله ممسك روح وممسكها هو الروح كما تقول: الهواء هو الحياة وهذا السماع هو العيش ، وفسر بعضهم الروح بالفتح بالرحمة أيضا كما فى قوله تعالى :(ولا تيأسوا من روح الله) وقيل: هو بالضم البقاء ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ أى ورزق كما روى عن ابن عباس . ومجاهد . والضحاك ، وفى رواية أخرى عن الضحاك أنه الاستراحة ، وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه قال : هو هذا الريحان أى المعروف ٥

وأخرج ابن جرير عنه أنه قال : تخرج روح المؤمن من جسده فى ريحانة ؛ ثم قرأ (فأما إن كان) الخ ٥

وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال :لم يكن أحد من المقربين يفارق الدنيا حتى يؤتى بغصنين من ريحان الجنة فيشمهما ثم يقبض ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ٨٩ ﴾ أى ذات تنعم فالاضافة لامية أولادنى ملابسة ، وهذا إشارة إلى مكان المقربين بحيث يلزم منه أن يكونوا أصحاب نعيم ٥

وأخرج الامام أحمد فى الزهد . وابن أبى شيبة . وعبد بن حميد . وابن المنذر عن الربيع بن خثيم قال فى قوله تعالى : (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان): هذا له عند الموت ، وفى قوله تعالى:(وجنة نعيم) تخبأله الجنة إلى يوم يبعث ولينظر ما المراد بالريحان على هذا ، وعن بعض السلف ما يقتضى أن يكون الكل فى الآخرة ٥

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ٩٠ ﴾ عبر عنهم بالعنوان السابق إذ لم يذكر لهم فيما سبق وصف ينبئ عن شأنهم سواه كما ذكر للفريقين الأخيرين ، وقوله تعالى: ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ٩١ ﴾ قيل: هو على تقدير القول أى فيقال لذلك المتوفى منهم سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين أى يسلمون عليك كقوله تعالى: (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلا قيلا سلاماً سلاماً) فالخطاب لصاحب اليمين ولا التفات فيه مع تقدير القول ، و(من) للابتداء كما تقول سلام من فلان على فلان وسلام لفلان منه ٥

وقال الطبرى : معناه فسلام لك أنت من أصحاب اليمين ، فمن أصحاب اليمين خبر مبتدأ محذوف والكلام بتقدير القول أيضاً ، وكأن هذا التفسير مأخوذ من كلام ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ٥

أخرج ابن جرير . وابن المنذر عنه أنه قال فى ذلك: تأتيه الملائكة من قبل الله تعالى تسلم عليه وتخبره أنه من أصحاب اليمين ، والظاهر أن هذا على هذا المعنى عند الموت ، وأنه على المعنى السابق فى الجنة ٥

وجوز أن يكون المعنى فسلامة لك عما يشغل القلب من جهتهم فانهم فى خير أى كن فارغ البال عنهم لا يهمك أمرهم ، وهذا كما تقول لمن عاق قلبه بولده الغائب وتشوش فكره لا يدرى ما حاله كن فارغ البال من ولدك فانه فى راحة ودعة ، والخطاب لمن يصلح له أو لسيد المخاطبين صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعليه قيل: يجوز أن يكون

Marfat.com

ذلك تسلية له عليه الصلاة والسلام على معنى أنهم غير محتاجين إلى شفاعة وغيرها، ولا يخفى أن كون جميع أصحاب اليمين غير محتاجين إلى ماذكر غير مسلم فالشفاعة لأهل الكبائر أمر ثابت عند أهل السنة ولا جائز أن يكونوا من أصحاب الشمال فصرائح الآيات أنهم كفار (ومالهم من ولى ولا شفيع يطاع) وكونهم من أصحاب اليمين أقرب من كونهم من السابقين وجعلهم قسما على حدة قد علمت حاله فتذكر فما فى العهد من قدم ☆

وذكر بعض الأجلة أن هذه الجملة كلام يفيد عظمة حالهم كما يقال فلان ناهيك به وحسبك أنه فلان إشارة إلى أنه ممدوح فوق حد التفصيل، وكأنى بك تختار ذلك فانه حسن لطيف *

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢ ﴾ وهم أصحاب الشمال عبر عنهم بذلك حسبما وصفوا به عند بيان أحوالهم بقوله تعالى: (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون) ذماً لهم بذلك وإشعاراً بسبب ما ابتلوا به من العذاب، ولما وقع هذا الكلام بعد تحقق تكذيبهم ورده على أتم وجه ولم يقع الكلام السابق كذلك قدم وصف التكذيب هنا على عكس ماتقدم، ويجوز أن يقال فى ذلك على تقدير عموم متعلق التكذيب بحيث يشمل تكذيبه ﷺ فى دعوى الرسالة إن هذا الكلام إخبار من جهته سبحانه بأحوال الأزواج الثلاثة لم يؤمر عليه الصلاة والسلام بأن يشافه بكل جملة منه من هى فيه فقدم فيه وصف التكذيب الشامل لتكذيبه عليه الصلاة والسلام المشعر بسبب الابتلاء بالعذاب كرامة له ﷺ وتنويها بعلو شأنه، ولما كان الكلام السابق داخلا فى حيز القول المأمور عليه الصلاة والسلام بأن يشافه به أولئك الكفرة لم يحسن التقديم للكرامة إذ يكون حينئذ من باب مادح نفسه يقرئك السلام، ويجوز أن يقال أيضا إن الكلام فى حال الكافر المحتضر والتكذيب لكونه مقابل التصديق لايكون إلا بالقلب وهو لم يتعطل منه تعطل سائر أعضائه فلذا قدم هنا، ويرشد إلى هذا ماقالوه فى دعاء صلاة الجنازة اللهم من أحييته منا فأحيه على الاسلام ومن توفيته منا فتوفه على الايمان من وجه تخصيص الإسلام بالإحياء والإيمان بالاماتة ☆

وقال الامام فى ذلك: إن المراد من الضلال هناك ماصدر عنهم من الإصرار على الحنث العظيم فضلوا عن سبيل الله تعالى ولم يصلوا اليه ثم كذبوا رسله، (وقالوا أئذا متنا) الخ فكذبوا بالحشر فقال تعالى: (أيها الضالون) الذين أشركتم المكذبون الذين أنكرتم الحشر لآكلون ماتكرهون، وأما هنا فقال سبحانه لهم: أيها المكذبون الذين كذبتم بالحشر الضالون من طريق الخلاص الذين لايهتدون إلى النعيم، وفيه وجه آخر وهو أن الخطاب هناك مع الكفار فقال سبحانه: أيها الذين أشركتم أولا وكذبتم ثانياً، والخطاب هنا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يبين له عليه الصلاة والسلام حال الازواج الثلاثة كما يدل عليه. فسلام لك فقال سبحانه: المقربون فى روح وريحان وجنة ونعيم وأصحاب اليمين فى سلامة، وأما المكذبون الذين كذبوك وضلوا فقدم تكذيبهم إشارة إلى كرامته صلى الله تعالى عليه وسلم حيث بين أن أقوى سبب فى عقابهم تكذيبهم انتهى،

وعليك بالتأمل والانصاف والنظر لما قال دون النظر لمن قال، وقوله تعالى: ﴿ فَنُزُلٌ ﴾ بتقدير فله نزل أو فجزاؤه نزل كائن ﴿ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ قيل: يشرب بعد [illegible] يوم كما فصل فيما قبل ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤ ﴾ أى إدخال فى النار، وقيل: إقامة فيها ومقاساة لألوان عذابها وكل ذلك مبنى على أن المراد بيان مالهم يوم القيامة، وقيل: هذا محمول على مايجده فى القبر من حرارة النار ودخانها لأن الكلام فى حال التوفى وعقب قبض الأرواح والأسبق كون ما ذكر فى البرزخ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال فى الآية: لايخرج

Marfat.com

الـكافر حتى يشرب كأسا من حميم ، وقرأ احمد بن موسى . والمنقرى .واللؤلؤى عن أبى عمرو (وتصلية) بالجر عطفا على (حميم) ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أى الذى ذكر فى السورة الـكريمة كما أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ٩٥ ﴾ اليقين على مايفهم من كلام الزمخشرى فى الجاثية اسم للعلم الذى زال عنه اللبس وبذلك صرح صاحب المطلع وذكر أنه تفسير بحسب المعنى وهو مأخوذ من المقام وإلا فهو العلم المتيقن مطلقاً والاضافة بمعنى اللام والمعنى ـ لهو عين اليقين ـ فهو على نحو عين الشئ ونفسه ولايخفى أن الاضافة من إضافة العام إلى الخاص وكونها بمعنى اللام قول لبعضهم ، وقال بعض آخر : إنها بيانية على معنى من ، وقدر بعضهم هنا موصوفا أى لهو حق الخبر اليقين و كونه لا يناسب المقام غير متوجه ، وفى البحر قيل : إن الإضافة من إضافة المترادفين على سبيل المبالغة كما تقول هذا يقين اليقين وصواب الصواب بمعنى أنه نهاية فى ذلك فهما بمعنى أضيف أحدهما إلى الآخر للمبالغة وفيه نظر ، والفاء فى قوله تعالى . ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ٩٦ ﴾ لترتيب التسبيح أو الأمر به ، فان حقية ما فصل فى تضاعيف السورة الـكريمة مما يوجب التسبيح عما لا يليق مما ينسبه الـكفرة اليه سبحانه قالا أو حالا تعالى عن ذلك علواً كبيراً وأخرج الامام أحمد . وأبو داود . وابن ماجه . وابن حبان . والحاكم وصححه . وغيرهم عن عقبة بن عامر الجهنى قال : « لما نزلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسبح باسم ربك العظيم قال : اجعلوها فى ركوعكم ولما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال : اجعلوها فى سجودكم » ●

﴿ ومما قاله السادة أرباب الاشارة ﴾ متعلقا ببعض هذه السورة الـكريمة أن (الواقعة) اسم لقيامة الروح كما أن (الآزفة) اسم لقيامة الخفى ، و(الحاقة) اسم لقيامة السر ، و(الساعة) اسم لقيامة القلب ، وقالوا : إن الواقعة إذا وقعت ترفع صاحبها طوراً وتخفضه طوراً وتشعل نيران الغيرة وتفجر أنهار المعرفة وتحصل للسالك إذا اشتغل بالسلوك والتصفية ووصل ذكره إلى الروح وهى فى البداية مثل ستر أسود يجئ من فوق الرأس عند غلبة الذكر وكلما زاد فى النزول يقع على الذاكر هيبة وسكينة وربما يغمى عليه فى البداية ويشاهد إذا وقع على عينيه عوالم الغيب فيرى ماشاء الله تعالى أن يرى وتكشف له العلوم الروحانية ويرى عجائب وغرائب لاتحصى ، وإذا أفاق فليعرض ماحصل له لمسلكه ليرشده إلى مافيه مصلحة وقته ويعبر له ماهو مناسب لحوصلته ويقوى قلبه ويأمره بالذكر والتوجه الـكلى حتى يكمل بصفو سر الواقعة فيكون سراً منوراً فربما يصير السالك بحيث إذا فتح عينيه بعد نزولها فى عالم الشهادة يشاهد ماكان مشاهداً له فيها وهى حالة سنية معتبرة عند أرباب السلوك ـ فليس لوقعتها كاذبة ـ بل هى صادقة لأن الشيطان يفر عندها والنفس لاتقدر أن تلبس على صاحبها وهى اليقظة الحقيقية ومايعده الناس يقظة هو النوم كما يشير اليه قول أمير المؤمنين على كرم الله تعالى وجهه: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، ثم أنهم تـكلموا على أكثر ما فى السورة الجليلة بما يتعلق بالأنفس ، وقالوا فى مواقع النجوم: إنها إشارة إلى اللطائف المطهرة لانها مواقع نجوم الواردات القدسية الخفية من السماء الجبروتية اللاهوتية ، وقيل : فى قوله تعالى : (لايمسه إلا المطهرون) إن فيه إشارة إلى أنه لاينبغى لمن لم يكن طاهر النفس من حدث الميل إلى صغائر الشهوات ـ وهو الحدث الاصغر ـ ومن حدث الميل إلى كبائر الشهوات ـ وهو الحدث الأكبر ـ أن يمس بيد نفسه وفكره معانى القرآن الـكريم كما لاينبغى لمن لم يكن طاهر البدن من الحدثين المعروفين فى البدن أن يمس بيد بدنه وجسده ألفاظه المـكتوبة ، وقيل : أيضا يجوز أن يقال المعنى

Marfat.com

لا يصل إلى أدنى حقائق أسرار القرآن الكريم إلا المطهرون من أرجاس الشهوات وأنجاس المخالفات ۞

وإذا كانت هذه الجملة صفة للكتاب المكنون المراد منه اللوح المحفوظ وأريد بالمطهرين الملائكة عليهم السلام، وكان المعنى لا يطلع عليه إلا الملائكة عليهم السلام كان فى ذلك ردّ على من يزعم أن الأولياء يرون اللوح المحفوظ ويطلعون على مافيه ، وحمل المطهرين على مايعم الملائكة والأولياء الذين طهرت نفوسهم وقدست ذواتهم حتى التحقوا بالملائكة عليهم السلام لا ينفع فى البحث مع أهل الشرع فان مدار استدلالاتهم على الأحكام الشرعية الظواهر على أنه لم يسمع عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو هو أنه نظر يوماً وهو بين أصحابه إلى اللوح المحفوظ واطلع على شئ مما فيه . وقال لهم: إنى رأيت اللوح المحفوظ واطلعت على كذا و كذا فيه، وكذلك لم يسمع عن أجلة أصحابه الخلفاء الراشدين أنه وقع لهم ذلك ، وقد وقعت بينهم مسائل اختلفوا فيها وطال نزاعهم فى تحقيقها إلى أن كاد يغم هلال الحق فيها ولم يراجع أحد منهم لكشفها اللوح المحفوظ ۞

وذكر بعض العلماء أن سدرة المنتهى ينتهى علم من تحتها اليها وأن اللوح فوقها بكثير ، وبكل من ذلك نطقت الآثار،وهو يشعر بعدم اطلاع الأولياء على اللوح،ومع هذا كله من ادعى وقوع الاطلاع فعليه البيان وأنى به ، وهذا الذى سمعت مبنى على مانطقت به الأخبار فى صفة اللوح المحفوظ وأنه جسم كتب فيه ماكان وماهو كائن إلى يوم القيامة ،وأما إذا قيل فيه غير ذلك انجر البحث إلى وراء ماسمعت،واتسعت الدائرة ۞

ومن ذلك قولهم:إن الالواح أربعة،لوح القضاء السابق على المحو والاثبات وهو لوح العقل الأول،ولوح القدر أى لوح النفس الناطقة الكلية التى يفصل فيها كليات اللوح الأول وهو المسمى باللوح المحفوظ ،ولوح النفس الجزئية السماوية التى ينتقش فيها كل مافى هذا العالم شكله وهيئته ومقداره -وهو المسمى بالسماء الدنيا- وهو بمثابة خيال العالم كما أن الأول بمثابة روحه ، والثانى بمثابة قلبه ؛ ولوح الهيولى القابل للصورة فى عالم الشهادة ويقولون أيضاً مايقولون وينشد المنتصر له قوله:

وإذا لم تر الهلال فسلم ... لأناس رأوه بالأبصار

هذا ولا تظنن أن نفى رؤيتهم للوح المحفوظ نفى لكراماتهم الكشفية وإلهاماتهم الغيبية معاذ الله تعالى من ذلك، وطرق اطلاع الله تعالى من شاء من أوليائه على من شاء من علمه غير منحصر بإراءته اللوح المحفوظ ثم إن الإمكان مما لا نزاع فيه وليس الكلام إلا فى الوقوع ، وورود ذلك عن النبي ﷺ وأجلة أصحابه كالصديق والفاروق. وذى النورين . وباب مدينة العلم . والنقطة التى تحت الباء رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، والله تعالى أعلم ۞

وقالوا فى قوله تعالى :(ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون) مابنوه على القول بوحدة الوجود والكلام فيها شائع -وقد أشرنا اليه فى هذا الكتاب غير مرة - ولهم فى اليقين . وعين اليقين. وحق اليقين عبارات شتى، منها اليقين رؤية العيان بقوة الايمان لا بالحجة والبرهان،وقيل:مشاهدة الغيوب بصفاء القلوب وملاحظة الاسرار بمحافظة الافكار ، وقيل: طمأنينة القلب على حقيقة الشئ من يقن الماء فى الحوض إذا استقر ، وحق اليقين فناء العبد فى الحق والبقاء به علماً وشهوداً وحالا لا علماً فقط فعلم كل عاقل الموت علم اليقين فاذا عاين الملائكة فهو عين اليقين ، وإذا ذاق الموت فهو حق اليقين ،وقيل: علم اليقين ظاهر الشريعة، وعين اليقين الاخلاص فيها،وحق اليقين المشاهدة فيها ،(وقيل:،وقيل:)ونحن نسأل الله تعالى الهداية إلى أقوم سبيل،وأن يشرح صدورنا بأنوار علوم كتابه الكريم الجليل . وهو سبحانه حسبنا فى الدارين ونعم الوكيل ۞

Marfat.com

﴿ سورة الحديد ﴾

أخرج جماعة عن ابن عباس أنها نزلت بالمدينة ، وقال النقاش . وغيره : هى مدنية باجماع المفسرين ولم يسلم له ، فقد قال قوم: إنها مكية ، نعم الجمهور - كما قال ابن الفرس - على ذلك ٭

وقال ابن عطية : لاخلاف ان فيها قرآنا مدنياً لـكن يشبه أن يكون صدرها مكياً ، ويشهد لهذا ما أخرجه البزار فى مسنده . والطبرانى. وابن مردويه . وأبو نعيم فى الحلية . والبيهقى . وابن عساكر عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه دخل على أخته قبل أن يسلم فاذا صحيفة فيها أول سورة الحديد فقرأه حتى بلغ (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) فأسلم ، ويشهد لمكية آيات أخر ما أخرج مسلم . والنسائى . وابن ماجه . وغيرهم عن ابن مسعود ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله تعالى بهذه الآية (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) إلا أربع سنين ، وأخرج الطبرانى . والحاكم وصححه وغيرهما عن عبد الله بن الزبير أن ابن مسعود أخبره أنه لم يكن بين إسلامهم وبين أن نزلت هذه الآية يعاتبهم الله تعالى بها إلا أربع سنين (ولا تكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل) الآية لـكن سيأتى إن شاء الله تعالى آثار تدل على مدنية ماذكر ولعلها لا تصلح للمعارضة ٭

ونزلت يوم الثلاثاء على ما أخرج الديلمى عن جابر مرفوعا لاتحتجموا يوم الثلاثاء فان سورة الحديد أنزلت على يوم الثلاثاء ، وفيه أيضا خبر رواه الطبرانى. وابن مردويه عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما بسند ضعيف ، وهى تسع وعشرون آية فى العراقى ، وثمان وعشرون فى غيره ، ووجه اتصالها - بالواقعة - أنها بدئت بذكر التسبيح وتلك ختمت بالأمر به ، وكان أولها واقعاً موقع العلة للأمر به فكأنه قيل : (سبح باسم ربك العظيم) لانه سبح له ما فى السموات والارض ، وجاء فى فضلها مع أخواتها ما أخرجه الإمام أحمد . وأبو داود . والترمذى وحسنه . والنسائى . وابن مردويه . والبيهقى فى شعب الايمان عن عرباض بن سارية « أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ، وقال : إن فيهن آية أفضل من ألف آية » وأخرج ابن الضريس نحوه عن يحيى بن أبى كثير ثم قال : قال يحيى : نراها الآية التى فى آخر الحشر ٭

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ التسبيح على المشهور تنزيه الله تعالى اعتقاداً وقولا وعملا عما لا يليق بجنابه سبحانه من سبح فى الارض والماء إذا ذهب وأبعد فيهما ، وحيث أسند ههنا إلى غير العقلاء أيضا فان مافى السموات والارض يعم جميع مافيهما سواء كان مستقراً فيهما أو جزءاً منهما بل المراد بما فيهما الموجودات فيكون أظهر فى تناول السموات والارض ويتناول أيضاً الموجودات المجردة عند القائل بها ، قال الجمهور : المراد به معنى عام مجازى شامل لما نطق به لسان المقال كتسبيح الملائكة والمؤمنين من الثقلين ، ولسان الحال كتسبيح غيرهم فان كل فرد من أفراد الموجودات يدل بإمكانه وحدوثه على الصانع القديم الواجب الوجود المتصف بكل كمال المنزه عن كل نقص ، وذهب بعض إلى أن التسبيح على حقيقته المعروفة فى الجميع وهو مبنى على ثبوت النفوس الناطقة والادراك لسائر الحيوانات والجمادات على مايليق بكل ، وقد صرح به جمع من الصوفية فتسبيح كل شئ عندهم قالى وإن تفاوت الامر ، وقيل: معنى سبح حمل رائيه العاقل على قول سبحان الله تعالى ونبهه عليه وهو كما ترى ، ومن يجوز استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه معا لايحتاج إلى

Marfat.com

عموم المجاز ، وجوز الطبرسى كون (ما) للعالم فقط مثلها فى قول أهل الحجاز كما حكى أبو زيد عند سماع الرعد ـ سبحان (ما) سبحت له ـ ولا يخفى أن عمومها العالم وغيره أولى، والظاهر أنها فى الوجهين موصولة، وقال بعضهم: إنها نكرة موصوفة وأن أصل الكلام مافى السموات ومافى الارض ثم حذفت (ما) الثانية وأقيمت صفتها مقامها ، ولا يحسن أن تكون موصولة لأن الصلة لا تقوم مقام الموصول عند البصريين وتقوم الصفة مقام الموصوف عند الجميع ، والحمل على المتفق عليه أولى من الحمل على المختلف فيه وكون المذكورة موصولة والمحذوفة نكرة موصوفة مما لا وجه له انتهى ٭

وأنت تعلم أن حذف الموصول الصريح فى مثل ذلك أكثر من أن يحصى وجىء باللام مع أن التسبيح متعد بنفسه كما فى قوله تعالى: (وتسبحوه) للتأكيد فهى مزيدة لذلك كما فى نصحت له وشكرت له، وقيل: للتعليل والفعل منزل منزلة اللازم أى فعل التسبيح وأوقعه لأجل الله تعالى وخالصاً لوجهه سبحانه ، وفيه شئ لا يخفى، وعبر بالماضى هنا وفى بعض الأخوات وبالمضارع فى البعض الآخر إيذانا بتحقق التسبيح فى جميع الأوقات ، وفى كل دلالة على أن من شأن ما أسند اليه التسبيح أن يسبحه وذلك مجيراه وديدنه ، أما دلالة المضارع عليه فللدلالة على الاستمرار إلى زمان الاخبار وكذلك فيما يأتى من الزمان لعموم المعنى المقتضى للتسبيح وصلوح اللفظ لذلك حيث جرد عن الدلالة على الزمان وأوثر على الاسم دلالة على تجدد تسبيح غب تسبيح ، وأما دلالة الماضى فللتجرد عن الزمان أيضا مع التحقيق الذى هو مقتضاه فيشمل الماضى من الزمان ومستقبله كذلك ، وقيل : الايذان والدلالة على الاستمرار مستفادان من مجموعى الماضى والمضارع حيث دل الماضى على الاستمرار إلى زمان الاخبار والمضارع على الاستمرار فى الحال والاستقبال فشملا معا جميع الازمنة ، وقال الطيبى : افتتحت بعض السور بلفظ المصدر وبعض بالماضى وبعض بالمضارع وبعض بالامر فاستوعب جميع جهات هذه الكلمة إعلاما بأن المكونات من لدن إخراجها من العدم إلى الوجود إلى الأبد مسبحة مقدسة لذاته سبحانه وتعالى قولا وفعلا طوعا وكرها (وإن من شئ إلا يسبح بحمده) ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر الغالب الذى لا ينازعه ولا يمانعه شىء ﴿ٱلْحَكِيمُ ١﴾ الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله مشعر بعلة الحكم، وكذا قوله تعالى : ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى التصرف الكلى فيهما وفيما فيهما من الموجودات من حيث الايجاد والاعدام وسائر التصرفات ، وقوله سبحانه : ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أى يفعل الاحياء والاماتة استئناف مبين لبعض أحكام الملك وإذا جعل خبر مبتدأ محذوف أى هو يحيى ويميت كانت تلك الجملة كذلك وجعله حالا من ضمير له يوهم تقييد اختصاص الملك بهذه الحال ، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء التى من جملتها ما ذكر من الإحياء والاماتة ﴿قَدِيرٌ ٢﴾ مبالغ فى القدرة تذييل وتكميل لما قبله ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ السابق على جميع الموجودات فهو سبحانه موجود قبل كل شئ حتى الزمان لأنه جل وعلا الموجد والمحدث للموجودات ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ الباقى بعد فنائها حقيقة أو نظراً إلى ذاتها مع قطع النظر عن مبقيها فان جميع الموجودات الممكنة إذا قطع النظر عن علتها فهى فانية ٭

ومن هنا قال ابن سينا : الممكن فى حد ذاته ليس وهو عن علته أيس فلا ينافى هذا كون بعض

Marfat.com

الموجودات الممكنة لاتفنى كالجنة والنار ومن فيهما كما هو مقرر مبين بالآيات والاحاديث لأن فناءها فى حد ذاتها أمر لا ينفك عنها ، وقد يقال : فناء كل ممكن بالفعل ليس بمشاهد ، والذى يدل عليه الدليل إنما هو إمكانه فالبعدية فى مثله بحسب التصور والتقدير ، وقيل : هو الأول الذى تبتدىء منه الأسباب إذ هو سبحانه مسببها (والآخر) الذى تنتهى اليه المسببات فالأولية ذاتية والآخرية بمعنى أنه تعالى اليه المرجع والمصير بقطع النظر عن البقاء الثابت بالأدلة ، وقيل : الأول خارجا لأنه تعالى أوجد الأشياء فهو سبحانه متقدم عليها فى نفس الأمر الخارجى والآخر ذهناً وبحسب التعلق لأنه عز شأنه يستدل عليه بالموجودات الدالة على الصانع القديم كما قيل : ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله تعالى بعده ، وقال حجة الاسلام الغزالى : إن الاول يكون أولا بالإضافة إلى شئ ، والآخر يكون آخراً بالاضافة إلى شئ ، وهما متناقضان فلا يتصور أن يكون الشئ الواحد من وجه واحد بالاضافة إلى شئ واحد أولا وآخراً جميعاً بل إذا نظرت إلى ترتيب الوجود ولاحظت سلسلة الموجودات المترتبة فالله تعالى بالاضافة اليها أول إذ كلها استفادت الوجود منه سبحانه وأما هو عز وجل فموجود بذاته وما استفاد الوجود من غيره سبحانه و تعالى عن ذلك ، ومهما نظرت إلى ترتيب السلوك ولاحظت منازل السالكين فهو تعالى آخر إذ هو آخر ما ترتقى اليه درجات العارفين وكل معرفة تحصل قبل معرفته تعالى فهى مرقاة إلى معرفته جل وعلا ، والمنزل الأقصى هو معرفة الله جل جلاله فهو سبحانه بالإضافة إلى السلوك آخر وبالاضافة إلى الوجود أول فمنه عز شأنه المبدأ أولا واليه سبحانه والمرجع والمصير آخراً انتهى *

والظاهر أن كونه تعالى أولا وآخراً بالنسبة إلى الموجودات أولى ولعل ماذكره أوفق بمشرب القوم * ﴿ وَٱلظَّـٰهِرُ ﴾ أى بوجوده لأن كل الموجودات بظهوره تعالى ظاهر ﴿ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ بكنهه سبحانه فلا تحوم حوله العقول ، وقال حجة الاسلام : هذان الوصفان من المضافات فلا يكون الشئ ظاهراً لشئ وباطناً له من وجه واحد بل يكون ظاهراً من وجه بالاضافة إلى إدراك وباطناً من وجه آخر فان الظهور والبطون إنما يكون بالاضافة إلى الادراكات والله تعالى باطن إن طلب من إدراك الحواس وخزانة الخيال ظاهر إن طلب من خزانة العقل بالاستدلال والريب من شدة الظهور وكل ماجاوز الحد انعكس إلى الضد ، وإلى تفسير الباطن بغير المدرك بالحواس ذهب الزمخشرى ، ثم قال : إن الواو الاولى لعطف المفرد على المفرد فتفيد أنه تعالى الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية والأخيرة أيضا كذلك فتفيد أنه تعالى الجامع بين الظهور والخفاء ، وأما الوسطى فلعطف المركب على المركب فتفيد أنه جل وعلا الجامع بين مجموع الصفتين الاوليين ومجموع الصفتين الأخريين فهو تعالى المستمر الوجود فى جميع الأوقات الماضية والآتية وهو تعالى فى جميعها ظاهر وباطن جامع للظهور بالادلة والخفاء فلا يدرك بالحواس ، وفى هذا حجة على من جوز إدراكه سبحانه فى الآخرة بالحاسة أى وذلك لانه تعالى مامن وقت يصح اتصافه بالاولية والآخرية إلا ويصح اتصافه بالظاهرية والباطنية معاً ، فاذا جوز إدراكه سبحانه بالحاسة فى الآخرة فقد نفى كونه سبحانه باطناً وهو خلاف ماتدل عليه الآية ، وأجاب عن ذلك صاحب الكشف فقال : إن تفسير الباطن بأنه غير مدرك بالحواس تفسير بحسب التشهى فان بطونه تعالى عن إدراك العقول كبطونه عن إدراك الحواس لان حقيقة الذات غير مدركة لاعقلا ولا حساً باتفاق بين المحققين من الطائفتين ، والزمخشري ممن سلم فهو الظاهر بوجوده والباطن بكنهه وهو سبحانه الجامع بين الوصفين أزلا

Marfat.com

وأبداً ، وهذا لا ينافى الرؤية لأنها لا تفيد ذلك عند مثبتها انتهى ، وهو حسن فلا تغفل *

وعليه فالتذليل بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٣ ﴾ لئلا يتوهم أن بطونه تعالى عن الأشياء يستلزم بطونها عنه عز وجل كما فى الشاهد ، وقال الأزهرى : قد يكون الظاهر والباطن بمعنى العالم لما ظهر وبطن ؛ وذلك أن من كان ظاهراً احتجب عنه الباطن ومن كان باطناً احتجب عنه الظاهر فان أردت أن تصفه بالعلم قلت هو ظاهر باطن مثله قوله تعالى : (لا شرقية ولا غربية) أى لا شرقية فقط ولا غربية فقط ولكنها شرقية غربية ، وفى التذييل المذكور حينئذ خفاء ، وقريب منه من وجه ما نقل أن الظاهر بمعنى العالى على كل شىء الغالب له من قولهم ظهر عليهم إذا علاهم وغلبهم ، والباطن الذى بطن كل شىء أى علم باطنه ، وتعقب بفوات المطابقة بين الظاهر والباطن عليه وأن بطنه بمعنى علم باطنه غير ثابت فى اللغة ، لكن قيل: فى الآثار ما ينصر تفسير الظاهر بما فسر *

أخرج مسلم . والترمذى . وابن أبى شيبة . والبيهقى عن أبى هريرة قال: «جاءت فاطمة رضى الله تعالى عنها إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تسأله خادماً فقال لها: قولى اللهم رب السموات السبع ورب العرش الكريم العظيم ربنا ورب كل شىء منزل التوراة والانجيل والفرقان فالق الحب والنوى أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته أنت الأول فليس قبلك شىء وأنت الآخر فليس بعدك شىء وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر » وقال الطيبى : المعنى بالظاهر فى التفسير النبوى الغالب الذى يغلب ولا يغلب فيتصرف فى المكونات على سبيل الغلبة والاستيلاء إذ ليس فوقه أحد يمنعه ، وبالباطن من لا ملجأ ولا منجى دونه يلتجئ اليه ملتجئ ، وبحث فيه بجواز أن يكون المراد أنت الظاهر فليس فوقك شئ فى الظهور أى أنت أظهر من كل شئ إذ ظهور كل شئ بك وأنت الباطن فليس دونك فى البطون شىء أى أنت أبطن من كل شىء إذ كل شئ يعلم حقيقته غيره وهو أنت وأنت لا يعلم حقيقتك غيرك ، أو لأن كل شىء يمكن معرفة حقيقته وأنت لا يمكن أصلا معرفة حقيقتك ، وأيضاً فى دلالة الباطن على ما قال: خفاء جداً على أنه لو كان الامر كما ذكر ما عدل عنه أجلة العلماء فان الخبر صحيح ، وقد جاء نحوه من رواية الامام أحمد . وأبى داود . وابن ماجه ؛ ويبعد عدم وقوف أولئك الأجلة عليه ، وأبعد من ذلك أن يكون ما ذكره ﷺ من أسمائه تعالى غير ما فى الآية ، ويحتمل أنه عليه الصلاة والسلام أراد بقوله: « فليس دونك شىء » ليس أقرب منك شئ ، ويؤيده ما أخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات عن مقاتل قال : بلغنا فى قوله تعالى : (هو الاول) الخ هو الأول قبل كل شىء والآخر بعد كل شىء والظاهر فوق كل شىء والباطن أقرب من كل شىء ، وإنما يعنى القرب بعلمه وقدرته وهو فوق عرشه والذى يترجح عندى ما ذكر أولا ، وعن بعض المتصوفة أهل وحدة الوجود أن المراد بقوله سبحانه : (هو الأول) الخ أنه لا موجود غيره تعالى إذ كل ما يتصور موجوداً فهو إما اول أو آخر أو ظاهر أو باطن فاذا كان الله تعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن لا غيره كان كل ما يتصور موجوداً هو سبحانه لا غيره ، وأيدوه بما فى حديث مرفوع أخرجه الإمام أحمد . وعبد بن حميد . والترمذى . وابن المنذر . وجماعة عن أبى هريرة «والذى نفسى بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله» قال أبو هريرة ، ثم قرأ النبى ﷺ (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم) *

وحال القول بوحدة الوجود مشهور وأما الخبر فمن المتشابه ، وقد قال فيه الترمذى : فسر أهل العلم

Marfat.com

الحديث فقالوا : أى لهبط على علم الله تعالى وقدرته وسلطانه ، ويؤيد هـذا ذكر التذييل وعدم اقتصاره عليه الصلاة والسلام على ماقبله ، وهذه الآية ينبغى لمن وجد فى نفسه وسوسة فيما يتعلق بالله تعالى أن يقرأها، فقد أخرج أبو داود عن أبى زميل أن ابن عباس قال له وقد أعلمه أن عنده وسوسة فى ذلك :« إذا وجدت فى نفسك شيئاً فقل هو الاول » الآية *

وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن ابن عمر. وأبى سعيد رضى الله تعالى عنهم عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا يزال الناس يسألون عن كل شىء حتى يقولوا هذا الله كان قبل كل شىء فماذا كان قبل الله فان قالوا لكم ذلك فقولوا هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » *

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ بيان لبعض أحكام ملكهما وقد مر تفسيره مراراً ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ مر بيانه مر تفسيره مراراً ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ مر بيانه فى سورسبأ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ تمثيل لاحاطة علمه تعالى بهم وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما كانوا، وقيل: المعية مجاز مرسل عن العلم بعلاقة السببية والقرينة السباق واللحاق مع استحالة الحقيقة، وقد أول السلف هذه الآية بذلك ،أخرج البيهقى فى الاسماء والصفات عن ابن عباس أنه قال فيها: عالم بكم أينما كنتم *

وأخرج أيضا عن سفيان الثورى أنه سئل عنها فقال : علمه معكم ، وفى البحر أنه اجتمعت الامة على هذا التأويل فيها وأنها لاتحمل على ظاهرها من المعية بالذات وهى حجة على منع التأويل فى غيرها مما يجرى مجراها فى استحالة الحمل على الظاهر ، وقد تأول هذه الآية . وتأول الحجر الأسود يمين الله فى الارض ،ولو اتسع عقله لتأول غير ذلك مما هو فى معناه انتهى *

وأنت تعلم أن الاسلم ترك التأويل فانه قول على الله تعالى من غير علم ولا نؤول إلا ماأوله السلف ونتبعهم فيما كانوا عليه فان أولوا أولنا وإن فوضوا فوضنا ولا نأخذ تأويلهم لشئ سلماً لتأويل غيره ، وقد رأيت بعض الزنادقة الخارجين من ربقة الاسلام يضحكون من هذه الآية مع قوله تعالى:(ثم استوى على العرش)ويسخرون من القرآن الكريم لذلك وهو جهل فظيع وكفر شنيع نسأل الله تعالى العصمة والتوفيق *

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٤ ﴾ عبارة عن إحاطته بأعمالهم وتأخير صفة العلم الذى هو من صفات الذات عن الخلق الذى هو من صفات الافعال مع أن صفات الذات متقدمة على صفات الافعال لما أن المراد الاشارة إلى مايدور عليه الجزاء من العلم التابع للمعلوم ،وقيل : إن الخلق دليل العلم إذ يستدل بخلقه تعالى وإيجاده سبحانه لمصنوعاته المتقنة على أنه عز وجل عالم ومن شأن المدلول التأخر عن الدليل لتوقفه عليه ، وقوله تعالى :

﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيد لقوله سبحانه المشعر بالاعادة :

﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ٥ ﴾ أى اليه تعالى وحده لاإلى غيره سبحانه استقلالا أواشتراكا ترجع جميع الأمور أعراضها وجواهرها ، وقرأ الحسن . وابن أبى اسحق . والاعرج (ترجع) مبنيا للفاعل من رجع رجوعا ، وعلى البناء للمفعول كما فى قراءة الجمهور هو من رجع رجعاً ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ مر تفسيره مراراً ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ ﴾ أى مبالغ فى العلم ﴿ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٦ ﴾ أى بمكنوناتها

Marfat.com

اللازمة لها بيان لإحاطة علمه تعالى بما يضمرونه من نياتهم بعد بيان إحاطته بأعمالهم التى يظهرونها ، وجوز أن يراد (بذات الصدور) نفسها وحقيقتها على أن الاحاطة بما فيها تعلم بالأولى ٭

﴿ ءامنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ أى جعلكم سبحانه خلفاء عنه عز وجل فى التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة ، عبر جل شأنه عما بأيديهم من الاموال بذلك تحقيقاً للحق وترغيباً فى الإنفاق ، فان من علم أنها لله تعالى وإنما هو بمنزلة الوكيل يصرفها إلى ماعينه الله تعالى من المصارف هان عليه الانفاق ، أو جعلكم خلفاء عمن كان قبلكم فيما كان بأيديهم فانتقل لكم ، وفيه أيضا ترغيب فى الانفاق وتسهيل له لأن من علم أنه لم يبق لمن قبله وانتقل اليه علم أنه لا يدوم له وينتقل لغيره فيسهل عليه إخراجه ويرغب فى كسب الأجر بإنفاقه ويكفيك قول الناس فيما ملكته لقد كان هذا مرة لفلان ، وفى الحديث « يقول ابن آدم : مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت » والمعنى الاول هو المناسب لقوله تعالى : (له ملك السموات والارض) وعليه ماحكى أنه قيل لاعرابى : لمن هذه الإبل ؟ فقال : هى لله تعالى عندى ، ويميل اليه قول القائل :

وما المال والأهلون (إلا ودائع) ولا بد يوماً أن ترد الودائع

والآية على ماروى عن الضحاك نزلت فى تبوك فلا تغفل ﴿ فَٱلَّذِينَ ءامنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ ﴾ حسبما أمروا به ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿ أَجْرٌ كَبِيرٌ ٨ ﴾ وعد فيه من المبالغات مالا يخفى حيث جعل الجملة إسمية وكان الظاهر أن تكون فعلية فى جواب الأمر بأن يقال مثلا آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا تعطوا أجراً كبيراً ، وأعيد ذكر الايمان والانفاق دون أن يقال فمن يفعل ذلك فله أجر كبير وعدل عن فللذين آمنوا منكم وأنفقوا أجر إلى مافى النظم الكريم وفخم الأجر بالتنكير ، ووصف بالكبير ، وقوله عز وجل : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ استئناف قيل : مسوق لتوبيخهم على ترك الايمان حسبما أمروا به بإنكار أن يكون لهم فى ذلك عذر مافى الجملة على أن لاتؤمنون حال من ضمير لكم والعامل مافيه من معنى الاستقرار أى أىّ شىء حصل لكم غير مؤمنين على توجيه الانكار والنفى إلى السبب فقط مع تحقق المسبب وهو مضمون الجملة الحالية أعنى عدم الايمان فأى لانكار سبب الواقع ونفيه فقط ، ونظيره قوله تعالى : (مالكم لاترجون لله وقاراً) وقد يتوجه الانكار والنفى فى مثل هذا التركيب لسبب الوقوع فيسريان إلى المسبب أيضاً كما فى قوله تعالى : (ومالى لاأعبد) الخ ولا يمكن إجراء ذلك هنا لتحقق عدم الايمان وهذا المعنى مما لاغبار عليه ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾ حال من ضمير (لاتؤمنون) مفيدة على ماقيل : لتوبيخهم على الكفر مع تحقق مايوجب عدمه بعد توبيخهم عليه مع عدم مايوجبه ، ولام (لتؤمنوا) صلة - يدعو - وهو يتعدى بها وبإلى أى وأى عذر فى ترك الايمان (والرسول يدعوكم) اليه وينبهكم عليه ، وجوز أن تكون اللام تعليلية وقوله سبحانه : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ ﴾ حال من فاعل يدعوكم أو من مفعوله أى وقد أخذ الله ميثاقكم بالايمان من قبل كما يشعر به تخالف الفعلين مضارعاً وماضياً ، وجوز كونه حالا معطوفة على الحال قبلها فالجملة حال بعد حال من ضمير (تؤمنون) والتخالف بالإسمية والفعلية بعد ذلك فى الجملة ، وأياما كان فأخذ الميثاق إشارة إلى ما كان منه تعالى من نصب الأدلة الآفاقية والأنفسية

Marfat.com

والتمكين من النظر فقوله تعالى: (والرسول يدعوكم) إشارة إلى الدليل السمعى وهذا إشارة إلى الدليل العقلى وفى التقديم والتأخير مايؤيد القول بشرف السمعى على العقلى ٭

وقال البغوى : هو ماكان حين أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم بأنه سبحانه ربهم فشهدوا ـ وعليه لامجاز ـ والاول اختيار الزمخشرى ، وتعقبه ابن المنير فقال :لاعليه أن يحمل العهد على حقيقته وهو المأخوذ يوم الذر وكل ما أجازه العقل وورد به الشرع وجب الايمان به، وروى ذلك عن مجاهد . وعطاء .والكلبي .ومقاتل، وضعفه الامام بأن المراد إلزام المخاطبين الايمان ونفى أن يكون لهم عذر فى تركه وهم لايعلمون هذا العهد إلا من جهة الرسول فقبل التصديق بالرسول لايكون سبباً لالزامهم الايمان به ، وقال الطيبي : يمكن أن يقال . إن الضمير فى (أخذ) إن كان لله تعالى فالمناسب أن يراد بالميثاق مادل عليه قوله تعالى : (قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى) الخ لأن المعنى (فإما يأتينكم منى هدى) برسول أبعثه اليكم وكتاب أنزله عليكم ، ويدل على الأول قوله سبحانه : (والرسول يدعوكم لتؤمنوا) وعلى الثانى (هو الذى ينزل على عبده آيات) الخ ، وإن كان للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فالظاهر أن يراد به مافى قوله تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لمامعكم لتؤمنن به ولتنصرنه) على أن يضاف الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الموثق لا الموثق عليه أى الميثاق الذى وثقه الأنبياء على أممهم،وهو الوجه لأن الخطاب مع الصحابة رضى الله تعالى عنهم كما يدل عليه مابعد،ولعل الميثاق نحو ماروينا عن الامام أحمد عن عبادة بن الصامت بايعنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على السمع والطاعة فى النشاط والكسل . وعلى النفقة فى العسر واليسر . وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.وعلى أن نقول فى الله تعالى ولانخاف لومة لائم انتهى ٭ ويضعف الأول بنحو ماضعف به الامام حمل العهد على ماكان يوم الذر،وضعف الثانى أظهر من أن ينبه عليه ٭

والخطاب قال صاحب الكشف:عام يوبخ من لم يؤمن منهم بعدم الايمان ثم من آمن بعدم الانفاق فى سبيله ٭ وكلام أبى حيان ظاهر فى أنه للمؤمنين،وجعل آمنوا أمراً بالثبات على الايمان ودوامه(وما لكم لاتؤمنون) الخ على معنى كيف لاتثبتون على الايمان ودواعى ذلك موجودة ٭

وظاهر كلام بعضهم كونه للكفرة وهو الذى أشرنا اليه من قبل ، ولعل ماذكره صاحب الكشف أولى إلا أنه قيل عليه:إن آمنوا إذا كان خطاباً للمتصفين بالايمان ولغير المتصفين به يلزم استعمال الامر فى طلب أصل الفعل نظراً لغير المتصفين وفى طلب الثبات نظراً للمتصفين وفيه مافيه ، ويحتاج فى التفصى عن ذلك إلى إرادة معنى عام للامرين،وقد يقال أراد أنه عمد إلى جماعة مختلفين فى الاحوال فأمروا بأوامر شتى وخوطبوا بخطابات متعددة فتوجه كل أمر وكل خطاب إلى من يليق به وهذا كما يقول الوالى لأهل بلده :أذنوا وصلوا ودرسوا وأنفقوا على الفقراء وأوفوا الكيل والميزان إلى غير ذلك فان كل أمر ينصرف إلى من يليق به منهم فتأمل ، وقرئ (ومالكم لاتؤمنون) بالله ورسوله ، وقرأ أبو عمرو (وقد أخذ ميثاقكم) بالبناء للمفعول ورفع (ميثاقكم) ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٨ ﴾ شرط جوابه محذوف دل عليه ما قبل؛والمعنى إن كنتم مؤمنين لموجب ما فهذا موجب لاموجب وراءه ، وجوز أن يكون المراد إن كنتم ممن يؤمن فما لكم لاتؤمنون والحالة هذه،وقال الواحدى : أى إن كنتم مؤمنين بدليل عقلى أو نقلى فقد بان وظهر لكم على يدى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ببعثته وإنزال القرآن عليه ؛ وأياً ما كان فلا تناقض بين هذا وقوله تعالى : (وما لكم لاتؤمنون) وقال الطبرى

Marfat.com

فى ذلك:المراد إن كنتم مؤمنين فى حال من الأحوال فآمنوا الآن ؛ وقيل :المراد إن كنتم مؤمنين بموسى وعيسى عليهما السلام فآمنوا بمحمد صل الله تعالى عليه وسلم فان شريعتهما تقتضى الايمان به عليه الصلاة والسلام أو إن كنتم مؤمنين بالميثاق المأخوذ عليكم فى عالم الذر فآمنوا الآن ، وقيل المراد إن دمتم على الايمان فأنتم فى رتب شريفة وأقدار رفيعة ، والكل كما ترى *

وظاهر الأخير أن الخطاب مع المؤمنين وهو الذى اختاره الطيبى ،وقال فى هذا الشرط : يمكن أن يجرى على التعليل كما فى قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين) لان الكلام مع المؤمنين على سبيل التوبيخ والتقريع يدل عليه مابعد ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ﴾ حسبما يعن لكم من المصالح ﴿ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ واضحات ، والظاهر أن المراد بها آيات القرآن ، وقيل: المعجزات ﴿ لِّيُخْرِجَكُمْ ﴾ أى الله تعالى إذ هو سبحانه المخبر عنه ، أو العبد لقرب الذكر والمراد ليخرجكم بها ﴿ مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الايمان ،وقرئ فى السبعة ينزل مضارعا فبعض ثقل وبعض خفف *

وقرأ الحسن بالوجهين ، وقرأ زيد بن على .والاعمش أنزل ماضياً ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ مبالغ فى الرأفة والرحمة حيث أزال عنكم موانع سعادة الدارين وهداكم اليها على أتم وجه ، وقرىء فى السبعة (لرؤوف)بواوين ، وقوله عز وجل :﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ ﴾ توبيخ على ترك الانفاق إما للمؤمنين الغير المنفقين أولا ولئك الموبخين أولا على ترك الايمان ، وبخهم سبحانه على ذلك بعد توبيخهم على ترك الايمان بانكار أن يكون لهم فى ذلك أيضاً عذر من الأعذار ، و(أن)مصدرية لازائدة كما قيل،واقتضاه كلام الاخفش والكلام على تقدير حرف الجر ، فالمصدر المؤل فى محل نصب أو جر على القولين وحذف مفعول الانفاق للعلم به مما تقدم وقوله تعالى: ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ لتشديد التوبيخ،والمراد به كل خير يقربهم اليه تعالى على سبيل الاستعارة التصريحية أى أى شئ لكم فى أن لاتنفقوا فيما هو قربة إلى الله تعالى ماهو له فى الحقيقة وإنما أنتم خلفاؤه سبحانه فى صرفه إلى ماعينه عز وجل من المصارف ، أو ما انتقل اليكم من غيركم وسينتقل منكم إلى الغير *

﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أى يرث كل شئ فيهما ولا يبقى لأحد مال على أن ميراثهما مجاز أو كناية عن ميراث مافيهما لأن أخذ الظرف يلزمه أخذ المظروف *

وجوز أن يراد يرثهما ومافيهما،واختير الأول أنه يكفى لتوبيخهم إذ لاعلاقة لأخذ السموات والارض هنا، والجملة حال من فاعل لاتنفقوا أو مفعوله مؤكدة للتوبيخ فان ترك الانفاق بغير سبب قبيح منكر ومع تحقق مايوجب الانفاق أشد فى القبح وأدخل فى الانكار فان بيان بقاء جميع مافى السموات والأرض من الأموال بالآخرة لله عز وجل من غير أن يبقى لأحد من أصحابها شئ أقوى فى إيجاب الانفاق عليهم من بيان أنها لله تعالى فى الحقيقة ، أو أنها انتقلت اليهم من غيرهم كأنه قيل : ومالكم فى ترك إنفاقها فى سبيل الله تعالى ، والحال أنه لايبقى لكم ولالغيركم منها شئ بل تبقى كلها لله عز وجل ، وإظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لزيادة التقرير وتربية المهابة ، وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ﴾ بيان لتفاوت درجات المنفقين حسب تفاوت أحوالهم فى الانفاق بعد بيان أن لهم أجراً كبيراً على الاطلاق حثاً لهم على تحرى الأفضل،

Marfat.com

وعطف القتال على الانفاق للايذان بأنه من أهم مواد الانفاق مع كونه فى نفسه من أفضل العبادات وأنه لايخلو من الانفاق أصلا وقسيم (من أنفق) محذوف أى لايستوى ذلك وغيره ، وحذف لظهوره ودلالة مابعد عليه، والفتح فتح مكة على ماروى عن قتادة . وزيد بن أسلم . ومجاهد - وهو المشهور - فتعريفه للعهد أو للجنس ادعاءاً، وقال الشعبي : هو فتح الحديبية وقد مر وجه تسميته فتحاً فى سورة الفتح ، وفى بعض الآثار مايدل عليه ٭

أخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم. وابن مردويه . وأبو نعيم فى الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن عطاءاً ابن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عام الحديبية حتى إذا كان بعسفان قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : يوشك أن يأتى قوم يحتقرون أعمالكم مع أعمالهم قلنا : من هم يارسول الله أقريش ؟ قال : لا ولكن هم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبا ، فقلنا : أهم خير منا يارسول الله ؟ قال : لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ماأدرك مد أحدكم ولا نصيفه ألا إن هذا فصل مابيننا وبين الناس (لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح) الآية ٭

وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما (قبل) بغير (من) ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى من أنفق، والجمع بالنظر إلى معنى (من) كما أن إفراد الضميرين السابقين بالنظر إلى لفظها ، ووضع اسم الاشارة البعيد موضع الضمير للتعظيم والاشعار بأن مدار الحكم هو إنفاقهم قبل الفتح وقتالهم . ومحله الرفع على الابتداء؛ والخبر قوله تعالى: ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾ أى أولئك المنعوتون بذينك النعتين الجليلين أرفع منزلة وأجل قدراً ٭

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ ﴾ بعد الفتح ﴿ وَقَـٰتَلُواْ ﴾ وذهب بعضهم إلى أن فاعل (لايستوى) ضمير يعود على الانفاق أى لايستوى هو أى الانفاق أى جنسه إذ منه ماهو قبل الفتح ومنه ماهو بعده ، و(من أنفق) مبتدأ ، وجملة (أولئك أعظم) خبره وفيه تفكيك الكلام وخروج عن الظاهر لغير موجب فالوجه ماتقدم، ويعلم منه التزاما التفاوت بين الانفاق قبل الفتح والانفاق بعده ، وإنما كان أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا بعد لأنهم إنما فعلوا مافعلوا عند كمال الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال لقلة المسلمين وكثرة أعدائهم وعدم ماترغب فيه النفوس طبعاً من كثرة الغنائم فكان ذلك أنفع وأشد على النفس وفاعله أقوى يقيناً بما عند الله تعالى وأعظم رغبة فيه ، ولا كذلك الذين أنفقوا بعد ﴿وَكُلًّا﴾ أى كل واحد من الفريقين لا الأولين فقط ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أى المثوبة الحسنى وهى الجنة على ماروى عن مجاهد وقتادة ، وقيل: أعم من ذلك والنصر والغنيمة فى الدنيا، وقرأ ابن عامر . وعبد الوارث - وكل - بالرفع ، والظاهر أنه مبتدأ والجملة بعده خبر وللعائد محذوف أى وعده كما فى قوله :

وخالد (يحمد) ساداتنا بالحق لايحمد بالباطل

يريد يحمده والجملة عطف على أولئك أعظم درجة وبينهما من التطابق ماليس على قراءة الجمهور ، ومنع البصريون حذف العائد من خبر المبتدا ، وقالوا : لايجوز إلا فى الشعر بخلاف حذفه من جملة الصفة وهم محجوجون بهذه القراءة ، وقول بعضهم : فيها إن كل خبر مبتدا تقديره ، وأولئك كل ، وجملة (وعد الله) صفة - كل - تأويل ركيك ،وفيه زيادة حذف ، على أن بعض النحاة منع وصف - كل - بالجملة لانه معرفة بتقدير وكلهم ، وقال الشهاب : الصحيح ماذهب اليه ابن مالك من أن عدم جواز حذف العائد من جملة الخبر

Marfat.com

فى غير -كل- وماضاهاها فى الافتقار والعموم فانه فى ذلك مطرد لكن ادعى فيه الاجماع وهو محل نزاع ٥ ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٠ ﴾ عالم بظاهره وباطنه ويجازيكم على حسبه فالكلام وعد ووعيد، وفى الآيات من الدلالة على فضل السابقين المهاجرين والانصار مالا يخفى ، والمراد بهم المؤمنون المنفقون المقاتلون قبل فتح مكة أوقبل الحديبية بناءاً على الخلاف السابق ، والآية على ماذكره الواحدى عن الكلبى نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أى بسببه ، وأنت تعلم أن خصوص السبب لا يدل على تخصيص الحكم ، فلذلك قال: (أولئك) ليشمل غيره رضي الله تعالى عنه ممن اتصف بذلك ، نعم هو أكمل الأفراد فانه أنفق قبل الفتح وقبل الهجرة جميع ماله وبذل نفسه معه عليه الصلاة والسلام ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «ليس أحد أمنّ على بصحبته من أبى بكر» وذلك يكفى لنزولها فيه ، وفى الكشاف إن أولئك هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه »قال الطيبي: الحديث من رواية البخارى . ومسلم . وأبى داود . والترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: لا تسبوا أصحابى فلو أن أحداً أنفق مثل أحد ذهباً مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه » ، وتعقبه فى الكشف بأنه على هذا لايختص بالسابقين الأولين كما أشار فى الكشاف إليه وهو مبنى على أن الخطاب فى لاتسبوا ليس للحاضرين ولا للموجودين فى عصره صلى الله تعالى عليه وسلم بل لكل من يصلح للخطاب كما فى قوله تعالى: (ولو ترى إذ وقفوا) الآية وإلا فقد قيل: إن الخطاب يقتضى الحضور والوجود ولابد من مغايرة المخاطبين بالنهى عن سبهم فهم السابقون الكاملون فى الصحبة ٥

وأقول شاع الاستدلال بهذا الحديث على فضل الصحابة مطلقاً بناءاً على ماقالوا: إن إضافة الجمع تفيد الاستغراق وعليه صاحب الكشف ، واستشكل أمر الخطاب ، وأجيب عنه بما سمعت وبأنه على حد خطاب الله تعالى الأزلى لكن فى بعض الأخبار مايؤيد أن المخاطبين بعض من الصحابة والممدوحين بعض آخر منهم فتكون الاضافة للعهد أو بحمل الأصحاب على الكاملين فى الصحبة ٥

أخرج أحمد عن أنس قال: « كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام فقال خالد لعبد الرحمن ابن عوف :تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها فبلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال :دعوا لى أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أحد - أو مثل الجبال - ذهباً ما بلغتم أعمالهم » ثم فى هذا الحديث تأييد لما لكون أولئك هم الذين أنفقوا قبل الحديبية لأن إسلامه رضى الله تعالى عنه كان بين الحديبية وفتح مكة كما فى التقريب وغيره، والزمخشرى فسر الفتح بفتح مكة فلا تغفل، قال الجلال المحلى: كون الخطاب فى «لا تسبوا »للصحابة السابين ، وقال : نزلهم صلى الله تعالى عليه وسلم بسبهم الذى لا يليق بهم منزلة غيرهم حيث علل بما ذكره وهو وجه حسن فتدبر ؛ وقوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ ندب بليغ من الله تعالى إلى الانفاق فى سبيله مؤكد للامر السابق به وللتوبيخ على تركه فالاستفهام ليس على حقيقته بل للحث ، والقرض الحسن الانفاق بالاخلاص وتحرى أكرم المال وأفضل الجهات، وذكر بعضهم أن القرض الحسن مايجمع عشر صفات. أن يكون من الحلال فان الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً . وأن يكون من أكرم مايملكه المرء . وأن يكون والمرء صحيح شحيح يأمل العيش ويخشى الفقر . وأن يضعه فى الأحوج الأولى : وأن يكتم ذلك. وأن لا يتبعه بالمن

Marfat.com

والاذى. وأن يقصد به وجه الله تعالى. وأن يستحقر ما يعطى وإن كثر. وأن يكون من أحب أمواله اليه. وأن يتوخى فى إيصاله للفقير ما هو أسر لديه من الوجوه كحمله إلى بيته. ولا يخفى أنه يمكن الزيادة والنقص فيما ذكر *

وأيمـا كان فالـكلام إما على التجوز فى الفعل فيكون استعارة تبعية تصريحية أو التجوز فى مجموع الجملة فيكون استعارة تمثيلية وهو الأبلغ أى من ذا الذى ينفق ماله فى سبيل الله تعالى مخلصاً متحريا أكرمه وأفضل الجهات رجاء أن يعوضه سبحانه بدله كمن يقرضه ﴿ فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ فيعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً أضعافا كثيرة من فضله *

﴿ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١١ ﴾ أى وذلك الأجر المضموم اليه الإضعاف كريم مرضى فى نفسه حقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون ، ففيه إشارة إلى أن الأجر كما أنه زائد فى الـكيف فالجملة حالية لا عطف على (فيضاعفه)، وجوز العطف والمغايرة ثابتة بين الضعف والأجر نفسه فان الاضعاف من محض الفضل والمثل فضل هو أجر، ونصب يضاعفه على جواب الاستفهام بحسب المعنى كأنه قيل : أيقرض الله تعالى أحد فيضاعفه له فان المسئول عنه بحسب اللفظ وإن كان هو الفاعل لـكنه فى المعنى هو الفعل إذ ليس المراد أن الفعل قد وقع السؤال عن تعيين فاعله كقولك : من جاءك اليوم ؟ إذا علمت أنه جاءه جاء لم تعرفه بعينه وإنما أورد على هذا الأسلوب للمبالغة فى الطلب حتى كأن الفعل لـكثرة دواعيه قد وقع وإنما يسأل عن فاعله ليجازى ولم يعتبر الظاهر لانه يشترط بلا خلاف فى النصب بعد الفاء أن لا يتضمن ماقبل وقوع الفعل نحو لِمَ ضربت زيداً فيجازيك فانه حينئذ لا يتضمن سبق مصدر مستقبل وعلى هذا يؤل كل مافيه نصب وما قبل متضمن للوقوع ، وقرأ غير واحد (فيضاعفه) بالرفع على القياس نظراً للظاهر المتضمن للوقوع وهو إما عطف على يقرض أو على (فهو يضاعفه) وقرئ فيضعفه بالرفع والنصب ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾ ظرف لما تعلق به له أوله أو لقوله تعالى: (فيضاعفه) أو منصوب باضمار اذكر تفخيماً لذلك اليوم ، والرؤية بصرية والخطاب لـكل من تتأتى منه أو لسيد المخاطبين صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقوله عز وجل : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم ﴾ حال من مفعول ترى والمراد بالنور حقيقته على ماظهر من شموس الأخبار - واليه ذهب الجمهور - والمعنى يسعى نورهم إذا سعوا * ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم ﴾ أخرج ابن أبى شيبة . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم. والحاكم وصححه. وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال . « يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نوراً من نوره على إبهامه يطفأ مرة ويقد أخرى » وظاهره أن هذا النور يكون عند المرور على الصراط ، وقال بعضهم : يكون قبل ذلك ويستمر معهم إذا مروا على الصراط ، وفى الأخبار مايقتضيه كما ستسمعه قريباً إن شاء الله تعالى ، والمراد أنه يكون لهم فى جهتين جهة الامام وجهة اليمين وخصا لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم ، وفى البحر الظاهر أن النور قسمان : نور بين أيديهم يضئ الجهة التى يؤمونها . ونور بأيمانهم يضئ ماحواليهم من الجهات ، وقال الجمهور : إن النور أصله بأيمانهم والذى بين أيديهم هو الضوء المنبسط من ذلك، وقيل : الباء بمعنى عن أى وعن أيمانهم والمعنى فى جميع جهاتهم ، وذكر الأيمان لشرفها انتهى ، ويشهد لهذا المعنى

Marfat.com

ماأخرج ابن أبى حاتم . والحاكم وصححه . وابن مردويه عن عبد الرحمن بن جبير بن نضير أنه سمع أبا ذر . وأبا الدرداء قالا : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول من يؤذن له فى السجود يوم القيامة وأول من يؤذن له فيرفع رأسه فأرفع رأسى فأنظر بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى فأعرف أمتى بين الامم فقيل : يارسول الله وكيف تعرفهم من بين الامم مابين نوح عليه السلام إلى أمتك ؟ قال : غر محجلون من أثر الوضوء ولا يكون لأحد غيرهم وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم وأعرفهم بسيماهم فى وجوههم من أثر السجود وأعرفهم بنورهم الذى يسعى بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم » وظاهر هذا الخبر اختصاص النور بمؤمنى هذه الامة وكذا إيتاء الكتب بالأيمان وبعض الأخبار يقتضى كونه لكل مؤمن ، أخرج ابن أبى حاتم عن أبى أمامة قال : « تبعث ظلمة يوم القيامة فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه حتى يبعث الله تعالى بالنور للمؤمنين بقدر أعمالهم » الخبر ، وأخرج عنه الحاكم وصححه . وابن أبى حاتم من وجه آخر . وابن المبارك . والبيهقى فى الاسماء والصفات خبراً طويلا فيه أيضا ماهو ظاهر فى العموم ، وكذا ماأخرج ابن جرير . والبيهقى فى البعث عن ابن عباس قال: بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله تعالى نوراً فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلا لهم من الله عز وجل إلى الجنة ، ولاينافى هذا الخبر كونهم يمرون بنورهم على الصراط كما لايخفى ، وكذا إيتاء الكتب بالأيمان ، فنى هداية المريد لجوهرة التوحيد ظاهر الآيات والاحاديث عدم اختصاصه يعنى أخذ الصحف بهذه الأمة وإن تردد فيه بعض العلماء انتهى *

ويمكن أن يقال: إن مايكون من النور لهذه الامة أجلى من النور الذى يكون لغيرها أو هو ممتاز بنوع آخر من الامتياز ، وأما إيتاء الكتب بالأيمان فعله لكثرته فيها بالنسبة إلى سائر الامم تعرف به ، وفى هذا المطلب أبحاث أخر تذكر إن شاء الله تعالى فى محلها ، وقيل: أريد بالنور القرآن ، وقال الضحاك : النور استعارة عن الهدى والرضوان الذى هم فيه ، وقرأ سهل بن شعيب السهمى . وأبو حيوة (وبإيمانهم) بكسر الهمزة ، وخرج ذلك أبو حيان على أن الظرف يعنى بين أيديهم متعلق بمحذوف والعطف عليه بذلك الاعتبار أى كائناً بين أيديهم وكائناً بسبب إيمانهم وهو كما ترى ، ولعله متعلق بالقول المقدر فى قوله تعالى :

﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ ﴾ أى وبسبب إيمانهم يقال لهم ذلك ، وجملة القول ، إما معطوفة على ماقبل أو استئناف أو حال ويجوز على الحالية تقدير الوصف منه أى مقولا لهم ، والقائل الملائكة الذين يتلقونهم *

والمراد بالبشرى مايبشر به دون التبشير والكلام على حذف مضاف أى ماتبشرون به دخول جنات يصح بدونه أى ماتبشرون به جنات ، ويصح بدونه أى ماتبشرون به جنات ، وماقيل: البشارة لاتكون بالأعيان فيه نظر ، وتقدير المضاف لايغنى عن تأويل البشرى لأن التبشير ليس عين الدخول ، وجملة قوله تعالى :﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ فى موضع الصفة لجنات ، وقوله سبحانه :﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ حال من جنات ، قال أبو حيان: وفى الكلام التفات من ضمير الخطاب فى (بشراكم) إلى ضمير الغائب فى (خالدين) ولو أجرى على الخطاب لكان التركيب خالداً أنتم فيها :

﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٢ ﴾ يحتمل أن يكون من كلامه تعالى فالاشارة إلى ماذكر من النور والبشرى بالجنات ، ويحتمل أن يكون من كلام الملائكة عليهم السلام المتلقين لهم ، فالاشارة إلى ماهم فيه من النور وغيره أو إلى الجنات بتأويل ماذكر أو لكونها فوزاً على ماقيل ، وقرىء ذلك الفوز بدون (هو) *

Marfat.com

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ ﴾ بدل من (يوم ترى) ، وجوز أن يكون معمولا لأذكر ٥ وقال ابن عطية : يظهر لى أن العامل فيه ذلك هو الفوز العظيم ، ويكون معنى الفوز عليه أعظم كأنه قيل: إن المؤمنين يفوزون يوم يعترى المنافقين والمنافقات كذا وكذا لأن ظهور المرء يوم خمول عدوه مضادة أبدع وأفخم ، وتعقبه فى البحر بأن ظاهر تقريره أن يوم منصوب بالفوز وهو لا يجوز لانه مصدر قد وصف قبل أخذ متعلقاته فلا يجوز إعماله ولو أعمل وصفه وهو العظيم لجاز - أى الفوز الذى عظم - أى قدره يوم انتهى، وفى عدم جواز إعمال مثل هذا المصدر فى مثل هذا المعمول خلاف ، ثم إن تعلق هذا الظرف بشئ من تلك الجملة خلاف الظاهر ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا ﴾ أى انتظرونا ﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ نصب منه وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به ٥ وقيل : فيأخذوا شيئاً منه يكون معهم تخيلوا تأتى ذلك فقالوه ، وأصل الاقتباس طلب القبس أى الجذوة من النار ، وجوز أن يكون المعنى انظروا إلينا نقتبس الخ لأنهم إذا نظروا اليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به فانظرونا على الحذف والايصال لان النظر بمعنى مجرد الرؤية يتعدى بإلى فان أريد التأمل تعدى بفى لكن حمل الآية على ذلك خلاف الظاهر ؛ وقولهم : للمؤمنين ذلك لأنهم فى ظلمة لا يذرون كيف يمشون فيها ، وروى أنه يكون ذلك على الصراط ٥

وفى الآثار دلالة على أنهم يكون لهم نور فيطفأ فيقولون ذلك ، أخرج الطبرانى. وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأمهاتهم ستراً منه على عباده وأما عند الصراط فان الله تعالى يعطى كل مؤمن نوراً وكل منافق نوراً فاذا استووا على الصراط أطفأ الله نور المنافقين والمنافقات فقال المنافقون: انظرونا نقتبس من نوركم، وقال المؤمنون : أتمم لنا نورنا فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً ٥

وفى حديث آخر مرفوع عنه أيضاً إن نور المنافق يطفأ قبل أن يأتى الصراط ، وأخرج عبد بن حميد . وابن المنذر عن أبى فاختة يجمع الله تعالى الخلائق يوم القيامة ويرسل الله سبحانه على الناس ظلمة فيستغيثون ربهم فيؤتى الله تعالى كل مؤمن منهم نوراً ويؤتى المنافقين نوراً فينطلقون جميعاً متوجهين إلى الجنة معهم نورهم فبينما هم كذلك إذ أطفأ الله تعالى نور المنافقين فيترددون فى الظلمة ويسبقهم المؤمنون بنورهم بين أيديهم فيقولون. انظرونا نقتبس من نوركم الخبر، والاخبار فى إيتاء المنافق نوراً ثم إطفائه كثيرة وليس فى الآية ما يأباه ٥

وقرأ زيد بن على . وابن وثاب . والاعمش . وطلحة . وحمزة (أنظرونا) بقطع الهمزة وفتحها وكسر الظاء من النظرة وهى الامهال يقال أنظر المديون أى أمهله ، وضع (انظرونا) بمعنى المهلة وإنظار الدائن المديون موضع اتئاد الرفيق ومشيه الهوينا ليلحقه رفيقه على سبيل الاستعارة بعد سبق تشبيه الحالة بالحالة مبالغة فى العجز وإظهار الافتقار، وقيل: هو من أنظر أى أخر، والمراد اجعلونا فى آخركم ولا تسبقونا بحيث تفوتونا ولا نلحق بكم ٥ وقال المهدوى: (أنظرونا. وانظرونا) بمعنى وهما من الانتظار تقول العرب: أنظرته بكذا وانتظرته بمعنى واحد والمعنى، امهلونا ﴿ قِيلَ ﴾ القائلون على ما روى عن ابن عباس المؤمنون، وعلى ما روى عن مقاتل الملائكة عليهم السلام ٥ ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ ﴾ قال ابن عباس : أى من حيث جئتم من الظلمة أو إلى المكان الذى قسم فيه النور على ما صح عن أبى أمامة ﴿ فَالْتَمِسُوا نُوراً ﴾ هناك ، قال مقاتل : هذا من الاستهزاء بهم كما استهزءوا بالمؤمنين

Marfat.com

فى الدنيا حين قالوا آمنا وليسوا بمؤمنين،وذلك قوله تعالى : (الله يستهزئ بهم) أى حين يقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، وقال أبو أمامة: يرجعون حين يقال لهم ذلك إلى المكان الذى قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون اليهم وقد ضرب بينهم بسور وهى خدعة الله تعالى التى خدع بها المنافقين حيث قال سبحانه: (يخادعون الله وهو خادعهم) ، وقيل : المراد ارجعوا إلى الدنيا والتمسوا نوراً أى بتحصيل سببه وهو الايمان أو تنحوا عنا والتمسوا نوراً غير هذا فلا سبيل لكم إلى الاقتباس منه ، والغرض التهكم والاستهزاء أيضا*

وقيل : أرادوا بالنور ماوراءهم من الظلمة الكثيفة تهكما بهم وهو خلاف الظاهر ، وأياً ما كان فالظاهر أن وراءكم معمول لارجعوا *

وقيل: لامحل له من الاعراب لأنه بمعنى ارجعوا فكأنه قيل: ارجعوا ارجعوا كقولهم (وراءك) أوسع لك أى ارجع تجد مكاناً أوسع لك ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم ﴾ أى بين الفريقين ، وقرأ زيد بن على.وعبيد بن عمير (فضرب) مبنياً للفاعل أى فضرب هو أى الله عز وجل ﴿ بسُور ﴾ أى بحاجز ،قال ابن زيد: هو الاعراف، وقال غير واحد: حاجز غيره والباء مزيدة ﴿ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ ﴾ أى الباب كما روى عن مقاتل أو السور وهو الجانب الذى يلى مكان المؤمنين أعنى الجنة ﴿ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ الثواب والنعيم الذى لايكتنه ﴿ وَظَـٰهِرُهُ ﴾ الجانب الذى يلى مكان المنافقين أعنى النار ﴿ مِن قِبَلِهِ ﴾ أى من جهته ﴿ الْعَذَابُ ١٣ ﴾ وهذا السور قيل: يكون فى تلك النشأة وتبدل هذا العالم واختلاف أوضاعه فى موضع الجدار الشرقى من مسجد بيت المقدس *

أخرج عبد بن حميد عن أبى سنان قال: كنت مع على بن عبد الله بن عباس عند وادى جهنم يعنى المكان المعروف عند بيت المقدس فحدث عن أبيه أنه قال: وقد تلا قوله تعالى:(فضرب بينهم بسور)هذا موضع السور عند وادى جهنم ، وأخرج هو . وابن جرير . وابن المنذر . والحاكم وصححه وغيرهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إن السور الذى ذكره الله تعالى فى القرآن (فضرب بينهم بسور) هو سور بيت المقدس الشرقى (باطنه فيه الرحمة) المسجد (وظاهره من قبله العذاب) يعنى وادى جهنم ومايليه *

وأخرج عن عبادة بن الصامت أنه كان على سور بيت المقدس الشرقى فبكى فقيل:مايبكيك؟فقال : ههنا أخبرنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه رأى جهنم ولايخفى أن هذا ونظائره أمور مبنية على اختلاف العالمين وتغاير النشأتين على وجه لاتصل العقول إلى إدراك كيفيته والوقوف على تفاصيله ، فان صح الخبر لم يسعنا إلا الايمان لعدم خروج الامر عن دائرة الامكان ، وأبو حيان حكى عمن سمعت . وعن كعب الاحبار أنه الجدار الشرقى من مسجد بيت المقدس واستبعده ثم قال : ولعله لايصح عنهم ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل:فماذا يفعلون بعد ضرب السور ومشاهدة العذاب؟فقيل: ينادى المنافقون والمنافقات المؤمنين والمؤمنات ﴿ أَلَمْ نَكُن ﴾ فى الدنيا ﴿ مَّعَكُمْ ﴾ يريدون به موافقتهم لهم فى الظاهر ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ كنتم معنا كما تقولون ﴿ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ محنتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ وشككتم فى أمور الدين ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِىُّ ﴾ الفارغة التى من جملتها الطمع فى انتكاس الاسلام،

Marfat.com

وقال ابن عباس : (فتنتم أنفسكم) بالشهوات واللذات (وتربصتم) بالتوبة(وارتبتم) قال محبوب الليثى: شككتم فى الله (وغرتكم الامانى)طول الآمال ، وقال أبو سنان:قلتم سيغفرلنا ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾أى الموت ﴿ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ الشيطان قال لكم : إن الله عفو كريم لا يعذبكم *

وعن قتادة كانوا على خدعة من الشيطان والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله تعالى فى النار *

وقرأ سماك بن حرب الغرور بالضم ، قال ابن جنى : وهو كقوله :وغركم بالله تعالى الاغترار ،وتقديره على حذف المضاف أى وغركم بالله تعالى سلامة الاغترار (١) ومعناه سلامتكم منه اغتراركم *

﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ ﴾ أيها المنافقون ﴿ فِدْيَةٌ ﴾فداء وهو ما يبذل لحفظ النفس عن النائبة والناصب ليوم الفعل المنفى بلا ،وفيه حجة على من منع ذلك ،وقرأ أبو جعفر. والحسن. وابن أبى إسحق . والاعرج.وابن عامر. وهرون عن أبى عمرو لاتؤخذ بالتاء الفوقية ﴿ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أى ظاهراً وباطناً فيغاير المخاطبين المنافقين،ثم الظاهر إن المراد بالفدية ماهو من جنس المال ونحوه،وجوز أن يراد بها مايعم الإيمان والتوبة فتدل الآية على أنه لا يقبل إيمانهم وتوبتهم يوم القيامة وفيه بعد،وفى الحديث إن الله تعالى يقول للكافر: أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا أكنت تفتدى بجميع ذلك من عذاب النار ، فيقول: نعم يارب فيقول الله تبارك وتعالى: فدسأ لتك ما هو أيسر من ذلك وأنت فى ظهر أبيك آدم أن لاتشرك بى فأبيت إلا الشرك ﴿ مَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ محل أويكم ﴿ هِىَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أى ناصركم من باب ـ تحية بينهم ضرب وجيع ـ والمراد نفى الناصر على البتات بعد نفى أخذ الفدية وخلاصهم بها عن العذاب ، ونحوه قولهم :أصيب بكذا فاستنصر الجزع، ومنه قوله تعالى: (يغاثوا بماء كالمهل) وقال الكلبي . والزجاج . والفراء . وأبو عبيدة : أى أولى بكم كما فى قول لبيد يصف بقرة وحشية نفرت من صوت الصائد :

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها

أى فغدت كلا جانبيها الخلف والامام تحسب أنه أولى بأن يكون فيه الخوف، قال الزمخشرى : وحقيقة مولاكم هى على هذا محراكم ومقمنكم أى المكان الذى يقال فيه هو أولى بكم كما قيل : هو مئنة للكرم أى مكان لقول القائل : إنه لكريم فأولى نوع من اسم المكان لوحظ فيه معنى أولى إلا أنه مشتق منه كما أن المئنة ليست مشتقة من إن التحقيقية ، وفى التفسير الكبير إن قولهم ذلك بيان لحاصل المعنى وليس بتفسير اللفظ لأنه لو كان مولى وأولى بمعنى واحد فى اللغة لصح استعمال كل منهما فى مكان الآخر وكان يجب أن يصح هذا أولى فلان كما يقال : هذا مولى فلان ولما بطل ذلك علمنا أن الذى قالوه معنى وليس بتفسير، ثم صرح بأنه أراد بذلك رد استدلال الشريف المرتضى بحديث الغدير من كنت مولاه فعلىّ مولاه على إمامة الامير كرم الله تعالى وجهه حيث قال : أحد معانى المولى الاولى *

وحمله فى الخبر عليه متعين لأن إرادة غيره يجعل الاخبار عبثاً كإرادة الناصر والصاحب وابن العم ، أو يجعله كذبا كالمعتق والمعتق ولا يخفى على المنصف أنه إن أراد بكونه معنى لا تفسير ماأشار اليه الزمخشرى من التحقيق

(١) هكذا فى الاصل فليتنبه * ادارة

Marfat.com

فهو لايرد الاستدلال إذ يكفى للمرتضى أن يقول : المولى فى الخبر بمعنى المكان الذى يقال فيه أولى إذ يلزم على غيره العبث أو الكذب وإن أراد أن ذلك معنى لازم لماهو تفسير له كأن يكون تفسيره القائم بمصالحكم ونحوه مما يكون ذلك لازماً له فنى رده الاستدلال أيضا تردد ، وإن أراد شيئاً آخر فنحن لاندرى ماهو - وهو لم يبينه - والحق أنه ولو جعل المولى بمعنى الأولى أو المكان الذى يقال فيه الاولى لايتم الاستدلال بالخبر على الامامة التى تدعيها الامامية للامير كرم الله تعالى وجهه لما بين فى موضعه ، وفى التحفة الاثنى عشرية مافيه كفاية لطالب الحق *

وقال ابن عباس أى مصيركم وتحقيقه على ماقال الامام : إن المولى بمعنى موضع الولى وهو القرب والمعنى هى موضعكم الذى تقربون منه وتصلون اليه ، وأنت تعلم أن الاخبار بذلك بعد الاخبار بأنها مأواهم ليس فيه كثير جدوى على أن وضع اسم المكان للموضع الذى يتصف صاحبه بالمأخذ حال كونه فيه والقرب من النار وصف لأولئك قبل الدخول فيها ولايحسن وصفهم به بعد الدخول ولو اعتبر مجاز الكون كما لايخفى ، وجوز بعضهم اعتبار كونه اسم مكان من الولى بمعنى القرب لكن على أن المعنى هى مكان قربكم من الله سبحانه ورضوانه على التهكم بهم ؛ وقيل : أى متوليكم أى المتصرفة فيكم كتصرفكم فيما أوجبها واقتضاها فى الدنيا من المعاصى والتصرف استعارة للاحراق والتعذيب ، وقيل : مشاكلة تقديرية ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٥ ﴾ أى النار وهى المخصوص بالذم المحذوف لدلالة السياق ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ استئناف لعتاب المؤمنين على الفتور والتكاسل فيما ندبوا اليه والمعاتب على ماقاله الزجاج طائفة من المؤمنين وإلا فمنهم من لم يزل خاشعاً منذ أسلم إلى أن ذهب إلى ربه ، ومانقل عن الكلبى . ومقاتل أن الآية نزلت فى المنافقين فهم المراد بالذين آمنوا مما لايكاد يصح ، وقد سمعت صدر السورة الكريمة ماروى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه *

وأخرج ابن المبارك . وعبد الرزاق . وابن المنذر عن الاعمش قال : لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من لين العيش ماأصابوا بعد ماكان لهم من الجهد فكأنهم فتروا عن بعض ماكانوا عليه فعوتبوا فنزلت (ألم يأن) الآية *

وأخرج ابن أبى حاتم . وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن الله تعالى استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال سبحانه : (ألم يأن) الآية ، وفى خبر ابن مردويه عن أنس بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن *

وأخرج عن عائشة قالت : خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على نفر من أصحابه فى المسجد وهم يضحكون فسحب رداءه محمراً وجهه فقال : أتضحكون ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم وقد نزل على فى ضحككم آية (ألم يأن للذين) الخ ؟ قالوا : يارسول الله فما كفارة ذلك ؟ قال : تبكون بقدر ماضحكتم ، وفى خبر أن أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام قد ظهر فيهم المزاح والضحك فنزلت ، وحديث مسلم ومن معه السابق مقدم على هذه الآثار على مايقتضيه كلام أهل الحديث ، و(يأن) مضارع أنى الأمر أنياً وأناءاً وإناءاً بالكسر إذا جاء أناه أى وقته ، أى ألم يجئ وقت أن تخشع قلوبهم لذكره عز وجل *

وقرأ الحسن . وأبو السمال - ألما - بالهمزة ، ولما النافية الجازمة كلم إلا أن فيه أن المنفى متوقع *

Marfat.com

وقرأ الحسن يئن مضارع آن أينا بمعنى أنى السابق، وقال أبو العباس : قال قوم: إن يئين أينا الهمزة مقلوبة فيه عن الحاء وأصله حان يحين حيناً وأصل الكلمة من الحين ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أى القرآن وهو عطف على ذكر الله فان كان هو المراد به أيضا فالعطف لتغاير العنوانين نحو ٭ هو الملك القرم وابن الهمام ٭ فانه ذكر وموعظة كما أنه حق نازل من السماء وإلا بأن كان المراد به تذكير الله تعالى إياهم فالعطف لتغاير الذاتين على ما هو الشائع فى العطف وكذا إذا أريد به ذكرهم الله تعالى بالمعنى المعروف ، وجوز العطف على الاسم الجليل إذا أريد بالذكر التذكير وهو كما ترى ، وقال الطيبي : يمكن أن يحمل الذكر على القرآن وما نزل من الحق على نزول السكينة معه أى الواردات الالهية ويعضده ما روينا عن البخارى . ومسلم . والترمذى عن البراء كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشطنين فغشيته سحابة فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فذكر له ذلك فقال : تلك السكينة تنزل للقرآن ٭

وفى رواية اقرأ فلان فانها السكينة تنزل عند القرآن أو للقرآن انتهى ، ولا يخفى بعد ذلك جداً ولعلك تختار حمل الذكر وما نزل على القرءان لما يحس مما بعد من نوع تأييد له ، وفسر الخشوع للقرآن بالانقياد التام لاوامره ونواهيه والعكوف على العمل بما فيه من الاحكام من غير توان ولا فتور ، والظاهر أنه اعتبر كون اللام صلة الخشوع ، وجوز كونها للتعليل على أوجه الذكر فالمعنى ألم يأن لهم أن ترق قلوبهم لاجل ذكر الله تعالى وكتابه الحق النازل فيسارعوا إلى الطاعة على أكمل وجوهها ، وفى الآية حض على الخشوع ، وكان ابن عمر رضى الله تعالى عنهما كما أخرج عنه ابن المنذر إذا تلاها بكى ثم قال: بلى يارب بلى يارب ، وعن الحسن أما والله لقد استبطأهم وهم يقرءون من القرآن أقل مما تقرءون فانظروا فى طول ماقرأتم وما ظهر فيكم من الفسق ، وروى السلمى عن أحمد بن أبى الحوارى قال بينا أنا فى بعض طرقات البصرة إذ سمعت صعقة فأقبلت نحوها فرأيت رجلا قد خر مغشياً عليه فقلت: ماهذا؟ فقالوا: كان رجلا حاضر القلب فسمع آية من كتاب الله فخر مغشياً عليه فقلت : ماهى ؟ فقيل : قوله تعالى : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) فأفاق الرجل عند سماع كلامنا فأنشأ يقول :

أما آن للهجران أن يتصرما ... وللغصن غصن البان أن يتبسما
وللعاشق الصب الذى ذاب وانحنى ... ألم يأن أن يبكى عليه ويرحما
كتبت بماء الشوق بين جوانحى ... كتابا حكى نقش الوشى المنمنما

ثم قال: إشكال إشكال فخر مغشياً عليه فحركناه فاذا هو ميت ، وعن أبى بكر رضى الله تعالى عنه إن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاءاً شديداً فنظر إليهم فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب ، ولعله أراد رضى الله تعالى عنه أن الطراز الأول كان كذلك حتى قست قلوب كثير من الناس ولم يتأسوا بالسابقين وغرضه مدح أولئك القوم بما كان هو ونظراؤه عليه رضى الله تعالى عنهم ، ويحتمل أن يكون قد أراد ماهو الظاهر ، والكلام من باب هضم النفس كقوله رضى الله تعالى عنه: أقيلونى فلست بخيركم ، وقال شيخ الاسلام أبو حفص السهروردى قدس سره : معناه تصلبت وأدمنت سماع القرآن وألفت أنواره فما تستغر به حتى تتغير كما تغير هؤلاء السامعون انتهى وهو خلاف الظاهر ، وفيه نوع انتقاص للقوم ورمز إلى أن البكاء عند سماع القرآن لا يكون من كامل كما يزعمه بعض جهلة الصوفية القائلين: إن ذلك لا يكون إلا لضعف القلب عن تحمل الواردات الالهية النورانية ويجل عن ذلك كلام الصديق رضى الله تعالى عنه ، وقرأ غير واحد

Marfat.com

من السبعة (وما نزل) بالتشديد ، والجحدرى . وأبو جعفر . والأعمش. وأبو عمرو فى رواية يونس. وعباس عنه (نزل) مبنياً للمفعول مشدداً ، وعبد الله ـ أنزل ـ بهمزة النقل مبنياً للفاعل ٥

﴿ ولَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ من قَبْلُ ﴾ (لا) نافية ومابعدها منصوب معطوف على تخشع ٥

وجوز أن تكون ناهية ومابعدها مجزوم بها ويكون ذلك انتقالا إلى نهى أولئك المؤمنين عن مماثلة أهل الكتاب بعد أن عوتبوا بماسمعت وعلى النفى هو فى المعنى نهى أيضاً ، وقرأ أبو بحرية . وأبو حيوة . وابن أبى عبلة . وإسماعيل عن أبى جعفر ، وعن شيبة . ويعقوب . وحمزة فى رواية عن سليم عنه (ولا تكونوا) بالتاء الفوقية على سبيل الالتفات للاعتناء بالتحذير ، وفى (لا) ماتقدم ، والنهى مع الخطاب أظهر منه مع الغيبة ٥

﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ﴾ أى الأجل بطول أعمارهم وآمالهم ، أو طال أمد مابينهم وبين أنبيائهم عليهم السلام وبعد العهد بهم ، وقيل : أمد انتظار القيامة والجزاء ، وقيل : أمد انتظار الفتح ، وفرقوا بين الامد والزمان بأن الامد يقال باعتبار الغاية والزمان عام فى المبدأ والغاية ، وقرأ ابن كثير فى رواية الأمد بتشديد الدال أى الوقت الأطول ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ صلبت فهى كالحجارة ، أو أشد قسوة ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ١٦ ﴾ خارجون عن حدود دينهم رافضون لمافى كتابهم بالكلية ، قيل : من فرط القسوة وذكر أنه مأخوذ من كون الجملة حال ، وفيه خفاء والأظهر أنه من السياق ، والمراد بالكتاب الجنس فالموصول يعم اليهود والنصارى وكانوا كلهم فى أوائل أمرهم يحول الحق بينهم وبين كثير من شهواتهم وإذا سمعوا التوراة والانجيل خشعوا لله تعالى ورقت قلوبهم فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة وزالت عنهم الروعة التى كانت يجدونها عند سماع الكتابين وأحدثوا ماأحدثوا واتبعوا الأهواء وتفرقت بهم السبل ، والقسوة مبدأ الشرور وتنشأ من طول الغفلة عن الله تعالى ، وعن عيسى عليه السلام لاتكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسو قلوبكم فان القلب القاسى بعيد من الله عز وجل ولا تنظروا إلى ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عباد والناس رجلان مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء واحمدوا على العافية ومن أحس بقسوة فى قلبه فليهرع إلى ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه يرجع إليه حاله كما أشار إليه قوله عز وجل: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فهو تمثيل ذكر استطراداً لاحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بإحياء الارض الميتة بالغيث للترغيب فى الخشوع والتحذير عن القساوة ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ التى من جملتها هذه الآيات ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ١٧ ﴾ كى تعقلوا مافيها وتعملوا بموجبها فتفوزوا بسعادة الدارين ٥

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ ﴾ أى المتصدقين والمتصدقات ، وقد قرأ أبى كذلك ، وقرأ ابن كثير . وأبو بكر . والمفضل . وأبان . وأبو عمرو فى روايته هرون بتخفيف الصاد من التصديق لا من الصدقة كما فى قراءة الجمهور أى الذين صدقوا واللاتى صدقن الله عز وجل ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والقراءة الأولى أنسب بقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ وقيل: الثانية أرجح لأن الإقراض يغنى عن ذكر التصدق ، وأنت ستعلم إن شاء الله تعالى فائدته ، وعطف (أقرضوا) على معنى الفعل من المصدقين على مااختاره أبو على . والزمخشرى لأن أل بمعنى الذين ، واسم الفاعل بمعنى الفعل فكأنه قيل: إن الذين اصدقوا أو صدقوا على القراءتين (وأقرضوا)

Marfat.com

وتعقبه أبو حيان وغيره بأن فيه الفصل بين أجزاء الصلة إذ المعطوف على الصلة صلة بأجنبي وهو المصدقات، وذلك لا يجوز ، وقال صاحب التقريب : هو محمول على المعنى كأنه قيل : إن الناس الذين تصدقوا وتصدقن وأقرضوا فهو عطف على الصلة من حيث المعنى بلا فصل ، وتعقب بأنه لا محصل له إلا إذا قيل : إن أل الثانية زائدة لئلا يعطف على صورة جزء الكلمة ، وفيه بعد ، ولا يخفى أن حديث اعتبار المعنى يدفع ما ذكر ، ومن هنا قيل: إنه قريب ولا يبعد تنزيل ما تقدم عن أبى على، والزمخشرى عليه ، وقيل: العطف على صلة أل فى المصدقات واختلاف الضمائر تأنيثا وتذكيراً لا يضر لأن أل تصلح للجميع فيراد بها معنى اللاتى عند عود ضمير جمع الإناث عليها ومعنى الذين عند عود ضمير جمع الذكور عليها وهو كما ترى ، ومثله ماقيل: هو من باب كل رجل وضيعته أى إن المصدقين مقرونون مع المصدقات فى الثواب والمنزلة ،أو يقدر خبر أى -إن المصدقين والمصدقات يفاحون - (وأقرضوا) فى الوجهين ليس عطفاً على الصلة بل مستأنف ويضاعف بعد صفة قرضاً أو استئناف ومن أنصف لم ير ذلك مما ينبغى أن يخرج عليه كلام أدنى الفصحاء فضلا عن كلام رب العالمين ، واختار أبو حيان تخريج ذلك على حذف الموصول لدلالة ماقبله عليه كأنه قيل :والذين أقرضوا فيكون مثل قوله:

فمن يهجر رسول الله منكم (ويمدحه وينصره) سواء

وهو مقبول على رأى الكوفيين دون رأى البصريين فانهم لا يجوزون حذف الموصول فى مثله ،وبعض أئمة المحققين بعد أن استقرب توجيه التقريب ولم يستبعد تنزيل ما سمعت عن الزمخشرى . وأبى على عليه قال: وأقرب منه أن يقال : إن(المصدقات)منصوب على التخصيص كأنه قيل : (إن المتصدقين) عاماً على التغليب وأخص المتصدقات منهم كما تقول : إن الذين آمنوا ولاسيما العلماء منهم وعملوا الصالحات لهم كذا *

ووجه التخصيص ماورد فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « يامعشر النساء تصدقن فانى أريتكن أكثر أهل النار » يحضهن على الصدقة بأنهن إذا فعلن ذلك كان له تعالى أقبل وجزاؤه عنه سبحانه أوفر وأفضل ،ثم قال : ولما لم يكن الاقراض غير ذلك التصدق قيل:وأقرضوا أى بذلك التصدق تحقيقا لكينونته وأنهم مثل ذلك يمثلون عند الله تعالى بمن يعامل مع أجود الأجودين معاملة برضاه،ولو قيل:والمقرضين لفاتت هذه النكتة انتهى*

ولا يخفى أن نصب المصدقات على التخصيص خلاف الظاهر، وأما ماذكره فى نكتة العدول عن المقروضين فحسن وهو متأت على تخريج أبى على . والزمخشرى ، وعلى تخريج أبى حيان ، وقال الخفاجى: القول -أى قول أبى البقاء- بأن أقرضوا الخ معترض بين اسم إن وخبرها أظهر وأسهل ، وكأن النكتة فيه تأكيد الحكم بالمضاعفة ، وزعم أن الجملة حال بتقدير قد أو بدونها من ضميرى المصدقين والمصدقات لا يخفى معنى وعربية فتدبر ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ الضمير لجميع المتقدمين الذكور والاناث على التغليب كضمير أقرضوا ، والجار والمجرور نائب الفاعل ، وقيل : هو ضمير التصدق أو ضمير القرض على حذف مضاف أى يضاعف ثواب التصدق أو ثواب القرض لهم ، وقرأ ابن كثير.. وابن عامر - يضعف - بتشديد العين،وقرئ يضاعف بالبناء للفاعل أى يضاعف الله عز وجل لهم ثواب ذلك ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١٨ ﴾ قد مر الكلام فيه *

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾قد بين كيفية إيمانهم فى خاتمة سورة البقرة،والموصول مبتدأ أول ،وقوله تعالى :﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ مبتدأ ثان ، وهو إشارة إلى الموصول ومافيه من معنى البعد لما مر مراراً ،وقوله سبحانه:

Marfat.com

﴿ هُمُ ﴾ مبتدأ ثالث ، وقوله عز وجل : ﴿ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَاءُ ﴾ خبر الثالث ، والجملة خبر الثانى وهو مع خبره خبر الاول أو هم ضمير فصل وما بعده خبر الثانى ، وقوله تعالى : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ متعلق على ماقيل: بالثبوت الذى تقتضيه الجملة أى أولئك عند ربهم عز وجل وفى حكمه وعلمه سبحانه هم الصديقون والشهداء

والمراد أولئك فى حكم الله تعالى بمنزلة الصديقين والشهداء المشهورين بعلو الرتبة ورفعة المحل وهم الذين سبقوا إلى التصديق ورسخوا فيه واستشهدوا فى سبيل الله جل جلاله وسمى من قتل مجاهداً فى سبيله تعالى شهيداً لان الله سبحانه وملائكته عليهم السلام شهود له بالجنة ، وقيل : لأنه حى لم يمت كأنه شاهد أى حاضر ، وقيل : لأن ملائكة الرحمة تشهده ، وقيل : لأنه شهد ماأعد الله تعالى له من الكرامة ، وقيل : غير ذلك فهو إما فعيل بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول على اختلاف التأويل ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ خبر ثان للموصول على أنه جملة من مبتدأ وخبر ، أو (لهم) الخبر ومابعده مرتفع به على الفاعلية وضمير (لهم) للموصول ، والضميران الاخيران للصديقين والشهداء ، والغرض بيان ثمرات ماوصفوا به من نعوت الكمال أى أولئك لهم مثل أجر الصديقين والشهداء ونورهم المعروفين بغاية الكمال وعزة المنال ، وقد حذف أداة التشبيه تنبيها على قوة المماثلة وبلوغها حد الاتحاد كما فعل ذلك أولا حيث قيل : أولئك هم الصديقون والشهداء وليست المماثلة بين ماللفريق الاول من الأجر والنور . وبين تمام ماللفريقين الأخيرين بل بين تمام ماللأول من الأصل والإضعاف وبين ماللأخيرين من الاصل بدون الإضعاف ، فالإضعاف هو الذى امتاز به الفريقان الاخيران على الفريق الاول وقد لا يعتبر تشبيه بليغ فى الكلام أصلا ويبقى على ظاهره والضمائر كلها للموصول أى أولئك هم المبالغون فى الصدق حيث آمنوا وصدقوا جميع أخبار الله تعالى وأخبار رسله عليهم الصلاة والسلام والقائمون بالشهادة لله سبحانه بالوحدانية وسائر صفات الكمال ولهم بما يليق بهم من ذلك لهم الأجر والنور الموعودان لهم ، وقال بعضهم: وصفهم بالشهادة لكونهم شهداء على الناس كما نطق به قوله تعالى : (و كذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) فعند ربهم متعلق بالشهداء ، والمراد والشهداء على الناس يوم القيامة ، وجوز تعلقه بالشهداء أيضا على الوجه الاول على معنى الذين شهدوا مزيد الكرامة بالقتل فى سبيل الله تعالى يوم القيامة أو فى حظيرة رحمته عز وجل أو نحو ذلك ، ويشهد لكون الشهداء معطوفا على الصديقين آثار كثيرة

أخرج ابن جرير عن البراء بن عازب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن مؤمنى أمتى شهداء ، ثم تلا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) ، وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة أنه قال يوما لقوم عنده : كلكم صديق وشهيد قيل له : ماتقول ياأباهريرة ؟ قال : اقرءوا (والذين آمنوا بالله ورسله) الآية ، وأخرج عبدالرزاق . وعبد بن حميد عن مجاهد قال : كل مؤمن صديق وشهيد ثم تلا الآية ، وأخرج عبد بن حميد نحوه عن عمرو بن ميمون ، وأخرج ابن حبان عن عمرو ابن مرة الجهنى قال : « جاء رجل إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : يارسول الله أرأيت إن شهدت أن لاإله إلا الله وأنك رسول الله وصليت الصلوات الخمس وأديت الزكاة وصمت رمضان وقمته فممن أنا ؟ قال : من الصديقين والشهداء » وينبغى أن يحمل الذين آمنوا على من لهم كمال فى ذلك يعتد به ولا يتحقق إلا بفعل طاعات يعتد بها وإلا فيبعد أن يكون المؤمن المنهمك فى الشهوات الغافل عن الطاعات صديقاً شهيداً ،

Marfat.com

ويستأنس لذلك بما جاء من حديث عمر رضى الله تعالى عنه مالكم إذا رأيتم الرجل يخرق أعراض الناس أن لاتعيبوا عليه؟قالوا : نخاف لسانه قال : ذلك أحرى أن لاتكونوا شهداء ، قال ابن الاثير : أى إذا لم تفعلوا ذلك لم تكونوا فى جملة الشهداء الذين يستشهدون يوم القيامة على الامم التى كذبت أنبياءها ، وكذا بقوله عليه الصلاة والسلام:اللعانون لا يكونون شهداء بناءاً على أحد قولين فيه ٠ وفى بعض الاخبار ماظاهره إرادة طائفة من خواص المؤمنين ، أخرج ابن مردويه عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من فر بدينه من أرض إلى أرض مخافة الفتنة على نفسه ودينه كتب عند الله صديقاً فاذا مات قبضه الله شهيداً وتلا هذه الآية (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء) ثم قال: هذه فيهم ثم قال : والفرارون بدينهم من أرض إلى أرض يوم القيامة مع عيسى ابن مريم فى درجته فى الجنة » ويجوز أن يراد من قوله : « هذه فيهم » أنها صادقة عليهم وهم داخلون فيها دخولا أولياً ، ويقال : فى قوله عليه الصلاة والسلام :«مع عيسى فى درجته » المراد معه فى مثل درجته وتوجه المماثلة بما مر والخبر إذا صح يؤيد الوجه الأول فى الآية*

وروى عن الضحاك أنها نزلت فى ثمانية نفر سبقوا أهل الارض فى زمانهم إلى الاسلام وهم أبو بكر . وعمر .وعثمان.وعلى. وحمزة .وطلحة .والزبير. وسعد . وزيد رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، وهذا لايضر فى العموم كما لايخفى ،وقيل :الشهداء مبتدأ و (عند ربهم) خبره،وقيل: الخبر (لهم أجرهم) والكلام عليهما قدتم عند قوله تعالى :(الصديقون)،وأخرج هذا ابن جرير عن ابن عباس .والضحاك قالا:(والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون) هذه مفصولة سماهم صديقين ، ثم قال :والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم *

وروى جماعة عن مسروق مايوافقه، واختلفوا فى المراد بالشهداء على هذا فقيل :الشهداء فى سبيل الله تعالى٠ وحكى ذلك عن مقاتل بن سليمان،وقيل:الانبياء عليهم السلام الذين يشهدون للامم عليهم،وحكى ذلك عن مسروق. ومقاتل بن حيان . واختاره الفراء . والزجاج، وزعم أبو حيان أن الظاهر كون الشهداء مبتدا وما بعده خبر، ومن أنصف يعلم أنه ليس كما قال ، وأن الذى تقتضيه جزالة النظم الكريم هو ماتقدم،ثم النور على جميع الأوجه على حقيقته ، وعن مجاهد . وغيره أنه عبارة عن الهدى والكرامة والبشرى *

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَاتِنَآ ﴾ أى بجميعها على اختلاف أنواعها وهو إشارة إلى كفرهم بالرسل عليهم السلام جميعهم﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بتلك الصفة القبيحة ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ١٩ ﴾ بحيث لا يفارقونها أبداً

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ﴾ بعدما بين حال الفريقين فى الآخرة شرح حال الحياة التى اطمأن بها الفريق الثانى ، وأشير إلى أنها من محقرات الامور التى لايركن اليها العقلاء فضلا عن الاطمئنان بها بأنها لعب لاثمرة فيها سوى التعب (ولهو)تشغل الانسان عما يعنيه ويهمه (وزينة) لايحصل منها شرف ذاتى كالملابس الحسنة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة(وتفاخر)بالأنساب والعظام البالية(وتكاثر) بالعدد والعدد ، وقرأ السلمى(وتفاخر بينكم) بالاضافة ،ثم أشير إلى أنها مع ذلك سريعة الزوال وشبكة الاضمحلال بقوله سبحانه : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ مطر ﴿ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ ﴾ أى راقهم﴿ نَبَاتُهُۥ ﴾ أى النبات الحاصل به ، والمراد بالكفار إما الحراث على ماروى عن ابن مسعود لانهم يكفرون أى يسترون

Marfat.com

البذر فى الارض ووجه تخصيصهم بالذكر ظاهر ، وأما الكافرون بالله سبحانه ووجه تخصيصهم أنهم أشد إعجابا بزينة الدنيا فان المؤمن إذا رأى معجباً انتقل فكره إلى قدرة موجده عز وجل فأعجب بها ، ولذا قال أبو نواس فى النرجس :

عيون من لجين شاخصات على أطرافها ذهب سبيك
على قضب الزبرجد شاهدات (بأن الله ليس له شريك)

والكافر لا يتخطى فكره عما أحس به فيستغرق إعجاباً ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يتحرك إلى أقصى ما يتأتى له، وقيل : أى يجف بعد خضرته ونضارته ﴿فَتَرَاهُ﴾ يامن تصح منه الرؤية ﴿مُصْفَرّاً﴾ بعد ما رأيته ناضراً مونقا، وقرىء مصفاراً وإنما لم يقل فيصفر قيل : إيذانا بأن اصفراره غير مقارن لهيجانه وإنما المترتب عليه رؤيته كذلك ، وقيل: للاشارة إلى ظهور ذلك لكل أحد ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾ هشيما متكسراً من اليبس، ومحل الكاف قيل : النصب على الحالية من الضمير فى (لعب) لأنه فى معنى الوصف، وقيل: الرفع على أنه خبر بعد خبر للحياة الدنيا بتقدير المضاف اليه أى مثل الحياة كمثل الخ، ولتضمن ذلك تشبيه جميع مافيها من السنين الكثيرة بمدة نبات غيث واحد يفنى ويضمحل فى أقل من سنة جاءت الإشارة إلى سرعة زوالها وقرب اضمحلالها ، وبعد ما بين حقارة أمر الدنيا تزهيداً فيها وتنفيراً عن العكوف عليها أشير إلى فخامة شأن الآخرة وعظم مافيها من اللذات والآلام ترغيبا فى تحصيل نعيمها المقيم وتحذيراً من عذابها الأليم ، وقدم سبحانه ذكر العذاب فقال جل وعلا :

﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لأنه من نتائج الانهماك فيما فصل من أحوال الحياة الدنيا ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة ﴿مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ عظيم لا يقادر قدره ، وفى مقابلة العذاب الشديد بشيئين إشارة إلى غلبة الرحمة وأنه من باب « لن يغلب عسر يسرين » *

وفى ترك وصف العذاب بكونه من الله تعالى مع وصف ما بعده بذلك إشارة إلى غلبتها أيضاً ورمز إلى أن الخير هو المقصود بالقصد الاولى ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ٢٠﴾ لمن اطمأن بها ولم يجعلها ذريعة للآخرة ومطية لنعيمها ، روى عن سعيد بن جبير الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله تعالى وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ أى سارعوا مسارعة السابقين لأقرانهم فى المضمار إلى أسباب مغفرة عظيمة كائنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ والكلام على الاستعارة أو المجاز المرسل واستعمال اللفظ فى لازم معناه وإنما لزم ذلك لأن اللازم أن يبادر من يعمل ما يكون سبباً للمغفرة ودخول الجنة لا أن يعمله أو يتصف بذلك سابقاً على آخر ، وقيل: المراد سابقوا ملك الموت قبل أن يقطعكم بالموت عن الأعمال الموصلة لما ذكر، وقيل: سابقوا إبليس قبل أن يصدكم بغروره وخداعه عن ذلك وهو كما ترى*

والمراد بتلك الأسباب الأعمال الصالحة على اختلاف أنواعها ، وعن على كرم الله تعالى وجهه أنه قال فى الآية: كن أول داخل المسجد وآخر خارج ، وقال عبد الله: كونوا فى أول صف القتال، وقال أنس: اشهدوا تكبيرة الاحرام مع الامام وكل ذلك من باب التمثيل ، واستدل بهذا الأمر على أن الصلاة بأول وقتها أفضل من التأخير ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى كعرضهما جميعاً لو ألصق أحدهما بالآخر وإذا

Marfat.com

كان العرض وهو أقصر الامتدادين موصوفاً بالسعة دل على سعة الطول بالطريق الاولى فالاقتصار عليه أبلغ من ذكر الطول معه ، وقيل: المراد بالعرض البسطة ولذا وصف به الدعاء ونحوه مما ليس من ذوى الابعاد وتقدم قول آخر فى تفسير نظير الآية من سورة آل عمران وتقديم المغفرة على الجنة لتقدم التخلية على التحلية ٭

﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أى هيئت لهم ، واستدل بذلك على أن الجنة موجودة الآن لقوله تعالى: (أعدت) بصيغة الماضى والتأويل خلاف الظاهر ، وقد صرح بخلافه فى الأحاديث الصحيحة وتمام الكلام فى علم الكلام ، وعلى أن الايمان وحده كاف فى استحقاق الجنة لذكره وحده فيما فى حيز مايشعر بعلة الإعداد وإدخال العمل فى الايمان المعدى بالباء غير مسلم كذا قالوا، ومتى أريد بالذين آمنوا المذكورين من لهم درجة فى الايمان يعتد بها ، وقيل : بأنها لاتحصل بدون الأعمال الصالحة على ماسمعته منا قريباً انخدش الاستدلال الثانى فى الجملة كما لايخفى ، وذكر النيسابورى فى وجه التعبير هنا -بسابقوا- وفى آية آل عمران -بسارعوا- وبالسماء هنا، وبالسموات هناك - وبكعرض - هنا - وبعرض - بدون أداة تشبيه ثم كلاماً مبنياً على أن المراد بالمتقين هناك السابقون المقربون ، وبالذين آمنوا هنا من هم دون أولئك حالا فتأمل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى الذى وعد من المغفرة والجنة ﴿ فَضْلُ ٱللَّهِ ﴾ عطاؤه الغير الواجب عليه ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ إيتاءه ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فلا يبعد منه عز وجل التفضل بذلك على من يشاء وإن عظم قدره ، فالجملة تذييل لإثبات ماذيل بها ٭

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ أى نائبة أىّ نائبة وأصلها فى الرمية وهى من أصاب السهم إذا وصل إلى المرمى بالصواب ثم خصت بها ٭

وزعم بعضهم أنها لغة عامة فى الشر والخير وعرفا خاصة بالشر ، و(مِنْ) مزيدة للتأكيد ، وأصاب جاء فى الشر كما هنا ، وفى الخير كقوله تعالى : (ولئن أصابكم فضل من الله) وذكر بعضهم أنه يستعمل فى الخير اعتباراً بالصوب أى بالمطر وفى الشر اعتباراً بإصابة السهم ، وكلاهما يرجعان إلى أصل وتذكير الفعل فى مثل ذلك جائز كتأنيثه ، وعليه قوله تعالى : (ماتسبق من أمة أجلها) والكلام على العموم لجميع الشرور أى مصيبة أىّ مصيبة ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ كجدب وعاهة فى الزرع والثمار وزلزلة وغيرها ﴿ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ كمرض وآفة كالجرح والكسر ﴿ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾ أى إلا مكتوبة مثبتة فى اللوح المحفوظ ، وقيل : فى علم الله عز وجل ٭

﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ أى نخلقها ، والضمير على ماروى عن ابن عباس . وقتادة . والحسن . وجماعة للأنفس، وقيل : للارض ، واستظهر أبو حيان كونه للمصيبة لأنها هى المحدث عنها ، وذكر الأرض والأنفس إنما هو على سبيل ذكر محلها ، وذكر المهدوى جواز عوده على جميع ماذكر ، وقال جماعة : يعود على المخلوقات وإن لم يجر لها ذكر ، وقيل : المراد بالمصيبة هنا الحوادث من خير وشر وهو خلاف الظاهر من استعمال المصيبة إلا أن فيما بعد نوع تأييد له وأياما كان فى الأرض متعلق بمحذوف مرفوع أو مجرور صفة لمصيبة على الموضع أو على اللفظ ، وجوز أن يكون ظرفا لأصاب أو للمصيبة ، قيل : وإنما قيدت المصيبة بكونها فى الأرض والأنفس لأن الحوادث المطلقة كلها ليست مكتوبة فى اللوح لانها غير متناهية ، واللوح متناه وهو لايكون

Marfat.com

ظرفالغير المتناهى ولذا جاء « جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة » وفى الآية تخصيص آخر وهو أنه سبحانه لم يذكر أحوال أهل السموات لعدم تعلق الغرض بذلك مع قلة المصائب فى أهلها بل لايكاد يصيبهم سوى مصيبة الموت ، وماذكره فى وجه التخصيص الأول لايتم إذا أريد بالـكتاب علمه سبحانه ، وقيل : بأن كتابة الحوادث فيه على نحو كتابتها فى القرآن العظيم بناءاً على مايقولون : إنه مامن شئ إلا ويمكن استخراجه منه حتى أسماء الملوك ومددهم ومايقع منهم ولو قيل فى وجهه - إن الأوفق بما تقدم من شرح حال الحياة الدنيا إنما هو ذكر المصائب الدنيوية فلذا خصت بالذكر - لـكان تاماً مطلقاً ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ أى إثباتها فى كتاب ﴿ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ لاغيره سبحانه ﴿ يَسِيرٌ ٢٢ ﴾ لاستغنائه تعالى فيه عن العدة والمدة ، وإن أريد بذلك تحققها فى علمه جل شأنه فيسره لانه من مقتضيات ذاته عزوجل ، وفى الآية رد على هشام بن الحـكم الزاعم أنه سبحانه لايعلم الحوادث قبل وقوعها ، وفى الإكليل إن فيها رداً على القدرية ، وجاء ذلك فى خبر مرفوع ، أخرج الديلمى عن سليم بن جابر الجهيمى قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « سيفتح على أمتى باب من القدر فى آخر الزمان لايسده شىء يكفيكم منه أن تلقوه بهذه الآية ماأصاب من مصيبة » الآية *

وأخرج الإمام احمد . والحاكم وصححه عن أبى حسان أن رجلين دخلا على عائشة رضى الله تعالى عنها فقالا : «إن أباهريرة يحدث ان نبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقول إنما الطيرة فى المرأة والدابة والدار فقالت : والذى أنزل القرآن على أبى القاسم صلى الله تعالى عليه وسلم ما هـكذا كان يقول ، ولـكن كان رسول الله ﷺ يقول : كان أهل الجاهلية يقولون : إنما الطيرة فى المرأة والدابة والدار ، ثم قرأت (ماأصاب من مصيبة) الآية ﴿ لِّـكَيْلَا تَأْسَوْا ﴾ أى أخبرناكم بذلك لئلا تحزنوا ﴿ عَلَىٰ مَافَاتَـكُمْ ﴾ من نعم الدنيا ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ ﴾ أى أعطاكموه الله تعالى منها فان من علم أن الـكل مقدر يفوت ماقدر فواته ويأتى ماقدر إتيانه لامحالة لايعظم جزعه على مافات ولافرحه بما هوآت ، وعلم كون الـكل مقدراً مع أن المذكور سابقاً المصائب دون النعم وغيرها لأنه لاقائل بالفرق وليس فى النظم الكريم اكتفاء كما توهم ، نعم إن حملت المصيبة على الحوادث من خير وشر كان أمر العلم أوضح كما لايخفى وترك التعادل بين الفعلين فى الصلتين حيث لم يسندا إلى شئ واحد بل أسند الأول إلى ضمير الموصول والثانى إلى ضميره تعالى لان الفوات والعدم ذاتى للاشياء فلو خليت ونفسها لم تبق بخلاف حصولها وبقائها فانه لابد من استنادهما اليه عز وجل كما حقق فى موضعه ، وعليه قول الشاعر :

فلا تتبع الماضى سؤالك لم مضى وعرج على الباقى وسائله لم بقى

ومثل هذه القراءة قراءة عبد الله - أوتيتم - مبنياً للمفعول أى أعطيتم ؛ وقرأ أبو عمرو - أتاكم - من الاتيان أى جاءكم وعليها بين الفعلين تعادل ، والمراد نفى الحزن المخرج إلى مايذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ورجاء ثواب الصابرين ونفى الفرح المطغى الملهى عن الشكر ، وأما الحزن الذى لايكاد الانسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله تعالى والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس بهما *

أخرج جماعة منهم الحاكم وصححه عن ابن عباس أنه قال فى الآية : ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ولكن من أصابته مصيبة جعلها صبراً ومن أصابه خير جعله شكراً ، وقوله تعالى :

Marfat.com

﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ٣٢ ﴾ تذييل يفيد أن الفرح المذموم هو الموجب للبطر والاختيال والمختال المتكبر عن تخيل فضيلة تراءت له من نفسه، والفخور المباهى فى الاشياء الخارجة عن المرء كالمال والجاه *

وذكر بعضهم أن الاختيال فى الفعل والفخر فيه وفى غيره، والمراد من لا يحب يبغض إذ لا واسطة بين الحب والبغض فى حقه عز وجل وأولا بالاثابة والتعذيب ، ومذهب السلف ترك التأويل مع التنزيه ، ومن لا يحب كل مختال لا يحب كل فرد فرد من ذلك لا أنه لا يحب البعض دون البعض ويرد بذلك على الشيخ عبد القاهر فى قوله: إذا تأملنا وجدنا إدخال كل فى حيز النفى لا يصلح إلا حيث يراد أن بعضاً كان وبعضاً لم يكن، نعم إن هذا الحكم أكثرى لا كلى ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ بدل من (كل مختال) بدل كل من كل فان المختال بالمال يضن به غالباً ويأمر غيره بذلك ، والظاهر أن المراد أنهم يأمرون حقيقة، وقيل : كانوا قدوة فكأنهم يأمرون أوهو خبر مبتدأ محذوف أى هم الذين الخ ، أومبتدأ خبره محذوف تقديره يعرضون عن الانفاق الغنى عنه الله عز وجل، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ٢٤ ﴾ فان معناه ومن يعرض عن الانفاق فان الله سبحانه غنى عنه وعن إنفاقه محمود فى ذاته لا يضره الاعراض عن شكره بالتقرب إليه بشئ من نعمه جل جلاله، وقيل: تقديره مستغنى عنهم، أوموعودون بالعذاب أومذمومون،

وجوز أن يكون فى موضع نصب على إضمار أعنى أو على أنه نعت ـ لكل مختال ـ فانه مخصص نوعاً ما من التخصيص فساغ وصفه بالمعرفة وهذا ليس بشئ، وقال ابن عطية :جواز مثل ذلك مذهب الأخفش ولا يخفى ما فى الجملة من الاشعار بالتهديد لمن تولى، وقرأ نافع. وابن عامر ـ فان الله الغنى ـ بإسقاط ـ هو ـ وكذا فى مصاحف المدينة والشام وهو فى القراءة الأخرى ضمير فصل ، قال أبو على: ولا يحسن أن يكون مبتدأ وإلا لم يجز حذفه فى القراءة الثانية لأن مابعده صالح لان يكون خبراً فلا يكون هناك دليل على الحذف وهذا مبنى على وجوب توافق القراءتين إعرابا وليس بلازم ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾ أى من بنى آدم كما هو الظاهر ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى الحجج والمعجزات ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ أى جنس الكتاب الشامل للكل ، والظرف حال مقدرة منه على ماقال أبو حيان ، وقيل: مقارنة بتنزيل الاتصال منزلة المقارنة ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ الآلة المعروفة بين الناس كما قال ابن زيد وغيره ، وإنزاله إنزال أسبابه ، ولو بعيدة ، وأمر الناس باتخاذه مع تعليم كيفيته *

﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ علة لانزال الكتاب والميزان والقيام بالقسط أى بالعدل يشمل التسوية فى أمور التعامل باستعمال الميزان، وفى أمور المعاد باحتذاء الكتاب وهو لفظ جامع مشتمل على جميع ما ينبغى الاتصاف به معاشاً ومعاداً * ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ * قال الحسن: أى خلقناه كقوله تعالى: (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وهو تفسير بلازم الشىء فان كل مخلوق منزل باعتبار ثبوته فى اللوح وتقديره موجوداً حيث ماثبت فيه *

وقال قطرب : هيأناه لكم وأنعمنا به عليكم من نزل الضيف ﴿ فِيهِ بَأْسٌ ﴾ أى عذاب ﴿ شَدِيدٌ ﴾ لأن آلات الحرب تتخذمنه ، وهذا إشارة إلى احتياج الكتاب والميزان إلى القائم بالسيف ليحصل القيام بالقسط فان الظلم من شيم النفوس ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أى فى معايشهم ومصالحهم إذ مامن صنعة إلا

Marfat.com

والحديد أو مايعمل به آلتها للايماء إلى أن القيام بالقسط كما يحتاج إلى الوازع وهو القائم بالسيف يحتاج إلى ما به قوام التعايش ، ومن يقوم بذلك أيضا ليتم التمدن المحتاج اليه النوع ، وليتم القيام بالقسط ، كيف وهو شامل أيضاً لما يخص المرء وحده ، والجملة الظرفية فى موضع الحال ، وقوله سبحانه :

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ ﴾ عطف على محذوف يدل عليه السياق أو الحال لأنها متضمنة للتعليل أى لينفعهم وليعلم الله تعالى علماً يتعلق به الجزاء من ينصره ورسله باستعمال آلات الحرب من الحديد فى مجاهدة أعدائه والحذف للاشعار بأن الثانى هو المطلوب لذاته وأن الاول مقدمة له ، وجوز تعلقه بمحذوف مؤخر والواو اعتراضية أى وليعلم الخ أنزله أو مقدم والواو عاطفة والجملة معطوفة على ما قبلها وقد حذف المعطوف وأقيم متعلقه مقامه ، وقوله تعالى : ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ حال من فاعل ينصر ، أومن مفعوله أى غائباً منهم أو غائبين منه ، وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢٥ ﴾ اعتراض تذييلى جئ به تحقيقاً للحق وتنبيها على أن تكليفهم الجهاد وتعريضهم للقتال ليس لحاجته سبحانه فى إعلاء كلمته وإظهار دينه إلى نصرتهم بل إنما هو لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب وإلا فهو جل وعلا غنى بقدرته وعزته عنهم فى كل مايريد ٭

هذا وذهب الزمخشرى إلى أن المراد بالرسل رسل الملائكة عليهم السلام أى أرسلناهم إلى الأنبياء عليهم السلام، وفسر البينات - كما فسرنا بناءاً على الملائكة ترسل بالمعجزات كإرسالها بالحجج لتخبر بأنها معجزات وإلا فكان الظاهر الاقتصار على الحجج وإنزال الكتاب أى الوحى مع أولئك الرسل ظاهر ، وإنزال الميزان بمعنى الآلة عنده على حقيقته ، قال: روى أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه السلام ، وقال: مُرْ قومك يزنوا به .وفسره كثير بالعدل،وعن ابن عباس فى إنزال الحديد نزل مع آدم عليه السلام الميقعة والسندان والكلبتان ، وروى أنه نزل ومعه المرّ والمسحاة ، وقيل : نزل ومعه خمسة أشياء من الحديد السندان والكلبتان والابرة والمطرقة والميقعة ، وفسرت بالمسن ، وتجئ بمعنى المطرقة أو العظيمة منها،وقيل : ماتحد به الرحى ، وفى حديث ابن عباس نزل آدم عليه السلام من الجنة بالباسنة وهى آلات الصناع ، وقيل : سكة الحرث وليس بعربى محض والله تعالى أعلم ٭

واستظهر أبو حيان كون - ليقوم الناس بالقسط - علة لإنزال الميزان فقط وجوز ماذكرناه وهو الاولى فيما أرى ، وقوله تعالى . ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى :(لقد أرسلنا رسلنا) وتكرير القسم لاظهار مزيد الاعتناء بالأمر أى وبالله لقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ٭

﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ بأن استنبأناهم وأوحينا اليهم الكتب ، وقال ابن عباس : الكتاب الخط بالقلم ، وفى مصحف عبد الله - والنبية - مكتوبة بالياء عوض الواو ﴿ فَمِنْهُم ﴾ أى من الذرية ؛ وقيل : أى من المرسل اليهم المدلول عليهم بذكر الارسال والمرسلين ﴿ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ٢٦ ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم ، ولم يقل - ومنهم - ضال مع أنه أظهر فى المقابلة لأن ماعليه النظم الكريم أبلغ فى الذم لأن الخروج عن الطريق المستقيم بعد الوصول بالتمكن منه ، ومعرفته أبلغ من الضلال عنه ولإيذانه بغلبة أهل الضلال على غيرهم ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا ﴾ أى أرسلنا بعدهم رسولا بعد رسول ،وأصل التقفية جعل

Marfat.com

الشئ خلف القفا،وضمير آثارهم لنوح وإبراهيم ومن أرسلا اليهم من قومهما . وقيل : لمن عاصرهما من الرسل عليهم السلام *

واعترض بأنه لو عاصر رسول نوحا فإما أن يرسل إلى قومه كهرون معموسى عليهما السلام أو إلى غيرهم كلوط مع إبراهيم عليهما السلام ولامجال للاول لمخالفته للواقع ولا إلى الثانى إذ ليس على الارض قوم غيره ، وأجيب بأن ذاك توجيه لجمع الضمير وكون لوطمع إبراهيم كاف فيه ، وقيل : للذرية ، وفيه أن الرسل المقفى بهم من الذرية فلو عاد الضمير عليهم لزم أنهم غيرهم أواتحاد المقفى والمقفى به وتخصيص الذرية مرجع الضمير بالأوائل منهم خلاف الظاهر من غير قرينة تدل عليه ﴿ وَقَفَّيْنَا بعيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ جعلناه بعد *

وحاصل المعنى أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى الارسال إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ بأن أوحيناه اليه وليس هو الذى بين أيدى النصارى اليوم أعنى المشتمل على قصة ولادته وقصة صلبه المفتراة؛ وقرأ الحسن (الأنجيل) بفتح الهمزة،قال أبو الفتح : وهو مثال لانظير له ، قال الزمخشرى : وأمره أهون من أمر البرطيل بفتح الباء والكسر أشهر وهو حجر مستطيل واستعماله فى الرشوة مولد مأخوذ منه بنوع تجوز لأنه عجمى وهذا عربى وهم يتلاعبون بالعجمى ولا يلتزمون فيه أوزانهم ، وزعم بعض أن لفظ الانجيل عربى من نجلت بمعنى استخرجت لاستخراج الاحكام منه ﴿ وَجَعَلْنَا فى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أى خلقنا أوصيرنا - فى قلوب - فى موضع المفعول الثانى وأيا ما كان فالمراد جعلنا ذلك فى قلوبهم فهم يرأف بعضهم ببعض ويرحم بعضهم بعضاً ، ونظيره فى شأن أصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (رحماء بينهم) والرأفة فى المشهور الرحمة لكن قال بعض الافاضل : إنها إذا ذكرت معها يراد بالرأفة مافيه درء الشر ورأب الصدع ، وبالرحمة مافيه جلب الخير ولذا ترى فى الاغلب تقديم الرأفة على الرحمة وذلك لأن درء المفاسد أهم من جلب المصالح وقرئ رآفة على فعالة كشجاعة ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر أى وابتدعوا رهبانية * ﴿ ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ فهو من باب الاشتغال ، واعترض بأنه يشترط فيه - كما قال ابن الشجرى . وأبو حيان - أن يكون الاسم السابق مختصاً يجوز وقوعه مبتدأ والمذكور نكرة لامسوغ لها من مسوغات الابتداء ، ورد بأنه على فرض تسليم هذا الشرط الاسم هنا موصوف معنى بما يؤخذ من تنوين التعظيم كما قيل فى قولهم : شر أهر ذا ناب *

ومما يدل عليه من النسبة كما ستسمعه إن شاء الله تعالى أو منصوب بالعطف على ماقبل ، وجملة (ابتدعوها) فى موضع الصفة والكلام على حذف مضاف أى وجعلنا فى قلوبهم رأفة ورحمة وحب رهبانية مبتدعة لهم ، وبعضهم جعله معطوفا على ماذكر ولم يتعرض للحذف ، وقال : الرهبانية من أفعال العباد لأنها المبالغة فى العبادة بالرياضة والانقطاع عن الناس ،وأصل معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهو الخائف فعلان من رهب كخشيان من خشى ، وأفعال العباد يتعلق بها جعل الله تعالى عند أهل الحق وهى فى عين كونها مخلوقة له تعالى مكتسبة للعبد ،والزمخشرى جوز العطف المذكور وفسر الجعل بالتوفيق كأنه قيل: وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية واستحداثها بناءاً على مذهبه أن الرهبانية فعل العبد المخلوق له باختياره،وفائدة (فى قلوب) على هذا التصوير على ماقيل ، ولا يخفى مافى هذا التفسير من العدول عن الظاهر لكن الانصاف أنه لايحسن العطف بدون هذا

Marfat.com

التأويل أو أعتبار حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه على ما تقدم أو تفسير الرهبانية بما هو من أفعال القلوب كالخوف المفرط المقتضى للغلو فى التعبد ويرتكب نوع تجوز فى ابتدعوها وما بعده كأن يكون المراد ابتداع أعمالها وآثارها أو ارتكاب استخدام فى الكلام بأن يعتبر للرهبانية معنيان الخوف المفرط مثلا ، ويراد فى جعلنا فى قلوبهم رهبانية والاعمال التعبدية الشاقة كرفض الدنيا وشهواتها من النساء وغيرهن ، ويراد فى (ابتدعوها) وما بعده وليس الداعى للتأويل الاعتزال بل كون الرهبانية بمعنى الاعمال البدنية ليست مما تجعل فى القلب كالرأفة والرحمة فتأمل *

وقرئ (رهبانية) بضم الراء وهى منسوبة إلى الرهبان بالضم وهو كما قال الراغب: يكون واحداً وجمعا فالنسبة إليه باعتبار كونه واحداً ومن ظن اختصاص المضموم بالجمع قال : إنه لما اختص بطائفة مخصوصة أعطى حكم العلم فنسبته إليه كما قالوا فى أنصار وأنصارى أو أن النسبة إلى رهبان المفتوح وضم الراء فى المنسوب من تغييرات النسب كما فى دهرى بضم الدال ، وقوله تعالى: ﴿(مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)﴾ جملة مستأنفة ، وقوله سبحانه :

﴿ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ ﴾ استثناء منقطع أى ما فرضناها نحن عليهم رأساً ولكن ابتدعوها وألزموا أنفسهم بها ابتغاء رضوان الله تعالى . وقوله تعالى: ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أى ما حافظوا عليها حق المحافظة ذم لهم من حيث أن ذلك كالنذر وهو عهد مع الله تعالى يجب رعايته لاسيما إذا قصد به رضاه عز وجل ﴿

واستدل بذلك على أن من اعتاد تطوعاً كره له تركه ، وجوز أن يكون قوله تعالى: (ما كتبناها) الخ صفة أخرى لرهبانية والنفى متوجه إلى قيد الفعل لا نفسه كما فى الوجه الأول، وقوله سبحانه: (إلا ابتغاء) الخ استثناء متصل من أعم العلل أى ما قضيناها عليهم بأن جعلناهم يبتدعونها لشىء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوان الله تعالى ويستحقوا بها الثواب ، ومن ضرورة ذلك أن يحافظوا عليها ويراعوها حق رعايتها فما رعوها كذلك والوجه الأول مروى عن قتادة . وجماعة ، وهذا مروى عن مجاهد ولا مخالفة عليه بين (ابتدعوها) و(ما كتبناها عليهم) الخ حيث أن الأول يقتضى أنهم لم يؤمروا بها أصلا والثانى يقتضى أنهم أمروا بها لابتغاء رضوان الله تعالى لما أشرنا إليه من معنى (ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء) الخ ، ودفع بعضهم المخالفة بأن يقال: الأمر وقع بعد ابتداعها أو يؤل ابتدعوها بأنهم أول من فعلها بعد الأمر ويؤيد ما ذكره فى الدفع أولا ما أخرجه أبو داود. وأبو يعلى . والضياء عن أنس «أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فان قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم فتلك بقاياهم فى الصوامع والديارات رهبانية ما ابتدعوها ما كتبناها عليهم» يعنى الآية ، والظاهر أن ضمير فما رعوها لأولئك الذين ابتدعوا الرهبانية، والمراد نفى وقوع الرعاية من كلهم على أن المعنى فما رعاها كلهم بل بعضهم ، وليس المراد بالموصول فيما سبق أشخاصاً بأعيانهم بل المراد به ما يعم النصارى إلى زمان الاسلام ولا يضر فى ذلك أن أصل الابتداع كان من قوم مخصوصين لأن إسناده على نحو الاسناد فى - بنو تميم قتلوا زيداً - والقاتل بعضهم *

وقال الضحاك . وغيره : الضمير فى (فما رعوها) للاخلاف الذين جاءوا بعد المبتدعين والاول أوفق بالصناعة ، والمراد بالذين آمنوا فى قوله تعالى :﴿ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ الذين آمنوا إيمانا صحيحا وهو لمن أدرك وقت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الايمان به عليه الصلاة والسلام أى فآتينا الذين آمنوا منهم

Marfat.com

إيماناصحيحاً بعدرعايةرهبانيتهم ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾ أى مايختص بهم من الأجر وهو الأجر على ماسلف منهم والاجر على الإيمان به عليه الصلاة والسلام ، وليس المراد بهم الذين بقوا على رعاية الرهبانية إلى زمان البعثة ولم يؤمنوا لأن رعايتها لغو محض وكفر بحت وإنما لها استتباع الاجر ، ويجوز أن يقال : إن الذين لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها هم الذين كذبوه عليه الصلاة والسلام ، قال الزجاج : قوله تعالى : (فما رعوها حق رعايتها) على ضربين : أحدهما أن يكونوا قصروا فيما ألزموه أنفسهم ، والآخر وهو الأجود أن يكونوا حين بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يؤمنوا فكانوا تاركين لطاعة الله تعالى فما رعوا تلك الرهبانية ، ودليل ذلك قوله تعالى : (فآتينا الذين آمنوا منهم) الخ انتهى ، فحمل الذين آمنوا على من أدرك وقته عليه الصلاة والسلام منهم وآمن به صلى الله تعالى عليه وسلم والفاسقين فى قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ٢٧ ﴾ على الذين لم يؤمنوا به صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومقتضى حمل الذين آمنوا على ماسمعت أولا حمله على الاعم الشامل لمن خرج عن اتباع عيسى عليه السلام من قبل وحمل الفريقين على من مضى من المراعين لحقوق الرهبانية قبل النسخ والمخلين بها إذ ذاك بالتثليث والقول بالاتحاد وقصد السمعة ونحو ذلك من غير تعرض لإيمانهم برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكفرهم به مما لايساعده المقام ٠

وفى الآثار مايأباه فنى حديث طويل أخرجه جماعة منهم الحاكم وصححه . والبيهقى فى شعب الايمان من طرق عن ابن مسعود « اختلف من كان قبلنا على ثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرها فرقة وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله وعيسى ابن مريم ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك فأقاموا بين ظهرانى قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى فقتلتهم الملوك ونشرتهم بالمناشر ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بالمقام معهم فساحوا فى الجبال وترهبوا فيها وهم الذين قال الله : (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فمارعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) الذين آمنوا بى وصدقونى (وكثير منهم فاسقون) الذين حجدوا بى وكفروا بى » وهذا الخبر يؤيد مااستجوده الزجاج ، ويعلم منه أيضاً سبب ابتداع الرهبانية وليس فى الآية مايدل على ذم البدعة مطلقا ، والذى تدل عليه ظاهراً ذم عدم رعاية ماالتزموه ، وتفصيل الكلام فى البدعة ماذكره الامام محيي الدين النووى فى شرح صحيح مسلم . قال العلماء : البدعة خمسة أقسام واجبة ومندوبة . ومحرمة . ومكروهة . ومباحة(١) فمن الواجبة تعلم أدلة المتكلمين للرد على الملاحدة والمبتدعين وشبه ذلك ، ومن المندوبة تصنيف كتب العلم وبناء المدارس والربط وغير ذلك ، ومن المباحة التبسط فى ألوان الاطعمة وغير ذلك ، والحرام والمكروه ظاهران ، فعلم أن قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « كل بدعة ضلالة » من العام المخصوص ٠

وقال صاحب جامع الاصول : الابتداع من المخلوقين إن كان فى خلاف ما أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فهو فى حيز الذم والانكار وإن كان واقعاً تحت عموم ماندب الله تعالى اليه وحض عليه أو رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فهو فى حيز المدح وإن لم يكن مثاله موجوداً كنوع من الجود والسخاء

(١) هذا التقسيم لايصح أن يكون للبدع بالمعنى الشرعى إذ ماذكره دل عليه الكتاب والسنة وإنما يصح للبدع بالمعنى اللغوى وقد أشبع الكلام على ذلك صاحب الاعتصام فراجعه اه إدارة الطباعة المنيرية

Marfat.com

وفعل المعروف ، ويعضد ذلك قول عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى صلاة التراويح : نعمت البدعة هذه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ استظهر أبو حيان كون الخطاب لمن آمن من أمته صلى الله تعالى عليه وسلم غير أهل الكتاب والآثار تؤيد ذلك ، أخرج الطبرانى فى الاوسط عن ابن عباس .وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قالا : إن أربعين من أصحاب النجاشى قدموا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فشهدوا معه أحداً فكانت فيهم جراحات ولم يقتل منهم أحد فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا: يارسول الله إنا أهل ميسرة فأذن لنا نجئ بأموالنا نواسى بها المسلمين فأنزل الله تعالى فيهم (الذى آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) إلى قوله سبحانه : (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) فجعل لهم أجرين فلما نزلت هذه الآية قالوا : يامعشر المسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجران ومن لم يومن بكتابكم فله أجر كأجوركم فأنزل الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا) الآية أى أى راداً عليهم قولهم : ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم ٠

وفى الكشاف إن قائل ذلك من لم يكن آمن من أهل الكتاب قالوه حين سمعوا تلك الآية يفخرون به على المسلمين ، والمعنى يا أيها الذين اتصفوا بالايمان ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ اثبتوا على تقواه عز وجل فيما نهاكم عنه ٠ ﴿ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ ﴾ واثبتوا على الايمان برسوله الذى أرسله اليكم وهو محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ،وفى التعبير عنه بذلك ما لايخفى من الدلالة على جلالة قدره عليه الصلاة والسلام ﴿ يُؤْتِكُمْ ﴾ بسبب ذلك ٠

﴿ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ قال أبو موسى الأشعرى: ضعفين بلسان الحبشة، وقال غير واحد : نصيبين، والمراد إيتاؤهم أجرين لمؤمنى أهل الكتاب كأنه قيل :يؤتكم ماوعد من آمن من أهل الكتاب من الأجرين لأنكم مثلهم فى الايمان بالرسل المتقدمين وبخاتمهم صلى الله تعالى عليه وسلم عليهم أجمعين لا تفرقون بين أحد من رسله ٠

وقال الراغب : الكفل الحظ الذى فيه الكفاية كأنه تكفل بأمره ، والكفلان هما المرغوب فيهما بقوله تعالى : (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة) ولا دلالة على التخصيص ٠

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ يوم القيامة وهو النور المذكور فى قوله تعالى : (يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ما سلف منكم ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٨ ﴾ أى مبالغ فى المغفرة والرحمة فلا بدع إذا فعل سبحانه مافعل ، وقوله تعالى : ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ قيل : متعلق بمضمون الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى الشرط إذ التقدير إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم كذا وكذا لئلا الخ ، وقيل : متعلق بالأفعال الثلاثة قبله على التنازع ، أو بمقدر كفعل ذلك وأعلمهم ونحوه و(لا) مزيدة مثلها فى قوله تعالى : (مامنعك أن لا تسجد) ويجوز زيادتها مع القرينة كثيراً و (أن) مخففة من الثقيلة واسمها المحذوف ضمير أهل للكتاب أى أنهم ،وقيل : ضمير الشأن ومابعد خبرها والجملة فى حيز النصب على أنها مفعول يعلم أى ليعلم أهل الكتاب القائلون من آمن بكتابكم منا فله أجران ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم أنهم لاينالون شيئاً من فضل الله من الأجرين وغيرهما ولا يتمكنون من نيله مالم يؤمنوا بمحمد ﷺ وحاصله الإعلام بأن إيمانهم بنبيهم لاينفعهم شيئاً مالم يؤمنوا بالنبى عليه الصلاة والسلام فقولهم :من لم يؤمن بكتابكم فله أجر باطل ٠

Marfat.com

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال : لما نزلت (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بماصبروا) فخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : لنا أجران ولكم أجرفاشتد ذلك على أصحابه عليه الصلاة والسلام فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) الخ فجعل لهم سبحانه أجرين مثل مالمؤمنى أهل الكتاب ، وقال الثعلبي : فأنزل الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله) الآية فجعل لهم أجرين وزادهم النور ثم قال سبحانه : (لئلا يعلم) الخ ، وحاصله على هذا ليعلموا أنهم ليسوا ملاك فضله عز وجل فيزووه عن المؤمنين ويستبدوا به دونهم ، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾ عطف على أن لا يقدرون داخل معه فى حيز العلم ، وقوله سبحانه: ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ خبر ثان لان أو هو الخبر وماقبله على ماقيل:حال لازمة أواستئناف ، وقوله عزوجل : ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ٢٩ ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله *

وذهب بعض إلى أن الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب اليهود والنصارى أولمن لم يؤمن منهم بعد: فالمعنى ياأيها الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام آمنوا بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم أى اثبتوا على الايمان به أوأحدثوا الايمان به عليه الصلاة والسلام يؤتكم نصيبين من رحمته نصيباً على إيمانكم بمن آمنتم به أولا ونصيباً على إيمانكم بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم آخراً ليعلم الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب أنهم لا ينالون شيئاً مما يناله المؤمنون منهم ولا يتمكنون من نيله حيث لم يأتوا بشرطه الذى هو الايمان برسوله ﷺ ،وأيد ذلك بما فى صحيح البخارى « من كانت له أمة علمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها وأعتقها وتزوجها فله أجران ، وأيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران ، وأيما مملوك أدى حق الله تعالى وحق مواليه فله أجران» ولا إشكال فى ذلك بالنسبة إلى النصارى ، ولذا قيل:الخطاب لهم لأن ملتهم غير منسوخة قبل ظهور الملة المحمدية ومعرفتهم بهافيثابون على العمل بها حتى يجب عليهم الايمان بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فاذا آمنوا أثيبوا أيضاً فكان لهم ثوابان ، نعم قد يستشكل بالنسبة إلى غيرهم لأن مللهم منسوخة بملة عيسى عليه السلام والمنسوخ لا ثواب فى العمل به ، ويجاب بأنه لا يبعد أن يثابوا على العمل بملتهم السابقة وإن كانت منسوخة ببركة الاسلام *

وأجاب بعضهم أن الإثابة على نفس إيمان ذلك الكتابى بنبيه وإن كان منسوخ الشريعة فان الايمان بكل نبي فرض سواء كان منسوخ الشريعة أم لا ، وقيل : إن (لا) فى (لأن لا يعلم) غير مزيدة وضمير لا يقدرون للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين أى فعلنا مافعلنا لئلا يعتقد أهل الكتاب أن الشأن لا يقدر النبي ﷺ والمؤمنون به على شئ من فضل الله تعالى الذى هو عبارة عما أوتوه من سعادة الدارين ولا ينالونه ، أو أنهم أى النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنون لا يقدرون الخ ، على أن عدم علمهم بعدم قدرتهم على ذلك كناية عن علمهم بقدرتهم عليه فيكون قوله سبحانه : (وأن الفضل) الخ معطوفا على ـ أن لا يعلم ـ داخلا معه فى حيز التعليل دون أن لا يقدر فكأنه قيل : فعلنا مافعلنا لئلا يعتقدوا كذا ولأن الفضل بيد الله فيكون من عطف الغاية على الغاية بناءاً على المشهور ولتكلف هذا القيل مع مخالفته لبعض القراءات لم يذهب اليه معظم المفسرين، وقرأ خطاب بن عبد الله ـ لأن لا يعلم ـ بالاظهار ، وعبد الله بن مسعود . وابن عباس . وعكرمة . والجحدرى. وعبد الله بن سلمة على اختلاف ليعلم،وقرأ الجحدرى أيضا ـ وليعلم ـ على أن أصله لئن يعلم فقلبت الهمزة ياءاً

Marfat.com

لـكسرة ماقبلها وأدغمت النون فى الياء بغير غنة ، وروى ابن مجاهد عن الحسن ـ ليلا ـ مثل ليلى اسم المرأة (يعلم) بالرفع،ووجه بأن أصله ـ لأن لا ـ بفتح لام الجر وهى لغة وعليه قوله :

أريد لأنسى ذكرها فـكأنما تمثل لى ليلى بـــكل سبيل

فحذفت الهمزة اعتباطاً وأدغمت النون فى اللام فصار ـ للا ـ فاجتمعت الامثال وثقل النطق بهافأبدلوا من اللام المدغمة ياءاً نظير مافعلوا فى قيراط ودينار حيث أن الاصل قراط ودنار فأبدلوا أحد المثلين فيهما ياءاً للتخفيف فصار ـ ليلا ـ ورفع الفعل لأن أن هى المخففة من الثقيلة لا الناصبة للمضارع ، وروى قطرب عن الحسن أيضا ـ ليلا ـ بكسر اللام ووجهه كالذى قبله إلا أن كسر اللام على اللغة الشهيرة فى لام الجر ؛ وعن ابن عباس كى يعلم ، وعنه أيضا لـكيلا يعلم ، وعن عبد الله . وابن جبير . وعكرمة لـكى يعلم ۞ وقرأ عبد الله أن لايقدروا بحذف النون على أن إن هى الناصبة للمضارع ، والله تعالى أعلم ۞

﴿ وبماذكره المتصوفة قدست أسرارهم فى بعض آياتها ﴾ (هو الاول والآخر والظاهر والباطن) قالوا : هو إشارة إلى وحدانية ذاته سبحانه المحيطة بالـكل ، وقالوا فى قوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) إشارة إلى أنهم لا وجود لهم فى جميع مراتبهم بدون وجوده عز وجل ، وقوله تعالى : (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) إشارة إلى ظهور تجلى الجلال فى تجلى الجمال وبالعكس (وأنفقوا مما جعلـكم مستخلفين فيه) إشارة للمشايخ الـكاملين إلى تربية المريدين بافاضة مايقوى استعدادهم مما جعلهم الله تعالى متمكنين فيه من الاحوال والملـكات ۞ وقال سبحانه :(اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها) لئلا يقنط القاسى من رحمته تعالى ويترك الاشتغال بمداواة القلب الميت (فمارعوها حق رعايتها) أوردها الصوفية فى باب الرعاية وقسموها إلى رعاية الاعمال والأحوال والأوقات ـ ويرجع ماقالوه فيها ـ على ماقيل ـ إلى حفظها عن إيقاع خلل فيها (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته)أى نصيبين نصيباً من معارف الصفات الفعلية ونصيبا من معارف الصفات الذاتية(ويجعل لـكم نوراً) من نور ذاته عز وجل وهو على ماقيل: إشارة إلى البقاء بعد الفناء،وقيل: هذا النور إشارة إلى نور الـكشف والمشاهدة رتب سبحانه جعله للمؤمن على تقواه وإيمانه برسوله الاعظم صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيل : هو نور العلم النافع الذى يتمكن معه من السير فى الحضرات الالهية كما يشير اليه وصفه بقوله عز وجل: (تمشون به) ؛ وفى بعض الآثار « من عمل بما علم علمه الله تعالى علم مالم يعلم » وقال سبحانه : (اتقوا الله ويعلمكم الله) وكل ذلك فى الحقيقة فضل الله تعالى والله عز وجل ذو الفضل العظيم نسأله سبحانه أن لايحرمنا من فضله العظيم ولطفه العميم وأن يثبتنا على متابعة حبيبه الـكريم عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأكمل التسليم ۞

تم بعونه تعالى وتوفيقه الجزء السابع والعشرون ، ويليه الجزء الثامن والعشرون أوله

﴿ سورة المجادلة ﴾

Marfat.com

فهرست

﴿ الجزء السابع والعشرين من تفسير روح المعانى ﴾

صحيفة	
٢	حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى تفسير الذاريات وماعطف عليها
٣	أقوال العلماء فى تفسيره الذاريات وماعطف عليها وبيان ان أولى الاقوال ماورد عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ورد المصنف على الامام الرازى وصاحب الكشف
٤	بيان أن البعث أمر لابد منه
٤	تفسير الحبك وأقوال العلماء فيها
٥	بيان تناقض الكفار فى امر الله والرسول واليوم الآخر
٦	الدعاء على الخراصين بالهلاك وبيان أوصافهم
٧	بيان ان من اوصاف المتقين الرضا بما آتاهم الله والاحسان الى الناس والقيام فى الليل
٨	فضيلة الاستغفار بالاسحار وصدقة التطوع
٩	الاستدلال بايات الانفس على الله تعالى وبيان ان الرزق امر مضمون
١١	تصديق الله تعالى لرسوله ﷺ وتمهيد لاثبات نبوته بذكر قصة ابراهيم التى لايمكن ان يعلمها الرسول الا من طريق الوحى
١١	ماجرى بين ابراهيم عليه السلام والرسل وبيان ان المبشر به على التحقيق هو اسحق عليه السلام
١٤	الكلام على الايمان والاسلام هل هما متحدان ام لا
١٥	الاستدلال بقصة موسى عليه السلام على صدق الرسول
١٥	بيان ان اهلاك عاد وثمود كان بسبب عتوهم وفيه من التحذير عن العتو مالايخفى
١٧	الاستدلال بخلق السموات وبسط الارض وخلق المتناقضات على قدرة الله تعالى
١٩	بيان أن تكذيب الرسل عادة جارية فى جميع الامم
٢٠	تفسير قوله تعالى (وماخلقت الجن والانس الاليعبدون) وبيان ان المراد بالعبادة ماكانت بطريق الاختيار الخ
٢١	بيان ان المراد بخلقهم للعبادة خلقهم على حالة صالحة للعبادة مستعدة لها حيث ركب الله فيهم عقولا وجعل لهم حواس إلى غير ذلك من وجوه الاستعداد ورد ماعدا هذا من الاقوال
٢١	كلام ابن تيمية وغيره من الحفاظ فى ان حديث كنت كنزا مخفيا ليس من كلام النبى ولايعرف له سند صحيح ولاضعيف
٢٢	بيان ان الحصر فى الآية اضافى بالنسبة لطلب الرزق وبيان اللطائف المستفادة من قوله (ماأريد منهم من رزق)
٢٣	بيان أن قوله تعالى ان الله هو الرزاق خرجت مخرج المثل
٢٥	﴿ اقوال أهل الاشارة فى الآيات ﴾
٢٦	﴿ سورة الطور ﴾
٢٨	اقوال العلماء فى تفسير البحر المسجور وبيان ان الجمهور على انه بحر الدنيا
٢٨	بيان ان الغرض من اقسام الله تعالى بهذه الاشياء اثبات عذاب الآخرة وتحقيق وقوعه

Marfat.com

صحيفة

٣٢ بيان الحاق الذرية المؤمنة بالآباء فى الدرجة من غير أن ينقص ذلك من ثواب الآباء شيئا

٣٣ بيان أن العبد رهن بكسبه

٣٥ الرد على من نسب إلى رسول الله ﷺ الكهانة والجنون

٣٦ التهديد لمن قال انه ﷺ شاعر نتربص به ريب المنون

٣٧ تحدى الذين نسبوا إلى رسول الله ﷺ اختلاق القرآن بأن يأتوا بمثله فى النعوت التى استقل بها من حيث النظم ومن حيث المعنى

٤١ الكلام على نظم الآيات من أول قوله تعالى: (أم يقولون شاعر) إلى قوله سبحانه. (أم لهم إله غير الله) وقد نقله المصنف عن صاحب الكشف وهو أبدع ماقيل فى هذه الآيات

٤٣ ماذكروه من باب الاشارة فى الآيات

٤٤ ﴿ تفسير سورة النجم ﴾

٤٤ أقوال العلماء فى المراد بالنجم الذى أقسم الله تعالى به

٤٥ بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم ماعدل عن طريق الحق الذى هو مسلك الآخرة ولا اعتقد باطلا قط

٤٦ بيان أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ماينطق عن الهوى وإن ماينطق به وحى من عند الله واحتجاج من لم ير الاجتهاد له عليه السلام بهذه الآية

٤٦ بيان أن من يجوز الاجتهاد له عليه الصلاة والسلام لايقول بأن ماينطق به صلى الله عليه وسلم صادر عن هوى النفس وشهوتها

٤٧ أوصاف جبريل عليه السلام وبيان أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه على صورته الحقيقية عند حراء فى مبادىء النبوة

صحيفة

٤٩ بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كذب فؤاد بصره فيما حكاه له من صورة جبريل عليه السلام

٥٠ رؤية النبي ﷺ جبريل على صورته الحقيقية مرة أخرى عند سدرة المنتهى

٥٠ اختلاف عائشة رضى الله عنها مع ابن عباس وغيره هل رأى النبي صلى الله عليه وسلم ربه أم لا وحجج كل

٥٢ اختلاف مثبتى الرؤية فى أنها هل كانت بالعين أم بالقلب وحجج كل وتحقيق المقام

٥٤ الكلام على اللات والعزى ومناة وابادتها بأمر رسول الله ﷺ

٥٦ توبيخ المشركين على اتخاذهم الأصنام شركاء لله عز وجل واتباعهم الظن وماتهوى الأنفس

٦٢ اختلاف العلماء فى المعاصى هل تنقسم إلى صغائر وكبائر وفى حد الكبيرة

٦٦ تأويل قوله تعالى: (وأن ليس للانسان إلا ماسعى) وبيان أنها لاتنافى ماورد فى السنة من وصول ثواب الأعمال المهداة إلى الميت ووجه الجمع بين الادلة الواردة فى ذلك

٦٨ استحباب البكاء عند سماع القرآن وقراءته

٦٩ تفسير الشعرى

٧٠ الأخبار عن قوم نوح وماصنعوا

٧٣ ﴿ سورة القمر ﴾

٧٤ انشقاق القمر معجزة للنبي ﷺ وماورد فى ذلك من الأحاديث وهو مبحث نفيس جداً

٧٦ الرد على شبه الفلاسفة فى إستحالتهم انشقاق القمر لاستحالة الخرق والالتئام فيه

٧٧ بيان أن انشقاق القمر آية رآها الكفار ثم أعرضوا عنها وادعوا أنها سحر

Marfat.com

صحيفة

٧٨ تكذيب الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم وبما أظهره الله على يديه من الآيات واتباعهم الأهواء التي زينها لهم الشيطان والرد عليهم وبيان أن حق الرسول لابد أن يظهر ويضمحل باطلهم

٨٩ بيان أن الغرض من ذكر انباء الأمم الخالية فى القرآن إنما هو الزجر والاتعاظ

٨٠ وصف حال الكفار عند خروجهم من القبور

٨١ الشروع فى تعداد بعض ماذكر من الانباء الموجبة للازدجار وذكر تكذيب قوم نوح له حينما دعاهم إلى الايمان

٨٥ بيان أن الحديث الذى روى عن ابن عباس مرفوعا (آخر اربعاء من الشهر يوم نحس مستمر) موضوع

٨٦ الكلام على التطير ببعض الايام وما ورد فى ذلك من الآثار

٨٧ بيان أن الأيام لا اختصاص ليوم منها بنحس ولا بسعد

٨٧ قصة ثمود مع صالح عليه السلام وما جرى لهم

٩٠ قصة قوم لوط عليه السلام

٩٢ اخبار النبي ﷺ بأن الكفار سيهزمون يوم بدر وهو من دلائل النبوة

٩٣ الكلام على القدر وما ورد فى ذم القدرية من الاحاديث

٩٦ ﴿سورة الرحمن عز وجل﴾

٩٧ بيان ان التكرار فى سورة الرحمن إنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة وهذا معهود فى اساليب العرب وذكر شيء من كلامهم

٩٨ بيان ان تعليم القرآن كرامة اكرم الله بها خلقه

٩٩ اقوال العلماء فى المراد بالبيان الذى علمه الله للانسان

١٠١ بيان ان الله تعالى شرع العدل وأمر به ونهى عن الطغيان

١٠٢ امتنان الله تعالى على الناس بخلق الارض لمنافعهم واثبات مايحتاجون اليه من الفواكه والنخيل والزهور

١٠٥ بيان خلق الانسان من صلصال وخلق الجان من مارج من نار

١٠٦ تفسير اللؤلؤ والمرجان

١٠٧ بيان ماوقع من غرائب التفسير فى قوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان) الخ

١٠٨ اقوال العلماء فى قوله تعالى (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام)

١١٠ بيان المراد بالشأن فى قوله تعالى (كل يوم هو فى شأن) وان الآية لاتنافى حديث « جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة »

١١٥ فضيلة الخوف من الله وبيان جزائه فى الآخرة

١١٧ وصف ما فى الجنتين اللتين اعدتا لمن خاف مقام ربه

١١٨ وصف نساء الجنة

١٢٣ وصف الحور العين

١٢٤ بيان مايتنعم به اهل الجنة من الثياب والكلام على معنى العبقرى

١٢٥ بيان القراءات الواردة فى العبقرى والرفرف

١٢٦ الكلام على الجنان وماورد فيها من الاحاديث

١٢٧ من باب الاشارة

١٢٨ ﴿سورة الواقعة﴾

١٢٨ مناسبة سورة الواقعة لما قبلها

١٢٩ أقوال العلماء فى تفسير سورة الواقعة

١٣١ بيان ان مراتب الناس ثلاثة اصحاب الميمنة واصحاب المشئمة والسابقون

١٣٢ بيان أن السابقين ثلة من الاولين وقليل من الآخرين وهم الناس من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قيام الساعة

١٣٥ بيان ما انعم الله به على السابقين من طواف الولدان عليهم بالأكواب والاباريق وكأس من

Marfat.com

صحيفة

معين وانعم عليهم بالفاكهة واللحم والحور العين جزاء لهم بأعمالهم جعلنا الله واياكم منهم
١٣٩ تفصيل احوال أصحاب اليمين وما افاضه الله عليهم من اصناف النعيم
١٤٣ تفصيل احوال اصحاب الشمال وبيان الصفات التى استحقوا بها العذاب وهى اتباع الهوى والكبر والاصرار على الذنوب وانكار البعث
١٤٥ الرد على منكرى البعث
١٤٨ تبكيت الكفار على انكارهم البعث والاستدلال بالبدء على الاعادة
١٤٨ الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الثانية
١٤٨ امتنان الله تعالى على عباده بانبات الزرع وانزال الماء العذب الذى يشربون منه
١٤٩ تحضيض العباد على شكر هذه النعمة
١٥٠ بيان أن الله تعالى خلق النار وجعلها تذكيرا لنار جهنم لينظروا اليها ويذكروا بها ماوعدوا به
١٥١ بيان أن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بتسبيحه تنزيها له عما يقول الكافرون فى وصفه سبحانه بما لايليق بجلاله
١٥٢ الكلام على (لا) فى قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم)
١٥٢ أقسام الله تعالى بمواقع النجوم اى بمساقط كواكب السماء ومغاربها على ان القرآن كريم اى نفاع جم المنافع وكيف لايكون كذلك وقد اشتمل على أصول العلوم المهمة لاصلاح المعاش والمعاد وغير ذلك
١٥٤ بيان المراد بالمطهرين واختلاف العلماء فى مس المحدث المصحف هل هو جائز أم لا وتحقيق الحق فى ذلك
١٥٦ توبيخ من بدل شكر نعمة الله كفرا ونسب ماانعم الله به عليه الى غيره وفيه الكلام على اسناد الرزق وغيره الى النجوم
١٥٨ تحدى من أدعى عدم خالقيته تعالى ونسب الفعل

صحيفة

الى غيره بان يرجع روح الميت اليه اذا بلغت الحلقوم
١٥٩ بيان مراتب الناس بعد الموت
١٥٩ بيان ماأنعم الله به على المقربين من الروح والريحان وجنة النعيم
١٦٠ بيان أحوال أصحاب اليمين
١٦١ بيان جزاء المكذبين الضالين
١٦٢ تنزيه الله تعالى عما ينسبه اليه الكفار
١٦٢ بيان ماقاله السادة ارباب الاشارة فى هذه الآيات
١٦٤ ﴿ سورة الحديد ﴾
١٦٤ تسبيح جميع الكائنات لله
١٦٥ تفسير اسمه تعالى الاول والآخر
١٦٦ تفسير اسمه تعالى الظاهر والباطن
١٦٨ تأويل قوله تعالى (وهو معكم اينما كنتم)
١٦٨ بيان أن مايد الانسان من الاموال ليس ملكا له حقيقة وانما هو مستخلف فيه بمنزلة الوكيل يصرفه فيما عينه الله تعالى من المصارف
١٦٩ توبيخ من ترك الايمان حسبما أمر به وانكار أن يكون له عذر بعد أن دعاه الرسول الى الايمان وأخذ الله عليه الميثاق أن يؤمن به
١٧١ بيان أن المراد من أنزال آيات القرآن اخراج الناس من ظلمات الكفر الى نور الايمان
١٧١ توبيخ من ترك الانفاق فى سبيل الله
››› بيان تفاوت درجات المنفقين حسب تفاوت احوالهم فى الانفاق
١٧٣ ندب الله تعالى العباد الى الانفاق فى سبيله
١٧٤ بيان أن المؤمنين يسعى نورهم بين أيديهم وبايمانهم على الصراط
١٧٦ تلاشى نور المنافقين وطلبهم من المؤمنين الانتظار ليقتبسوا من نورهم
١٧٧ بيان أحوال المنافقين وحجزهم عن المؤمنين بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله الخ
١٧٩ عتاب المؤمنين بالفتور والتكاسل فيما ندبوا اليه

Marfat.com

صحيفة

١٨١ نهى المؤمنين عن مماثلة أهل الكتاب بعد أن عوتبوا

١٨٣ بيان ان من آمن بالله ورسله يكون بمنزلة الشهداء فى علو الرتبة ورفعة المكانة

١٨٤ تحقير أمر الدنيا وضرب المثل لها بالنبات الذى يعجب الحراث ثم يصير حطاما اشارة الى سرعة زوالها وقرب اضمحلالها

١٨٥ الكلام على قوله تعالى (وجنة عرضها كعرض السموات والأرض اعدت للذين آمنوا بالله ورسله) الآية

١٨٨ تفسير الاختيال والفخور

صحيفة

١٨٨ تفسير آية (وأنزلنا الحديد)

١٨٩ تفسير قوله تعالى (ولقد ارسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) الآية

١٩٠ بيان ابتداع الرهبانية

١٩٢ تقسيم البدعة الى خمسة انواع باطل اذا اريد به البدعة الشرعية لان كل بدعة ضلالة

١٦٧ تفسير الكفل والنور الذى يمشى به المؤمن

١٦٩ خاتمة سورة الحديد وبه يتم الجزء السابع والعشرون

تمت الفهرست والحمد لله اولا واخرا

Marfat.com

روح المعاني

في

تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني

لخاتمة المحققين وعمدة المدققين مرجع أهل العراق
ومفتى بغداد العلامة أبي الفضل
شهاب الدين السيد محمود الالوسى البغدادى
المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ سقى الله ثراه
صيب الرحمة وأفاض عليه سجال
الاحسان والنعمة آمين

الجزء الثامن والعشرون

عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه للمرة الثانية باذن من ورثة المؤلف بخط وإمضاء علامة العراق
﴿ المرحوم السيد محمود شكرى الألوسى البغدادى ﴾

إدارة الطباعة المنيرية
ودار
احياء التراث العربي
بيروت - لبنان

مصر : درب الاتراك رقم ١

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سورة المجادلة — ٥٨ ﴾

بفتح الدال وكسرها ، والثانى هو المعروف ، وتسمى سورة - قد سمع - وسميت فى مصحف أبىّ رضى الله تعالى عنه الظهار ، وهى على ماروى عن ابن عباس . وابن الزبير رضى الله تعالى عنهم مدنية ؛ قال الكلبي : وابن السائب : إلا قوله تعالى : (مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) ، وعن عطاء : العشر الأول منها مدنى وباقيها مكى ، وقد انعكس ذلك على البيضاوى ، وأنها إحدى وعشرون فى المكى والمدنى الأخير ، واثنتان وعشرون فى الباقى ، وفى التيسير هى عشرون وأربع آيات وهو خلاف المعروف فى كتاب العدد ٥

ووجه مناسبتها لما قبلها أن الأولى ختمت بفضل الله تعالى وافتتحت هذه بما هو من ذلك، وقال بعض الأجلة فى ذلك: لما كان فى مطلع الأولى ذكر صفاته تعالى الجليلة، ومنها الظاهر والباطن، وقال سبحانه : (يعلم مايلج فى الارض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها وهو معكم أينما كنتم) افتتح هذه بذكر أنه جل وعلا سمع قول المجادلة التى شكت اليه تعالى ، ولهذا قالت عائشة فيما رواه النسائى . وابن ماجه . والبخارى تعليقاً حين نزلت : « الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تكلمه وأنا فى ناحية البيت ماأسمع ماتقول فأنزل الله تعالى (قد سمع) » الخ ، وذكر سبحانه بعد ذلك (ألم تر أن الله يعلم مافى السموات ومافى الارض مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) الآية ، وهى تفصيل لاجمال قوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) وبذلك تعرف الحكمة فى الفصل بها بين الحديد . والحشر مع تواخيهما فى الافتتاح - بسبح - إلى غير ذلك مما لايخفى على المتأمل ٥

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ﴾ باظهار الدال ، وقرأ أبو عمرو . وحمزة . والكسائى . وابن محيصن بادغامها فى السين ، قال خلف بن هشام البزار : سمعت الكسائى يقول : من قرأ قد سمع فبين الدال فلسانه أعجمى ليس بعربى، ولا يلتفت إلى هذا فكلا الأمرين فصيح متواتر بل الجمهور على البيان ﴿ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ أى تراجعك الكلام فى شأنه وفيما صدر عنه فى حقها من الظهار ، وقرىء - تحاورك - والمعنى على ماتقدم وتحاولك أى تسائلك ﴿ وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ عطف على (تجادلك) فلا محل للجملة من الاعراب ، وجوز كونها حالا أى تجادلك شاكية حالها إلى الله تعالى ، وفيه بعد معنى ، ومع هذا يقدر معها مبتدأ أى وهى تشتكى لأن المضارعية لاتقترن بالواو فى الفصيح فيقدر معها المبتدأ لتكون إسمية ، واشتكاؤها اليه تعالى إظهار بثها وما انطوت عليه من الغم والهم وتضرعها اليه عز وجل وهو من الشكو ، وأصله فتح الشكوة وإظهار مافيها ، وهى سقاء صغير يجعل فيه الماء ثم شاع فى ذلك ، وهى امرأة صحابية من الأنصار اختلف فى اسمها واسم أبيها،

Marfat.com

فقيل : خولة بنت ثعلبة بن مالك ، وقيل : بنت خويلد ، وقيل : بنت حكيم ، وقيل : بنت الصامت ، وقيل : خويلة بالتصغير بنت ثعلبة ، وقيل : بنت مالك بن ثعلبة ، وقيل : جميلة بنت الصامت ، وقيل : غير ذلك ، والاكثرون على أنها خولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية ، وأكثر الرواة على أن الزوج فى هذه النازلة أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت ، وقيل : هو سلمة بن صخر الانصارى ، والحق أن لهذا قصة أخرى ، والآية نزلت فى خولة وزوجها أوس ، وذلك أن زوجها أوساً كان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه فدخل عليها يوما فراجعته بشىء فغضب ، فقال : أنت على كظهر أمى ، وكان الرجل فى الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه - وكان هذا أول ظهار فى الاسلام - فندم من ساعته فدعاها فأبت ، وقالت : والذى نفس خولة بيده لاتصل إلىّ وقد قلت ماقلت حتى يحكم الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فينا ، فأتت رسول الله عليه الصلاة والسلام فقالت : يارسول الله إن أوسا تزوجنى وأنا شابة مرغوب فى فلما خلا سنى ونثرت بطنى - أى كثر ولدى - جعلنى عليه كأمه وتركنى إلى غير أحد فان كنت تجد لى رخصة يارسول الله تنعشنى بها وإياه فحدثنى بها ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « والله ماأمرت فى شأنك بشىء حتى الآن » ، وفى رواية « ماأراك إلا قد حرمت عليه » قالت : ماذكر طلاقا ، وجادلت رسول الله عليه الصلاة والسلام مراراً ثم قالت : اللهم إنى أشكو اليك شدة وحدتى ومايشق على من فراقه ، وفى رواية قالت : أشكو إلى الله تعالى فاقتى وشدة حالى وإن لى صبية صغاراً إن ضممتهم اليه ضاعوا وإن ضممتهم إلى جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إنى أشكو اليك اللهم فأنزل على لسان نبيك ومابرحت حتى نزل القرآن فيها ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ياخولة أبشرى قالت : خيراً؟ فقرأ عليه الصلاة والسلام عليها (قد سمع الله الآيات) » وكان عمر رضى الله تعالى عنه يكرمها إذا دخلت عليه ويقول : قد سمع الله تعالى لها ه

وروى ابن أبى حاتم . والبيهقى فى الأسماء والصفات أنها لقيته رضى الله تعالى عنه وهو يسير مع الناس فاستوقفته فوقف لها ودنا منها وأصغى اليها ووضع يده على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت ، فقال له رجل : ياأمير المؤمنين حبست رجال قريش على هذه العجوز قال : ويحك أتدرى من هذه ؟ قال : لا قال : هذه امرأة سمع الله تعالى شكواها من فوق سبع سموات هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف حتى أتى الليل ماانصرفت حتى تقضى حاجتها ، وفى رواية للبخارى فى تاريخه أنها قالت له : قف ياعمر فوقف فأغلظت له القول ، فقال رجل : ياأمير المؤمنين مارأيت كاليوم فقال رضى الله تعالى عنه : ومايمنعنى أن أستمع اليها وهى التى استمع الله تعالى لها فأنزل فيها ما أنزل (قد سمع الله) الآيات ، والسماع مجاز عن القبول والإجابة بعلاقة السببية أو كناية عن ذلك ، و(قد) للتحقيق أو للتوقع ، وهو مصروف إلى تفريج الكرب لا إلى السمع لأنه محقق أو إلى السمع لأنه مجاز أو كناية عن القبول ، والمراد توقع المخاطب ذلك ، وقد كان ﷺ يتوقع أن ينزل الله تعالى حكم الحادثة ويفرج عن المجادلة كربها ، وفى الأخبار مايشعر بذلك ، والسمع فى قوله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ على ماهو المعروف فيه من كونه صفة يدرك بها الأصوات غير صفة العلم ، أو كونه راجعاً إلى صفة العلم ، والتحاور المراجعة فى الكلام ، وجوز أن يراد به الكلام المردد ، ويقال : كلمته فما رجع إلى حواراً . وحويراً . ومحورة أى مارد على بشىء ، وصيغة المضارع للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور وتجدده ، وفى نظمها فى سلك الخطاب تغليباً تشريف لها من جهتين ، والجملة استئناف

Marfat.com

جار مجرى التعليل لما قبله فان إلحافها فى المسألة ومبالغتها فى التضرع إلى الله تعالى ومدافعته عليه الصلاة والسلام إياها وعلمه عز وجل بحالهما من دواعى الاجابة ، وقيل : هى حال كالجملة السابقة ، وفيه أيضاً بعد، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ١ ﴾ تعليل لما قبله بطريق التحقيق أى أنه تعالى يسمع كل المسموعات ويبصر كل المبصرات على أتم وجه وأكمله ومن قضية ذلك أن يسمع سبحانه (تحاورهما) ، ويرى مايقارنه من الهيئات التى من جملتها رفع رأسها إلى السماء وسائر آثار التضرع ، والاسم الجليل فى الموضعين لتربية المهابة وتعليل الحكم بما اشتهر به الاسم الجليل من وصف الألوهية وتأكيد استقلال الجملتين ، وقوله عز وجل :

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ شروع فى بيان شأن الظهار فى نفسه وحكمه المترتب عليه شرعا ، وفى ذلك تحقيق قبول تضرع تلك المرأة وإشكاؤها بطريق الاستئناف ٭

والظهار لغة مصدر ظاهر وهو مفاعلة من الظهر ، ويراد به معان مختلفة راجعة إلى الظهر معنى و لفظاً باختلاف الأغراض ، فيقال . ظاهر زيد عمراً أى قابل ظهره بظهره حقيقة وكذا إذا غايظه ، وإن لم يقابل حقيقة باعتبار أن المغايظة تقتضى هذه المقابلة ، وظاهره إذا نصره باعتبار أنه يقال : قوى ظهره إذا نصره ، وظاهر بين ثوبين إذا لبس أحدهما فوق الآخر باعتبار جعل مايلى به كل منهما الآخر ظهراً للثوب: وظاهر من امرأته إذا قال لها : أنت على كظهر أمى ، وغاية مايلزم كون لفظ الظهر فى بعض هذه التراكيب مجازاً ، وهو لايمنع الاشتقاق منه ويكون المشتق مجازاً أيضا، وهذا الأخير هو المعنى الذى نزلت فيه الآيات ٭

وعرفه الحنفية شرعا بأنه تشبيه المنكوحة أو عضواً منها يعبر به عن الكل كالرأس أو جزء شائع منها كالثلث بقريب محرم عليه على التأبيد أو بعضو منه يحرم عليه النظر اليه ٭

وحكى عن الشافعية أنه تشبيهها أو عضو منها بمحرم من نسب . أو رضاع . أو مصاهرة . أو عضو منه لا يذكر للكرامة كاليد والصدر ، وكذا العضو الذى يذكر لها كالعين والرأس إن قصد معنى الظهار، وهو التشبيه بتحريم نحو الأم لا أن قصد الكرامة أو أطلق فى الأصح ، وتخصيص المحرم بالأم قول قديم للشافعى عليه الرحمة ، وتفصيل ذلك فى كتب الفقه للفريقين ، وكان الظهار بالمعنى السابق طلاقاً فى الجاهلية قيل : وأول الاسلام ٭

وحكى بعضهم أنه كان طلاقاً يوجب حرمة مؤبدة لارجعة فيه ، وقيل : لم يكن طلاقا من كل وجه بل لتبقى معلقة لاذات زوج ولاخلية تنكح غيره ، وذكر بعض الأجلة أنهم كانوا يعدونه طلاقا مؤكداً باليمين على الاجتناب ، ولذا قال الشافعية : إن فيه الشائبتين ، وسيأتى إن شاء الله تعالى الاشارة إلى حكمه الشرعى، وعدى بمن مع أنه يتعدى بنفسه لتضمنه معنى التبعيد ولما سمعت أنه كان طلاقا وهو مبعد ، والظهر فى قولهم: أنت على كظهر أمى قيل : مجاز عن البطن لأنه إنما يركب البطن - فكظهر أمى - أى كبطنها بعلاقة المجاورة ، ولأنه عموده لكن لايظهر ماهو الصارف عن الحقيقة من النكات ، وقيل : خص الظهر لانه محل الركوب والمرأة مركوب الزوج ، ومن ثم سمى المركوب ظهراً ، وقيل : خص ذلك لان إتيان المرأة من ظهرها فى قبلها كان حراماً فاتيانه أمه من ظهرها أحرم فكثر التغليظ ، وإقحام (منكم) فى الآية للتصوير والتهجين لأن الظهار كان مخصوصاً بالعرب ، ومنه يعلم أنه ليس من مفهوم الصفة ليستدل به على عدم صحة ظهار الذمى كما حكى عن المالكية ، ومن هنا قال الشافعية : يصح من الذمى والحربى لعموم الآية ، وكذا الحنابلة . والحنفية

Marfat.com

يقولون : لا يصح منهما ، وفى رواية عن أبى حنيفة صحته من الذمى ، والرواية المعول عليها عدم الصحة لأنه ليس من أهل الكفارة ، وشنع على الشافعية فى قولهم بصحته منه مع اشتراطهم النية فى الكفارة والايمان فى الرقبة ، وتعذر ملكه لها لأن الكافر لا يملك المؤمن ، وقال بعض أجلتهم إن فى الكفارة شائبة الغرامات ونيتها فى كافر كفر بالاعتاق للتمييز كما فى قضاء الديون لا الصوم لأنه لا يصح منه لأنه عبادة بدنية ولا ينتقل عنه للاطعام لقدرته عليه بالاسلام فان عجز انتقل ونوى للتمييز أيضاً ، ويتصور ملكه للمسلم بنحو إرث أو إسلام قنه،أو يقول : لمسلم أعتق قنك عن كفارتى ، فيجيب فان لم يمكنه شىء من ذلك وهو مظاهر موسر منع من الوطء لقدرته على ملكه بأن يسلم فيشتريه انتهى *

وفى كتب بعض الأصحاب كالبحر وغيره كلام مع الشافعية فى هذه المسألة فيه نقض وإبرام لا يخلو عن شىء والسبب فى ذلك قلة تتبع معتبرات كتبهم،وقرأ الحرميان . وأبو عمرو - يظهرون - بشد الظاء والهاء ،والأخوان. وابن عامر (يظاهرون) مضارع اظاهر ، وأبى - يتظاهرون - مضارع تظاهر ، وعنه أيضاً - يتظهرون - مضارع تظهر،والموصول مبتدأ خبره محذوف أى مخطئون ، وأقيم دليله وهو قوله تعالى : ﴿ مَاهُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ﴾ مقامه أو هو الخبر نفسه أى ما نساؤهم أمهاتهم على الحقيقة فهو كذب بحت *

وقرأ المفضل عن عاصم (أمهاتهم) بالرفع على لغة تميم ، وقرأ ابن مسعود - بأمهاتهم - بزيادة الباء ، قال الزمخشرى : فى لغة من ينصب أى بما الخبر - وهم الحجازيون - يعنى أنهم الذين يزيدون الباء دون التميميين وقد تبع فى ذلك أبا على الفارسى ، ورد بأنه سمع خلافه كقول الفرزدق وهو تميمى :

لعمرك ما معن بتارك حقه ولا منسىء معن ولا متيسر

﴿ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ ﴾ أى ما أمهاتهم على الحقيقة ﴿ إِلَّا ٱللَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾ فلا يشبه بهن فى الحرمة إلا من ألحقها الله تعالى بهن كالمرضعات ومنكوحات الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فدخلن فى حكم الأمهات ، وأما الزوجات فأبعد شىء من الأمومة ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ ينكره الشرع والعقل والطبع أيضاً كما يشعر به التنكير ،ومناط التأكيد كونه منكراً ، وإلا فصدور القول عنهم أمر محقق ﴿ وَزُورًا ﴾ أى وكذبا باطلا منحرفا عن الحق،ووجه كون الظهار كذلك عند من جعله إخباراً كاذبا - علق عليه الشارع الحرمة والكفارة - ظاهر ، وأما عند من جعله إنشاء لتحريم الاستمتاع فى الشرع - كالطلاق على ما هو الظاهر - فوجهه أن ذلك باعتبار ما تضمنه من إلحاق الزوجة بالأم المنافى لمقتضى الزوجية ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ٢ ﴾ أى مبالغ فى العفو والمغفرة فيغفر ما سلف منه ويعفو عمن ارتكبه مطلقا أو بالتوبة ، ويعلم من الآيات أن الظهار حرام بل قالوا : إنه كبيرة لأن فيه إقداما على إحالة حكم الله تعالى وتبديله بدون إذنه ، وهذا أخطر من كثير من الكبائر إذ قضيته الكفر لولا خلو الاعتقاد عن ذلك ، واحتمال التشبيه لذلك وغيره ، ومن ثم سماه عز وجل (منكراً من القول وزوراً) ، وإنما كره - على ما ذكره بعض الشافعية أنت على حرام - لأن الزوجية ومطلق الحرمة يجتمعان بخلافها مع التحريم المشابه لتحريم نحو الأم ، ومن ثم وجب هنا الكفارة العظمى . وثم على ما قالوا : كفارة يمين ، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ ﴾ الخ تفصيل لحكم الظهار بعد بيان كونه أمراً منكراً

Marfat.com

بطريق التشريع الكلى المنتظم لحكم الحادثة انتظاما أولياً ، والموصول مبتدأ ، وقوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ مبتدأ آخر خبره مقدر أى فعليهم تحرير رقبة ، أو فاعل فعل مقدر أى فيلزمهم تحرير ، أو خبر مبتدأ مقدر أى فالواجب عليهم (تحرير) ، وعلى التقادير الثلاثة الجملة خبر الموصول ودخلته الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، و ـ ما ـ موصولة أو مصدرية ، واللام متعلقة بـ (يعودون) وهو يتعدى بها كما يتعدى ـ بإلى . وبنى ـ فلا حاجة إلى تأويله بأحدهما كما فعل البعض ، والعود لما قالوا على المشهور عند الحنفية العزم على الوطء كأنه حمل العود على التدارك مجازاً لأن التدارك من أسباب العود إلى الشيء ، ومنه المثل عاد غيث على ما أفسد أى تداركه بالاصلاح ، فالمعنى والذين يقولون ذلك القول المنكر ثم يتداركونه بنقضه وهو العزم على الوطء فالواجب عليهم إعتاق رقبة ۞ ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ أى كل من المظاهر والمظاهر منها ـ والتماس ـ قيل : كناية عن الجماع فيحرم قبل التكفير على ما تدل عليه الآية ، وكذا دواعيه من التقبيل ونحوه عندنا ، قيل : وهو قول مالك . والزهرى . والاوزاعى . والنخعى ، ورواية عن أحمد فان الأصل أنه إذا حرم حرم بدواعيه إذ طريق المحرم محرم ، وعدم اطراد ذلك فى الصوم والحيض لكثرة وجودهما فتحريم الدواعى يفضى إلى مزيد الحرج ، وقال العلامة ابن الهمام : التحقيق أن الدواعى منصوص على منعها فى الظهار فانه لا موجب لحمل التماس فى الآية على المجاز لإمكان الحقيقة ، ويحرم الجماع لأنه من أفراد التماس كاللمس والقبلة ، وقال غيره : تحرم أقسام الاستمتاع قبل التكفير لعموم لفظ التماس فيشملها بدلالة النص ، ومقتضى التشبيه فى قوله : كظهر أمى فان المشبه به لا يحل الاستمتاع به بوجه من الوجوه فكذا المشبه ، ويحرم عند الشافعية أيضاً الجماع قبله ، وكذا يحرم لمس ونحوه من كل مباشرة لانظر بشهوة فى الاظهر كما فى المحرر ، وقال الامام النووى عليه الرحمة : الأظهر الجواز لأن الحرمة ليست لمعنى يخل بالنكاح فأشبه الحيض ، ومن ثم حرم الاستمتاع فيه فيما بين السرة والركبة ، وسيأتى إن شاء الله تعالى تمام الكلام فى هذا المقام ۞

وحكى البيضاوى عن الامام أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه أن نقض القول المراد بالعود باباحة التمتع بها ولو بنظرة بشهوة ، وحمل ذلك على استباحة التمتع بمباشرته بوجه ما دون عقده مباحا من غير مباشرة ۞

ولعله أريد بالمباشرة بوجه ما مباشرة ليست من التماس الذى قالوا بحرمته قبل التكفير ، وأياما كان فظاهر تعليق الحكم بالموصول يدل على علية ما فى حيز الصلة أعنى الظهار والعود له فهما سببان للكفارة وهذا أحد أقوال فى المسألة ۞

قال العلامة ابن الهمام : اختلف فى سبب وجوبها فقال فى المنافع : تجب بالظهار والعود لان الظهار كبيرة فلا يصلح سبباً للكفارة لأنها عبادة ، أو المغلب فيها معنى العبادة ولا يكون المحظور سببا للعبادة فعلق وجوبها بهما ليخف معنى الحرمة باعتبار العود الذى هو إمساك بمعروف فيكون دائراً بين الحظر والاباحة ، وعليه فيصلح سبباً للكفارة الدائرة بين العبادة والعقوبة ، وقيل : سبب وجوبها العود والظهار شرطه ، ولفظ الآية أى المذكورة يحتملهما فيمكن كون ترتيبها عليهما ، أو على الأخير لكن إذا أمكن البساطة صير اليها لانها الاصل بالنسبة إلى التركيب فلهذا قال فى المحيط : سبب وجوبها العزم على الوطء والظهار شرطه ، وهو بناء على أن المراد من العود فى الآية العزم على الوطء ، واعترض بأن الحكم يتكرر بتكرر سببه لا شرطه والكفارة متكررة بتكرر الظهار لا العزم ، وكثير من مشايخنا على أنه العزم على إباحة الوطء بناءاً على إرادة المضاف فى الآية أى يعودون لضد ما قالوا أو لتداركه ، ويرد عليه ما يرد على ما قبله ، ونص صاحب المبسوط على أن بمجرد

Marfat.com

العزم لا تتقرر الكفارة حتى لو أبانها أو ماتت من بعد العزم فلا كفارة فهذا دليل على أنها غير واجبة لا بالظهار ولا بالعود إذ لو وجبت لما سقطت بل موجب الظهار ثبوت التحريم ، فاذا أراد رفعه وجب عليه فى رفعه الكفارة كما تقول لمن أراد الصلاة النافلة : يجب عليك إن صليتها أن تقدم الوضوء انتهى *

ولا يخفى أن إرادة المضاف غير متعين بناءاً على ما نقل عن الكثير من المشايخ ، وأن ظاهر الآية يفيد السببية كما ذكرنا آنفاً ، ويكون الموجب للكفارة الأمران ، وبه صرح بعض الشافعية وجعل ذلك قياس كفارة اليمين ، ثم قال : ولا ينافى ذلك وجوبها فوراً مع أن أحد سببيها - وهو العود - غير معصية لأنه إذا اجتمع حلال وحرام ولم يمكن تميز أحدهما عن الآخر غلب الحرام ، وظاهر كلام الامام النووى عليه الرحمة أن موجبها الظهار والعود شرط فيه وهو بعكس ما نقل عن المحيط ، ثم إن من جعل السبب العزم أراد به العزم المؤكد حتى لو عزم ثم بدا له أن لا يطأها لا كفارة عليه لعدم العزم المؤكد لا أنها وجبت بنفس العزم . ثم سقطت - كما قاله بعضهم - لأنها بعد سقوطها لا تعود إلا بسبب جديد كذا فى البدائع ، وذكر ابن نجيم فى البحر عن التنقيح أن سبب الكفارة ما نسبت اليه من أمر دائر بين الحظر والاباحة ، ثم قال : إن كون كفارة الظهار كذلك على قول من جعل السبب مركبا من الظهار والعود ظاهر لكون الظهار محظوراً والعود مباحا لكونه إمساكا بالمعروف ونقضاً للزور *

وأما على القول بأن المضاف اليه وهو الظهار سبب - وهو قول الاصوليين فكونه دائراً بين الحظر والاباحة مع أنه منكر من القول وزور باعتبار أن التشبيه يحتمل أن يكون للكرامة فلم يتمحض كونه جناية ، واستظهر بعد أنه لا ثمرة للاختلاف فى سببها معللا بأنهم اتفقوا على أنه لو عجلها بعد الظهار قبل العود جاز ولو كرر الظهار تكررت الكفارة وإن لم يتكرر العزم ، ولو عزم ثم ترك فلا وجوب ، ولو عزم ثم أبانها سقطت ولو عجلها قبل الظهار لم يصح ، ثم إنه لا استحالة فى جعل المعصية سبباً للعبادة التى حكمها أن تكفر المعصية وتذهب السيئة خصوصا إذا صار معنى الزجر فيها مقصوداً وإنما المحال أن تجعل سببا للعبادة الموصلة إلى الجنة انتهى ، ولا يخلو عن حسن ما عدا توجيه كون الظهار دائراً بين الحظر والاباحة فانه كما ترى *

وفسر بعضهم العود بالرجوع واللام بعن كما نقل عن الفراء أى ثم يرجعون عما قالوا : فيريدون الوطء ، قال الزيلعى : وهذا تأويل حسن لأن الظهار موجبه التحريم المؤبد فاذا قصد وطأها وعزم عليه فقد رجع عما قال ، ولا يخفى أن جعل اللام بمعنى عن خلاف الظاهر ، وقيل : العود الرجوع ، والمراد بما قالوا ما حرموه على أنفسهم بلفظ الظهار وهو التماس تنزيلا للقول منزلة المقول فيه نحو ما ذكر فى قوله تعالى : (ونرثه ما يقول) والمعنى ثم يريدون العود للتماس ، وفيه تجوزان ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن معنى (ثم يعودون) ثم يندمون ويتوبون أى يعزمون على التوبة ، كأنه حمل العود على التدارك والتائب متدارك لما صدر عنه بالتوبة *

واعترض بأنه يقتضى أنه إذا لم يندم لا تلزمه الكفارة وإذا جعلت الكفارة نفس التوبة فأين معنى العود ؟ وأيضاً لا معنى لقول القائل ثم يعزمون على الكفارة (فتحرير) الخ ، والعود عند الشافعية يتحقق فى غير مؤقت ورجعية بأن يمسكها على الزوجية ولو جهلا ونحوه بعد فراغ ظهاره ولو مكرراً للتأكيد وبعد علمه بوجود الصفة فى المعلق وإن نسى أو جن عند وجودها زمن إمكان فرقة شرعا فلا عود فى نحو حائض إلا بالامساك بعد انقطاع دمها لأن تشبيهها بالمحرم يقتضى فراقها فبعدم فعله صار ناقضاً له متداركا لما قال ، فلو اتصل بلفظ الظهار فرقة بموت أو فسخ . أو انفساخ بنحو ردة قبل وطء أو طلاق بائن أو رجعى ، ولم يراجع

Marfat.com

أو جن أو أغمى عليه عقب اللفظ ولم يمسكها بعد الإفاقة فلا عود للفرقة أو تعذرها أولا عنها فى الأصح بشرط سبق القذف ، والرفع للقاضى ظهاره فى الأصح ولوراجع من ظاهر منها رجعية أو من طلقها رجعيا عقب الظهار أو ارتد متصلا وهى موطوءة ثم أسلم ، فالمذهب أنه عائد بالرجعة لأن المقصود بها استباحة الوطء لا بالاسلام لأن المقصود به العود للدين الحق والاستباحة أمر يترتب عليه إلا إذا أمسكها بعده زمنا يسع الفرقة ، وفى الظهار المؤقت الواقع كما التزم على الصحيح لخبر صحيح فيه الأصح أن العود لا يحصل بامساك بل بوطء مشتمل على تغييب الحشفة أو قدرها من مقطوعها فى المدة للخبر أيضا ولأن الحل منتظر بعدها ، فالامساك يحتمل كونه لانتظاره أو للوطء فيها فلم يتحقق الامساك لاجل الوطء إلا بالوطء فيها فكان المحصل للعوده

واعترض ماقالوه بأن (ثم) تدل على التراخى الزمانى . والامساك المذكور معقب لامتراخ فلا يعطف -بثم- بل بالفاء ، ورد بأن مدة الامساك ممتدة ، ومثله يجوز فيه العطف - بثم - والعطف بالفاء باعتبار ابتدائه وانتهائه ، وعلى هذا لاحاجة إلى القول بأنها للدلالة على أن العود أشد تبعة وأقوى إثما من نفس الظهار حتى يقال عليه : إنه غير مسلم ، ولا إلى قول الإمام أنه مشترك الالزام بين الشافعية والحنفية القائلين : بأن العود استباحة الاستمتاع فيمنع أيضاً لأن الاستباحة المذكورة عقب الظهار - قولا - نادرة فلا يتوجه ذلك على الحنفية *

واعترض أيضاً بأن الظهار لم يوجب تحريم العقد حتى يكون العود إمساكها ، ومن تعليل الشافعية السابق يعلم مافيه ، وفى التفريع لابن الجلاب المالكى أنه روى عن الامام مالك فى المراد بالعود روايتان : إحداهما أنه العزم على إمساكها بعد الظهار منها ، والرواية الأخرى أنه العزم على وطئها ، ثم قال : ومن أصحابنا من قال : العود فى إحدى الروايتين عن مالك هو الوطء نفسه ، والصحيح عندى ماقدمته انتهى من مدونه *

وابن حجر نسب القول : بأنه العزم على الوطء إلى الامام مالك . والامام أحمد ، والقول : بأنه الوطء نفسه إلى الامام أبى حنيفة ، وذكر أنهما قولان للامام الشافعى فى القديم ، وما حكاه عن الامام أبى حنيفة لم يحكه عنه فيما نعلم أحد من أصحابه ، وحكاه الزيلعى عن الامام مالك ، ولم يحك عنه غيره ، وحكاه أبو حيان فى البحر عن الحسن . وقتادة . وطاوس . والزهرى . وجماعة ، وأفاد أنه إحدى روايتين عن مالك ، ثانيتهما أنه العزم على الامساك والوطء *

واعترض القول به ممن كان وكذا القول : بأنه العزم على الوطء بان الآية لما نزلت ، وأمر ﷺ المظاهر بالكفارة لم يسأله هل وطئ أو عزم على الوطء ؟ والاصل عدم ذلك ، والوقائع القولية كهذه يعممها الاحتمال ، وأنها ناصة على وجوب الكفارة قبل الوطء فيكون العود سابقا عليه ، فكيف يكون هو الوطء ؟ ! وأجاب القائل : بأنه العزم على الوطء عن ترك السؤال بأن ذلك لعلمه عليه الصلاة والسلام به من خولة ، فقد أخرج الامام أحمد . وأبو داود . وابن المنذر . والطبرانى . وابن مردويه . والبيهقى من طريق يوسف بن عبدالله بن سلام قال : حدثتنى خولة بنت ثعلبة قالت : فىّ وفى أوس بن الصامت أنزل الله تعالى صدر سورة المجادلة كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قدساء خلقه فدخل على يوما فراجعته بشئ فغضب فقال : أنت على كظهر أمى ، ثم رجع فجلس فى نادى قومه ساعة ثم دخل على فاذا هو يريدنى عن نفسى قلت : كلا والذى نفس خولة بيده لاتصل إلى وقد قلت ماقلت حتى يحكم الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فينا ، ثم جئت إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فذكرت له ذلك فما برحت حتى نزل القرآن الخبر ، فان ظاهر قولها : فذكرت له ذلك أنها ذكرت كل ماوقع

Marfat.com

ومنه طلب أوس وطأها المكنى عنه بيريدنى عن نفسى ، وذكر ذلك له عليه الصلاة والسلام أهم لها من ذكرها إياه ليوسف بن عبد الله بن سلام *

وأجيب من جهة القائل : بأنه الوطء عن الأخير بأن المراد من الآية عند ذلك القائل من قبل أن يباح التماس شرعا ، والوطء أولا حرام موجب للتكفير - وهو كما ترى - ونقل عن الثورى . ومجاهد أن معنى الآية والذين كانت عادتهم أن يقولوا هذا القول المنكر فقطعوه بالاسلام ، ثم يعودون لمثله فكفارة من عاد أن يحرر رقبة ثم يماس المظاهر منها، فحملا العود والقول على حقيقتهما ، وفى اعتبار العادة دلالة على أن العدول إلى المضارع فى الآية للاستمرار فيما مضى وقتاً فوقتاً ، وأخذ القطع من دلالة (ثم) على التراخى ؛ وليصح على وجه لا يلزم تعليق وجوب الكفارة بتكرار لفظ الظهار كما سيأتى إن شاء الله تعالى حكايته *

وتعقب ذلك بأن فيه أن الاستمرار ينافى القطع، ثم إنهم ما كانوا قطعوه بالاسلام لأن الشرع لم يكن ورد بعد بتحريمه، وظاهر النظم الجليل أنه مظاهرة بعد الاسلام لأنه مسوق لبيان حكمه فيه، وعليه ينطبق سبب النزول وهو يقتضى أن يكون مجرد الظهار من غير عود موجباً للكفارة ، وهو خلاف ما عليه علماء الامصار ؛ وأجيب عن هذا الأخير بأنهما إن نقل عنهما ذلك اجتهاداً فلا يلزمهما موافقة غيرهما وهو المصرح به فى كتاب الاحكام. وغيره، وإن لم ينقل عنهما غير تفسير العود فى الآية بما أشير اليه ، فيجوز أن يشترطا لوجوب الكفارة شيئاً مما مر لكن لا يقولان: إنه المراد بالعود فيها، وقال أهل الظاهر : المعنى الذين يقولون هذا القول المنكر ثم يعودون له فيكررونه بأن يقول أحدهم: أنت على كظهر أمى ثم يعود له ويقوله ثانياً فكفارته تحرير رقبة الخ فحملوا العود والقول على حقيقتهما أيضاً

وروى ذلك عن أبى العالية . وبكير بن عبد الله بن الأشج . والفراء أيضاً ، وحكاه أبو حيان رواية عن الامام أبى حنيفة ، ولا نعلم أحداً من أصحابه رواه عنه ، وتعقب بأنه لو أريد ذلك لقيل : يعودون له فانه أخصر ولا يبقى لكلمة (ثم) حسن موقع ، هذا ولا فقه فيه من حيث المعنى، والمنزل فيه - أعنى قصة خولة - يدفعه إذ لم ينقل التكرار ، ولا سأل عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا الدفع قوى ، وأما ما قيل : فقد أجيب عنه بأنه يحتمل أن يكون الفقه فيه أنه ليس صريحا فى التحريم فلعله يسبق لفظه به من غير قصد لمعناه ، فاذا كرره تعين أنه قصده وأن العدول عن له إلى (لما قالوا) لقصد التأكيد بالاظهار ، وأن العطف - بثم - لتراخى رتبة الثانى وبعده عن الأول لأنه الذى تحقق به الظهار ، وقول الزيلعى فى الاعتراض عليه : إن اللفظ لا يحتمله - لأنه لو أريد ذلك لقيل : يعيدون القول الأول بضم الياء وكسر العين من الاعادة لا من العود - جهل ناشئ من قلة العود لكلام الفصحاء والرجوع إلى محاوراتهم ، وقال أبو مسلم الاصفهانى : معنى العود أن يحلف أولا على ما قال من الظهار بأن يقول : والله أنت على كظهر أمى وهو عود لما قال وتكرار له معنى لأن القسم لكونه مؤكداً للمقسم عليه يفيد ذلك فلا تلزم الكفارة فى الظهار من غير قسم عنده ، وهذا القول إلغاء للظهار معنى لأن الكفارة لحلفه على أمر كذب فيه ، وأيضاً المنزل فيه يدفعه إذ لم ينقل الحلف ولا سأل عنه رسول الله ﷺ والأصل عدمه ، وقيل : عوده تكراره الظهار معنى بأن يقول : أنت على كظهر أمى إن فعلت كذا ثم يفعله فانه يحنث وتلزمه الكفارة ، وتعد مباشرته ذلك تكريراً للظهار وليس بشئ كما لا يخفى ، وأما تعليق الظهار فقد ذكر الشافعية أنه يصح لأنه لاقتضاء التحريم كالطلاق والكفارة كاليمين وكلاهما يصح تعليقه ، فاذا قال: إن دخلت الدار فأنت على كظهر أمى فدخلت ولو فى حال جنونه أو نسيانه صح لكن لا عود عندهم فى الصورة

Marfat.com

المفروضة حتى يمسكها عقب الافاقة أو تذكره وعلمه بوجود الصفة قدر إمكان طلاقها ولم يطلقها ، وقد أطالوا فى تفاريع التعليق الكلام بما لا يسعه هذا المقام *

وعندنا أيضاً يصح تعليقه وكذا تقييده بيوم أو شهر ، ولا يبقى بعد مضى المدة ، نعم لو ظاهر واستثنى يوم الجمعة مثلا لم يجز ولو علق الظهار بشرط ثم أبانها ثم وجد الشرط فى العدة لا يصير مظاهراً بخلاف الابانة المعلقة كما بين فى محله ، وقال الأخفش : فى الآية تقديم و تأخير وتقديرها - والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة لما قالوا : ثم يعودون إلى نسائهم - ولا يذهب اليه إلا أخفش أو أعشى أو أعمش ، وفى قوله تعالى: (من نسائهم) دليل لنا وكذا للشافعى . وأحمد . وجمع كثير من الصحابة والتابعين رضى الله تعالى عليهم أجمعين على أنه لو ظاهر من أمته الموطوأة أو غيرها لا يصح ، وبيان ذلك أنه يتناول نساءنا والأمة ، وإن صح إطلاق لفظ نسائنا عليها لغة لكن صحة الاطلاق لا تستلزم الحقيقة لأن حقيقة إضافة النساء إلى رجل أو رجال إنما تتحقق مع الزوجات (١) دون الاماء لأنه المتبادر حتى يصح أن يقال : هؤلاء جواريه لا نساؤه ، وحرمة بنت الامة ليس لأن أمها من نسائنا مرادة بالنص بل لأنها موطوءة وطءاً حلالا عند الجمهور ، وبلا هذا القيد عندنا على أنه لو أريد بالنساء هناك ماتصح به الاضافة حتى يشمل المعنى الحقيقى وهن الزوجات . والمجازى - أعنى الاماء بعموم المجاز - لأمكن للاتفاق على ثبوت ذلك الحكم فى الاماء كثبوته فى الزوجات أما هنا فلا اتفاق ولا لزوم عندنا أيضاً ليثبت بطريق الدلالة لان الاماء لسن فى معنى الزوجات لان الحل فيهن تابع غير مقصود من العقد ولا من الملك حتى يثبتا مع عدمه فى الامة المجوسية والمراضعة بخلاف عقد النكاح لا يصح فى موضع لا يحتمل الحل ، واستدل أيضا بأن القياس شأنه أن لا يوجب هذا التشبيه الذى فى الظهار سوى التوبة ، وورد الشرع بثبوت التحريم فيه فى حق من لها حق الاستمتاع ولا حق للامة فيه فيبقى فى حقها على أصل القياس ، وبأن الظهار كان طلاقا فنقل عنه إلى تحريم مغياً بالكفارة ولا طلاق فى الامة ، وهذا ليس بشئ للمتأمل *

ونقل عن مالك . والثورى صحة الظهار فى الامة مطلقا ، وعن سعيد بن جبير . وعكرمة . وطاوس . والزهرى صحته فى الموطوءة ، ثم إن الشرط كونها زوجة فى الابتداء فلو ظاهر من زوجته الامة ثم ملكها بقى الظهار فلا يجوز له وطؤها حتى يكفر كما صرحوا به ، والمراد بالزوجة المنكوحة التى يصح إضافة الطلاق اليها فلا فرق بين مدخول بها وغيرها فلا يصح الظهار من مبانة ، ومنه ما سمعت آنفاً ولا من أجنبية إلا إذا أضافه إلى التزوج كأن قال لها : إن تزوجتك فأنت على كظهر أمى ثم تزوجها فانه يكون مظاهراً ، نعم فى التاتارخانية : لو قال: إذا تزوجتك فأنت طالق ، ثم قال: إذا تزوجتك فأنت على كظهر أمى فتزوجها يقع الطلاق ، ولا يلزم الظهار فى قول أبى حنيفة ، وقال صاحباه : لزماه جميعا ، وعن مالك أنه إذا ظاهر من أجنبية ثم نكحها لزم الظهار أضافه إلى التزوج أم لا *

وقال بعض العلماء لا يصح ظهار غير المدخول بها ، وقال المزنى : لا يصح ظهار المطلقة الرجعية ، وظاهر (الذين يظاهرون) يشمل العبد فيصح ظهاره ، وقد ذكر أصحابنا أنه يصح ظهار الزوج البالغ العاقل المسلم ويكفر العبد بالصوم ، ولا ينصف لما فيه من معنى العبادة كصوم رمضان ، ومثله المحجور عليه بالسفه على قولهما المفتى به *

---

(١) قوله : إنما تتحقق مع الزوجات الخ ، واستدل الامام على عدم دخول الاماء فى النساء المضاف بقوله تعالى: (أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن) للعطف اه منه *

Marfat.com

وحكى الثعلبي عن مالك أنه لا يصح ظهار العبد ، ولا تدخل المرأة فى هذا الحكم فلو ظاهرت من زوجها لم يلزم شيء كما نقل ذلك فى التاتارخانية عن أبي يوسف ، وقال أبو حيان : قال الحسن بن زياد : تكون مظاهرة ، وقال الأوزاعى . وعطاء . وإسحق . وأبو يوسف : إذا قالت المرأة لزوجها : أنت علىّ كظهر فلانة فهى يمين تكفرها ، وقال الزهرى : أرى أن تكفر كفارة الظهار ولا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها أن يصيبها انتهى ، والرقبة من الحيوان معروفة ، وتطلق على المملوك ، وذلك من تسمية الكل باسم الجزء كما فى المغرب ، وهو المراد هنا *

وفى الهداية هى عبارة عن الذات المرقوق من كل وجه فيجزىء فى الكفارة إعتاق الرقبة الكافرة والمؤمنة والذكر والانثى والكبير والصغير - ولو رضيعا - لأن الاسم ينطلق على كل ذلك ، ومقتضى ذلك إجزاء إعتاق المرتد والمرتدة والمستأمن والحربى ، وفى التاتارخانية أن المرتد يجوز عند بعض المشايخ ، وعند بعضهم لا يجوز ، والمرتدة تجوز بلا خلاف أى لأنها لا تقتل ، وفى الفتح إعتاق الحربى فى دار الحرب لا يجزيه فى الكفارة ، وإعتاق المستأمن يجزيه ، وفى التاتارخانية لو أعتق عبداً حربيا فى دار الحرب إن لم يخل سبيله لا يجوز وإن خلى سبيله ففيه اختلاف المشايخ ، فبعضهم قالوا : لا يجوز - وشمل الرقبة الصحيح والمريض فيجزى كل منهما - واستثنى فى الخانية مريضا لا يرجى برؤه فانه لا يجوز لأنه ميت حكما ، وفى جواز إعتاق حلال الدم كلام : فحكى فى البحر أنه إذا أعتق عبداً حلال الدم قد قضى بدمه ثم عفى عنه (١) فلو كان أبيض العينين فزال البياض أو كان مرتداً فأسلم لا يجوز *

وفى جامع الفقه جاز المديون والمرهون ومباح الدم ، ويجوز إعتاق الآبق إذا علم أنه حى ، ولا بد أن تكون الرقبة غير المرأة المظاهر منها لما فى الظهيرية . والتاتارخانية أمة تحت رجل ظاهر منها ثم اشتراها وأعتقها كفارة ظهارها قيل : تجزى ، وقيل : لا تجزى فى قول أبى حنيفة . ومحمد خلافا لأبى يوسف ، ويجوز الأصم استحسانا إذا كان بحيث إذا صيح عليه يسمع ، وفى رواية النوادر لا يجوز ولا تجزى العمياء ولا المقطوعة اليدين أو الرجلين ، وكذا مقطوع إبهام اليدين ومقطوع إحدى اليدين وإحدى الرجلين من جانب واحد والمجنون الذى لا يعقل ، ولا يجوز إعتاق المدبر وأم الولد ، وكذا المكاتب الذى أدى بعض المال وإن اشترى أباه أو ابنه ينوى بالشراء الكفارة جاز عنها ، وإن أعتق نصف عبد مشترك وهو موسر فضمن قيمة باقيه لم يجز عند الامام ، وجاز عند صاحبيه ، وإن اعتق نصف عبده عن كفارته ثم جامع ثم أعتق باقيه لم يجزه عنده لأن الاعتاق يتجزأ عنده ، وشرط الاعتاق أن يكون قبل المسيس بالنص ، وإعتاق النصف حصل بعده ، وعندهما إعتاق النصف إعتاق الكل فحصل الكل قبل المسيس ، واشترط الشافعى عليه الرحمة كون الرقبة مؤمنة ولو تبعا لأصل . أو دار . أو ساب حملا للمطلق فى هذه الآية على المقيد فى آية القتل بجامع عدم الاذن فى السبب *

وقال الحنفية : لا يحمل المطلق على المقيد إلا فى حكم واحد فى حادثة واحدة لأنه حينئذ يلزم ذلك لزوماً عقليا إذ الشيء لا يكون نفسه مطلوبا إدخاله فى الوجود مطلقا ومقيداً كالصوم فى كفارة اليمين . ورد مطلقا ومقيداً بالتتابع فى القراءة المشهورة التى تجوز القراءة بمثلها ، والكلام فى تحقيق هذا الأصل فى الأصول *

وقالوا على تقدر التنزل إلى أصل الشافعية من الحمل مطلقا : إنه لا يلزم من التضييق فى كفارة الأمر الأعظم

(١) هكذا فى خط المؤلف ؛ ولعل هنا سقطاً فحرر اه

Marfat.com

وهو القتل ثبوت مثله فيماهو أخف منه ليكون التقييد فيه بيانا فى المطلق،وماذكروه من الجامع لايكفى،ووافقوا فى كثير مماعدا ذلك ، وخالفوا أيضا فى كثير فقالوا : يشترط فى الرقبة أن تكون بلاعيب يخل بالعمل والكسب فيجزىء صغير ولو عقب ولادته . وأقرع . وأعرج يمكنه من غير مشقة لاتحتمل عادة تتابع المشى . وأعور لم يضعف نظر سليمته حتى أخل بالعمل إخلالا بينا . وأصم . وأخرس يفهم إشارة غيره ويفهم غيره إشارته مما يحتاج اليه . وأخشم . وفاقد أنفه . وأذنيه . وأصابع رجليه . وأسنانه . وعنين . ومجبوب . ورتقاء . وقرناء . وأبرص . ومجذوم . وضعيف بطش . ومن لايحسن صنعة . وولد زنا . وأحمق - وهو من يضع الشىء فى غير محله مع علمه بقبحه - وآبق . ومغصوب . وغائب علمت حياته أو بانت وإن جهلت حالة العتق لازمن. وجنين وإن انفصل لدون ستة أشهر من الاعتاق . أوفاقد يد . أو رجل . أو أشل أحدهما . أوفاقد خنصر وبنصر معاً من يد . أوأنملتين من غيرهما . أو أنملة إبهام - كما قال النووى عليه الرحمة - ولاهرم عاجز ؛ ولامن هو فى أكثر وقته مجنون ولامريض لايرجى عند العتق برء مرضه - كسلال - فان برأ بعد إعتاقه بان الإجزاء فى الأصح.ولامن قدم لقتل بخلاف من تحتم قتله فى المحاربة قبل الرفع للامام،ولايجزى شراء أو تملك قريب أصل أو فرع بنية كفارة ولاعتق أم ولد ولاذو كتابة صحيحة قبل تعجيزه،ويجزى مدبر ومعلق عتقه بصفة غير التدبير،وقالوا : لو أعتق معسر نصفين له من عبدين عن كفارة فالأصح الإجزاء إن كان باقيهما أو باقى أحدهما حراً إلى غير ذلك ٭

وفى الاتيان بالفاء فى قوله تعالى : (فتحرير) الخ دلالة على ماقال بعض الأجلة : على تكرر وجوب التحرير بتكرر الظهار ، فاذا كان له زوجتان مثلا فظاهر من كل منهما على حدة لزمه كفارتان ٭

وفى التلويح لو ظاهر من امرأته مرتين أو ثلاثا فى مجلس واحد أو مجالس متفرقة لزمه بكل ظهار كفارة ، وفى إطلاقه بحث،فقد ذكر بعضهم أنه لو قصد التأكيد فى المجلس الواحد لم تتعدد ، وفى شرح الوجيز للغزالى ماحصله : لو قال لأربع زوجات : أنتن على كظهر أمى فان كان دفعة واحدة ففيه قولان ، وإن كان بأربع كلمات فأربع كفارات، ولو كررها - والمرأة واحدة - فإما أن يأتى بها متوالية أولا ، فعلى الأول إن قصد التأكيد فواحدة وإلا ففيه قولان : القديم - وبه قال أحمد - واحدة كما لو كرر اليمين على شىء واحد ، والقول الجديد التعدد - وبه قال أبو حنيفة . ومالك - وإذا لم تتوال أو قصد بكل واحدة ظهاراً أو أطلق ولم ينو التأكيد فكل مرة ظهار برأسه، وفيه قول : إنه لايكون الثانى ظهاراً إن لم يكفر عن الأول ، وإن قال : أردت إعادة الأول ففيه اختلاف بناءاً على أن الغالب فى الظهار أن معنى الطلاق أو اليمين لما فيه من الشبهين انتهى ٭

وظاهر بعض عبارات أصحابنا أنه لو قيد الظهار بعدد اعتبر ذلك العدد ، ففى التتارخانية لو قال لأجنبية : إن تزوجتك فأنت على كظهر أمى مائة مرة فعليه - أى إذا تزوجها - لكل كفارة ، وتدل الآية على أن الكفارة المذكورة قبل المسيس فان مس أثم ولا يعاود حتى يكفر ، فقد روى أصحاب السنن الأربعة عن ابن عباس أن رجلا - وهو سلمة بن صخر الانصارى كما فى حديث أبى داود . والترمذى . وغيرهما - ظاهر من امرأته فوقع عليها قبل أن يكفر فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ماحملك على ذلك ؟ ! فقال : رأيت خلخالها فى ضوء القمر - وفى لفظ بياض ساقها - قال عليه الصلاة والسلام : فاعتزلها حتى تكفر » ولفظ ابن ماجه «فضحك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأمره أن لايقربها حتى يكفر » قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب ، ونفى كونه صحيحاً رده المنذرى فى مختصره بأنه صححه الترمذى ورجاله ثقات مشهور سماع بعضهم من بعض ٭

Marfat.com

وروى الترمذى وقال : حسن غريب عن ابن إسحق بالسند إلى سلمة المذكور عن النبى ﷺ أنه قال فى المظاهر يواقع قبل أن يكفر : « كفارة واحدة تلزمه » ويرد به على مجاهد فى قوله : يلزمه كفارة أخرى ، ونقل هذا عن عمرو بن العاص . وقبيصة . وسعيد بن جبير . والزهرى . وقتادة ، وعلى من قال تلزمه ثلاث كفارات ، ونقل ذلك عن الحسن . والنخعى ، وبه . وبما تقدم يرد على ماقيل : من أنه تسقط الكفارة الواجبة عليه ولا يلزمه شىء ولا ترتفع حرمة المسيس إلا بها لا بملك ولا بزوج ثان حتى لو طلقها من بعد الظهار ثلاثا فعادت اليه من بعد زوج آخر أو كانت أمة فملكها بعد ماظاهر منها لا يحل قربانها حتى يكفر ، وهو واجب على التراخى - على الصحيح - لكون الأمر الدالة عليه الآية مطلقا حتى لا يأثم بالتأخير عن أول أوقات الامكان ، ويكون مؤديا لا قاضياً ، ويتعين فى آخر عمره ، ويأثم بموته قبل الأداء ، ولا تؤخذ من تركته إن لم يوص ولو تبرع الورثة فى الاعتاق ، وكذا فى الصوم لا يجوز - كذا فى البدائع - فان أوصى كان من الثلث ، وفى التاتارخانية لو كان مريد التكفير مريضا فأعتق عبده عن كفارته وهو لا يخرج من ثلث ماله فمات من ذلك المرض لا يجوز عن كفارته وإن أجازت الورثة ، ولو أنه برئ من مرضه جاز ، وللمرأة مطالبته بالوطء والتكفير ؛ وعليها أن تمنعه من الاستمتاع بها حتى يكفر ، وعلى القاضى أن يجبره على التكفير دفعاً للضرر عنها بحبس فان أبى ضربه ؛ ولو قال : قد كفرت صدق مالم يكن معروفا عند الناس بالكذب *

هذا وبقيت مسائل أخر مذكورة فى كتب الفقه ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ الاشارة إلى الحكم بالكفارة والخطاب للمؤمنين الموجودين عند النزول أو لهم ولغيرهم من الأمة ﴿ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ أى تزجرون به عن ارتكاب المنكر ، فان الغرامات مزاجر عن تعاطى الجنايات ، والمراد بيان أن المقصود من شرع هذا الحكم ليس تعريضكم للثواب بمباشرتكم لتحرير الرقبة الذى هو علم فى استتباع الثواب العظيم بل هو ردعكم وزجركم عن مباشرة مايوجبه كذا فى الارشاد ، وهو ظاهر فى كون الكفارة عقوبة محضة ، وقد تقدم القول بأنها دائرة بين العبادة والعقوبة ، وكلام الزيلعى يدل على أن جهة العبادة فيها أغلب ، وفى شرح منهاج النووى لابن حجر فى كتاب كفارة الظهار الكفارة من الكفر وهو الستر لسترها الذنب بمحوه أو تخفيف إثمه بناءً على أن الكفارات زواجر كالتعازير أو جوابر للخلل ، ورجح ابن عبد السلام الثانى لأنها عبادة لافتقارها للنية أى ففى كسجود السهو *

والفرق بينها - على الثانى - وبين الدفن الكفارة للبصق على ماهو المقرر فيه أنه يقطع دوام الاثم أن الدفن مزيل لعين مابه المعصية فلم يبق بعده شىء يدوم إثمه بخلافها هنا فانها ليست كذلك ، وعلى الأول الممحو هو حق الله تعالى من حيث هو حقه ، وأما بالنظر لنحو الفسق بموجبها فلا بد فيه من التوبة نظير نحو الحد انتهى *

ومتى قيل : بأن الاعتاق المذكور كفارة وأن الكفارة تستر الذنب بمحوه أو تخفيف إثمه لم يكن بد من استتباعه الثواب وكون ذلك لا يعد ثوابا لا يخلو عن نظر ؛ ولعل المراد أن المقصود الأعظم من شرع هذا الحكم الردع والزجر عن مباشرة مايوجبه دون التعريض للثواب ، وإن تضمنه فى الجملة فتأمل ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال كالتكفير ومايوجبه من جناية الظهار ﴿ خَبِيرٌ ٣ ﴾ أى عالم بظواهرها وبواطنها ومجازيكم بها فحافظوا على حدود ماشرع لكم ولا تخلو بشىء منها ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾

Marfat.com

أى فمن لم يجد رقبة فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين من قبل التماس ، والمراد - بمن لم يجد - من لم يملك رقبة ولا ثمنها فاضلا عن قدر كفايته لأن قدرها مستحق الصرف فصار كالعدم ، وقدر الكفاية من القوت المحترف قوت يوم . وللذى يعمل قوت شهر - على ما فى البحر - ومن له عبد يحتاج لخدمته واجد فلا يجزئه الصوم ، وهذا بخلاف من له مسكن لأنه كلباسه ولباس أهله ، وعند الشافعية المراد به من لم يملك رقبة أو ثمنها فاضلا كل منهما عن كفاية نفسه وعياله العمر الغالب نفقة وكسوة وسكنى وأثاثاً لا بد منه ، وعن دينه ولو مؤجلا ۞

وقالوا : إذا لم يفضل القن أو ثمنه عما ذكر لاحتياجه لخدمته لمنصب يأبى خدمته بنفسه أو ضخامة كذلك بحيث يحصل له بعتقه مشقة شديدة لاتحتمل عادة ولا أثر لفوات رفاهية أو مرض به أو بمونه فلا عتق عليه لأنه فاقد شرعا - كمن وجد ماءاً وهو يحتاجه لعطش - وإلى اعتبار كون ذلك فاقداً - كواجد الماء المذكور - ذهب الليث أيضاً ۞

والفرق عندنا على ماذكره الرازى فى أحكام القرآن أن الماء مأمور بإمساكه لعطشه واستعماله محظور عليه بخلاف الخادم ، واليسار والاعسار معتبران وقت التكفير والأداء ، وبه قال مالك ، وعن الشافعى أقوال فى وقتهما أظهرها كما هو عندنا ، قالوا : لأن الكفارة أعنى الاعتاق عبادة لها بدل من غير جنسها كوضوء وتيمم وقيام صلاة وقعودها فاعتبر وقت أدائها ، وغلب الثانى كمذهب أحمد . والظاهرية شائبة العقوبة فاعتبر وقت الوجوب - كما لو زنى قن ثم عتق فانه يحد حد القن - والثالث الأغلظ من الوجوب إلى الأداء ، والرابع الأغلظ منهما ، وأعرض عما بينهما ۞

ومن يملك ثمن رقبة إلا أنه دين على الناس فان لم يقدر على أخذه من مديونه فهو فاقد فيجزئه الصوم وإن قدر فواجد فلا يجزئه وإن كان له مال ووجب عليه دين مثله فهو فاقد بعد قضاء الدين ، وأما قبله فقيل فاقد أيضاً بناءاً على قول محمد أنه تحل له الصدقة المشير إلى أن ماله لكونه مستحقاً الصرف إلى الدين ملحق بالعدم حكما ، وقيل : واجد لأن ملك المديون فى ماله كامل بدليل أنه يملك جميع التصرفات فيه ۞

وفى البدائع لو كان فى ملكه رقبة صالحة للتكفير فعليه تحريرها سواء كان عليه دين أو لم يكن لأنه واجد حقيقة ، وحاصله أن الدين لا يمنع تحرير الرقبة الموجودة ، ويمنع وجوب شرائها بما عنده من مثل الدين على أحد القولين ، والظاهر أن الشراء متى وجب يعتبر فيه ثمن المثل ، وصرح بذلك النووى . وغيره من الشافعية فقالوا : لا يجب شراء الرقبة بغبن أى زيادة على ثمن مثلها نظير ما يذكر فى شراء الماء للطهارة ، والفرق بينهما بتكرر ذلك ضعيف ، وعلى الأول - كما قال الاذرعى . وغيره نقلا عن الماوردى واعتمدوه - لا يجوز العدول للصوم بل يلزمه الصبر إلى الوجود بثمن المثل ، وكذا لو غاب ماله فيكلف الصبر إلى وصوله أيضا ، ولا نظر إلى تضررهما بفوات التمتع مدة الصبر لأنه الذى ورط نفسه فيه انتهى ۞

وما ذكروه فيما لو غاب ماله موافق لمذهبنا فيه ولو كان عليه كفارتا ظهار لامرأتين وفى ملكه رقبة فقط فصام عن ظهار إحداهما ، ثم أعتق عن ظهار الأخرى ، ففى المحيط فى نظير المسألة مايقتضى عدم إجزاء الصوم عن الأولى قال : عليه كفارتا يمين ، وعنده طعام يكفى لإحداهما فصام عن إحداهما ثم أطعم عن الأخرى لا يجوز صومه لأنه صام وهو قادر على التكفير بالمال فلا يجزئه ، ويعتبر الشهر بالهلال فلا فرق بين التام والناقص

Marfat.com

فمن صام بالأهلة واتفق أن كل شهر تسعة وعشرون حتى صار مجموع الشهرين ثمانية وخمسين أجزأه ذلك وإن غم الهلال اعتبر - كما فى المحيط - كل شهر ثلاثين وإن صام بغير الأهلة فلا بدّ من ستين يوما كما فى فتح القدير ، ويعتبر الشهر بالهلال عند الشافعية أيضاً ، وقالوا : إن بدأ فى أثناء شهر حسب الشهر بعده بالهلال لتمامه وأتم الاول من الثالث ثلاثين لتعذر الهلال فيه بتلفقه من شهرين ، وعلى هذا يتفق كون صيامه ستين وكونه تسعة وخمسين ، ولا يتعين الأول كما لا يخفى فلا تغفل ، وإن أفطر يوما من الشهرين ولو الأخير بعذر من مرض أو سفر لزم الاستئناف لزوال التتابع وهو قادر عليه عادة ، وقال أبو حيان : إن أفطر بعذر كسفر فقال ابن المسيب. والحسن . وعطاء . وعمرو بن دينار . والشعبي . ومالك . والشافعى فى أحد قوليه : يبنى اه ، وإن جامع التى ظاهر منها فى خلال الشهرين ليلا عامداً أو نهاراً ناسياً استأنف الصوم عند أبى جنيفة . ومحمد ، وقال أبو يوسف: لا يستأنف لأنه لا يمنع التتابع إذ لا يفسد به الصوم وهو الشرط ، ولهما أن المأمور به صيام شهرين متتابعين لا مسيس فيهما فاذا جامعها فى خلالها لم يأت بالمأمور به ، وإن جامع زوجة أخرى غير المظاهر منها ناسياً لا يستأنف عند الامام أيضا كما لو أكل ناسياً لأن حرمة الأكل والجماع إنما هو للصوم لئلا ينقطع التتابع ولا ينقطع بالنسيان فلا استئناف بخلاف حرمة جماع المظاهرة فانه ليس للصوم بل لوقوعه قبل الكفارة ، وتقدمها على المسيس شرط حلها ، فبالجماع ناسياً فى أثنائه يبطل حكم الصوم المتقدم فى حق الكفارة ، ثم إنه يلزم فى الشهرين أن لا يكون فيهما صوم رمضان لأن التتابع منصوص عليه وشهر رمضان لا يقع عن الظهار لما فيه من إبطال ما أوجب الله تعالى ، وأن لا يكون فيهما الأيام التى نهى عن الصوم فيها وهى يوما العيدين وأيام التشريق لأن الصوم فيها ناقص بسبب النهى عنه فلا ينوب عن الواجب الكامل ٭

وفى البحر : المسافر فى رمضان له أن يصومه عن واجب آخر ، وفى المريض روايتان ، وصوم أيام نذر معينة فى أثناء الشهرين بنية الكفارة لا يقطع التتابع ، ومن قدر على الاعتاق فى اليوم الأخير من الشهرين قبل غروب الشمس وجب عليه الاعتاق لأن المراد استمرار عدم الوجود إلى فراغ صومهما وكان صومه حينئذ تطوعا ، والأفضل إتمام ذلك اليوم وإن أفطر لا قضاء عليه لأنه شرع فيه مسقطاً لا ملتزما خلافا لزفر ٭

وفى تحفة الشافعية لو بان بعد صومهما أن له مالا ورثه ولم يكن عالما به لم يعتد بصومه على الأوجه اعتباراً بما فى نفس الأمر أى وهو واجد بذلك الاعتبار ، وليس فى بالى حكم ذلك عند أصحابنا ، ومقتضى ظاهر ماذكروه فيمن تيمم وفى رحله ماء وضعه غيره ولم يعلم به من صحة تيممه الاعتداد بالصوم ههنا ، وقد صرح الشافعية فيمن أدرج فى رحله ماءاً ولم يقصر فى طلبه أو كان بقربه بئر خفية الآثار بعدم بطلان تيممه فلينظر الفرق بين ماهنا وماهناك ، ولعله التغليظ فى أمر الكفارة دون التيمم فليراجع ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ﴾ أى صيام شهرين متتابعين ، وذلك بأن لم يستطع أصل الصيام أو بأن لم يستطع تتابعه لسبب من الأسباب ككبر أو مرض لا يرجى زواله كما قيده بذلك ابن الهمام . وغيره - وعليه أكثر الشافعية - وقال الاقلون منهم - كالامام ومن تبعه - وصححه فى الروضة : يعتبر دوامه فى ظنه مدة شهرين بالعادة الغالبة فى مثله أو بقول الأطباء ، قال ابن حجر : ويظهر الاكتفاء بقول عدل منهم ، وصرح الشافعية بأن من تلحقه بالصيام أو تتابعه مشقة شديدة لا تحتمل عادة وإن لم تبح التيمم فيما يظهر غير مستطيع ، وكذا من خاف زيادة مرض ، وفى حديث أوس على ماذكر أبو حيان أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ فقال : والله يارسول الله

Marfat.com

إنى إذا لم آكل فى اليوم والليلة ثلاث مرات كل بصرى وخشيت أن تعشو عينى » الخبر ، وعدوا من أسباب عدم الاستطاعة الشبق وهو شدة الغلمة ٭

واستدل له بما أخرج الامام أحمد . وأبو داود . وابن ماجه . والترمذى وحسنه . والحاكم وصححه . وغيرهم عن سلمة بن صخر قال : كنت رجلا قد أوتيت من جماع النساء مالم يؤت غيرى فلما دخل رمضان ظاهرت من امرأتى حتى ينسلخ رمضان فرقا من أن أصيب منها فى ليلى فأتتابع فى ذلك ولا أستطيع أن أنزع حتى يدركنى الصبح فبينما هى تخدمنى ذات ليلة إذ تكشف لى منها شئ فوثبت عليها ـ إلى أن قال ـ فخرجت فأتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبرته بخبرى فقال : «أنت بذاك ؟ قلت : أنا بذاك ، فقال : أنت بذاك ؟ قلت : أنا بذاك وها أنا ذا فامض فى حكم الله تعالى فانى صابر لذلك قال : أعتق رقبة فضربت صفحة عنقى بيدى فقلت : لا والذى بعثك بالحق ماأصبحت أملك غيرها ، قال : فصم شهرين متتابعين ، فقلت : وهل أصابنى ما أصابنى إلا فى الصيام ، قال : فأطعم ستين مسكيناً » الحديث فانه أشار بقوله : «وهل أصابنى» الخ إلى شدة شبقه الذى لا يستطيع معه صيام شهرين متتابعين ، وإنما لم يكن عذراً فى صوم رمضان قال ابن حجر : لأنه لابدل له ، وذكر أن غلبة الجوع ليست عذراً ابتداءاً لفقده حينئذ فيلزمه الشروع فى الصيام فاذا عجز عنه أفطر . وانتقل عنه للاطعام بخلاف الشبق لوجوده عند الشروع فيدخل صاحبه فى عموم قوله تعالى : (فمن لم يستطع) ٭

﴿ فَاطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ لكل مسكين نصف صاع من بر . أو صاع من تمر . أو شعير ودقيق كل كأصله ، وكذا السويق ، وذلك لأخبار ذكرها ابن الهمام فى فتح القدير ، والصاع أربعة أمداد ٭

وقال الشافعية : لكل مسكين مد لأنه صح فى رواية ، وصح فى الأخرى صاع ، وهى محمولة على بيان الجواز الصادق بالندب لتعذر النسخ (١) فتعين الجمع بما ذكر مما يكون فطرة بأن يكون من غالب قوت محل المكفر فى غالب السنة كالأقط ـ ولو للبلدى ـ فلا يجزىء نحو دقيق مما لايجزى فى الفطرة عندهم ، ومذهب مالك كما قال أبو حيان مد وثلث بالمد النبوى ، وروى عنه ابن وهب مدان ٭

وقيل : مد وثلثا مد ، وقيل : مايشبع من غير تحديد ، ولا فرق بين التمليك والاباحة عندنا فان غدى الستين وعشاهم أو غداهم مرتين أو عشاهم كذلك أو غداهم وسحرهم أو سحرهم مرتين وأشبعهم بخبز بر أو شعير أو نحوه كذرة بإدام أجزأه ، وإن لم يبلغ ماشبعوا به المقدار المعتبر فى التمليك ، ويعتبر اتحاد الستين فلو غدى مثلا ستين مسكينا وعشى ستين غيرهم لم يجز إلا أن يعيد على إحدى الطائفتين غداء أو عشاء ، ولو أطعم مائة وعشرين مسكيناً فى يوم واحد أكلة واحدة مشبعة لم يجز إلا عن نصف الإطعام فان أعاده على ستين منهم أجزأه ، واشترط الشافعية التمليك اعتباراً بالزكاة وصدقة الفطر ، وهذا لأن التمليك أدفع للحاجة فلا ينوب منابه الاباحة ، ونحن نقول : المنصوص عليه هنا هو الاطعام وهو حقيقة فى التمكين من الطعم ، وفى الإباحة ذلك كما فى التمليك ، وفى الزكاة الإيتاء ، وفى صدقة الفطر الأداء ، وهما للتمليك حقيقة ـ كذا فى الهداية ـ قال العلامة ابن الهمام : لا يقال : اتفقوا على جواز التمليك فلو كان حقيقة الاطعام ماذكر كان مشتركا معمما أو فى حقيقته ومجازه لأنا نقول : جواز التمليك عندنا بدلالة النص ، والدلالة لاتمنع العمل بالحقيقة كما فى حرمة الشتم والضرب مع التأفيف

(١) قوله : لتعذر النسخ فيه تأمل انتهى منه

Marfat.com

فكذا هذا فلما نص على دفع حاجة الأكل فالتمليك الذى هو سبب لدفع كل الحاجات التى من جملتها الأكل أجوز فانه حينئذ دافع لحاجة الأكل وغيره ، وذكر الوانى أن الاطعام جعل الغير طاعماً أى آكلا لأن حقيقة طعمت الطعام أكلته ، والهمزة تعديه إلى المفعول الثانى أى جعلته آكلا ، وأما نحو أطعمتك هذا الطعام فيكون هبة وتمليكا بقرينة الحال ، قالوا : والضابط أنه إذا ذكر المفعول الثانى فهو للتمليك وإلا فللاباحة ، هذا والمذكور فى كتب اللغة أن الإطعام إعطاء الطعام وهو أعم من أن يكون تمليكا أو إباحة انتهى فلا تغفل ٥

ويجوز الجمع بين الاباحة والتمليك لبعض المساكين دون البعض كما إذا ملك ثلاثين وأطعم ثلاثين غداءاً وعشاءاً وكذا لرجل واحد فى إحدى روايتين كأن غداه مثلا وأعطاه مداً وإن أعطى مسكيناً واحداً ستين يوما أجزأه وإن أعطاه فى يوم واحد لم يجزه إلا عن يومه لأن المقصود سد خلة المحتاج، والحاجة تتجدد فى كل يوم ، فالدفع اليه فى اليوم الثانى كالدفع اليه فى غيره ، وهذا فى الاباحة من غير خلاف ، وأما التمليك من مسكين واحد بدفعات فقد قيل : لايجزيه ، وقيل : يجزيه لأن الحاجة إلى التمليك قد تتجدد فى يوم واحد بخلاف ما إذا دفع بدفعة لأن التفريق واجب بالنص ، وخالف الشافعية ، فقالوا : لابد من الدفع إلى ستين مسكيناً حقيقة فلا يجزئ الدفع لواحد فى ستين يوما ، وهو مذهب مالك ، والصحيح من مذهب أحمد - وبه قال أكثر العلماء - لأنه تعالى نص على ستين مسكينا ، وبتكرر الحاجة فى مسكين واحد لايصير هو ستين فكان التعليل بأن المقصود سد خلة المحتاج الخ مبطلا لمقتضى النص فلايجوز ، وأصحابنا أشد موافقة لهذا الأصل ، ولذا قالوا : لايجزىء الدفع لمسكين واحد وظيفة ستين بدفعة واحدة معللين له بأن التفريق واجب بالنص مع أن تفريق الدفع غير مصرح به ، وإنما هو مدلول التزامى لعدد المساكين فالنص على العدد أولى لأنه المستلزم ، وغاية مايعطيه كلامهم أنه بتكرر الحاجة يتكرر المسكين حكما فكان تعدداً حكما ، وتمامه موقوف على أن ستين مسكينا فى الآية مراد به الأعم من الستين حقيقة أو حكما ٥

ولايخفى أنه مجاز فلا مصير اليه بموجبه ، فان قلت : المعنى الذى باعتباره يصير اللفظ مجازاً ويندرج فيه التعدد الحكمى ماهو ؟ قلت : هو الحاجة فيكون ستين مسكينا مجازاً عن ستين حاجة ، وهو أعم من كونها حاجات ستين أو حاجات واحد إذا تحقق تكررها إلا أن الظاهر إنما هو عدد معدوده ذوات المساكين مع عقلية أن العدد مما يقصد لما فى تعميم الجميع من بركة الجماعة وشمول المنفعة واجتماع القلوب على المحبة والدعاء - قاله فى فتح القدير - وهو كلام متين يظهر منه ترجيح مذهب الجمهور ، وذهب الأصحاب إلى أنه لايشترط اتحاد نوع المدفوع لكل من المساكين فلو دفع لواحد بعضاً من الحنطة وبعضاً من الشعير مثلا جاز إذا كان المجموع قدر الواجب كأن دفع ربع صاع من بر ونصف صاع من شعير ، وجاز نحو هذا التكميل لاتحاد المقصود - وهو الاطعام - ولايجوز دفع قيمة القدر الواجب من منصوص عليه ، وهو البر . والشعير . ودقيق كل . وسويقه . والزبيب . والتمر إذا كانت من منصوص عليه آخر إلا أن يبلغ المدفوع القيمة المقدرة شرعا فلو دفع نصف صاع تمر يبلغ قيمة نصف صاع بر لايجوز ، فالواجب عليه أن يدفع للذين أعطاهم القدر المقدر من ذلك الجنس الذى دفعه اليهم فان لم يجدهم بأعيانهم استأنف فى غيرهم ، ومن غير المنصوص كالأرز . والعدس يجوز كما إذا دفع ربع صاع من أرز يساوى قيمة نصف صاع من بر مثلا ، وذلك لأنه لااعتبار لمعنى النص فى المنصوص عليه وإنما الاعتبار فى غير المنصوص عليه ، ونقل فى ذلك خلاف الشافعى رحمه الله تعالى فلايجوز دفع القيمة عنده مطلقاً ،

Marfat.com

ولايجوز فى الكفارة إعطاء المسكين أقل من نصف صاع من البر مثلا فقط ، فنى التاتارخانية لو أعطى ستين مسكيناً كل مسكين مدّاً من الحنطة لم يجز ، وعليه أن يعيد مدّاً آخر على كل فان لم يجد الأولين فأعطى ستين آخرين كلامداً لم يجز ، ولو أعطى كلا من المساكين مدّاً ثم استغنوا ثم افتقروا فأعاد على كل مدّاً لم يجز ، وكذا لو أعطى المكاتبين مدّاً مدّاً ثم ردوا إلى الرق ومواليهم أغنياء ثم كوتبوا ثانياً ثم أعاد عليهم لم يجز لأنهم صاروا بحال لايجوز دفع الكفارة اليهم فصاروا كجنس آخر ، وعليه فالمراد - بستين مسكيناً - ستون مسكيناً لم يعرض لهم فى أثناء الإطعام ماينافى ذلك، والظاهر أن فاعل إطعام هو المظاهر الغير المستطيع للصيام ، ولافرق بين أن يباشر ذلك أو يأمر به غيره ، فان أمر غيره فأطعم أجزأ لأنه استقراض معنى ، فالفقير قابض له أولا ثم يتحقق تملكه ثم تمليكه ، والمراد بالمسكين مايعم الفقير ، وقد قالوا : المسكين والفقير إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا ، ويشترط أن لايكون المطعم أصله . أوفرعه . أو زوجته . أومملوكه . أوهاشميا لمزيد شرفه فيجل عن هذه الغسالة ، ولاحربيا ولو مستأمنا لمزيد خسته فليس أهلا لأدنى منفعة ، ويجوز أن يكون ذمياً ولو دفع بتحرّ فبان أنه ليس بمصرف أجزأه عندهما خلافا لأبى يوسف كما فى البدائع ٭

واستنبط الشافعية من التعبير بعدم الوجود عند الانتقال إلى الصوم ، وبعدم الاستطاعة عند الانتقال إلى الإطعام أنه لو كان له مال غائب ينتظره ولايصوم ولو كان مريضاً يرجى برؤه يطعم ولا ينتظر الصحة ليصوم ، وهو موافق لمذهبنا فى الصوم لافى الاطعام كما سمعت ، ثم هذا الحكم فى الأحرار أما العبد فلايجوز له إلا الصوم لأنه لايملك وإن ملك والاعتاق والاطعام شرطهما الملك فان أعتق عنه المولى أو أطعم لم يجز ولو بأمره ، ويجب تقديم الاطعام على المسيس فان قرب المظاهر المظاهرة فى خلاله أثم ، ولم يستأنف لأنه عز وجل ماشرط فيه أن يكون قبل المسيس كما شرط فيما قبل ، ونحن لانحمل المطلق على المقيد وإن كانا فى حادثة واحدة بعد أن يكونا حكمين ، والوجوب قيل : لم يثبت إلا لتوهم وقوع الكفارة بعد التماس بيانه أنه لو قدر على العتق أو الصيام فى خلال الاطعام أو قبله يلزمه التكفير بالمقدور عليه فلو جوز للعاجز عنهما القربان قبل الاطعام، ثم اتفق قدرته فلزم التكفير به لزم أن يقع العتق بعد التماس ، والمفضى إلى الممتنع ممتنع ٭

وتعقب بأن فيه نظراً فان القدرة حال قيام العجز بالفقر والكبر والمرض الذى لايرجى زواله أمر موهوم، وباعتبار الأمور الموهومة لاتثبت الأحكام ابتداءاً بل يثبت الاستحباب ورعا فالأولى الاستدلال على حرمة المسيس قبل الاطعام لمن يتعين كفارة له بما ورد من حديث «اعتزلها حتى تكفر» ونحوه ، وماذكر من أنه لو قدر على العتق مثلا خلال الاطعام لزم التكفير به خالف فيه الشافعية ٭

قال ابن حجر عليه الرحمة : لاأثر لقدرته على صوم أو عتق بعد الاطعام ولو لمدّ كما لو شرع فى صوم يوم من الشهرين فقدر على العتق ، وأجاز بعض المسيس فى خلال الاطعام من غير إثم ، ونقل ذلك عن أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه وهو توهم نشأ من عدم إيجابه الاستئناف، وقد صرح فى الكشاف بأنه لافرق عند أبى حنيفة بين الكفارات الثلاث فى وجوب تقديمها على المساس وإن ترك ذكره عند الاطعام للدلالة على أنه إذا وجد فى خلال الاطعام لم يستأنف كما يستأنف الصوم ٭

وجعل بعضهم ذكر القيد فيما قبل وتركه فى الاطعام دليلا لأبى حنيفة فى قوله : بعدم الاستئناف أى مع الاثم ٭

وتعقبه ابن المنير فى الانتصاف بأن لقائل أن يقول لأبى حنيفة : إذا جعلت الفائدة فى ذكر عدم التماس

Marfat.com

فى بعضها وإسقاطه من بعضها الفرق بين أنواعها فلم جعلته مؤثراً فى أحد الحكمين دون الآخر ؟ وهل التخصيص إلا نوع من التحكم ؟ ثم قال : وله أن يقول : اتفقنا على التسوية بين الثلاث فى هذا الحكم أعنى حرمة المساس قبل التكفير، وقد نطقت الآية بالتفرقة فلم يمكن صرفها إلى ماوقع الاتفاق على التسوية فيه فتعين صرفه إلى الآخر ، هذا منتهى النظر مع أبى حنيفة ؛ وأطال الكلام فى هذا المقام بما لايخلو عن بحث على أصول الامام ه

وإذا عجز المظاهر عن الجميع قال الشافعية : استقرت فى ذمته فاذا قدر على خصلة فعلها ولا أثر لقدرته على بعض عتق أو صوم بخلاف بعض الطعام ولو بعض مايجب لواحد من المساكين فيخرجه ، ثم الباقى إذا أيسر ، والظاهر بقاء حرمة المسيس إلى أن يؤدى الكفارة تماما ولم يبال باضرار المرأة بذلك لأن الايسار مترقب كزوال المرض المانع من الجماع ، ولم أراجع حكم المسألة فى الظهار عند الحنفية ، وأما فى الجماع فى نهار رمضان الموجب للكفارة فقد قال ابن الهمام بعد نقل حديث الاعرابى الواقع على امرأته فيه العاجز عن الخصال الثلاثة ، وفيه : «فأتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعرق فيه تمر فقال : تصدق به ، فقال : أعلى أفقر منى يارسول الله ؟ فو الله مابين لابتيها أفقر منى ولا أهل بيت أفقر من أهل بيتى ، فضحك صلى الله تعالى عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال : خذه فأطعمه أهلك » فى لفظ لأبى داود ـ زاد الزهرى ـ وإنما كان هذا رخصة له خاصة، ولو أن رجلا فعل ذلك اليوم لم يكن له بد من التكفير ، وجمهور العلماء على قوله ، وذكر النووى فى شرح صحيح مسلم أن للشافعى فى هذا العاجز قولين : أحدهما لاشئ عليه ـ واحتج له بحديث الاعرابى المذكور لأنه عليه الصلاة والسلام لم يقل له : إن الكفارة ثابتة فى ذمته بل أذن له فى إطعام عياله ـ والثانى ـ وهو الصحيح عند أصحابنا وهو المختار ـ أن الكفارة لاتسقط بل تستقر فى ذمته حتى يتمكن قياسا على سائر الديون والحقوق والمؤاخذات كجزاء الصيد وغيره ، وأما الحديث فليس فيه نفى استقرار الكفارة بل فيه دليل لاستقرارها لأنه أخبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالعجز عن الخصال ثم أتى عليه الصلاة والسلام بعرق التمر فأمره باخراجه فى الكفارة فلو كانت تسقط بالعجز لم يكن عليه شىء فلم يأمره بالاخراج فدل على ثبوتها فى ذمته ، وإنما أذن له فى إطعام عياله لانه محتاج إلى الانفاق عليهم فى الحال والكفارة واجبة على التراخى ، وإنما لم يبين عليه الصلاة والسلام بقاءها فى ذمته لأن تأخير البيان إلى وقت الحاجة جائز عند جماهير الأصوليين فهذا هو الصواب فى معنى الحديث ، وحكم المسألة وفيها أقوال وتأويلات أخر ضعيفة انتهى *

ومن الناس من قال : لم يكن هناك تأخير بيان وإنما اكتفى صلى الله تعالى عليه وسلم بفهم الاعرابى عن التصريح له بالاستقرار ، والاخبار فى وقوع مثل ذلك للمظاهر مضطربة كما لايخفى على من راجع الدر المنثور للسيوطى *

ومسائل الظهار كثيرة والمذاهب فى ذلك مختلفة ، ومن أراد كمال الاطلاع فليرجع إلى كتب الفروع ، ولولا التأسى ببعض الأجلة لما ذكرنا شيئاً منها ، ومع هذا لايخلو أكثره عن تعلق بتفسير الآية والله تعالى أعلم ه

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مامر من البيان والتعليم ، ومحله إما الرفع على الابتداء أو النصب بمضمر معلل بما بعده أى ذلك واقع أو فعلنا ذلك ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وتعملوا بشرائعه التى شرعها لكم وترفضوا ما كنتم

Marfat.com

عليه فى جاهليتكم ﴿ وَتِلْكَ ﴾ الاحكام المذكورة ﴿ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ التى لايجوز تعديها فالزموها وقفوا عندها ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ ﴾ أى الذين يتعدونها ولا يعملون بها ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤ ﴾ على كفرهم وأطلق الكافر على متعدى الحدود تغليظاً لزجره ، ونظير ذلك قوله تعالى : (ومن كفر فان الله غنى عن العالمين) *

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أى يعادونهما ويشاقونهما لان كلامن المتعاديين فى حد وجهة غير حد الآخر وجهته كما أن كلامنهما فى عدوة وشق غير عدوة الآخر وشقه ، وقيل : إطلاق ذلك على المتعاديين باعتبار استعمال الحديد لكثرة ما يقع بينهما من المحاربة بالحديد كالسيوف والنصال وغيرها ، والأول أظهر ، وفى ذكر المحادة فى أثناء ذكر حدود الله تعالى دون المعاداة والمشاقة حسن موقع جاوز الحد ، وقال ناصر الدين البيضاوى : أو يضعون أو يختارون حدوداً غير حدود الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ومناسبته لماقبله فى غاية الظهور *

قال المولى شيخ الاسلام سعد الله جلبى : وعلى هذا ففيه وعيد عظيم للملوك وأمراء السوء الذين وضعوا أموراً خلاف ماحده الشرع وسموها اليسا والقانون (١) ، والله تعالى المستعان على مايصفون اه ، وقال شهاب الدين الخفاجى بعد نقله : وقد صنف العارف بالله الشيخ بهاء الدين قدس الله تعالى روحه رسالة فى كفر من يقول : يعمل بالقانون والشرع إذا قابل بينهما ، وقد قال الله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم) وقد وصل الدين إلى مرتبة من الكمال لايقبل التكميل ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، ولكن أين من يعقل ؟ ! انتهى *

وليتنى رأيت هذه الرسالة ووقفت على مافيها فان إطلاق القول بالكفر مشكل عندى فتأمل ، ثم إنه لاشبهة فى أنه لا بأس بالقوانين السياسية (٢) إذا وقعت باتفاق ذوى الآراء من أهل الحل والعقد على وجه يحسن به

---

(١) قوله : اليسا هو بياء مثناة تحتية وسين مهملة وضع قانون للمعاملة ، ويقال : يسق لفظ غير عربى كذا قاله الشهاب ، ورأيت فى بعض كتب اللغة التركية أن يصاق بفتح الياء والصاد المهملة بعدها ألف بعدها قاف معناه المنع اه منه *

(٢) أرسل الينا الفاضل الأديب الاستاذ الشيخ محمد بهجة الأثرى مقالة تتعلق بالقوانين السياسية ، وأخبرنا أنه وجدها بهامش نسخة الأصل المخطوطة بخط أحد تلاميذ المؤلف رحمه الله تعالى فوضعناها فى مكانها إتماما للفائدة *

يقول محمد بهجة الاثرى البغدادى :

قوله : ثم إنه لاشبهة فى أنه لا بأس بالقوانين السياسية — إلى قوله — كما لايخفى على العارف النبيه ليس للمؤلف وإنما وجدته على هامش الأصل بخط أحد تلاميذه وقد كتبه عوضا عن بحث نفيس لصاحب التفسير فى ﴿ القانون والشرع ﴾ لم تسمح السلطة الغاشمة بنشره وإليك نص ذلك نقلا عن خطه ، قال : وليتنى رأيت هذه الرسالة ووقفت على مافيها فان إطلاق القول بالكفر مشكل عندى *

نعم لاشك فى كفر من يستحسن القانون ويفضله على الشرع ويقول : هو أوفق بالحكمة وأصلح للامة ، ويتميز غيظاً ويتقصف غضباً إذا قيل له فى أمر : أمر الشرع فيه كذا كما شاهدنا ذلك فى بعض من خذلهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ، وهذا القانون الذى ذكروه قد نقصت منه اليوم أمور . وزيدت فيه أمور . وسمى بالأصول ، وألفت فيها رسائل وطبعت ونشرت وفرقت وألزم العمل بما حوتها كل أمير ومأمور وعقدت مجالس الشورى عليها ، ورجع فى احكام الأحكام اليها ومن خالفها نكل تنكيلا ، وربما حبس حبساً طويلا ، وكم قد قال لى بعض الولاة : —

Marfat.com

ـــإياك أن تقول فى مجلسنا : المسألة شرعا كذا، وقد أصابنى منه عامله الله بعدله لعدولى عن قوله مزيد الأذى ، واتفق أن قال لى بعض خاصته يوماً : أرى ثلثى الشرع شراً ، فقلت له ـــ وإن كنت عالما أن فى أذنيه وقراً ـــ : نعم ظهر الشر لما أذهبتم من الشرع العين ، ولم تأخذوا من اسمه سوى حرفين ؛ فتأمل العبارة وتغير وجهه لما فهم الاشارة ، والذى ينبغى أن يقال فى ذلك : إن ما يرجع من تلك الأصول إلى ما يتعلق بسوق الجيوش وتعبئتهم وتعليمهم ما يلزم فى الحرب مما يغلب على الظن الغلبة به على الكفرة وما يتعلق بأحكام المدن والقلاع ونحو ذلك لا بأس فى أكثره على ما نعلم ، وكذا ما يتعلق بجزاء ذوى الجنايات التى لم يرد فيها عن الشارع حد مخصوص بل فوض التأديب عليها إلى رأى الامام كأنواع التعاذير ، وللامام أن يستوفى ذلك وإن عفا المجنى عليه لأن الساقط به حق الآدمى والذى يستوفيه الامام حق الله تعالى للمصلحة كما نص على ذلك العلامة ابن حجر فى شرح المنهاج ، والقواعد لا تأباه ، نعم ينبغى أن يجتنب فى ذلك الافراط والتفريط ، وقد شاهدنا فى العراق مما يسمونه « جزاءاً » ما القتل أهون منه بكثير . ومثل ذلك ظلم عظيم وتعد كبير ٭

وأما ما يتعلق بالحدود الآلهية كقطع السارق ، ورجم الزانى المحصن . وما فصل فى حق قطاع الطريق من قطع الأيدى والأرجل من خلاف وغيره مما فصل فى آيتهم ـــ إلى غير ذلك ـــ فظاهر أمره دخوله فى حكم الآية هنا على ما ذكره البيضاوى ٭

وأما ما يتعلق بالمعاملات والعقود فان كان موافقاً لما ورد عن الشارع فيها من الصحة وعدمها سميناه « شرعا » ولا نسميه « قانوناً » و « أصولا » وإن لم يكن موافقا لذلك كالحكم فى إعطاء الربا مثلا المسمى عندهم ـ بالكرشته ـ لزعم أنه تتعطل مصالح الناس لو لم يحكم بذلك فهو حكم بغير ما أنزل الله عز وجل ٭

وأما ما يتعلق بحق بيت المال فى الأراضى فما كان موافقاً لعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وخلفائه الراشدين فذاك وما كان مخالفاً لعمل الخلفاء الصادر منهم باجتهاد فان كانت مخالفته إلى ما هو أسهل وأنفع للناس فنظراً إلى زمانهم فهو مما لا باس فيه ، وإن كانت مخالفته إلى ما هو أشق ففيه بأس ، ولا يجرى هذا التفصيل فيما وصفه رسول الله عليه الصلاة والسلام كالعشر فى بعض الأراضى التى فتحت فى زمنه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم فانه لا تجوز المخالفة فيه أصلا على ما ذكره أبو يوسف فى كتاب الخراج وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة بحسب الظاهر بأن لم يكن منصوصا عليه فان كان يندرج فى العمومات المنصوص عليها فى أمر الاراضى فذاك وإلا فقبوله ورده باعتبار المدخول فى العمومات الواردة فى الحظر والاباحة فان دخل فى عمومات الاباحة قبل وإن فى عمومات الحظر رد ، وأمر تكفير العامل بالأصول المذكورة خطر فلا ينبغى إطلاق القول فيه ، نعم لا ينبغى التوقف فى تكفير من يستحسن ما هو بين المخالفة للشرع منها ويقدمه على الأحكام الشرعية متنقصاً لها به ، ولقد سمعت بعض خاصة أتباع بعض الولاة يقول : وإن تلك الاحكام أصول وقوانين سياسية كانت حسنة فى الازمنة المتقدمة لما كان أكثر الناس بلهاً ، وأما اليوم فلا يستقيم أمر السياسة بها والاصول الجديدة أحسن وأوفق للعقل منها، ويقول كلما ذكرها : الاصول المستحسنة ، وكان يرشح كلامه بنفى رسالة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وكذا رسالة الانبياء عليهم السلام قبله ، ويزعم أنهم كانوا حكماء فى أوقاتهم توصلوا إلى أغراضهم بوضع ما ادعوا فيه أنه وحى من الله تعالى ، فهذا وأمثاله مما لا شك فى كفره وفى كفر من يدعى للرافعة عند القاضى فيأبى إلا المرافعة بمقتضى تلك الاصول عند أهل تلك الاصول راضياً بما يقضون به عليه تردد وإنما لم يجزم بكفره مع قوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) لأن حكم أكثر القضاة مخالف لحكم الله تعالى ورسوله ﷺ فى أكثر المسائل ، والبلية العظمى أنهم يسمون ذلك شرعا ومع ذلك يأخذون عليه ما يأخذون من المال ظلما فلمن لم يرض بالمرافعة عندهؤلاء القضاة العجزة ويرضى بالمرافعة عند أهل الأصول عذر لذلك ٭

Marfat.com

الانتظام ويصلح أمر الخاص والعام ، ومنها تعيين مراتب التأديب والزجر على معاص وجنايات لم ينص الشارع فيها على حد معين بل فوض الأمر فى ذلك لرأى الامام فليس ذلك من المحادة لله تعالى ورسوله ﷺ فى شىء بل فيه استيفاء حقه تعالى على أتم وجه لما فيه من الزجر عن المعاصى وهو أمر مهم للشارع عليه الصلاة والسلام ، ويرشد اليه مافى تحفة المحتاج أن للامام أن يستوفى التعزير إذا عفى صاحب الحق لأن الساقط بالعفو هو حق الآدمى ، والذى يستوفيه الامام هو حق الله تعالى للمصلحة ، وفى كتاب الخراج للامام أبى يوسف عليه الرحمة إشارة إلى ذلك أيضاً ؛ ولا يعكر على ذلك ونحوه قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم) لأن المراد إكماله من حيث تضمنه مايدل على حكمه تعالى خصوصاً أو عموماً ، ويرشد إلى هذا عدم النكير على أحد من المجتهدين إذا قال بشىء لم يكن منصوصاً عليه بخصوصه ، ومن ذلك ماثبت بالقياس بأقسامه ، نعم القانون الذى يكون وراء ذلك بأن كان مصادماً لما نطقت به الشريعة الغراء زائغاً عن سنن المحجة البيضاء فيه مافيه كما لايخفى على العارف النبيه ، وقد يقال فى الآية على المعنى الذى ذكره البيضاوى : إن المراد بالموصول الواضعون لحدود الكفر وقوانينه كأئمة الكفر أو المختارون لها العاملون بها كأتباعهم ، ثم إن الآية - على مافى البحر - نزلت فى كفار قريش ﴿ كُبِتُوا ﴾ أى أخزوا كما قال قتادة ، أو غيظوا كما قال الفراء أو ردوا مخذولين - كما قال ابن زيد - أو أهلكوا كما قال أبو عبيدة . والأخفش *

وعن أبى عبيدة أن تاءه بدل من الدال ، والأصل - كبدوا - أى أصابهم داء فى أكبادهم ، وقال السدى : لعنوا ، وقيل : الكبت الكب وهو الالقاء على الوجه ، وفسره الراغب هنا بالرد بعنف وتذليل ، وذلك إشارة عند الأكثرين إلى ماكان يوم الخندق ، وقيل : إلى ماكان يوم بدر ، وقيل : معنى (كبتوا) سيكبتون على طريقة قوله تعالى : (أتى أمر الله) وهو بشارة للمؤمنين بالنصر على الكفار وتحقق كبتهم *

﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من كفار الأمم الماضية المحادين لله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ حال من واو (كبتوا) أى كبتوا لمحادتهم ، والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حاد الله تعالى ورسوله من قبلهم من الأمم وفيما فعلنا بهم ، وقيل : آيات تدل على صدق الرسول وصحة ماجاء به ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ أى بتلك الآيات أو بكل مايجب الايمان به فتدخل فيه تلك الآيات دخولا أولياً ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٥ ﴾ يذهب بعزهم وكبرهم ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ منصوب بما تعلق به اللام من الاستقرار ،

— ولقد سمعت من كثير أن أحد أسباب وضع الأصول الجديدة هؤلاء القضاة الظلمة حيث أتبعوا الهوى وحكموا بغير ماأنزل المولى جل وعلا ولم يمكن خلاص الشريعة من أيديهم وتطهير المحاكم من أرجاسهم للاحظات مقبولة أو غير مقبولة فوضعوا مايهون به فى زعم الواضع شرهم ويهن به أمرهم ثم إن باطل أولئك القضاة لاقاعدة له فيتلون تلون الحرباء لأنه تابع لهوى الانفس وتفاوت الرشا أمور أخرى وباطل غيرهم له قاعدة مافى الأغلب *

وقصارى الكلام أن ما خالف الشرع مردود كائناً ما كان ، ولافرق فى ذلك بين ما عليه أكثر القضاة اليوم بين الأصول المخالفة :

فان لايكنها أو تكنه فانه أخوها غذته أمه بلبانها

وإلى الله تعالى المشتكى ، وهو عز وجل حسبنا وكفى انتهى كلامه *

Marfat.com

أو - بمهين - أو باضمار اذكر أى اذكر ذلك اليوم تعظيما له وتهويلا، وقيل : منصوب بيكون مضمراً على أنه جواب لمن سأل متى يكون عذاب هؤلاء ؟ فقيل له : (يوم يبعثهم) أى يكون يوم الخ، وقيل : بالكافرين وليس بشىء ، وقوله تعالى : ﴿ جَمِيعًا ﴾ حال جئ به للتأكيد ، والمعنى يبعثهم الله تعالى كلهم بحيث لا يبقى منهم أحد غير مبعوث ، ويجوز أن يكون حالا غير مؤكدة أى يبعثهم مجتمعين فى صعيد واحد ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا ﴾ من القبائح ببيان صدورها عنهم أو بتصويرها فى تلك النشأة بما يليق بها من الصور الهائلة على رءوس الاشهاد تخجيلا لهم وتشهيراً بحالهم وزيادة فى خزيهم ونكالهم ، وقوله تعالى : ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ استئناف وقع جوابا عما نشأ مما قبله من السؤال إما عن كيفية التنبئة أو عن سببها كأنه قيل : كيف ينبئهم بأعمالهم وهى أعراض متقضية متلاشية ؟ فقيل : أحصاه الله تعالى عدداً ولم يفته سبحانه منه شىء ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ حينئذ حال من مفعول - أحصى - باضمار قد أو بدونه ، أو قيل : لم ينبئهم بذلك ؟ فقيل : أحصاه الله تعالى ونسوه فينبئهم به ليعرفوا أن ماعاينوه من العذاب إنما حاق بهم لأجله ، وفيه مزيد توبيخ وتنديم لهم غير التخجيل والتشهير ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ٦ ﴾ لا يغيب عنه أمر من الأمور أصلا ، والجملة اعتراض تذييلى مقرر لاحصائه تعالى أعمالهم ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ استشهاد على شمول شهادته تعالى أى ألم تعلم أنه عز وجل يعلم مافيهما من الموجودات سواء كان ذلك بالاستقرار فيهما أو بالجزئية منهما *

وقوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ ﴾ الخ استئناف مقرر لماقبله من سعة علمه تعالى ، و(يكون) من كان التامة ، و(من) مزيدة ، و(نجوى) فاعل وهى مصدر بمعنى التناجى وهو المسارة مأخوذة من النجوة وهى ماارتفع من الأرض لأن المتسارين يخلوان وحدهما بنجوة من الأرض ، أو لأن السر يصان فكأنه رفع من حضيض الظهور إلى أوج الخفاء ، وقيل : أصل ناجيته من النجاة وهو أن تعاونه على مافيه خلاصه أو أن تنجو بسرك من أن يطلع عليه وهى مضافة إلى(ثلاثة) أى مايقع من تناجى ثلاثة نفر وقد يقدر مضاف أى من ذوى نجوى ، أو يؤول نجوى بمتناجين - فثلاثة - صفة للمضاف المقدر ، أو لنجوى المؤول بما ذكر *

وجوز أن يكون بدلا أيضا والتأويل والتقدير المذكوران ليتأتى الاستثناء الآتى من غير تكلف، وفى القاموس النجوى السر والمسارون اسم مصدر ، وظاهره أن استعماله فى كل حقيقة فاذا أريد المسارون لم يحتج إلى تقدير أو تأويل لكن قال الراغب : إن النجوى أصله المصدر كما فى الآيات بعد ، وقد يوصف به فيقال : هو نجوى . وهم نجوى ، قال تعالى : (وإذ هم نجوى) وعليه يحتمل أن يكون من باب زيد عدل *

وقرأ أبو جعفر . وأبو حيوة . وشيبة - ماتكون - بالتاء الفوقية لتأنيث الفاعل ، والقراءة بالياء التحتية قال الزمخشرى : على أن النجوى تأنيثها غير حقيقى ، و(من) فاصلة أو على أن المعنى مايكون شئ من النجوى، واختار فى الكشف الثانى ، فقال : هو الوجه لأن المؤنث وحده لم يجعل فاعلا لفظاً لوجود (من) ولا معنى لأن المعنى شىء منها ، فالتذكير هو الوجه لفظاً . ومعنى ، وهو قراءة العامة انتهى ، وإلى نحوه يشير كلام صاحب اللوامح ، وصرح بأن الأكثر فى هذا الباب التذكير ، وتعقبه أبو حيان بالمنع وأن الأكثر التأنيث وأنه القياس

Marfat.com

قال تعالى : (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) (ماتسبق من أمة أجلها) فتأمل ، وقوله سبحانه : ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، والرابع لاضافته إلى غير مماثله هنا بمعنى الجاعل المصير لهم أربعة أى مايكونون فى حال من الأحوال إلا فى حال تصييرالله تعالى لهم أربعة حيث أنه عزوجل يطلع أيضاً على نجواهم ، وكذاقوله تعالى: ﴿ وَلَا خَمْسَةٍ ﴾ أى ولانجوى خمسة ﴿ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ ﴾ أى ولا نجوى أدنى ﴿ مِن ذَٰلِكَ ﴾ أى مما ذكر كالاثنين والأربعة ﴿ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ كالستة وما فوقها ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ يعلم مايجرى بينهم ﴿ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ من الأماكن ، ولو كانوا فى بطن الأرض فان علمه تعالى بالأشياء ليس لقرب مكانى حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة قرباً وبعداً ، وفى الداعى إلى تخصيص الثلاثة والخمسة وجهان : أحدهما أن قوماً من المنافقين تخلفوا للتناجى مغايظة للمؤمنين على هذين العددين ثلاثة وخمسة ، فقيل : مايتناجى منهم ثلاثة ولاخمسة كما ترونهم يتناجون كذلك ولا أدنى من عددهم ولاأكثر إلا والله تعالى معهم يعلم مايقولون.فالآية تعريض بالواقع على هذا ، وقد روى عن ابن عباس أنها نزلت فى ربيعة. وحبيب ابنى عمرو . وصفوان بن أمية كانوا يوماً يتحدثون فقال.أحدهم أترى أن الله يعلم مانقول ؟ فقال الآخر: يعلم بعضا ولا يعلم بعضاً،وقال الثالث : إن كان يعلم بعضا فهو يعلمه كله أى لأن من علم بعض الأشياء بغير سبب فقد علمها كلها لأن كونه عالما بغير سبب ثابت له مع كل معلوم ، والثانى أنه قصد أن يذكر ماجرت عليه العادة من أعداد أهل النجوى والجالسين فى خلوة للشورى والمنتدبون لذلك إنما هم طائفة مجتباة من أولى الأحلام والنهى ، وأول عددهم الاثنان فصاعداً إلى خمسة إلى ستة إلى مااقتضته الحال ، وحكم به الاستصواب ، فذكر عز وجل الثلاثة والخمسة ، وقال سبحانه : (ولاأدنى من ذلك) فدل على الاثنين والأربعة،وقال تعالى : (ولا أكثر) فدل على مايلى هذا العدد ويقاربه كذا فى الكشاف ٠

وفى الكشف فى خلاصة الوجه الثانى أنه خص العددان على المعتاد من عدد أهل النجوى فانهم قليلو العدد غالباً فلزم أن يخص بالذكر نحو الثلاثة والأربعة إلى الثمانية والتسعة فأوتر الثلاثة ليكون قوله تعالى : (ولا أدنى من ذلك) دالا على ماتحتها إذ لوأوتر الأربعة والستة مثلا كان الأدنى الثلاثة دون الاثنين إلا على التوسع ولما أوثرت جئ بالخمسة لتناسب الوترين وكان الأمر دائراً بين الثلاثة والخمسة والأربعة والستة فأوثرا بالتصريح لذلك ، ولأنه تعالى وتر يحب الوتر انتهى ٠

وقد يقال : إن التناجى يكون فى الغالب للشورى وهى لاتكون إلا بين عدد وأهلها قليلو العدد غالباً، والأليق أن يكون وتراً من الأعداد كالثلاثة والخمسة والسبعة والتسعة ليتحقق عند الاختلاف طرف يترجح بالزيادة على الطرف الآخر فيرجع إليه دونه كما هو العادة اليوم عند اختلاف أهل الشورى ٠

وجعل عمر رضى الله تعالى عنه الشورى فى ستة لانحصار الامر فيهم كما يدل عليه قوله لهم : نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الامر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو عنكم راض ، ومع هذا أمر ابنه عبد الله رضى الله تعالى عنه أن يحضر معهم وإن لم يكن له من أمر الخلافة شئ ، فدار الامر بعد اعتبار ماذكر من وترية العدد وقلته بين الثلاثة والخمسة والسبعة والتسعة فاختيرت الثلاثة لأنها أول الأوتار العددية وإذا ضربت فى نفسها حصل منتهاها من الآحاد ولايخلو منها اعتبار كل ممكن حتى

Marfat.com

أن المطالب الفكرية للمتناجين مثلا لا تتم بدون ثلاثة أشياء : الموضوع . والمحمول . والحد الأوسط بل القضية التى يتناجى لها لابد فيها من ثلاثة أجزاء ، والخمسة لأنها عدد دائر لا تنعدم بالضرب فى نفسها ، وكذا بضرب الحاصل فى نفسه إلى مالا يتناهى فلها شبه بالثلاثة من حيث أنها دائرة مع مراتب الضرب لا تنعدم أصلا كما أن الثلاثة دائرة مع اعتبارات الممكن لا تنعدم أصلا ، ومع ذلك هى عدد المشاعر التى يحتاج اليها فى التناجى ، وكذا عدد الحواس الظاهرة ، ويدخل ماعداهما فى عموم قوله تعالى : (ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم) ولا يدخل فى العموم الواحد لأن التناجى للمشاورة لابد فيه من اثنين فأكثر ، ومن أدخله لم يعتبر التناجى لها ولا يضر دخول الأشفاع فيه لأن أليقية كون المتناجين وتراً إنما كانت نكتة للتصريح بالعددين السابقين ولا تأبى تحقق النجوى فى الأشفاع كما لا يخفى ٭

وادعى ابن سراقة أن النجوى مختصة بما كان بين أكثر من اثنين وأن مايكون بين اثنين يسمى سراراً ، وقال ابن عيسى : كل سرار نجوى ، وفى الآية لطائف وأسرار لا يعقلها إلا العالمون فليتأمل ٭

وقرأ ابن أبى عبلة (ثلاثة) و(خمسة) بالنصب على الحال باضمار يتناجون يدل عليه نجوى ، أو على تأويل نجوى بمتناجين ونصبهما من المستكن فيه ، وفى مصحف عبد الله ـ إلا الله رابعهم ولا أربعة إلا الله خامسهم ولا خمسة إلا الله سادسهم ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا الله معهم إذا انتجوا ـ وقرأ الحسن . وابن أبى إسحق . والاعمش . وأبو حيوة . وسلام . ويعقوب (ولا أكثر) بالرفع قال الزمخشرى : على أنه معطوف على محل ـ لا أدنى ـ كقولك : لا حول ولا قوة إلا بالله بفتح الحول ورفع القوة ، ويجوز أن يعتبر (أدنى) مرفوعا على هذه القراءة ورفعهما على الابتداء ، والجملة التى بعد (إلا) هى الخبر ، أو على العطف على محل (من نجوى) كأنه قيل : مايكون أدنى ولا أكثر إلا هو معهم ، و(أكثر) على قراءة الجمهور يحتمل أن يكون مجروراً بالفتح معطوفا على لفظ (نجوى) كأنه قيل : مايكون من أدنى ولا أكثر إلا هو معهم ، وأن يكون مفتوحا لأن (لا) لنفى الجنس ، وقرأ كل من الحسن . ويعقوب أيضاً . ومجاهد . والخليل بن أحمد ـ ولا أكبر ـ بالباء الموحدة والرفع وهو على ماسمعت ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ تفضيحاً لهم وإظهاراً لما يوجب عذابهم ٭

وقرئ (ينبئهم) بالتخفيف والهمز ، وقرأ زيد بن على بالتخفيف وترك الهمز وكسر الهاء ٭

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٧ ﴾ لأن نسبة ذاته المقتضى للعلم إلى الكل على السواء ، وقد بدأ الله تعالى فى هذه الآيات بالعلم حيث قال سبحانه : (ألم تر أن الله يعلم) الخ ، وختم جل وعلا بالعلم أيضا حيث قال الله تعالى: (إن الله) الخ ، ومن هنا قال معظم السلف فيما ذكر فى البين من قوله عز وجل : (رابعهم) و(سادسهم) و(معهم) أن المراد به كونه تعالى كذلك بحسب العلم مع أنهم الذين لا يؤولون ، وكأنهم لم يعدوا ذلك تأويلا لغاية ظهوره واحتفافه بما يدل عليه دلالة لاخفاء فيها ، ويعلم من هذا أن ماشاع من أن السلف لا يؤولون ليس على إطلاقه ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : نزلت فى اليهود والمنافقين كانوا يتناجون دون المؤمنين وينظرون اليهم ويتغامزون بأعينهم عليهم يوهمونهم عن أقاربهم أنهم أصابهم شر فلا يزالون كذلك حتى تقدم أقاربهم فلما كثر ذلك منهم شكا المؤمنون إلى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فنهاهم أن يتناجوا دون المؤمنين فعادوا لمثل فعلهم ، وقال مجاهد : نزلت فى اليهود ٭

Marfat.com

وقال ابن السائب : فى المنافقين، والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والهمزة للتعجيب من حالهم ، وصيغة المضارع للدلالة على تكرر عودهم وتجدده واستحضار صورته العجيبة ، وقوله تعالى :

﴿ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ عطف عليه داخل فى حكمه أى ويتناجون بما هو إثم فى نفسه ووبال عليهم وتعدّ على المؤمنين وتواص بمخالفة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجهين - واليه ﷺ - لزيادة تشنيعهم واستعظام معصيتهم ٭

وقرأ حمزة . وطلحة . والأعمش . ويحيي بن وثاب . ورويس - وينتجون - بنون ساكنة بعد الياء وضم الجيم مضارع انتجى ، وقرأ أبو حيوة - العدوان - بكسر العين حيث وقع ، وقرىء - معصيات - بالجمع ونسبت فيما بعد إلى الضحاك ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ صح من رواية البخارى . ومسلم . وغيرهما عن عائشة «أن ناساً من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : السام عليك ياأبا القاسم فقال عليه الصلاة والسلام : وعليكم ، قالت عائشة : وقلت : عليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم» وفى رواية «عليكم السام والذام واللعنة، فقال عليه الصلاة والسلام : ياعائشة إن الله لايحب الفاحش ولا المتفحش، فقلت : ألا تسمعهم يقولون : السام ؟! فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : أو ما سمعت أقول : وعليكم ؟! فأنزل الله تعالى (وإذا جاؤك)» الآية ٭

وأخرج أحمد . والبيهقى فى شعب الإيمان بسند جيد عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سام عليك يريدون بذلك شتمه ثم يقولون فى أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول فنزلت هذه الآية (وإذا جاءوك) الخ ، والسام قال ابن الأثير : المشهور فيه ترك الهمز ويعنون به الموت ، وجاء فى رواية مهموزاً ومعناه أنكم تسأمون دينكم ، وصرح الخفاجى بأنه بمعنى الموت عبرانى ، ولم يذكر فيه الهمز وتركه ٭

وقال الطبرسى : من قال : السام الموت فهو من سأم الحياة بذهابها وهذا إرجاع له إلى المهموز ، وجعل البيضاوى من التحية التى لم يحيه بها الله تعالى تحيتهم له عليه الصلاة والسلام بأنعم صباحاً وهى تحية الجاهلية كعم صباحا ولم نقف على أثر فى ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أى فيما بينهم، وجوز إبقاؤه على ظاهره ﴿ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ أى هلا يعذبنا الله تعالى بسبب ذلك لو كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم نبيا - أى لو كان نبيا عذبنا الله تعالى بسبب مانقول من التحية - أوفق بالأول لأن أنعم صباحا دعاء بخير والعدول اليه عن تحية الاسلام التى حيا الله تعالى بها رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأشير إليها بقوله تعالى : (سلام على المرسلين) (وسلام على عباده الذين اصطفى) وماجاء فى التشهد « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » ليس فيه كثير إثم يتوقع معه التعذيب الدنيوى حتى أنهم يقولون ذلك إذا لم يعذبوا اللهم إلا إذا انضم اليه أنهم قصدوا بذلك تحقيراً وإعلانا بعدم الاكتراث ، ولعل قائل ذلك هم المنافقون من المشركين وهو أظهر من كون قائله اليهود ، وحكم التحية به اليوم أنها خلاف السنة ، والقول بالكراهة غير بعيد ٭

وفى تحفة المحتاج لايستحق مبتدى بنحو صبحك الله بالخير أو قواك الله جواباً ودعاؤه له فى نظيره حسن إلا أن يقصد باهماله له تأديبه لتركه سنة السلام انتهى . وأنعم صباحاً نحو صبحك الله بالخير ، غاية مافى الباب أنه

Marfat.com

دعاء كان يستعمل تحية فى الجاهلية ، نعم تحيتهم به له عليه الصلاة والسلام على الوجه الذى قصدوه حرام بلا خلاف ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ عذاباً ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلونها أو يقاسون حرها أو يصطلون بها ٭ ﴿ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ٨ ﴾ أى جهنم ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ﴾ فى أنديتكم وفى خلواتكم ٭ ﴿ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ كما يفعله المنافقون، فالخطاب للخاص تعريضاً بالمنافقين ، وجوز جعله لهم وسموا مؤمنين باعتبار ظاهر أحوالهم ٭

وقرأ الكوفيون . والاعمش . وأبو حيوة . ورويس ـ فلا تنتجوا ـ مضارع انتجى ، وقرأ ابن محيصن ـ فلا تناجوا ـ بادغام التاء فى التاء ، وقرئ بحذف إحداهما ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ بما يتضمن خير المؤمنين والاتقاء عن معصية الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ وَاتَّقُوا ﴾ فيما تأتون وما تذرون ﴿ اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ ﴾ وحده لا إلى غيره سبحانه استقلالا أو اشتراكا ﴿ تُحْشَرُونَ ٩ ﴾ فيجازيكم على ذلك ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى ﴾ المعهودة التى هى التناجى بالاثم والعدوان والمعصية ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ لا من غيره باعتبار أنه هو المزين لها والحامل عليها ، وقوله تعالى : ﴿ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ خبر آخر أى إنما هى ليحزن المؤمنين بتوهمهم أنها فى نكبة أصابتهم ، وقرئ (ليحزن) بفتح الياء والزاى ـ فالذين ـ فاعل ﴿ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ ﴾ أى ليس الشيطان أو التناجى بضار المؤمنين ﴿ شَيْئًا ﴾ من الأشياء أو شيئاً من الضرر ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى إلا بارادته ومشيئته عز وجل ، وذلك بأن يقضى سبحانه الموت أو الغلبة على أقاربهم ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٠ ﴾ ولا يبالوا بنجواهم ٭

وحاصله أن ما يتناجى المنافقون به مما يحزن المؤمنين إن وقع فبارادة الله تعالى ومشيئته لا دخل لهم فيه فلا يكترث المؤمنون بتناجيهم وليتوكلوا على الله عز وجل ولا يحزنوا منه ، فهذا الكلام لازالة حزنهم ، ومنه ضعف ما أشار اليه الزمخشرى من جواز أن يرجع ضمير ـ ليس بضارهم ـ للحزن ، وأجيب بأن المقصود يحصل عليه أيضا فانه إذا قيل : إن هذا الحزن لا يضرهم إلا بارادة الله تعالى اندفع حزنهم ، هذا ومن الغريب ما قيل : إن الآية نازلة فى المنامات التى يراها المؤمن فى النوم تسوؤه ويحزن منها فكأنها نجوى يناجى بها ، وهذا على ما فيه لا يناسب السباق والسياق كما لا يخفى ، ثم إن التناجى بين المؤمنين قد يكون منهياً عنه ، فقد أخرج البخارى : ومسلم . والترمذى . وأبو داود عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه » ومثل التناجى فى ذلك أن يتكلم اثنان بحضور ثالث بلغة لا يفهمها الثالث إن كان يحزنه ذلك ، ولما نهى سبحانه عن التناجى والسرار علم منه الجلوس مع الملأ فذكر جل وعلا آدابه بعده بقوله عز من قائل: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَالِسِ ﴾ الخ أو لما نهى عز وجل عما هو سبب للتباغض والتنافر أمر سبحانه بما هو سبب للتواد والتوافق أى إذا قال لكم قائل كائناً من كان : توسعوا فليفسح بعضكم عن بعض فى المجالس ولا تتضاموا فيها ، من قولهم : افسح عنى أى تنح ، والظاهر تعلق (فى المجالس) بتفسحوا ، وقيل : متعلق ـ بقيل ـ ٭

وقرأ الحسن . وداود بن أبى هند . وقتادة . وعيسى ـ تفاسحوا ـ وقرأ الأخيران . وعاصم فى المجالس ، والجمهور فى ـ المجلس ـ بالافراد ، فقيل : على إرادة الجنس لقراءة الجمع ، وقيل : على إرادة العهد ، والمراد به

Marfat.com

مجلسه صلى الله تعالى عليه وسلم ، والجمع لتعدده باعتبار من يجلس معه عليه الصلاة والسلام فان لكل أحد منهم مجلساً ، وفى أخبار سبب النزول ما يؤيد كلا ، أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان « كان ﷺ يوم جمعة فى الصفة وفى المكان ضيق وكان عليه الصلاة والسلام يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء ناس من أهل بدر منهم ثابت بن قيس بن شماس وقد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله ﷺ فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته فرد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم سلموا على القوم فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم فشق ذلك على رسول الله ﷺ فقال لبعض من حوله : قم يا فلان ويا فلان فأقام نفراً مقدار من قدم فشق ذلك عليهم وعرفت كراهيته فى وجوههم ، وقال المنافقون : ما عدل باقامة من أخذ مجلسه وأحب قربه لمن تأخر عن الحضور فأنزل الله تعالى هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا)» الخ ، وكان ذلك ممن لم يفسح تنافساً فى القرب من رسول الله ﷺ ورغبة فيه ولا تكاد نفس تؤثر غيرها بذلك ٭

وقال الحسن . ويزيد بن أبى حبيب : كان الصحابة يتشاحون فى مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة فى الشهادة فنزلت (يا أيها الذين آمنوا) الخ ، والاكثرون على أنها نزلت لما كان عليه المؤمنون من التضام فى مجلسه صلى الله تعالى عليه وسلم والضنة بالقرب منه وترك التفسح لمقبل ؛ وأياما كان فالحكم مطرد فى مجلسه عليه الصلاة والسلام ومصاف القتال وغير ذلك ، وقرىء فى - المجلس - بفتح اللام ، فإما أن يراد به ما أريد بالمكسور والفتح شاذ فى الاستعمال ، وإما أن يراد به المصدر ، والجار متعلق - بتفسحوا - أى إذا قيل لكم توسعوا فى جلوسكم ولا تضايقوا فيه ﴿ فَافْسَحُواْ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أى فى رحمته . أو فى منازلكم فى الجنة . أو فى قبوركم . أو فى صدوركم . أو فى رزقكم أقوال ٭

وقال بعضهم : المراد يفسح سبحانه لكم فى كل ما تريدون الفسح فيه أى مما ذكر وغيره ، وأنت تعلم أن الفسح يختلف المراد منه باختلاف متعلقاته كالمنازل والرزق والصدر فلا تغفل ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ ﴾ أى انهضوا للتوسعة على المقبلين ﴿ فَانشُزُواْ ﴾ فانهضوا ولا تثبطوا ، وأصله من النشز وهو المرتفع من الأرض فان مريد التوسعة على المقبل يرتفع إلى فوق فيتسع الموضع ، أو لأن النهوض نفسه ارتفاع قال الحسن . وقتادة . والضحاك : المعنى إذا دعيتم إلى قتال أو صلاة أو طاعة فأجيبوا ، وقيل : إذا دعيتم إلى القيام عن مجلس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقوموا ، وهذا لأنه عليه الصلاة والسلام كان يؤثر أحيانا الانفراد فى أمر الاسلام أو لأداء وظائف تخصه صلى الله تعالى عليه وسلم لا تتأتى أو لا تكمل بدون الانفراد ، وعمم الحكم فقيل : إذا قال صاحب مجلس لمن فى مجلسه : قوموا ينبغى أن يجاب ، وفعل ذلك لحاجة إذا لم يترتب عليه مفسدة أعظم منها مما لانزاع فى جوازه ، نعم لا ينبغى لقادم أن يقيم أحداً ليجلس فى مجلسه ، فقد أخرج مالك . والبخارى . ومسلم . والترمذى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ولكن تفسحوا وتوسعوا » ٭

وقرأ الحسن . والأعمش . وطلحة . وجمع من السبعة - انشزوا فانشزوا - بكسر الشين منهما ٭

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ جواب الأمر كأنه قيل : إن تنشزوا يرفع عز وجل المؤمنين منكم فى الآخرة

Marfat.com

جزاءاً للامتثال ﴿ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ الشرعى ﴿ دَرَجَات ﴾ أى كثيرة جليلة كما يشعر به المقام ، وعطف ـ الذين أوتوا العلم ـ على (الذين آمنوا) من عطف الخاص على العام تعظيما لهم بعدهم كأنهم جنس آخر، ولذا أعيد الموصول فى النظم الكريم ، وقد أخرج الترمذى . وأبو داود . والدارمى عن أبى الدرداء مرفوعا «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب »

وأخرج الدارمى عن عمر بن كثير عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : «من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الاسلام فبينه وبين النبيين درجة» وعنه صلى الله تعالى عليه وسلم « بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة » وعنه عليه الصلاة والسلام « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء . ثم العلماء . ثم الشهداء، فأعظم بمرتبة بين النبوة والشهادة بشهادة الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعن ابن عباس «خير سليمان عليه السلام بين العلم والملك والمال فاختار العلم فأعطاه الله تعالى الملك والمال تبعاً له » .

وعن الأحنف «كاد العلماء يكونون أربابا» وكل عز لم يوطد بعلم فالى ذل مايصير ، وعن بعض الحكماء : ليت شعرى أى شيء أدرك من فاته العلم؟ وأى شيء فاته من أدرك العلم ؟ والدال على فضل العلم والعلماء أكثر من أن يحصى ، وأرجى حديث عندى فى فضلهم مارواه الامام أبو حنيفة فى مسنده عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : «يجمع الله العلماء يوم القيامة فيقول : إنى لم أجعل حكمتى فى قلوبكم إلا وأنا أريد بكم الخير اذهبوا إلى الجنة فقد غفرت لكم على ما كان منكم » .

وذكر العارف الياس الكورانى أنه أحد الأحاديث المسلسلة بالأولية ، ودلالة الآية على فضلهم ظاهرة بل أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أنه قال : ماخص الله تعالى العلماء فى شيء من القرآن ماخصهم فى هذه الآية ـ فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم بدرجات ـ وجعل بعضهم العطف عليه للتغاير بالذات بحمل (الذين آمنوا) على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم ، وفى رواية أخرى عنه ياأيها الذين آمنوا افهموا معنى هذه الآية ولترغبكم فى العلم فان الله تعالى يرفع المؤمن العالم فوق الذى لايعلم .

وادعى بعضهم أن فى كلامه رضى الله تعالى عنه إشارة إلى أن ـ الذين أوتوا ـ معمول لفعل محذوف والعطف من عطف الجمل أى ويرفع الله تعالى الذين أوتوا العلم خاصة درجات ، ونحوه كلام ابن عباس ، فقد أخرج عنه ابن المنذر . والبيهقى فى المدخل . والحاكم وصححه أنه قال فى الآية : يرفع الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم درجات .

وقال بعض المحققين : لاحاجة إلى تقدير العامل ، والمعنى على ذلك من غير تقدير ، واختار الطيبى التقدير وجعل الدرجات معمولا لذلك المقدر ، وقال : يضمر المذكور أحط منه مما يناسب المقام نحو أن يقال : يرفع الله الذين آمنوا فى الدنيا بالنصر وحسن الذكر أو يرفعهم فى الآخرة بالإيواء إلى مالا يليق بهم من غرف الجنات ، ويرفع الذين أوتوا العلم درجات تعظيما لهم، وجوز كون المراد بالموصولين واحداً والعطف لتنزيل تغاير الصفات بمنزلة تغاير الذات، فالمعنى يرفع الله المؤمنين العالمين درجات ، وكون العطف من عطف الخاص على العام هو الأظهر، وفى الانتصاف فى الجزاء برفع الدرجات مناسبة للعمل المأمور به وهو التفسح فى المجالس وترك ماتنافسوا فيه من الجلوس فى أرفعها وأقربها من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فلما كان الممتثل لذلك

Marfat.com

يخفض نفسه عما يتنافس فيه من الرفعة امتثالا وتواضعاً جوزى على تواضعه برفع الدرجات كقوله : من تواضع لله تعالى رفعه الله تعالى ، ثم لما علم سبحانه أن أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم خصهم بالذكر عند الجزاء ليسهل عليهم ترك مالهم من الرفعة فى المجلس تواضعاً لله عزوجل ٠

وقيل : إنه تعالى خص أهل العلم ليسهل عليهم ترك ماعرفوا بالحرص عليه من رفعة المجالس وحبهم للتصدير ، وهذا من مغيبات القرآن لما ظهر من هؤلاء فى سائر الاعصار من التنافس فى ذلك ٠

والخفاجى أدرج هذا فى نقل كلام صاحب الانتصاف وكلامه على ماسمعته أوفق بالأدب مع أهل العلم ، ولاأظن - بالذين أوتوا العلم - المذكورين فى الآية أنهم كالعلماء الذين عرض بهم الخفاجى ، نعم إنه عليه الرحمة صادق فيما قال بالنسبة إلى كثير من علماء آخر الزمان كعلماء زمانه وكعلماء زماننا - لكن كثير من هؤلاء - إطلاق اسم العالم على أحدهم مجاز لاتعرف علاقته ، ومع ذلك قد امتلأ قلبه من حب الصدر وجعل يزاحم العلماء حقيقة عليه ولم يدر أن محله لو أنصف العجز ، هذا واستدل غير واحد بالآية على تقديم العالم ولو باهلياً شابا على الجاهل ولو هاشمياً شيخا ، وهو بناء على ماتقدم من معناها لدلالتها على فضل العالم على غيره من المؤمنين وأن الله تعالى يرفعه يوم القيامة عليه ، ويجعل منزلته فوق منزلته فينبغى أن يكون محله فى مجالس الدنيا فوق محل الجاهل ٠

وقال الجلال السيوطى فى كتاب الأحكام قال قوم : معنى الآية يرفع الله تعالى المؤمنين العلماء منكم درجات على غيرهم فلذلك أمر بالتفسح من أجلهم ، ففيه دليل على رفع العلماء فى المجالس والتفسح لهم عن المجالس الرفيعة انتهى ٠

وهذا المعنى الذى نقله ظاهر فى أن المتعاطفين متحدان بالذات والعطف لجعل تغاير الصفات بمنزلة تغاير الذات وهو احتمال بعيد ، ويظهر منه أيضاً أنه ظن رفع يرفع على أن الجملة استئناف وقع جوابا عن السؤال عن علة الامر السابق مع أن الامر ليس كذلك ، ويحتمل أنه علم أنه مجزوم فى جواب الامر لكن لم يعتبر كون الرفع درجات جزاءه الامتثال على نحو كون الفسح قبله جزاءه فتأمله ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١﴾ تهديد لمن لم يمتثل بالأمر واستكره ، وقرىء بما - يعملون - بالياء التحتانية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾ أى إذا أردتم المناجاة معه عليه الصلاة والسلام لأمر ما من الأمور ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ أى فتصدقوا قبلها ، وفى الكلام استعارة تمثيلية ، وأصل التركيب يستعمل فيمن له يدان أو مكنية بتشبيه النجوى بالانسان ، وإثبات اليدين تخييل ، وفى (بين) ترشيح على ماقيل ، ومعناه قبل ، وفى هذا الأمر تعظيم الرسول ﷺ ونفع للفقراء وتمييز بين المخلص والمنافق ومحب الآخرة ومحب الدنيا ودفع للتكاثر عليه صلى الله تعالى عليه وسلم من غير حاجة مهمة ، فقد روى عن ابن عباس . وقتادة أن قوماً من المسلمين كثرت مناجاتهم للرسول عليه الصلاة والسلام فى غير حاجة إلا لتظهر منزلتهم وكان ﷺ سمحاً لايرد أحداً فنزلت هذه الآية ٠

وعن مقاتل أن الاغنياء كانوا يأتون النبى ﷺ فيكثرون مناجاته ويغلبون الفقراء على المجالس حتى كره عليه الصلاة والسلام طول جلوسهم ومناجاتهم فنزلت ، واختلف فى أن الامر للندب أو للوجوب لكنه نسخ بقوله تعالى : (أأشفقتم) الخ ، وهو وإن كان متصلا به تلاوة لكنه غير متصل به نزولا ، وقيل : نسخ بآية

Marfat.com

الزكاة والمعول عليه الاول ، ولم يعين مقدار الصدقة ليجزى الكثير والقليل ، أخرج الترمذى وحسنه . وجماعة عن على كرم الله تعالى وجهه قال : لما نزلت (ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم) الخ قال لى النبى ﷺ : « ماترى فى دينار ؟ قلت : لايطيقونه ، قال : نصف دينار ؟ قلت : لايطيقونه ، قال : فكم ؟ قلت : شعيرة ، قال : فانك لزهيد » فلما نزلت (أأشفقتم) الآية قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « خفف الله عن هذه الامة » ولم يعمل بها على المشهور غيره كرم الله تعالى وجهه ، أخرج الحاكم وصححه . وابن المنذر . وعبد بن حميد . وغيرهم عنه كرم الله تعالى وجهه أنه قال : إن فى كتاب الله تعالى لآية ماعمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى آية النجوى (ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول) الخ كان عندى دينار فبعته بعشرة دراهم فكنت كلما ناجيت النبى ﷺ قدمت بين يدى نجواى درهما ثم نسخت فلم يعمل بها أحد ، فنزلت (أأشفقتم) الآية ، قيل : وهذا على القول بالوجوب محمول على أنه لم يتفق للاغنياء مناجاة فى مدة بقاء الحكم ، واختلف فى مدة بقائه ، فعن مقاتل أنها عشرة ليال ، وقال قتادة : ساعة من نهار ، وقيل : إنه نسخ قبل العمل به ولا يصح لما صح أنفاً *

وقرى ـ صدقات ـ بالجمع لجمع المخاطبين ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى تقديم الصدقات ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ لما فيه من الثواب ﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ وأزكى لأنفسكم لما فيه من تعويدها على عدم الاكتراث بالمال وإضعاف علاقة حبه المدنس لها ، وفيه إشارة إلى أن فى ذلك إعداد النفس لمزيد الاستفاضة من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند المناجاة *

وفى الكلام إشعار بندب تقديم الصدقة لكن قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٢ ﴾ أى لمن لم يجد حيث رخص سبحانه له فى المناجاة بلا تقديم صدقة أظهر إشعاراً بالوجوب *

﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ﴾ أى أخفتم الفقر لأجل تقديم الصدقات فمفعول (أشفقتم) محذوف ، و(أن) على إضمار حرف التعليل ، ويجوز أن يكون المفعول (أن تقدموا) فلا حذف أى أخفتم تقديم الصدقات لتوهم ترتب الفقر عليه ، وجمع الصدقات لما أن الخوف لم يكن فى الحقيقة من تقديم صدقة واحدة لأنه ليس مظنة الفقر بل من استمرار الأمر ، وتقديم (صدقات) وهذا أولى مما قيل : إن الجمع لجمع المخاطبين إذ يعلم منه وجه إفراد الصدقة فيما تقدم على قراءة الجمهور ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ ماأمرتم به وشق عليكم ذلك ﴿ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بأن رخص لكم المناجاة من غير تقديم صدقة ، وفيه على ماقيل : إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله تعالى عنه لما رؤى منهم من الانقياد وعدم خوف الفقر بعد ماقام مقام توبتهم (وإذ) على بابها أعنى أنها ظرف لما مضى ، وقيل : إنها بمعنى ـ إذ ـ الظرفية للمستقبل كما فى قوله تعالى : (إذ الأغلال فى أعناقهم) * وقيل : بمعنى إن الشرطية كأنه قيل : فان لم تفعلوا ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ﴾ والمعنى على الأول إنكم تركتم ذلك فيما مضى فتداركوه بالمثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، واعتبرت المثابرة لأن المأمورين مقيمون للصلاة ومؤتون للزكاة ، وعدل عن فصلوا إلى (فأقيموا الصلاة) ليكون المراد المثابرة على توفية حقوق الصلاة ورعاية مافيه كمالها لا على أصل فعلها فقط ، ولما عدل عن ذلك لما ذكر جئ بما بعده على وزانه ، ولم يقل وزكوا لئلا يتوهم أن المراد الأمر بتزكية النفس كذا قيل فتدبر ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أى فى سائر الأوامر ، ومنها ماتقدم فى ضمن قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا) الآيات وغير ذلك *

Marfat.com

﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٣ ﴾ ظاهراً وباطنا ٥

وعن أبى عمرو - يعملون - بالتحتية ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تعجيب من حال المنافقين الذين كانوا يتخذون اليهود أولياء ويناصحونهم وينقلون اليهم أسرار المؤمنين ، وفيه على ماقال الخفاجى : تلوين للخطاب بصرفه عن المؤمنين إلى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أى ألم تنظر ﴿ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا ﴾ أى والوا ﴿ قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ وهم اليهود ﴿ مَا هُمْ ﴾ أى الذين تولوا ﴿ مِنْكُمْ ﴾ معشر المؤمنين ﴿ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ أى من أولئك القوم المغضوب عليهم أعنى اليهود لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك ، وفى الحديث «مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين غنمين - أى المترددة بين قطيعين - لا تدرى أيهما تتبع» ٥

وجوز ابن عطية أن يكون (هم) للقوم ، وضمير (منهم) للذين تولوا ، ثم قال : فيكون فعل المنافقين على هذا أخس لأنهم تولوا مغضوبا عليهم ليسوا من أنفسهم فيلزمهم ذمامهم ولا من القوم المحقين فتكون الموالاة صواباً ؛ والأول هو الظاهر والجملة عليه مستأنفة ، وجوز كونها حالا من فاعل (تولوا) ورد بعدم الواو ، وأجيب بأنهم صرحوا بأن الجملة الاسمية المثبتة أو المنفية إذا وقعت حالا تأتى بالواو فقط وبالضمير فقط وبهما معاً ، وما هنا أتت بالضمير أعنى هم ، وعلى ماقال ابن عطية : فى موضع الصفة لقوم ٥

وذكر المولى سعد الله أن فى (منكم) التفاتا ، وتعقب بأنه إن غلب فيه خطاب الرسول ﷺ فظاهر أنه لا التفات فيه وإن لم يغلب فكذلك لا التفات فيه إذ ليس فيه مخالفة لمقتضى الظاهر لسبق خطابهم قبله ، وفى جعله التفاتا على رأى السكاكى نظر ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ ﴾ عطف على (تولوا) داخل فى حيز التعجيب ، وجوز عطفه على جملة (ما هم منكم) وصيغة المضارع للدلالة على تكرر الحلف ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤ ﴾ حال من فاعل - يحلفون - مفيدة لكمال شناعة ما فعلوا فان الحلف على ما يعلم أنه كذب فى غاية القبح ، واستدل به على أن الكذب يعم ما يعلم المخبر مطابقته للواقع ومالا يعلم مطابقته له فيرد به على مذهبى النظام . والجاحظ إذ عليهما لا حاجة اليه ، وبحث فيه بأنه يجوز أن يراد بالكذب ما خالف اعتقادهم (وهم يعلمون) بمعنى يعلمون خلافه فيكون جملة حالية مؤكدة لا مقيدة ، نعم التأسيس هو الاصل لكنه غير متعين ، والاحتمال يبطل الاستدلال والكذب الذى حلفوا عليه دعواهم الاسلام حقيقة ، وقيل : إنهم ما اشتموا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بناءاً على ماروى « أنه كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جالسا فى ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين ، فقال: إنكم سيأتيكم إنسان ينظر اليكم بعينى شيطان فاذا جاءكم فلا تكلموه فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق فقال عليه الصلاة والسلام حين رآه : علام تشتمنى أنت وأصحابك فقال : ذرنى آتك بهم فانطلق فدعاهم فحلفوا » فنزلت ، وهذا الحديث أخرجه الامام أحمد . والبزار . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . والبيهقى فى الدلائل . وابن مردويه . والحاكم وصححه عن ابن عباس إلا أن آخره « فأنزل الله (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم) » الآية والتى بعدها ، ولعله يؤيد أيضاً اعتبار كون الكذب دعواهم أنهم ما اشتموا ٥

وفى البحر رواية نحو ذلك عن السدى ومقاتل ، وهو - أنه عليه الصلاة والسلام قال لاصحابه : يدخل عليكم رجل قلبه قلب جبار وينظر بعينى شيطان فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق أسمر قصيراً خفيف اللحية فقال ﷺ :

Marfat.com

علام تشتمنى أنت وأصحابك فحلف بالله مافعل فقال له : فعلت فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ماسبوه - فنزلت، والله تعالى أعلم بصحته *

وعبد الله هذا هو الرجل المبهم فى الخبر الأول ، وهو ابن نبتل بفتح النون وسكون الباء الموحدة وبعدها تاء مثناة من فوق ولام ابن الحرث بن قيس الانصارى الأوسى ذكره ابن الكلبي . والبلاذرى فى المنافقين ، وذكره أبو عبيدة فى الصحابة فيحتمل كما قال ابن حجر : إنه اطلع على أنه تاب ، وأما قوله فى القاموس : عبدالله ابن نبيل - كأمير - من المنافقين فيحتمل أنه هو هذا ، واختلف فى ضبط اسم أبيه ويحتمل أنه غيره ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿عَذَاباً شَدِيداً﴾ نوعا من العذاب متفاقما ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٥﴾ ما اعتادوا عمله وتمرنوا عليه ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الفاجرة التى يحلفون بها عند الحاجة ﴿جُنَّةً﴾ وقاية وسترة عن المؤاخذة ، وقرأ الحسن - إيمانهم - بكسر الهمزة أى إيمانهم الذى أظهروه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وخلص المؤمنين ، قال فى الارشاد : والاتخاذ على هذا عبارة عن التستر بالفعل كأنه قيل : تستروا بما أظهروه من الإيمان عن أن تستباح دماؤهم وأموالهم ، وعلى قراءة الجمهور عبارة عن إعدادهم لأيمانهم الكاذبة وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويخلصوا عن المؤاخذة لا عن استعمالها بالفعل فان ذلك متأخر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية ، وعن سببها أيضاً كما يعرب عنه الفاء فى قوله تعالى : ﴿فَصَدُّوا﴾ أى الناس * ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فى خلال أمنهم بتثبيط من لقوا عن الدخول فى الاسلام وتضعيف أمر المسلمين عندهم، وقيل : فصدوا المسلمين عن قتلهم فانه سبيل الله تعالى فيهم ، وقيل : (صدوا) لازم ، والمراد فأعرضوا عن الاسلام حقيقة وهو كما ترى ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٦﴾ وعيد ثان بوصف آخر لعذابهم ، وقيل : الأول عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة ، ويشعر به وصفه بالاهانة المقتضية للظهور فلا تكرار *

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ١٧﴾ قد سبق مثله فى سورة آل عمران ، وسبق الكلام فيه فمن أراده فليرجع اليه ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ تقدم الكلام فى نظيره غير بعيد ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ أى لله تعالى يومئذ قائلين : (والله ربنا ما كنا مشركين) ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ فى الدنيا أنهم مسلمون مثلكم ، والتشبيه بمجرد الحلف لهم فى الدنيا وإن اختلف المحلوف عليه بناء على ماقدمنا من سبب النزول ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ فى الآخرة ﴿أَنَّهُمْ﴾ بتلك الأيمان الفاجرة ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من جلب منفعة أو دفع مضرة كما كانوا عليه فى الدنيا حيث كانوا يدفعون بها عن أرواحهم وأموالهم ويستجرون بها فوائد دنيوية ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَـٰذِبُونَ ١٨﴾ البالغون فى الكذب إلى غاية ليس وراءها غاية حيث تجاسروا على الكذب بين يدى علام الغيوب ، وزعموا أن أيمانهم الفاجرة تروج الكذب لديه عز وجل كما ترقجه عند المؤمنين ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَـٰنُ﴾ أى غلب على عقولهم بوسوسته وتزيينه حتى اتبعوه فكان مستوليا عليهم ، وقال الراغب . الحوذ أن يتبع السائق حاذى البعير أى أدبار فخذيه فيعنف فى سوقه يقال : حاذ الإبل يحوذها أى ساقها

Marfat.com

ليدل على أن الخلاص من بعض أجزيتهم أيضاً ويلزم أن عدم الخلاص جزاء المقابلين من طريق الايماء وموقعه موقع الاعتراض تحقيقاً لتوفير ماعدد لأنه إنما يكون بعد الخلاص ، وفيه إيماء إلى أن إلحاق الأبناء إنما كان تفضلا على الآباء لاعلى الأبناء ابتداءاً لأن التفضل فرع الفك وهؤلاء هم الذين فكوا فاستحقوا التفضل ، وجعله استئنافا بيانياً لهذا المعنى كما فعل الطيبى بعيد ، وقيل : (رهين) فعيل بمعنى الفاعل والمعنى كل امرئ بما كسب راهن أى دائم ثابت ، وفى الارشاد أنه أنسب بالمقام فان الدوام يقتضى عدم المفارقة بين المرء وعمله ، ومن ضرورته أن لاينقص من ثواب الآباء شئ ، فالجملة تعليل لما قبلها ، وأنت تعلم أن فعيلا بمعنى المفعول أسرع تبادراً إلى الذهن فاعتباره أولى ووجه الاتصال عليه أوفق وألطف كما لايخفى *

﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢٢ ﴾ أى وزدناهم على ماكان لهم من مبادى التنعم وقتاً فوقتاً مما يشتهون من فنون النعماء وألوان الآلاء ، وأصل المد الجر ، ومنه المدة للوقت الممتد ثم شاع فى الزيادة ، وغلب الإمداد فى المحبوب ، والمد فى المكروه وكونه وقتا بعد وقت مفهوم المد نفسه ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أى يتجاذبونها فى الجنة هم وجلساؤهم تجاذب ملاعبة كما يفعل ذلك الندامى بينهم فى الدنيا لشدة سرورهم قال الاخطل :

نازعته طيب الراح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة الساري

وقيل : التنازع مجاز عن التعاطى ، والكأس مؤنث سماعى كالخمر ، ولاتسمى كأسا على المشهور إلا إذا امتلأت خمراً أوكانت قريبة من الامتلاء ، وقد تطلق على الخمر نفسها مجازاً لعلاقة المجاورة ، وقال الراغب : الكأس الإناء بما فيه من الشراب ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأسا ، وفسرها بعضهم هنا بالإناء بمافيه من الخمر ، وبعضهم بالخمر ، والاول أوفق بالتجاذب ، والثانى بقوله سبحانه : ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أى فى شربها حيث لايتكلمون فى أثناء الشرب بلغو الحديث وسقط الكلام ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ ولا يفعلون مايؤثم به فاعله أى ينسب إلى الاثم لو فعله فى دار التكليف كما هو ديدن الندامى فى الدنيا وإنما يتكلمون بالحكم وأحاسن الكلام ويفعلون مايفعله الكرام ، وقرأ ابن كثير . وأبو عمرو (لالغو) (ولا تأثيم) بفتحهما ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى بالكأس ﴿ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ أى مماليك مختصون بهم كما يؤذن به اللام ولم يقل غلمانهم بالاضافة لئلا يتوهم أنهم الذين كانوا يخدمونهم فى الدنيا فيشفق كل من خدم أحداً فى الدنيا أن يكون خادماً له فى الجنة فيحزن بكونه لايزال تابعا ، وقيل : أولادهم الذين سبقوهم فالاختصاص بالولادة لا بالملك ، وفيه أن التعبير عنهم بالغلمان غير مناسب وكذا نسبة الخدمة إلى الاولاد لاتناسب مقام الامتنان ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ٢٤ ﴾ مصون فى الصدف لم تنله الايدى - كما قال ابن جبير - ووجه الشبه البياض والصفاء ، وجوز أن يراد بمكنون مخزون لانه لايخزن إلا الحسن الغالى الثمن ، أخرج عبد الرزاق . وابن جرير . وابن المنذر عن قتادة قال : « بلغنى أنه قيل : يارسول الله هذا الخادم مثل اللؤلؤ فكيف بالمخدوم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « والذى نفسى بيده إن فضل مابينهم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » وروى « أن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجئ ألف ببابه لبيك لبيك » *

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ٢٥ ﴾ أى يسأل كل بعض منهم بعضاً آخر عن أحواله وأعماله فيكون

Marfat.com

كل بعض سائلا ومسئولا لا أنه يسأل بعض معين منهم بعضاً آخر معيناً ثم هذا التساؤل فى الجنة كما هو الظاهر، وحكى الطبرى عن ابن عباس أنه إذا بعثوا فى النفخة الثانية ولا أراه يصح عنه لبعده جداً ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أى المسئولون وهم كل واحد منهم فى الحقيقة ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ ﴾ أى قبل هذا الحال ﴿ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ٢٦ ﴾ أرقاء القلوب خائفين من عصيان الله عز وجل معتنين بطاعته سبحانه ، أو وجلين من العاقبة ، و (فى أهلنا) قيل: يحتمل أنه كناية عن كون ذلك فى الدنيا، ويحتمل أن يكون بياناً لكون إشفاقهم كان فيهم وفى أهلهم لتبعيتهم لهم فى العادة ويكون قوله تعالى : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أى بالرحمة والتوفيق ﴿ وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ ﴾ أى عذاب النار النافذة فى المسام نفوذ السموم وهو الريح الحارة المعروفة ، ووجه الشبه وإن كان فى النار أقوى لكنه فى ريح السموم لمشاهدته فى الدنيا أعرف فلذا جعل مشبهاً به ، وقال الحسن : (السموم) اسم من أسماء جهنم عاماً لهم ولأهلهم، فالمراد بيان مامنّ الله تعالى به عليهم من اتباع أهلهم لهم، وقيل : ذكر (فى أهلنا) لإثبات خوفهم فى سائر الأوقات والأحوال بطريق الاولى فان كونهم بين أهليهم مظنة الأمن ولا أرى فيه بأساً ، نعم كون ذلك لأن السؤال عما اختصوا به من الكرامة دون أهليهم ليس بشئ ، وقيل : لعل الاولى أن يجعل ذلك إشارة إلى الشفقة على خلق الله تعالى كما أن قوله عزوجل : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ إلى آخره إشارة إلى التعظيم لامر الله تعالى وترك العاطف بجعل الثانى بيانا للاول ادعاءاً للمبالغة فى وجوب عدم انفكاك كل منهما للآخر ولايخفى مافيه ، والذى يظهر أن هذا إشارة إلى الرجاء وترك العطف لقصد تعداد ماكانوا عليه أى إنا كنا من قبل ذلك نعبده تعالى ونسأله الوقاية ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ﴾ أى المحسن كما يدل عليه اشتقاقه من البر بسائر مواده لأنها ترجع إلى الاحسان - كبرّ فى يمينه - أى صدق لأن الصدق إحسان فى ذاته ويلزمه الاحسان للغير ،وأبرّ الله تعالى حجه أى قبله لأن القبول إحسان وزيادة ، وأبرّ فلان على أصحابه أى علاهم لانه غالباً ينشأ عن الاحسان لهم فتفسيره باللطيف كما روى عن ابن عباس ، أو العالى فى صفاته ، أو خالق البرّ ، أو الصادق فيما وعد أولياءه كما روى عن ابن جريج بعيد إلا أن يراد بعض ماصدقات ، أو غايات ذلك البر ؟ ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الكثير الرحمة الذى إذا عبد أثاب وإذا سئل أجاب ،وقرأ أبو حيوة (ووقانا) بتشديد القاف ، والحسن . وأبو جعفر . ونافع. والكسائى (أنه) بفتح الهمزة لتقدير لام الجر التعليلية قبلها أى لأنه ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ فاثبت على ماأنت عليه من التذكير بما أنزل عليك من الآيات والذكر الحكيم ولاتكترث بما يقولون مما لاخير فيه من الاباطيل ۞

﴿ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَٰهِنٍ ﴾ هو الذى يخبر بالغيب بضرب من الظن ، وخص الراغب الكاهن بمن يخبر بالأخبار الماضية الخفية كذلك، والعراف بمن يخبر بالأخبار المستقبله كذلك ، والمشهور فى الكهانة الاستمداد من الجن فى الاخبار عن الغيب ، والباء فى (بكاهن) مزيدة للتأكيد أى ماأنت كاهن ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ٢٩ ﴾ واختلف فى باء (بنعمة) فقال أبو البقاء : للملابسة ، والجار والمجرور فى موضع الحال والعامل فيه كاهن ، أو مجنون ، والتقدير ماأنت كاهن ولامجنون ملتبسا بنعمة ربك وهى حال لازمة لانه عليه الصلاة والسلام مازال ملتبسا بنعمة ربه عز وجل ، وقيل : للقسم فنعمة ربك مقسم به ، وجواب القسم ماعلم من الكلام وهو - ماأنت بكاهن ولامجنون - وهذا كما تقول : مازيد والله بقائم وهو بعيد ، والاقرب عندى أن الباء للسببية

Marfat.com

واليوم الآخر الذى يحشر المرء فيه مع من أحب أن يهجروا الجميع بالمرة ، وليس المراد بمن ذكر خصوصهم وإنما المراد الأقارب مطلقاً ، وقدم الآباء لأنه يجب على أبنائهم طاعتهم ومصاحبتهم فى الدنيا بالمعروف ، وثنى بالأبناء لأنهم أعلق بهم لكونهم أكبادهم ، وثلث بالأخوان لأنهم الناصرون لهم :

أخاك أخاك إن من لاأخا له كساع إلى الهيجاء بغير سلاح

وختم بالعشيرة لأن الاعتماد عليهم والتناصر بهم بعد الاخوان غالباً :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذاً لقام بنصرى معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
لايسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ماقال برهانا

وقرأ أبو رجاء - وعشائرهم - بالجمع ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ إشارة إلى الذين لايوادونهم وإن كانوا أقرب الناس اليهم وأمسهم رحماً بهم ومافيه من معنى البعد لرفعة درجتهم فى الفضل ، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى :

﴿ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ ﴾ أى أثبته الله تعالى فيها ولما كان الشىء يراد أولا ثم يقال ثم يكتب عبر عن المبدأ بالمنتهى للتأكيد والمبالغة ، وفيه دليل على خروج العمل من مفهوم - الإيمان - فان جزء الثابت فى القلب ثابت فيه قطعاً ، ولاشىء من أعمال الجوارح يثبت فيه *

وقرأ أبو حيوة . والمفضل عن عاصم (كتب) مبنياً للمفعول (الايمان) بالرفع على النيابة عن الفاعل *

﴿ وَأَيَّدَهُم ﴾ أى قواهم ﴿ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أى من عنده عز وجل على أن من ابتدائية ، والمراد بالروح نور القلب وهو نور يقذفه الله تعالى فى قلب من يشاء من عباده تحصل به الطمأنينة والعروج على معارج التحقيق ، وتسميته روحا مجاز مرسل لأنه سبب للحياة الطيبة الأبدية ، وجوز كونه استعارة ، وقول بعض الأجلة : إن نور القلب ماسماه الأطباء روحاً وهو الشعاع اللطيف المتكون فى القلب - وبه الادراك - فالروح على حقيقته ليس بشىء كما لايخفى ، أو المراد به القرآن على الاحتمالين السابقين ، واختيرت الاستعارة أو جبريل عليه السلام وذلك يوم بدر ، وإطلاق الروح عليه شائع أقوال *

وقيل : ضمير (منه) للايمان ، والمراد بالروح الايمان أيضاً ، والكلام على التجريد البديعى - فمن - بيانية أو ابتدائية على الخلاف فيها ، وإطلاق الروح على الايمان على مامر ؛ وقوله تعالى : ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ ﴾ الخ بيان لآثار رحمته تعالى الأخروية إثر بيان ألطافه سبحانه الدنيوية أى ويدخلهم فى الآخرة *

﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أبد الآبدين ، وقوله تعالى : ﴿ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما أفاض سبحانه عليهم من آثار رحمته عز وجل العاجلة والآجلة ، وقوله تعالى ﴿ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ بيان لابتهاجهم بما أوتوه عاجلا وآجلا ، وقوله تعالى: ﴿ أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ﴾ تشريف لهم ببيان اختصاصهم به تعالى ، وقوله سبحانه : ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٢٢ ﴾ بيان لاختصاصهم بسعادة الدارين ، والكلام فى تحلية الجملة - بألا . وإن - على مامر فى أمثالها ، والآية قيل : نزلت فى أبى بكر رضى الله تعالى عنه *

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : حدثت أن أبا قحافة سب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فصكه

Marfat.com

أبو بكر صكة فسقط ؛ فذكر ذلك للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : أفعلت يا أبا بكر ؟ قال : نعم ، قال : لاتعد ، قال : والله لو كان السيف قريباً منى لضربته ـ وفى رواية ـ لقتلته فنزلت (لاتجد قوماً) الآيات ٥

وقيل : فى أبى عبيدة بن عبد الله بن الجراح ، أخرج ابن أبى حاتم . والطبرانى . وأبو نعيم فى الحلية . والبيهقى فى سننه عن ابن عباس عن عبد الله بن شوذب قال : جعل والد أبى عبيدة يتصدى له يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله فنزلت (لاتجد) الخ، وفى الكشاف أن أبا عبيدة قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد ، وقال الواقدى فى قصة قتله إياه : كذلك يقول أهل الشام، وقد سألت رجالا من بنى فهر فقالوا : توفى أبوه قبل الإسلام أى فى الجاهلية قبل ظهور الاسلام انتهى ٥

والحق أنه قتله فى بدر ، أخرج البخارى . ومسلم عن أنس قال: كان ـ أى أبو عبيدة ـ قتل أباه وهو من جملة أسارى بدر بيده لما سمع منه فى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مايكره ونهاه فلم ينته ، وقيل : نزلت فيه حيث قتل أباه . وفى أبى بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز ، وقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : دعنى أكون فى الرعلة الأولى ـ وهى القطعة من الخيل ـ قال : « متعنا بنفسك ياأبا بكر ماتعلم أنك عندى بمنزلة سمعى وبصرى» وفى مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد . وفى عمر قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر . وفى على كرم الله تعالى وجهه . وحمزة . وعبيدة بن الحرث قتلوا عتبة . وشيبة ابنى ربيعة . والوليد بن عتبة يوم بدر ٥

وتفصيل ذلك مارواه أبو داود عن على كرم الله تعالى وجهه قال : لما كان يوم بدر تقدم عتبة ابن ربيعة ومعه ابنه وأخوه فنادى من يبارز ـ إلى قوله ـ فقال رسول الله ﷺ : «قم ياحمزة قم ياعلى قم ياعبيدة ابن الحرث » فأقبل حمزة إلى عتبة وأقبلت إلى شيبة واختلفت بين عبيدة والوليد ضربتان فأثخن كل منهما صاحبه ثم ملنا على الوليد فقتلناه واحتملنا عبيدة ٥

هذا ورتب بعض المفسرين (ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) على قصة أبى عبيدة . وأبى بكر . ومصعب . وعلى كرم الله تعالى وجهه ومن معه ، وقيل : إن قوله تعالى : (لاتجد قوما) الخ نزل فى حاطب بن أبى بلتعة ، والظاهر على ماقيل : إنه متصل بالآى التى فى المنافقين الموالين لليهود ، وأياً ما كان فحكم الآيات عام وإن نزلت فى أناس مخصوصين كما لايخفى ، والله تعالى أعلم ٥

Marfat.com

والأرض؟ قالوا: الله وهم غير موقنين بما قالوا إذ لو كانوا موقنين لما أعرضوا عن عبادته تعالى فان من عرف خالقه وأيقن به امتثل أمره وانقاد له ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ أى خزائن رزقه تعالى ورحمته حتى يرزقوا النبوة من شاءوا ، ويمسكوها عمن شاءوا ، وقال الرمانى: خزائنه تعالى مقدوراته سبحانه ، وقال ابن عطية : المعنى أم عندهم الاستغناء عن الله تعالى فى جميع الامور لان المال والصحة والعزة وغير ذلك من الاشياء من خزائن الله تعالى ، وقال الزهرى : يريد بالخزائن العلم واستحسنه أبو حيان ، وسيأتى إن شاء الله تعالى ما يعلم حاله منه *(أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ٣٧)* الارباب الغالبون حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الامور على إرادتهم ومشيئتهم فالمسيطر الغالب ، وفى معناه قول ابن عباس : المساط القاهر وهو من سيطر على كذا إذا راقبه وأقام عليه وليس مصغراً كما يتوهم ولم يأت على هذه الزنة إلا خمسة ألفاظ أربعة من الصفات، وهى مهيمن. ومسيطر. ومبيقر. ومبيطر ، وواحد من الاسماء ، وهو مجيمر اسم جبل ، وقرأ الاكثر (المصيطرون) بالصاد لمكان حرف الاستعلاء وهو الطاء ، وأشم خلف عن حمزة وخلاد عنه بخلاف الزاى *(أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ)* هو ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ثم جعل اسماً لكل ما يتوصل به إلى شىء رفيع كالسبب أى أم لهم سلم منصوب إلى السماء *(يَسْتَمِعُونَ فيه)* أى صاعدين فيه على أن الجار والمجرور متعلق بكون خاص محذوف وقع حالا والظرفية على حقيقتها ، وقيل : هو متعلق ـ بيستمعون ـ على تضمينه معنى الصعود *

وقال أبو حيان : أى يستمعون عليه أو منه إذ حروف الجر قد يسد بعضها مسد بعض ومفعول (يستمعون) محذوف أى كلام الله تعالى ، قيل: ولو نزل منزلة اللازم جاز ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ٣٨ ﴾ أى بحجة واضحة تصدق استماعه ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ٣٩ ﴾ تسفيه لهم وتركيك لعقولهم ، وفيه إيذان بأن من هذا رأيه لا يكاد يعد من العقلاء فضلا عن الترقى إلى عالم الملكوت وسماع كلام ذى العزة والجبروت والالتفات إلى الخطاب لتشديد الانكار والتوبيخ ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً ﴾ أى على تبليغ الرسالة وهو رجوع إلى خطابه صلى الله تعالى عليه وسلم وإعراض عنهم ﴿ فَهُم ﴾ لأجل ذلك ﴿ مِّن مَّغْرَمٍ ﴾ مصدر ميمى من الغرم والغرامة وهو ـ كما قال الراغب ـ ما ينوب الانسان فى ماله من ضرر لغير جناية منه ، فالكلام بتقدير مضاف أى من التزام مغرم ، وفسره الزمخشرى بالتزام الانسان ماليس عليه فلا حاجة إلى تقدير ـ لكن الذى تقتضيه اللغة هو الاول ـ ﴿ مُّثْقَلُونَ ٤٠ ﴾ أى محملون الثقل فلذلك لا يتبعونك ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ ﴾ أى اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ٤١ ﴾ منه ويخبرون به الناس ـ قاله ابن عباس ـ وقال ابن عطية : أم عندهم علم الغيب فهم يثبتون ما يزعمون للناس شرعاً ، وذلك عبادة الاوثان وتسييب السوائب وغير ذلك من سيرهم ،وقال قتادة : (أم عندهم الغيب) فهم يعلمون متى يموت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذى يتربصون به ، وفسر بعضهم (يكتبون) بيحكمون ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ بك وبشرعك وهو ما كان منهم فى حقه ﷺ بدار الندوة مما هو معلوم من السير ، وهذا من الاخبار بالغيب فان قصة دار الندوة وقعت فى وقت الهجرة وكان نزول السورة قبلها كما تدل عليه الآثار ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ هم المذكورون المريدون كيده عليه الصلاة والسلام،

Marfat.com

ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بما فى حيز الصلة من الكفر وتعليل الحكم به ، وجوز أن يراد جميع الكفرة وهم داخلون فيه دخولا أولياً ﴿ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ٤٢ ﴾ أى الذين يحيق بهم كيدهم ويعود عليهم وباله لا من أرادوا أن يكيدوه وكان وباله فى حق أولئك قتلهم يوم بدر فى السنة الخامسة عشر من النبوة قيل: ولذا وقعت كلمة (أم) مكررة هنا خمس عشرة مرة للاشارة لما ذكر ، ومثله على ما قال الشهاب : لا يستبعد من المعجزات القرآنية وإن كان الانتقال لمثله خفى ومناسبته أخفى ، وجوز أن يكون المعنى هم المغلوبون فى الكيد من كايدته فكدته ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه عز وجل * ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٤٣ ﴾ أى عن إشراكهم على أن ما مصدرية ، أو عن شركة الذى يشركونه على أنها موصولة وقبلها مضاف مقدر والعائد محذوف ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفاً ﴾ قطعة فهو مفرد وقد قرئ فى جميع القرآن كسفاً وكسفاً جمعا وإفراداً إلا هنا فانه على الافراد وحده ، وتنوينه للتفخيم أى وإن يروا كسفاً عظيما *(مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطاً)* لتعذيبهم ۞(يَقُولُوا)۞ من فرط طغيانهم وعنادهم ۞(سَحَابٌ)۞ أى هو سحاب ۞(مَّرْكُومٌ ٤٤)۞ متراكم ملقى بعضه على بعض أى هم فى الطغيان بحيث لو أسقطنا عليهم حسبما قالوا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً لقالوا هو سحاب متراكم يمطرنا ولم يصدقوا أنه كسف ساقط لعذابهم ۞ ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ فدعهم غير مكترث بهم وهو على ما فى البحر أمر موادعة منسوخ بآية السيف ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ ﴾ وقرأ أبو حيوة يلقوا مضارع لقى ﴿ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ٤٥ ﴾ على البناء للمفعول وهى قراءة عاصم. وابن عامر. وزيد بن على. وأهل مكة فى قول شبل بن عباد: من صعقته الصاعقة ، أو من أصعقته ؛ وقرأ الجمهور وأهل مكة فى قول إسمعيل: يصعقون بفتح الياء والعين ، والسلمى بضم الياء وكسر العين من أصعق رباعيا ، والمراد بذلك اليوم يوم بدر ، وقيل : وقت النفخة الأولى فانه يصعق فيه من فى السموات ومن فى الارض ، وتعقب بأنه لا يصعق فيه إلا من كان حيا حينئذ وهؤلاء ليسوا كذلك وبأن قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ أى شيئا من الاغناء بدل من يومهم ، ولا يخفى أن التعرض لبيان عدم نفع كيدهم يستدعى استعمالهم له طمعا بالانتفاع به وليس ذلك إلا ما دبروه فى أمره صلى الله تعالى عليه وسلم من الكيد الذى من جملته مناصبتهم يوم بدر ، وأما النفخة الاولى فليست مما يجرى فى مدافعته الكيد والحيل ، وأجيب عن الأول بمنع اختصاص الصعق بالحى فالموتى أيضا يصعقون وهم داخلون فى عموم (من) وإن لم يكن صعقهم مثل صعق الاحياء من كل وجه وهو خلاف الظاهر فيحتاج إلى نقل صحيح ، وعن الثانى بأن الكلام على نهج قوله :

* على لاحب لا يهتدى بمناره * فالمعنى يوم لا يكون لهم كيد ولا إغناء وهو كثير فى القرآن وباب من أبواب البلاغة والاحسان ، وقيل: هو يوم القيامة - وعليه الجمهور - وفيه بحث ، وقيل: هو يوم موتهم ، وتعقب بأن فيه ما فيه مع أنه تأباه الاضافة المنبئة عن اختصاصه بهم فلا تغفل ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤٦ ﴾ من جهة الغير فى دفع العذاب عنهم ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ أى لهم ووضع الموصول موضع الضمير لما ذكر قبل وجوز العموم وهم داخلون دخولا أوليا ﴿ عذابا ﴾ آخر ﴿ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ دون ما لاقوه من القتل أى قبله وهو - كما قال مجاهد -

Marfat.com

إلى الشام فيكون لهم آخر حشر اليه أيضاً ليتم التقابل ، وهو يوم القيامة من القبور ، ولا يخفى أنه ضعيف الدلالة ؛ وفى البحر عن عكرمة . والزهرى أنهما قالا : المعنى لأول موضع الحشر وهو الشام ، وفى الحديث أنه ﷺ قال لهم : « اخرجوا قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى أرض المحشر » ولا يخفى ضعف هذا المعنى أيضاً ، وقيل : آخر حشرهم أن ناراً تخرج قبل الساعة فتحشرهم كسائر الناس من المشرق إلى المغرب ، وعن الحسن أنه أريد حشر القيامة أى هذا أوله والقيام من القبور آخره ، وهو كما ترى ، وقيل : المعنى أخرجهم من ديارهم لاول جمع حشره النبى ﷺ أو حشره الله عز وجل لقتالهم لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن قبل قصد قتالهم ، وفيه من المناسبة لوصف العزة مالا يخفى ، ولذا قيل : إنه الظاهر ، وتعقب بأن النبى ﷺ لم يكن جمع المسلمين لقتالهم فى هذه المرة أيضاً ولذا ركب عليه الصلاة والسلام حماراً مخطوما بليف لعدم المبالاة بهم وفيه نظر ، وقيل : لأول جمعهم للمقاتلة مع المسلمين لأنهم لم يجتمعوا لها قبل ، والحشر إخراج جمع سواء كان من الناس لحرب أولا ، نعم يشترط فيه كون المحشور جمعاً من ذوى الأرواح لا غير ، ومشروعية الإجلاء كانت فى ابتداء الاسلام ، وأما الآن فقد نسخت ، ولا يجوز إلا القتل . أو السبى . أو ضرب الجزية ﴿ مَا ظَنَنتُمْ ﴾ أيها المسلمون ﴿ أَن يَخْرُجُوا ﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم ووثاقة حصونهم وكثرة عددهم وعدتهم ٥

﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى ظنوا أن حصونهم مانعتهم أو تمنعهم من بأس الله تعالى - فحصونهم - مبتدأ ، (ومانعتهم) خبر مقدم ، والجملة خبر (أن) وكان الظاهر لمقابلة (ماظننتم أن يخرجوا) وظنوا أن لا يخرجوا والعدول إلى مافى النظم الجليل للاشعار بتفاوت الظنين ، وأن ظنهم قارب اليقين فناسب أن يؤتى بما يدل على فرط وثوقهم بما هم فيه فجىء - بمانعتهم . وحصونهم - مقدما فيه الخبر على المبتدأ ؛ ومدار الدلالة التقديم لما فيه من الاختصاص فكأنه لا حصن أمنع من حصونهم ، وبما يدل على اعتقادهم فى أنفسهم أنهم فى عزة ومنعة لا يبالى معهما بأحد يتعرض لهم أو يطمع فى معازتهم ، فجىء بضمير - هم - وصير اسما - لأن - وأخبر عنه بالجملة لما فى ذلك من التقوى على ما فى الكشف . وشرح الطيبى ، وفى كون ذلك من باب التقوى بحث ، ومنع بعضهم جواز الاعراب السابق بناءاً على أن تقديم الخبر المشتق على المبتدأ المحتمل للفاعلية لا يجوز كتقديم الخبر إذا كان فعلا ، وصحح الجواز فى المشتق دون الفعل ، نعم اختار صاحب الفرائد أن يكون (حصونهم) فاعلا - لمانعتهم - لاعتماده على المبتدا *

وجوز كون (مانعتهم) مبتدأ خبره (حصونهم) ، وتعقب بأن فيه الاخبار عن النكرة بالمعرفة إن كانت إضافة مانعة لفظية ، وعدم كون المعنى على ذلك إن كانت معنوية بأن قصد استمرار المنع فتأمل ، وكانت (حصونهم) على ماقيل : أربعة الكتيبة . والوطيح . والسلالم . والنطاة ، وزاد بعضهم الوخدة (١) وبعضهم شقا ، والذى فى القاموس أنه موضع بخيبر أو واد به ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أى أمره سبحانه ، وقدره عز وجل المتاح لهم ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ ولم يخطر ببالهم ؛ وهو على ماروى عن السدى . وأبى صالح . وابن جريج

(١) قوله : الكتيبة بالتاء المثناة والتصغير . والوطيح بفتح الواو وكسر الطاء وبالمهملة . والسلالم بضم السين ، وقيل : بفتحها ، ويقال فيه : السلاليم . والنطاة من النطو . والوخدة بفتح الواو وسكون المعجمة بعدها مهملة اه منه

Marfat.com

قتل رئيسهم كعب بن الأشرف فانه مما أضعف قوتهم وقلّ شوكتهم وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة ، وقيل : ضمير (أتاهم) و(لم يحتسبوا) للمؤمنين أى فأتاهم نصر الله من حيث لم يحتسبوا ، وفيه تفكيك الضمائر ٭

وقرئ فآتاهم الله ، وهو حينئذ متعد لمفعولين . ثانيهما محذوف أى فآتاهم الله العذاب أو النصر

﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ أى الخوف الشديد من رعبت الحوض إذا ملأته لأنه يتصور فيه أنه ملأ القلب، وأصل القذف الرمى بقوة أو من بعيد ، والمراد به هنا للعرف إثبات ذلك وركزه فى قلوبهم ٭

﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ليسدوا بما نقضوا منها من الخشب والحجارة أفواه الازقة ، ولئلا تبقى صالحة لسكنى المسلمين بعد جلائهم ولينقلوا بعض آلاتها المرغوب فيها مما يقبل النقل كالخشب والعمد والأبواب

﴿ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ حيث كانوا يخربونها من خارج ليدخلوها عليهم وليزيلوا تحصنهم بها وليتسع مجال القتال ولتزداد نكايتهم ، ولما كان تخريب أيدى المؤمنين بسبب أمر أولئك اليهود كان التخريب بأيدى المؤمنين كأنه صادر عنهم ، وبهذا الاعتبار عطفت (أيدى المؤمنين) على - أيديهم - وجعلت آلة لتخريبهم مع أن الآلة هى أيديهم أنفسهم - فيخربون - على هذا إما من الجمع بين الحقيقة والمجاز أو من عموم المجاز ، والجملة إما فى محل نصب على الحالية من ضمير (قلوبهم) أولا محل لها من الاعراب ، وهى إما مستأنفة جواب عن سؤال تقديره فما حالهم بعد الرعب؟ أو معه . أو تفسير للرعب بادعاء الاتحاد لأن مافعلوه يدل على رعبهم إذ لولاه ماخربوها

وقرأ قتادة . والجحدى . ومجاهد . وأبو حيوة . وعيسى . وأبو عمرو (يخربون) بالتشديد وهو للتكثير فى الفعل أو فى المفعول، وجوز أن يكون فى الفاعل، وقال أبو عمرو بن العلاء : خرب بمعنى هدم وأفسد ، وأخرب ترك الموضع خرابا وذهب عنه ، فالإخراب يكون أثر التخريب ، وقيل : هما بمعنى عدى خرب اللازم بالتضعيف تارة. وبالهمزة أخرى ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ٢ ﴾ فاتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة على وجه لا تكاد تهتدى اليه الأفكار ، واتقوا مباشرة ماأداهم اليه من الكفر والمعاصى ، واعبروا من حالهم فى غدرهم واعتمادهم على غير الله تعالى - الصائرة سبباً لتخريب بيوتهم بأيديهم وأيدى أعدائهم ومفارقة أوطانهم مكرهين- إلى حال أنفسكم فلا تعولوا على تعاضد الاسباب وتعتمدوا على غيره عز وجل بل توكلوا عليه سبحانه ٭

واشتهر الاستدلال بالآية على مشروعية العمل بالقياس الشرعى ، قالوا: إنه تعالى أمر فيها بالاعتبار وهو العبور والانتقال من الشىء إلى غيره ، وذلك متحقق فى القياس إذا فيه نقل الحكم من الأصل إلى الفرع ، ولذا قال ابن عباس فى الأسنان : اعتبر حكمها بالأصابع فى أن ديتها متساوية ، والأصل فى الاطلاق الحقيقة وإذ ثبت الأمر - وهو ظاهر فى الطلب الغير الخارج عن اقتضاء الوجوب أو الندب- ثبتت مشروعية العمل بالقياس، واعترض بعد تسليم ظهور الأمر فى الطلب بأنا لانسلم أن الاعتبار ماذكر بل هو عبارة عن الاتعاظ لأنه المتبادر حيث أطلق ، ويقتضيه فى الآية ترتيبه بالفاء على ماقبله كما فى قوله تعالى : (إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) (وإن لكم فى الأنعام لعبرة) ولأن القائس فى الفرع إذا قدم على المعاصى ولم يتفكر فى أمر آخرته يقال : إنه غير معتبر ، ولو كان القياس هو الاعتبار - لم يصح هذا السلب - سلمنا لكن ليس فى الآية صيغة عموم تقتضى العمل بكل قياس بل هى مطلقة - فيكفى فى العمل بها العمل بالقياس العقلى - سلمنا لكن العام مخصص بالاتفاق إذ قلتم : إنه إذا قال لوكيله : أعتق غانما لسواده لايجوز تعديه ذلك إلى سالم ، وإن كان أسود،

Marfat.com

جىء بصريح حرف الاضراب فى الرد فقيل : (بل لا يؤمنون) وعقب بقوله تعالى:(فليأتوا) ثم من لا يؤمن أشد إنـكاراً له من الطاغى كما أن المفترى أدخل فى الـكذب من الشاعر ، ثم أخذ فى أسلوب أبلغ فى الرد على مقالاتهم الجنون والـكهانة لتقاربهما ، ثم الشعر ، ثم الأفتراء حيث نزل القائلين منزلة من يدعى أنه خلق من غير شىء أى مقدر وخالق وإلا لأهمهم البحث عن صفاته وأفعاله فلم ينكروا منك ماأنـكروا ، ومن حسب أنه مستغن عن الموجد نسب رسوله إلى الجنون والـكهانة لا بل كمن يدعى أنه خالق نفسه فلا خالق له ليبحث عن صفاته فهو ينسبه إلى الشعر إذ لا يرسل إليه البتة ، والشعر أدخل فى الـكذب لا بل كمن يدعى أنه خلق السموات والأرض وما بينهما فهو ينسبه الى الأفتراء حيث لم يرسله ، ثم أضرب صريحاً عنه بقوله تعالى : (بل لا يوقنون) ومن لا إيقان له بمثل هذا البديهى لا يبعد أن يزنك بما زن ، فكأنه قيل : مقالتهم تلك تؤدى إلى هذه لأنهم كانوا قائلين بها إظهاراً لتماديهم فى العناد ، ثم بولغ فيه فجىء بما يدل على أن الرسول لا بد أن يكون مفتريا غير صالح للنبوة فى زعمهم ، فالأول لما لم يمنع تعدد الآلهة إنما يدل على افترائه من حيث أن أحد الخالقين لا يدعو الآخر إلى عبادته ، والثانى يمنعه بالـكلية لأنه إذا كان عندهم جميع خزائن ربه وهم ما أرسلوه لزم أن يكون مفتريا ألبتة ، وأدمج فيه إنكارهم للمعاد ، ونسبتهم إياه صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك أيضا خاصة إلى الافتراء ، والحمل على خزائن القدرة أظهر لأن (أم عندهم الغيب) إشارة إلى خزائن العلم ولما كان المقصود هنالك أمر البعث على ما سيحقق إن شاء الله تعالى كان هذا القول أيضا من القبول بمكان ولا يخفى مافى قوله تعالى : (أم هم المسيطرون) من الترقى ثم لما فرغ من ذلك وبين فساد مابنوا عليه أمر الانكار بدليل العقل قيل : لم يبق إلا المشاهدة والسماع منه تعالى وهو أظهر استحالة فتهكم بهم ، وقيل : (بل لهم سلم يستمعون) وذيل بقوله تعالى : (أم له البنات) إشعاراً بأن من جعل خالقه أدون حالا منه لم يستبعد منه تلك المقالات الخرقاء كأنه سلى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيل : ناهيك بتساوى الطعنين فى البطلان وبما يلقون من سوء مغبتهما ، ثم قيل : (أم تسألهم أجراً) أى إن القوم أرباب ألباب وليسوا من تلك الأوصاف فى شىء بل الذى زهدهم فيك أنك تسألهم أجراً مالا ، أو جاها ، أو ذكراً ، وفيه تهكم بهم وذم لهم بالحسد واللؤم وأنهم مع قصور نظرهم عن أمر الميعاد لا يبنون الأمر على المتعارف المعتاد إذ لا أحد من أهل الدنيا وذوى الأخطار يجبه الناصح المبرأ ساحته عن لوث الطمع بتلك المقالات على أنه حسد لا موقع له عند ذويه فليسوا فى أن يحصل لهم نعمة النبوة ولا هو ممن يطمع فى نعمهم إحدى الثلاث ، ثم قيل : (أم عندهم الغيب) على معنى بل أعندهم اللوح فيعلمون كل ما هو كائن ويـكتبون فيه تلك المعلومات وقد علموا أن ما تدعيه من المعاد ليس من الـكائن المـكتوب ، والمقصود من هذا نفى المنبأ به أعنى البعث على وجه يتضمن دفع النبوة أيضا إدماجا عكس الأول ولهذا أخره عن قوله تعالى : (أم لهم سلم) فقد سلف أن مصب الغرض حديث النبأ والمنبأ والمنبأ به فقضى الوطر من الأولين مع الرمز الى الأخير ، ثم أخذ فيه مع الرمز اليهما قضاءاً لحق الاعجاز ، ففى الغيب إشارة إلى الغيب أعنى الساعة أول كل شىء وفيه ترق فى الدفع من وجه أيضا لأن العلم أشمل مورداً من القدرة ولأن الأول إنـكار من حيث أنهم لم يرسلوه ، وهذا من تلك الحيثية ، ومن حيث أنهم ماعلموا بإرسال غيره إياه أيضا مع إحاطة علمهم لـكنه غير مقصود قصداً أولياً ، ثم ختم الـكلام بالإضراب عن الإنكار إلى الاخبار عن حالهم بأنهم يريدون بك كيداً فهم ينصبون لك الحبائل قولا وفعلا

Marfat.com

لا يقفون على هذه المقالة وحدها وهم المـكيدون لا أنت قولا وفعلا وحجة وسيفاً ، وحقق ماضمنه من الوعيد بقوله سبحانه : (أم لهم إله غير الله) فينجيهم من كيده وعذابه لا والله سبحان الله عن أن يكون إله غيره، ومنه يظهر أن حمل الذين كفروا على المريدين به كيداً أظهر فى هذا المسـاق انتهى ، وكأن ما بعد تأكيداً لأمر (١) طغيانهم ومزيد تحقيق للوعيد ومبالغة فى التسلية ، ويعلم مما ذكره ـ لازالت رحمة الله تعـالى عليه متصلة ـ أن (أم) فى كل ذلك منقطعة وهى مقدرة ببل الاضرابية ، والاضراب ههنا واقع على سبيل الترقى وبالهمزة وهى للإنكار وهو ما اختاره أبو البقاء و كثير من المفسرين ، وحكى الثعلبى عن الخليـل أنها متصلة والمراد بها الاستفهام ، وعليك بما أفاده كلام ذلك الهمام والله تعالى أعلم*

﴿ ومما ذكروه من باب الاشارة فى بعض الآيات ﴾ (والطور) إشارة إلى قالب الانسان (وكتاب مسطور) إشارة إلى سره (فى رق منشور) إشارة إلى قلبه (والبيت المعمور) إشارة إلى روحه (والسقف المرفوع) إشارة إلى صفته (والبحر المسجور) إشارة إلى نفسه المسجورة بنيران الشهوة والغضب والكبر، وقيل : ـ الطور ـ إشارة إلى ماطار من الارواح من عالم القدس والملـكوت حتى وقع فى شباك عالم الملك ـ والـكتاب المسطور فى الرق المنشور ـ إشارة إلى النقوش الإلهية المدركة بأبصار البصائر القدسية المكتوبة فى صحائف الآفاق (والبيت المعمور) إشارة إلى قلب المؤمن المعمور بالمعرفة والاخلاص (والسقف المرفوع) إشارة إلى العالم العلوى المرفوع عن أرض الطبيعة (والبحر المسجور) إشارة إلى بحر القدرة المملوء من أنواع المقدورات التى لا تتناهى، وقيل : إشارة إلى الفضاء الذى فيه الملائـكة المهيمون ، ووصفه ـ بالمسجور ـ إما لأنه مملوء منهم ، وإما لأنه سجر بنيران الهيام ولذا لا يعلم أحدهم بسوى الله عز وجل ، وقيل : غير ذلك (فويل يومئذ للمكذبين الذين هم فى خوض يلعبون) أى يخوضون فى غمرات البحر اللجى الدنيوى ويلعبون فيها بزبدها الباطل ومتاعها القليل ويكذبون المستخلصين عن الاكدار المتحابين بالانوار إذ أنذروهم أن المتقين هم أضداد أولئك (فاكهين بما آتاهم ربهم) مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) وهو عذاب الحجاب (كلوا) من ثمرات المعارف المختصة باللطيفة النفسية (واشربوا) من مياه العيون المختصة باللطيفة القلبية (وسبح بحمد ربك حين تقوم) أى مقام العبودية (ومن الليل فسبحه) أى عند نزول السكينة عليك (وإدبار النجوم) أى عند ظهور نور شمس الوجه ، وتسبيحه سبحانه عند ذلك بالاحتراز عن إثبات وجود غير وجوده تعالى الحق فان إثبات ذلك شرك مطلق فى ذلك المقام أعاذنا الله تعالى وإياكم من الشرك بحرمة الحبيب عليه الصلاة والسلام*

(١) هكذا الأصل وصوابه «تأكيد لأمر طغيانهم» برفع تأكيد

Marfat.com

على صاحبه غير الغارس له ، وقد سمعت بعض الغارسين يقول : السعفة عندى كأصبع من أصابع يدى ، وتحقق الحسرة على الذهاب إن كانت المقطوعة النخلة الكريمة أظهر ، وكذا تحققها على البقاء فى أيدى أعدائهم المسلمين إن كانت هى المتروكة ، والذى تدل عليه بعض الآثار أن بعض الصحابة كان يقطع الكريمة وبعضهم يقطع غيرها وأقرهما النبى ﷺ لما أفصح الأول بأن غرضه إغاظة الكفار ، والثانى بأنه استبقاء الكريمة للمسلمين ، وكان ذلك أول نزول المسلمين على أولئك الكفرة ومحاصرتهم لهم ، فقد روى أنه عليه الصلاة والسلام أمر فى صدر الحرب بقطع نخيلهم فقالوا : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد فى الارض فما بال قطع النخل وتحريقها؟! فنزلت الآية (ماقطعتم من لينة) الخ ، ولم يتعرض فيها للتحريق لأنه فى معنى القطع فاكتفى به عنه ، وأما التعرض للترك مع أنه ليس بفساد عندهم أيضاً فلتقرير عدم كون القطع فساداً لنظمه فى سلك ماليس بفساد إيذانا بتساويهما فى ذلك ٭

واستدل بالآية على جواز هدم ديار الكفرة وقطع أشجارهم وإحراق زروعهم زيادة لغيظهم ، وحاصل ماذكره الفقهاء فى المسألة أنه إن علم بقاء ذلك فى أيدى الكفرة فالتخريب والتحريق أولى ، وإلا فالابقاء أولى مالم يتضمن ذلك مصلحة ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ ﴾ شروع فى بيان حال ماأخذ من أموالهم بعد بيان ماحل بأنفسهم من العذاب العاجل والآجل ومافعل بديارهم ونخيلهم من التخريب والقطع أى ماأعاده الله تعالى إلى رسوله ﷺ من أولئك الكفرة - وهم بنو النضير - و(ما) موصولة مبتدأ ، والجملة بعدها صلة ، والعائد محذوف كما أشرنا اليه ، والجملة المقترنة بالفاء بعد خبر ، ويجوز كونها شرطية ، والجملة بعد جواب ، والمراد بما أفاء سبحانه عليه صلى الله تعالى عليه وسلم منهم أموالهم التى بقيت بعد جلائهم ، والمراد بإعادتها عليه عليه الصلاة والسلام تحويلها اليه ، وهو إن لم يقتض سبق حصولها له ﷺ نظير ماقيل فى قوله تعالى : (أو لتعودن فى ملتنا) ظاهر وإن اقتضى سبق الحصول كان فيما ذكر مجازاً ، وفيه إشعار بأنها كانت حرية بأن تكون له ﷺ وإنما وقعت فى أيديهم بغير حق فأرجعها الله تعالى إلى مستحقها ، وكذا شأن جميع أموال الكفرة التى تكون فيئاً للمؤمنين لأن الله عز وجل خلق الناس لعبادته وخلق ماخلق من الأموال ليتوسلوا به إلى طاعته فهو جدير بأن يكون للمطيعين ، ولذا قيل للغنيمة التى لاتلحق فيها مشقة : فئ مع أنه من فاء الظل إذا رجع ، ونقل الراغب عن بعضهم أنه سمى بذلك تشبيها بالفئ الذى هو الظل تنبيها على أن أشرف أعراض الدنيا يجرى مجرى ظل زائل ، و(أفاء) على مافى البحر بمعنى المضارع أما إذا كانت (ما) شرطية فظاهر ، وأما إذا كانت موصولة فلأنها إذا كانت الفاء فى خبرها تكون مشبهة باسم الشرط فان كانت الآية نازلة قبل جلائهم كانت مخبرة بغيب ، وإن كانت نزلت بعد جلائهم وحصول أموالهم فى يد الرسول ﷺ كانت بيانا لمايستقبل ، وحكم الماضى حكمه ، والذى يدل عليه الاخبار أنها نزلت بعد ، روى أن بنى النضير لما أجلوا عن أوطانهم وتركوا رباعهم وأموالهم طلب المسلمون تخميسها كغنائم بدر فنزل (ماأفاء الله على رسوله منهم) ﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ الخ فكانت لرسول الله ﷺ خاصة ، فقد أخرج البخارى . ومسلم . وأبو داود . والترمذى . والنسائى . وغيرهم عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله تعالى على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولاركاب وكانت لرسول الله ﷺ خاصة فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ثم يجعل مابقى فى السلاح والكراع عدة فى سبيل الله تعالى ٭

Marfat.com

وقال الضحاك : كانت له ﷺ خاصة فآثر بها المهاجرين وقسمها عليهم ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا أبا دجانة سماك بن خرشة. وسهل بن حنيف. والحرث بن الصمة أعطاهم لفقرهم ، وذكر نحوه ابن هشام إلا أنه ذكر الأولين ولم يذكر الحرث، وكذا لم يذكره ابن سيد الناس ، وذكر أنه أعطى سعد بن معاذ سيفاً لابن أبى الحقيق كان له ذكر عندهم ، ومعنى (ما أوجفتم عليه) ماأجريتم على تحصيله من الوجيف وهو سرعة السير ، وأنشد عليه أبو حيان قول نصيب :

ألا ربّ ركب قدقطعت وجيفهم إليك ولولاأنت لم توجف الركب

وقال ابن هشام : (أوجفتم) حركتم وأتعبتم فى السير ، وأنشد قول تميم بن مقبل :

مذ أويد بالبيض الحديث صقالها عن الركب أحيانا إذا الركب أوجفوا

والمآل واحد ، و(من) فى قوله تعالى : ﴿ مِنْ خَيْلٍ ﴾ زائدة فى المفعول للتنصيص على الاستغراق كأنه قيل ـ فما أوجفتم عليه ـ فرداً من أفراد الخيل أصلا ﴿ وَلَا رِكَابٍ ﴾ ولا مايركب من الابل غلب فيه كما غلب الراكب على راكبه فلا يقال فى الأكثر الفصيح : راكب لمن كان على فرس . أو حمار ونحوه بل يقال : فارس ونحوه ، وإن كان ذلك عاما لغيره وضعا ، وإنما لم يعملوا الخيل ولا الركاب بل مشوا إلى حصون بنى النضير رجالا إلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فانه كان على حمار . أو على جمل ـ كما تقدم ـ لأنها قريبة على نحو ميلين من المدينة فهى قريبة جداً منها ، وكان المراد إن ماحصل لم يحصل بمشقة عليكم وقتال يعتد به منكم ، ولهذا لم يعط صلى الله تعالى عليه وسلم الأنصار إلا من سمعت ، وأما إعطاؤه المهاجرين فلعله لكونهم غرباء فنزلت غربتهم منزلة السفر والجهاد ، ولما أشير إلى نفى كون حصول ذلك بعملهم أشير إلى علة حصوله بقوله عز وجل : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ أى ولكن سنته عز وجل جارية على أن يسلط رسله على من يشاء من أعدائهم تسليطاً خاصاً ، وقد سلط رسوله محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم على هؤلاء تسليطا غير معتاد من غير أن تقتحموا مضايق الخطوب وتقاسوا شدائد الحروب فلا حق لكم فى أموالهم ، ويكون أمرها مفوضا اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٦ ﴾ فيفعل مايشاء كما يشاء تارة على الوجوه المعهودة ، وأخرى على غيرها ، وقيل : الآية فى فدك لأن بنى النضير حوصروا وقوتلوا دون أهل فدك وهو خلاف ماصحت به الأخبار ، والواقع من القتال شىء لا يعتد به ه

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ بيان لحكم ماأفاءه الله تعالى على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم من قرى الكفار على العموم بعد بيان حكم ماأفاءه من بنى النضير كما رواه القاضى أبو يوسف فى كتاب الخراج عن محمد بن إسحق عن الزهرى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، ويشعر به كلامه رضى الله تعالى عنه فى حديث طويل فيه مرافعة على كرم الله تعالى وجهه . والعباس فى أمر فدك أخرجه البخارى . ومسلم . وأبو داود . والترمذى . والنسائى . وغيرهم فالجملة جواب سؤال مقدر ناشىء ممافهم من الكلام السابق فكأن قائلا يقول : قد علمنا حكم ماأفاء الله تعالى من بنى النضير فما حكم ماأفاء عز وجل من غيرهم ؟ فقيل : (ماأفاء الله على رسوله من أهل القرى) الخ ، ولذا لم يعطف على ماتقدم ، ولم يذكر فى الآية قيد الإيجاف ولاعدمه ، والذى يفهم من كتب بعض الشافعية أن ماتضمنته حكم

Marfat.com

إذا لاخلاف فيه فيجرى المستقبل مجرى المحقق الماضى ، وقيل : إنه متعلق بعامل هو حال من النجم ، وأورد عليه أن الزمان لايكون خبرا ولا حالا عن جثة كما هنا ، وأن (إذا) للمستقبل فكيف يكون حالا إلا أن تكون حالا مقدرة أوتجرد (إذا) لمطلق الوقت كما يقال بصحبة الحالية إذا أفادت معنى معتداً به ، فمجىء الزمان خبراً أو حالا عن جثة ليس ممنوعا على الاطلاق كما ذكره النحاة ، أو النجم لتغيره طلوعا وغروبا أشبه الحدث ، والانصاف أن جعله حالا كتعلقه بمصدر محذوف ليس بالوجه ، وإنما الوجه ، - على ما قيل - ما سمعت من تعلقه بأقسم منسلخا عنه معنى الاستقبال وهو الذى اختاره فى المغنى ، وتخصيص القسم بوقت الهوى ظاهر على الأخير من الأقوال الثلاثة ، وأما على الأولين فقيل : لان النجم لايهتدى به السارى عند كونه فى وسط السماء ولايعلم المشرق من المغرب ولا الشمال من الجنوب ، وإنما يهتدى به عند هبوطه ، أو صعوده مع مافيه من كمال المناسبة لما سيحكى من التدلى والدنو ، وقيل : لدلالته على حدوثه الدال على الصانع وعظيم قدرته عز وجل كما قال الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأكمل السلام (لاأحب الآفلين) وسيأتى إن شاء الله تعالى آخر الكتاب تمام الكلام فى تحقيق إعراب مثل هذا التركيب فلاتغفل ﴿ وَمَا يَنطِقُ ﴾ أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لتقدم ذكره فى قوله سبحانه:(صاحبكم) والنطق مضمن معنى الصدور فلذا عدى بعن فى قوله تعالى : ﴿عَنِ الْهَوَىٰ ٣﴾ وقيل : هى بمعنى الباء وليس بذاك أى مايصدر نطقه فيما آتاكم به من جهته عز وجل كالقرآن ، أومن القرآن عن هوى نفسه ورأيه أصلا فان المراد استمرار النفى كما مر مراراً فى نظائره ﴿إِنْ هُوَ﴾ أى ما الذى ينطق به من ذلك أو القرآن وكل ذلك مفهوم من السياق ﴿إِلَّا وَحْىٌ﴾ من الله عز وجل ﴿يُوحَىٰ ٤﴾ يوحيه سبحانه اليه ، والجملة صفة مؤكدة لوحى رافعة لاحتمال المجاز مفيدة للاستمرار التجددى ، وقيل : ضمير (ينطق) للقرآن فالآية كقوله تعالى : (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) وهو خلاف الظاهر ، وقيل : المراد مايصدر نطقه عليه الصلاة والسلام مطلقاً عن هوى وهو عائد لما ينطق به مطلقا أيضا

واحتج بالآية على هذا التفسير من لم ير الاجتهاد له عليه الصلاة والسلام كأبى على الجبائى وابنه أبى هاشم ، ووجه الاحتجاج أن الله تعالى أخبر بأن جميع ماينطق به وحى وما كان عن اجتهاد ليس بوحى فليس مما ينطق ، وأجيب بأن الله تعالى إذا سوغ له عليه الصلاة والسلام الاجتهاد كان الاجتهاد وما يسند اليه وحياً لانطقاً عن الهوى ، وحاصله منع كبر القياس ، واعترض عليه بأنه يلزم أن تكون الأحكام التى تستنبطها المجتهدون بالقياس وحياً ، وأجيب بأن النبى عليه الصلاة والسلام أوحى اليه أن يجتهد بخلاف غيره من المجتهدين ، وقال القاضى البيضاوى : إنه حينئذ بالوحى لاوحى ، وتعقبه صاحب الكشف بأنه غير قادح لأنه بمنزلة أن يقول الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : متى ما ظننت بكذا فهو حكمى أى كل ما ألقيته فى قلبك فهو مرادى فيكون وحياً حقيقة ، والظاهر أن الآية واردة فى أمر التنزيل بخصوصه وإن كان مثله الاحاديث القدسية والاستدلال بها على أنه عليه الصلاة والسلام غير متعبد بالوحى محوج لارتكاب خلاف الظاهر وتكلف فى دفع نظر البيضاوى عليه الرحمة كما لايخفى على المنصف ، ولايبعد عندى أن يحمل قوله تعالى :(وما ينطق عن الهوى) على العموم فان من يرى الاجتهاد له عليه الصلاة والسلام كالامام أحمد . وأبى يوسف عليهما الرحمة

Marfat.com

لايقول بأن ما ينطق به صلى الله تعالى عليه وسلم مما أدى اليه اجتهاده صادر عن هوى النفس وشهوتها حاشا حضرة الرسالة عن ذلك وإنما يقول هو واسطة بين ذلك وبين الوحى ويجعل الضمير فى قوله سبحانه : (إن هو إلا وحى) للقرآن على أن الكلام جواب سؤال مقدر كأنه قيل . إذا كان شأنه عليه الصلاة والسلام أنه ماينطق عن الهوى فما هذا القرآن الذى جاء به وخالف فيه ما عليه قومه واستمال به قلوب كثير من الناس وكثرت فيه الاقاويل ؟ فقيل : ماهو إلا وحى يوحيه الله عز وجل اليه صلى الله تعالى عليه وسلم فتأمل ،وفى الكشف أن فى قوله تعالى : (ماينطق)مضارعاً مع قوله سبحانه :(ماضل)(وماغوى)مايدل على أنه عليه الصلاة والسلام حيث لم يكن له سابقة غواية وضلال منذ تميز وقبل تحنثه واستنبائه لم يكن له نطق عن الهوى كيف وقد تحنث ونبئ، وفيه حث لهم على أن يشاهدوا منطقه الحكيم ﴿عَلَّمَهُ﴾ الضمير للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والمفعول الثانى محذوف أى القرآن، أو الوحى ؛وجوز أبو حيان كون الضمير للقرآن، وأن المفعول الأول محذوف أى علمه الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ ٥﴾هو جبريل عليه السلام كما قال ابن عباس. وقتادة . والربيع ، فانه الواسطة فى إبداء الخوارق وناهيك دليلا على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط من الماء الاسود الذى تحت الثرى وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح بثمود صيحة فأصبحوا جاثمين وكان هبوطه على الأنبياء عليهم السلام وصعوده فى أسرع من رجعة الطرف ، فهو لعمرى أسرع من حركة ضياء الشمس على ماقرروه فى الحكمة الجديدة ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذو حصافة واستحكام فى العقل كما قال بعضهم ، فكأن الأول وصف بقوة الفعل ، وهذا وصف بقوة النظر والعقل لكن قيل : إن ذاك بيان لما وضع له اللفظ فان العرب تقول لكل قوى العقل والرأى (ذو مرة) من أمررت الحبل إذا أحكمت فتله. وإلا فوصف الملك بمثله غير ظاهر فهو كناية عن ظهور الآثار البديعة ، وعن سعيد بن المسيب ذو حكمة لأن كلام الحكماء متين، وروى الطستى أن نافع بن الازرق سأل ابن عباس عنه فقال:ذو شدة فى أمر الله عز وجل واستشهد له ، وحكى الطيبى عنه أنه قال:ذو منظر حسن واستصوبه الطبرى، وفى معناه قول مجاهد،ذو خلق حسن:وهو فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لاتحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوىّ » بمعنى ذى قوة ،وفى الكشف إن المرة لأنها فى الأصل تدل على المرة بعد المرة تدل على زيادة القوة فلا تغفل ﴿فَاسْتَوَىٰ ٦﴾ أى فاستقام على صورته الحقيقية التى خلقه الله تعالى عليها وذلك عند حراء فى مبادى النبوة وكان له عليه الصلاة والسلام - كما فى حديث أخرجه الامام أحمد . وعبد بن حميد . وجماعة عن ابن مسعود - ستمائة جناح كل جناح منها يسد الأفق فالاستواء ههنا بمعنى اعتدال الشئ فى ذاته كما قال الراغب ، وهو المراد بالاستقامة لاضد الاعوجاج ، ومنه استوى الثمر إذا نضج ، وفى الكلام على ماقال الخفاجى : طى لأن وصفه عليه السلام بالقوة وبعض صفات البشر يدل على أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رآه فى غير هيئته الحقيقية وهذا تفصيل لجواب سؤال مقدر كأنه قيل : فهل رآه على صورته الحقيقية :فقيل؟ نعم رآه فاستوى الخ، وفى الارشاد أنه عطف على علمه بطريق التفسير فانه إلى قوله تعالى: (ماأوحى) بيان لكيفية التعليم،وتعقب بأن الكيفية غير منحصرة فيما ذكر،ومن هنا قيل : إن الفاء للسببية فان تشكله عليه السلام بشكله يتسبب عن قوته وقدرته على الخوارق أوعاطفة على (علمه) على معنى علمه على غير صورته الاصلية،ثم استوى على صورته الاصلية وتعقب بأنه لايتم به التئام الكلام ويحسن به النظام ، وقيل:

Marfat.com

والاسلام والفقر هنا من البينة ، ويكفى فى المسكين . وابن السبيل قولهما ولو بلايمين . وإن اتهما ، نعم يظهر فى مدعى تلف مال له عرف أو عيال أنه يكلف بينة انتهى ، واشتراط الفقر فى اليتيم مصرح به عندنا فى أكثر الكتب وليراجع الباقى *

هذا والأربعة الأخماس الباقية مصرفها على ماقال صاحب الكشف - وهو شافعى - بعد أن اختار جعل (للفقراء) بدلا من (ذى القربى) وما عطف عليه من تضمنه قوله تعالى : (والذين تبوءوا) إلى قوله سبحانه : (والذين جاءوا من بعدهم) على معنى أن له عليه الصلاة والسلام أن يعم الناس بها حسب اختياره ، وقال : إنها للمقاتلين الآن على الأصح ، وفى تحفة ابن حجر أنها على الأظهر للمرتزقة وقضاتهم وأئمتهم ومؤذنيهم وعمالهم مالم يوجد تبرع ، والمرتزقة الأجناد المرصودون فى الديوان للجهاد لحصول النصرة بهم بعده ﷺ ، وصرح فى التحفة بأن الأكثرين على أن هذه الأخماس الأربعة كانت له عليه الصلاة والسلام مع خمس الخمس ، فجملة ما كان يأخذه صلى الله تعالى عليه وسلم من الفئ أحد وعشرون سهماً من خمسة وعشرين ، وكان على ماقال الرويانى : يصرف العشرين التى له عليه الصلاة والسلام يعنى الأربعة الأخماس للمصالح وجوبا فى قول وندبا فى آخر ، وقال الغزالى : كان الفئ كله له ﷺ فى حياته ، وإنما خمس بعد وفاته *

وقال الماوردى : كان له صلى الله تعالى عليه وسلم فى أول حياته ثم نسخ فى آخرها ، وقال الزمخشرى : إن قوله تعالى : (ماأفاء الله) الخ بيان للجملة الأولى يعنى قوله تعالى : (وماأفاء الله على رسوله منهم) ولذا لم يدخل العاطف عليها بين فيها لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مايصنع بما أفاء الله تعالى عليه وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوماً على الأقسام الخمسة ، وظاهره أن الجملة استئناف بيانى ، والسؤال عن مصارف ماأفاء الله تعالى على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم من بنى النضير الذى أفادت الجملة الأولى أن أمره مفوض اليه صلى الله تعالى عليه وسلم لايلزم أن يقسم قسمة الغنائم التى قوتل عليها قتالا معتداً به ، وأخذت عنوة وقهراً كما طلب الغزاة لتكون أربعة أخماسها لهم وأن مايوضع موضع الخمس من الغنائم هو الكل لا أن خمسه كذلك والباقى - وهو أربعة أخماسه - لمن تضمنه قوله تعالى : (والذين تبوءوا) إلى قوله سبحانه : (والذين جاءوا من بعدهم) على ماسمعت سابقاً ، وأن المراد بأهل القرى هو المراد بالضمير فى (منهم) أعنى بنى النضير ، وعدل عن الضمير إلى ذلك - على مافى الإرشاد - إشعاراً بشمول مافى (ماأفاء الله) لعقاراتهم أيضاً ، واعترض صاحب الكشف مايشعر به الظاهر من أن الآية دالة على أمره صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يضع الجميع حيث يضع الخمس من الغنائم ، ووجه الآية بما أيد به مذهبه ، ودقق الكلام فى ذلك فليراجع وليتدبر *

وقال ابن عطية (أهل القرى) المذكورون فى الآية هم أهل الصفراء وينبع ووادى القرى ، وما هنالك من قرى العرب التى تسمى قرى عرينة وحكمها مخالف لحكم أموال بنى النضير فان تلك كلها له صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة ، وهذه قسمها كغيرها ، وقيل : المراد بما أفاء الله على رسوله خيبر ، وكان نصفها لله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ونصفها الآخر للمسلمين فكان الذى لله سبحانه ورسوله عليه الصلاة والسلام من ذلك الكتيبة . والوطيح . وسلالم . ووخدة ، وكان الذى للمسلمين الشق ، وكان ثلاثة عشر سهماً ، ونطاة وكانت خمسة أسهم ، ولم يقسم عليه الصلاة والسلام من خيبر لأحد من المسلمين إلا لمن شهد الحديبية ، ولم يأذن صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد تخلف عنه عند مخرجه إلى الحديبية أن يشهد معه خيبر إلا جابر بن عبد الله

Marfat.com

ابن عمرو الانصارى ، وروى هذا عن ابن عباس ، وخص بعضهم ماأفاء الله تعالى بالجزية والخراج ٠

وعن الزهرى أنه قال : بلغنى أنه ذلك ، وأنت قد سمعت أن عمر رضى الله تعالى عنه إنما احتج بهذه الآية على إبقاء سواد العراق بأيادى أهله ، وضرب الخراج والجزية عليهم رداً على من طلب قسمته على الغزاة بعلوجه لكن ليس ذلك إلا لأن وصول نفع ماأفاء الله تعالى إلى عامة المسلمين كان بما ذكر دون القسمة فافهم ٠

وفى إعادة اللام فى الرسول . وذى القربى مع العاطف ما لا يخفى من الاعتناء ، وفيه على ماقيل : تأييد ما لمن يذهب إلى عدم سقوط سهميهما ، ووجه إفراد ذى القربى - قد ذكرناه غير بعيد - ولما كان أبناء السبيل بمنزلة الاقارب قيل : (وابن السبيل) بالافراد كما قيل : (ولذى القربى) وعلى ذلك قوله :

أيا جارتا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

﴿ كَيْ لَا يَكُونَ ﴾ تعليل للتقسيم ، وضمير (يكون) لما أفاء الله تعالى أى كى لا يكون الفئ ﴿ دُولَةً ﴾ هى بالضم ، وكذا بالفتح مايدول أى مايدور للانسان من الغناء والجد والغلبة ، وقال الكسائى . وحذاق البصرة : - الدولة - بالفتح فى الملك بالضم ، و - الدولة - بالضم فى الملك بالكسر ، أو بالضم فى المال . وبالفتح فى النصرة قيل : وفى الجاه ، وقيل : هى بالضم مايتداول كالغرفة اسم مايغترف . وبالفتح مصدر بمعنى التداول ، والراغب . وعيسى بن عمر . وكثير أنهما بمعنى واحد ، وجمهور القراء قرأوا بضم الدال والنصب ، وبالياء التحتية فى يكون على أن اسم (يكون) الضمير ، و(دولة) الخبر أى كى لا يكون الفئ جداً ﴿ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ أى بينهم خاصة يتكاثرون به ، أو كى (لا يكون دولة) وغلبة جاهلية بينكم فان الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ويقولون من عزيز ، وقيل : المعنى كى لا يكون شيئاً يتداوله الأغنياء خاصة بينهم ويتعاورونه فلا يصيب أحداً من الفقراء ٠

وقرأ عبد الله - تكون - بالتاء الفوقية على أن الضمير على ما باعتبار المعنى إذ المراد بها الأموال ، وقرأ أبو جعفر . وهشام كذلك ؛ ورفع (دولة) بضم الدال على أن كان تامة ، و(دولة) فاعل أى كى لا يقع دولة ، وقرأ على . والسلمى كذلك أيضا ، ونصب (دولة) بفتح الدال على أن كان ناقصا اسمها ما سمعت ، و(دولة) خبرها ، ويقدر مضاف على القول بأنها مصدر إن لم يتجوز فيه ، ولم يقصد المبالغة أى كى لا تكون ذات تداول بين الأغنياء لايخرجونها إلى الفقراء ، وظاهر التعليل بما ذكر اعتبار الفقر فيمن ذكر وعدم اتصافه تعالى به ضرورى مع أن ذكره سبحانه كان للتيمن عند الأكثرين لالأن له عز وجل سهما ، وكذا يجل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن أن يسمى فقيراً ، وما اشتهر من قوله عليه الصلاة والسلام : «الفقر فخرى» لا أصل له ، وكيف يتوهم مثله والدنيا كلها لاتساوى عند الله تعالى جناح بعوضة ، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم أحب خلقه اليه سبحانه حتى قال بعض العارفين : لا يقال له صلى الله تعالى عليه وسلم زاهد لأنه التارك للدنيا وهو عليه الصلاة والسلام لايتوجه اليها فضلا عن طلبها اللازم للترك ، وقيل : إن الخبر لو صح يكون المراد بالفقر فيه الانقطاع عن السوى بالمرة إلى الله عز وجل وهو غير الفقر الذى الكلام فيه واعتباره فيمن بعد لا محذور فيه حتى أنه ربما يكون دليلا على القول بأنه لا يعطى أغنياء ذوى القربى ، وإنما يعطى فقراؤهم ، وإذا حمل الكلام على احتمال حليه كفى فى التعليل أن يكون فيمن يدفع اليه شىء من الفئ فقر ، ولا يلزم أن كل من يدفع اليه

Marfat.com

شىء منه فقيراً ﴿ وَمَاءاتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ أى ماأعطاكم من الفىء ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ لأنه حقكم الذى أحله الله تعالى لكم ﴿ وَمَانَهَـٰكُمْ عَنْهُ ﴾ أى عن أخذه منه ﴿ فَٱنتَهُواْ ﴾ عنه ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ فى مخالفته عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٧ ﴾ فيعاقب من يخالفه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحمل الآية على خصوص الفئ مروى عن الحسن وكان لذلك لقرينة المقام ، وفى الكشاف الأجود أن تكون عامة فى كل ماأمر به صلى الله تعالى عليه وسلم ونهى عنه ، وأمر الفئ داخل فى العموم ، وذلك لعموم لفظ (ما) على أن الواو لاتصح عاطفة فهى اعتراض على سبيل التذييل ، ولذلك عقب بقوله تعالى : (واتقوا الله) تعميما على تعميم فيتناول كل مايجب أن يتقى ، ويدخل ماسيق له الكلام دخولا أولياً كدخوله فى العموم الأول ، وروى ذلك عن ابن جريج ، وأخرج الشيخان . وأبو داود . والترمذى . وغيرهم عن ابن مسعود أنه قال : « لعن الله تعالى الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله تعالى » فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أم يعقوب وكانت تقرأ القرآن : فأتته فقالت : بلغنى أنك لعنت كيت وكيت ، فقال : مالى لاألعن من لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو فى كتاب الله عز وجل ، فقالت : لقد قرأت مابين لوحى المصحف فما وجدته ، قال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه ، أماقرأت قوله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا) ؟ قالت : بلى ، قال : فانه صلى الله تعالى عليه وسلم قد نهى عنه ، وعن الشافعى أنه قال : سلونى عماشئتم أخبركم به من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال عبد الله بن محمد بن هرون : ماتقول فى المحرم يقتل الزنبور ؟ فقال : قال الله تعالى : (وأما أتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا) ، وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعى بن خراش عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر » ، وحدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب أنه أمر بقتل الزنبور ، وهذا من غريب الاستدلال ، وفيه على علاته - كـكلام ابن مسعود - حمل مافى الآية على العموم ، وعن ابن عباس مايدل على ذلك أيضاً ، قيل : والمعنى حينئذ ماآتاكم الرسول من الأمر فتمسكوا به ومانهاكم عن تعاطيه فانتهوا عنه ، والأمر جوز أن يكون واحد الأمور وأن يكون واحد الأوامر لمقابلة نهاكم له ، قيل : والأول أقرب لأنه لايقال : أعطاه الأمر بمعنى أمره إلا بتكلف كمالايخفى ، واستنبط من الآية أن وجوب الترك يتوقف على تحقق النهى ولايكفى فيه عدم الأمر فما لم يتعرض له أمراً ولانهياً لايجب تركه ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ﴾ قال الزمخشرى : بدل من قوله تعالى : (لذى القربى) والمعطوف عليه ، والذى منع الابدال من (لله وللرسول) ومابعد وإن كان المعنى لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن الله عز وجل أخرج رسوله عليه الصلاة والسلام من الفقراء فى قوله سبحانه : و(ينصرون الله ورسوله) وأنه يترفع برسول الله عليه الصلاة والسلام عن التسمية بالفقير ، وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب فى تعظيم الله عز وجل ، وهذا كالايجوز أن يوصف سبحانه بعلامة لأجل التأنيث لفظاً لأن فيه سوء أدب انتهى ، وعنى أنه بدل كل من كل لاعتبار المبدل منه مجموع ماذكر ، قال الامام : فكأنه قيل : أعنى بأولئك الأربعة هؤلاء الفقراء والمهاجرين ، وماذكر من الابدال من (لذى القربى) وما بعده مبنى على قول الحنفية إنه لايعطى الغنى من ذوى القربى وإنما يعطى الفقير ، ومن يرى كالشافعى أنه يعطى غنيهم كما يعطى فقيرهم خص

Marfat.com

الابدال باليتامى ومابعده ، وقيل : يجوز ذلك أيضاً إلا أنه يقول بتخصيص اعتبار الفقر بفئ بنى النضير فانه عليه الصلاة السلام لم يعط غنياً شيئاً منه ، والآية نازلة فيه وفيه تعسف ظاهر *

وفى الكشف أن (للفقراء) ليس للقيد بل بياناً للواقع من حال المهاجرين وإثباتاً لمزيد اختصاصهم كأنه قيل : لله وللرسول وللمهاجرين ، وقال ابن عطية : (للفقراء) الخ بيان لقوله تعالى : (اليتامى والمساكين وابن السبيل) وكررت لام الجر لما كان ماتقدم مجروراً بها لتبيين أن البدل هو منها ، وقيل : اللام متعلقة بما دل عليه قوله تعالى : (كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) كأنه قيل : ولكن يكون للفقراء المهاجرين *

وسيأتى إن شاء الله تعالى ماخطر لنا فى ذلك من الاحتمال بناءاً على مايفهم من ظاهر كلام عمر بن الخطاب بمحضر جمع من الأصحاب ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ حيث اضطرهم كفار مكة وأحوجوهم إلى الخروج فخرجوا منها ، وهذا وصف باعتبار الغالب ، وقيل : كان هؤلاء مائة رجل ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ أى طالبين منه تعالى رزقا فى الدنيا ومرضاة فى الآخرة ، وصفوا أولا بما يدل على استحقاقهم للفىء من الإخراج من الديار والأموال ، وقيد ذلك ثانيا بما يوجب تفخيم شأنهم ويؤكده مما يدل على توكلهم التام ورضاهم بما قدره المليك العلام ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ عطف على (يبتغون) فهى حال مقدرة أى ناوين لنصرة الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أو مقارنة فان خروجهم من بين الكفار مراغمين لهم مهاجرين إلى المدينة نصرة وأى نصرة ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ الموصون بماذكر من الصفات الجليلة ﴿ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ٨ ﴾ أى الكاملون فى الصدق فى دعواهم الإيمان حيث فعلوا مايدل أقوى دلالة عليه مع إخراجهم من أوطانهم وأموالهم لأجله لاغيرهم ممن آمن فى مكة ولم يخرج من داره وماله ، ولم يثبت منه نحو ما ثبت منهم لنحو لين منه مع المشركين فالحصر إضافى ووجه بغير ذلك ، وحمل بعضهم الكلام على العموم لحذف متعلق الصدق وتمسك به لذلك فى الاستدلال على صحة إمامة أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لأن هؤلاء المهاجرين كانوا يدعونه بخليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والله تعالى قد شهد بصدقهم فلا بد أن تكون إمامته رضى الله تعالى عنه صحيحة ثابتة فى نفس الأمر وهو تمسك ضعيف مستغنية عن مثله دعوى صحة خلافة الصديق رضى الله تعالى عنه باجماع الصحابة ، ومنهم على كرم الله تعالى وجهه ، ونسبة التقية اليه بالموافقة لايوافق الشيعة عليها متق كدعوى الاكراه بل مستغنية بغير ذلك أيضاً ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ ﴾ الأكثرون على أنه معطوف على المهاجرين ، والمراد بهم الأنصار ، والتبوؤ النزول فى المكان ، ومنه المباءة للمنزل ، ونسبته إلى الدار والمراد بها المدينة ظاهر ، وأما نسبته إلى الايمان فباعتبار جعله مستقراً ومتوطنا على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية ، والتعريف فى الدار للتنويه كأنها الدار التى تستحق أن تسمى داراً وهى التى أعدها الله تعالى لهم ليكون تبوؤهم إياها مدحا لهم *

وقال غير واحد : الكلام من باب * علفتها تبنا وماءاً باردا * أى تبوأوا الدار وأخلصوا الايمان ، وقيل : التبوؤ مجاز مرسل عن اللزوم وهو لازم معناه فكأنه قيل : لزموا الدار والايمان ، وقيل : فى توجيه ذلك أن أل فى الدار للعهد ، والمراد دار الهجرة وهى تغنى غناء الاضافة وفى (والايمان) حذف مضاف ، أى ودار الايمان

Marfat.com

فكأنه قيل : تبوأوا دار الهجرة ودار الايمان على أن المراد بالدارين المدينة ، والعطف كما فى قولك : رأيت الغيث والليث وأنت تريد زيداً ، ولا يخفى مافيه من التكلف والتعسف ، وقيل : إن الايمان مجاز عن المدينة سمى محل ظهور الشىء باسمه مبالغة وهو كما ترى ، وقيل : الواو للمعية والمراد تبوأوا الدار مع إيمانهم أى تبوأوها مؤمنين ، وهو أيضاً ليس بشىء ، وأحسن الأوجه ماذكرناه أولا ، وذكر بعضهم أن الدار علم بالغلبة على المدينة كالمدينة ، وأنه أحد أسماء لها منها طيبة . وطابة . ويثرب . وجابرة إلى غير ذلك *

وأخرج الزبير بن بكار عن زيد بن أسلم حديثا مرفوعا يدل على ذلك ﴿ من قَبْلِهِمْ ﴾ أى من قبل المهاجرين ، والجار متعلق بتبوأوا ، والكلام بتقدير مضاف أى من قبل هجرتهم فنهاية مايازم سبق الإيمان الأنصار على هجرة المهاجرين ، ولايلزم منه سبق إيمانهم على إيمانهم ليقال : إن الأمر بالعكس ، وجوز أن لايقدر مضاف ، ويقال : ليس المراد سبق الانصار لهم فى أصل الإيمان بل سبقهم إياهم فى التمكن فيه لأنهم لم ينازعوا فيه لما أظهروه *

وقيل : الكلام على التقديم والتأخير ، والتقدير تبوأوا الدار من قبلهم والإيمان فيفيد سبقهم إياهم فى تبوىء الدار فقط وهو خلاف الظاهر على أن مثله لايقبل مالم يتضمن نكتة سرية وهى غير ظاهرة ههنا ؛ وقيل : لاحاجة إلى شىء مما ذكر ، وقصارى ماتدل الآية عليه تقدم مجموع تبوئ الأنصار وإيمانهم على تبوئ المهاجرين وإيمانهم ، ويكفى فى تقدم المجموع تقدم بعض أجزائه وهو ههنا تبوؤ الدار ، وتعقب بمنع الكفاية ولو سلمت لصح أن يقال : بتقدم تبوىء المهاجرين وإيمانهم على تبوىء الأنصار وإيمانهم لتقدم إيمان المهاجرين ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ فى موضع الحال من الموصول ، وقيل : استئناف ، والكلام قيل : كناية عن مواساتهم المهاجرين وعدم الاستثقال والتبرم منهم إذا احتاجوا اليهم ، وقيل : على ظاهره أى يحبون المهاجر اليهم من حيث مهاجرته اليهم لحبهم الايمان ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ ﴾ أى ولا يعلمون فى أنفسهم * ﴿ حَاجَةً ﴾ أى طلب محتاج إليه ﴿ مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ أى مما أعطى المهاجرون من الفىء وغيره ، وحاصله أن نفوسهم لم تتبع ماأعطى المهاجرون ولم تطمح إلى شىء منه تحتاج اليه ، فالوجدان إدراك علمى وكونه فى الصدر من باب المجاز ، - والحاجة - بمعنى المحتاج اليه ، وهو استعمال شائع يقال : خذ منه حاجتك وأعطاه من ماله حاجته ، و(من) تبعيضية ، وجوز كونها بيانية والكلام على حذف مضاف وهو طلب ، وفيه فائدة جليلة كأنهم لم يتصوروا ذلك ولا مرّ فى خاطرهم أن ذلك محتاج اليه حتى تطمح اليه النفس *

ويجوز أن يكون المعنى - لايجدون فى أنفسهم مايحمل عليه الحاجة كالحزازة والغيظ والحسد والغبطة لاجل ماأعطى المهاجرون - على أن الحاجة مجاز عما يتسبب عنها ، وقيل : على أنها كناية عما ذكر لأنه لاينفك عن الحاجة فأطلق اسم اللازم على الملزوم ، وماتقدم أولى ، وقول بعضهم : أى أثر حاجة تقدير معنى لا إعراب ، و (من) فى قوله تعالى : (مما أوتوا) تعليلية ﴿ وَيُؤْثِرُونَ ﴾ أى يقدمون المهاجرين ﴿ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ فى كل شئ من الطيبات حتى أن من كان عنده امرأتان كان ينزل عن إحداهما ويزوجها واحداً منهم ، ويجوز أن لايعتبر مفعول - يؤثرون - خصوص المهاجرين ، أخرج البخارى . ومسلم . والترمذى . والنسائى . وغيرهم عن

Marfat.com

أبى هريرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أصابنى الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال عليه الصلاة والسلام : « ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله ؟ فقام رجل من الانصار - وفى رواية - فقال أبو طلحة : أنا يارسول الله فذهب به إلى أهله فقال لامرأته : أكرمى ضيف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قالت : والله ماعندى إلا قوت الصبية قال : إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فاطفئى السراج ونطوى الليلة لضيف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ففعلت ثم غدا الضيف على رسول الله ﷺ فقال : لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة وأنزل الله تعالى فيهما (ويؤثرون) » الخ ٭

وأخرج الحاكم وصححه . وابن مردويه . والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ، قال : أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رأس شاة فقال : إن أخى فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا فبعث به اليه فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداوله أهل سبعة أبيات حتى رجع إلى الأول فنزلت (ويؤثرون على أنفسهم) ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ أى حاجة من خصاص البيت وهو مايبقى بين عيدانه من الفرج والفتوح ، والجملة فى وضع الحال ، وقد تقدم وجه ذلك مراراً ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ الشح اللؤم وهو أن تكون النفس كزة حريصة على المنع كما قال :

يمارس نفساً بين جنبيه كزة إذا هم بالمعروف قالت له مهلا

وأضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها ، وأما البخل فهو المنع نفسه ، وقال الراغب : الشح بخل مع حرص ؛ وذلك فيما كان عادة ، وأخرج ابن المنذر عن الحسن أنه قال : البخل أن يبخل الانسان بما فى يده ، والشح أن يشح على مافى أيدى الناس ، وأخرج عبد بن حميد . وابن جرير . وابن أبى شيبة . وابن أبى حاتم . والبيهقى فى الشعب . والحاكم وصححه . وجماعة عن ابن مسعود أن رجلا قال له : إنى أخاف أن أكون قد هلكت قال : وما ذاك ؟ قال : إنى سمعت الله تعالى يقول : (ومن يوق شح نفسه) الآية وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج منى شىء فقال له ابن مسعود : ليس ذاك بالشح ولكنه البخل ولا خير فى البخل ، وإن الشح الذى ذكره الله تعالى أن تأكل مال أخيك ظلماً ، وأخرج ابن المنذر . وابن مردويه عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه قال : ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ولكنه البخل إنما الشح أن تطمح عين الرجل إلى مالبس له ، ولم أر لأحد من اللغويين شيئاً من هذه التفاسير للشح ، ولعل المراد أنه البخل المتناهى بحيث يبخل المتصف به بمال غيره أى لا يود جود الغير به وتنقبض نفسه منه ويسعى فى أن لا يكون ، أو بحيث يبلغ به الحرص إلى أن يأكل مال أخيه ظلما أو تطمح عينه إلى مالبس له ولا تسمح نفسه بأن يكون لغيره فتأمل ٭

وقرأ أبو حيوة . وابن أبى عبلة (ومن يوق) بشد القاف ، وقرأ ابن عمر . وابن أبى عبلة (شح) بكسر الشين ، وجاء فيه لغة الفتح أيضا ، ومعنى الكل واحد ، ومعنى الآية ومن يوق بتوفيق الله تعالى ومعونته شح نفسه حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الانفاق ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٩ ﴾ الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مكروه ، والجملة الشرطية تذييل حسن ومدح للأنصار بما هو غاية لتناوله إياهم تناولا أولياً ، وفى الإفراد أولا والجمع ثانيا رعاية للفظ من ومعناها وإيماء إلى قلة المتصفين بذلك فى الواقع عدداً وكثرتهم معنى :

Marfat.com

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنا

ويفهم من الآية ذم الشح جداً ، وقد وردت أخبار كثيرة بذمه ، أخرج الحكيم الترمذى . وأبو يعلى . وابن مردويه عن أنس مرفوعا « مامحق الإسلام محق الشح شىء قط » ، وأخرج ابن أبى شيبة . والنسائى . والبيهقى فى الشعب . والحاكم وصححه عن أبى هريرة مرفوعا «لايجتمع غبار فى سبيل الله ودخان نارجهنم فى جوف عبد أبداً ولايجتمع الايمان والشح فى قلب عبد أبداً» ٠

وأخرج أبو داود . والترمذى ـ وقال غريب ـ والبخارى فى الأدب . وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا «خصلتان لايجتمعان فى جوف مسلم البخل وسوء الخلق» وأخرج ابن أبى الدنيا . وابن عدى . والحاكم . والخطيب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : «خلق الله تعالى جنة عدن وغرس أشجارها بيده ثم قال لها : انطقى فقالت : قد أفلح المؤمنون فقال الله عز وجل : وعزتى وجلالى لايجاورنى فيك بخيل ثم تلا رسول الله ﷺ (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) » ٠

وأخرج أحمد . والبخارى فى الأدب . ومسلم . والبيهقى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : « اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فان الشح قد أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» إلى غير ذلك من الأخبار ، لكن ينبغى أن يعلم أن تقوى الشح لاتتوقف على أن يكون الرجل جواداً بكل شىء ، فقد أخرج عبد بن حميد . وأبو يعلى . والطبرانى . والضياء عن مجمع بن يحيى مرفوعا « برىء من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأدى فى النائبة » ٠

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله مايقرب منه ، وكذا ابن جرير . والبيهقى عن أنس ، وأخرج ابن المنذر عن على كرم الله تعالى وجهه قال : من أدى زكاة ماله فقد وقى شح نفسه ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُوا مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ عطف عند الأكثرين أيضاً على المهاجرين ، والمراد بهؤلاء قيل : الذين هاجروا حين قوى الاسلام ، فالمجئ حسى وهو مجيئهم إلى المدينة ، وضمير (من بعدهم) للمهاجرين الاولين ، وقيل : هم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ، فالمجىء إما إلى الوجود أو إلى الإيمان ، وضمير (من بعدهم) للفريقين المهاجرين والانصار ، وهذا هو الذى يدل عليه كلام عمر رضى الله تعالى عنه وكلام كثير من السلف كالصريح فيه ، فالآية قد استوعبت جميع المؤمنين ، وجملة قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ ﴾ الخ حالية ، وقيل : استئناف ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ﴾ أى فى الدين الذى هو أعز وأشرف عندهم من النسب ﴿ ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ وصفوهم بذلك اعترافا بفضلهم ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا ﴾ أى حقداً ، وقرىء غمراً ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ على الاطلاق ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٠ ﴾ أى مبالغ فى الرأفة والرحمة ، فحقيق بأن تجيب دعاءنا ، وفى الآية حث على الدعاء للصحابة وتصفية القلوب من بغض أحد منهم ، وأخرج عبد بن حميد . وابن المنذر . وجماعة عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبى ﷺ فسبوهم ثم قرأت هذه الآية (والذين جاءوا) الخ ٠

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه سمع رجلا وهو يتناول بعض المهاجرين فدعاه

Marfat.com

فقرأعليه (للفقراء المهاجرين) الآية ، ثم قال : هؤلاء المهاجرون أفنهم أنت ؟ قال : لا ، ثم قرأ عليه (والذين تبوءوا الدار والإيمان) الآية ، ثم قال : هؤلاء الأنصار أفنهم أنت ؟ قال : لا . ثم قرأ عليه (والذين جاءوا من بعدهم) الآية ، ثم قال : أفمن هؤلاء أنت ؟ قال : أرجو قال : لاوالله ليس من هؤلاء من سب هؤلاء *

وفى رواية أن ابن عمر رضى الله تعالى عنه بلغه أن رجلا نال من عثمان رضى الله تعالى عنه فدعاه فقرأ عليه الآيات وقال له ماقال ، وقال الامام مالك : من كان له فى أحد من الصحابة رضى الله تعالى عنهم قول سيئ أو بغض فلا حظ له فى الفىء أخذاً من هذه الآية ، وفيها مايدل على ذم الغل لأحد من المؤمنين ، وفى حديث أخرجه الحكيم الترمذى . والنسائى عن أنس رضى الله تعالى عنه «أن النبى ﷺ قال : فى أيام ثلاثة يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلع فيها رجل من الأنصار فبات معه عبد الله بن عمرو بن العاص ثلاث ليال مستكشفا حاله فلم ير له كثير عمل فأخبره الخبر فقال له : ماهو إلا مارأيت غير أنى لاأجد فى نفسى غلا لاحد من المسلمين ولاأحسده على خير أعطاه الله تعالى إياه فقال له عبد الله : هذه التى بلغت بك وهى التى لانطيق - وفى رواية - أنه قال : لوكانت الدنيا لى فأخذت منى لم أحزن عليها ولو أعطيتها لم أفرح بها وأبيت وليس فى قلبى غل على أحد فقال عبد الله : لكنى أقوم الليل وأصوم النهار ولو وهبت لى شاة لفرحت بها ولو ذهبت لحزنت عليها والله لقد فضلك الله تعالى علينا فضلا بيناً » هذا وذهب بعضهم إلى أن قوله تعالى : (والذين تبوأوا) الخ مبتدأ ، وجملة (يحبون) الخ خبره ، والكلام استئناف مسوق لمدح الانصار ، وجوز كون ذلك معطوفا على (أولئك) فيفيد شركة الانصار للمهاجرين فى الصدق ، وجملة (يحبون) الخ إما استئناف مقرر لصدقهم أو حال من ضمير (تبوأوا) وإلى أن قوله تعالى : (والذين جاءوا) الخ مبتدأ ، وجملة (يقولون) الخ خبره ، والجملة معطوفة على الجملة السابقة مسوقة لمدح هؤلاء بمحبتهم من تقدمهم من المؤمنين ومراعاتهم لحقوق الأخوة فى الدين والسبق بالإيمان كما أن ماعطفت عليه من الجملة السابقة لمدح الأنصار *

واستدل لعدم عطف (الذين تبوأوا) على (المهاجرين) بماروى أن النبى عليه الصلاة والسلام قسم أموال بنى النضير على المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة كما تقدم ، وقال عليه الصلاة والسلام لهم : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم من هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة فقالوا : بل نقسم لهم - أى للمهاجرين - من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولانشاركهم فيها» فنزلت الآية (والذين تبوأوا الدار والإيمان) إلى آخره ، وبعض القائلين بالعطف يقولون : إن قوله تعالى : (والذين تبوأوا) الخ بيان لحكم الأخماس الأربعة على معنى أن له عليه الصلاة والسلام أن يعم الناس بها حسب اختياره وأن الأنصار مصرف من المصارف ، ولكن قد اختار صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون إعطاؤهم بالشرط الذى ذكره عليه الصلاة والسلام لهم ، وهم اختاروا مااختاروا إيثاراً منهم ، وذلك لايخرجهم عن كونهم مصرفا بل فى قوله تعالى : (ويؤثرون على انفسهم) رمز اليه على أن فى الأخبار ماهو أصح وأصرح فى الدلالة على عطفهم على ماتقدم ، وأنهم يعطون من الفىء ، وكذا عطف - الذين جاءوا من بعدهم - فقد أخرج البخارى . ومسلم . وأبو داود . والترمذى . والنسائى . وابن حبان . وغيرهم عن مالك ابن أوس بن الحدثان فى حديث طويل أن عمر رضى الله تعالى عنه قال - أى فى قضاء بين على كرم الله تعالى وجهه . وعمه العباس رضى الله تعالى عنه فى فدك ، وقد كان عمر دفعها اليهما وأخذ عليهما عهد الله تعالى على أن

Marfat.com

يعملا فيها بما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يعمل به فيها فتنازعا - إن الله تعالى قال : (ما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير) فكانت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة ، ثم قال سبحانه : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى) إلى آخر الآية ، ثم والله ما أعطاها هؤلاء وحدهم حتى قال تعالى : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون) ، ثم والله ما جعلها لهؤلاء وحدهم حتى قال سبحانه : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا) إلى قوله تعالى : (رحيم) فقسمها هذا القسم على هؤلاء الذين ذكر ، ولئن بقيت ليأتين الرويعى بصنعاء حقه ودمه فى وجهه ، وظاهر هذا الخبر يقتضى أن للمهاجرين سهما غير السهام السابقة. فلا يكون (للفقراء) بدل من - لذى القربى - وما بعده ولا مما بعده دونه، وكذا ظاهر ما فى مصحف عبد الله . وزيد بن ثابت كما أخرجه ابن الانبارى فى المصاحف عن الأعمش - ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمهاجرين فى سبيل الله - على أن الابدال يقتضى ظاهراً كون اليتامى مهاجرين أخرجوا من ديارهم وأموالهم إلى آخر الصفات، وفى صدق ذلك عليهم بعد ، وكذا يقتضى كون ابن السبيل كذلك ، وفيه نوع بعد أيضاً كما لا يخفى فلعله اعتبر تعلقه بفعل محذوف والجملة استئناف بيانى ، وذلك أنهم كانوا يعلمون أن الخمس يصرف لمن تضمنه قوله تعالى : (فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) فلما ذكر ذلك انقدح فى أذهانهم أن المذكورين مصرف الخمس ولم يعلموا مصرف الأخماس الأربعة الباقية فكأنهم قالوا : فلمن تكون الأخماس الأربعة الباقية . أو فلمن يكون الباقى ؟ فقيل : تكون الأخماس الاربعة الباقية أو يكون الباقى (للفقراء المهاجرين) إلى آخره ولم أر من تعرض لذلك فتأمل ، والله تعالى الهادى إلى أحسن المسالك *

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة وتعجيب منها بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين على اختلاف طبقاتهم . والخطاب لرسول الله عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب، والآية كما أخرج ابن إسحق . وابن المنذر . وأبو نعيم عن ابن عباس نزلت فى رهط من بنى عوف منهم عبد الله بن أبىّ بن سلول . ووديعة بن مالك . وسويد . وداعس بعثوا إلى بنى النضير بما تضمنته الجمل المحكية بقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ ﴾ الخ *

وقال السدى : أسلم ناس من بنى قريظة . والنضير وكان فيهم منافقون فبعثوا إلى بنى النضير ما قص الله تعالى ، والمعول عليه الأول ، وقوله سبحانه : (يقولون) استئناف لبيان المتعجب منه ، وصيغة المضارع للدلالة على استمرار قولهم ، أو لاستحضار صورته ، واللام فى قوله عز وجل :

﴿ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ للتبليغ ؛ والمراد باخوتهم الأخوة فى الدين واعتقاد الكفرة أو الصداقة ، وكثر جمع الأخ مراداً به ما ذكر على إخوان ، ومراداً به الأخوة فى النسب على إخوة ، وقل خلاف ذلك ، واللام فى قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ موطئة للقسم ، وقوله سبحانه ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ جواب القسم أى والله لئن أخرجتم من دياركم قسراً لنخرجن من ديارنا معكم ألبتة ونذهبن فى صحبتكم أينما ذهبتم

Marfat.com

﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ ﴾ فى شأنكم ﴿ أَحَدًا ﴾ يمنعنا من الخروج معكم وهو لدفع أن يكونوا وعدوهم الخروج بشرط أن يمنعوا منه ﴿ أَبَدًا ﴾ وإن طال الزمان ، وقيل : لانطيع فى قتالكم أو خذلانكم ، قال فى الارشاد : وليس بذاك لأن تقدير القتال مترقب بعد ، ولأن وعدهم لهم على ذلك التقدير ليس مجرد عدم طاعتهم لمن يدعوهم إلى قتالهم بل نصرتهم عليه كما ينطق به قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ أى لنعاوننكم على عدوكم على أن دعوتهم إلى خذلان اليهود مما لا يمكن صدوره عن رسول الله ﷺ والمؤمنين حتى يدعوا عدم طاعتهم فيها ضرورة أنها لو كانت لكانت عند استعدادهم لنصرتهم وإظهار كفرهم ، ولا ريب فى أن ما يفعله عليه الصلاة والسلام عند ذلك قتلهم لا دعوتهم إلى ترك نصرتهم ، وأما الخروج معهم فليس بهذه المرتبة من إظهار الكفر لجواز أن يدعوا أن خروجهم معهم لما بينهم من الصداقة الدنيوية لا للموافقة فى الدين ، ونوقش فى ذلك ، وجواب (إن) محذوف ، و(لننصرنكم) جواب قسم محذوف قبل (إن) الشرطية ، وكذا يقال فيما بعد على ما هو القاعدة المشهورة فيما إذا تقدم القسم على الشرط ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ١١ ﴾ فى مواعيدهم المؤكدة بالأيمان ، وقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ﴾ إلى آخره تكذيب لهم فى كل واحد من أقوالهم على التفصيل بعد تكذيبهم فى الكل على الاجمال ﴿ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ وكان الامر كذلك ، والإخبار عن خلفهم فى الميعاد قيل : من الإخبار بالغيب وهو من أدلة النبوة وأحد وجوه الاعجاز ، وهذا مبنى على أن السورة نزلت قبل وقعة بنى النضير ، وكلام أهل الحديث . والسير على ما قيل : يدل على خلافه ٭

وقال بعض الأجلة : إن قوله تعالى : (يقولون لئن أخرجتم) الخ من باب الاخبار بالغيب بناءاً على ما روى أن عبد الله بن أبىّ دس اليهم لا يخرجوا فأطلع الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام على ما دسه ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ على سبيل الفرض والتقدير ﴿ لَيُوَلُّنَّ ﴾ أى المنافقون ﴿ الْأَدْبَارَ ﴾ فراراً ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١٢ ﴾ بعد ذلك أى يهلكهم الله تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم ، أو (ليولن) أى اليهود المفروضة نصرة المنافقين إياهم ولينهزمن ، ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين ، وقيل : الضمير المرفوع فى (نصروهم) لليهود ، والمنصوب للمنافقين أى ولئن نصر اليهود المنافقين ليولى اليهود الأدبار وليس بشئ ، وكأنه دعا قائله اليه دفع ما يتوهم من المنافاة بين (لا ينصرونهم ولئن نصروهم) على الوجه السابق ، وقد أشرنا إلى دفع ذلك من غير حاجة إلى هذا التوجيه الذى لا يخفى حاله ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ أى أشد مرهوبية على أن (رهبة) مصدر من المبنى للمفعول لأن المخاطبين وهم المؤمنون مرهوب منهم لا راهبون ﴿ فِى صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى رهبتهم منكم فى السر أشد مما يظهرونه لكم من رهبة الله عز وجل وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من الله عز وجل ، ويجوز أن يراد أنهم يخافونكم فى صدورهم أشد من خوفهم من الله تعالى ولشدة البأس والتشجع ما كانوا يظهرون ذلك ، قيل : إن (فى صدورهم) على الوجه الأول مبالغة وتصوير على نحو رأيته بعينى ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ماذكر من كونكم أشد رهبة فى صدورهم من الله تعالى ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ١٣ ﴾ شيئاً حتى يعلموا عظمة الله عز وجل فيخشوه حق خشيته سبحانه وتعالى ، والمراد بهؤلاء اليهود ، وقيل : المنافقون ؛ وقيل : الفريقان ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾

Marfat.com

أى اليهود والمنافقون ، وقيل : اليهود يعنى لا يقتدرون على قتالكم ﴿ جَمِيعًا ﴾ أى مجتمعين متفقين فى موطن من المواطن ﴿ إِلَّا فِى قُرًى مُحَصَّنَةٍ ﴾ بالدروب والخنادق ونحوها ﴿ أَوْ مِنْ وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾ يتسترون بها دون أن يصحروا لكم ويبارزوكم لقذف الله تعالى الرعب فى قلوبهم ومزيد رهبتهم منكم *

وقرأ أبو رجاء . والحسن . وابن وثاب (جدر) باسكان الدال تخفيفاً ، ورويت عن ابن كثير . وعاصم . والأعمش ، وقرأ أبو عمرو . وابن كثير فى الرواية المشهورة . وكثير من المكيين جدار بكسر الجيم وألف بعد الدال وهى مفرد الجدر ، والقصد فيه إلى الجنس ، أو المراد به السور الجامع للجدر والحيطان *

وقرأ جمع من المكيين . وهرون عن ابن كثير (جدر) بفتح الجيم وسكون الدال ، قال صاحب اللوامح : وهو الجدار بلغة اليمن ، وقال ابن عطية : معناه أصل بنيان كسور وغيره ، ثم قال : ويحتمل أن يكون من جدر النخل أى من وراء نخلهم إذ هى مما يتقى به عند المصافة ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ استئناف سيق لبيان أن ماذكر من رهبتهم ليس لضعفهم وجبنهم فى أنفسهم فان بأسهم إذا اقتتلوا شديد وإنما ضعفهم وجبنهم بالنسبة اليكم بما قذف الله تعالى فى قلوبهم من الرعب ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أى مجتمعين ذوى ألفة واتحاد ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ جمع شتيت أى متفرقة لا ألفة بينها يعنى أن بينهم إحناً وعدوات فلا يتعاضدون حق التعاضد ولا يرمون عن قوس واحدة ، وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم *

وقرأ مبشر بن عبيد (شتى) بالتنوين جعل الألف ألف الالحاق ، وعبد الله - وقلوبهم أشت - أى أكثر أو أشد تفرقا ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ أى ماذكر من تشتت قلوبهم بسبب أنهم ﴿ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ١٤ ﴾ شيئاً حتى يعلموا طرق الألفة وأسباب الاتفاق ، وقيل : (لا يعقلون) أن تشتت القلوب مما يوهن قواهم المركوزة فيهم بحسب الخلقة ويعين على تدميرهم واضمحلالهم وليس بذاك ، وقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره مثلهم أى مثل المذكورين من اليهود بنى النضير ، أو منهم ومن المنافقين كمثل أهل بدر - كما قال مجاهد - أو كبنى قينقاع - كما قال ابن عباس - وهم شعب من اليهود الذين كانوا حوالى المدينة غزاهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يوم السبت على رأس عشرين شهراً من الهجرة فى شوال قبل غزوة بنى النضير حيث كانت فى ربيع سنة أربع وأجلاهم عليه الصلاة والسلام إلى أذرعات على مافصل فى كتب السير *

وقيل : أى مثل هؤلاء المنافقين كمثل منافقى الأمم الماضية ﴿ قَرِيبًا ﴾ ظرف لقوله تعالى : ﴿ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أى ذاقوا سوء عاقبة كفرهم فى زمن قريب من عصيانهم أى لم تتأخر عقوبتهم وعوقبوا فى الدنيا إثر عصيانهم *

وقيل : انتصاب (قريبا) - بمثل - إذ التقدير كوقوع مثل الذين ، وتعقب بأن الظاهر أنه أريد أن فى الكلام مضافا هو العامل حقيقة فى الظرف إلا أنه لما حذف عمل المضاف اليه فيه لقيامه مقامه ، ولا يخفى أن المعنى ليس عليه لأن المراد تشبيه المثل بالمثل أى الصفة الغريبة لهؤلاء بالصفة الغريبة للذين من قبلهم دون تشبيه المثل بوقوع المثل ، وأجيب بأن الإضافة من إضافة الصفة إلى موصوفها فيرجع التشبيه إلى تشبيه المثل بالمثل فكأنه قيل : مثلهم كمثل الذين من قبلهم الواقع قريبا ، وفيه أن ذلك التقدير ركيك وماذكر لا يدفع الركاكة ، والقول بتقدير مضاف فى جانب المبتدا أيضا أى وقوع مثلهم كوقوع مثل الذين من قبلهم قريباً فيكون قد

Marfat.com

شبه وقوع المثل بوقوع المثل تعسف لا ينبغى أن يرتكب فى الفصيح *

وقيل : إن العامل فيه التشبيه أى يشبهونهم فى زمن قريب ، وقيل : متعلق الكاف لأنه يدل على الوقوع، وكلا القولين كما ترى ، ولا يبعد تعلقه بما تعلقت به الصلة أعنى من قبلهم أى الذين كانوا من قبلهم فى زمن قريب فيفيد أن قبليتهم قبلية قريبة ، ويلزم من ذلك قرب مافعل بهم وهو المثل ، ويكون هذا مطمح النظر فى الافادة ويتضمن تعييرهم بأنهم كانت لهم فى أهل بدر ؛ أو بنى قينقاع أسوة فبعد لم ينطمس آثار ماوقع بهم وهو كذلك على تقدير الوقوع ونحوه ، وجملة (ذاقوا) مفسرة للمثل لا محل لها من الاعراب ، ويتعين تعلق (قريباً) بما بعد على تقدير أن يراد بمن قبل منافقو الأمم الماضية فتدبر ﴿ وَلَهُمْ ﴾ فى الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٥ ﴾ لا يقادر قدره ، والجملة قيل : عطف على الجملة السابقة وإن اختلفتا فعلية واسمية ، وقيل : حال مقدرة من ضمير (ذاقوا) وأيا ما كان فهو داخل فى حيز المثل ، وقيل : عطف على جملة ـ مثلهم كمثل الذين من قبلهم ـ ولا يخفى بعده ، وقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَـٰنِ ﴾ جعله غير واحد خبر مبتدأ محذوف أيضاً أى مثلهم كمثل الشيطان على أن ضمير ـ مثلهم ـ ههنا للمنافقين وفيما تقدم لبنى النضير ، وقال بعضهم : ضمير ـ مثلهم ـ المقدر فى الموضعين للفريقين ، وجعله بعض المحققين خبراً ثانيا للمبتدأ المحذوف فى قوله تعالى : (كمثل الذين) على أن الضمير هناك للفريقين إلا أن المثل الأول يخص بنى النضير ، والثانى يخص المنافقين ، وأسند كل من الخبرين إلى ذلك المقدر المضاف إلى ضميرهما من غير تعيين ما أسند اليه بخصوصه ثقة بأن السامع يرد كلا إلى مايليق به ويماثله كأنه قيل : مثل أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب فى حلول العذاب بهم كمثل الذين من قبلهم ومثل المنافقين فى إغرائهم إياهم على القتال حسبما نقل عنهم كمثل الشيطان ﴿ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ ﴾ أى أغراه على الكفر إغراء الآمر للمأمور به فهو تمثيل واستعارة ﴿ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ١٦ ﴾ تبرأ منه مخافة أن يشاركه فى العذاب ولم ينفعه ذلك كما قال سبحانه : ﴿ فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا ﴾ أبد الآبدين ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ أى الخلود فى النار ﴿ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ١٧ ﴾ على الاطلاق دون المذكورين خاصة، والجمهور على أن المراد بالشيطان والانسان الجنس فيكون التبرى يوم القيامة وهو الأوفق بظاهر قوله: (إنى أخاف) الخ.

وذهب بعضهم إلى أن المراد بالشيطان إبليس ، وبالانسان أبو جهل عليهما اللعنة قال له يوم بدر : لاغالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما وقعوا فيما وقعوا قال : إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله الآية ، وفى الآية عليه مع ماتقدم عن مجاهد لطيفة ، وذلك أنه لما شبه أولا حال إخوان المنافقين من أهل الكتاب بحال أهل بدر شبه هنا حال المنافقين بحال الشيطان فى قصة أهل بدر ، ومعنى (اكفر) على تخصيص الانسان بأبى جهل دم على الكفر عند بعض ، وقال الخفاجى : لاحاجة لتأويله بذلك لأنه تمثيل *

وأخرج أحمد فى الزهد. والبخارى فى تاريخه . والبيهقى فى الشعب. والحاكم وصححه . وغيرهم عن على كرم الله تعالى وجهه أن رجلا كان يتعبد فى صومعته وأن امرأة كانت لها إخوة فعرض لها شىء فأتوه بها فزينت له نفسه فوقع عليها فحملت فجاءه الشيطان فقال : اقتلها فانهم إن ظهروا عليك افتضحت فقتلها ودفنها فجاءوه فأخذوه فذهبوا به فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال : أنا الذى زينت لك فاسجدلى سجدة أنجيك فسجد له أى ثم

Marfat.com

تبرأ منه وقال له ماقال ، فذلك قوله تعالى : (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر) الآية ، وهذا الرجل هو برصيصا الراهب ، وقد رويت قصته على وجه أكثر تفصيلا مما ذكر وهى مشهورة فى القصص ، وفى البحر إن قول الشيطان : (إنى أخاف الله) كان رياءآ وهو لا يمنعه الخوف عن سوء يوقع فيه ابن آدم ؛ وقرىء أنا برىء ، وقرأ الحسن. وعمرو بن عبيد . وسليم بن أرقم - فكان عاقبتهما - بالرفع على أنه اسم كان ، وأنهما الخ فى تأويل مصدر خبرها على عكس قراءة الجمهور ٭

وقرأ عبدالله. وزيد بن على. والأعمش . وابن أبى عبلة - خالدان - بالألف على أنه خبر إن ، (وفى النار) متعلق به ، وقدم للاختصاص ، وفيها تأكيد له وإعادة بضميره ، وجوز أن يكون - فى النار - خبر إن ، و - خالدان - خبر ثانياً وهو فى قراءة الجمهور حال من الضمير فى الجار والمجرور ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ فى كل ما تأتون وتذرون ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أى أىّ شىء قدمت من الأعمال ليوم القيامة عبر عنه بذلك لدنوه دنو الغد من أمسه ، أو لأن الدنيا كيوم والآخرة غده يكون فيها أحوال غير الاحوال السابقة ، وتنكيره لتفخيمه وتهويله كأنه قيل : (لغد) لا يعرف كنهه لغاية عظمه ، وأما تنكير (نفس) فلاستقلال الأنفس النواظر كأنه قيل : ولتنظر نفس واحدة فى ذلك ، وفيه حث عظيم على النظر وتعيير بالترك وبأن الغفلة قد عمت الكل فلا أحد خلص منها ، ومنه ظهر - كما فى الكشف - أن جعله من قبيل قوله تعالى : (علمت نفس ما أحضرت) غير مطابق للمقام أى فهو كما فى الحديث « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة » لأن الأمر بالنظر وإن عم لكن المؤتمر الناظر أقل من القليل ، والمقصود بالتقليل هو هذا لأن المأمور لا ينظر اليه ما لم يأتمر ، وجوز ابن عطية أن يراد بغد يوم الموت ، وليس بذاك ، وقرأ أبو حيوة . ويحيي بن الحرث - ولتنظر - بكسر اللام ، وروى ذلك عن حفص عن عاصم ، وقرأ الحسن بكسرها وفتح الراء جعلها لام كى ، وكان المعنى ولكى تنظر نفس ماقدمت لغد أمرنا بالتقوى ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ تكرير للتأكيد ، أو الأول فى أداء الواجبات كما يشعر به مابعده من الأمر بالعمل وهذا فى ترك المحارم كما يؤذن به الوعيد بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨ ﴾ أى من المعاصى ، وهذا الوجه الثانى أرجح لفضل التأسيس على التأكيد ، وفى ورود الأمرين مطلقين من الفخامة مالا يخفى ، وقيل : إن التقوى شاملة لترك ما يؤثم ولا وجه وجيه للتوزيع والمقام مقام الاهتمام بأمرها ، فالتأكيد أولى وأقوى ، وفيه منع ظاهر ، وكيف لا والمتبادر مما قدمت أعمال الخير كذا قيل ، ولعل من يقول بالتأكيد يقول : إن قوله سبحانه : (إن الله خبير) الخ يتضمن الوعد والوعيد ويعمم ماقدمت أيضاً ، ولعلك مع هذا تميل للتأسيس ٭

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ ﴾ أى نسوا حقوقه تعالى شأنه : وما قدروا الله حق قدره ولم يراعوا مواجب أمره سبحانه ونواهيه عز وجل حق رعايتها ﴿ فَأَنسَىٰهُمْ ﴾ الله تعالى بسبب ذلك ﴿ أَنفُسَهُمْ ﴾ أى جعلهم سبحانه ناسين لها حتى لم يسعوا بما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلصها ، أو أراهم جل جلاله يوم القيامة من الأهوال ما أنساهم أنفسهم أى أراهم أمراً هائلا وعذابا أليما ، ونسيان النفس حقيقة قيل : مما لا يكون لأن العلم بها حضورى ، وفيه نظر وإن نص عليه ابن سينا وأشياعه ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ١٩ ﴾ الكاملون فى الفسوق ٭

وقرأ أبو حيوة - ولا يكونوا - بياء الغيبة على سبيل الالتفات ، وقال ابن عطية : كناية عن نفس المراد بها الجنس

Marfat.com

﴿ لَا يَسْتَوِى أَصْحَٰبُ النَّار ﴾ الذين نسوا الله تعالى فاستحقوا الخلود فى النار ﴿ وَأَصْحَٰبُ الْجَنَّة ﴾ الذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود فى الجنة ، ولعل تقديم أصحاب النار فى الذكر للايذان من أول الامر بأن القصور الذى ينبئ عنه عدم الاستواء من جهتهم لامن جهة مقابليهم فان مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانا وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص ، وعليه قوله تعالى: (هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور) إلى غير ذلك ٥

ولعل تقديم الفاضل فى قوله تعالى : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) لأن صفته ملكة لصفة المفضول والاعدام مسبوقة بملكاتها، والمراد بعدم الاستواء عدم الاستواء فى الأحوال الأخروية كما ينبىء عنه التعبير عن الفريقين بصاحبية النار وصاحبية الجنة، وكذا قوله تعالى:﴿ أَصْحَٰبُ الْجَنَّة هُمُ الْفَائِزُونَ ٢٠ ﴾ فانه استئناف مبين لكيفية عدم الاستواء بينهما أى هم الفائزون فى الآخرة بكل مطلوب الناجون عن كل مكروه، والآية تنبيه للناس وإيذان بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فكرهم فى العاقبة وتهالكهم على إيثار العاجلة واتباع الشهوات الزائلة كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار والبون العظيم بين أصحابهما وأن الفوز مع أصحاب الجنة فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه ، وهذا كما تقول لمن عق أباه : هو أبوك تجعله بمنزلة من لا يعرفه فتنبهه على حق الأبوة الذى يقتضى البر والتعطف ، ومما ذكر يعلم ضعف استدلال أصحاب الشافعى رضى الله تعالى عنه بالآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر ، وأن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالقهر ، وانتصر لهم بأن لهم أن يقولوا : لما حث سبحانه على التقوى فعلا وتركا وزجر عز وجل عن الغفلة التى تضادها غاية المضادة بذكر غايتها أعنى نسيان الله تعالى ترشيحاً للتقريع أردفه سبحانه بأن أصحاب التقوى وأصحاب هذه الغفلة لا يستوون فى شىء ما ، وعبر عنهم بأصحاب الجنة وأصحاب النار زيادة تصوير وتبيين، فالمقام يقتضى التباين فى حكمى الدارين وإن كان المقصود بالقصد الأول تباينهم فى الدار التى هى المدار ، وأنت تعلم أن بيان اقتضاء المقام ذلك فى مقابلة قول أصحاب أبى حنيفة . إن المقام يقتضى التخصيص وإلا فالشافعية يقولون : إن العموم مدلول نفى المساوات لغة لأن النفى داخل على مسمى المساواة فلا بد من انتفائها من جميع الوجوه إذ لو وجدت من وجه لما كان مسماها منتفيا وهو خلاف مقتضى اللفظ ، وقول الحنفية : إن الاستواء مطلقا أعم من الاستواء من كل وجه ومن وجه دون وجه، والنفى إنما دخل على الاستواء الأعم فلا يكون مشعراً بأحد القسمين الخاصين ٥

وحاصله أن الأعم لا يشعر بالأخص فيه إن ذلك فى الاثبات مسلم وفى النفى ممنوع ، ألا ترى أن من قال : ما رأيت حيوانا وكان قد رأى إنساناً مثلا عد كاذباً ؟ وتمام ذلك فى كتب الأصول ، والانصاف أن كون المراد هنا نفى الاستواء فى الأمور الأخروية ظاهر جداً فلا ينبغى الاستدلال بها على ماذكر ٥

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ ﴾ العظيم الشأن المنطوى على فنون القوارع ﴿ عَلَىٰ جَبَل ﴾ من الجبال أو جبل عظيم ﴿ لَرَأَيْتَهُ ﴾ مع كونه علماً فى القسوة وعدم التأثر مما يصادمه ﴿ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَة اللَّه ﴾ أى متشققاً منها ٥

وقرأ أبو طلحة مصدعا بادغام التاء فى الصاد ، وهذا تمثيل وتخييل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر ، والغرض توبيخ الانسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر ما فيه من القوارع وهو الذى لو أنزل على جبل وقد ركب فيه العقل لخشع وتصدع، ويشير إلى كونه تمثيلا قوله تعالى :

Marfat.com

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ ﴾ فان الاشارة فيه إلى قوله تعالى : (لو أنزلنا) الخ وإلى أمثاله ، فالكلام بتقدير وقوع تلك ، أو المراد تلك وأشباهها والأمثال فى الأغلب تمثيلات متخيلة ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وحده سبحانه ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ وهو مالم يتعلق به علم مخلوق وإحساسه أصلا وهو الغيب المطلق ﴿ وَالشَّهَادَةِ ﴾ وهو مايشاهده مخلوق ٭

قال الراغب : الشهود والشهادة الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو بالبصيرة ، وقد يعتبر الحضور مفرداً لكن الشهود بالحضور المجرد أولى والشهادة مع المشاهدة أولى ، وحمل الغيب على المطلق هو المتبادر ، وأل فيه للاستغراق إذ لاقرينة للعهد ، ومقام المدح يقتضيه مع قوله تعالى : (علام الغيوب) فيشمل كل غيب واجبا كان أو ممكنا موجوداً أو معدوماً أو ممتنعا لم يتعاق به علم مخلوق ، ويطلق الغيب على مالم يتعلق به علم مخلوق معين وهو الغيب المضاف أى الغيب بالنسبة إلى ذلك المخلوق وهو على ماقيل : مراد الفقهاء فى قولهم : مدعى علم الغيب كافر ، وهذا قد يكون من عالم الشهادة كما لايخفى ، وذكر الشهادة مع أنه إذا كان كل غيب معلوماً له تعالى كان كل شهادة معلوماً له سبحانه بالطريق الأولى من باب قوله عز وجل : (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) ، وقيل : الغيب مالا يقع عليه الحس من المعدوم أو الموجود الذى لا يدرك ، والشهادة مايقع عليه الإدراك بالحس ٭

وقال الامام أبو جعفر رضى الله تعالى عنه : الغيب مالم يكن والشهادة ماكان ، وقال الحسن : الغيب السر . والشهادة العلانية ، وقيل : الأول الدنيا بمافيها . والثانى الآخرة بمافيها ، وقيل : الأول الجواهر المجردة وأحوالها. والثانى الأجرام والأجسام وأعراضها ، وفيه أن فى ثبوت المجردات خلافا قويا ، وأكثر السلف على نفيها ، وتقديم الغيب لأن العلم به كالدليل على العلم بالشهادة ، وقيل : لتقدمه على الشهادة فان كل شهادة كان غيباً وما برز مابرز إلا من خزائن الغيب ، وصاحب القيل الأخير يقول : إن تقديم الغيب لتقدمه فى الوجود وتعلق العلم القديم به ، واستدل بالآية على أنه تعالى عالم بجميع المعلومات ، ووجهه ماأشرنا اليه ، وتتضمن على ماقيل : دليلا آخر عليه لأنها تدل على أنه لامعبود إلا هو ويلزمه أن يكون سبحانه خالقاً لكل شئ بالاختيار كما هو الواقع فى نفس الأمر ، والخلق بالاختيار يستحيل بدون العلم ، ومن هنا قيل : الاستدلال بها على هذا المطلب أولى من الاستدل بقوله تعالى : (والله بكل شىء عليم) ﴿ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ٢٢ ﴾ برحمة تليق بذاته سبحانه، والتأويل وإن ذكره علماء أجلاء من الماتريدية . والأشاعرة لايحتاج اليه سلفى كما حقق فى التمييز وغيره ٭

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ كرر لابراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد ﴿ الْمَلِكُ ﴾ المتصرف بالأمر والنهى، أو المالك لجميع الاشياء الذى له التصرف فيها ، أو الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء ويستحيل عليه الاذلال ، أو الذى يولى ويعزل ولا يتصور عليه تولية ولاعزل ، أو المنفرد بالعز والسلطان ، أو ذو الملك والملك خلقه، أو القادر أقوال حكاها الآمدى ، وحكى الأخير عن القاضى أبى بكر ﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ البليغ فى النزاهة عما يوجب نقصانا ، أو الذى له الكمال فى كل وصف اختص به ، أو الذى لايحد ولا يتصور ، وقرأ أبو السمال . وأبو دينار الأعرابى (القدوس) بفتح القاف وهو لغة فيه لكنها نادرة ، فقد قالوا : فعول بالضم كثير ، وأما بالفتح فيأتى

Marfat.com

فى الأسماء ـ كسمور . وتنور . وهبود ـ اسم جبل باليمامة ، وأما فى الصفات فنادر جداً ، ومنه سبوح بفتح السين ﴿ السَّلَـٰمُ ﴾ ذو السلامة من كل نقص وآفة مصدر وصف به للمبالغة ، وعن الجبائى هو الذى ترجى منه السلامة ، وقيل : أى الذى يسلم على أوليائه فيسلمون من كل مخوف ﴿ المُؤْمِنُ ﴾ قيل : المصدق لنفسه ولرسله عليهم السلام فيما بلغوه عنه سبحانه إما بالقول أو بخلق المعجزة ، أو واهب عباده الأمن من الفزع الأكبر أو مؤمنهم منه إما بخلق الطمأنينة فى قلوبهم أو بإخبارهم أن لاخوف عليهم ، وقيل : مؤمن الخلق من ظلمه ، وقال ثعلب : المصدق المؤمنين فى أنهم آمنوا ، وقال النحاس : فى شهادتهم على الناس يوم القيامة ، وقيل : ذو الأمن من الزوال لاستحالته عليه سبحانه ، وقيل : غير ذلك ، وقرأ الإمام أبو جعفر محمد بن على بن الحسين رضى الله تعالى عنهم ـ وقيل ـ أبو جعفر المدنى (المؤمن) بفتح الميم على الحذف والايصال كما فى قوله تعالى : (واختار موسى قومه) أى المؤمن به *

وقال أبو حاتم : لايجوز إطلاق ذلك عليه تعالى لايهامه مالا يليق به سبحانه إذ المؤمن المطلق من كان خائفاً وآمنه غيره ، وفيه أنه متى كان ذلك قراءة ولو شاذة لايصح هذا لأن القراءة ليست بالرأى ﴿ المُهَيْمِنُ ﴾ الرقيب الحافظ لكل شىء مفيعل من الأمن بقلب همزته هاءاً ، واليه ذهب غير واحد ، وتحقيقه كما فى الكشف أن أيمن على فيعل مبالغة أمن العدو للزيادة فى البناء ، وإذا قلت : أمن الراعى الذئب على الغنم مثلا دل على كمال حفظه ورقبته ، فالله تعالى أمن كل شىء سواه سبحانه على خلقه وملكه لاحاطة علمه وكمال قدرته عز وجل ، ثم استعمل مجرد الدلالة بمعنى الرقيب والحفيظ على الشىء من غير ذكر المفعول بلا واسطة للمبالغة فى كمال الحفظ كما قال تعالى : (ومهيمنا عليه) وجعله من ذاك أولى من جعله من الامانة نظراً إلى أن الأمين على الشىء حافظ له إذ لاينبىء عن المبالغة ولاعن شمول العلم والقدرة ، وجعله فى الصحاح اسم فاعل من آمنه الخوف على الأصل فأبدلت الهمزة الأصلية ياءاً كراهة اجتماع الهمزتين وقلبت الأولى هاءاً كما فى هراق الماء ، وقولهم فى إياك : هياك كأنه تعالى بحفظه المخلوقين صيرهم آمنين ، وحرف الاستعلاء ـ كمهيمناً عليه ـ لتضمين معنى الاطلاع ونحوه ، وأنت تعلم أن الاشتقاق على ماسمعت أولا أدل والخروج عن القياس فيه أقل ، وظاهر كلام الكشف أنه ليس من التصغير فى شىء *

وقال المبرد : إنه مصغر ، وخطئ فى ذلك فانه لايجوز تصغير أسمائه عز وجل ﴿ العَزِيزُ ﴾ الغالب * وقيل : الذى لامثل له ، وقيل : الذى يعذب من أراد ، وقيل : الذى عليه ثواب العاملين ، وقيل : الذى لايحط عن منزلته ، وقيل : غير ذلك ﴿ الجَبَّارُ ﴾ الذى جبر خلقه على ماأراد وقسرهم عليه : ويقال فى فعله : أجبر ، وأمثلة المبالغة تصاغ من غير الثلاثى لكن بقلة ، وقيل : إنه من جبره بمعنى أصلحه ، ومنه جبرت العظم فانجبر فهو الذى جبر أحوال خلقه أى أصلحها ، وقيل : هو المنيع الذى لاينال يقال للنخلة إذا طالت وقصرت عنها الأيدى : جبارة ، وقيل : هو الذى لاينافس فى فعله ولا يطالب بعلة ولايحجر عليه فى مقدوره *

وقال ابن عباس : هو العظيم ، وقيل : غير ذلك ﴿ المُتَكَبِّرُ ﴾ البليغ الكبرياء والعظمة لأنه سبحانه برئ من التكلف الذى تؤذن به الصيغة فيرجع إلى لازمه من أن الفعل الصادر عن تأنق أقوى وأبلغ ، أو الذى

Marfat.com

تكبر عن كل مايوجب حاجة أو نقصانا ﴿ سُبْحَـٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٢٣ ﴾ تنزيه لله تعالى عما يشركون به سبحانه ، أوعن إشراكهم به عز وجل إثر تعداد صفاته تعالى التى لايمكن أن يشارك سبحانه فى شىء منها أصلا ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ ﴾ المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة ، أو مبدع الأشياء من غير أصل ولا احتذاء ، ويفسر الخلق بايجاد الشىء من الشئ ﴿ الْبَارِئُ ﴾ الموجد لها برية من تفاوت ماتقتضيه بحسب الحكمة والجبلة ، وقيل : المميز بعضها عن بعض بالاشكال المختلفة ﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد ٠

وقال الراغب : الصورة ماتنتقش بها الأعيان وتتميز بها عن غيرها ، وهى ضربان : محسوسة تدركها العامة والخاصة بل الانسان وكثير من الحيوانات كصورة الفرس المشاهدة . ومعقولة تدركها الخاصة دون العامة كالصورة التى اختص الانسان بها من العقل والروية والمعانى التى خص بها شىء بشىء ، وإلى الصورتين أشار بقوله سبحانه : (خلقناكم ثم صورناكم) إلى آيات أخر انتهى فلا تغفل ٠

وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . وحاطب بن أبى بلتعة . والحسن . وابن السميقع (المصور) بفتح الواو والنصب على أنه مفعول للبارىء ، وأريد به جنس المصور ، وعن على كرم الله تعالى وجهه فتح الواو وكسر الراء على إضافة اسم الفاعل إلى المفعول نحو الضارب الغلام ، وفى الخانية إن قراءة (المصور) بفتح الواو هنا تفسد الصلاة ؛ ولعله أراد إذا أجراه حينئذ على الله سبحانه ، وإلا ففى دعوى الفساد بعد ماسمعت نظر ٠

﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ الدالة على محاسن المعانى ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من الموجودات بلسان الحال لما تضمنته من الحكم والمصالح التى يضيق عن حصرها نطاق البيان ، أو بلسان المقال الذى أوتيه كل منها حسبما يليق به على ماقاله كثير من العارفين ، وقد تقدم الكلام فيه ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٤ ﴾ الجامع للكمالات كافة فانها مع تكثرها وتشعبها راجعة إلى كمال القدرة المؤذن به (العزيز) بناءاً على تفسيره بالغالب وإلى كمال العلم المؤذن به (الحكيم) بناءاً على تفسيره بالفاعل بمقتضى الحكمة ، وفى ذلك إشارة إلى التحلية بعد التخلية كما فى قوله تعالى : (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) فتأمل ولاتغفل ٠

ولهذه الآيات فضل عظيم كما دلت عليه عدة روايات ، وأخرج الامام أحمد . والدارمى . والترمذى وحسنه . والطبرانى . وابن الضريس . والبيهقى فى الشعب عن معقل بن يسار عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : «من قال : حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى وإن مات ذلك اليوم مات شهيداً ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة» ٠

وأخرج الديلمى عن ابن عباس مرفوعا « اسم الله الأعظم فى ست آيات من آخر سورة الحشر» ٠

وأخرج أبو على عبد الرحمن بن محمد النيسابورى فى فوائده عن محمد بن الحنفية أن البراء بن عازب قال لعلى ابن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه . أسألك بالله إلا ماخصصتنى بأفضل ماخصك به رسول الله عليه الصلاه والسلام مما خصه به جبريل مما بعث به الرحمن عز وجل ، قال : يابراء إذا أردت أن تدعو الله باسمه الأعظم فاقرأ من أول الحديد عشر آيات وآخر الحشر ، ثم قل : يامن هو هكذا وليس شىء هكذا غيره أسألك أن تفعل لى كذا وكذا فو الله يابراء لو دعوت على لخسف بى ٠

Marfat.com

وأخرج الديلمى عن على كرم الله تعالى وجهه. وابن مسعود رضى الله تعالى عنه مرفوعا إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال فى قوله تعالى : (لو أنزلنا) إلى آخر السورة هى رقية الصداع ، وأخرج الخطيب البغدادى فى تاريخه قال : أنبأنا أبو عبيد الحافظ أنبأ أبو الطيب محمد بن أحمد بن يوسف بن جعفر المقرى البغدادى - يعرف بغلام ابن شنبوذ - أنبأ إدريس بن عبد الكريم الحداد قال . قرأت على خلف فلما بلغت هذه الآية (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) قال : ضع يدك على رأسك فانى قرأت على حمزة فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك فانى قرأت على الأعمش فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك فانى قرأت على يحيى بن وثاب فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك فانى قرأت على علقمة . والأسود فلما بلغت هذه الآية قالا ضع يدك على رأسك فإنا قرأنا على عبد الله رضى الله تعالى عنه فلما بلغنا هذه الآية قال ضعا أيديكما على رءوسكما فإنى قرأت على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فلما بلغت هذه الآية قال لى : « ضع يدك على رأسك فان جبريل عليه السلام لما نزل بها إلى قال : ضع يدك على رأسك فانها شفاء من كل داء إلا السام والسام الموت » إلى غير ذلك من الآثار ، والله تعالى أعلم *

﴿ سورة الممتحنة — ٦٠ ﴾

قال ابن حجر : المشهور فى هذه التسمية أنها بفتح الحاء وقد تكسر ؛ فعلى الأول هى صفة المرأة التى أنزلت بسببها ، وعلى الثانى صفة السورة كما قيل لبراءة : الفاضحة ، وفى جمال القراء تسمى أيضا سورة الامتحان . وسورة المودة ، وأطلق ابن عباس . وابن الزبير رضى الله تعالى عنهم القول بمدنيتها ، وذكر بعضهم أن أولها نزل يوم فتح مكة فكونها مدنية إما من باب التغليب أو مبنى على أن المدنى ما نزل بعد الهجرة ، وهى ثلاث عشرة آية بالاتفاق *

ومناسبتها لما قبلها أنه ذكر فيما قبل موالاة الذين نافقوا للذين كفروا من أهل الكتاب ، وذكر فى هذه نهى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء لئلا يشابهوا المنافقين ، وبسط الكلام فيه أتم بسط ؛ وقيل فى ذلك أيضاً : إن فيما قبل ذكر المعاهدين من أهل الكتاب وفى هذه ذكر المعاهدين من المشركين لأن فيها ما نزل فى صلح الحديبية ، ولشدة اتصالها بالسورة قبلها فصل بها بينها وبين الصف مع تواخيهما فى الافتتاح - بسبح - *

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ نزلت فى حاطب بن عمرو أبى بلتعة - وهو مولى عبد الله بن حميد بن زهير بن أسد بن عبد العزى - أخرج الامام أحمد . والبخارى . ومسلم . وأبو داود . والترمذى . والنسائى . وابن حبان . وجماعة عن على كرم الله تعالى وجهه قال : بعثنى رسول الله ﷺ أنا . والزبير . والمقداد فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأتونى به فخرجنا حتى أتينا الروضة فاذا نحن بالظعينة فقلنا : أخرجى الكتاب قالت : مامعى من كتاب قلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فاذا فيه : من حاطب ابن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال النبى عليه الصلاة والسلام ماهذا ياحاطب ؟! قال : لاتعجل علىّ يارسول الله إنى كنت امرءاً ملصقاً فى قريش ولم أكن من أنفسها وكان

Marfat.com

من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أصطنع اليهم يداً يحمون بها قرابتى ومافعلت ذلك كفراً ولاارتداداً عن دينى فقال عمر رضى الله تعالى عنه : دعنى يارسول الله أضرب عنقه فقال عليه الصلاة والسلام : إنه شهد بدراً ومايدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم فنزلت (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) »الخ *

وفى رواية ابن مردويه عن أنس أنه عليه الصلاة والسلام بعث عمر . وعليا رضى الله تعالى عنهما فى أثر تلك المرأة فلحقاها فى الطريق فلم يقدرا على شىء معها فأقبلا راجعين ثم قال أحدهما لصاحبه : والله ما كذبنا ولا كذبنا ارجع بنا اليها فرجعا فسلا سيفيهما وقالا : والله لنذيقنك الموت أولتدفعن الكتاب فأنكرت ثم قالت : أدفعه إليكما على أن لاتردانى إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقبلا ذلك فأخرجته لهما من قرون رأسها ، وفيه - على مافى الدر المنثور - أن المرأة تدعى أم سارة كانت مولاة لقريش ، وفى الكشاف يقال لها : سارة مولاة لأبى عمرو بن صيفى بن هاشم ، وفى صحة خبر أنس تردد ، وماتضمنه من رجوع الإمامين رضى الله تعالى عنهما بعيد ، وقيل : إن المبعوثين فى أثرها عمر . وعلى . وطلحة . والزبير . وعمار . والمقداد . وأبو مرثد وكانوا فرساناً ، والمعول عليه ماقدمنا ، والذين كانوا له فى مكة بنوه وإخوته على ماروى عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن حاطب المذكور ، وفى رواية لأحمد عن جابر أن حاطباً قال : كانت والدتى معهم فيحتمل أنها مع بنيه وإخوته *

وصورة الكتاب - على ما فى بعض الروايات - أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم فانه منجز له ماوعده ، وفى الخبر السابق على ما قيل : دليل على جواز قتل الجاسوس لتعليله صلى الله تعالى عليه وسلم المنع عن قتله بشهوده بدراً - وفيه بحث - وفى التعبير عن المشركين بالعدو مع الإضافة إلى ضميره عز وجل تغليظ لأمر اتخاذهم أولياء وإشارة إلى حلول عقاب الله تعالى بهم ، وفيه رمز إلى معنى قوله :

إذا صافى صديقك من تعادى فقد عاداك وانقطع الكلام

والعدو فعول من عدا كعفو من عفا ، ولكونه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد ، ونصب (أولياء) على أنه مفعول ثان - لتتخذوا - وقوله تعالى : ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ تفسير للموالاة أو لاتخاذها أو استئناف فلا محل لها من الاعراب ، والباء زائدة فى المفعول كما فى قوله تعالى : (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وإلقاء المودة مجاز عن إظهارها ، وتفسيره بالايصال أى توصلون اليهم المودة لايقطع التجوز *

وقيل : الباء للتعدية لكون المعنى تفضون اليهم بالمودة ، وأفضى يتعدى بالباء كما فى الأساس ، وقيل : هى للسببية والالقاء مجاز عن الارسال أى ترسلون اليهم أخبار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بسبب المودة التى بينكم ، وعن البصريين أن الجار متعلق بالمصدر الدال عليه الفعل ، وفيه حذف المصدر مع بقاء معموله ، وجوز كون الجملة حالا من فاعل (لاتتخذوا) أو صفة - لأولياء - ولم يقل - تلقون اليهم أنتم - بناءاً على أنه لايجب مثل هذا الضمير مع الصفة الجارية على غير من هى له . أو الحال . أو الخبر . أو الصلة سواء فى ذلك الاسم والفعل كما فى شرح التسهيل لابن مالك إذا لم يحصل إلباس نحو زيد هند ضاربها أو يضربها بخلاف زيد عمرو ضاربه أو يضربه فانه يجب معه هو لمكان الالباس *

Marfat.com

وزعم بعضهم أن الابراز فى الصفات الجارية على غير من هى له إنما يشترط فى الاسم دون الفعل كما هنا ومنع ذلك، وتعقب الوجهان بأنهما يوهمان أنه تجوز الموالاة عند عدم الالقاء فيحتاج إلى القول بأنه لا اعتبار للمفهوم للنهى عن الموالاة مطلقاً فى غير هذه الآية ، أو يقال : إن الحال والصفة لازمة ولذا كانت الجملة مفسرة وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾ حال من فاعل (لا تتخذوا) وهى حال مترادفة إن كانت جملة (تلقون) حالية أيضاً أو من فاعل (تلقون) وهى متداخلة على تقدير حاليتها ، وجوز كونه حالا من المفعول وكونه مستأنفاً ٥

وقرأ الجحدرى والمعلى عن عاصم ـ لما ـ باللام أى لأجل ماجاءكم بمعنى جعل ماهو سبب للايمان سبب الكفر ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أى من مكة ﴿ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ أى لايمانكم أو كراهة إيمانكم بالله عز وجل ، والجار متعلق ـ بيخرجون ـ والجملة قيل : حال من فاعل (كفروا) أو استئناف كالتفسير لكفرهم كأنه قيل : كيف كفروا؟ وأجيب بأنهم كفروا أشد الكفر بإخراج الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين لايمانهم خاصة لالغرض آخر، وهذا أرجح من الوجه الاول لطباقه للمقام وكثرة فوائده ، والمضارع لاستحضار الحال الماضية لما فيها من مزيد الشناعة ، والاستمرار غير مناسب للمعنى ، وفى (تؤمنوا) قيل : تغليب للمؤمنين، والالتفات عن ضمير المتكلم بأن يقال : بى إلى مافى النظم الجليل للاشعار بما يوجب الايمان من الألوهية والربوبية ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِى سَبِيلِى وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِى ﴾ متعلق بقوله تعالى : (لاتتخذوا) الخ كأنه قيل : لاتتولوا أعدائى إن كنتم أوليائى لجواب الشرط محذوف دل عليه ماتقدم، وجعله الزمخشرى حالا من فاعل (لاتتخذوا) ولم يقدر له جوابا أى لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء والحال أنكم خرجتم لأجل الجهاد وطلب مرضاتى، واعترض بأن الشرط لايقع حالا بدون جواب فى غير إن الوصلية ، ولابد فيها من الواو وأن ترد حيث يكون ضد المذكور أولى ـ كأحسن إلى زيد وإن أساء اليك ـ وما هنا ليس كذلك ٥

وأجيب بأن ابن جنى جوزه ، وارتضاه جار الله هنا لأن البلاغة وسوق الكلام يقتضيانه فيقال لمن تحققت صداقته من غير قصد للتعليق والشك : لاتخذلنى إن كنت صديقى تهييجا للحمية ، وفيه من الحسن مافيه فلا يضر إذا خالف المشهور ، ونصب المصدرين على ماأشرنا اليه على التعليل ، وجوز كونهما حالين أى مجاهدين ومبتغين ، والمراد بالخروج إما الخروج للغزو. وإما الهجرة، فالخطاب للمهاجرين خاصة لأن القصة صدرت منهم كما سمعت فى سبب النزول ، وقوله تعالى : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ استئناف بيانى كأنهم لما استشعروا العتاب مما تقدم سألوا ماصدر عنا حتى عوتبنا ؟ فقيل : (تسرون) الخ ، وجوز أن يكون بدلا من (تلقون) بدل كل من كل إن أريد بالالقاء الإلقاء خفية ، أو بدل بعض إن أريد الأعم لأن منه السر والجهر ٥

وقال أبو حيان : هو شبيه ببدل الاشتمال ، وجوز ابن عطية كونه خبر مبتدأ محذوف أى أنتم (تسرون) والكلام استئناف للانكار عليهم ، وأنت تعلم أن الاستئناف لذلك حسن لكنه لايحتاج إلى حذف والكلام فى الباء هنا على مايقتضيه ظاهر كلامهم كالباء فيما تقدم ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾

Marfat.com

فى موضع الحال؛ و(أعلم) أفعل تفضيل ، والمفضل عليه محذوف أى منكم ، وأجاز ابن عطية كونه مضارعا ، والعلم قد يتعدى بالباء أوهى زائدة، و(ما)موصولة أو مصدرية ، وذكر (ما أعلنتم) مع الاستغناء عنه للاشارة إلى تساوى العلمين فى علمه عز وجل ، ولذا قدم (ما أخفيتم) وفى هذه الحال إشارة إلى أنه لا طائل لهم فى إسرار المودة اليهم كأنه قيل : تسرون اليهم بالمودة والحال أنى أعلم ما أخفيتم وما أعلنتم ومطلع رسولى على على ماتسرون فأى فائدة وجدوى لكم فى الإسرار ؟ ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ ﴾ أى الإسرار *

وقال ابن عطية . وجمع : أى الاتخاذ ﴿ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ ١ ﴾ أى الطريق المستوى والصراط الحق فإضافة (سواء) من إضافة الصفة إلى الموصوف ، ونصبه على المفعول به ـ لضل ـ وهو يتعدى كأضل ، وقيل : لا يتعدى ؛ و(سواء)ظرف كقوله * كما عسل الطريق الثعلب * ﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ ﴾ أى إن يظفروا بكم، وأصل الثقف الحذق فى إدراك الشىء وفعله ، ومنه رجل ثقف لقف ، وتجوز به عن الظفر والإدراك مطلقاً ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً ﴾ أى عداوة يترتب عليها ضرر بالفعل بدليل قوله تعالى :

﴿ وَيَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ ﴾ أى بما يسوءكم من القتل والأسر والشتم فكأنه عطف تفسيرى ، فوقوع (يكونوا) الخ جواب الشرط بالاعتبار الذى أشرنا اليه وإلا فكونهم أعداء للمخاطبين أمر متحقق قبل الشرط بدليل مافى صدر السورة ، ومثله قول بعضهم : أى يظهروا مافى قلوبهم من العداوة ويرتبوا عليها أحكامها ، وقيل : المراد بذلك لازم العداوة وثمرتها وهو ظهور عدم نفع التودد فكأنه قيل : إن يثقفوكم يظهر لكم عدم نفع إلقاء المودة اليهم والتودد لهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ٢ ﴾ عطف على الجواب وهو مستقبل معنى كما هو شأن الجواب ، ويؤول كما أول سابقه بأن يقال ـ على مافى الكشف ـ المراد ودادة يترتب عليها القدرة على الرد إلى الكفر ، أو يقال ـ على ماقال البعض ـ المراد إظهار الودادة وإجراء ماتقتضيه، والتعبير بالماضى وإن كان المعنى على الاستقبال للاشعار بأن ودادتهم كفرهم قبل كل شىء وأنها حاصلة وإن لم يثقفوهم *

وتحقيق ذلك أن الودادة سابقة بالنوع متأخرة باعتبار بعض الافراد ، فعبر بالماضى نظراً للأول وجعلت جوابا متأخراً نظراً للثانى ، وآثر الخطيب الدمشقى العطف على مجموع الجملة الشرطية كقوله تعالى : (ثم لا ينصرون) فى السورة قبل (وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) عند جمع قال : لأن ودادتهم أن يرتدوا كفاراً حاصلة وإن لم يظفروا بهم فلا يكون فى التقييد بالشرط فائدة ، وإلى ذلك ذهب أبو حيان ، وجوابه يعلم مما ذكرنا . وقريب منه ماقيل : إن ودادة كفرهم بعد الظفر لما كانت غير ظاهرة لأنهم حينئذ سبى وخدم لا يعتد بهم فيجوز أن لا يتمنى كفرهم فيحتاج إلى الإخبار عنه بخلاف الودادة قبل الظفر فيكون للتقييد فائدة لأنها ودادة أخرى متأخرة * وقال بعض الأفاضل : إن المعطوف على الجزاء فى كلام العرب على أنحاء : الأول أن يكون كل منهما جزاء وعلة نحو إن تأتنى آتك وأعطك . الثانى أن يكون الجزاء أحدهما وإنما ذكر الآخر لشدة ارتباطه به لكونه مسببا له مثلا نحو إذا جاء الأمير استأذنت وخرجت لاستقباله ونحو حبست غريمى لأستوفى حقى وأخليه . الثالث أن يكون المقصود جمع أمرين وحينئذ لا ينافى تقدم أحدهما نحو كخرجت مع الحجاج لأرافقهم فى الذهاب ولا أرافقهم فى الاياب ، ومنه قوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ليغفر لك

Marfat.com

الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر) الآية ، وما فى النظم الجليل هنا قيل : محتمل للاول لاستقبال الودادة من بعض الاعتبارات كما تقدم ، وعبر بالماضى اعتباراً للتقدم الرتبي من حيث أن الرد عند الكفرة أشق المضار لعلمهم أن الدين أعز على المؤمنين من أرواحهم لأنهم باذلون لها دونه ، وأهم شىء عند العدو أن يقصد أهم شىء عند صاحبه ؛ ومحتمل للثالث بأن يكون المراد المجموع بتأويل يريدون لكم مضار الدنيا والآخرة.قيل : وللثانى أيضاً بأن يكون الجزاء هو - يبسطوا - وذكرت عداوتهم وودادتهم الرد لشدة الارتباط لما هناك من السببية والمسببية وهو كما ترى ، وجعل الطيبي المجموع مجازاً من إطلاق السبب وإرادة المسبب وهو مضار الدارين ، وذكر أن الجواب فى الحقيقة مقدر أى يريدوا لكم مضار الدنيا والدين ، وماذكر دليله أقيم مقامه ، وقيل : عبر فى الودادة بالماضى لتحققها عند المؤمنين أتم من تحقق ماقبلها ، وحمل عليه كلام لصاحب المفتاح ۞

وعن بعضهم أن الواو واو الحال لاواو العطف،والجملة فى موضع الحال بتقدير قدأو بدونه،ولا يخفى أن العطف هو المتبادر ، وكونه على الجزاء أبعد مغزى ، وإخراج الشرط والجزاء على نحو ذلك أكثر من أن يحصى ۞

﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ ﴾ دفع لما عسى أن يتخيلوا كونه عذراً نافعا من أن الداعى للاتخاذ وإلقاء المودة صيانة الارحام والاولاد من أذى أولئك ؛ والرحم فى الأصل رحم المرأة ، واشتهر فى القرابة حتى صار كالحقيقة فيها ، فإما أن يرادبه ذلك أو يجعل مجازاً عن القريب ، أو يعتبر معه مضاف أى ذوو أرحامكم ، ويؤيد التأويل عطف قوله تعالى : ﴿ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ ﴾ أى لن ينفعكم قراباتكم أو أقاربكم ولا أولادكم الذين توالون المشركين لأجلهم وتتقربون اليهم محاماة عليهم ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ بدفع ضر أو جلب نفع ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ استئناف لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد يومئذ أى يفرق الله تعالى بينكم بما يكون من الهول الموجب لفرار كل منكم من الآخر حسبما نطق به قوله تعالى : (يوم يفر المرء من أخيه) الآية فلا ينبغى أن يرفض حق الله تعالى وتوالى أعداؤه سبحانه لمن هذا شأنه ، وماأشرنا اليه من تعلق يوم القيامة بالفعل قبله هو الظاهر ، وجوز تعلقه - بيفصل - بعده ۞

وقرأ حمزة . والكسائى.وابن وثاب - يفصل - بضم الياء وتشديد الصاد مبنيا للفاعل ، وقرأ أبو حيوة . وابن أبى عبلة كذلك إلا أنهما خففا،وطلحة . والنخعى - نفصل - بالنون مضمومة والتشديدوالبناء للفاعل ، وهما أيضاً . وزيد بن على بالنون مفتوحة مخففاً مبنياً للفاعل ، وأبو حيوة أيضاً بالنون مضمومة ۞

وقرأ الأعرج . وعيسى . وابن عامر - يفصل - بالياء والتشديد والبناء للمفعول ، وجمهور القراء كذلك إلا أنهم خففوا ، ونائب الفعل إما (بينكم) وهو مبنى على الفتح لاضافته إلى متوغل فى البناء كما قيل ، وإما ضمير المصدر المفهوم من الفاعل أى يفصل هو أى الفصل ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٣ ﴾ فيجازيكم به ۞

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَٰهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ تأكيد لأمر الانكار عليهم والتخطئة فى موالاة الكفار بقصة إبراهيم عليه السلام ومن معه ليعلم أن الحب فى الله تعالى والبغض فيه سبحانه من أوثق عرا الايمان فلا ينبغى أن يغفل عنها ، والأسوة بضم الهمزة وكسرها وهما لغتان ، وبالكسر قرأ جميع القراء إلا عاصما وهى بمعنى الائتساء والاقتداء ، وتطلق على الخصلة التى من حقها أن يؤتسى ويقتدي بها،وعلى نفس الشخص المؤتسى به ،

Marfat.com

فنى زيد أسوة من باب التجريد نحو * وللضعفاء فى الرحمن كاف * وفى البيضة عشرون مناً حديد وكل من ذلك قيل : محتمل فى الآية ، ورجح إرادة الخصلة لان الاستثناء الآتى عليها أظهر ، و(لـكم) للبيان متعلق بمحذوف كما فى سقيا لك ، أو هو متعلق بكان على رأى من يجوز تعلق الظرف بها ، (وأسوة) اسمها و(حسنة) صفته ، و(فى إبراهيم) خبرها ، أو (لكم) هو الخبر ، و(فى إبراهيم) صفة بعد صفة ـ لأسوة ـ أو خبر بعد خبر ـ لكان ـ أو حال من المستكن فى (لـكم) على ماقيل ، أو فى (حسنة) ولم يجوز كونه صلة (أسوة) بناءاً على أنها مصدر ، أو اسمه وهو إذا وصف لا يعمل مطلقاً لضعف شبهه بالفعل،قيل : وإذاقلنا : إنها ليست مصدراً ولااسمه ، أوقلنا : إنه يغتفر عمله وإن وصف قبل العمل فى الظرف للاتساع فيه جازذلك *

والظاهر أن المراد ـ بالذين معه ـ عليه السلام أتباعه المؤمنون لكن قال الطبرى. وجماعة : المراد بهم الأنبياء الذين كانوا قريباً من عصره عليه وعليهم الصلاة والسلام لأنه عليه السلام لم يكن معه وقت مكافحته قومه وبراءته منهم أتباع مؤمنون كافحوهم معه وتبرءوا منهم ، فقد روى أنه قال لسارة حين رحل إلى الشام مهاجراً من بلد نمروذ : ماعلى الارض من يعبد الله تعالى غيرى وغيرك ، وأنت تعلم أنه لا يلزم وجود الاتباع المؤمنين فى أول وقت المـكافحة بل اللازم وجودهم ولو بعد ، ولاشك فى أنهم وجدوا بعد فليحمل من معه عليهم، ويكون التبرى المحـكى فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآؤُا مِنـكُمْ ﴾ الخ وقت وجودهم ، (وإذ) قيل : ظرف لخبر (كان) والعامل الجار والمجرور أو المتعلق ، أو ـ لـكان ـ نفسها على مامر ، أو بدل من (أسوة) (وبرآء) جمع برئ كظريف وظرفاء *

وقرأ الجحدرى (براء) كظراف جمع ظريف أيضاً ، وقرأ أبو جعفر (براء) بضم الباء كتؤام وظؤار ، وهو اسم جمع الواحد برىء وتوام وظئر ، وقال الزمخشرى : إن ذلك على إبدال الضم من الكسر كرخال بضم الراء جمع رخل ، وتعقب بأنه ضم أصلى ، والصيغة من أوزان أسماء الجموع ، وليس ذلك جمع تكسير فتكون الضمة بدلا من الكسرة ؛ ورويت هذه القراءة عن عيسى ، قال أبو حاتم : زعموا أنه عيسى الهمدانى وعنه (براء) على فعال كالذى فى قوله تعالى : (إننى براء مما تعبدون) فى الزخرف ، وهو مصدر على فعال يوصف به المفرد وغيره ،وتأكيد الجملة لمزيد الاعتناء بشأنها ، أو لأن قومهم المشركين مستبعدون ذلك شاكون فيه حيث يحسبون أنفسهم على شىء وكأنهم استشعروا ذلك منهم فقالوا لهم : (إنا برآء منـكم) *

﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأصنام والكواكب وغيرها ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ بيان لقوله سبحانه : (إنا برآء) إلى آخره فهو على معنى كفرنا بكم وبما تعبدون من دون الله،ويكون المراد (بكم) القوم ومعبوديهم بتغليب المخاطبين ، والكفر بذلك مجاز أو كناية عن عدم الاعتداد فـكأنه قيل : إنا لا نعتد بشأنـكم ولا بشأن آلهتـكم وما أنتم عندنا على شىء *

وفى الـكشف أن الأصل كفرنا بما تعبدون ثم كفرنا بكم وبما تعبدون لأن من كفر بما أتى به الشخص فقد كفر به ، ثم اكتفى ـ بكفرنا بكم ـ لتضمنه الـكفر بجميع ما أتوا به وما تلبسوا به لاسيما وقد تقدمه (إنا برآء) فسر بأنا لا نعتد الخ تنبيها على أنه تهكم بهم فان ذلك لا يسمى كفراً لغة وعرفا ، وإنما هو اسم يقع على أدخل الاشياء فى الاستجهان والذم ، وماذكرناه أقرب ، وهو معنى مافى الـكشاف دونه ، وأما ماقيل : إن فى الـكلام معطوفا

Marfat.com

على الجار والمجرور محذوفا أى بكم وبما تعبدون ، وحذف اكتفاءاً بدلالة السياق فليس بشىء *

﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾ أى هذا دأبنا معكم لانتركه ﴿ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ وتتركوا ماأنتم عليه من الشرك فتنقلب العداوة ولاية والبغضاء محبة ، وفسر الفيروزابادى (البغضاء) بشدة البغض ضد الحب ، وأفاد أن العداوة ضد الصداقة ، وفسر الصداقة بالمحبة ، فالعداوة والبغضاء على هذا متقاربان ، وأفاد الراغب أن العداوة منافاة الالتئام قلبا ، وقال : البغض نفار النفس عن الشىء الذى ترغب عنه وهو ضد الحب ، ثم قال : يقال : بغض الشىء بغضا وبغضة وبغضاء ، وهو نحو كلام الفيروزابادى ، والذى يفهم من كلام غير واحد أنه كثيراً ما يعتبر فى العداوة التخاذل دون البغضاء فليراجع هذا المطلب *

﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ استثناء من قوله تعالى : (أسوة حسنة) كما قاله قتادة وجماعة وهو على تقدير التجريد أو تفسيراً ـ لأسوة ـ بالاقتداء منقطع بلا ريب ، وأما على تقدير أن يراد بها مايؤتسى به فقيل : هو متصل ؛ وقيل : منقطع ، وإليه ذهب الأكثر ، وتوجيه الاستثناء إلى العدة بالاستغفار لا إلى نفس الاستغفار المحكى عنه عليه السلام بقوله تعالى : (واغفر لأبى) الآية مع أنه المراد قيل : لأنها كانت هى الحاملة له عليه السلام عليه ، ويعلم من ذلك استثناء نفس الاستغفار بطريق الأولى ، وجعلها بعضهم كناية عن الاستغفار لأن عدة الكريم خصوصاً مثل إبراهيم عليه السلام لاسيما إذا أكدت بالقسم يلازمها الانجاز وليس بلازم كما لايخفى ، وكأن هذه العدة غير العدة السابقة فى سورة مريم فى قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام : (سأستغفر لك ربى) الآية ولعلها وقعت منه عليه السلام بعد تلك تأكيداً لها وحكيت ههنا على سبيل الاستثناء *

وفى الارشاد تخصيصها بالذكر دون ماوقع فى سورة مريم لورودها على طريق التوكيد القسمى ، واستثناء ذلك من الأسوة الحسنة قيل : لأن استغفاره عليه السلام لأبيه الكافر بمعنى أن يوفقه الله تعالى للتوبة ويهديه سبحانه للإيمان وإن كان جائزاً عقلا وشرعا لوقوعه قبل تبين أنه من أصحاب الجحيم وأنه يموت على الكفر كما دل عليه مافى سورة التوبة لكنه ليس مما ينبغى أن يؤتسى به أصلا إذ المراد به مايجب الائتساء به حتما لورود الوعيد على الاعراض عنه بقوله تعالى بعد : (ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد) فاستثناؤه عما سبق إنما يفيد عدم وجوب استدعاء الايمان والمغفرة للكافر المرجو إيمانه ، وذلك مما لا يرتاب فيه عاقل ، وأما عدم جوازه فلا دلالة للاستثناء عليه قطعا ، وزعم الامام على مانقل عنه دلالة الآية على ذلك ، ولا يلزم أن يكون الاستغفار منه عليه السلام معصية لأن كثيراً من خواص الأنبياء عليهم السلام لايجوز التأسى به لأنه أبيح لهم خاصة وهو كما ترى إذ هو ظاهر فى أن ذلك الاستغفار الذى وقع منه عليه السلام لو فرض واقعاً من غيره لكان معصية وليس كذلك بل هو مباح ممن وقع *

وعن الطيبى ماحاصله : إن إبراهيم عليه السلام لما أجاب قول أبيه : (لأرجمنك واهجرنى ملياً) بقوله : (سأستغفر لك ربى) رحمة ورأفة به ، ولم يكن عارفا باصراره على الكفر وفى بوعده ، وقال : (واغفر لأبى) فلما تبين إصراره ترك الدعاء وتبرأ منه ، فظهر أن استغفاره لم يكن منكراً ، وهو فى حياته بخلاف مانحن فيه فانه فصل عداوتهم وحرصهم على قطع أرحامهم بقوله تعالى . (لن تنفعكم) الخ وسلاهم عن القطيعة بقصة إبراهيم عليه السلام ثم استثنى منها ماذكر كأنه قيل : لاتجاملوهم ولاتبدوا لهم الرأفة كما فعل إبراهيم لأنه لم يتبين

Marfat.com

له كما تبين لكم انتهى، وفيه رمز إلى احتمال أن يكون المستثنى نفس العدة من حيث دلالتها على الرأفة والرحمة، وما آل ذلك استثناء الرأفة والرحمة، وعلل بعض الأجلة عدم كون استغفاره عليه السلام لأبيه الكافر مما لا ينبغى أن يؤتسى به بأنه كان قبل النهى أو لموعدة وعدها إياه؛ وتعقب الثانى بأن الوعد بالمحظور لا يرفع حظره، والأول بأنه مبنى على تناول النهى لاستغفاره عليه السلام له مع أن النهى إنما ورد فى شأن الاستغفار بعد تبين الأمر، وقد كان استغفاره عليه السلام قبله، ومنئ عن كون الاستغفار مؤتسى به لو لم ينه عنه مع أن مايؤتسى به مايجب الائتساء به لامايجوز فعله فى الجملة، وأجيب بما لا يرفع القال والقيل؛ فالأولى التعليل بماسبق ٠

واستظهر أبو حيان أن الاستثناء من مضاف لإبراهيم مقدر فى نظم الآية الكريمة أى لقد كان لكم أسوة حسنة فى مقالات إبراهيم ومحاوراته لقومه (إلا قول إبراهيم) الخ ، وجزم باتصال الاستثناء عليه، وكذا جزم الطيبى باتصاله على قول البغوى أى لكم أسوة حسنة فى إبراهيم وأموره إلا فى استغفاره لأبيه المشرك، ولايخفى أن التقدير خلاف الظاهر، ومتى ارتكب فالأولى تقدير أمور، بقى أنه قيل: إن الآية تدل على منع التأسى بابراهيم عليه السلام فى الاستغفار للكافر الحى مع أنه بالمعنى السابق أعنى طلب الايمان له لامنع عنه ٠

وأجيب بأنه إنما منع من التأسى بظاهره وظن أنه جائز مطلقاً كما وقع لبعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم، وفيه أنه قد تقدم أن دلالة الآية على أن الاستغفار ليس مما يجب الائتساء به حتما لاعلى منعه وحرمته، ثم إنه ينبغى أن يعلم أن تبين كون أبيه من أصحاب الجحيم الذى كان الاستغفار قبله كان فى الدنيا وكذا التبرى منه بعده، وقد تقدم فى سورة التوبة قول: بكون ذلك فى الآخرة لدلالة ظواهر بعض الاخبار الصحيحة عليه فانها دالة على أنه عليه السلام يشفع لأبيه يوم القيامة، وهى استغفار أى استغفار فيه، ولو كان تبين أنه يموت كافراً فى الدنيا لم يكن ليشفع، ويطلب على أتم وجه المغفرة له ضرورة أنه عليه السلام عالم أن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به، وإنكار ذلك مما لا يكاد يقدم عليه عاقل، والذاهبون إلى أن التبين كان فى الدنيا كما عليه سلف الأمة - وهو الصحيح الذى أجزم به اليوم - أشكلت عليهم تلك الظواهر من حيث دلالتها على الشفاعة التى هى فى ذلك اليوم استغفار، وأتهموا وأنجدوا فى الجواب عنها، وقد تقدم جميع ماوجدته لهم فارجع اليه واختر لنفسك مايحلو ٠

ثم إنى أقول الذى يغلب على ظنى أن الاستغفار الذى كان منه عليه السلام قبل التبين بالمعنى المشهور لابمعنى التوفيق للايمان، والآيات التى فى سورة التوبة وما ورد فى سبب نزولها تؤيد ظواهرها ذلك ٠

والتزم أن امتناع جواز الاستغفار إنما علم بالوحى لا بالعقل لانه يجوز أن يغفر الله تعالى للكافر وهو سبحانه الغفور الرحيم، وأنه عليه السلام لم يكن إذ استغفر عالما بالوحى امتناعه، ومعنى الآية - والله تعالى أعلم - إن لكم الاقتداء بابراهيم عليه السلام والذين معه فى البراءة من الكفرة لكن استغفاره للكافر ليس لكم الاقتداء به فيه وما آله يجب عليكم البراءة ويحرم عليكم الاستغفار وإبداء الرأفة، فليس لكم الذى اعتبرناه فى الاستثناء من باب قوله تعالى: (ما كان للنبى والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين) الخ، ودلالة ذلك على المنع ظاهرة فتأمل جميع ماقدمناه، ووراءه كلام مبنى على قول من قال: ليس لله عز وجل قضاء مبرم، ونقل ذلك عن القطب الشيخ عبد القادر الكيلانى قدس سره، وشيد بعض الأجلة أركانه فى رسالة مستقلة بسط فيها الأدلة على ذلك لكنها لاتخلو عن بحث والله تعالى أعلم، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من تمام القول المستثنى محله النصب على أنه حال من فاعل (لأستغفرن) ومورد الاستثناء نفس الاستغفار لاقيده فانه فى نفسه

Marfat.com

من خصال الخير لكونه إظهاراً للعجز وتفويضاً للامر إلى الله تعالى ، فالكلام من قبيل مارجع فيه النفى للمقيد دون القيد ٥

وفى الكشف أنه وإن كان فى نفسه كلاماً مطابقا للواقع حسناً أن يجعل أسوة إلا أنه شفع بقوله : (لأستغفرن لك)تحقيقا للوعد كأنه قيل : لأستغفرن لك وما فى طاقتى إلا هذا فهو مبذول لامحالة ، وفيه أنه لو ملك أكثر من ذلك لفعل ، وعلى هذا فهو حقيق بالاستثناء ، وقوله عز وجل :

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ٤ ﴾ إلى آخره جملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب متصلة معنى بقصة إبراهيم عليه السلام ومن معه على أنها بيان لحالهم فى المجاهدة لأعداء الله عز وجل وقشر العصا، ثم اللجأ إلى الله تعالى فى كفاية شرهم وأن تلك منهم له عز وجل لالحظ نفسى ، وقيل : اتصالها بما تقدم لفظى على أنها بتقدير قول معطوف على (قالوا إنا برآء) أى وقالوا : ربنا الخ ، وجوز أن يكون المعنى قولوا ربنا أمراً منه تعالى للمؤمنين بأن يقولوه ، وتعليما منه عز وجل لهم وتتميما لما وصاهم سبحانه به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار والائتساء بابراهيم عليه السلام وقومه فى البراءة منهم وتنبيها على الانابة إلى الله تعالى والاستعاذة به من فتنة أهل الكفر والاستغفار مما فرط منهم وهو كما قيل : وجه حسن لا يأباه النظم الكريم ، وفيه شمة من أسلوب (انتهوا خيراً لكم) لأنه سبحانه لما حثهم على الائتساء بمن سمعت فى الانتهاء عن الكفر وموالاة أهله ، ثم قال سبحانه مايدل على اللجأ اليه تعالى يكون فى المعنى نهياً عن الأول وأمراً بالثانى ٥

وجعل بعضهم القول على هذا الوجه معطوفا على (لاتتخذوا) أى وقولوا ربنا الخ، وأياما كان فتقديم الجار والمجرور فى المواضع الثلاثة للقصر كأنه قيل : ربناعليك توكلنا لاعلى غيرك وإليك أنبنا لاإلى غيرك وإليك المصير لاإلى غيرك ﴿ رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى لاتسلطهم علينا فيسبوننا ويعذبوننا - قاله ابن عباس - فالفتنة مصدر بمعنى المفتون أى المعذب من فتن الفضة إذا أذابها فكأنه قيل : ربنالاتجعلنا معذبين للذين كفروا ، وقال مجاهد : أى لاتعذبنا بأيديهم ، أو بعذاب من عندك فيظنوا أنهم محقون وأنا مبطلون فيفتنوا لذلك ٥

وقال قريباً منه قتادة. وأبو مجلز ، والأول أرجح، ولم تعطف هذه الجملة الدعائية على التى قبلها سلوكا بهما مسلك الجمل المعدودة ، وكذا الجملة الآتية ، وقيل : إن هذه الجملة بدل مما قبلها ، ورد بعدم اتحاد المعنيين كلا وجزءاً ولامناسبة بينهما سوى الدعاء ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا ﴾ ماقرط منا ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب الذى لايذل من التجأ اليه، ولايخيب رجاء من توكل عليه ﴿ الْحَكِيمُ ٥ ﴾ الذى لايفعل إلا مافيه حكمة بالغة ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ ﴾ أى فى إبراهيم عليه السلام ومن معه ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الكلام فيه نحو ماتقدم ، وقوله تعالى : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ أى ثوابه تعالى أولقاءه سبحانه ونعيم الآخرة أوأيام الله تعالى واليوم الآخر خصوصا ، والرجاء يحتمل الأمل والخوف صلة - لحسنة - أوصفة ، وجوز كونه بدلا من (لكم) بناءاً على ماذهب اليه الأخفش من جواز أن يبدل الظاهر من ضمير المخاطب - وكذا من ضمير المتكلم - بدل الكل كما يجوز أن يبدل من ضمير الغائب ، وأن يبدل من الكل بدل البعض . وبدل الاشتمال . وبدل الغلط ٥

ونقل جواز ذلك الإبدال عن سيبويه أيضاً، والجمهور على منعه وتخصيص الجواز ببدل البعض. والاشتمال. والغلط٥

Marfat.com

وذكر بعض الأجلة أنه لاخلاف فى جواز أن يبدل من ضمير المخاطب بدل الكل فيما يفيد إحاطة كما فى قوله تعالى : (تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا)وجعل ماهنامن ذلك وفيه خفاء ، وجملة (لقد كان)الخ قيل : تكرير لما تقدم من المبالغة فى الحث على الائتساء بابراهيم عليه السلام ومن معه ، ولذلك صدرت بالقسم وهو على ماقال الخفاجى : إن لم ينظر لقوله تعالى : (إذ قالوا) فانه قيد مخصص فان نظر له كان ذلك تعميما بعد تخصيص ، وهو مأخود من كلام الطيبي فى تحقيق أمر هذا التكرير *

والظاهر أن هذا مقيد بنحو ماتقدم كأنه قيل : لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة إذ قالوا الخ،وفى قوله سبحانه : (لمن كان)الخ إشارة إلى أن من كان يرجو الله تعالى واليوم الآخر لايترك الاقتداء بهم وإن تركه من مخايل عدم رجاء الله سبحانه واليوم الآخر الذى هو من شأن الكفرة بل مما يؤذن بالكفر كما ينبئ عن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ٦ ﴾ فانه مما يوعد بأمثاله الكفرة *

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ ﴾ أى من أقاربكم المشركين ﴿ مَوَدَّةً ﴾ بأن يوافقوكم فى الدين ، وعدهم الله تعالى بذلك لما رأى منهم التصلب فى الدين والتشدد فى معاداة آبائهم وأبنائهم وسائر أقربائهم ومقاطعتهم إياهم بالكلية تطييباً لقلوبهم ، ولقد أنجز الله سبحانه وعده الكريم حين أتاح لهم الفتح فأسلم قومهم فتم بينهم من التحاب والتصافى ماتم ، ويدخل فى ذلك أبو سفيان وأضرابه من مسلمة الفتح من أقاربهم المشركين *

وأخرج عبد بن حميد . وابن المنذر . وابن عدى . وابن مردويه . والبيهقى فى الدلائل . وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : كانت المودة التى جعل الله تعالى بينهم تزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أم حبيبة بنت أبى سفيان فصارت أم المؤمنين وصار معاوية خال المؤمنين ، وأنت تعلم أن تزوجها كان وقت هجرة الحبشة ، ونزول هذه الآيات سنة ست من الهجرة فماذكر لايكاد يصح بظاهره،وفى ثبوته عن ابن عباس مقال ﴿ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ﴾ مبالغ فى القدرة فيقدر سبحانه على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ مبالغ فى المغفرة فيغفر جل شأنه لما فرط منكم فى موالاتهم ﴿ رَحِيمٌ ٧ ﴾ مبالغ فى الرحمة فيرحمكم عز وجل بضم الشمل واستحالة الخيانة ثقة وانقلاب المقت مقة ، وقيل : يغفر سبحانه لمن أسلم من المشركين ويرحمهم ، والأول أفيد وأنسب بالمقام *

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ ﴾ أى لاينهاكم سبحانه وتعالى عن البر بهؤلاء كما يقتضيه كون (أن تبروهم) بدل اشتمال من الموصول ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أى تفضوا إليهم بالقسط أى العدل،فالفعل مضمن معنى الافضاء ولذا عدى بإلى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ٨ ﴾ أى العادلين *

أخرج البخارى . وغيره عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنهما قالت : أتتنى أمى راغبة وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أأصلها ؟ فأنزل الله تعالى (لاينهاكم الله) الخ ، فقال عليه الصلاة والسلام : « نعم صلى أمك» وفى رواية الامام أحمد . وجماعة عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا :

Marfat.com

صناب . وأقط . وسمن وهى مشركة فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلها بيتها حتى أرسلت إلى عائشة رضى الله تعالى عنها أن تسأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن هذا فسألته فأنزل الله تعالى (لا ينهاكم الله) الآية فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها ٥

وقتيلة هذه ـ على ما فى التحرير ـ كانت امرأة أبى بكر رضى الله تعالى عنه فطلقها فى الجاهلية وهى أم أسماء حقيقة، وعن ابن عطية أنها خالتها وسمتها أماً مجازاً ، والاول هو المعول عليه ، وقال الحسن . وأبو صالح : نزلت الآية فى خزاعة . وبنى الحرث بن كعب . وكنانة . ومزينة . وقبائل من العرب كانوا صالحوا رسول الله ﷺ على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه ، وقال قرة الهمدانى . وعطية العوفى : نزلت فى قوم من بنى هاشم منهم العباس ٥

وعن عبد الله بن الزبير أنها نزلت فى النساء والصبيان من الكفرة، وقال مجاهد : فى قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا فكان المهاجرون والانصار يتحرجون من برهم لتركهم فرض الهجرة ، وقيل : فى مؤمنين من أهل مكة وغيرها أقاموا بين الكفرة وتركوا الهجرة ـ أى مع القدرة عليها ـ وقال النحاس . والثعلبى : نزلت فى المستضعفين من المؤمنين الذين لم يستطيعوا الهجرة ، والأكثرون على أنها فى كفرة اتصفوا بما فى حيز الصلة، وعلى ذلك قال الكيا : فيها دليل على جواز التصدق على أهل الذمة دون أهل الحرب وعلى وجوب النفقة للأب الذمى دون الحربى لوجوب قتله ، ويخطر لى أنى رأيت فى الفتاوى الحديثية لابن حجر عليه الرحمة الاستدلال بها على جواز القيام لأهل الذمة لأنه من البر والاحسان اليهم ولم ننه عنه ، لكن راجعت تلك الفتاوى عند كتابتى هذا البحث فلم أظفر بذلك ، ومع هذا وجدته نقل فى آخر الفتاوى الكبرى فى باب السير عن العز بن عبد السلام أنه لا يفعل القيام لكافر لأنا مأمورون بإهانته وإظهار صغاره فان خيف من شره ضرر عظيم جاز لأن التلفظ بكلمة الكفر جائز للاكراه فهذا أولى ، ولم يتعقبه بشئ ، ثم إن فى كون القيام من البر مطلقاً تردداً ، وتخصيص العز جواز القيام للكافر بما إذا خيف ضرر عظيم مخالف لقول ابن وهبان من الحنفية :

وللميل أو للمال يخدم كافر ... وللميل للاسلام لو قام يغفر

ومن الناس من يجعل كل مصلحة دينية كالميل للاسلام لكن بشرط أن لا يقصد القائم تعظيما ، والله تعالى أعلم ، ونقل الخفاجى عن الدر المنثور أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : (اقتلوا المشركين) الآية ، والاستدلال بها على ما سمعت بتقدير عدم النسخ إن تم إنما يتم على بعض الأقوال فيها ٥

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ ﴾ كمشركى مكة، فان بعضهم سعوا فى إخراج المؤمنين . وبعضهم أعانوا المخرجين ﴿ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴾ بدل من الموصول بدل اشتمال أيضاً أى إنما ينهاكم سبحانه عن أن تتولوهم ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٩ ﴾ لوضعهم الولاية موضع العداوة ؛ أو هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب ، وفى الحصر من المبالغة ما لا يخفى ٥

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بيان لحكم من يظهر الإيمان بعد بيان حكم فريق الكافرين ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ أى بحسب الظاهر ﴿ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ من بين الكفار، وقرىء (مهاجرات) بالرفع على البدل من (المؤمنات) فكأنه قيل : إذا جاءكم (مهاجرات) ﴿ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ فاختبروهن بما يغلب على ظنكم موافقة قلوبهن لألسنتهن فى الايمان ٥

Marfat.com

أخرج ابن المنذر. والطبرانى فى الكبير . وابن مردويه بسند حسن . وجماعة عن ابن عباس أنه قال فى كيفية امتحانهن : كانت المرأة إذا جاءت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حلفها عمر رضى الله تعالى عنه بالله ماخرجت رغبة بأرض عن أرض . وبالله ماخرجت من بغض زوج. وبالله ماخرجت التماس دنيا . وبالله ماخرجت إلا حبا لله ورسوله ، وفى رواية عنه أيضاً كانت محنة النساء أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر عمر ابن الخطاب فقال : قل لهن إن رسول الله عليه الصلاة والسلام بايعكن على أن لاتشركن بالله شيئاً الخ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ ﴾ من كل أحد أو منكم ﴿ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾ فانه سبحانه هو المطلع على مافى قلوبهن، والجملة اعتراض ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ ﴾ أى ظننتموهن ظناً قويا يشبه العلم بعدالامتحان ﴿ مُؤْمِنَٰتٍ ﴾ فى نفس الأمر ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ أى إلى أزواجهن الكفرة لقوله تعالى : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ فانه تعليل للنهى عن رجعهن اليهم ، والجملة الأولى لبيان الفرقة الثابتة وتحقق زوال النكاح الأول . والثانية لبيان امتناع مايستأنف ويستقبل من النكاح ، ويشعر بذلك التعبير بالاسم فى الاولى والفعل فى الثانية ٠

وقال الطيبي فى وجه اختلاف التعبيرين: إنه أسندت الصفة المشبهة إلى ضمير المؤمنات فى الجملة الاولى إعلاما بأن هذا الحكم يعنى نفى الحل ثابت فيهن لايجوز فيه الاخلال والتغيير من جانبهن، وأسند الفعل إلى ضمير الكفار إيذانا بأن ذلك الحكم مستمر الامتناع فى الأزمنة المستقبلة لكنه قابل للتغيير باستبدال الهدى بالضلال ، وجوز أن يكون ذلك تكريراً للتأكيد والمبالغة فى الحرمة وقطع العلاقة ، وفيه من أنواع البديع ماسماه بعضهم بالعكس والتبديل كالذى فى قوله تعالى : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) ولعل الأول أولى ، واستدل بالآية على أن الكفار مخاطبون بالفروع كما فى الانتصاف ، والقول : بأن المخاطب فى حق المؤمنة هى . وفى حق الكافر الأئمة بمعنى أنهم مخاطبون بأن يمنعوا ذلك الفعل من الوقوع لايخفى حاله ، وقرأ طلحة - لاهن يحللن لهم -

﴿ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا ﴾ أى وأعطوا أزواجهن مثل مادفعوا اليهن من المهور قيل : وجوبا ، وقيل : ندبا ، روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم عام الحديبية أمر علياً كرم الله تعالى وجهه أن يكتب بالصلح فكتب : باسمك اللهم هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين تأمن فيه الناس ويكف بعضهم عن بعض على أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليه ، ومن جاء قريشاً من محمد لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة ، وأن لاإسلال ولا إغلال ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، فرد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبا جندل ابن سهيل ولم يأت رسول الله عليه الصلاة والسلام أحد من الرجال إلا رده فى مدة العهد وإن كان مسلما ، ثم جاء المؤمنات مهاجرات ، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ممن خرج إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكانت أول المهاجرات ، فخرج أخواها عمار. والوليد حتى قدما على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فكلماه فى أمرها ليردها عليه الصلاة والسلام إلى قريش فنزلت الآية فلم يردها عليه الصلاة والسلام ثم أنكحها صلى الله تعالى عليه وسلم زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه ٠

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل أنه جاءت امرأة تسمى سبيعة بنت الحرث الأسلمية مؤمنة ، وكانت تحت صيفى بن الراهب وهو مشرك من أهل مكة فطلبوا ردها فأنزل الله تعالى الآية ، وروى أنها كانت تحت

Marfat.com

مسافر المخزومى وأنه أعطى ماأنفق ، وتزوجها عمر رضى الله تعالى عنه ، وفى رواية أنها نزلت فى أميمة بنت بشر امرأة من بنى عمرو بن عون كانت تحت أبى حسان بن الدحداحة هاجرت مؤمنة إلى رسول الله ﷺ وطلبوا ردها فنزلت الآية فلم يردها عليه الصلاة والسلام ، وتزوجها سهيل بن صيف فولدت له عبد الله بن سهيل ، ولعل سبب النزول متعدد،وأيّاما كان فالآية على ماقيل : نزلت بياناً لأن الشرط فى كتاب المصالحة إنما كان فى الرجال دون النساء ، وتراخى المخصص عن العام جائز عند الجبائى ومن وافقه،ونسب للزمخشرى أن ذلك من تأخير بيان المجمل لأنه لايقول بعموم تلك الألفاظ بل يجعلها مطلقات،والحمل على العموم والخصوص بحسب المقام ، والحنفية يجوزونه لايقال : إنه شبه التأخير عن وقت الحاجة وهو غير جائز عند الجميع لأن وقت الحاجة أى العمل بالخطاب كان بعد مجئ المهاجرات وطلب ردهن لاحين جرت المهادنة مع قريش ، وهذاذهب إليه بعض الشافعية أيضاً ، ومنهم من زعم أن التعميم كان منه صلى الله تعالى عليه وسلم عن اجتهاد أثيب عليه بأجر واحد ولم يقر عليه ، ومنهم من وافق جمهور الحنفية على النسخ لاالتخصيص ، فمن جوز منهم نسخ السنة بالكتاب قال : نسخ بالآية ، ومن لم يجوز قال : بالسنة أى امتناعه صلى الله تعالى عليه وسلم من الرد ووردت الآية مقررة لفعله عليه الصلاة والسلام .

وعن الضحاك كان بين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبين المشركين عهد أن لاتأتيك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا فان دخلت فى دينك ولها زوج أن ترد على زوجها الذى أنفق عليها ، وللنبى صلى الله تعالى عليه وسلم من الشرط مثل ذلك ، وعليه فالآية موافقة لما وقع عليه العهد لكن أخرج أبو داود فى ناسخه . وابن جرير . وغيرهما عن قتادة أنه نسخ هذا العهد وهذا الحكم يعنى إيتاء الأزواج ما انفقوا براءة ، أما نسخ العهد فلما أمر فيها من النبذ ، وأما نسخ الحكم فلأن الحكم فرع العهد فاذا نسخ نسخ ، والذى عليه معظم الشافعية أن الغرامة لأزواجهن غير ثابتة ، وبين ذلك فى الكشف على القول بنسخ رد المرأة ، والقول بالتخصيص،والقول : بأن التعميم كان عن اجتهاد لم يقر عليه ﷺ ، ثم قال:وأما على قول الضحاك - أى السابق - فهو مشكل ، ووجهه أنه حكم فى مخصوصين فلا يعم غير تلك الوقعة على أنه عز وجل خص الحكم بالمهاجرين ولم يبق بعد الفتح هجرة كما ثبت فى الصحيح فلا يبقى الحكم ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ أى فى نكاحهن حيث حال إسلامهن بينهن وبين أزواجهن الكفار ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أى وقت إيتائكم إياهن مهورهن- فاذا - لمجرد الظرفية ، ويجوز كونها شرطية وجوابها مقدر بدليل ماقبل ، وعلى التقديرين يفهم اشتراط إيتاء المهور فى نفى الجناح فى نكاحهن ، وليس المراد بايتاء الأجور إعطاءها بالفعل بل التزامها والتعهد بها ، وظاهر هذا مع ماتقدم من قوله تعالى : (وآتوهم ماأنفقوا) أن هناك إيتاء إلى الازواج وإيتاء اليهن فلايقوم ماأوتى إلى الازواج مقام مهورهن بل لابد مع ذلك من إصداقهن ، وقيل : لايخلو إما أن يراد بالأجور ماكان يدفع اليهن ليدفعنه إلى أزواجهن فيشترط فى إباحة تزويجهن تقديم أدائه ، وإما أن يراد أن ذلك إذا دفع إليهن على سبيل القرض ثم تزوجن على ذلك لم يكن به بأس ، وإما أن يبين اليهم أن ماأعطى لأزواجهن لايقوم مقام المهر،وهذا ماذكرناه أولا من الظاهر وهو الأصح فى الحكم ، والوجهان الآخران ضعيفان فقهاً ولفظاً .

واحتج أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه بالآية على أن أحد الزوجين إذا خرج من دار الحرب مسلماً أو بذمة

Marfat.com

وبقى الآخر حربياً وقعت الفرقة . ولا يرى العدة على المهاجرة ويبيح نكاحها من غير عدة إلا أن تكون حاملا ، وهذا للحديث المشهور الذى تجوز بمثله الزيادة على النص « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقين ماءه زرع غيره » ومذهب الشافعى على ماقيل : إنه لاتقع الفرقة إلا باسلامها ، وأما بمجرد الخروج فلا فان أسلمت قبل الدخول تنجزت الفرقة وبعد الدخول توقفت إلى انقضاء العدة ، وتعقب الاحتجاج بأن الآية لاتدل على مجموع ماذكر ، نعم قد احتج بها على عدم العدة فى الفرقة بخروج المرأة الينا من دار الحرب مسلمة ، ووجه بأنه سبحانه نفى الجناح من كل وجه فى نكاح المهاجرات بعد إيتاء المهر ، ولم يقيد جل شأنه بمضى العدة فلولا أن الفرقة بمجرد الوصول إلى دار الاسلام لكان الجناح ثابتاً ، ومع هذا فقد قيل : الجواب على أصل الشافعية أن رفع الاطلاق ليس بنسخ ظاهر لأن عدم التعرض ليس تعرضا للعدم ، وأما على أصل الحنفية فكسائر الموانع ، وكونها حاملا بالاتفاق فتأمل ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ جمع كافرة ، وجمع فاعلة على فواعل مطرد وهو وصف جماعة الاناث ، وقال الكرخى : (الكوافر) يشمل الاناث والذكور ، فقال له الفارسى : النحويون لايرون هذا إلا فى الاناث جمع كافرة ، فقال : أليس يقال : طائفة كافرة وفرقة كافرة ، قال الفارسى: فبهت ، وفيه أنه لايقال : كافرة فى وصف الذكور إلا تابعاً للموصوف ، أو يكون محذوفا مراداً أما بغير ذلك فلا تجمع فاعلة على فواعل إلا ويكون للمؤنث قاله أبو حيان ، و-عصم - جمع عصمة وهى مايعتصم به من عقد وسبب ، والمراد نهى المؤمنين عن أن يكون بينهم وبين الزوجات المشركات الباقية فى دار الحرب علقة من علق الزوجية أصلا حتى لايمنع إحداهن نكاح خامسة أو نكاح أختها فى العدة بناءاً على أنه لاعدة لهن ؛ قال ابن عباس : من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدن بها من نسائه لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه ؛ وأخرج سعيد بن منصور . وابن المنذر عن إبراهيم النخعى أنه قال : نزل قوله تعالى : (ولاتمسكوا) الخ فى المرأة من المسلمين تلحق بالمشركين فلا يمسك زوجها بعصمتها قد برئ منها *

وأخرج ابن أبى شيبة عن مجاهد . وسعيد بن جبير نحوه ، وفى رواية أخرى عن مجاهد أنه قال : أمرهم سبحانه بطلاق الباقيات مع الكفار ومفارقتهن ، ويروى أن عمر رضى الله تعالى عنه طلق لذلك امرأته فاطمة أخت أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة المخزومى فتزوجها معاوية بن أبى سفيان وامرأته كلثوم بنت جرول الخزاعى فتزوجها أبو جهم بن حذيفة العدوى ، وكذا طلق طلحة زوجته أروى بنت ربيعة ، وتعقب ذلك بأنه بظاهره مخالف لمذهب الحنفية . والشافعية ، أما عند الحنفية فلأن الفرقة بنفس الوصول إلى دار الاسلام ، وأما عند الشافعية فلأن الطلاق موقوف إن جمعتهما العدة تبين وقوعه من حين اللفظ ، وإلا فالبينونة بواسطة بقاء المرأة فى الكفر ، فظاهر الآية لايدل على مافى هذه الرواية ، وقرأ أبو عمرو . ومجاهد بخلاف عنه . وابن جبير . والحسن . والأعرج (تمسكوا) مضارع مسك مشدداً ، والحسن أيضا . وابن أبى ليلى . وابن عامر فى رواية عبد الحميد . وأبو عمرو فى رواية معاذ (تمسكوا) مضارع تمسك محذوف إحدى التاءين ، والأصل تتمسكوا به

وقرأ الحسن أيضا (تمسكوا) بكسر السين مضارع مسك ثلاثياً ﴿ وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ ﴾ أى واسألوا الكفار مهور نسائكم اللاحقات بهم ﴿ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنْفَقُوا ﴾ أى وليسألكم الكفار مهور نسائهم المهاجرات اليكم ، وظاهره أمر الكفار ، وهو من باب (وليجدوا فيكم غلظة) فهو أمر للمؤمنين بالأداء مجازاً ، وقيل : المراد

Marfat.com

التسويه ﴿ ذَلِكُم ﴾ الذى ذكر ﴿ حُكْمُ اللهِ ﴾ أى فاتبعوه ، وقوله عزوجل : ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ كلام مستأنف أو حال من (حكم) بحذف الضمير العائد اليه ، وهو مفعول مطلق أى يحكمه الله تعالى بينكم ، أو العائد إليه الضمير المستتر فى (يحكم) بجعل الحكم حاكما مبالغة كأن الحكم لقوته وظهوره غير محتاج لحاكم آخر ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٠ ﴾ يشرع ما تقتضيه الحكمة البالغة ، روى أنه لما تقرر هذا الحكم أدى المؤمنون مما أمروا به من مهور المهاجرات إلى أزواجهن ، وأبى المشركون أن يؤدوا شيئاً من مهور الكوافر إلى أزواجهن المؤمنين فنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ ﴾ أى سبقكم وانفلت منكم ﴿ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ أى أحد من أزواجكم ، وقرئ كذلك ، وإيقاع (شىء) موقعه لزيادة التعميم وشمول محقر الجنس نصاً ، وفى الكشف لك أن تقول : أريد التحقير والتهوين على المسلمين لأن من فات من أزواجهم إلى الكفار يستحق الهون والهوان ، وكانت الفائتات ستاً على ما نقله فى الكشاف وفصله ، أو إن (فاتكم شىء) من مهور أزواجكم على أن (شىء) مستعمل فى غير العقلاء حقيقة ، و(من) ابتدائية لا بيانية كما فى الوجه الأول ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ من العقبة لا من العقاب ، وهى فى الأصل النوبة فى ركوب أحد الرفيقين على دابة لهما والآخر بعده أى فجاءت عقبتكم أى نوبتكم من أداء المهر شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى ، أو شبه الحكم بالأداء المذكور بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب فى الركوب ، وحاصل المعنى إن لحق أحد من أزواجكم بالكفار أو فاتكم شىء من مهورهن ولزمكم أداء المهر كما لزم الكفار *

﴿ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾ من مهر المهاجرة التى تزوجتموها ولا تؤتوه زوجها الكافر ليكون قصاصاً ، ويعلم مما ذكرنا أن عاقب لا يقتضى المشاركة ، وهذا كما تقول : إبل معاقبة ترعى الحمض تارة وغيره أخرى ولا تريد أنها تعاقب غيرها من الإبل فى ذلك ، وحمل الآية على هذا المعنى يوافق ما روى عن الزهرى أنه قال : يعطى من لحقت زوجته بالكفار من صداق من لحق بالمسلمين من زوجاتهم *

وعن الزجاج أن معنى (فعاقبتم) فغنمتم ، وحقيقته فأصبتم فى القتال بعقوبة حتى غنمتم فكأنه قيل:(وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار) ولم يؤدوا إليكم مهورهن فغنمتم منهم (فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) من الغنيمة وهذا هو الوجه دون ما سبق ، وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم - كما روى عن ابن عباس - يعطى الذى ذهبت زوجته من الغنيمة قبل أن تخمس المهر ولا ينقص من حقه شيئاً ، وقال ابن جنى : وينا عن قطرب أنه قال:(فعاقبتم) فأصبتم عقبا منهم يقال:عاقب الرجل شيئاً إذا أخذ شيئا وهو فى المعنى كالوجه قبله *

وقرأ مجاهد . والزهرى . والاعرج . وعكرمة . وحميد . وأبو حيوة . والزعفرانى - فعقبتم - بتشديد القاف من عقبه إذا قفاه لأن كل واحد من المتعاقبين يقفى صاحبه ، والزهرى . والأعرج . وأبو حيوة أيضا . والنخعى . وابن وثاب بخلاف عنه - فعقبتم - بفتح القاف وتخفيفها ، والزهرى . والنخعى أيضا بالكسر والتخفيف ، ومجاهد أيضا - فأعقبتم - أى دخلتم فى العقبة ؛ وفسر الزجاج هذه القراآت الأربعة بأن المعنى فكانت العقبى لكم أى الغلبة والنصر حتى غنمتم لأنها العاقبة التى تستحق أن تسمى عاقبة ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ١١ ﴾ فان الإيمان به عز وجل يقتضى التقوى منه سبحانه وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾

Marfat.com

أى مبايعات لك أى قاصدات للمبايعة ﴿ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى شيئا من الأشياء أو شيئا من الاشراك ﴿ وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ أريد به على ماقال غير واحد : وأد البنات بالقرينة الخارجية ، وإن كان الأولاد أعم منهن ، وجوز إبقاءه على ظاهره فان العرب كانت تفعل ذلك من أجل الفقر والفاقة ، وانظر هل يجوز حمل هذا النهى على ما يعم ذلك ، وإسقاط الحمل بعد أن ينفخ فيه الروح ، وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . والحسن . والسلمى (ولا يقتلن) بالتشديد ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ *

قال الفراء : كانت المرأة فى الجاهلية تلتقط المولود فتقول : هذا ولدى منك فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن ، وذلك أن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها ، وفى الكشاف كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذى تلصقه بزوجها كذبا لأن بطنها الذى تحمله فيه بين اليدين وفرجها الذى تلده به بين الرجين ، وقيل : كنى بذلك عن الولد الدعى لأن اللواتى كن يظهرن البطون لأزواجهن فى بدء الحال إنما فعلن ذلك امتنانا عليهم ، وكن يبدين فى ثانى الحال عند الطلق حين يضعن الحمل بين أرجلهن أنهن ولدن لهم فنهين عن ذلك الذى هو من شعار الجاهلية المنافى لشعار المسلمات تصويراً لتينك الحالتين وتهجيناً لما كن يفعلنه ، وأيّاما كان فحمل الآية على ماذكر هو الذى ذهب اليه الأكثرون ، وروى ذلك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وقال بعض الأجلة : معناه لا يأتين ببهتان من قبل أنفسهن ، واليد والرجل كناية عن الذات لأن معظم الأفعال بهما ، ولذا قيل للمعاقب بجناية قولية : هذا ما كسبت يداك ، أو معناه لا يأتين ببهتان ينشئنه فى ضمائرهن وقلوبهن ، والقلب مقره بين الأيدى والأرجل ، والكلام على الأول كناية عن إلقاء البهتان من تلقاء أنفسهن ، وعلى الثانى كناية عن كون البهتان من دخيلة قلوبهن المبنية على الخبث الباطنى *

وقال الخطابى : معناه لا يبهتن الناس كفاحا ومواجهة كما يقال للامر بحضرتك : إنه بين يديك ، ورد بأنهم وإن كنوا عن الحاضر بما ذكر لكن لا يقال فيه : هو بين رجليك ، وهو وارد لو ذكرت الأرجل وحدها أما إذا ذكرت مع الأيدى تبعاً فلا ، والكلام قيل : كناية عن خرق جلباب الحياء ، والمراد النهى عن القذف ، ويدخل فيه الكذب والغيبة ، وروى عن الضحاك حمل ذلك على القذف ، وقيل : بين أيديهن قبلة أو جسة وأرجلهن الجماع ، وقيل : بين أيديهن ألسنتهن بالنميمة ، وأرجلهن فروجهن بالجماع ، وهو - وكذا ماقبله - كما ترى *

وقيل : البهتان السحر ، وللنساء ميل اليه جداً فنهين عنه وليس بشىء ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ أى فيما تأمرهن به من معروف وتنهاهن عنه من منكر ، والتقييد بالمعروف مع أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لا يأمر إلا به للتنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق فى معصية الخالق ، ويرد به على من زعم من الجهلة أن طاعة أولى الأمر لازمة مطلقاً ، وخص بعضهم هذا المعروف بترك النياحة لما أخرج الامام أحمد . والترمذى وحسنه . وابن ماجه . وغيرهم عن أم سلمة الأنصارية قالت امرأة من هذه النسوة : ماهذا المعروف الذى لا ينبغى لنا أن نعصيك فيه؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : «لا تنحن» الحديث ، ونحوه من الأخبار الظاهرة فى تخصيصه بما ذكر كثير ، والحق العموم ، وما ذكر فى الأخبار من باب الاقتصار على بعض أفراد العام لنكتة ، ويشهد للعموم قول ابن عباس . وأنس . وزيد بن أسلم : هو النوح . وشق الجيوب . ووشم الوجوه . ووصل الشعر . وغير ذلك من أوامر الشريعة فرضها وندبها ، وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر فى حقهن لكثرة

Marfat.com

وقوعها فيما بينهن مع اختصاص بعضها بهن على ماسمعت أولا ﴿ فَبَايِعْهُنَّ ﴾ بضمان الثواب على الوفاء بهذه الأشياء ، وتقييد مبايعتهن بما ذكر من مجيئهن لحثهن على المسارعة اليها مع كمال الرغبة فيها من غير دعوة لهن اليها ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ﴾ زيادة على مافى ضمن المبايعة من ضمان الثواب ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٢ ﴾ أى مبالغ جل شأنه فى المغفرة والرحمة فيغفر عز وجل لهن ويرحمهن إذا وفين بما بايعن عليه ؛ وهذه الآية نزلت - على ماأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل - يوم الفتح فبايع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الرجال على الصفا . وعمر رضى الله تعالى عنه يبايع النساء تحتها عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجاء أنه عليه الصلاة والسلام بايع النساء أيضاً بنفسه الكريمة ٠

أخرج الإمام أحمد . والنسائى . وابن ماجه . والترمذى وصححه . وغيرهم عن أميمة بنت رقية قالت : أتيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لنبايعه فأخذ علينا مافى القرآن أن لانشرك بالله شيئاً حتى بلغ (ولا يعصينك فى معروف) فقال : «فيما استطعن وأطقن قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يارسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : إنى لا أصافح النساء إنما قولى لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة » ٠

وأخرج سعيد بن منصور . وابن سعد عن الشعبى قال : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا بايع النساء وضع على يده ثوبا ، وفى بعض الروايات أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يبايعهن وبين يديه وأيديهن ثوب قطوى ، ومن يثبت ذلك يقول بالمصافحة وقت المبايعة ، والأشهر المعول عليه أن لامصافحة ، وأخرج ابن سعد . وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا بايع النساء دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه ثم يغمس أيديهن فيه ؛ وكأن هذا بدل المصافحة والله تعالى أعلم بصحته ٠

والمبايعة وقعت غير مرة ووقعت فى مكة بعد الفتح وفى المدينة ؛ وممن بايعنه عليه الصلاة والسلام فى مكة هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ، ففى حديث أسماء بنت يزيد بن السكن كنت فى النسوة المبايعات وكانت هند بنت عتبة فى النساء فقرأ صلى الله تعالى عليه وسلم عليهن الآية فلما قال : (على أن لا يشركن بالله شيئاً) قالت هند : وكيف نطمع أن يقبل منا مالم يقبله من الرجال ؟ يعنى أن هذا بين لزومه فلما قال (ولا يسرقن) قالت : والله إنى لأصيب الهنة من مال أبى سفيان لا يدرى أيحل لى ذلك ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شىء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال ، فضحك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعرفها فقال لها : وإنك لهند بنت عتبة ؟ قالت : نعم فاعف عما سلف يانبى الله عفا الله عنك ، فقال : ولا (يزنين) فقالت : أو تزنى الحرة ؟ تريد أن الزنا فى الإماء بناءً على ما كان فى الجاهلية من أن الحرة لاتزنى غالباً وإنما يزنى فى الغالب الإماء ، وإنما قيد بالغالب لما قيل : إن ذوات الرايات كن حرائر ، فقال : (ولا يقتلن أولادهن) فقالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً - تعنى ما كان من أمر ابنها حنظلة بن أبى سفيان فانه قتل يوم بدر - فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم - وفى رواية - أنها قالت : قتلت الآباء وتوصينا بالأولاد ؟! فضحك صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : (ولا يأتين ببهتان) فقالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ولا يأمر الله تعالى إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : (ولا يعصينك فى معروف) فقالت : والله ماجلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء وكأن هذا منها دون غيرها من النساء لمكان أم حبيبة رضى الله تعالى عنها من رسول الله

Marfat.com

صلى الله تعالى عليه وسلم مع أنها حديثة عهد بجاهلية ، ويروى أن أول من بايع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من النساء أم سعد بن معاذ . و كبشة بنت رافع مع نسوة أخر رضى الله تعالى عنهن ٠

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ عن الحسن . وابن زيد . ومنذر بن سعيد أنهم اليهود لأنه عز وجل قد عبر عنهم فى غير هذه الآية بالمغضوب عليهم ، وروى أن قوماً من فقراء المؤمنين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم فنزلت ، وقيل : هم اليهود والنصارى ، وفى رواية عن ابن عباس أنهم كفار قريش ، وقال غير واحد : هم عامة الكفرة ، وهذه الآية على ما قال الطيبي : متصلة بخاتمة قصة المشركين الذين نهى المؤمنون عن اتخاذهم أولياء بقوله تعالى : (لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) وهى قوله سبحانه : (ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) وقوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات) الخ مستطرد فانه لما جرى حديث المعاملة مع الذين لا يقاتلون المسلمين والذين يقاتلونهم وقد أخرجوهم من ديارهم من الأمر بمبرة أولئك والنهى عن مبرة هؤلاء أتى بحديث المعاملة مع نسائهم ، ولما فرغ من ذلك أوصل الخاتمة بالفاتحة على منوال رد العجز على الصدر من حيث المعنى ، وفى الانتصاف جعل هذه الآية نفسها من باب الاستطراد وهو ظاهر على القول : بأن المراد بالقوم اليهود أو أهل الكتاب مطلقاً ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ استئناف ، والمراد قد يئسوا من خير الآخرة وثوابها لعنادهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم المنعوت فى كتابهم المؤيد بالآيات البينات والمعجزات الباهرات ، وإذا أريد بالقوم الكفرة فيأسهم من الآخرة لكفرهم بها ٠

﴿ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ١٣ ﴾ أى الذين هم أصحاب القبور أى الكفار الموتى على أن (من) بيانية ، والمعنى أن يأس هؤلاء من الآخرة كيأس الكفار الذين ماتوا وسكنوا القبور وتبينوا حرمانهم من نعيمها المقيم ، وقيل : كيأسهم من أن ينالهم خير من هؤلاء الأحياء ، والمراد وصفهم بكمال اليأس من الآخرة ، و كون (من) بيانية مروى عن مجاهد . وابن جبير . وابن زيد ، وهو اختيار ابن عطية . وجماعة ، واختار أبو حيان كونها لابتداء الغاية ، والمعنى أن هؤلاء القوم المغضوب عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس من ماتوا منهم أن يبعثوا ويلقوهم فى دار الدنيا ، وهو مروى عن ابن عباس . والحسن . وقتادة ، فالمراد بالكفار أولئك القوم ، ووضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلا لكفرهم وإشعاراً بعلة يأسهم ، وقرأ ابن أبى الزناد . كما يئس الكافر - بالافراد على إرادة الجنس ٠

هذا ﴿ ومن باب الاشارة فى بعض الآيات ﴾ ما قيل : إن قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) الخ إشارة للسالك إلى ترك موالاة النفس الامارة وإلقاء المودة اليها فانها العدو الأكبر كما قيل : أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك ، وهى لا تزال كارهة للحق ومعارضة لرسول العقل نافرة له ولا تنفك عن ذلك حتى تكون مطمئنة راضية مرضية ، واليه الاشارة بقوله تعالى : (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) وقوله سبحانه : (لا ينهاكم الله) الخ إشارة إلى أنه متى أطاعت النفس وأمن جماحها جاز إعطاؤها حظوظها المباحة ، وإليه الإشارة بما روى أن « لنفسك عليك حقاً » وفى قوله سبحانه : (ياأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك) الخ إشارة إلى مبايعة المرشد المريد الصادق ذا النفس المؤمنة وذلك أن يبايعه على ترك الاختيار وتفويض الأمور إلى الله عز وجل وأن لا يرغب فيما ليس له بأهل ، وأن لا يلج فى شهوات النفس ، وأن لا يئد الوارد الالهامى تحت تراب الطبيعة ، وأن لا يفترى فيزعم أن الخاطر السرى خاطر

Marfat.com

الروح وخاطر الروح خاطر الحق إلى غير ذلك ، وأن لا يعصى فى معروف يفيده معرفة الله عز وجل ، وأن يطلب من الله سبحانه فى ضمن المبالغة أن يستر صفاته بصفاته ووجوده بوجوده ، وحاصله أن يطلب له البقاء بعد الفناء وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء *

﴿ سورة الصف ﴾

وتسمى أيضا سورة الحواريين . وسورة عيسى عليه السلام ، وهى مدنية فى قول الجمهور ، وروى ذلك عن ابن الزبير . وابن عباس . والحسن . وقتادة . وعكرمة . ومجاهد ، وقال ابن يسار : مكية ، وروى ذلك عن ابن عباس . ومجاهد أيضاً ، والمختار الأول ، ويدل له ما أخرجه الحاكم . وغيره عن عبد الله بن سلام قال : قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتذاكرنا فقلنا : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناه فأنزل الله سبحانه (سبح لله مافى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون) قال عبد الله فقرأها علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى ختمها ، وروى هذا الحديث مسلسلا يقرأها علينا ، وهو حديث صحيح على شرط الشيخين أخرجه الامام أحمد . والترمذى . وخلق كثير حتى قال الحافظ ابن حجر : إنه أصح مسلسل يروى فى الدنيا إن وقع فى المسلسلات مثله فى مزيد علوه ، وكذا ماروى فى سبب النزول عن الضحاك من أنه قول شباب من المسلمين : فعلنا فى الغزو كذا ولم يفعلوا ، وما روى عن ابن زيد من أنه قول المنافقين للمؤمنين : نحن منكم ومعكم ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك *

وآيها أربع عشرة آية بلا خلاف ، ومناسبتها لما قبلها اشتمالها على الحث على الجهاد والترغيب فيه ، وفى ذلك من تأكيد النهى عن اتخاذ الكفار أولياء الذى تضمنه ماقبل مافيه *

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١ ﴾ الكلام فيه كالكلام المار فى نظيره ، والنداء بوصف الايمان فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ٢ ﴾ على ماعدا القول الأخير فى سبب النزول ظاهر ، وعليه قيل : هو للتهكم بأولئك المنافقين وبإيمانهم ، و(لم) مركبة من اللام الجارة . وما الاستفهامية قد حذف ألفها - على ماقال النحاة - للفرق بين الخبر والاستفهام ولم يعكس حرصا على الجواب ، وقيل : لكثرة استعمالهما معا فاستحق التخفيف وإثبات الكثرة المذكورة أمر عسير ، وقيل : لاعتناقهما فى الدلالة على المستفهم عنه ، وبين بأن قولك : لم فعلت ؟ مثلا المستفهم عنه علة الفعل فهو كالمركب من العلة والفعل والعلة مدلول اللام والفعل مدلول - ما - لأنها بمعنى أى شىء ، والمفيد لذلك المجموع ، وعند عدم الحرف المسئول عنه الفعل وحده وهو كما ترى ، والمعنى لأى شىء تقولون مالا تفعلونه من الخير والمعروف ؟ ، على أن مدار التوبيخ فى الحقيقة عدم فعلهم ، وإنما وجه إلى قولهم تنبيها على تضاعف معصيتهم ببيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط بل الوعد أيضاً ، وقد كانوا يحسبونه معروفا ، ولو قيل : لم لاتفعلون ماتقولون لفهم منه أن المنكر هو ترك الموعود ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ٣ ﴾ بيان

Marfat.com

لغاية قبح مافعلوه ، و(كبر) من باب بئس فيه ضمير مبهم مفسر بالنكرة بعده ، و(أن تقولوا)هو المخصوص بالذم ، وجوز أن يكون فى (كبر)ضمير يعود على المصدر المفهوم من قوله سبحانه : (لم تقولون) أى كبر هو أى القول مقتاً ؛ و(أن تقولوا) بدل من المضمر أو خبر مبتدأ محذوف ، وقيل : قصد فيه كثر التعجب من غير لفظه كما فى قوله :

وجارة جساس أبأنا بنابها كليباً غلت ناب كليب بواؤها

ومعنى التعجب تعظيم الأمر فى قلوب السامعين ، وأسند إلى (أن تقولوا) ونصب (مقتاً) على تفسيره دلالة على أن قولهم : (مالا يفعلون) مقت خالص لاشوب فيه لفرط تمكن المقت منه ، واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه ، ومنه نكاح المقت لتزوج الرجل امرأة أبيه ، ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيراً حتى جعل أشده وأفحشه ، وعند الله أبلغ من ذلك لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله تعالى الذى يحقر دونه سبحانه كل عظيم فقد تم كبره وشدته وانزاحت عنه الشكوك ، وتفسير المقت بما سمعت ذهب اليه غير واحد من أهل اللغة ، وقال ابن عطية : المقت البغض من أجل ذنب . أو ريبة . أو دناءة يصنعها الممقوت ، وقال المبرد : رجل ممقوت ومقيت إذا كان يبغضه كل واحد ، واستدل بالآية على وجوب الوفاء بالنذر ؛ وعن بعض السلف أنه قيل له : حدثنا فسكت ، فقيل له : حدثنا فقال : وما تأمرونى أن أقول مالا أفعل ؟ فاستعجل مقت الله عز وجل ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ٤ ﴾ بيان لما هو مرضى عنده سبحانه وتعالى بعد بيان ماهو ممقوت عنده جل شأنه ، وظاهره يرجح أن ماقالوه عبارة عن الوعد بالقتال دون مايقتضيه ماروى عن الضحاك أو عن ابن زيد فى سبب النزول ، ويقتضى أن مناط التوبيخ هو إخلافهم لاوعدهم وصف مصدر وقع موقع اسم الفاعل ، أو اسم المفعول ، ونصبه على الحال من ضمير (يقاتلون) أى صافين أنفسهم أو مصفوفين ، ، و(كأنهم) الخ حال من المستكن فى الحال الأولى أى مشبهين فى تلاصقهم ببنيان الخ ، وهذا ماعناه الزمخشرى بقوله : هما أى (صفاً) و(كأنهم)الخ حالان متداخلان ، وقول ابن المنير: إن معنى التداخل أن الحال الاولى مشتملة على الحال الثانية فان هيئة الاتصاف هى هيئة الارتصاص خلاف المعروف من التداخل فى اصطلاح النحاة ، وجوز أن يكون حالا ثانية من الضمير *

وقال الحوفى : هو فى موضع النعت ـ لصفاً ـ وهو كما ترى ، والمرصوص على ماقال الفراء . ومنذر بن سعيد هو المعقود بالرصاص ، ويراد به المحكم ،وقال المبرد : رصصت البناء لاءمت بين أجزائه وقاربته حتى يصير كقطعة واحدة ، ومنه الرصيص وهو انضمام الأسنان ، والظاهر أن المراد تشبيههم فى التحام بعضهم ببعض بالبنيان المرصوص من حيث أنهم لافرجه بينهم ولاخلل،وقيل:المراد استواء نياتهم فى الثبات حتى يكونوا فى اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص،والأكثرون على الأول،وفى أحكام القرآن فيه استحباب قيام المجاهدين فى القتال صفوفا كصفوف الصلاة وأنه يستحب سد الفرج والخلل فى الصفوف، وإتمام الصف الاول فالأول ، وتسوية الصفوف عدم تقدم بعض على بعض فيها ، وقال ابن الفرس : استدل به بعضهم على أن قتال الرجالة أفضل من قتال الفرسان لأن التراص إنما يمكن منهم ، ثم قال : وهو ممنوع انتهى، ثم إن القتال على هذه الهيئة اليوم من أصول العساكر المحمدية النظامية لا زالت منصورة مؤيدة بالتأييدات الربانية ، وأنت تعلم أن للوسائل حكم المقاصد فما يتوصل به إلى تحصيل الاتصاف بذلك مما لاينبغى أن يتكاسل فى تحصيله ، وقرأ زيد بن على

Marfat.com

(يقاتلون)بفتح التاء ، وقرىء - يقتلون - وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى ﴾ كلام مستأنف مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال (وإذ) منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به سيد المخاطبين ﷺ بطريق التلوين أى اذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال وقت قول موسى عليه السلام لبنى إسرائيل حين ندبهم إلى قتال الجبابرة بقوله : (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين)فلم يمتثلوا الأمره عليه السلام وعصوه أشد عصيان حيث قالوا : (ياموسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون)إلى قوله تعالى : (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) وأصروا على ذلك كل الاصرار وآذوه عليه السلام كل الأذية فوبخهم على ذلك بقوله : (ياقوم لم تؤذوننى)بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به ﴿ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ جملة حالية مؤكدة لانكار الإيذاء ونفى سببه (وقد)لتحقيق العلم لا للتقليل ولا للتقريب لعدم مناسبة ذلك للمقام،وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار أى والحال أنكم تعلمون علما قطعيا مستمراً بمشاهدة ماظهر على يدى من المعجزات الباهرة التى معظمها إهلاك عدوكم وإنجائكم من ملكته أنى رسول الله اليكم لأرشدكم إلى خيرى الدنيا والآخرة ، ومن قضية علمكم بذلك أن تبالغوا فى تعظيمى وتسارعوا إلى طاعتى ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا ﴾ أى أصروا على الزيغ والانحراف عن الحق الذى جاء به عليه السلام واستمروا عليه ﴿ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أى صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب لصرف اختيارهم نحو العمى والضلال ، وقيل : أى فلما زاغوا فى نفس الأمر وبمقتضى ماهم عليه فيها أزاغ الله تعالى فى الخارج قلوبهم إذ الايجاد على حسب الارادة . والارادة على حسب العلم . والعلم على حسب ماعليه الشىء فى نفس الأمر، وعلى الوجهين لا إشكال فى الترتيب،وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۵ ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله من الازاغة ومؤذن بعلته أى لا يهدى القوم الخارجين عن الطاعة . ومنهاج الحق المصرين على الغواية هداية موصلة إلى البغية ، وإلا فالهداية إلى مايوصل اليها شاملة للكل ، والمراد بهم إما المذكورون خاصة والإظهار فى مقام الاضمار لذمهم بالفسق وتعليل عدم الهداية به،أو جنس الفاسقين وهم داخلون فى حكمهم دخولا أولياً ، قيل : وأيا ما كان فهو ناظر إلى مافى قوله تعالى : (فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) وقوله سبحانه : (فلا تأس على القوم الفاسقين) هذا وقيل : إذ ظرف متعلق بفعل مقدر يدل عليه مابعده كزاغوا ونحوه ، والجملة معطوفة على ماقبلها عطف القصة على القصة ٥

وذهب بعضهم إلى أن إيذاءهم إياه عليه السلام بما كان من انتقاصه وعيبه فى نفسه وجحود آياته وعصيانه فيما تعود اليهم منافعه وعبادتهم البقر وطلبهم رؤية الله سبحانه جهرة والتكذيب الذى هو حق الله تعالى وحقه عليه السلام ، وماذكر أولا هو الذى تقتضيه جزالة النظم الكريم ويرتضيه الذوق السليم : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ إما معطوف على إذ الأولى معمول لعاملها ، وإما معمول لمضمر معطوف على عاملها ﴿ يَابَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ ولعله عليه السلام لم يقل (ياقومى)كما قال موسى عليه السلام بل قال : (يابنى إسرائيل) لأنه ليس له النسب المعتاد وهو ماكان من قبل الأب فيهم ، أو إشارة إلى أنه عامل بالتوراة وأنه مثلهم فى أنه من قوم موسى عليه السلام مضما لنفسه بأنه لا أتباع له ولا قوم ، وفيه من الاستعطاف مافيه ، وقيل : إن الاستعطاف

Marfat.com

بماذكر لما فيه من التعظيم ، وقد كانوا يفتخرون بنسبتهم إلى إسرائيل عليه السلام *

﴿ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ ﴾ أى مرسل منه تعالى إليكم حال كونى مصدقا ، فنصب (مصدقا) على الحال من الضمير المستترفى (رسول) وهو العامل فيه ، و(اليكم) متعلق به ، وهوظرف لغو لاضمير فيه ليكون صاحب حال ، وذكر هذا الحال لأنه من أقوى الدواعى إلى تصديقهم إياه عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى ﴾ معطوف على (مصدقا)، وهو داع أيضاً إلى تصديقه عليه السلام من حيث أن البشارة بهذا الرسول ﷺ واقعة فى التوراة كقوله تعالى فى الفصل العشرين من السفر الخامس: منها أقبل الله من سينا وتجلى من ساعير وظهر من جبال فاران معه الربوات الأطهار عن يمينه ، وقوله سبحانه فى الفصل الحادى عشر من هذا السفر : ياموسى إنى سأقيم لبنى إسرائيل نبياً من إخوتهم مثلك أجعل كلامى فى فيه ، ويقول لهم ما آمره فيه ، والذى لايقبل قول ذلك النبي الذى يتكلم باسمى أنا أنتقم منه ومن سبطه إلى غير ذلك ، ويتضمن كلامه عليه السلام أن دينه التصديق بكتب الله تعالى وأنبيائه عليهم السلام جميعاً من تقدم ومن تأخر ، وجملة (يأتى) الخ فى موضع الصفة ـ لرسول ـ وكذا جملة قوله تعالى : ﴿ اسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ وهذا الاسم الجليل علم لنبينا محمد ﷺ ، وعليه قول حسان :

صلى الإله ومن يحف بعرشه والطيبون على المبارك أحمد

وصح من رواية مالك . والبخارى . ومسلم . والدارمى . والترمذى . والنسائى عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن لى أسماء أنا محمد . وأنا أحمد . وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى . وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر . وأنا العاقب » والعاقب الذى ليس بعده نبي وهو منقول من المضارع للمتكلم . أو من أفعل التفضيل من الحامدية ، وجوز أن يكون من المحمودية بناءاً على أنه قد سمع أحمد اسم تفضيل منها نحو العود أحمد ، وإلا فأفعل من المبنى للمفعول ليس بقياسى ، وقرئ (من بعدى) بفتح الياء ، هذا وبشارته عليه السلام بنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم مما نطق به القرآن المعجز ، فإنكار النصارى ذلك ضرب من الهذيان ، وقولهم : لو وقعت لذكرت فى الانجيل الملازمة فيه ممنوعة ، وإذا سلمت قلنا : بوقوعها فى الانجيل إلا أن جامعيه بعد رفع عيسى عليه السلام أهملوها اكتفاءاً بما فى التوراة . ومزامير داود عليه السلام. وكتب شعياء . وحبقوق . وأرمياء . وغيرهم من الانبياء عليهم السلام *

ويجوز أن يكونوا قد ذكروها إلا أن علماء النصارى بعد ـ حباً لدينهم أو لأمر ماغير ذلك ـ أسقطوها كذا قيل ، وأنا أقول : الأناجيل التى عند النصارى أربعة : إنجيل متى من الاثنى عشر الحواريين جمعه باللغة السريانية بأرض فلسطين بعد رفع عيسى عليه السلام بثمانى سنين وعدة إصحاحاته ثمانية وستون إصحاحا ، وإنجيل مرقص وهو من السبعين جمعه باللغة الفرنجية بمدينة رومية بعد الرفع باثنتى عشرة سنة وعدة إصحاحاته ثمانية وأربعون إصحاحا ، وإنجيل لوقا وهو من السبعين أيضاً جمعه بالاسكندرية باللغة اليونانية وعدة إصحاحاته ثلاثة وثمانون إصحاحا ، وإنجيل يوحنا وهو حبيب المسيح جمعه بمدينة إفسس من بلاد رومية بعد الرفع بثلاثين سنة وعدة إصحاحاته فى النسخ القبطية ثلاثة وثلاثون إصحاحا وهى مختلفة ، وفيها مايشهد الانصاف بأنه ليس كلام الله عز وجل ولا كلام عيسى عليه السلام كقصة صلبه الذى يزعمونه ودفنه ورفعه من قبره إلى السماء فما هى

Marfat.com

إلا كتواريخ وتراجم فيها شرح بعض أحوال عيسى عليه السلام ولادة ورفعاً ونحو ذلك ، وبعض كلمات له عليه السلام على نحو بعض الكتب المؤلفة فى بعض الأكابر والصالحين فلا يضر إهمالها بعض الأحوال ، والكلمات التى نطق القرآن العظيم بها ككلامه عليه السلام فى المهد وبشارته بنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم على أن فى إنجيل يوحنا ماهو بشارة بذلك عند من أنصف وسلك الصراط السوى وما تعسف، ففى الفصل الخامس عشر منه قال يسوع المسيح : إن الفارقليط روح الحق الذى يرسله أبى يعلمكم كل شىء ، وقال يوحنا أيضاً : قال المسيح : من يحبنى يحفظ كلمتى وأبى يحبه واليه يأتى وعنده يتخذ المنزلة كلمتكم بهذا لأنى لست عندكم بمقيم ، والفار قليط روح القدس الذى يرسله أبى هو يعلمكم كل شئ وهو يذكركم كل ماقلت لكم أستودعكم سلامى لا تقلق قلوبكم ولا تجزع فانى منطلق وعائد إليكم لو كنتم تحبونى كنتم تفرحون بمضيي إلى الأب ، وقال أيضاً : إن خيراً لكم أن أنطلق لأبى لأنى إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط فاذا انطلقت أرسلته اليكم فاذا جاء فهو يوبخ العالم على الخطيئة وإن لى كلاما كثيراً أريد قوله ولكنكم لا تستطيعون حمله لكن إذا جاء روح الحق ذاك الذى يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بكل ما يأتى ويعرفكم جميع ما للاب ، وقال أيضا : إن كنتم تحبونى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر يثبت معكم إلى الأبد روح الحق الذى لم يطق العالم أن يقبلوه لأنهم لم يعرفوه ولست أدعكم أيتاما لأنى ساتيكم من قريب ، والفار قليط لفظ يؤذن بالحمد ، وتعين إرادته صلى الله تعالى عليه وسلم من كلامه عليه السلام مما لا غبار عليه لمن كشف الله تعالى غشاوة التعصب عن عينيه ، وقد فسره بعض النصارى بالحماد ، وبعضهم بالحامد فيكون فى مدلوله إشارة إلى اسمه عليه الصلاة والسلام أحمد ، وفسره بعضهم بالمخلص لقول عيسى عليه السلام : فالله يرسل مخلصاً آخر فلا يكون ماذكر بشارة به صلى الله تعالى عليه وسلم بعنوان الحمد لكنه بشارة به صلى الله تعالى عليه وسلم بعنوان التخليص ، فيستدل به على ثبوت رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإن لم يستدل به على مافى الآية هنا ، وزعم بعضهم أن الفار قليط إشارة إلى ألسن نارية نزلت من السماء على التلاميذ ففعلوا الآيات والعجائب ، ولا يخفى أن وصفه بآخر يأبى ذلك إذ لم يتقدم لهم غيره ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ أى عيسى عليه السلام ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالمعجزات الظاهرة *

﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ مشيرين إلى ماجاء به عليه السلام ، فالتذكير بهذا الاعتبار ، وقيل : مشيرين اليه عليه السلام وتسميته سحراً للمبالغة ، ويؤيده قراءة عبد الله . وطلحة . والأعمش . وابن وثاب ـ هذا ساحر ـ وكون فاعل (جاءهم) ضمير عيسى عليه السلام هو الظاهر لأنه المحدث عنه ، وقيل : هو ضمير (أحمد) عليه الصلاة السلام لما فرغ من كلام عيسى تطرق إلى الإخبار عن أحمد صلى الله تعالى عليه وسلم أى فلما جاء أحمد هؤلاء الكفار بالبينات (قالوا) الخ *

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ أى أى الناس أشد ظلماً ممن يدعى إلى الاسلام الذى يوصله إلى سعادة الدارين فيضع موضع الاجابة الافتراء على الله عز وجل بتكذيب رسوله وتسمية آياته سحراً. فان الافتراء على الله تعالى يعم نفى الثابت وإثبات المنفى أى لا أظلم من ذلك ، والمراد أنه أظلم من كل ظالم، وقرأ طلحة (يدعى) مضارع ـ ادعى ـ مبنيا للفاعل وهو ضميره تعالى ، و (يدعى) بمعنى

Marfat.com

يدعو يقال : دعاه وادعاه نحو لمسه والتمسه ، وقيل : الفاعل ضمير المفترى ، وادعى يتعدى بنفسه إلى المفعول به لكنه لما ضمن معنى الانتماء والانتساب عدى بالى أى وهو ينتسب إلى الاسلام مدعياً أنه مسلم وليس بذاك ، وعنه (يدعى) مضارع ادعى أيضاً لكنه مبنى للمفعول ، ومعناه كما سبق ، والآية فيمن كذب من هذه الأمة على مايقتضيه ما بعد ، وهى إن كانت فى بنى إسرائيل الذين جاءهم عيسى عليه السلام ففيها تأييد لمن ذهب إلى عدم اختصاص الاسلام بالدين الحق الذى جاء به نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ٭

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ٧ ﴾ أى لا يرشدهم إلى ما فيه فلاحهم لسوء استعدادهم وعدم توجههم اليه ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ تمثيل لحالهم فى اجتهادهم فى إبطال الحق بحالة من ينفخ الشمس بفيه ليطفئها تهكما وسخرية بهم كما تقول الناس : هو يطفىء عين الشمس ، وذهب بعض الأجلة إلى أن المراد بنور الله دينه تعالى الحق كما روى عن السدى على سبيل الاستعارة التصريحية ، وكذا فى قوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ ﴾ و(متم) تجريد ، وفى قوله تعالى : (بأفواههم) تورية ، وعن ابن عباس . وابن زيد يريدون إبطال القرآن وتكذيبه بالقول ، وقال ابن بحر : يريدون إبطال حجج الله تعالى بتكذيبهم ، وقال الضحاك : يريدون هلاك الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بالأراجيف ، وقيل : يريدون إبطال شأن النبى ﷺ وإخفاء ظهوره بكلامهم وأكاذيبهم ، فقد روى عن ابن عباس أن الوحى أبطأ أربعين يوما فقال كعب بن الاشرف : يامعشر يهود أبشروا أطفأ الله تعالى نور محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتم نوره فحزن الرسول ﷺ فنزلت (يريدون) إلى آخره ، وفى (يريدون ليطفئوا) مذاهب : أحدها أن اللام زائدة والفعل منصوب بأن مقدرة بعدها ، وزيدت لتأكيد معنى الارادة لما فى لام العلة من الاشعار بالارادة والقصد كما زيدت اللام فى : لا أبالك لتأكيد معنى الإضافة ، ثانيها أنها غير زائدة للتعليل ، ومفعول (يريدون) محذوف أى يريدون الافتراء لأن يطفئوا ، ثالثها أن الفعل أعنى (يريدون) حال محل المصدر مبتدأ واللام للتعليل والمجرور بها خبر أى إرادتهم كائنة للاطفاء ، والكلام نظير ـ تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ـ من وجه ، رابعها أن اللام مصدرية بمعنى أن من غير تقدير والمصدر مفعول به ويكثر ذلك بعد فعل الارادة والامر ، خامسها أن (يريدون) منزل منزلة اللازم لتأويله بيوقعون الارادة ، قيل : وفيه مبالغة لجعل كل إرادة لهم للاطفاء وفيه كلام فى شرح المغنى . وغيره ٭

وقرأ العربيان . ونافع . وأبو بكر . والحسن . وطلحة . والاعرج . وابن محيصن (متم) بالتنوين (نوره) بالنصب على المفعولية لمتم ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَٰفِرُونَ ٨ ﴾ حال من المستكن فى (متم) وفيه إشارة إلى أنه عز وجل متم ذلك إرغاما لهم ﴿ هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ ﴾ محمداً ﷺ ﴿ بِالْهُدَىٰ ﴾ بالقرآن ، أو بالمعجزة بجعل ذلك نفس الهدى مبالغة ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ والملة الحنيفية ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ ليعليه على جميع الأديان المخالفة له ، ولقد أنجز الله عز وجل وعده حيث جعله بحيث لم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الاسلام ٭

وعن مجاهد إذا نزل عيسى عليه السلام لم يكن فى الأرض إلا دين الاسلام ، ولا يضر فى ذلك ماورد من أنه يأتى على الناس زمان لا يبقى فيه من الاسلام إلا اسمه إذ لا دلالة فى الآية على الاستمرار ، وقيل : المراد بالاظهار الاعلاء من حيث وضوح الادلة وسطوع البراهين وذلك أمر مستمر أبداً ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ٩ ﴾

Marfat.com

ذلك لما فيه من محض التوحيد وإبطال الشرك ، وقرئ هو الذى أرسل نبيه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ ﴾ جليلة الشأن ﴿ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ١٠ ﴾ يوم القيامة ، وقرأ الحسن . وابن أبى إسحق . والاعرج . وابن عامر (تنجيكم) بالتشديد ، وقوله تعالى : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ استئناف بيانى كأنه قيل : ماهذه التجارة ؟ دلنا عليها : فقيل : (تؤمنون) الخ ، والمضارع فى الموضعين كما قال المبرد . وجماعة خبر بمعنى الأمر أى آمنوا وجاهدوا ، ويؤيده قراءة عبدالله كذلك ، والتعبير به للايذان بوجوب الامتثال كأن الايمان والجهاد قد وقعا فأخبر بوقوعهما ، والخطاب إذا كان للمؤمنين الخلص فالمراد تثبتون وتدومون على الايمان أو تجمعون بين الايمان والجهاد أى بين تكميل النفس وتكميل الغير وإن كان للمؤمنين ظاهراً فالمراد تخلصون الايمان ، وأيّاما كان فلا إشكال فى الامر ، وقال الأخفش : (تؤمنون) الخ عطف بيان على (تجارة) ، وتعقب بأنه لا يتخيل إلا على تقدير أن يكون الأصل أن تؤمنوا حتى يتقدر بمصدر ، ثم حذف أن فارتفع الفعل كما فى قوله * ألا أيهذا الزاجرى احضر الوغى * يريد أن احضر فلما حذف أن ارتفع الفعل وهو قليل ، وقال ابن عطية : (تؤمنون) فعل مرفوع بتقدير ذلك أنه تؤمنون ، وفيه حذف المبتدا وأن واسمها وإبقاء خبرها ، وذلك على ماقال أبو حيان : لا يجوز ، وقرأ زيد بن على - تؤمنوا وتجاهدوا - بحذف نون الرفع فيهما على إضمار لام الامر أى لتؤمنوا وتجاهدوا ، أو ولتجاهدوا كما فى قوله :

قلت لبواب على بابها تأذن لنا إنى من أحمائها

وكذا قوله : محمد تفد نفسك كل نفس إذا ماخفت من أمر تبالا

وجوز الاستئناف ، والنون حذفت تخفيفا كما فى قراءة (ساحران يظاهرا) وقوله :

ونقرى ماشئت أن تنقرى قد رفع الفخ فماذا تحذرى

وكذا قوله : أبيت أسرى وتبيتى تدلكى وجهك بالعنبر والمسك الذكى

وأنت تعلم أن هذا الحذف شاذ ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أى ماذكر من الايمان والجهاد ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ على الاطلاق أو من أموالكم وأنفسكم ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١١ ﴾ أى إن كنتم من أهل العلم إذ الجهلة لا يعتد بأفعالهم حتى توصف بالخيرية ، وقيل : أى إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيراً لكم حينئذ لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتم أحببتم الايمان والجهاد فوق ماتحبون أموالكم وأنفسكم فتخلصون وتفلحون ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ جواب للامر المدلول عليه بلفظ الخبر كما فى قولهم : اتقى الله تعالى امرؤ وفعل خيراً يثب عليه ؛ أو جواب لشرط ، أو استفهام دل عليه الكلام ، والتقدير أن تؤمنوا وتجاهدوا يغفر لكم ، أوهل تقبلون أن أدلكم ؟ أوهل تتجرون بالايمان والجهاد ؟ يغفر لكم ، وقال الفراء : جواب للاستفهام المذكور أى هل أدلكم ، وتعقب بأن مجرد الدلالة لا يوجب المغفرة ، وأجيب بأنه كقوله تعالى : (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة) وقد قالوا فيه : إن القول لما كان للمؤمن الراسخ الإيمان كان مظنة لحصول الامتثال فجعل كالمحقق وقوعه فيقال ههنا : لما كانت الدلالة مظنة لذلك نزلت منزلة المحقق ، ويؤيده (إن كنتم تعلمون) لأن من له عقل إذا دله سيده على ماهو خير له لا يتركه ، وادعاء الفرق بمائمة من الاضافة التشريفية وماهنا من المعاتبة قيل : غير ظاهر فتدبر ، والانصاف أن تخريج الفراء لا يخلو

Marfat.com

عن بعد ، وأما ماقيل : من أن الجملة مستأنفة لبيان أن ذلك خير لهم ، و(يغفر) مرفوع سكن آخره كما سكن آخر * أشرب * فى قوله :

فاليوم (أشرب) غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

فليس بشىء لما صرحوا به من أن ذلك ضرورة ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً ﴾ أى طاهرة زكية مستلذة ، وهذا إشارة إلى حسنها بذاتها ، وقوله تعالى : ﴿ فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ إشارة إلى حسنها باعتبار محلها ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ماذكر من المغفرة وما عطف عليها ﴿ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٢ ﴾ الذى لافوز وراءه ﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ أى ولكم إلى ماذكر من النعم نعمة أخرى ، فأخرى مبتدأ ، وهى فى الحقيقة صفة للمبتدأ المحذوف أقيمت مقامه بعد حذفه ، والخبر محذوف قاله الفراء ، وقوله تعالى : ﴿ تُحِبُّونَهَا ﴾ فى موضع الصفة ، وقوله سبحانه : ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أى عاجل بدل أو عطف بيان ، وجملة المبتدا وخبره قيل : حالية ؛ وفى الكشف إنها عطف على جواب الأمر أعنى يغفر من حيث المعنى كما تقول : جاهدوا تؤجروا ولكم الغنيمة وفى (تحبونها) تعيير لهم وكذلك فى إيثار الاسمية على الفعلية وعطفها عليها كأن هذه عندهم أثبت وأمكن ونفوسهم إلى نيلها والفوز أسكن .

وقيل : (أخرى) مبتدأ خبره (نصر) وقال قوم : هى فى موضع نصب باضمار فعل أى ويعطكم أخرى ، وجعل ذلك من باب * علفتها تبناً وماءاً بارداً * ومنهم من قدر تحبون أخرى على أنه من باب الاشتغال ، و(نصر) على التقديرين خبر مبتدأ محذوف أى ذلك أو هو (نصر) ، أو مبتدأ خبره محذوف أى نصر وفتح قريب عنده ، وقال الأخفش : هى فى موضع جر بالعطف على (تجارة) وهو كما ترى *

وقرأ ابن أبى عبلة نصراً وفتحاً قريباً بالنصب بأعنى مقدراً ، أو على المصدر أى تنصرون نصراً ويفتح لكم فتحاً ، أو على البدلية من (أخرى) على تقدير نصبها ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ١٣ ﴾ عطف على قل مقدراً قبل قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا) ، وقيل : على أبشر مقدراً أيضاً ، والتقدير فأبشر يامحمد وبشر *

وقال الزمخشرى : هو عطف على (تؤمنون) لأنه فى معنى الأمر كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبكم الله تعالى وينصركم وبشر يارسول الله المؤمنين بذلك ، وتعقبه فى الايضاح بأن فيه نظراً لأن المخاطبين فى (تؤمنون) هم المؤمنون ، وفى (بشر) هو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قوله تعالى : (تؤمنون) بيان لما قبله على طريق الاستئناف فكيف يصح عطف (بشر المؤمنون) عليه ؟ وأجيب بما خلاصته أن قوله سبحانه : (ياأيها الذين آمنوا) للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأمته كما تقرر فى أصول الفقه ، وإذا فسر بآمنوا وبشر دل على تجارته عليه الصلاة والسلام الرابحة وتجارتهم الصالحة ، وقدم (آمنوا) لأنه فاتحة الكل ثم لو سلم فلا مانع من العطف على جواب السائل بما لايكون جواباً إذا ناسبه فيكون جوابا للسؤال وزيادة كيف وهو داخل فيه ؟ كأنهم قالوا: دلنا يارب فقيل : آمنوا يكن لكم كذا وبشرهم يامحمد بثبوته لهم ، وفيه من إقامة الظاهر مقام المضمر وتنويع الخطاب مالايخفى نبل موقعه ، واختاره صاحب الكشف فقال : إن هذا الوجه من وجه العطف على قل ووجه العطف على فابشر لخلوهما عن الفوائد المذكورة يعنى ماتضمنه الجواب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوٓا أَنصَارَ اللَّهِ ﴾

Marfat.com

أى نصرة دينه سبحانه وعونة رسوله عليه الصلاة والسلام، وقرأ الاعرج . وعيسى . وأبو عمرو . والحرميان ـ أنصاراً لله ـ بالتنوين وهو للتبعيض فالمعنى كونوا بعض أنصاره عز وجل ٭

وقرأ ابن مسعود ـ على مافى الكشاف ـ كونوا أنتم أنصار الله ، وفى موضح الاهوازى . والكواشى ـ أنتم ـ دون (كونوا) ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أى من جندى متوجها إلى نصرة الله تعالى ليطابق قوله سبحانه : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ وقيل: (إلى) بمعنى مع و(نحن أنصار الله) بتقدير نحن أنصار نبي الله فيحصل التطابق، والأول أولى، والإضافة فى (أنصارى) إضافة أحد المتشاركين إلى الآخر لأنهما لما اشتركا فى نصرة الله عزوجل كان بينهما ملابسة تصحح إضافة أحدهما للآخر والإضافة فى (أنصار الله) إضافة الفاعل إلى المفعول والتشبيه باعتبار المعنى إذ المراد قل لهم ذلك كما قال عيسى، وقال أبو حيان : هو على معنى قلنا لكم كما قال عيسى ٭

وقال الزمخشرى : هو على معنى كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم : (من أنصارى إلى الله) وخلاصته على ماقيل : إن ما مصدرية وهى مع صلتها ظرف أى كونوا أنصار الله وقت قولى لكم ككون الحواريين أنصاره وقت قول عيسى ، ثم قيل : كونوا أنصاره كوقت قول عيسى هذه المقالة ، وجئ بحديث سؤاله عن الناصر وجوابهم فهو نظير كاليوم فى قولهم : كاليوم رجل أى كرجل رأيته اليوم فحذف الموصوف مع صفته ، واكتفى بالظرف عنهما لدلالته على الفعل الدال على موصوفه ، وهذا من توسعاتهم فى الظروف، وقد جعلت الآية من الاحتباك ، والأصل كونوا أنصار الله حين قال لكم النبى ﷺ : (من أنصارى إلى الله) كما كان الحواريون أنصار الله حين قال لهم عيسى عليه السلام (من أنصارى إلى الله) فحذف من كل منهما مادل عليه المذكور فى الآخر ، وهو لايخلو عن حسن ، و(الحواريون) أصفياؤه عليه السلام ، والعدول عن ضميرهم إلى الظاهر للاعتناء بشأنهم ، وهم أول من آمن به وكانوا اثنى عشر رجلا فرقهم ـ على مافى البحر ـ عيسى عليه السلام فى البلاد ، فمنهم من أرسله إلى رومية ، ومنهم من أرسله إلى بابل ، ومنهم من أرسله إلى أفريقية ، ومنهم من أرسله إلى أفسس ، ومنهم من أرسله إلى بيت المقدس ، ومنهم من أرسله إلى الحجاز ، ومنهم من أرسله إلى أرض البربر وماحولها وتعيين المرسل إلى كل فيه ، ولست على ثقة من صحة ذلك ولا من ضبط أسمائهم ، وقد ذكرها السيوطى أيضاً فى الاتقان فليلتمس ضبط ذلك من مظانه ، واشتقاق الحواريين من الحور ـ وهو البياض ـ وسموا بذلك لأنهم كانوا قصارين ، وقيل : للبسهم البياض ، وقيل : لنقاء ظاهرهم وباطنهم ، وزعم بعضهم أن ماقيل : من أنهم كانوا قصارين إشارة إلى أنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بافادتهم الدين والعلم ، وماقيل : من أنهم كانوا صيادين إشارة إلى أنهم كانوا يصطادون نفوس الناس من الحيرة ويقودونهم إلى الحق ٭

وقيل : الحواريون المجاهدون ، وفى الحديث « لكل نبى حوارى وحوارى الزبير » وفسر بالخاصة من الأصحاب . والناصر ، وقال الأزهرى : الذى أخلص ونقى من كل عيب ، وعن قتادة إطلاق الحوارى على غيره رضى الله تعالى عنه أيضاً ، فقد قال : إن الحواريين كلهم من قريش أبوبكر . وعمر . وعلى . وحمزة . وجعفر . وأبو عبيدة بن الجراح . وعثمان بن مظعون . وعبد الرحمن بن عوف . وسعد بن أبى وقاص . وعثمان بن عفان . وطلحة بن عبيد الله . والزبير بن العوام رضي الله تعالى عنهم أجمعين ٭

Marfat.com

﴿ فَـَٔامَنَتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْ بَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أى بعيسى عليه السلام ﴿ وَكَفَرَتْ طَّآئِفَةٌ ﴾ أخرى ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ وهم الذين كفروا ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَـٰهِرِينَ ١٤ ﴾ فصاروا غالبين ، قال زيد بن على . وقتادة : بالحجة والبرهان ، وقيل : إن عيسى عليه السلام حين رفع إلى السماء قالت طائفة من قومه : إنه الله سبحانه ، وقالت أخرى : إنه ابن الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ رفعه الله عز وجل اليه ، وقالت طائفة : إنه عبد الله ورسوله فاقتتلوا فظهرت الفرقتان الكافرتان على الفرقة المؤمنة حتى بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فظهرت المؤمنة على الكافرتين ، وروى ذلك عن ابن عباس ، وقيل : اقتتل المؤمنون والكفرة بعد رفعه عليه السلام فظهر المؤمنون على الكفرة بالسيف ، والمشهور أن القتال ليس من شريعته عليه السلام ، وقيل : المراد (فآمنت طائفة من بنى إسرائيل) بمحمد عليه الصلاة والسلام وكفرت أخرى به صلى الله تعالى عليه وسلم فأيدنا المؤمنين على الكفرة فصاروا غالبين . وهو خلاف الظاهر . والله تعالى أعلم ٭

﴿ سورة الجمعة ـــ ٦٢ ﴾

مدنية كما روى عن ابن عباس . وابن الزبير . والحسن . ومجاهد . وعكرمة . وقتادة . واليه ذهب الجمهور ، وقال ابن يسار : هى مكية ، وحكى ذلك عن ابن عباس . ومجاهد . والأول هو الصحيح لما فى صحيح البخارى . وغيره عن أبى هريرة قال : كنا جلوساً عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حين أنزلت سورة الجمعة الحديث ، وسيأتى قريباً إن شاء الله تعالى ، وإسلامه رضى الله تعالى عنه بعد الهجرة بمدة بالاتفاق ، ولأن أمر الانفضاض الذى تضمنه آخر السورة وكذا أمر اليهود المشار اليه بقوله سبحانه : (قل ياأيها الذين هادوا إن زعمتم) الخ ـ لم يكن إلا بالمدينة ـ وآيها إحدى عشرة آية بلا خلاف ، ووجه اتصالها بما قبلها أنه تعالى لما ذكر فيما قبل حال موسى عليه السلام مع قومه وأذاهم له ناعياً عليهم ذلك ذكر فى هذه السورة حال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وفضل أمته تشريفاً لهم لينظر فضل ما بين الأمتين ، ولذا تعرض فيها لذكر اليهود ، وأيضاً لما حكى هناك قول عيسى عليه السلام (ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) قال سبحانه هنا : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) إشارة إلى أنه الذى بشر به عيسى ، وأيضاً لما ختم تلك السورة بالأمر بالجهاد وسماه (تجارة) ختم هذه بالأمر بالجمعة وأخبر أن ذلك خير من التجارة الدنيوية . وأيضاً فى كلتا السورتين إشارة إلى اصطفاف فى عبادة ، أما فى الأولى فظاهر ، وأما فى هذه فلأن فيها الأمر بالجمعة ، وهى يشترط فيها الجماعة التى تستلزم الاصطفاف إلى غير ذلك ، وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم ـ كما أخرج مسلم ـ وأبو داود . والنسائى . وابن ماجه عن ابن عباس ـ يقرأ فى الجمعة بسورتها ـ (وإذا جاءك المنافقون) ٭

وأخرج ابن حبان . والبيهقى فى سننه عن جابر بن سمرة أنه قال : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأ فى صلاة المغرب ليلة الجمعة (قل ياأيها الكافرون) و (قل هو الله أحد) وكان يقرأ فى صلاة العشاء الأخيرة ليلة الجمعة سورة الجمعة . والمنافقون ـ وفى ذلك دلالة على مزيد شرف هذه السورة ٭

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تسبيحاً متجدداً على سبيل الاستمرار

Marfat.com

﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ صفات للاسم الجليل ، وقد تقدم معناها ، وقرأ أبو وائل ، ومسلمة بن محارب ، ورؤبة ، وأبو الدينار ، والأعرابى برفعها على المدح ، وحسن ذلك الفصل الذى فيه نوع طول بين الصفة والموصوف ، وجاء كذلك عن يعقوب ، وقرأ أبو الدينار ، وزيد بن على (القدوس) بفتح القاف

﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ ﴾ يعنى سبحانه العرب لأن أكثرهم لايكتبون ولا يقرأون ٥

وقد أخرج البخارى ، ومسلم ، وأبوداود ، والنسائى عن ابن عمر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « إنا أمة أمية لانكتب ولانحسب » وأريد بذلك أنهم على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب فهم على جبلتهم الأولى ، فالأمى نسبة إلى الأم التى ولدته ، وقيل ؛ نسبة إلى أمة العرب ؛ وقيل : إلى أم القرى ، والأول أشهر ، واقتصر بعضهم فى تفسيره على أنه الذى لا يكتب ، والكتابة على ماقيل : بدئت بالطائف أخذوها من أهل الحيرة وهم من أهل الانبار ، وقرىء الأمين بحذف ياء النسب ﴿ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾ أى كائناً من جملتهم ، فمن تبعيضية ، والبعضية : إما باعتبار الجنس فلا تدل على أنه عليه الصلاة والسلام أمى ، أو باعتبار الخاصة المشتركة فى الأكثر فتدل ، واختار هذا جمع ، فالمعنى رسولا من جملتهم أمياً مثلهم ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ مع كونه أمياً مثلهم لم يعهد منه قراءة ولا تعلم ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ عطف على (يتلو) فهو صفة أيضاً ـ لرسولا ـ أى يحملهم على مايصيرون به أزكياء طاهرين من خبائث العقائد والأعمال ٥

﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ صفة أيضاً ـ لرسولا ـ مترتبة فى الوجود على التلاوة . وإنما وسط بينهم التزكية التى هى عبارة عن تكميل النفس بحسب قوتها العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة الايذان بأن كلا من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر ، ولو روعى ترتيب الوجود لربما يتبادر إلى الفهم كون الكل نعمة واحدة كما مر فى سورة البقرة ، وهو السر فى التعبير عن القرآن تارة بالآيات ، وأخرى بالكتاب والحكمة رمزاً إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة . ولا يقدح فيه شمول الحكمة لما فى تضاعيف الأحاديث النبوية من الأحكام والشرائع قاله بعض الأجلة ، وجوز كون (الكتاب والحكمة) كناية عن جميع النقليات والعقليات كالسموات والأرض بجميع الموجودات . والأنصار والمهاجرين بجميع الصحابة رضى الله تعالى عنهم . وفيه من الدلالة على مزيد علمه صلى الله تعالى عليه وسلم مافيه ؛ ولو لم يكن له عليه الصلاة والسلام سوى ذلك معجزة لكفاه كما أشار اليه البوصيرى بقوله :

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة ... فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ٢ ﴾ من الشرك وخبث الجاهلية ، وهو بيان لشدة افتقارهم إلى من يرشدهم وإن كان نسبة الضلال اليهم باعتبار الأكثر إذ منهم مهتد كورقة وأضرابه ، وفى الكلام إزاحة لما عسى أن يتوهم من تعلمه عليه الصلاة والسلام من الغير (وإن) هى المخففة واللام هى الفارقة ﴿ وَآخَرِينَ ﴾ جمع آخر بمعنى الغير ، وهو عطف على (الأميين) أى وفى آخرين ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أى من الأميين ، و ـ من ـ للتبيين ﴿ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣ ﴾ أى لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون ، وهم الذين جاءوا بعد

Marfat.com

الصحابة إلى يوم الدين ؛ وجوز أن يكون عطفاً على المنصوب فى (ويعلمهم) أى ويعلمهم ويعلم آخرين فان التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستنداً إلى أوله فكأنه عليه الصلاة والسلام هو الذى تولى كل ماوجد منه واستظهر الأول ، والمذكور فى الآية قومه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجنس الذين بعث فيهم ، وأما المبعوث اليهم فلم يتعرض له فيها نفياً أو إثباتاً ، وقد تعرض لاثباته فى آيات أخر ، وخصوص القوم لاينافى عموم ذلك فلاإشكال فى تخصيص الآخرين بكونهم من الأميين أى العرب فى النسب ، وقيل : المراد من الأميين فى الأمية فيشمل العجم ، وبهم فسره مجاهد - كما رواه عنه ابن جرير . وغيره - وتعقب بأن العجم لم يكونوا أميين *

وقيل : المراد منهم فى كونهم منسوبين إلى أمة مطلقاً لافى كونهم لايقرأون ولا يكتبون ، وهو كما ترى إلا أنه لايشكل عليه - وكذا على ماقبله - ماأخرجه البخارى . والترمذى . والنسائى . وجماعة عن أبى هريرة قال : « كنا جلوساً عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حين أنزلت سورة الجمعة فتلاها فلما بلغ (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قال له رجل : يارسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فوضع يده على سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه ، وقال : والذى نفسى بيده لو كان الايمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء » فانه صلى الله تعالى عليه وسلم أشار بذلك إلى أنهم فارس، ومن المعلوم أنهم ليسوا من الأميين المراد بهم العرب فى النسب *

وقال بعض أهل العلم : المراد بالأميين مقابل أهل الكتاب لعدم اعتناء أكثرهم بالقراءة والكتابة لعدم كتاب لهم سماوى تدعوهم معرفته إلى ذلك فيشمل الفرس إذ لا كتاب لهم كالعرب ، وعلى ذلك يخرج ما أشار إليه الحديث من تفسير الآخرين بالفرس وهو مع ذلك من باب التمثيل ، والاقتصار على بعض الأنواع بناءاً على أن بعض الأمم لا كتاب لهم أيضاً ، وربما يقال : إن -من- فى (منهم) اسمية بمعنى بعض مبتدأ كما قيل فى قوله تعالى : (ومن الناس من يقول) وضمير الجمع -لآخرين- وجملة (لما يلحقوا بهم) خبر فيشمل آخرين، طوائف الناس الذين يلحقون إلى يوم القيامة من العرب والروم والعجم وغيرهم ؛ وبذلك فسره الضحاك . وابن حيان . ومجاهد فى رواية ، ويكون الحديث من باب الاقتصار والتمثيل كقول ابن عمر : هم أهل اليمن ، وابن جبير هم الروم والعجم فتدبر *

وزعم بعضهم أن المراد بقوله تعالى : (لما يلحقوا بهم) أنهم لم يلحقوا بهم فى الفضل لفضل الصحابة على التابعين ومن بعدهم ، وفيه أن (لما) منفيها مستمر إلى الحال ويتوقع وقوعه بعده فتفيد أن لحوق التابعين ومن بعدهم فى الفضل للصحابة متوقع الوقوع مع أنه ليس كذلك ، وقد صرحوا أنه لايبلغ تابعى وإن جل قدر أفى الفضل مرتبة صحابى وإن لم يكن من كبار الصحابة ، وقد سئل عبد الله بن المبارك عن معاوية . وعمر بن عبد العزيز أيهما أفضل؟ فقال : الغبار الذى دخل أنف فرس معاوية أفضل عند الله من مائة عمر بن عبد العزيز فقد صلى معاوية خلف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقرأ (اهدنا الصراط المستقيم) الخ فقال معاوية : آمين ، واستدل على عدم اللحوق بما صح من قوله عليه الصلاة والسلام فيهم : « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً مابلغ مد أحدهم ولانصيفه » على القول بأن الخطاب لسائر الأمة ، وأما قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «أمتى كالمطر لايدرى أوله خير أم آخره» فمبالغة فى خيريتهم كقول القائل فى ثوب حسن البطانة : لايدرى ظهارته خير أم بطانته ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ماتقدم من كونه عليه الصلاة والسلام رسولا فى الأميين ومن

Marfat.com

بعدهم معلماً مزكيا ومافيه من معنى البعد للتعظيم أى ذلك الفضل العظيم ﴿ فَضْلُ اللهَ ﴾ وإحسانه جل شأنه ﴿ يُؤْتيه مَنْ يَشَآءُ ﴾ من عباده تفضلا ، ولا يشاء سبحانه إيتاءه لاحد بعده صلى الله تعالى عليه وسلم ٥ ﴿ وَاللهُ ذُو الفَضْل العَظيم ٤ ﴾ الذى يستحقر دونه نعم الدنيا والآخرة ﴿ مَثَلُ الَّذينَ حُمِّلُوا التَّوْرَىٰةَ ﴾ أى علموها وكلفوا العمل بما فيها ، والتحميل فى هذا شائع يلحق بالحقيقة ، والمراد بهم اليهود ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ أى لم يعملوا بما فى تضاعيفها التى من جملتها الآيات الناطقة بنبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٥ ﴿ كَمَثَلِ الحمَار يَحْملُ أَسْفَارًا ﴾ أى كتباً كباراً على مايشعر به التنكير ، وإيثار لفظ السفر ومافيه من معنى الكشف من العلم يتعب بحملها ولا ينتفع بها ،و(يحمل) إما حال من ـ الحمار ـ لكونه معرفة لفظا والعامل فيه معنى المثل ، أو صفة له لأن تعريفه ذهنى فهو معنى نكرة فيوصف بما توصف به على الأصح *

ونسب أبوحيان للمحققين تعين الحالية فى مثل ذلك ، ووجه ارتباط الآية بما قبلها تضمنها الاشارة إلى أن ذلك الرسول المبعوث قد بعثه الله تعالى بما نعته به فى التوراة وعلى ألسنة أنبياء بنى إسرائيل كأنه قيل : هو الذى بعث المبشر به فى التوراة المنعوت فيها بالنبى الأمى المبعوث إلى أمة أميين ، مثل من جاءه نعته فيها وعلمه ثم لم يؤمن به مثل الحمار ، وفى الآية دليل على سوء حال العالم الذى لايعمل بعلمه ، وتخصيص الحمار بالتشبيه به لأنه كالعلم فى الجهل ، ومن ذلك قول الشاعر :

ذوامل للاسفار لاعلم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك مايدرى البعير إذاغدا بأوساقه أوراح مافى الغرائر

بناءاً على نقل عن ابن خالويه أن البعير اسم من أسماء الحمار كالجمل البازل ، وقرأ يحيى بن يعمر . وزيدبن على (حملوا) مبنياً للفاعل ، وقرأ عبد الله ـ حمار ـ بالتنكير ، وقرىء (يحمل) بشد الميم مبنيا للمفعول

﴿ بِئْسَ مَثَلُ القَوْم الَّذينَ كَذَّبُوا بآيَات اللهَ ﴾ أى بئس مثل القوم مثل الذين كذبوا فحذف المضاف وهو المخصوص بالذم وأقيم المضاف اليه مقامه ، ويجوز أن يكون (الذين) صفة القوم ، والمخصوص محذوف أى بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله هو ، والضمير راجع إلى(مثل الذين حملوا التوراة) ، وظاهر كلام الكشاف أن المخصوص هو (مثل) المذكور ، والفاعل مستتر يفسره تمييز محذوف ، والتقدير بئس مثلا مثل القوم الخ ، وتعقب بأن سيبويه نص على أن التمييز الذى يفسر الضمير المستتر فى باب نعم لايجوز حذفه ولو سلم جوازه فهو قليل ، وأجيب بأن ذاك تقرير لحاصل المعنى وهو أقرب لاعتبار الوجه الأول ، وكان قول ابن عطية التقدير بئس المثل مثل القوم من ذلك الباب ، وإلا ففيه حذف الفاعل ، وقد قالوا بعدم جوازه إلا فى مواضع ليس هذا منها ﴿ وَاللهُ لَايَهْدى القَوْمَ الظَّالمينَ ٧ ﴾ أى الواضعين للتكذيب فى موضع التصديق ، أو الظالمين لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بسبب التكذيب *

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذينَ هَادُوا ﴾ أى تهودوا أى صاروا يهوداً ﴿ إنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهَ ﴾ أى أحباء له سبحانه ولم يضف أولياء اليه تعالى كما فى قوله سبحانه :(ألا إن أولياء الله) قال الطيبى : ليؤذن بالفرق بين مدعى الولاية ومن يخصه عز وجل بها ﴿ منْ دُون النَّاس ﴾ حال من الضمير الراجع إلى اسم (إن) أى

Marfat.com

متجاوزين عن الناس ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ﴾ أى فتمنوا من الله تعالى أن يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى محل الكرامة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ جوابه محذوف لدلالة ماقبله عليه أى إن كنتم صادقين فى زعمكم واثقين بأنه حق فتمنوا الموت فان من أيقن أنه من أهل الجنة أحب أن يتخلص اليها من هذه الدار التى هى قرارة الانكاد والأكدار، وأمر صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقول لهم ذلك إظهاراً لكذبهم فانهم كانوا يقولون : (نحن أبناء الله وأحباؤه) ويدعون أن الآخرة لهم عند الله خالصة ويقولون : (لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً) وروى أنه لما ظهر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتبت يهود المدينة ليهود خيبر : إن اتبعتم محمداً أطعناه وإن خالفتموه خالفناه، فقالوا نحن أبناء خليل الرحمن ومنا عزير ابن الله والأنبياء ومتى كانت النبوة فى العرب نحن أحق بها من محمد ولا سبيل إلى اتباعه فنزلت (قل يا أيها الذين هادوا) الآية ، واستعمال (إن) التى للشك مع الزعم وهو محقق للاشارة إلى أنه لاينبغى أن يجزم به لوجود مايكذبه .

وقرأ ابن يعمر . وابن أبى إسحق . وابن السميقع (فتمنوا الموت) بكسر الواو تشبيها بلو استطعنا ، وعن ابن السميقع أيضاً فتحها ، وحكى الكسائى عن بعض الأعراب أنه قرأ بالهمزة مضمومة بدل الواو

﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً ﴾ إخبار بحالهم المستقبلة وهو عدم تمنيهم الموت ، وذلك خاص على ماصرح به جمع بأولئك المخاطبين ، وروى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لهم : « والذى نفسى بيده لايقولها أحد منكم إلا غص بريقه » فلم يتمنه أحد منهم وماذلك إلا لأنهم كانوا موقنين بصدقه عليه الصلاة والسلام فعلموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد ، وهذه إحدى المعجزات ، وجاء نفى هذا التمنى فى آية أخرى - بلن - وهو من باب التفنن على القول المشهور فى أن كلا من - لا - و - لن - لنفى المستقبل من غير تأكيد ، ومن قال : بافادة - لن - التأكيد فوجه اختصاص التوكيد عنده بذلك الموضع أنهم ادعوا الاختصاص دون الناس فى الموضعين ، وزادوا هنالك أنه أمر مكشوف لاشبهة فيه محققة عند الله فناسب أن يؤكد ماينفيه ، والباء فى قوله سبحانه : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ سببية متعلقة بما يدل عليه النفى أى يأبون التمنى بسبب ماقدمت ، وجوز تعلقه بالانتفاء كأنه قيل : انتفى تمنيهم بسبب ماقدمت كما قيل ذلك فى قوله تعالى : (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) والمراد بما قدمته أيديهم الكفر والمعاصى الموجبة لدخول النار ، ولما كانت اليد من بين جوارح الانسان مناط عامة أفعاله عبر بها تارة عن النفس . وأخرى عن القدرة

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أى بهم وإيثار الاظهار على الاضمار لذمهم والتسجيل عليهم بأنهم ظالمون فى كل مايأتون ويذرون من الأمور التى من جملتها ادعاء مامنع عنه بمعزل، والجملة تذييل لما قبلها مقررة لما أشار اليه من سوء أفعالهم واقتضائها العذاب أى والله تعالى عليم بما صدر منهم من فنون الظلم والمعاصى وبما سيكون منهم فيجازيهم على ذلك .

﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ ولا تجسرون على أن تمنوه مخافة أن تؤخذوا بوبال أفعالكم

﴿ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾ البتة من غير صارف يلويه ولاعاطف يثنيه والجملة خبر (إن) والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط باعتبار وصفه بالموصول ،فان الصفة والموصوف كالشىء الواحد ، فلا يقال : إن الفاء إنما تدخل الخبر

Marfat.com

إذا تضمن المبتدأ معنى الشرط ، والمتضمن له الموصول وليس بمبتدأ ، ودخولها فى مثل ذلك ليس بلازم كدخولها فى الجواب الحقيقى ، وإنما يكون لنكتة تليق بالمقام وهى ههنا المبالغة فى عدم الفوت ، وذلك أن الفرار من الشىء فى مجرى العادة سبب الفوت عليه فجىء بالفاء لافادة أن الفرار سبب الملاقاة مبالغة فيما ذكر وتعكيساً للحال ، وقيل : مافى حيزها جواب من حيث المعنى على معنى الاعلام فتفيد أن الفرار المظنون سبباً للنجاة سبب للاعلام بملاقاته كما فى قوله تعالى : (فما بكم من نعمة فمن الله) وهو وجه ضعيف فيما نحن فيه لامبالغة فيه من حيث المعنى ، ومنع قوم منهم الفراء دخول الفاء فى نحو هذا ، وقالوا : هى ههنا زائدة ، وجوز أن يكون الموصول خبر (إن) والفاء عاطفة كأنه قيل : إن الموت هو الشئ الذى تفرون منه فيلاقيكم ٭

وقرأ زيد بن على - إنه ملاقيكم - بدون فاء ، وخرج على أن الخبر هو الموصول وهذه الجملة مستأنفة أو هى الخبر والموصول صفة كما فى قراءة الجمهور ، وجوز أن يكون الخبر (ملاقيكم) و - إنه - توكيداً لأن الموت ، وذلك أنه لما طال الكلام أكد الحرف مصحوبا بضمير الاسم الذى لأن ، وقرأ ابن مسعود - تفرون منه ملاقيكم - بدون الفاء ولا - إنه - وهى ظاهرة ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ ﴾ الذى لا يخفى عليه خافية ٭ ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٨ ﴾ من الكفر والمعاصى بأن يجازيكم بها ، واستشعر غير واحد من الآية ذم الفرار من الطاعون ، والكلام فى ذلك طويل ، فمنهم من حرمه - كابن خزيمة - فانه ترجم فى صحيحه - باب الفرار من الطاعون من الكبائر - وأن الله تعالى يعاقب من وقع منه ذلك مالم يعف عنه ، واستدل بحديث عائشة « الفرار من الطاعون كالفرار من الزحف » رواه الامام أحمد . والطبرانى . وابن عدى . وغيرهم ، وسنده حسن ٭

وذكر التاج السبكى أن الأكثر على تحريمه ، ومنهم من قال : بكراهته كالامام مالك ، ونقل القاضى عياض . وغيره جواز الخروج عن الأرض التى يقع بها عن جماعة من الصحابة منهم أبو موسى الأشعرى . والمغيرة ابن شعبة ، وعن التابعين منهم الأسود بن هلال . ومسروق ، وروى الامام أحمد . والطبرانى أن عمرو بن العاص قال فى الطاعون فى آخر خطبته : إن هذا رجز مثل السيل من تنكبه أخطأه ومثل النار من تنكبها أخطأها ومن أقام أحرقته ، وفى لفظ إن هذا الطاعون رجس فتفرقوا منه فى الشعاب وهذه الأودية فتفرقوا فبلغ ذلك عمر رضى الله تعالى عنه فلم ينكره ولم يكرهه ، وعن طارق بن شهاب قال : كنا نتحدث إلى أبى موسى الأشعرى وهو فى داره بالكوفة فقال لنا وقد وقع الطاعون : لا عليكم أن تنزحوا عن هذه القرية فتخرجوا فى فسيح بلادكم حتى يرفع هذا الوباء فانى سأخبركم بما يكره من ذلك أن يظن من خرج أنه لو أقام فأصابه ذلك أنه لو خرج لم يصبه فاذا لم يظن هذا فلا عليه أن يخرج ويتنزه عنه ٭

وأخرج البيهقى . وغيره عنه بسند حسن أنه قال : إن هذا الطاعون قد وقع فمن أراد أن يتنزه عنه فليفعل واحذروا اثنتين أن يقول قائل : خرج خارج فسلم . وجلس جالس فأصيب ، فلو كنت خرجت لسلمت كما سلم فلان ولو كنت جلست أصبت كما أصيب فلان ، ويفهم أنه لا بأس بالخروج مع اعتقاد أن كل شىء مقدر كائن ، وكأنى بك تختار ذلك ، لكن فى فتاوى العلامة ابن حجر أن محل النزاع فيما إذا خرج فاراً منه مع اعتقاد أنه لو قدر عليه لأصابه وأن فراره لا ينجيه لكن يخرج مؤملا أن ينجو أما الخروج من محله بقصد

Marfat.com

أن له قدرة على التخلص من قضاء الله تعالى وأن فعله هو المنجى له فواضح أنه حرام بل كفر اتفاقاً *

وأما الخروج لعارض شغل أوللتداوى من علة طعن فيه أو غير ذلك فهو مما لا ينبغى أن يختلف فى جوازه كما صرح به بعض المحققين ، ومن ذلك فيما أرى عروض وسوسة طبيعية له لا يقدر على دفعها تضر به ضرراً بيناً وغلبة ظن عدم دفنه أو تغسيله إذا مات فى ذلك المحل قيل : ولا يقاس على الفرار من الطاعون الفرار من غيره من المهالك فانه مأمور به ؛ وقد قال الجلال السيوطى : الفرار من الوباء كالحمى ومن سائر أسباب الهلاك جائز بالاجماع ، والطاعون مستثنى من عموم المهالك المأمور بالفرار منها للنهى التحريمى أو التنزيهى عن الفرار منه . واختلفوا فى علة النهى فقيل : هى أن الطاعون إذا وقع فى بلد مثلا عم جميع من فيه بمداخلة سببه فلا يفيد الفرار منه بل إن كان أجله قد حضر فهو ميت وإن رحل وإلا فلا ، وإن أقام فتعينت الإقامة لما فى الخروج من العبث الذى لا يليق بالعقلاء ، واعترض بمنع عمومه إذا وقع فى بلد جميع من فيه بمداخلة سببه ولو سلم فالوباء مثله فى أن الشخص الذى فى بلده إن كان أجله قد حضر فهو ميت وإن رحل وإلا فلا وإن أقام مع أنهم جوزوا الفرار منه ، وقيل : هى أن الناس لو تواردوا على الخروج لضاعت المرضى العاجزون عن الخروج لفقد من يتعهدهم والموتى لفقد من يجهزهم ، وأيضاً فى خروج الأقوياء كسراً لقلوب الضعفاء عن الخروج ، وأيضاً إن الخارج يقول : لو لم أخرج لمت ، والمقيم : لو خرجت لسلمت فيقعان فى اللو المنهى عنه ، واعترض كل ذلك بأنه موجود فى الفرار عن الوباء أيضاً ، وكذا الداء الحادث ظهوره المعروف بين الناس بأبى زوعة الذى أعيا الأطباء علاجه ولم ينفع فيه التحفظ والعزلة على الوجه المعروف فى الطاعون ، وقيل : هى إن للميت به وكذا للصابر المحتسب المقيم فى محله وإن لم يمت به أجر شهيد ، وفى الفرار إعراض عن الشهادة وهو محل التشبيه فى حديث عائشة عند بعض ، واعترض بأنه قد صح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مر بحائط مائل فأسرع ولم يمنع أحد من ذلك . وكذا من الفرار من الحريق مع أن الميت بذلك شهيد أيضاً ، وذهب بعض العلماء إلى أن النهى تعبدى وكأنه لما رأى أنه لا تسلم علة له عن الطعن قال ذلك، ولهم فى هذه المسألة رسائل عديدة فمن أراد استيفاء الكلام فيها فليرجع اليها *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ ﴾ أى فعل النداء لها أى الأذان ، والمراد به على ما حكاه فى الكشاف الأذان عند قعود الإمام على المنبر . وقد كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مؤذن واحد فكان إذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد فاذا نزل عليه الصلاة والسلام أقام الصلاة ، ثم كان أبو بكر . وعمر على ذلك حتى إذا كان عثمان و كثر الناس و تباعدت المنازل زاد مؤذنا آخر فأمر بالتأذين الأول على داره التى تسمى زوراء فاذا جلس على المنبر أذن المؤذن الثانى فاذا نزل أقام الصلاة فلم يعب ذلك عليه *

وفى حديث الجماعة - إلا مسلماً - فلما كان عثمان و كثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء ، وفى رواية للبخارى . ومسلم زاد النداء الثانى ، والكل بمعنى ، وتسمية ما يفعل من الأذان أولا ثانياً باعتبار أنه لم يكن على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وإنما كان بعد ، وتسميته ثالثا لأن الإقامة تسمى أذانا كما فى الحديث « بين كل أذانين صلاة » وقال مفتى الحنفية فى دار السلطنة السنية الفاضل سعد الله جلبى : المعتبر فى تعلق الأمر يعنى قوله تعالى الآتى : (فاسعوا) هو الأذان الأول فى الاصح عندنا لأن حصول الإعلام به لا الأذان بين يدى المنبر ، ورد بأن الأول لم يكن على عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كما سمعت فكيف يقال : المراد

Marfat.com

الأول فى الأصح ، وأما كون الثانى لاإعلام فيـه فلايضر لأن وقته معلوم تخمينا ولو أريد ماذكر وجب بالأول السعى وحرم البيع وليس كذلك *

وفى كتاب الأحكام روى عن ابن عمر . والحسن فى قوله تعالى : (إذا نودى) الخ قال : إذا خرج الامام وأذن المؤذن فقد نودى للصلاة انتهى ، وهو التفسير المأثور فلا عبرة بغيره كذا قال الخفاجى *

وفى كتب الحنفية خلافه ففى الـكنز وشرحه : ويجب السعى وترك البيع بالأذان الأول لقوله تعـالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة) الآية وإنما اعتبر لحصول الاعلام به ، وهذا القول هو الصحيح فى المذهب ، وقيل : العبرة للاذان الثانى الذى يكون بين يدى المنبر لأنه لم يكن فى زمنه إلاهو - وهوضعيف - لأنه لواعتبر فى وجوب السعى لم يتمكن من السنة القبلية ومن الاستماع بل ربما يخشى عليه فوات الجمعة انتهى ، ونحوه كثير لـكن الاعتراض عليه قوى فتدبر ﴿ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ أى فيه كما فى قوله تعالى : (أرونى ماذا خلقوا من الأرض) أى فيها ، وجوز أبو البقاء أيضاً كون (من) للتبعيض ، وفى الـكشاف هى بيان - لاذا - وتفسير له ، والظاهر أنه أراد البيان المشهور فأورد عليه أن شرط (من) البيانية أن يصح حمل مابعدها على المبين قبلها وهو منتف هنا لأن الـكل لايحمل على الجزء واليوم لايصح أن يراد به هنا مطلق الوقت لأن يوم الجمعة علم لليوم المعروف لايطاق على غـيره فى العرف ولا قرينة عليه هنا ؛ وقيل : أراد البيان اللغوى أى لبيان أن ذلك الوقت فى أى يوم من الأيام إذ فيه إبهام فيجامع كونها بمعنى فى ، وكونها للتبعيض وهو كما ترى *

والجمعة بضم الميم وهو الأفصح ، والأكثر الشائع ، وبه قرأ الجمهور . وقرأ ابن الزبير . وأبو حيوة . وابن أبى عبلة . وزيد بن على . والأعمش بسكونها ، وروى عن أبى عمرو - وهى لغـة تميم - وجاء فتحها ولم يقرأ به ، ونقل بعضهم الـكسر أيضاً ، وذكروا أن الجمعة بالضم مثل الجمعة بالاسكان . ومعناه المجموع أى يوم الفوج المجموع كقولهم : ضحكة للمضحوك منـه ، وأما الجمعة : بالفتح فمعناه الجامع أى يوم الوقت الجامع كقولهم : ضحكة لـكثير الضحك ، وقال أبو البقاء : الجمعـة بضمتين وباسكان الميم مصدر بمعنى الاجتماع *

وقيل : فى المسكن هو بمعنى المجتمع فيه كرجل ضحكة أى كثير الضحك منه انتهى ، وقد صار يوم الجمعة علماً على اليوم المعروف من أيام الاسبوع ، وظاهر عبارة أكثر اللغويين أن الجمعة وحدها من غير يوم صارت علماً له ولامانع منه ، وإضافة العام المطلق إلى الخاص جائزة مستحسنة فيما إذا خفى الثانى كما هنا لأن التسمية حادثة كما ستعلمه إن شاء الله تعالى فليست قبيحة كالاضافة فى إنسان زيد ، وكانت العرب - على ماقال غير واحد - تسمى يوم الجمعة عروبة ، قيل : وهو علم جنس يستعمل بأل وبدونها ؛ وقيل : أل لازمة ، قال الخفاجى : والأول أصح * وفى النهاية لابن الأثير عروبة اسم قديم للجمعة ، وكأنه ليس بعربى يقال : يوم عروبة . ويوم العروبة ، والأفصح أن لايدخلها الألف واللام انتهى ، وماظنه من أنه ليس بعربى جزم به مختصر كتاب التذييل والتـكميل ممـا استعمل من اللفظ الدخيل لجمال الدين عبد الله بن أحمد الشهير بالشيشى فقال : عروبة منـكراً ومعرفا هو يوم الجمعة اسم سريانى معرب ، ثم قال : قال السهيلى : ومعنى العروبة الرحمة فيما بلغنا عن بعض أهل العـلم انتهى وهو غريب فليحفظ *

وأول من سماه جمعة قيل : كعب بن لؤى ، وأخرج عبدالرزاق . وعبد بن حميد . وابن المنذر عن ابن سيرين قال : جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبى ﷺ وقبل أن تنزل الجمعة قالت الانصار : لليهود يوم يجتمعون فيه

Marfat.com

بكل سبعة أيام. وللنصارى مثل ذلك فهلم فلنجعل لنا يوما نجتمع فيه فنذكر الله تعالى ونشكره ، فقالوا : يوم السبت لليهود . ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة ، وكانوا يسمون يوم الجمعة بذلك فاجتمعوا إلى أسعد ابن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم فسموه الجمعة حين اجتمعوا اليه فذبح لهم شاة فتغذوا وتعشوا منها وذلك لعامتهم ، فأنزل الله تعالى فى ذلك بعد (ياأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة) الآية ، وكون أسعد هذا أول من جمع مروى عن غير ابن سيرين أيضاً ، أخرج أبو داود . وابن ماجه . وابن حبان . والبيهقى عن عبد الرحمن بن كعب أن أباه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم على أسعد بن زرارة فقلت : ياأبتاه أرأيت استغفارك لأسعد بن زرارة كلما سمعت الأذان للجمعة ماهو ؟ قال : لأنه أول من جمع بنا فى نقيع الخضمات من حرة بنى بياضة قلت : كم كنتم يومئذ ؟ قال : أربعون رجلا ، وظاهر قول ابن سيرين . فأنزل الله تعالى فى ذلك بعد (ياأيها الذين آمنوا) الخ أن أسعد أقام الجمعة قبل أن تفرض ، وكذا قوله : جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبى ﷺ وقبل أن تنزل الجمعة ، وفى فتح القدير التصريح بذلك ، وقال العلامة ابن حجر فى تحفة المحتاج : فرضت - يعنى صلاة الجمعة - بمكة ولم نقم بها لفقد العدد ، أو لأن شعارها الإظهار ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم بها مستخفيا ، وأول من أقامها بالمدينة قبل الهجرة أسعد بن زرارة بقرية على ميل من المدينة انتهى ، فلعلها فرضت ثم نزلت الآية كالوضوء للصلاة فانه فرض أولا بمكة مع الصلاة ثم نزلت آيته لكن يعكر على هذا ماأخرجه ابن ماجه عن جابر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خطب فقال : « إن الله افترض عليكم الجمعة فى مقامى هذا فى يومى هذا فى شهرى هذا فى عامى هذا إلى يوم القيامة فمن تركها استخفافا بها أو جحوداً بها فلا جمع الله شمله ولا بارك له فى أمره ألا ولا صلاة له ولا زكاة له ولا حج له ولا صوم له ولا بر له حتى يتوب فمن تاب تاب الله عليه » فان الظاهر أن هذه الخطبة كانت فى المدينة بل ظاهر الخبر أنها بعد الهجرة بكثير إذ ظاهر قوله عليه الصلاة والسلام فيه : « لا جمع له » أن الجمع كان مفروضاً إذ ذاك ، وهو وإن اختلف فى وقت فرضه فقيل : فرض قبل الهجرة ، وقيل : أول سنيها ، وقيل : ثانيها ، وهكذا إلى العاشرة لكن قالوا : إن الأصح أنه فرض فى السنة السادسة فإما أن يقدح فى صحة الحديث ، وإما أن يقال : مفاده افتراض الجمعة إلى يوم القيامة أى بهذا القيد ، ويقال : إن الحاصل قبل افتراضها غير مقيد بهذا القيد ثم ماتقدم من كون أسعد أول من جمع بالمدينة يخالفه ماأخرج الطبرانى عن أبى مسعود الانصارى قال : أول من قدم من المهاجرين المدينة مصعب ابن عمير ، وهو أول من جمع بها يوم الجمعة جمع بهم قبل أن يقدم رسول الله ﷺ وهم اثنا عشر رجلا *

وأخرج البخارى على مانقله السيوطى نحوه وكان ذلك بأمره عليه الصلاة والسلام ، فقد أخرج الدارقطنى عن ابن عباس قال : أذن النبى عليه الصلاة والسلام بالجمعة قبل أن يهاجر ولم يستطع أن يجمع بمكة فكتب إلى مصعب بن عمير : أما بعد فانظر اليوم الذى تجهر فيه اليهود بالزبور فأجمعوا نساءكم وأبناءكم فاذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة فتقربوا إلى الله تعالى بركعتين قال : فهو أول من جمع حتى قدم النبى ﷺ المدينة فجمع عند الزوال من الظهر وأظهر ذلك فلعل مايدل على كون أسعد أول من جمع أثبت من هذه الاخبار أو يجمع بأن أسعد أول من أقامها بغير أمر منه صلى الله تعالى عليه وسلم كما يدل عليه خبر ابن سيرين ، وصرح به ابن الهمام . ومصعباً أول من أقامها بأمره عليه الصلاة والسلام ، أو بأن مصعباً أول من أقامها فى المدينة نفسها وأسعد أول من أقامها فى قرية قرب المدينة ، وقولهم : فى المدينة تسامح ، وقال الحافظ ابن حجر : يجمع

Marfat.com

بين الحديثين بأن أسعد كان أميراً ، ومصعباً كان إماما وهو كما ترى ، ولم يصرح فى شئ من الاخبار التى وقفت عليها فيمن أقامها قبل الهجرة بالمدينة بالخطبة التى هى أحد شروطها ، وكأن فى خبر ابن سيرين رمزاً اليها بقوله : وذكرهم ، وقد يقال : إن صلاة الجمعة حقيقة شرعية فى الصلاة المستوفية للشروط ، فمتى قيل : إن فلانا أول من صلى الجمعة كان متضمناً لتحقق الشروط لكن يبعد كل البعد كون ماوقع من أسعد رضى الله تعالى عنه إن كان قبل فرضيتها مستوفيا لما هو معروف اليوم من الشروط ، ثم إنى لاأدرى هل صلى أسعد الظهر ذلك اليوم أم اكتفى بالركعتين اللتين صلاهما عنها ؟ وعلى تقدير الاكتفاء كيف ساغ له ذلك بدون أمره عليه الصلاة والسلام؟! وقصارى مايظن أن الانصار علموا فرضية الجمعة بمكة وعلموا شروطها وإغناءها عن صلاة الظهر فأرادوا أن يفعلوها قبل أن يؤمروا بخصوصهم فرغب خواصهم عوامهم على أحسن وجه وجاءوا إلى أسعد فصلى بهم وهو خلاف الظاهر جداً فتدبر والله تعالى الموفق *

وأما ماكان من صلاته عليه الصلاة والسلام إياها فقد روى أنه عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة مهاجراً نزل قباعلى بنى عمرو بن عوف وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس ، وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة فأدركته صلاة الجمعة فى بنى سالم بن عوف فى بطن واد لهم فخطب وصلى الجمعة وهو أول جمعة صلاها عليه الصلاة والسلام ، وقال بعضهم : إنما سمى هذا اليوم يوم الجمعة لأن آدم عليه السلام اجتمع فيه مع حواء فى الأرض ، وقيل : لأن خلق آدم عليه السلام جمع فيه وهو نحو ماأخرجه سعيد بن منصور . وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قلت : « يانبى الله لأى شئ سمى يوم الجمعة ؟ فقال : لأن فيها جمعت طينة أبيكم آدام عليه السلام » الخبر ، ويشعر ذلك بأن التسمية كانت قبل كعب بن لؤى ويسميه الملائكة يوم القيامة يوم المزيد لما أن الله تعالى يتجلى فيه لأهل الجنة فيعطيهم مالم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر كما فى حديث رواه ابن أبى شيبة عن أنس مرفوعا وهو من أفضل الأيام ، وفى خبر رواه كثيرون منهم الامام أحمد . وابن ماجه عن أبى لبابة بن عبد المنذر مرفوعا « يوم الجمعة سيد الايام وأعظم عند الله تعالى من يوم الفطر ويوم الاضحى » وفيه أن فيه خلق آدم . وإهباطه إلى الارض . وموته . وساعة الاجابة - أى للدعاء - مالم يكن سؤال حرام . وقيام الساعة ، وفى خبر الطبرانى « وفيه دخل الجنة . وفيه خرج » . وصحح ابن حبان خبر « لاتطلع الشمس ولا تغرب على يوم أفضل من يوم الجمعة » وفى خبر مسلم « فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها وفيه تقوم الساعة وأنه خير يوم طلعت عليه الشمس » وصح خبر « وفيه تيب عليه وفيه مات » *

وأخذ أحمد من خبرى مسلم . وابن حبان أنه أفضل حتى من يوم عرفة ، وفضل كثير من الحنابلة ليلته على ليلة القدر ، قيل : ويردهما أن لذينك دلائل خاصة فقدمت ، واختلف فى تعيين ساعة الاجابة فيه ، فعن أبى بردة : هى حين يقوم الامام فى الصلاة حتى ينصرف عنها ، وعن الحسن : هى عند زوال الشمس ، وعن الشعبى : هى مابين أن يحرم البيع إلى أن يحل ، وعن عائشة : هى حين ينادى المنادى بالصلاة ، وفى حديث مرفوع أخرجه ابن أبى شيبة عن كثير بن عبد الله المزنى : هى حين تقام الصلاة إلى الانصراف منها ، وعن أبى أمامة إنى لأرجو أن تكون الساعة التى فى الجمعة إحدى هذه الساعات : إذا أذن المؤذن . أو جلس الامام على المنبر . أو عند الاقامة ، وعن طاوس . ومجاهد : هى بعد العصر ، وقيل : غير ذلك ، ولم يصح تعيين الاكثرين ، وقد أخفاها الله تعالى كما أخفى سبحانه الإسم الأعظم . وليلة القدر . وغيرهما لحكمة لاتخفى *

Marfat.com

﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى امشوا اليه بدون إفراط فى السرعة ، وجاء فى الحديث مقابلة السعى بالمشى ، وجعل ذلك من خصائص الجمعة ، فقد أخرج الستة فى كتبهم عن أبى سلمة من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا » والمراد بذكر الله الخطبة والصلاة ، واستظهر أن المراد به الصلاة ، وجوز كون المراد به الخطبة - وهو على ما قيل - مجاز من إطلاق البعض على الكل كاطلاقه على الصلاة ، أولأنها كالمحل له ، وقيل : الذكر عام يشمل الخطبة المعروفة ونحو التسبيحة ، واستدلوا بالآية لأبى حنيفة رضى الله تعالى عنه على أنه يكفى فى خطبة الجمعة التى هى شرط لصحتها الذكر مطلقاً ولا يشترط الطويل وأقله قدر التشهد كما اشترطه صاحباه ، وبينوا ذلك بأنه تعالى ذكر الذكر من غير فصل بين كونه ذكراً طويلا يسمى خطبة أو ذكراً لا يسمى خطبة فكان الشرط هو الذكر الأعم بالقاطع غير أن المأثور عنه صلى الله تعالى عليه وسلم اختيار أحد الفردين وهو الذكر المسمى بالخطبة والمواظبة عليه فكان ذلك واجباً أو سنة لا أنه الشرط الذى لا يجزئ غيره إذ لا يكون بيانا لعدم الاجمال فى لفظ الذكر ، والشافعية يشترطون خطبتين : ولهما أركان عندهم ، واستدلوا على ذلك بالآثار ، وأيا ما كان فالأمر بالسعى للوجوب .

واستدل بذلك على فرضية الجمعة حيث رتب فيها الأمر بالسعى لذكر الله تعالى على النداء للصلاة فان أريد به الصلاة أو هى والخطبة فظاهر ، وكذلك إن أريد به الخطبة لأن افتراض السعى إلى الشرط - وهو المقصود لغيره - فرع افتراض ذلك الغير ، ألا ترى أن من لم تجب عليه الصلاة لا يجب عليه السعى إلى الجمعة بالاجماع ؟ وكذا ثبتت فرضيتها بالسنة والاجماع ، وقد صرح بعض الحنفية بأنها آكد فرضية من الظهر وبا كفار جاحدها وهى فرض عين ، وقيل : كفاية وهو شاذ ، وفى حديث رواه أبو داود . وقال النووى : على شرط الشيخين « الجمعة حق واجب على كل مسلم فى جماعة إلا أربعة : مملوك . أو امرأة . أو صبى . أو مريض » .

وأجمعوا على اشتراط العدد فيها لهذا الخبر وغيره ، وقول القاشانى : تصح بواحد لا يعتد به كما فى شرح المهذب لكنهم اختلفوا فى مقداره على أقوال : أحدها أنه اثنان أحدهما الامام - وهو قول النخعى . والحسن بن صالح . وداود - الثانى : ثلاثة أحدهم الامام - وحكى عن الأوزاعى . وأبى ثور . وعن أبى يوسف . ومحمد . وحكاه الرافعى . وغيره عن قول الشافعى القديم - الثالث : أربعة أحدهم الامام - وبه قال أبو حنيفة . والثورى . والليث . وحكاه ابن المنذر عن الأوزاعى . وأبى ثور واختاره ، وحكاه فى شرح المهذب عن محمد ، وحكاه صاحب التلخيص قولا للشافعى فى القديم - الرابع : سبعة - حكى عن عكرمة - الخامس : تسعة - حكى عن ربيعة - السادس : اثنى عشر - فى رواية عن ربيعة . وحكاه الماوردى عن محمد . والزهرى . والأوزاعى - السابع : ثلاثة عشر أحدهم الامام - حكى عن إسحق بن راهويه - الثامن : عشرون - رواه ابن حبيب عن مالك - التاسع : ثلاثون - فى رواية عن مالك - العاشر : أربعون أحدهم الامام - وبه قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة . والامام الشافعى فى الجديد ، وهو المشهور عن الامام أحمد ، وأحد القولين المرويين عن عمر بن عبد العزيز - الحادى عشر : خمسون - فى الرواية الأخرى عنه - الثانى عشر : ثمانون - حكاه المازرى - الثالث عشر : جمع كثير بغير قيد - وهو مذهب مالك - فقد اشتهر أنه قال : لا يشترط عدد معين بل تشترط جماعة تسكن بهم قرية ويقع بينهم البيع ، ولا تنعقد بالثلاثة . والأربعة ونحوهم .

Marfat.com

قال الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى : ولعل هذا المذهب أرجح المذاهب من حيث الدليل، وأنا أقول أرجحها مذهب الامام أبى حنيفة، وقد رجحه المزنى - وهو من كبار الآخذين عن الشافعى - وهو اختيار الجلال السيوطى، ووجه اختياره مع ذكر أدلة أكثر الأقوال بما لها وعليها مذكور فى رسالة له سماها ضوء الشمعة فى عدد الجمعة ، ولولا مزيد التطويل لذكرنا خلاصتها . ومن أراد ذلك فليرجع اليها ليظهر له بنورها حقيقة الحال.

وقرأ كثير من الصحابة . والتابعين - فامضوا - وحملت على التفسير بناءاً على أنه لا يراد بالسعى الاسراع فى المشى ولم تجعل قرآنا لمخالفتها سواد المصحف المجمع عليه ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ أى واتركوا المعاملة على أن البيع مجاز عن ذلك فيعم البيع والشراء والاجارة وغيرها من المعاملات ، أو هو دال على ماعداه بدلالة النص ولعله الأولى ، والأمر للوجوب فيحرم كل ذلك بل روى عن عطاء حرمة اللهو المباح وأن يأتى الرجل أهله وأن يكتب كتاباً أيضا *

وعبر بعضهم بالكراهة وحملت على كراهة التحريم ، وقول الأكمل فى شرح المنار : إن الكراهة تنزيهية مردود كأنه مأخوذ من زعم القاضى الاسبيجابى أن الأمر فى الآية للندب وهو زعم باطل عند أكثر الأئمة ، وعامة العلماء على صحة البيع ، وإن حرم نظير ماقالوا فى الصلاة بالثوب المغصوب أو فى الأرض المغصوبة *

وقال ابن العربى : هو فاسد ، وعبر مجاهد بقوله : مردود ويستمر زمن الحرمة إلى فراغ الإمام من الصلاة ، وأوله إما وقت أذان الخطبة - وروى عن الزهرى ، وقال به جمع - وإما أول وقت الزوال - وروى ذلك عن عطاء . والضحاك . والحسن - والظاهر أن المأمورين بترك البيع هم المأمورون بالسعى إلى الصلاة *

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الرحمن بن القاسم أن القاسم دخل على أهله يوم الجمعة وعندهم عطار يبايعونه فاشتروا منه وخرج القاسم إلى الجمعة فوجد الامام قد خرج فلما رجع أمرهم أن يناقضوه البيع ، وظاهره حرمة البيع إذا نودى للصلاة على غير من تجب عليه أيضا ، والظاهر حرمة البيع والشراء حالة السعى *

وصرح فى السراج الوهاج بعدمها إذا لم يشغله ذلك ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أى المذكور من السعى إلى ذكر الله تعالى وترك البيع ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أنفع من مباشرة البيع فان نفع الآخرة أجل وأبقى ، وقيل : أنفع من ذلك ومن ترك السعى ، وثبوت أصل النفع للمفضل عليه باعتبار أنه نفع دنيوى لا يدل على كون الأمر للندب والاستحباب دون الحتم والايجاب كما لا يخفى ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الخير والشر الحقيقيين ، أو إن كنتم من أهل العلم على تنزيل الفعل منزلة اللازم ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ ﴾ أى أديت وفرغ منها ﴿ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ لاقامة مصالحكم ﴿ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ أى الربح على ماقيل ، وقال مكحول . والحسن . وابن المسيب : المأمور بابتغائه هو العلم *

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : لم يؤمروا بشىء من طلب الدنيا إنما هو عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ فى الله تعالى ، وأخرج نحوه ابن جرير عن أنس مرفوعا ، والأمر للاباحة على الأصح فيباح بعد قضاء الصلاة الجلوس فى المسجد ولا يجب الخروج ، وروى ذلك عن الضحاك . ومجاهد *

وحكى الكرمانى فى شرح البخارى الاتفاق على ذلك وفيه نظر ، فقد حكى السرخسى القول بأنه للوجوب ،

Marfat.com

وقيل : هو للندب ، وأخرج أبو عبيد . وابن المنذر . والطبرانى . وابن مردويه عن عبد الله بن بسر الحرانى قال : رأيت عبد الله بن بسر المازنى صاحب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إذا صلى الجمعة خرج فدار فى السوق ساعة ثم رجع إلى المسجد فصلى ماشاء الله تعالى أن يصلى ، فقيل له : لأى شيء تصنع هذا ؟ قال : إنى رأيت سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم هكذا يصنع وتلا هذه الآية (فاذا قضيت الصلاة) الخ *

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : إذا انصرفت يوم الجمعة فاخرج إلى باب المسجد فساوم بالشيء وإن لم تشتره ، ونقل عنه القول بالندبية وهو الأقرب والأوفق بقوله تعالى :

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ أى ذكراً كثيراً ولاتخصوا ذكره عزوجل بالصلاة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٠﴾ كى تفوزوا بخير الدارين ، ومما ذكرنا يعلم ضعف الاستدلال بما هنا على أن الأمر الوارد بعد الحظر للاباحة ، واستدل بالآية على تقديم الخطبة على الصلاة وكذا على عدم ندب صلاة سنتها البعدية فى المسجد ، ولادلالة فيها على نفى سنة بعدية لها ، وظاهر كلام بعض الأجلة أن من الناس من نفى أن للجمعة سنة مطلقاً فيحتمل على بعد أن يكون استشعر نفى السنة البعدية من الأمر بالانتشار وابتغاء الفضل ، وأما نفى القبلية فقد استند فيه إلى ماروى فى الصحيح وقد تقدم من أن النداء كان على عهده عليه الصلاة والسلام إذا جلس على المنبر إذ من المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام إذا كمل الأذان أخذ فى الخطبة وإذا أتمها أخذ فى الصلاة ، فمتى كانوا يصلون السنة ؟ وأجيب عن هذا بأن خروجه عليه الصلاة والسلام كان بعد الزوال بالضرورة فيجوز كونه بعد ما كان يصلى الأربع ، ويجب الحكم بوقوع الحكم بهذا المجوز لعموم ماصح من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يصلى إذا زالت الشمس أربعاً ، وكذا يجب فى حقهم لأنهم أيضاً يعلمون الزوال كالمؤذن بل ربما يعلمونه بدخول الوقت ليؤذن ، واستدل بقوله تعالى : (إذا نودى) الخ من قال : إنما يجب إتيان الجمعة من مكان يسمع فيه النداء ، والمسألة خلافية فقال ابن عمر . وأبو هريرة . ويونس . والزهرى : يجب إتيانها من ستة أميال ، وقيل : من خمسة ، وقال ربيعة : من أربعة ، وروى ذلك عن الزهرى . وابن المنكدر *

وقال مالك . والليث : من ثلاثة ، وفى بحر أبى حيان . وقال أبو حنيفة وأصحابه : يجب الاتيان على من فى المصر سمع النداء أو لم يسمع لاعلى من هو خارج المصر وإن سمع النداء ؛ وعن ابن عمر . وابن المسيب . والزهرى . وأحمد . وإسحق على من سمع النداء ، وعن ربيعة على من إذا سمع وخرج من بيته ماشياً أدرك الصلاة ، وكذا استدل بذلك من قال بوجوب الاتيان اليها سواء كان إذن عام أم لا ، وسواء أقامها سلطان . أو نائبه . أو غيرهما أم لا لأنه تعالى إنما رتب وجوب السعى على النداء مطلقاً كذا قيل ، وتحقيق الكلام على ذلك كله فى كتب الفروع المطولة *

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ أخرج الامام أحمد . والبخارى . ومسلم . والترمذى . وجماعة عن جابر بن عبد الله قال : « بينما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يخطب يوم الجمعة قائماً إذ قدمت عير المدينة فابتدرها أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلا أنا فيهم . وأبو بكر . وعمر فأنزل الله تعالى (وإذا رأوا تجارة) إلى آخر السورة ، وفى رواية ابن مردويه عن ابن عباس أنه بقى فى المسجد اثنا عشر رجلا وسبع نسوة فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم ناراً » وفى رواية عن قتادة « والذى نفس محمد بيده لو اتبع آخركم

Marfat.com

أو لكم لالتهب الوادى عليكم ناراً » ، وقيل : لم يبق إلاأحد عشر رجلا ، وهم على ماقال أبو بكر : غالب بن عطية العشرة المبشرة . وعمار فى رواية . وابن مسعود فى أخرى،وعلى الرواية السابقة عدوا العشرة أيضاً منهم . وعدوا بلالا . وجابراً لكلامه السابق ، ومنهم من لم يذكر جابراً وذكر بلالا . وابن مسعود . ومنهم من ذكر عماراً بدل ابن مسعود ، وقيل : لم يبق إلا ثمانية ، وقيل : بقى أربعون ، وكانت العير لعبد الرحمن ابن عوف رضى الله تعالى عنه تحمل طعاماً ، وكان قدأصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر *

وأخرج أبو داود فى مراسيله عن مقاتل بن حيان قال : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصلى الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين حتى كان يوم جمعة والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يخطب وقد صلى الجمعة فدخل رجل فقال : إن دحية بن خليفة قدم بتجارة وكان إذا قدم تلقاه أهله بالدفاف فخرج الناس ولم يظنوا إلا أنه ليس فى ترك حضور الخطبة شىء فأنزل الله تعالى (وإذا رأوا) الخ فقدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الخطبة يوم الجمعة وأخر الصلاة ، ولا أظن صحة هذا الخبر ، والظاهر أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يزل مقدماً خطبتها عليها ، وقد ذكروا أنها شرط صحتها وشرط الشىء سابق عليه ، ولم أر أحداً من الفقهاء ذكر أن الأمر كان كما تضمنه ولم أظفر بشىء من الأحاديث مستوف لشروط القبول متضمن ذلك ، نعم ذكر العلامة ابن حجر الهيتمى أن بعضهم شذ عن الاجماع على كون الخطبة قبلها والله تعالى أعلم ، والآية لما كانت فى أولئك المنفضين وقد نزلت بعد وقوع ذلك منهم قالوا : إن (إذا) فيها قد خرجت عن الاستقبال واستعملت للماضى كما فى قوله :

وندمان تزيد الكاس طيباً سقيت (إذا) تغورت النجوم

ووحد الضمير لأن العطف بأو واختير ضمير التجارة دون اللهو لأنها الأهم المقصود ، فان المراد باللهو مااستقبلوا به العير من الدف ونحوه ، أو لأن الانفضاض للتجارة مع الحاجة اليها والانتفاع بها إذا كان مذموما فما ظنك بالانفضاض إلى اللهو وهو مذموم فى نفسه ؟ ! وقيل : الضمير للرؤية المفهومة من (رأوا) وهو خلاف الظاهر المتبادر ، وقيل : فى الكلام تقدير ، والاصل إذا رأوا تجارة انفضوا اليها ، أو لهواً انفضوا اليه فحذف الثانى لدلالة الأول عليه ، وتعقب بأنه بعد العطف بأو لايحتاج إلى الضمير لكل منهما بل يكفى الرجوع لأحدهما فالتقدير من غير حاجة ، وقال الطيبى : يمكن أن يقال : إن (أو) فى (أولهواً) مثلها فى قوله:

بدت مثل قرن الشمس فى رونق الضحى وصورتها (أو) أنت فى العين أملح

فقال الجوهرى : يريد بل أنت فالضمير فى (اليها) راجع إلى اللهو باعتبار المعنى ، والسر فيه أن التجارة إذا شغلت المكلف عن ذكر الله تعالى عدت لهواً ، وتعد فضلا إن لم تشغله كما فى قوله تعالى : (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله) انتهى وليس بشىء كما لايخفى *

وقرأ ابن أبى عبلة ـ اليه ـ بضمير اللهو،وقرئ ـ اليهما ـ بضمير الاثنين كما فى قوله تعالى : (إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما) وهو متأول لأنه بعد العطف بأو لكونها لأحد الشيئين لايثنى الضمير وكذا الخبر ، والحال والوصف فهى على هذه القراءة بمعنى الواو كما قيل به فى الآية التى ذكرناها ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ أى على المنبر *

واستدل به على مشروعية القيام فى الخطبة وهو عند الحنفية أحد سننها،وعند الشافعية هو شرط فى الخطبتين إن قدر عليه ، وأخرج ابن ماجه . وغيره عن ابن مسعود أنه سئل أكان النبى ﷺ يخطب قائما أو قاعداً ؟

Marfat.com

فقال: أما تقرأ (وتركوك قائما)؟ وكذا سئل ابن سيرين. وأبو عبيدة، وأجابا بذلك، وأول من خطب جالسا معاوية ه

ولعل ذلك لعجزه عن القيام، وإلا فقد خالف ما كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقد أخرج البخارى. ومسلم. والترمذى. والنسائى. وابن ماجه عن ابن عمر أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يخطب خطبتين يجلس بينهما، وذكر أبو حيان أن أول من استراح فى الخطبة عثمان رضى الله تعالى عنه، وكأنه أراد بالاستراحة غير الجلوس بين الخطبتين إذ ذاك ما كان عليه صلى الله تعالى عليه وسلم. وأبو بكر. وعمر رضى الله تعالى عنهما ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ﴾ فان ذلك نفع محقق مخلد بخلاف ما فيهما من النفع، فان نفع اللهو ليس بمحقق بل هو متوهم، ونفع التجارة ليس بمخلد، وتقديم اللهو ليس من تقديم العدم على الملكة كما توهم بل لانه أقوى مذمة، فناسب تقديمه فى مقام الذم، وقال ابن عطية: قدمت التجارة على اللهو فى الرؤية لأنها أهم، وأخرت مع التفضيل لتقع النفس أولا على الأبين، وهو قريب مما ذكرنا ه

وقال الطيبى: قدم ما كان مؤخرا وكرر الجار لارادة الاطلاق فى كل واحد، واستقلاله فيما قصد منه ليخالف السابق فى اتحاد المعنى لأن ذلك فى قصة مخصوصة، واستدل الشيخ عبد الغنى النابلسى عفا الله تعالى عنه على حل الملاهى بهذه الآية لما كان أفعل التفضيل المقتضى لاثبات أصل الخيرية للهو كالتجارة، وأنت تعلم أن ذلك مبنى على الزعم والتوهم، وأعجب منه استدلاله على ذلك بعطف التجارة المباحة على اللهو فى صدر الآية، والأعجب الأعجب أنه ألف رسائل فى إباحة ذلك مما يستعمله الطائفة المنسوبة إلى مولانا جلال الدين الرومى دائرة على أدلة أضعف من خصر شادن يدور على محور الغنج فى مقابلتهم، ومنها أكاذيب لا أصل لها لن يرتضيها عاقل ولن يقبلها، ولا أظن ما يفعلونه إلا شبكة لاصطياد طائر الرزق والجهلة يظنونه مخلصا من ربقة الرق، فإياك أن تميل إلى ذلك وتوكل على الله تعالى المالك ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ١١ ﴾ فاليه سبحانه اسعوا ومنه عز وجل اطلبوا الرزق ه

واستدل بما وقع فى القصة على أقل العدد المعتبر فى جماعة الجمعة بأنه اثنا عشر بناء على ما فى أكثر الروايات من أن الباقين بعد الانفضاض كانوا كذلك، ووجه الدلالة منه أن العدد المعتبر فى الابتداء يعتبر فى الدوام فلما لم تبطل الجمعة بانفضاض الزائد على اثنى عشر دل على أن هذا العدد كاف، وفيه أن ذلك وإن كان دالا على صحتها باثنى عشر رجلا بلاشبهة لكن ليس فيه دلالة على اشتراط اثنى عشر، وأنها لا تصح بأقل من هذا العدد، فان هذه واقعة عين أكثر ما فيها أنهم انفضوا وبقى اثنا عشر رجلا وتمت بهم الجمعة، وليس فيها أنه لو بقى أقل من هذا العدد لم تتم بهم، وفيما يصنع الامام إن اتفق تفرق الناس عنه فى صلاة الجمعة خلاف: فعند أبى حنيفة إن بقى وحده، أو مع أقل من ثلاثة رجال يستأنف الظهر إذا نفروا عنه قبل الركوع، وعند صاحبيه إذا كبر وهم معه مضى فيها، وعند زفر إذا نفروا قبل القعدة بطلت لأن العدد شرط ابتداء فلا بد من دوامه كالوقت، ولهما أنه شرط الانعقاد فلا يشترط دوامه كالخطبة، وللامام أن الانعقاد بالشروع فى الصلاة ولا يتم ذلك إلا بتمام الركعة لأن ما دونها ليس بصلاة فلا بد من دوامه إلى ذلك بخلاف الخطبة لأنها تنافى الصلاة فلا يشترط دوامها ه

وقال جمهور الشافعية: إن انفض الأربعون، أو بعضهم فى الصلاة ولم يحرم عقب انفضاضهم فى الركعة الأولى عدد نحوهم سمع الخطبة بطلت الجمعة فيتمونها ظهرا لنحو ما قال زفر، وفى قول: لا يضر إن بقى اثنان مع الامام لوجود مسمى الجماعة إذ يغتفر فى الدوام ما لا يغتفر فى الابتداء وتمام ذلك فى محله ه

Marfat.com

وطعن الشيعة لهذه الآية الصحابة رضى الله تعالى عنهم بأنهم آثروا دنياهم على آخرتهم حيث انفضوا إلى اللهو والتجارة ورغبوا عن الصلاة التى هى عماد الدين وأفضل كثير من العبادات لاسيما مع رسول الله ﷺ، وروى أن ذلك قد وقع مراراً منهم، وفيه إن كبار الصحابة كأبى بكر . وعمر . وسائر العشرة المبشرة لم ينفضوا ، والقصة كانت فى أوائل زمن الهجرة ، ولم يكن أكثر القوم تام التحلى بحلية آداب الشريعة بعد ، وكان قد أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر فخاف أولئك المنفضون اشتداد الامر عليهم بشراء غيرهم ما يقتات به لو لم ينفضوا ، ولذا لم يتوعدهم الله تعالى على ذلك بالنار أو نحوها بل قصارى ما فعل سبحانه أنه عاتبهم ووعظهم ونصحهم، ورواية أن ذلك وقع منهم مراراً إن أريد بها رواية البيهقى فى شعب الايمان عن مقاتل بن حيان أنه قال : بلغنى - والله تعالى أعلم - أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات فمثل ذلك لا يلتفت اليه ولا يعول عند المحدثين عليه ، وإن أريد بها غيرها فليبين ولتثبت صحته ، وأنى بذلك ؟ ! وبالجملة الطعن بجميع الصحابة لهذه القصة التى كانت من بعضهم فى أوائل أمرهم وقد عقبها منهم عبادات لاتحصى سفه ظاهر وجهل وافر ٭

هذا ﴿ ومن باب الإشارة ﴾ على ماقيل فى الآيات : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) إشارة إلى عظيم قدرته عز وجل وأن إفاضة العلوم لاتتوقف على الأسباب العادية ، ومنه قالوا : إن الولى يجوز أن يكون أمياً كالشيخ معروف الكرخى - على ماقال ابن الجوزى - وعنده من العلوم اللدنية ماتقصر عنها العقول ، وقال العز بن عبد السلام : قد يكون الإنسان عالماً بالله تعالى ذا يقين وليس عنده علم من فروض الكفايات ، وقد كان الصحابة أعلم من علماء التابعين بحقائق اليقين ودقائق المعرفة مع أن فى علماء التابعين من هو أقوم بعلم الفقه من بعض الصحابة ، ومن انقطع إلى الله عز وجل وخلصت روحه أفيض على قلبه أنوار إلهية تهيأت بها لادراك العلوم الربانية والمعارف اللدنية ، فالولاية لاتتوقف قطعاً على معرفة العلوم الرسمية كالنحو . والمعانى . والبيان . وغير ذلك ، ولا على معرفة الفقه مثلا على الوجه المعروف بل على تعلم مايلزم الشخص من فروض العين على أى وجه كان من قراءة أو سماع من عالم أو نحو ذلك ، ولا يتصور ولاية شخص لا يعرف مايلزمه من الأمور الشرعية كأكثر من تقبل يده فى زماننا، وقد رأيت منهم من يقول - وقد بلغ من العمر نحو سبعين سنة - إذا تشهد لاإله أن الله بأن بدل إلا فقلت له : منذ كم تقول هكذا ؟ فقال : من صغرى إلى اليوم فكررت عليه الكلمة الطيبة فما قالها على الوجه الصحيح إلا بجهد ، ولاأظن ثباته على ذلك، وخبر « لايتخذ الله ولياً جاهلا ولو اتخذه لعلمه» ليس من كلامه عليه الصلاة والسلام ، ومع ذلك لايفيد فى دعوى ولاية من ذكرنا ٭

وذكر بعضهم أن قوله تعالى : (ويزكيهم) بعد قوله سبحانه : (يتلو عليهم آياته) إشارة إلى الإفاضة القلبية بعد الاشارة إلى الافادة القالية اللسانية ، وقال بحصولها للاولياء المرشدين : فيزكون مريديهم بافاضة الأنوار على قلوبهم حتى تخلص قلوبهم وتزكو نفوسهم ، وهو سر مايقال له التوجه عند السادة النقشبندية ، وقالوا : بالرابطة ليتهيأ ببركتها القلب لما يفاض عليه ، ولا أعلم لثبوت ذلك دليلا يعول عليه عن الشارع الأعظم صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا عن خلفائه رضى الله تعالى عنهم ، وكل مايذكرونه فى هذه المسألة ويعدونه دليلا لايخلو عن قادح بل أكثر تمسكاتهم فيها تشبه التمسك بحبال القمر ، ولولا خوف الاطناب لذكرتها مع مافيها ، ومع هذا لاأنكر بركة كل من الأمرين : التوجه والرابطة ، وقد شاهدت ذلك من فضل الله عز وجل،

Marfat.com

وأيضاً لاأدعى الجزم بعدم دليل فى نفس الأمر ، وفوق كل ذى علم عليم ، ولعل أول من أرشد اليهما من السادة وجد فيهما مايعول عليه ، أو يقال : يكفى للعمل بمثل ذلك نحو ماتمسك به بعض أجلة متأخريهم وإن كان للبحث فيـه مجال ولأرباب القال فىأمره مقال ، وفى قوله تعالى : (وآخرين) الخ بناءاً على عطفه على الضمير المنصوب قيل : إشارة إلى عدم انقطاع فيضه صلى الله تعالى عليه وسلم عن أمته إلى يوم القيامة ، وقد قالوا بعدم انقطاع فيض الولى أيضا بعد انتقاله من دار الـكثافة والفناء إلى دار التجرد والبقاء : وفى قوله تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة) الخ إشارة إلى سوء حال المنكرين مع علمهم ، وفى قوله تعالى : (قل ياأيها الذين هادوا) الآية إشارة الى جواز امتحان مدعى الولاية ليظهر حاله بالامتحان فعنـد ذلك يكرم أو يهان ، وفىعتاب الله تعالى المنفضين إشارة إلىنوع من كيفيات تربيـة المريد إذا صدر منه نوع خلاف ليسلك الصراط السوى ولا يرتـكب الاعتساف ، وفى الآيات بعد إشارات يضيق عنها نطاق العبارات ، « ومن عمل بما علم أورثه الله عز وجل علم مالم يعلم » ٥

﴿ سورة المنافقين — ٦٣ ﴾

مدنية وعدد آياتها إحدى عشرة آية بلا خلاف ، ووجه اتصالها أن سورة الجمعة ذكر فيها المؤمنون ، وهذه ذكر فيها أضدادهم وهم المنافقون ، ولهذا أخرج سعيد بن منصور . والطبرانى فى الأوسط بسندحسن عن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة فيحرض بها المؤمنين . وفى الثانية بسورة المنافقين فيقرع بها المنافقين ، وقال أبو حيان فى ذلك : إنه لما كان سبب الانفضاض عن سماع الخطبة ربما كان حاصلا عن المنافقين واتبعهم ناس كثير من المؤمنين فى ذلك لسرورهم بالعير التى قدمت بالميرة إذ كان الوقت وقت مجاعة جاء ذكر المنافقين وماهم عليه من كراهة أهل الايمان وأتبع بقبائح أفعالهم وأقوالهم ، والأول أولى ٥

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ أى حضروا مجلسك ، والمراد بهم عبد الله بن أبى وأصحابه ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ التأكيد بأن واللام للازم فائدة الخبر وهو علمهم بهـذا الخبر المشهود به فيفيد تأكيد الشهادة ، ويدل على ادعائهم فيها المواطأة وإن كانت فىنفسها تقع على الحق والزور والتأكيد فىقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ لمزيد الاعتناء حقيقة بشأن الخبر ، أوليس إلا ليوافق صنيعهم ، وجىء بالجملة اعتراضاً لاماطة ماعسى أن يتوهم من قوله عز وجل :

﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ١ ﴾ من رجوع التـكذيب إلى نفس الخبر المشهود به من أول الأمر ، وذكر الطيبى أن هذا نوع من التتميم لطيف المسلك ، ونظيره قول أبى الطيب :

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب ترى كل مافيها وحاشاك فانياً

فالتـكذيب راجع إلى (نشهد) باعتبار الخبر الضمنى الذى دل عليه التأكيد وهو دعوى المواطأة فى الشهادة أى والله يشهد إنهم لـكاذبون فيما ضمنوه قولهم : (نشهد) من دعوى المواطأة وتوافق اللسان والقلب فى هذه

Marfat.com

الشهادة ، وقد يقال : الشهادة خبر خاص وهو ماوافق فيه اللسان القلب،وأما شهادة الزور فتجوز كاطلاق البيع على غير الصحيح فهم كاذبون فى قولهم : (نشهد) المتفرع على تسمية قولهمذلك شهادة ، وهومراد من قال : أى لكاذبون فى تسميتهم ذلك شهادة فلا تغفل ٭

وعلى هذا لايحتاج فى تحقق كذبهم إلى ادعائهم المواطأةضمناً لأن اللفظ موضوع للمواطئ ، وجوزأن يكون التكذيب راجعاً إلى قولهم : (إنك لرسول الله) باعتبار لازم فائدة الخبر وهو بمعنىرجوعه إلىالخبر الضمنى ، وأن يكونراجعاً إليه باعتبارماعندهم أى لكاذبون فى قولهم : (إنكلرسول الله) عند أنفسهملأنهم كانوا يعتقدون أنه كذب وخبر على خلاف ماعليه حال المخبر عنه ، قيل : وعلى هذا الكذب هو الشرعى اللاحق به الذم ألاترى أن المجتهدين لاينسبون إلى الكذب وإن نسبوا إلىالخطأ ٭

وجوز العلامة الثانى أن يكونالتكذيب راجعاً إلىحلف المنافقين ، وزعموا أنهم لميقولوا (لاتنفقواعلى من عند رسول حتى ينفضوا من حوله ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنالأعز منها الأذل) لما ذكرفى صحيح البخارى عن زيد بن أرقم أنه قال : كنت فى غزاة مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسمعت عبد الله ابن أبىّ بن سلول يقول : لاتنفقوا علىمن عند رسولالله حتى ينفضوا منحوله ولو رجعنا منعندهليخرجن الأعز منها الأذل فذكرت ذلكلعمى فذكره لنبي الله صلىالله تعالى عليه وسلم فدعانى فحدثته فأرسل رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى عبد الله بن أبى . وأصحابه فحلفوا أنهم ماقالوا : فكذبنى رسول الله ﷺ وصدقه فأصابنى هم لم يصبنى مثله قط فجلست فى البيت فقال لى عمى : ماأردت إلى أن كذبك رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم ومقتكفأنزل الله (إذا جاءك المنافقون) فبعث إلىّ النبىصلى الله تعالى عليه وسلمفقرأ فقال : «إن الله صدقك يازيد» ٭

وجوز بعض الأفاضل أن يكون المعنى إن المنافقين شأنهم الكذب وإنصدقوا فى هذا الخبر ، وأيّاما كان فلا يتم للنظام الاستدلال بالآية علىأن صدق الخبرمطابقته لاعتقاد المخبرولوكان ذلك الاعتقاد خطأ وكذبه عدمها،وإظهار المنافقين فى موقع الإضمار لذمهم والاشعار بعلة الحكم والكلام فى(إذا) على نحو مامر آنفا ٭ ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ أى الكاذبة على مايشيراليه الاضافة ﴿ جُنَّةً ﴾ أى وقاية عما يتوجه اليهم من المؤاخذة بالقتل أو السبي أوغير ذلك قال قتادة : كلماظهر علىشىء منهميوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين عصمة لأموالهم ودمائهم ، وهذا كلام مستقل تعداداً لقبائحهم وأنهم من عادتهم الاستجنان بالأيمان الكاذبة كما استجنوا بالشهادة الكاذبة ، ويجوزأن يراد بأيمانهم شهادتهم السابقة ، والشهادة . وأفعال العلم واليقينأجرتها العرب مجرى القسم ؛ وتلقتها بما يتلقى القسم ، ويؤكد بها الكلام كما يؤكد به ، فلهذا يطلق عليها اليمين ، وبهذا استشهد أبو حنيفة على أن أشهد يمين ، واعترضه ابن المنير بأن غاية مافى الآية أنه سمى يمينا ، والكلام فى وجوب الكفارة بذلك لافى إطلاق الاسم ، وليس كل مايسمى يمينا تجب فيه الكفارة ، فلو قال : أحلف على كذا لاتجب عليه الكفارة وإن كان حلفا ، والجمع باعتبار تعدد القائلين ، والكلام على هذا استئناف يدل على فائدة قولهم ذلك عندهم مع الذم البالغ بما عقبه ، وقيل : إن (اتخذوا) جواب (إذا) وجملة (قالوا) السابقة فى موضع الحال بتقدير قد أوبدونه وهو خلاف الظاهر ، وأبعد منه جعلالجملة حالا وتقدير جواب - لاذا - وقالالضحاك : أى اتخذوا حلفهم بالله إنهم لمنكم جنة عن القتل . أو السبي . أو نحوهما مما يعامل به

Marfat.com

الـكفار . ومن هنا أخذ الشاعر قوله :

وما انتسبوا إلى الاسلام إلا لصون دمائهم أن لا تسالا

وعن السدى انهم اتخذوا ذلك جنة من ترك الصلاة عليهم إذا ماتوا ، وهو كما ترى وكذا ماقبله *

﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى من أراد الدخول فى دين الاسلام ؛ أو من أراد فعل طاعة مطلقاً على أن الفعل متعد ، والمفعول محذوف ، أوأعرضوا عن الاسلام حقيقة على أن الفعل لازم ، وأيآما كان فالمراد على ماقيل : استمرارهم على ذلك ، وحمل بعض الأجلة الأيمان على مايعم ماحكى عنهم من الشهادة ، ثم قال : واتخاذها جنة عبارة عن إعدادهم وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلصوا عن المؤاخـذة لاعن استعمالها بالفعل فان ذلك متأخر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية واتخاذ الجنة لابد أن يكون قبل المؤاخذة، وعن سببها أيضاً كما يفصح عنه الفاء فى (فصدوا) أى من أراد الاسلام أوالانفاق كما سيحكى عنهم ، ولا ريب فى أن هذا الصد متقدم على حلفهم ، وقرىء ـ أى قرأ الحسن ـ (إيمانهم) بكسر الهمزة أى الذى أظهروه على ألسنتهم فاتخاذه جنة عبارة عن استعماله بالفعل فانه وقاية دون دمائهم وأموالهم ، فمعنى قوله تعالى : (فصدوا) فاستمروا على ماكانوا عليه من الصدود والاعراض عن سبيله تعالى انتهى ، وفيه مايعرف بالتأمل فتأمل ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢ ﴾ من النفاق وما يتبعه ، وقد مر الكلام فى (ساء) غير مرة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ماتقـدم من القول الناعى عليهم أنهم أسوأ الناس أعمـالا . أو إلى ماذكر من حالهم فى النفاق والـكذب والاستجنان بالأيمان الفاجرة . أو الإيمان الصورى ، ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه لما مر مراراً من الاشعار فى مثل هذا المقام ببعد منزلته فى الشر ، وجوز ابن عطية كونه إشارة إلى سوء ماعملوا ، فالمعنى ساء عملهم ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أى بسبب أنهم ﴿ آمَنُوا ﴾ أى نطقوا بكلمة الشهادة كسائر من يدخل فى الاسلام ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ ظهر كفرهم وتبين بما اطلع عليه من قولهم : إن كان مايقوله محمد حقاً فنحن حمير ، وقولهم فى غزوة تبوك : أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى . وقيصر هيهات ،وغير ذلك ، و(ثم) على ظاهرها ، أو لاستبعاد مابين الحالين ، أوثم أسروا الـكفر ـ فثم ـ للاستبعاد لاغير ، أو نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ،ثم نطقوا بالـكفر عند شياطينهم استهزاءاً بالاسلام ، وقيل : الآية فى أهل الردة منهم *

﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ حتى يموتوا على الـكفر ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ٤ ﴾ حقيقة الايمان أصلا *

وقرأ زيد بن على (فطبع) بالبناء للفاعل وهو ضميره تعالى ، وجوز أن يكون ضميراً يعود على المصدر المفهوم مما قبل ـ أى فطبع هو ـ أى تلعابهم بالدين ، وفى رواية أنه قرأ فطبع الله مصرحا بالاسم الجليل ، وكذا قرأ الأعمش ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ لصباحتها وتناسب أعضائها ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم وحلاوة كلامهم ، وكان ابن أبىّ جسيما فصيحا يحضر مجلس رسول الله ﷺ فى نفر من أمثاله كالجد بن قيس . ومعتب بن قشير .فـكان عليه الصلاة والسلام ومن معه يعجبون من هيا كلهم ويسمعون لـكلامهم ،والخطاب قيل : لـكل من يصلح له وأيد بقراءة عكرمة . وعطية العوفى ـ يسمع ـ بالياء

Marfat.com

التحتية والبناء للمفعول ، وقيل : لسيد المخاطبين عليه الصلاة والسلام ، وهذا أبلغ على ما فى الكشف لأن أجسامهم إذا أعجبته صلى الله تعالى عليه وسلم فأولى أن تعجب غيره ؛ و كذا السماع لقولهم ، وليوافق قوله تعالى : (إذا جاءك) والسماع مضمن معنى الإصغاء فليست اللام زائدة ، وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾ كلام مستأنف لذمهم لا محل له من الاعراب ؛ وجوز أن يكون فى حيز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هم كأنهم الخ ؛ والكلام مستأنف أيضاً ، وأنت تعلم أن الكلام صالح للاستئناف من غير تقدير فلا حاجه اليه ، وقيل : هو فى حيز النصب على الحال من الضمير المجرور فى (لقولهم) أى تسمع لما يقولون مشبهين بخشب مسندة كما فى قوله :

فقلت : عسى أن تبصرينى كأنما بنى حوالى الأسود الحوادر

وتعقب بأن الحالية تفيد أن السماع لقولهم لأنهم كالخشب المسندة وليس كذلك ، و(خشب) جمع خشبة كثمرة وثمر ، والمراد به ماهو المعروف شبهوا فى جلوسهم مجالس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستندين فيها وماهم إلا أجرام خالية عن الايمان والخير بخشب منصوبة مسندة إلى الحائط فى كونهم أشباحا خالية عن الفائدة لأن الخشب تكون مسندة إذا لم تكن فى بناء أو دعامة بشىء آخر ، وجوز أن يراد بالخشب المسندة الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان شبهوا بها فى حسن صورهم وقلة جدواهم ، وفى مثلهم قال الشاعر :

لايخدعنك اللحى ولا الصور تسعة أعشار من ترى بقر
تراهم كالسحاب منتشراً وليس فيها لطالب مطر
فى شجر السرو منهم شبه له رواء وماله ثمر

وقرأ البراء بن عازب . والنحويان . وابن كثير (خشب) باسكان الشين تخفيف خشب المضموم ، ونظيره بدنة وبدن ، وقيل : جمع خشباء . كحمر . وحمراء ، وهى الخشبة التى نخر جوفها شبهوا بها فى فساد بواطنهم لنفاقهم ، وعن اليزيدى حمل قراءة الجمهور بالضم على ذلك ، وتعقب بأن فعلاء لايجمع على فعل بضمتين ، ومنه يعلم ضعف القيل إذ الأصل توافق القراآت .

وقرأ ابن عباس . وابن المسيب . وابن جبير (خشب) بفتحتين كمدرة ومدر وهو اسم جنس على ما فى البحر ، ووصفه بالمؤنث كما فى قوله تعالى : (أعجاز نخل خاوية) ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أى واقعة عليهم ضارة لهم لجبنهم وهلعهم فكانوا كما قال مقاتل : متى سمعوا بنشدان ضالة أوصياحا بأى وجه كان طارت عقولهم وظنوا ذلك إيقاعا بهم ، وقيل : كانوا على وجل من أن ينزل الله عز وجل فيهم مايهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم ؛ ومنه أخذ جرير قوله يخاطب الأخطل :

مازلت تحسب كل شىء بعدهم خيلا تكر عليهم ورجالا

وكذا المتنبي قوله :

وضاقت الأرض حتى ظن هاربهم إذا رأى غير شىء ظنه رجلا

والوقف على (عليهم) الواقع مفعولا ثانياً - ليحسبون - وهو وقف تام كما فى الكواشى ، وعليه كلام الواحدى ،

Marfat.com

وقوله تعالى : ﴿ هُمُ العَدُوُّ ﴾ استئناف أى هم الكاملون فى العداوة والراسخون فيها فان أعدى الأعادى العدو المداجى الذى يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوى ككثير من أبناء الزمان ﴿ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ لكونهم أعدى الأعادى ولا تغترن بظاهرهم ، وجوز الزمخشرى كون (عليهم) صلة (صيحة) و (هم العدو) والمفعول الثانى ـ ليحسبون ـ كما لوطرح الضمير على معنى أنهم يحسبون الصيحة نفس العدو ، وكان الظاهر عليه هو أو هى العدو لكنه أتى بضمير العقلاء المجموع لمراعاة معنى الخبر أعنى العدو بناءاً على أنه يكون جمعاً ومفرداً وهو هنا جمع ، وفيه أنه تخريج متكلف بعيد جداً لاحاجة اليه وإن كان المعنى عليه لايخلو عن بلاغة ولطف ، ومع ذلك لايساعد عليه ترتب (فاحذرهم) لأن التحذير منهم يقتضى وصفهم بالعداوة لا بالجبن ﴿ قَـٰتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى لعنهم وطردهم فان القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها ، وكذلك الطرد عن رحمة الله تعالى والبعد عن جنابه الأقدس منتهى عذابه عز وجل وغاية نكاله جل وعلا فى الدنيا والآخرة ، والكلام دعاء وطلب من ذاته سبحانه أن يلعنهم ويطردهم من رحمته تعالى ؛ وهو من أسلوب التجريد فلا يكون من إقامة الظاهر مقام الضمير لأنه يفوت به نضارة الكلام ، أو تعليم للمؤمنين أن يدعو عليهم بذلك فهو على معنى قولوا : قاتلهم الله ، وجوز أن لايكونوا من الطلب فى شىء بأن يكون المراد أن وقوع اللعن بهم مقرر لابد منه ، وذكر بعضهم أن قاتله الله كلمة ذم وتوبيخ ، وتستعملها العرب فى موضع التعجب من غير قصد إلى لعن ، والمشهور تعقيبها بالتعجب نحو قاتله الله ماأشعره ، وكذا قوله سبحانه هنا : (قاتلهم الله) ٥

﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ٤ ﴾ وهذا تعجيب من حالهم ، أى كيف يصرفون عن الحق إلى ماهم عليه من الكفر والضلال ؛ فأنى ظرف متضمن للاستفهام معمول لما بعده ، وجوز ابن عطية كونه ظرفا ـ لقاتلهم ـ وليس هناك استفهام ، وتعقبه أبو حيان بأن (أنى) لاتكون لمجرد الظرفية أصلا ، فالقول بذلك باطل ٥

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ أى عطفوها وهو كناية عن التكبر والاعراض على ماقيل ؛ وقيل : هو على حقيقته أى حركوها استهزاءآ ، وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ يعرضون عن القائل أو عن الاستغفار ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ٥ ﴾ عن ذلك ٥

روى أنه لما صدق الله تعالى زيد بن أرقم فيما أخبر به عن ابن أبى مقت الناس ابن أبى ولامه المؤمنون من قومه ، وقال بعضهم له : امض إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واعترف بذنبك يستغفر لك فلوى رأسه إنكاراً لهذا الرأى ، وقال لهم : لقد أشرتم على بالايمان فآمنت ، وأشرتم على بأن أعطى زكاة مالى ففعلت ، ولم يبق لكم إلا أن تأمرونى بالسجود لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفى حديث أخرجه عبد بن حميد . وابن أبى حاتم عن ابن جبير أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال له : « تب » فجعل يلوى رأسه فأنزل الله تعالى (وإذا قيل لهم) الخ ، وفى حديث أخرجه الامام أحمد . والشيخان . والترمذى . والنسائى . وغيرهم عن زيد بعد نقل القصة إلى أن قال : حتى أنزل الله تعالى تصديقى فى (إذا جاءك المنافقون) مانصه فدعاهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليستغفر لهم فلووا رءوسهم ، فجمع الضمائر : إما على ظاهره ، وإما من باب بنو تميم قتلوا فلانا ، وإذا على مامر ، و(يستغفر) مجزوم فى جواب الأمر ، و(رسول الله)

Marfat.com

فاعل له ، والـكلام على مافى البحر من باب الاعمال لأن (رسول الله) يطلبه عاملان : (يستغفر) و (تعالوا) فأعمل الثانى على المختار عند أهل البصرة ولو أعمل الأول لـكان التركيب تعالوا يستغفر لكم إلى رسول الله ، وجملة (يصدون) فى موضع الحال ، وأتت بالمضارع ليدل على الاستمرار التجددى ، ومثلها فى الحالية جملة (هم مستكبرون) ؛ وقرأ مجاهد . ونافع . وأهل المدينة . وأبو حيوة . وابن أبى عبلة . والمفضل . وأبان عن عاصم . والحسن . ويعقوب - بخلاف عنهما - (لووا) بتخفيف الواو ، والتشديد فى قراءة باقى السبعة للتكثير ، ولما نعى سبحانه عليهم إباءهم عن الاتيان ليستغفر لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وإعراضهم واستكبارهم أشار عز وجل إلى عدم فائدة الاستغفار لهم لما علم سبحانه من سوء استعدادهم واختيارهم بقوله تعالى : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ فهو للتسوية بين الأمرين الاستغفار لهم وعدمه ، والمراد الاخبار بعدم الفائدة كما يفصح عنه قوله جل شأنه : ﴿ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُـمْ ﴾ وتعليله بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَـٰسِقِينَ ٦ ﴾ أى الكاملين فى الفسق الخارجين عن دائرة الاستصلاح المنهمكين لسوء استعدادهم بأنواع القبائح . فان المغفرة فرع الهداية ، والمراد بهؤلاء القوم إما المحدث عنهم بأعيانهم . والاظهار فى مقام الاضمار لبيان غلوهم فى الفسق ؛ والاشارة إلى علة الحكم أو الجنس وهم داخلون دخولا أوليا ، والآية فى ابن أبى كسوابقها - كما سمعت - ولواحقها - كما صح - وستسمعه قريباً إن شاء الله تعالى ، والاستغفار لهم قيل : على تقدير مجيئهم تائبين معتذرين من جناياتهم ، وكان ذلك قد اعتبر فى جانب الأمر الذى جزم فى جوابه الفعل وإلا فمجرد الاتيان لا يظهر كونه سبباً للاستغفار ، ويومىء اليه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى خبر ابن جبير لابن أبى : «تب» وترك الاستغفار على تقدير الإصرار على القبائح والاستكبار وترك الاعتذار وحيث لم يكن منهم توبة لم يكن منه عليه الصلاة والسلام استغفار لهم *

وحكى مكى أنه ﷺ استغفر لهم لأنهم أظهروا له الاسلام أى بعد ماصدر منهم ماصدر بالتوبة ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما نزلت آية براءة (استغفر لهم أولا تستغفر) الخ قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : «أسمع ربى قد رخص لى فيهم فوالله لأستغفرن لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم ، فنزلت هذه الآية (سواء عليهم استغفرت لهم) الخ *

وأخرج أيضاً عن عروة نحوه وإذا صح هذا لم يتأت القول بأن براءة بأسرها آخر مانزل ولا ضرورة تدعو لالتزامه إلا إن صح نقل غير قابل للتأويل ، ولعل هذه الآية إشارة منه تعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى أن المراد بالعدد هناك التكثير دون التحديد ليكون حكم الزائد مخالفاً لحكم المذكور فيكون المراد بالآيتين عند الله تعالى واحداً وهو عدم المغفرة لهم مطلقاً ، والآية الأولى - فيما أختار - نزلت فى اللامزين كما سمعت هناك عن ابن عباس وهو الأوفق بالسباق ، وهذه نزلت فى ابن أبى وأصحابه كما نطقت به الأخبار الصحيحة ويجمع الطائفتين النفاق ، ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم ما قال مع اختلاف أعيان الذين نزلتا فيهم ، ثم إنى لم أقف فى شىء مما أعول عليه على أن ابن أبى كان مريضاً إذ ذاك ، ورأيت فى خبر أخرجه عبد بن حميد عن ابن سيرين مايشعر بأنه بعد قوله : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل بأيام قلائل استكى وانتفخ وجهه ، وفيه أنه قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد ذهب اليه بشفاعة ولده : حاجتى إذا

Marfat.com

أنا مت أن تشهد غسلى و تكفننى فى ثلاثة أثواب من أثوابك و تمشى مع جنازتى و تصلى على ففعل صلى الله تعالى عليه وسلم فنزلت هذه الآية (ولا تصلى على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) ولا يشكل الاستغفار إن كان قد وقع لأحد من المنافقين بعد نزول مايفيد كونه تعالى لايهدى القوم الفاسقين إذ لا يتعين اندراج كل منهم إلا بتبين أنه بخصوصه من أصحاب الجحيم كأن يموت على ماهو عليه من الكفر والنفاق ، وهذا الذى ذكرته هنا هو الذى ظهر لى بعد كتابة ما كتبت فى آية براءة ، والمقام بعد محتاج إلى تحقيق فراجع و تأمل والله تعالى ولى التوفيق *

وقرأ أبو جعفر - آستغفرت - بمدة على الهمزة فقيل : هى عوض من همزة الوصل ، وهى مثل المدة فى قوله تعالى : (قل آلذكرين حرم) لكن هذه المدة فى الاسم لئلا يلتبس الاستفهام بالخبر ولا يحتاج ذلك فى الفعل لأن همزة الوصل فيه مكسورة ، وعنه أيضاً ضم ميم (عليهم) إذ أصلها الضم ووصل الهمزة . وروى معاذ بن معاذ العنبرى عن أبى عمرو كسر الميم على أصل التقاء الساكنين ، ووصل الهمزة فتسقط فى القراءتين واللفظ خبر والمعنى على الاستفهام ، وجاء حذف الهمزة ثقة بدلالة (أم) عليها كما فى قوله * بسبع رمين الجمر أم بثمان *

وقال الزمخشرى : قرأ أبو جعفر - آستغفرت - إشباعا لهمزة الاستفهام للاظهار والبيان لاقلباً لهمزة الوصل ألفاً كما فى - آلسحر.وآلله - وقال أبو جعفر بن القعقاع : بمدة على الهمزة وهى ألف التسوية *

وقرأ أيضا بوصل الألف دون همزة على الخبر ، وفى كل ذلك ضعف لأنه فى الأولى أثبت همزة الوصل وقد أغنت عنها همزة الاستفهام ، وفى الثانية حذف همزة الاستفهام وهو يريدها ، وهذا مما لايستعمل إلا فى الشعر وقوله تعالى :

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا ﴾ استئناف مبين لبعض مايدل على فسقهم ، وجوز أن يكون جاريا مجرى التعليل لعدم مغفرته تعالى لهم وليس بشىء لأن ذاك معلل بماقبل، والقائل رأس المنافقين ابن أبى وسائرهم راضون بذلك،أخرج الترمذى وصححه . وجماعة عن زيد بن أرقم قال : غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا ناس من الأعراب فكنا نبتدر الماء وكان الأعراب يسبقونا اليه فيسبق الأعرابى أصحابه فيملأ الحوض ويجعل حوضه حجارة ويجعل النطع عليه حتى يجئ أصحابه فأتى رجل من الأنصار أعرابياً فأرخى ذمام ناقته لتشرب فأبى أن يدعه فانتزع حجراً ففاض فرفع الأعرابى خشبة فضرب رأس الأنصارى فشجه فأتى عبد الله بن أبى رأس المنافقين فأخبره وكان من أصحابه فغضب ، وقال : (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله) يعنى الاعراب ، ثم قال لأصحابه : إذا رجعتم إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل،قال زيد : وأنا ردف عمى فسمعت عبد الله فأخبرت عمى فأخبر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأرسل إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام فحلف وجحد وصدقه صلى الله تعالى عليه وسلم وكذبنى فجاء عمى إلى فقال : ماأردت إلى أن مقتك وكذبك المسلمون فوقع على من الهم مالم يقع على أحد قط فبينا أنا أسير وقد خفضت رأسى من الهم إذا أتانى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فعرك أذنى وضحك فى وجهى ثم إن أبا بكر رضى الله تعالى عنه لحقنى فقال : ماقال لك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ قلت : ماقال لى شيئاً إلا أنه عرك أذنى وضحك فى وجهى فقال : أبشر فلما أصبحنا قرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

Marfat.com

(إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله) حتى بلغ (ليخرجن الأعز منها الأذل) وقد تقدم عن البخارى مايدل على أنه قائل ذلك أيضاً *

وأخرج الإمام أحمد . ومسلم . والنسائى نحو ذلك ، والأخبار فيه أكثر من أن تحصى ؛ وتلك الغزاة التى أشار اليها زيد قال سفيان : يرون أنها غزاة بنى المصطلق ، وفى الكشاف خبر طويل فى القصة يفهم منه أنهم عنوا بمن عند رسول الله فقراء المهاجرين ، والظاهر أن التعبير - برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم - أى بهذا اللفظ وقع منهم ولا يأباه كفرهم لأنهم منافقون مقرون برسالته عليه الصلاة والسلام ظاهراً *

وجوز أن يكونوا قالوه تهكما أو لغلبته عليه صلى الله تعالى عليه وسلم حتى صار كالعلم لم يقصد منه إلا الذات، ويحتمل أنهم عبروا بغير هذه العبارة فغيرها الله عز وجل إجلالا لنبيه عليه الصلاة والسلام وإكراماً، والانفضاض التفرق ، و(حتى) للتعليل أى لا تنفقوا عليهم كى يتفرقوا عنه عليه الصلاة والسلام ولا يصحبوه *

وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشى - ينفضوا - من أنفض القوم فنى طعامهم فنفض الرجل وعاءه ، والفعل مما يتعدى بغير الهمزة وبالهمزة لا يتعدى ، قال فى الكشاف : وحقيقته حان لهم أن ينفضوا مزاودهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ رد وإبطال لما زعموا من أن عدم إنفاقهم على من عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يؤدى إلى انفضاضهم عنه عليه الصلاة والسلام ببيان أن خزائن الأرزاق بيد الله تعالى خاصة يعطى منها من يشاء ويمنع من يشاء ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ٧ ﴾ ذلك لجهلهم بالله تعالى وبشئونه عز وجل ، ولذلك يقولون من مقالات الكفرة مايقولون *

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ قائله كما سمعت ابن أبى، وعنى بالأعز نفسه أو ومن يلوذ به ، وبالأذل من أعزه الله عز وجل وهو الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أو هو عليه الصلاة والسلام والمؤمنون ، وإسناد القول المذكور إلى جميعهم لرضائهم به كما فى سابقه *

وقرأ الحسن . وابن أبى عبلة . والسبتى فى اختياره - لنخرجن - بالنون ، ونصب (الأعز والأذل) على أن (الأعز) مفعول به ، و(الاذل) إما حال بناءاً على جواز تعريف الحال ، أو زيادة أل فيه نحو أرسلها العراك ، وأدخلوا الاول فالاول وهو المشهور فى تخريج ذلك، أو حال بتقدير مثل وهو لا يتعرف بالاضافة أى مثل الاذل، أو مفعول به لحال محذوفة أى مشبها الاذل، أو مفعول مطلق على أن الاصل إخراج الاذل فحذف المصدر المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فانتصب انتصابه *

وحكى الكسائى . والفراء أن قوما قرأوا - ليخرجن - بالياء مفتوحة وضم الراء . ورفع (الاعز) على الفاعلية . ونصب (الأذل) على ما تقدم، بيد أنك تقدر على تقدير النصب على المصدرية خروج ، وقرئ - ليخرجن - بالياء مبنيا للمفعول ، ورفع (الاعز) على النيابة عن الفاعل ، ونصب (الاذل) على مامر *

وقرأ الحسن فيما ذكر أبو عمرو الدانى - لنخرجن - بنون الجماعة مفتوحة وضم الراء ، ونصب (الأعز . والاذل) ، وحكى هذه القراءة أبو حاتم، وخرجت على أن نصب (الأعز) على الاختصاص كما فى قولهم : نحن العرب أقرى الناس للضيف ، ونصب (الأذل) على أحد الأوجه المارة فيما حكاه الكسائى . والفراء ، والمقصود إظهار التضجر من المؤمنين وأنهم لا يمكنهم أن يساكنوهم فى دار كذا قيل : وهو كما ترى ، ولعل هذه القراءة

Marfat.com

غير ثابتة عن الحسن ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ رد لما زعموه ضمنا من عزتهم وذل من نسبوا اليه الذل ، وحاشاه منه أى ولله تعالى الغلبة والقوة ولمن أعزه الله تعالى من رسوله ﷺ والمؤمنين لا للغير ، ويعلم مما أشرنا اليه توجيه الحصر المستفاد من تقديم الخبر ، وقيل : إن العطف معتبر قبل نسبة الاسناد فلا ينافى ذلك ولا يضر إعادة الجار لأنها ليست لافادة الاستقلال فى النسبة بل لافادة تفاوت ثبوت العزة فان ثبوتها لله تعالى ذاتى وللرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بواسطة الرسالة وللمؤمنين بواسطة الايمان ، وجاء من عدة طرق أن عبد الله بن عبد الله بن أبى - وكان مخلصاً - سل سيفه على أبيه عند ما أشرفوا على المدينة فقال : والله على أن لا أغمده حتى تقول : محمد الأعز وأنا الأذل فلم يبرح حتى قال ذلك ، وفى رواية أنه رضى الله تعالى عنه وقف والناس يدخلون حتى جاء أبوه فقال : وراءك ، قال : مالك ويلك ؟ ! قال : والله لا تدخلها أبداً إلا أن يأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولتعلمن اليوم الأعز من الأذل فرجع حتى لقى رسول الله ﷺ فشكا اليه ما صنع ابنه فأرسل اليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن خل عنه يدخل ففعل ؛ وصح من رواية الشيخين . والترمذى . وغيرهم عن جابر بن عبد الله أنه لما بلغ رسول الله ﷺ ما قال ابن أبى قام عمر رضى الله تعالى عنه فقال : يارسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » وفى رواية عن قتادة أنه قال له عليه الصلاة والسلام : يانبى الله مر معاذاً أن يضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك ، وفى الآية من الدلالة على شرف المؤمنين ما فيها ، ومن هنا قالت بعض الصالحات وكانت فى هيئة رثة : ألست على الاسلام وهو العز الذى لا ذل معه والغنى الذى لا فقر معه *

وعن الحسن بن على على رسول الله وعليهما الصلاة والسلام أن رجلا قال له : إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً قال : ليس بتيه ولكنه عزة وتلا هذه الآية ، وأريد بالتيه الكبر ، وأشار العز إلى أن العزة غير الكبر ، وقد نص على ذلك أبو حفص السهروردى قدس سره فقال : العزة غير الكبر لأن العزة معرفة الانسان بحقيقة نفسه وإكرامها أن لا يضعها لأقسام عاجلة كما أن الكبر جهل الانسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها ، فالعزة ضد الذلة كما أن الكبر ضد التواضع ، وفسر الراغب العزة بحالة مانعة للانسان من أن يغلب من قولهم : أرض عزاز أى صلبة وتعزز اللحم اشتد كأنه حصل فى عزاز يصعب الوصول اليه ، وقد تستعار للحمية والأنفة المذمومة وهى بهذا المعنى تثبت للكفرة ، وتفسيرها بالقوة والغلبة كما سمعت شائع ولك أن تريد بها هنا الحالة المانعة من المغلوبية فانها أيضاً ثابتة لله تعالى ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وللمؤمنين على الوجه اللائق بكل *

﴿ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٨ ﴾ من فرط جهلهم وغرورهم فيهذون ما يهذون والفعل هنا منزل منزلة اللازم فلذا لم يقدر له مفعول ولا كذلك الفعل فيما تقدم ، وهو ما اختاره غير واحد من الأجلة ، وقيل فى وجهه : إن كون العزة لله عز وجل مستلزم لكون الارزاق بيده دون العكس فناسب أن يعتبر الأخلاق فى الجملة المذيلة لما يفيد كون العزة له سبحانه قصداً للمبالغة والتقييد للجملة المذيلة لما يفيد كون الارزاق بيده تعالى ، ثم قيل : خص الجملة الاولى بـ(لا يفقهون) والثانية بـ(لا يعلمون) لأن إثبات الفقه للانسان أبلغ من إثبات العلم له فيكون نفى العلم أبلغ من نفى الفقه فأوثر ما هو أبلغ لما هو أدعى له *

وعن الراغب معنى قوله تعالى : (هم الذين يقولون لا تنفقوا) الخ أنهم يأمرون بالاضرار بالمؤمنين وحبس

Marfat.com

النفقات عنهم ولا يفطنون أنهم إذا فعلوا ذلك أضروا بأنفسهم فهم لا يفقهون ذلك ولا يفطنون له ، ومعنى الثانى إيعادهم باخراج الأعز للاذل ، وعندهم أن الأعز من له القوة والغلبة على ما كانوا عليه فى الجاهلية فهم لا يعلمون أن هذه القدرة التى يفضل بها الإنسان غيره إنما هى من الله تعالى فهى له سبحانه ولمن يخصه بها من عباده ، ولا يعلمون أن الذل لمن يقدرون فيه العزة وأن الله تعالى معز أولياءه بطاعتهم له ومذل أعدائه بمخالفتهم أمره عز وجل ، فقد اختص كل آية بما اقتضاه معناها فتدبر ، والإظهار فى مقام الاضمار لزيادة الذم مع الإشارة إلى علة الحكم فى الموضعين *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أى لا يشغلكم الاهتمام بتدبير أمورها والاعتناء بمصالحها والتمتع بها عن الاشتغال بذكر الله عز وجل من الصلاة وسائر العبادات المذكرة للمعبود الحق جل شأنه فذكر الله تعالى مجاز عن مطلق العبادة كما يقتضيه كلام الحسن وجماعة ، والعلاقة السببية لأن العبادة سبب لذكره سبحانه وهو المقصود فى الحقيقة منها *

وفى رواية عن الحسن أن المراد به جميع الفرائض ، وقال الضحاك . وعطاء : الذكر هنا الصلاة المكتوبة ، وقال الكلبى : الجهاد مع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيل : القرآن ، والعموم أولى ، ويفهم كلام الكشاف أن المراد بالأموال والأولاد الدنيا ، وعبر بهما عنها لكونهما أرغب الأشياء منها قال الله تعالى : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) فاذا أريد بذكر الله العموم يؤول المعنى إلى لا تشغلكم الدنيا عن الدين * والمراد بنهى الأموال ومابعدها نهى المخاطبين وإنما وجه اليها للمبالغة لأنها لقوة تسببها للهو وشدة مدخليتها فيه جعلت كأنها الاهية ، وقد نهيت عن اللهو فالاصل لا تلهوا بأموالكم الخ ، فالتجوز فى الاسناد ، وقيل : إنه تجوز بالسبب عن المسبب كقوله تعالى : (فلا يكن فى صدرك حرج) أى لا تكونوا بحيث تلهيكم أموالكم الخ *

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ أى اللهو بها وهو الشغل ، وهذا أبلغ مما لو قيل : ومن تلهه تلك ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٩ ﴾ حيث باعوا العظيم الباقى بالحقير الفانى ، وفى التعريف بالاشارة والحصر للخسران فيهم ، وفى تكرير الاسناد وتوسيط ضمير الفصل مالا يخفى من المبالغة ، وكأنه لما نهى المنافقون عن الانفاق على من عند رسول الله ﷺ وأريد الحث على الانفاق جعل قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا) الخ تمهيداً وتوطئة للامر بالانفاق لكن على وجه العموم فى قوله سبحانه : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ أى بعض ما أعطيناكم وتفضلنا به عليكم من الأموال ادخاراً للآخرة ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أى أماراته ومقدماته ، فالكلام على تقدير مضاف ، ولذا فرع على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ ﴾ أى أمهلتنى ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أى أمد قصير ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ أى فأتصدق ، وبذلك قرأ أبى . وعبد الله . وابن جبير ، ونصب الفعل فى جواب التمنى والجزم فى قوله سبحانه : ﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ ﴾ بالعطف على موضع (فأصدق) كأنه قيل : إن أخرتنى أصدق وأكن ، وإلى هذا ذهب أبو على الفارسى . والزجاج ، وحكى سيبويه عن الخليل أنه على توهم الشرط الذى يدل عليه الثانى لان الشرط غير ظاهر ولا يقدر حتى يعتبر العطف على الموضع كما فى قوله تعالى : (من يضلل الله فلا هادى له) ويذرهم فيمن قرأ بالجزم وهو حسن بيد أن التعبير بالتوهم هنا ينشأ منه توهم قبيح ، والفرق بين العطف

Marfat.com

على الموضع والعطف على التوهم أن العامل فى العطف على الموضع موجود وأثره مفقود ، والعامل فى العطف على التوهم مفقود وأثره موجود ، واستظهر أن الخلاف لفظى فمراد أبى على . والزجاج العطف على الموضع المتوهم أى المقدر إذ لا موضع هنا فى التحقيق لكنهما فرا من قبح التعبير *

وقرأ الحسن . وابن جبير . وأبو رجاء . وابن أبى إسحق . ومالك بن دنيار . والاعمش . وابن محيصن . وعبد الله بن الحسن العنبرى . وأبو عمرو (وأكون) بالنصب وهو ظاهر ، وقرأ عبيد بن عمير (وأكون) بالرفع على الاستئناف ، والنحويون . وأهل المعانى قدروا المبتدا فى أمثال ذلك من أفعال المستأنفة ، فيقال هنا : أى وأنا أكون ولا تراهم يهملون ذلك ، ووجه بأن ذلك لأن الفعل لا يصلح للاستئناف مع الواو الاستئنافية كما هنا ولا بد ونها ، وتعقب بأنه لم يذهب إلى عدم صلاحيته لذلك أحد من النحاة وكأنه لهذا صرح العلامة التفتازانى بأن التزام التقدير مما لم يظهر له وجه ، وقيل : وجهه أن الاستئناف بالاسمية أظهر وهو كما ترى ، وجوز كون الفعل على هذه القراءة مرفوعا بالعطف على ـ أصدق ـ على نحو القولين السابقين فى الجزم ، هذا وعن الضحاك أنه قال فى قوله تعالى : (وأنفقوا مما رزقناكم) يعنى الزكاة والنفقة فى الحج ، وعليه قول ابن عباس فيما أخرج عنه ابن المنذر : (فأصدق) أزكى (وأكن من الصالحين) أحج ، وأخرج الترمذى . وابن جرير . والطبرانى . وغيرهم عنه أيضاً أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو تجب عليه فيه الزكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت » فقال له رجل : يا ابن عباس اتق الله تعالى فانما يسأل الرجعة الكفار فقال : سأتلو عليكم بذلك قرآنا (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) إلى آخر السورة كذا فى الدر المنثور *

وفى أحكام القرآن رواية الترمذى عنه ذلك موقوفا عليه ، وحكى عنه فى البحر . وغيره أنه قال : إن الآية نزلت فى مانع الزكاة ، ووالله لو رأى خيراً لما سأل الرجعة ، فقيل له : أما تتقى الله تعالى يسأل المؤمنون الكرة ؟ ! فأجاب بنحو ماذكر ، ولا يخفى أن الاعتراض عليه وكذا الجواب أوفق بكونه نفسه ادعى سؤال الرجعة ولم يرفع الحديث بذلك ، وإذا كان قوله تعالى : (لولا أخرتنى) الخ سؤالا للرجعة بمعنى الرجوع إلى الدنيا بعد الموت لم يحتج قوله تعالى : (من قبل أن يأتى أحدكم الموت) إلى تقدير مضاف كما سمعت آنفا *

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا ﴾ أى ولن يمهلها ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ أى آخر عمرها أو انتهى الزمان الممتد لها من أول العمر إلى آخره على تفسير الأجل به ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١١ ﴾ فجاز عليه ، وقرأ أبو بكر بالياء آخر الحروف ليوافق ماقبله فى الغيبة ونفساً لكونها نكرة فى سياق النفى فى معنى الجمع ، واستدل الكيا بقوله تعالى : (وأنفقوا) الخ على وجوب إخراج الزكاة على الفور ومنع تأخيرها ، ونسب للزمخشرى أنه قال : ليس فى الزجر عن التفريط فى هذه الحقوق أعظم من ذلك فلا أحد يؤخر ذلك إلا ويجوز أن يأتيه الموت عن قريب فيلزمه التحرز الشديد عن هذا التفريط فى كل وقت ، وقد أبطل الله تعالى قول المجبرة من جهات : منها قوله تعالى : (وانفقوا) ، ومنها أنه إن كان قبل حضور الموت لم يقدر على الانفاق فكيف يتمنى تأخير الأجل ، ومنها قوله تعالى مؤيساً له فى الجواب : (ولن يؤخر الله) ولولا أنه مختار لأجيب باستواء التأخير والموت حين التمنى ، وأجيب بأن أهل الحق لا يقولون بالجبر فالبحث ساقط عنهم على أنه لا دلالة فى الأول كما فى سائر الأوامر كما حقق فى موضعه ، والتمنى ـ وهو متمسك الفريق ـ لا يصح الاستدلال به ، والقول المؤيس إبطال لتمنيهم لا جواب عنه إذ لا استحقاق لوضوح البطلان ، والله تعالى أعلم *

Marfat.com

﴿ سورة التغابن — ٦٤ ﴾

مدنية فى قول الاكثرين ، وعن ابن عباس . وعطاء بن يسار أنها مكية إلا آيات من آخرها (ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم) الخ ، وعدد آيها تسع عشرة آية بلا خلاف ، ومناسبتها لماقبلها أنه سبحانه ذكر هناك حال المنافقين وخاطب بعد المؤمنين ، وذكر جل وعلا هنا تقسيم الناس إلى مؤمن . وكافر ، وأيضاً فى آخر تلك (لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم) وفى هذه (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) وهذه الجملة على ماقيل : كالتعليل لتلك ، وأيضاً فى ذكر التغابن نوع حث على الانفاق قبل الموت المأمور به فيما قبل ، واستنبط بعضهم عمر النبى ﷺ ثلاثا وستين من قوله تعالى فى تلك السورة : (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) فانها رأس ثلاث وستين سورة ، وعقبها سبحانه بالتغابن ليظهر التغابن فى فقده عليه الصلاة والسلام ۞

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى ينزهه سبحانه وتعالى جميع المخلوقات عما لا يليق بجناب كبريائه سبحانه تسبيحاً مستمراً ، وذلك بدلالتها على كماله عز وجل واستغنائه تعالى ، والتجدد باعتبار تجدد النظر فى وجوه الدلالة على ذلك ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ لالغيره تعالى إذ هو جل شأنه المبدئ لكل شئ وهو القائم به والمهيمن عليه وهو عز وجل المولى لأصول النعم وفروعها وأما ملك غيره سبحانه فاسترعاء منه تعالى وتسليط ، وأما حمد غيره تبارك وتعالى فلجريان إنعامه تعالى على يده فكلا الامرين له تعالى فى الحقيقة ولغيره بحسب الصورة ، وتقديم (له الملك) لأنه كالدليل لمابعده ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١ ﴾ لأن نسبة ذاته جل شأنه المقتضية للقدرة إلى الكل سواء فلا يتصور كون بعض مقدوراً دون بعض ، وقوله تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ الخ بيان لبعض قدرته تعالى العامة ، والمراد هو الذى أوجدكم كما شاء وقوله تعالى :

﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ أى فبعضكم كافر به تعالى وبعضكم مؤمن به عز وجل ، أو فبعض منكم كافر به سبحانه وبعض منكم مؤمن به تعالى تفصيل لمافى (خلقكم) من الإجمال لأن كون بعضهم أو بعض منهم كافراً ، وكون بعضهم . أو بعض منهم مؤمناً مرادمنه فالفاء مثلها فى قوله تعالى : (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه) الخ فيكون الكفر والايمان فى ضمن الخلق وهو الذى تؤيده الاخبار الصحيحة كخبر البخارى. ومسلم . والترمذى . وأبى داود عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم - وهو الصادق المصدوق - « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله اليه ملكا بأربع كلمات : يكتب رزقه . وأجله . وعمله . وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح الحديث » وأخرج عبد بن حميد . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . وابن مردويه عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مكث المنى فى الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس فعرج به إلى الرب فيقول : يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضى الله ماهو قاض فيقول : أشقى أم سعيد ؟ فيكتب ماهو لاق » ۞

وقرأ أبو ذر من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله تعالى : (وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير) والجمع بين الخبرين مما لايخفى على من أوتى نصيباً من العلم ، وتقديم الكفر لأنه الأغلب ۞

Marfat.com

واختار بعضهم كون المعنى هو الذى خلقكم خلقاً بديعاً حاويا لجميع مبادى الكمالات العلمية والعملية ، ومع ذلك فمنكم مختار للكفر كاسب له على خلاف ما تستدعيه خلقته ، ومنكم مختار للايمان كاسب له حسبما تقتضيه خلقته ، وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للايمان شاكرين لنعمة الخلق والايجاد وما يتفرع عليهما من سائر النعم ، فما فعلتم ذلك مع تمام تمكنكم منه بل تشعبتم شعباً وتفرقتم فرقاً ، وهو الذى ذهب اليه الزمخشرى ، بيد أنه فسر الكافر بالآتى بالكفر والفاعل له . والمؤمن بالآتى بالايمان والفاعل له لأنه الأوفق بمذهبه من أن العبد خالق لأفعاله ، وأن الآية لبيان إخلالهم بما يقتضيه التفضل عليهم بأصل النعم الذى هو الخلق والإيجاد من النعم، وأن الآيات بعد فى معنى الوعيد على الكفر وإنكار أن يعصى الخالق ولا تشكر نعمته . ثم قال : فما أجهل من يمزج الكفر بالخلق ويجعله من جملته ، والخلق أعظم نعمة من الله تعالى على عباده ، والكفر أعظم كفران من العباد لربهم سبحانه ، وجعل الطيبى الفاء على هذا للترتيب والفرض على سبيل الاستعارة كاللام فى قوله تعالى : (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) وهى كالفاء فى قوله تعالى : (وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) ولم يجعلها للتفصيل كما قيل *

واختار فى الآية المعنى السابق مؤيداً له بالأحاديث الصحيحة، وبأن السياق عليه مدعياً أن الآيات كلها واردة لبيان عظمة الله تعالى فى ملكه وملكوته واستبداده فيهما، وفى شمول علمه تعالى كلها وفى إنشائه تعالى المكونات ذواتها وأعراضها ، ووافقه فى اختيار ذلك تلميذه المدقق صاحب الكشف ، واعترض قول الزمخشرى : فما أجهل الخ بقوله فيه مامر مراراً كأنه يعنى مخالفة النصوص فى عدم كون الكفر مخلوقا كغيره على أن خلق الكفر أيضاً من النعم العظام فلولا خلقه وتبيين مافيه من المضار ماظهر مقدار الانعام بالايمان وما فيه من المنافع ، ثم إن كونه كفراً باعتبار قيامه بالعبد ومنه جاء القبح لا باعتبار كونه خلقه تعالى على ماحقق فى موضعه، ثم قال : ومنه يظهر أن تكلفه فى قوله تعالى : (فمنكم) الخ ليخرجه عن تفصيل المجمل فى (خلقكم) تحريف لكتاب الله تعالى انتهى *

ويرجح التفصيل عندى فى الجملة قوله تعالى : (كافر . ومؤمن) دون من يكفر ومن يؤمن ، نعم عدم دخول الكفر والايمان فى الخلق أوفق بقوله تعالى : (فطرة الله التى فطر الناس عليها) وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة» والانصاف أن الآية تحتمل كلا من المعنيين: المعنى الذى ذكر أولا . والمعنى الذى اختاره البعض ، والسياق يحتمل أن يحمل على ماينا سب كلا وليس نصا فى أحد الأمرين اللذين سمعتهما حتى قيل : إن الآيات واردة لبيان مايتوقف عليه الوعد والوعيد بعد من القدرة التامة والعلم المحيط بالنشأتين ، وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢ ﴾ أى فيجازيكم بما يناسب ذلك لا ينافى خلق الكفر والايمان لأنهما مكسوبان للعبد ، وخلق الله تعالى إياهما لا ينافى كونهما مكسوبين للعبد كما بين فى الكلام على قوله تعالى : (والله خلقكم وماتعملون) لكن أكثر الأحاديث تؤيد المعنى الأول ، وكأنى بك تختار الثانى لأن كون المقام للتوبيخ على الكفر أظهر وهو أوفق به ، وعن عطاء بن أبى رباح (فمنكم كافر) أى بالله تعالى مؤمن بالكوكب (ومنكم مؤمن) بالله تعالى كافر بالكوكب ، وقيل : (فمنكم كافر) بالخلق وهم الدهرية (ومنكم مؤمن) به ، وعن الحسن أن فى الكلام حذفا والتقدير ومنكم فاسق ، ولا أراه يصح ، وكأنه من كذب المعتزلة عليه ، والجملة - على مااستظهر بعض الأفاضل - معطوفة على الصلة ، ولا يضره عدم العائد لأن

Marfat.com

المعطوف بالفاء يكفيه (١) وجود العائد فى إحدى الجملتين كما قرروه فى نحو الذى يطير فيغضب زيد الذباب ، أو يقال : فيها رابط بالتأويل أى فمنكم من قدر كفره ومنكم من قدر إيمانه ، أو (فمنكم كافر) به (ومنكم مؤمن) به ، ويقدر الحذف تدريجاً ، وجوز أن يكون العطف على جملة (هو الذى خلقكم) *

﴿ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ بالحكمة البالغة المتضمنة للمصالح الدينية والدنيوية ، قيل : وأصل الحق مقابل الباطل فأريد به الغرض الصحيح الواقع على أتم الوجوه وهو الحكمة العظيمة *

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ حيث برأكم سبحانه فى أحسن تقويم وأودع فيكم من القوى والمشاعر الظاهرة والباطنة مانيط بها جميع الكمالات البارزة والكامنة وزينكم بصفوة صفات مصنوعاته وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته وجعلكم أنموذج جميع مخلوقاته فى هذه النشأة ، وقد ذكر بعض المحققين أن الانسان جامع بين العالم العلوى والسفلى ، وذلك لروحه التى هى من عالم المجردات وبدنه الذى هو من عالم الماديات وأنشدوا :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ولعمرى أن الانسان أعجب نسخة فى هذا العالم قد اشتملت على دقائق أسرار شهدت ببعضها الآثار وعلم ماعلم منها ذوو الأبصار ، وخص بعضهم الصورة بالشكل المدرك بالعين كما هو المعروف ، وكل مايشاهد من الصور الانسانية حسن لكن الحسن كغيره من المعانى على طبقات ومراتب فلانحطاط بعضها عن مراتب مافوقها انحطاطاً بيناً وإضافتها إلى الموفى عليها لاتستملح وإلا فهى داخلة فى حيز الحسن غير خارجة من حده ، ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها ثم ترى أملح وأعلى فى مراتب الحسن فينبو عن الأولى طرفك وتستثقل النظر اليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها ، وقالت الحكماء: شيآن لاغاية لهما : الجمال . والبيان *

وقرأ زيد بن على . وأبو رزين (صوركم) بكسر الصاد والقياس الضم كما فى قراءة الجمهور *

﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ٣ ﴾ فى النشأة الأخرى لا إلى غيره استقلالا أو اشتراكاً فاصرفوا ماخلق لكم فيما خلق له لئلا يمسخ مايشاهد من حسنكم بالعذاب ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من الأمور الكلية والجزئية والأحوال الجلية والخفية ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أى ماتسرونه فيما بينكم وماتظهرونه من الأمور والتصريح به مع اندراجه فيما قبله للاعتناء بشأنه لأنه الذى يدور عليه الجزاء ، وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٤ ﴾ اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من شمول علمه تعالى لسرهم وعلنهم أى هو عز وجل محيط بجميع المضمرات المستكنة فى صدور الناس بحيث لاتفارقها أصلا فكيف يخفى عليه تعالى مايسرونه وما يعلنونه ، وإظهار الجلالة للاشعار بعلة الحكم وتأكيد استقلال الجملة ، قيل ؛ وتقديم تقرير القدرة على العلم لأن دلالة المخلوقات على قدرته تعالى بالذات وعلى علمه سبحانه لما فيها من الاتقان والاختصاص ببعض الأنحاء *

---

(١) المصرح به أن ذلك فيما إذا كانت الفاء للسببية فلا تغفل اه منه

Marfat.com

وقرأ عبيد عن أبى عمرو . وأبان عن عاصم - مايسرون ومايعلنون - بياء الغيبة ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ أى أيها الكفرة لدلالة مابعد على تخصيص الخطاب بهم ، وظاهر كلام بعض الأجلة أن المراد بهم أهل مكة فكأنه قيل : ألم يأتكم يا أهل مكة ﴿ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ كقوم نوح . وهود . وصالح . وغيرهم من الأمم المصرة على الكفر ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أى ضرر كفرهم فى الدنيا من غير مهلة ، وأصل الوبال الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور ، ومنه الوبيل لطعام يثقل على المعدة ، والوابل للمطر الثقيل القطار ، واستعمل للضرر لأنه يثقل على الانسان ثقلا معنوياً ، وعبر عن كفرهم بالأمر للايذان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة ﴿ وَلَهُمْ ﴾ فى الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥ ﴾ لايقادر قدره ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ماذكر من العذاب الذى ذاقوه فى الدنيا وما سيذوقونه فى الآخرة ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ أى بسبب أن الشأن *

﴿ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ ﴾ بالمعجزات الظاهرة ﴿ فَقَالُوا ﴾ عطف على (كانت) * ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أى قال كل قوم من أولئك الأقوام الذين كفروا فى حق رسولهم الذى أتاهم بالمعجزات منكرين لكون الرسول من جنس البشر ، أو متعجبين من ذلك أبشر يهدينا كما قالت ثمود : (أبشراً منا واحداً نتبعه) ، وقد أجمل فى الحكاية فأسند القول إلى جميع الأقوام ، وأريد بالبشر الجنس ، فوصف بالجمع كما أجمل الخطاب ، والأمر فى قوله تعالى : (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وارتفاع (بشر) على الابتداء ، وجملة (يهدوننا) هو الخبر عند الحوفى . وابن عطية ، والأحسن أن يكون مرفوعاً على الفاعلية بفعل محذوف يفسره المذكور لأن همزة الاستفهام أميل إلى الفعل والمادة من باب الاشتغال ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ بالرسل عليهم السلام ﴿ وَتَوَلَّوا ﴾ عن التأمل فيما أتوا به من البينات ، وعن الإيمان بهم ﴿ وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ أى أظهر سبحانه غناه عن إيمانهم وعن طاعتهم حيث أهلكهم وقطع دابرهم ، ولولا غناه عز وجل عنهما لما فعل ذلك ، والجملة عطف على ماقبلها ، وقيل : فى موضع الحال على أن المعنى (فكفروا وتولوا) وقد استغنى الله تعالى عن كل شىء ، والأول هو الوجه ﴿ وَاللَّهُ غَنِىٌّ ﴾ عن العالمين فضلا عن إيمانهم وطاعتهم ﴿ حَمِيدٌ ٦ ﴾ يحمده كل مخلوق بلسان الحال الذى هو أفصح من لسان المقال ، أو مستحق جل شأنه للحمد بذاته وإن لم يحمده سبحانه حامد ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ﴾ الزعم ادعاء العلم ، وأكثر مايستعمل للادعاء الباطل *

وعن ابن عمر . وابن شريح إنه كنية الكذب ، واشتهر أنه مطية الكذب ، ولما فيه من معنى العلم يتعدى إلى مفعولين ، وقد قام مقامهما هنا (أن) المخففة وما فى حيزها ، والمراد بالموصول على ما فى الكشاف أهل مكة فهو على ماسمعت فى الخطاب من إقامة الظاهر مقام المضمر ، ويؤيده ظاهراً قوله تعالى : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ قال فى الكشف : ويحتمل التعميم فيتناولهم وأضرابهم لتقدم كفار مكة فى الذكر وغيرهم ممن حملوا على الاعتبار بحالهم ، وهذا أبلغ أى زعموا أن الشأن لن يبعثوا بعد موتهم (قل) رداً عليهم وإظهاراً لبطلان زعمهم باثبات مانفوه بلى تبعثون ، وأكد ذلك بالجملة القسمية فهى داخلة

Marfat.com

فى حيز الأمر، وكذا قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أى لتحاسبن وتجزون بأعمالكم ، وزيد ذلك لبيان تحقق أمر آخر متفرع على البعث منوط به ففيه أيضاً تأكيد له ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ أى ماذكر من البعث والجزاء ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ٧ ﴾ لتحقق القدرة التامة وقبول المادة ، والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فَـَٔامِنُوا ﴾ مفصحة بشرط قد حذف ثقة بغاية ظهوره أى إذا كان الأمر كذلك (فآمنوا) ﴿ بِاللَّهِ ﴾ الذى سمعتم ماسمعتم من شئونه عز وجل ﴿ وَرَسُولِهِ ﴾ محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ وَالنُّورِ الَّذِى أَنزَلْنَا ﴾ وهو القرآن ، فانه بإعجازه بين بنفسه مبين لغيره كما أن النور كذلك ، والالتفات إلى نون العظمة لابراز العناية بأمر الانزال ، وفى ذلك من تعظيم شأن القرآن مافيه ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الامتثال بالأمر وتركه ﴿ خَبِيرٌ ٨ ﴾ عالم بباطنه ٭

والمراد كمال علمه تعالى بذلك ، وقيل : عالم بأخباره ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ ظرف (لتنبؤن) وقوله تعالى : (وذلك على الله يسير) وقوله سبحانه : (فآمنوا) إلى (خبير) من الاعتراض ، فالأول يحقق القدرة على البعث ، والثانى يؤكد ماسيق له الكلام من الحث على الإيمان به وبما تضمنه من الكتاب وبمن جاء به ، وبالحقيقة هو نتيجة قوله تعالى : (لتبعثن ثم لتنبؤن) قدم على معموله للاهتمام فجرى مجرى الاعتراض ، وقوله سبحانه : (والله بما تعملون خبير) اعتراض فى اعتراض لأنه من تتمة الحث على الايمان كما تقول : اعمل إنى غير غافل عنك ، وقال الحوفى : ظرف ـ لخبير ـ وهو عند غير واحد من الأجلة بمعنى مجازيكم فيتضمن الوعد والوعيد ٭

وجعله الزمخشرى بمعنى معاقبكم، ثم جوز هذا الوجه، وتعقب بأنه يرد عليه أنه ليس لمجرد الوعيد بل للحث كيف لا والوعيد قد تم بقوله تعالى : (لتنبؤن بما عملتم) فلم يحسن جعله بمعنى معاقبكم فتدبر ، وجوز كونه منصوبا باضمار اذكر مقدراً ، وتعقب بأنه وإن كان حسناً إلا أنه حذف لاقرينة ظاهرة عليه ، وجوز كونه ظرفا لمحذوف بقرينة السياق أى يكون من الأحوال والأهوال مالايحيط به نطاق المقال يوم يجمعكم ، وتعقب بأن فيه ارتكاب حذف لايحتاج اليه ، فالأرجح الوجه الاول ، وقرئ (يجمعكم) بسكون العين ، وقد يسكن الفعل المضارع المرفوع مع ضمير جمع المخاطبين المنصوب ، وروى إشمامها الضم ، وقرأ سلام . ويعقوب . وزيد بن على . والشعبى ـ نجمعكم ـ بالنون ﴿ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ ليوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، وقيل : الملائكة عليهم السلام والثقلان ، وقيل : غير ذلك ، والاول أظهر ، واللام قيل : للتعليل ، وفى الكلام مضاف مقدر أى لأجل مافى يوم الجمع من الحساب ، وقيل : بمعنى فى فلا تقدير ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس . ومجاهد . وقتادة أنهم قالوا : يوم غبن فيه أهل الجنة أهل النار فالتفاعل فيه ليس على ظاهره كما فى التواضع والتحامل لوقوعه من جانب واحد ، واختير للمبالغة ، وإلى هذا ذهب الواحدى ٭

وقال غير واحد: أى يوم غبن فيه بعض الناس بعضاً بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس، ففى الصحيح «مامن عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً، ومامن عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة» وهو مستعار من تغابن القوم فى التجارة، وفيه تهكم بالاشقياء لأنهم لا يغبنون حقيقة السعداء بنزولهم فى منازلهم من النار ، أو جعل ذلك تغابناً مبالغة على طريق المشاكلة فالتفاعل على هذا

Marfat.com

القول على ظاهره وهو حسن إلا أن التغابن فيه تغابن السعداء والأشقياء على التقابل ، والأحسن الاطلاق، وتغابن السعداء على الزيادة ثبت فى الصحاح ، واختار ذلك محيي السنة حيث قال : التغابن تفاعل من الغبن وهو فوت الحظ ، والمراد بالمغبون من غبن فى أهله ومنازله فى الجنة فيظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الايمان وغبن كل مؤمن بتقصيره فى الاحسان ، قال الطيبي : وعلى هذا الراغب حيث قال : الغبن أن يبخس صاحبك فى معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء فان كان ذلك فى مال يقال : غبن فلان بضم الغين وكسر الباء ، وإن كان فى رأى يقال : غبن بفتح الغين وكسر الباء ، و(يوم التغابن) يوم القيامة لظهور الغبن فى المبايعة المشار اليها بقوله تعالى : (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) وقوله سبحانه : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) وقوله عز وجل : (الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) فعلم أنهم قد غبنوا فيما تركوا من المبايعة وفيما تعاطوه من ذلك جميعا انتهى، والجملة مبتدأ وخبر ، والتعريف للجنس، وفيها دلالة على استعظام ذلك اليوم وأن تغابنه هو التغابن فى الحقيقة لا التغابن فى أمور الدنيا وإن جلت وعظمت ٭

﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ أى عملا صالحاً ﴿ يُكَفِّرْ ﴾ أى الله تعالى ﴿ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِ ﴾ فى ذلك اليوم ﴿ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أى مقدرين الخلود فيها ، والجمع باعتبار معنى (من) كما أن الإفراد باعتبار لفظه ، وقرأ الاعرج . وشيبة . وأبو جعفر . وطلحة . ونافع . وابن عامر . والمفضل عن عاصم . وزيد بن على . والحسن بخلاف عنه - نكفر . وندخله - بنون العظمة فيهما ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ماذكر من تكفير السيآت وإدخال الجنات ﴿ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٩ ﴾ الذى لا فوز وراءه لانطوائه على النجاة من أعظم الهلكات والظفر بأجل الطلبات ٭

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١٠ ﴾ أى النار ، وكأن هذه الآية - والتى قبلها لاحتوائهما على منازل السعداء والأشقياء - بيان للتغابن على تفسيره بتغابن الفريقين على التقابل ولما فيه من التفصيل نزل منزلة المغاير فعطف بالواو وكذا على الاطلاق لكنه عليه بيان فى الجملة ٭

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ أى ماأصاب أحداً مصيبة على أن المفعول محذوف، و (من) زائدة، و (مصيبة) فاعل ، وعدم إلحاق التاء فى مثل ذلك فصيح لكن الالحاق أكثر كقوله تعالى : (ماتسبق من أمة أجلها) (وماتأتيهم من آية) والمراد - بالمصيبة - الرزية وما يسوء العبد فى نفس . أو مال . أو ولد . أو قول . أو فعل أى ماأصاب أحداً من رزايا الدنيا أى رزية كانت ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بإرادته سبحانه وتمكينه عز وجل كأن الرزية بذاتها متوجهة إلى العبد متوقفة على إرادته تعالى وتمكينه جل وعلا ، وجوز أن يراد - بالمصيبة - الحادثة من شر أو خير ، وقد نصوا على أنها تستعمل فيما يصيب العبد من الخير وفيما يصيبه من الشر لكن قيل : إنها فى الأول من الصوب أى المطر ، وفى الثانى من إصابة السهم ، والأول هو الظاهر ، وإن كان الحكم بالتوقف على الاذن عاما ٭

﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ عند إصابتها الصبر والاسترجاع على ماقيل ، وعن علقمة للعلم بأنها من عند الله تعالى فيسلم لامر الله تعالى ويرضى بها ، وعن ابن مسعود قريب منه ، وقال ابن عباس : (يهد قلبه) لليقين فيعلم أن ماأصابه لم يكن ليخطئه وماأخطأه لم يكن ليصيبه ، وقيل : (يهد قلبه) أى يلطف به ويشرحه لازدياد

Marfat.com

الخير والطاعة ، وقرأ ابن جبير . وطلحة . وابن هرمز . والازرق عن حمزة - نهد - بنون العظمة *

وقرأ السلمى . والضحاك . وأبو جعفر (يهد) بالياء مبنيا للمفعول (قلبه) بالرفع على النيابة عن الفاعل، وقرئ كذلك لكن بنصب (قلبه) ، وخرج على أن نائب الفاعل ضمير (من) و(قلبه) منصوب بنزع الخافض أى يهدى فى قلبه ، أو يهدإلى قلبه على معنى أن الكافر ضال عن قلبه بعيد منه ، والمؤمن واجد له مهتد اليه كقوله تعالى: (لمن كان له قلب) فالكلام من الحذف والإيصال نحو (اهدنا الصراط المستقيم) ، وفيه جعل القلب بمنزلة المقصد فمن ضل فقد منع منه ومن وصل فقد هدى اليه، وجوز أن يكون نصبه على التمييز بناءآ على أنه يجوز تعريفه *

وقرأ عكرمة . وعمرو بن دينار . ومالك بن دينار - يهدأ - بهمزة ساكنة (قلبه) بالرفع أى يطمئن قلبه ويسكن بالايمان ولا يكون فيه قلق واضطراب ، وقرأ عمرو بن قايد - يهدا - بألف بدلا من الهمزة الساكنة ، وعكرمة . ومالك بن دينار أيضا (يهد) بحذف الألف بعد إبدالها من الهمزة ، وإبدال الهمزة فى مثل ذلك ليس بقياس على ماقال أبو حيان ، وأجاز ذلك بعضهم قياساً ، وبنى عليه جواز حذف تلك الألف للجازم ، وخرج عليه قول زهير بن أبى سلمى :

جرى متى يظلم يعاقب بظلمه سريعاًوأن(لا يبد) بالظلم يظلم

أصله يبدأ فأبدلت الهمزة ألفاً ثم حذفت للجازم تشبيهاً بألف - يخشى - إذا دخل عليه الجازم ، وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء التى من جملتها القلوب وأحوالها ﴿ عَلِيمٌ ١١ ﴾ فيعلم إيمان المؤمن ويهدى قلبه عند إصابة المصيبة ؛ فالجملة متعلقة بقوله تعالى : (ومن يؤمن) الخ ، وجوز أن تكون متعلقة بقوله سبحانه : (ما أصاب) الخ على أنها تذييل له للتقرير والتأكيد ، وذكر الطيبى أن فى كلام الكشاف رمزاً إلى أن فى الآية حذفا أى فمن لم يؤمن لم يلطف به أو لم يهد قلبه ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، وبنى عليه أن المصيبة تشمل الكفر والمعاصى أيضاً لورودها عقيب جزاء المؤمن والكافر وإردافها بالأمر الآتى ، وأى مصيبة أعظم منهما ؟ وهو كما أشار اليه يدفع فى نحر المعتزلة ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ كرر الأمر للتأكيد والإيذان بالفرق بين الاطاعتين فى الكيفية ، وتوضيح مورد التولى فى قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أى عن إطاعة الرسول ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ١٢ ﴾ تعليل للجواب المحذوف أقيم مقامه أى فلا بأس عليه إذ ما عليه إلا التبليغ المبين وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه ، وإظهار الرسول مضافاً إلى نون العظمة فى مقام إضماره لتشريفه عليه الصلاة والسلام ، والاشعار بمدار الحكم الذى هو كون وظيفته صلى الله تعالى عليه وسلم محض البلاغ ولزيادة تشنيع التولى عنه ، والحصر فى الكلام إضافى ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ الكلام فيها كالكلام فى كلمة التوحيد ، وقد مر وحلا ﴿ وَعَلَى اللَّهِ ﴾ أى عليه تعالى خاصة دون غيره لا استقلالا ولا اشتراكاً ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٣ ﴾ وإظهار الجلالة فى موقع الاضمار للاشعار بعلة التوكل . أو الأمر به فان الألوهية مقتضية للتبتل اليه تعالى بالكلية ، وقطع التعلق بالمرة عما سواه من البرية ، وذكر بعض الأجلة أن تخصيص المؤمنين بالأمر بالتوكل لأن الايمان بأن الكل منه تعالى يقتضى التوكل ، ومن هنا قيل : ليس فى الآيات لمن تأمل فى الحث على التوكل أعظم

Marfat.com

من هذه الآية لايمانها إلى أن من لايتوكل على الله تعالى ليس بمؤمن ، وهى على ماقال الطيبى : كالخاتمة والفذلكة لما تقدم ، وكالمخاص إلى مشرع آخر *

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ أى إن بعضهم كذلك فمن الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهن ويخاصمنهم ويجلبن عليهم ، ومن الأولاد أولاداً يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى ، وقد شاهدنا من الأزواج من قتلت زوجها ، ومن أفسدت عقله باطعام بعض المفسدات للعقل ، ومن كسرت قارورة عرضه ، ومن مزقت كيس ماله - ومن ، ومن - وكذا من الأولاد من فعل نحو ذلك ﴿ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ أى كونوا منهم على حذر ولاتأمنوا غوائلهم وشرهم ، والضمير للعدو فانه يطلق على الجمع نحو قوله تعالى : (فانهم عدو لى) فالمأمور به الحذر عن الكل ، أو للأزواج ، والأولاد جميعاً ، فالمأمور به إما الحذر عن البعض لأن منهم من ليس بعدو ، وإما الحذر عن مجموع الفريقين لاشتمالهم على العدو ﴿ وَإِن تَعْفُواْ ﴾ عن ذنوبهم القابلة للعفو بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا ، أو بأمور الدين لكن مقارنة للتوبة بأن لم تعاقبوهم عليها ﴿ وَتَصْفَحُواْ ﴾ تعرضوا بترك التثريب والتعيير ﴿ وَتَغْفِرُواْ ﴾ تستروها باخفائها وتمهيد معذرتهم فيها ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٤ ﴾ قائم مقام الجواب ، والمراد يعاملكم بمثل ماعملتم ، ويتفضل عليكم فانه عز وجل (غفور رحيم) ولما كان التكليف ههنا شاقاً لأن الأذى الصادر ممن أحسنت اليه أشد نكاية وأبعث على الانتقام ناسب التأكيد فى قوله سبحانه : (وإن تعفو) الخ ، وقال غير واحد : إن عداوتهم من حيث أنهم يحولون بينهم وبين الطاعات والأمور النافعة لهم فى آخرتهم ، وقد يحملونهم على السعى فى اكتساب الحرام وارتكاب الآثام لمنفعة أنفسهم كما روى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم «يأتى زمان على أمتى يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده يعيرانه بالفقر فيركب مراكب السوء فيهلك » *

ومن الناس من يحمله حبهم والشفقة عليهم على أن يكونوا فى عيش رغد فى حياته وبعد مماته فيرتكب المحظورات لتحصيل مايكون سببا لذلك وإن لم يطلبوه منه فيهلك ، وسبب النزول أوفق بهذا القول *

أخرج الترمذى . والحاكم وصححاه . وابن جرير . وغيرهم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية (ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم) الخ فى قوم من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم فلما أتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرأوا الناس قد فقهوا فى الدين هموا أن يعاقبوهم فأنزل الله تعالى الآية ؛ وفى رواية أخرى عنه أنه قال : كان الرجل يريد الهجرة فيحبسه امرأته وولده فيقول : أما والله لئن جمع الله تعالى بينى وبينكم فى دار الهجرة لأفعلن ولأفعلن فجمع الله عز وجل بينهم فى دار الهجرة فأنزل الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم) الآية *

وقيل : إنهم قالوا لهم لئن جمعنا الله تعالى فى دار الهجرة لم نصبكم بخير فلما هاجروا منعوهم الخير فنزلت ، وعن عطاء بن أبى رباح أن عوف بن مالك الأشجعى أراد الغزو مع النبى ﷺ فاجتمع أهله وأولاده فثبطوه وشكوا اليه فراقه فرق ولم يغز ، ثم إنه ندم فهم بمعاقبتهم فنزلت ، واستدل بها على أنه لاينبغى للرجل أن يحقد على زوجه وولده إذا جنوا معه جناية وأن لايدعو عليهم ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أى بلاء

Marfat.com

ومحنة لأنهم يترتب عليهم الوقوع فى الاثم والشدائد الدنيوية وغير ذلك ، وفى الحديث «يؤتى برجل يوم القيامة فيقال : أكل عياله حسناته» ، وعن بعض السلف العيال سوس الطاعات *

وأخرج الإمام أحمد . وأبو داود . والترمذى . والنسائى . وابن ماجه . والحاكم وصححه عن بريدة قال : « كان النبى ﷺ يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله عليه الصلاة والسلام من المنبر فحملهما واحداً من ذا الشق وواحداً من ذا الشق ، ثم صعد المنبر فقال : صدق الله (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) إنى لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامى ونزلت إليهما» ، وفى رواية ابن مردويه عن عبد الله بن عمر «أن رسول الله ﷺ بينما هو يخطب الناس على المنبر خرج حسين بن على على رسول الله وعليهما الصلاة والسلام فوطىء فى ثوب كان عليه فسقط فبكى فنزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن المنبر فلما رآه الناس سعوا إلى حسين يتعاطونه يعطيه بعضهم بعضاً حتى وقع فى يد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : قاتل الله الشيطان إن الولد لفتنة ، والذى نفسى بيده مادريت (١) أنى نزلت عن منبرى» *

وقيل : إذا أمكنكم الجهاد والهجرة فلا يفتنكم الميل إلى الأموال والأولاد عنهما قال فى الكشف : الفتنة على هذا الميل إلى الأموال والاولاد دون العقوبة والإثم ، وقدمت الاموال قيل : لانها أعظم فتنة (كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى) ، وأخرج أحمد . والطبرانى . والحاكم . والترمذى وصححه عن كعب بن عياض سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتى المال » *

وأخرج نحوه ابن مردويه عن عبد الله بن أوفى مرفوعا ؛ وكأنه لغلبة الفتنة فى الاموال والاولاد لم تذكر من التبعيضية كما ذكرت فيما تقدم ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٥ ﴾ لمن آثر محبة الله تعالى وطاعته على محبة الأموال والاولاد والسعى فى مصالحهم على وجه يخل بذلك ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ أى ابذلوا فى تقواه عز وجل جهدكم وطاقتكم كما أخرجه عبد بن حميد . وابن المنذر عن الربيع بن أنس ، وحكى عن أبى العالية *

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت (اتقوا الله حق تقاته) اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم فأنزل الله تعالى تخفيفاً على المسلمين (فاتقوا الله ما استطعتم) فنسخت الآية الأولى ، وجاء عن قتادة نحو منه ، وعن مجاهد المراد أن يطاع سبحانه فلا يعصى ، والكثير على أن هذا هو المراد فى الآية التى ذكرناها ﴿ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ مواعظه تعالى ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ﴾ أوامره عز وجل ونواهيه سبحانه ﴿ وَأَنفِقُوا۟ ﴾ مما رزقكم فى الوجوه التى أمركم بالانفاق فيها خالصا لوجهه جل شأنه كما يؤذن به قوله تعالى : ﴿ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾ وذكر ذلك تخصيص بعد تعميم ، ونصب (خيراً) عند سيبويه على أنه مفعول به لفعل محذوف أى وأتوا خيراً لأنفسكم أى افعلوا ماهو خير لها وأنفع ، وهذا تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر

(١) ليت شعرى لو رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حال الحسين على جده وعليه الصلاة والسلام فى واقعة كربلا ماذا كان يصنع فلعنة الله تعالى وملائكته ورسله والناس أجمعين على من أمر بما كان ومن ألجم وأسرج ، أو رضى أو كثر سواداً اه منه *

Marfat.com

وبيان لـكون الأمور خيراً لأنفسهم من الأموال والأولاد ، وفيه شمة من التجريد ، وعند أبى عبيد على أنه خبر ليكن مقدراً جوابا للامر أى يكن خيراً ، وعند الفراء . والـكسائى على أنه نعت لمصدر محذوف أى إنفاقا خيراً ، وقيل : هو نصب ـ بأنفقوا ـ والخير المال ، وفيه بعد من حيث المعنى ، وقال بعض الـكوفيين : هو نصب على الحال وهو بعيد فى المعنى والاعراب ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ وهو البخل مع الحرص * ﴿ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٦ ﴾ الفائزون بكل مرام ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ ﴾ تصرفوا المال إلى المصارف التى عينها عز وجل ، وفى الـكلام استعارة تمثيلية ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ مقرونا بالاخلاص وطيب النفس ﴿ يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ يجعل لـكم جل شأنه بالواحد عشراً إلى سبعمائة وأكثر ، وقرىء ـ يضعفه ـ ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ببركة الانفاق مافرط منكم من بعض الذنوب ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ ﴾ يعطى الجزيل بمقابلة النزر القليل ﴿ حَلِيمٌ ١٧ ﴾ لا يعاجل بالعقوبة مع كثرة الذنوب ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ لا يخفى عليه سبحانه شئ ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٨ ﴾ المبالغ فى القدرة والحـكمة ، وفى الآية من الترغيب بالانفاق مافيها لـكن اختلف فى المراد به فقيل : الانفاق المفروض يعنى الزكاة المفروضة وقد صرح به ، وقيل : الانفاق المندوب ، وقيل : مايعم الـكل ، والله تعالى أعلم *

﴿ سورة الطلاق — ٦٥ ﴾

وتسمى سورة ـ النساء القصرى ـ كذا سماها ابن مسعود كما أخرجه البخارى . وغيره ، وأنـكره الداوودى ، فقال : لا أرى القصرى محفوظا ولا يقال لشئ من سور القرآن : قصرى . ولا صغرى ، وتعقبه ابن حجر بأنه رد للاخبار الثابتة بلا مستند والقصر والطول أمر نسبى ، وقد أخرج البخارى عن زيد بن ثابت أنه قال : طولى الطوليين ، وأراد بذلك سورة الاعراف ـ وهى مدنية بالاتفاق ـ *

واختلف فى عدد آياتها ففى البصرى إحدى عشرة آية ، وفيما عداه اثنتا عشرة آية ، ولما ذكر سبحانه فيما تقدم (إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم) وكانت العداوة قد تفضى إلى الطلاق ذكر جل شأنه هنا الطلاق وأرشد سبحانه إلى الانفصال منهن على الوجه الجميل ، وذكر عز وجل أيضاً مايتعلق بالأولاد فى الجملة ، فقال عز من قائل:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ خص النداء به صلى الله تعالى عليه وسلم وعم الخطاب بالحكم لأن النبى عليه الصلاة والسلام إمام أمته كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يافلان افعلوا كيت وكيت إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه ، وأنه المتكلم عنهم والذى يصدرون عن رأيه ولا يستبدون بأمر دونه فكان هو وحده فى حكمهم كلهم وساداً مسد جميعهم ، وفى ذلك من إظهار جلالة منصبه عليه الصلاة والسلام مافيه ، ولذلك اختير لفظ (النبى) لما فيه من الدلالة على علو مرتبته صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيل : الخطاب كالنداء له صلى الله تعالى عليه وسلم إلا أنه اختير ضمير الجمع للتعظيم نظير مافى قوله :

* ألا فارحمونى يا إله محمد * وقيل : إنه بعد ماخاطبه عليه الصلاة والسلام بالنداء صرف سبحانه الخطاب عنه لأمته تكريماً له صلى الله تعالى عليه وسلم لما فى الطلاق من الكراهة فلم يخاطب به تعظيما ، وجعل بعضهم الكلام على هذا بتقدير القول أى قل لأمتك : (إذا طلقتم) ، وقيل : حذف نداء الأمة ، والتقدير ياأيها النبى

Marfat.com

وأمة النبي إذا طلقتم ، وأيآما كان فالمعنى إذا أردتم تطليقهن على تنزيل المشارف للفعل منزلة الشارع فيه ، واتفقوا على أنه لولاهذا التجوز لم يستقم الكلام لمافيه من تحصيل الحاصل ، أو كون المعنى إذا طلقتم فطلقوهن مرة أخرى وهو غير مراد ، وقال بعض المحققين : لك أن تقول : لاحاجة إلى ذلك بل هو من تعليق الخاص بالعام وهو أبلغ فى الدلالة على اللزوم كما يقال : إن ضربت زيداً فاضربه ضرباً مبرحاً لأن المعنى إن يصدر منك ضرب فليكن ضربا شديداً ، وهو أحسن من تأويله بالارادة فتدبر انتهى ، وأنت تعلم أن المتبادر فيما ذكره كونه على معنى الارادة أيضاً ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لعدَّتهنَّ ﴾ أى لاستقبال عدتهن ، واللام للتوقيت نحو كتبته لأربع ليال يقين من جمادى الأولى ، أو مستقبلات لها على ماقدره الزمخشرى ، وتعقبه أبو حيان بما فيه نظر(١) واعتبار الاستقبال - رأى من يرى أن العدة بالحيض وهى القروء فى آية البقرة - كالامام أبى حنيفة - ليكون الطلاق فى الطهر وهو الطلاق المأمور به ، والمراد بالأمر بايقاعه فى ذلك النهى عن إيقاعه فى الحيض ٥

وقد صرحوا جميعاً بأن ذلك طلاق بدعى حرام، وقيد الطهر بكونه لم يجامعن فيه ، واستدل لذلك، ولاعتبار الاستقبال بما أخرجه الامامان : مالك . والشافعى . والشيخان. وأبو داود . والترمذى. والنسائى . وابن ماجه . وآخرون عن ابن عمر « أنه طلق امرأته وهى حائض فذكر ذلك عمر رضى الله تعالى عنه لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتغيظ فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم قال : ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فان بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها فتلك العدة التى أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء ٥

وقرأ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم - ياأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن فى قبل عدتهن - وكان ابن عمر كما أخرج عنه ابن المنذر . وغيره يقرأ كذلك، وكذلك ابن عباس ، وفى رواية عنهما أنهما قرآ لقبل عدتهن. ومن يرى أن العدة بالاطهار - وهى القروء - فى تلك الآية كالامام الشافعى يعلق لام التوقيت بالفعل ولا يعتبر الاستقبال ، واعترض على التأويل بمستقبلات لعدتهن بأنه إن أريد التلبس بأولها فهو للشافعى ، ومن يرى رأيه لا عليه وعلى المخالف لاله ، وإن أريد المشارفة عادة فخلاف مقتضى اللفظ لأن اللام إذا دخلت الوقت أفادت معنى التأقيت والاختصاص بذلك الوقت لا استقبال الوقت ، وعلى الاستدلال بقراءة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حسبما تضمنه الحديث السابق بان قبل الشىء أوله نقيض دبره فهى مؤكدة لمذهب الشافعى لادافعة له ، ويشهد لكون العدة بالاطهار قراءة ابن مسعود - لقبل طهرهن - ومنهم من قال : التقدير لاطهار عدتهن ، وتعقب بأنه إن جعلت الاضافة بمعنى - من - دل على أن القرء هو الحيض والطهر معاً ، وإن جعلت بمعنى اللام فيكفى ما فى قولك لاطهار الحيض من التنافر رداً مع مافيه من الاضمار من غير دليل ٥

وفى الكشاف المراد - أى من الآية - أن يطلقن فى طهر لم يجامعن فيه ، ثم يخلين حتى تنقضى عدتهن وهو أحسن الطلاق وأدخله فى السنة وأبعد من الندم ، ويدل عليه ماروى عن إبراهيم النخعى أن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كانوا يستحبون أن لا يطلقها للسنة إلا واحدة ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تنقضى العدة ، وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثا فى ثلاثة أطهار ، وقال مالك : لاأعرف طلاق السنة إلا واحدة وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو مفروقة، وأما أبو حنيفة. وأصحابه فانما كرهوا مازاد على الواحدة فى طهر واحد

(١) وهو أنه لايحذف متعلق الظرف إذا كان كونا خاصا ، فالصحيح تقدير المضاف ، وفيه أنه إذا كانت قرينة [illegible] فى وإلا امتنع حذف كل اه منه

Marfat.com

فأما مفروقا فى الاطهار فلا لما روى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال لابن عمر حين طلق امرأته وهى حائض : « ماهكذا أمرك الله إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا وتطلقها لكل قرء تطليقة » وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال لعمر : « مر ابنك فليراجعها ثم ليدعها حتى تحيض ثم تطهر ثم ليطلقها إن شاء » *

وعند الشافعى لا بأس بارسال الثلاث، وقال : لاأعرف فى عدد الطلاق سنة ولابدعة وهو مباح، فمالك يراعى فى طلاق السنة الواحدة . والوقت ، وأبو حنيفة يراعى التفريق . والوقت ، والشافعى يراعى الوقت انتهى *

وفى فتح القدير فى الاحتجاج على عدم كراهة التفريق على الاطهار وكونه من الطلاق السنى رواية غير ماذكر عن ابن عمر أيضاً ، وقد قال فيها ماقال إلا أنه فى الآخرة رجح قبولها ، والمراد بارسال الثلاث دفعة مايعم كونها بألفاظ متعددة كأن يقال : أنت طالق أنت طالق أنت طالق ، أو بلفظ واحد كأن يقال : أنت طالق ثلاثاً ، وفى وقوع هذا ثلاثا خلاف ، وكذا فى وقوع الطلاق مطلقاً فى الحيض ، فعند الامامية لايقع الطلاق بلفظ الثلاث . ولا فى حالة الحيض لأنه بدعة محرمة ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» ، ونقله غير واحد عن ابن المسيب . وجماعة من التابعين ، وقال قوم منهم - فيما قيل - طاوس . وعكرمة : الطلاق الثلاث بفم واحد يقع به واحدة ، وروى هذا أبو داود عن ابن عباس - وهو اختيار ابن تيمية من الحنابلة - وفى الصحيحين أن أبا الصهباء قال لابن عباس : ألم تعلم أن الثلاث كانت تجعل واحدة على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . وأبى بكر . وصدر من خلافة عمر قال : نعم ، وفى رواية لمسلم أن ابن عباس قال : كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . وأبى بكر . وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم فأمضاه عليهم ، ومنهم من قال فى المدخول بها : يقع ثلاث ، وفى الغير واحدة لما فى مسلم . وأبى داود . والنسائى أن أبا الصهباء كان كثير السؤال من ابن عباس قال : أما علمت أن الرجل إذا طلق امرأته ثلاثا قبل أن يدخل بها جعلوها واحـدة ؟ فقال ابن عباس : بلى كان الرجل إذا طلق امرأته ثلاثا قبـل أن يدخل بها جعلوا ذلك واحدة على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . وأبى بكر . وصدر من خلافة عمر الحديث ، والذى ذهب اليـه جمهور الصحابة . والتابعين ، ومن بعدهم من أئمة المسلمين - ومنهم الأئمة الأربعة - وقوع الثلاث بفم واحد . بل ذكر الامام ابن الهمام وقوع الاجماع السكوتى من الصحابة على الوقوع *

ونقل عن أكثر مجتهديهم كعلى كرم الله تعالى وجهه . وابن عباس . وابن مسعود . وأبى هريرة . وعثمان ابن عفان . وعبد الله بن عمرو بن العاص الإفتاء الصريح بذلك ، وذكر أيضاً أن إمضاء عمر الثلاث عليهم مع عدم مخالفة الصحابة له مع علمهم بأنها كانت واحدة لايمكن إلا لأنهم قد اطلعوا فى الزمان المتأخر على وجود ناسخ ، أو لعلمهم بانتهاء الحـكم لعلمهم بإباطته بمعان علموا انتهاءها فى الزمان المتأخر ، واستحسن ابن حجر فى التحفة الجواب بالاطلاع على ناسخ بعد نقله جوابين سواه وتزييفه لهما ، وسيأتى قريباً إن شاء الله تعالى بعض أخبار مرفوعة يستدل بها على وقوع الثلاث ، لـكن قيل : إن الثلاث فيها يحتمل أن تـكون بألفاظ ثلاثة كأنت طالق أنت طالق أنت طالق ، ولعله هو الظاهر لابلفظ واحد كأنت طالق ثلاثا ، وحينئذ لايصلح ذلك للرد على من لم يوقع الثلاث بهذا اللفظ لـكن إذا صح الاجماع ولو سكوتياً على الوقوع لاينبغى إلا الموافقة والسكوت، وتأويل ماروى عن عمر ، ولذا قال بعض الائمة : لو حكم قاض بأن الثلاث بفم واحد لم ينفذ حكمه

Marfat.com

لأنه لايسوغ الاجتهاد فيه لاجماع الأئمة المعتبرين عليه ، وإن اختلفوا فى معصية من يوقعه كذلك ، ومن قال: بمعصيته استدل بما روى النسائى عن محمود بن لبيد قال : « أخبرنا رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاثا جميعاً فقام غضبان فقال : أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ ! حتى قام رجل فقال : يارسول الله ألا أقتله » وبما أخرجه عبد الرزاق عن عبادة بن الصامت أن أباه طلق امرأة له ألف تطليقة فانطلق عبادة فسأله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام : « بانت بثلاث فى معصية الله وبقى تسعمائة وسبعة وتسعون عدوان وظلم إن شاء الله تعالى عذبه وإن شاء غفر له » ويفهم من هذا حرمة إيقاع الزائد أيضاً وهو ظاهر كلام ابن الرفعة ، ومقتضى قول الرويانى ـ واعتمده الزركشى . وغيره ـ أنه يعزر فاعله ، ووجه بأنه تعاطى نحو عقد فاسد وهو حرام ، ونوزع فى ذلك بما فيه نظر ، وبما فى سنن أبى داود عن مجاهد قال : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال : إنه طلق زوجته ثلاثا فقال له : عصيت ربك وبانت منك امرأتك إلى غير ذلك *

ومن قال بعدمها استدل بما رواه الشيخان من أن عويمراً العجلانى لما لاعن امرأته طلقها ثلاثا قبل أن يخبره صلى الله تعالى عليه وسلم بحرمتها عليه ، وقال : إنه لو كان معصية لنهاه عنه لأنه أوقعه معتقداً بقاء الزوجية ، ومع اعتقادها يحرم الجمع عند المخالف ، ومع الحرمة يجب الانكار على العالم وتعليم الجاهل ولم يوجدا ، فدل على أن لاحرمة وبأنه قد فعله جماعة من الصحابة منهم عبد الرحمن بن عوف طلق زوجته تماضر ثلاثا فى موضعه . والحسن بن على رضى الله تعالى عنهما طلق زوجته شهبانوا ثلاثا لما هنته بالخلافة بعد وفاة على كرم الله تعالى وجهه ، وقال بعض الحنفية فى ذلك : إنه محمول على أنهم قالوا : ثلاثا للسنة ، وهو أبعد من قول بعض الشافعية فيما روى من الأدلة الدالة على العصيان فيه أنه محمول على أنه كان فى الحيض فالمعصية فيه من تلك الحيثية *

واستدل على كونه معصية إذا كان فى الحيض بما هو أظهر من ذلك كالروايتين السابقتين فيما نقل عن الكشاف ، وفى الاستدلال بهما على حرمة إرسال الثلاث بحث ، وربما يستدل بالثانية على وجوب الرجعة لكن قد ذكر بعض أجلة الشافعية أنها لاتجب بل تندب فى الطلاق البدعى ، وإنما لم تجب لأن الأمر بالأمر بالشئ ليس أمراً بذلك الشىء ، وليس فى ـ فليراجعها ـ أمر لابن عمر لأنه تفريع على أمر عمر ، فالمعنى فليراجعها لأجل أمرك لكونك والده ، واستفادة الندب منه حينئذ إنما هى من القرينة ، وإذا راجع ارتفع الاثم المتعلق بحق الزوجة لا فى الرجعة قاطعة للضرر من أصله فكانت بمنزلة التوبة ترفع أصل المعصية ، وبه فارق دفن البصاق فى المسجد فانه قاطع لدوام ضرره لا لأصله لأن تلويث المسجد به قد حصل ، ويندفع بما ذكر ماقيل : رفع الرجعة للتحريم كالتوبة يدل على وجوبها إذ كون الشئ بمنزلة الواجب فى خصوصية من خصوصياته لايقتضى وجوبه ، ولا يستدل بما اقتضته الآية من النهى عن إيقاع الطلاق فى الحيض على فساد الطلاق فيه إذا النهى عند أبى حنيفة لايستلزم الفساد مطلقاً ، وعند الشافعى يدل على الفساد فى العبادات وفى المعاملات إذا رجع إلى نفس العقد أو إلى أمر داخل فيه أو لازم له فان رجع إلى أمر مقارن كالبيع وقت النداء فلا ، ومانحن فيه لأمر مقارن وهو زمان الحيض فهو عنده لايستلزم الفساد هنا أيضاً ، وأيد ذلك بأمر ابن عمر بالرجعة إذ لو لم يقع الطلاق لم يؤمر بها قيل : وماكان منه من التطليق فى الحيض سبب نزول هذه الآية والذى رواه ابن مردويه من طريق أبى الزبير عنه وحكى عن السدى *

Marfat.com

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل قال . بلغنا أن قوله تعالى : (ياأيها النبي إذا طلقتم) الآية نزل فى عبدالله ابن عمرو بن العاص . وطفيل بن الحرث . وعمرو بن سعيد بن العاص ، وقال بعضهم : فعله ناس منهم ابن عمرو ابن العاص . وعتبة بن غزوان فنزلت الآية ، وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين أنها نزلت فى حفصة بنت عمر طلقها رسول الله ﷺ واحدة فنزلت إلى قوله تعالى : (يحدث بعد ذلك أمراً) فراجعها عليه الصلاة والسلام، ورواه قتادة عن أنس ، وقال القرطبي نقلا عن علماء الحديث . إن الأصح أنها نزلت ابتداءاً لبيان حكم شرعى، وكل ماذكر من أسباب النزول لها لم يصح ، وحكى أبو حيان نحوه عن الحافظ أبى بكر بن العربى ، وظاهرها أن نفس الطلاق مباح ، واستدل له أيضاً بما رواه ابو داود . وابن ماجه عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: « إن من أبغض المباحات عند الله عز وجل الطلاق » وفى لفظ «أبغض الحلال إلى الله الطلاق » لوصفه بالاباحة والحل لأن أفعل بعض ما يضاف اليه ، والمراد من كونه مبغوضا التنفير عنه أو كونه كذلك من حيث أنه يؤدى إلى قطع الوصلة وحل قيد العصمة لا من حيث حقيقته فى نفسه .

وقال البيهقى : البغض على إيقاعه كل وقت من غير رعاية لوقته المسنون ، وبطلاقه ﷺ حفصة ثم أمره تعالى إياه أن يراجعها فانها صوامة قوامة ، وقال غير واحد : هو محظور لما فيه من كفران نعمة النكاح ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : « لعن الله كل مذواق مطلاق» وإنما أبيح للحاجة ، قال ابن الهمام : وهذا هو الأصح فيكره إذا لم يكن حاجة ، ويحمل لفظ المباح على ماأبيح فى بعض الأوقات أعنى أوقات تحقق الحاجة المبيحة وهو ظاهر فى رواية لأبى داود ـ ماأحل الله تعالى شيئا أبغض اليه من الطلاق ـ فان الفعل لاعموم له فى الأزمان، ومن الحاجة الكبر وعدم اشتهائه جماعها بحيث يعجز أو يتضرر باكراهه نفسه عليه وهى لاترضى بترك ذلك، وماروى عن الحسن ـ وكان قيل له فى كثرة تزوجه وطلاقه من قوله : أحب الغنى ـ قال الله سبحانه : (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) فهو رأى منه إن كان على ظاهره ، وكل مانقل من طلاق الصحابة ـ كطلاق المغيرة ابن شعبة الزوجات الأربع دفعة ـ فقد قال لهن : أنتن حسنات الأخلاق ناعمات الأطواق طويلات الأعناق اذهبن فأنتن طلاق فمحمله وجود الحاجة ، وإن لم يصرح بها ، وقال ابن حجر : هو إما واجب كطلاق مول لم يرد الوطء وحكمين رأياه ، أومندوب كأن يعجز عن القيام بحقوقها ولو لعدم الميل اليها ، أو تكون غير عفيفة مالم يخش الفجور بها ، ومن ثم أمر صلى الله تعالى عليه وسلم من قال : « إن زوجتى لاترد يد لامس » أى لاتمنع من يريد الفجور بها على أحد أقوال فى معناه بامساكها خشية من ذلك ، ويلحق بخشية الفجور بها حصول مشقة له بفراقها تؤدى إلى مبيح تيمم ، وكون مقامها عنده أمنع لفجورها فيما يظهر فيهما ، أو سيئة الخلق أى بحيث لايصبر على عشرتها عادة فيما يظهر ، وإلا فغير سيئة الخلق كالغراب الأعصم أو يأمره به أحد والديه أى من غير تعنت كما هو شأن الحمقى من الآباء والأمهات ، ومع عدم خوف فتنة أو مشقة بطلاقها فيما يظهر ، أو حرام كالبدعى ، أو مكروه بأن سلم الحال عن ذلك كله للخبر الصحيح «ليس شىء من الحلال أبغض إلى الله من الطلاق» ولدلالته على زيادة التنفير عنه قالوا : ليس فيه مباح لكن صوره الامام بما إذا لم يشتهها أى شهوة كاملة ولا تسمح نفسه بمؤنتها من غير تمتع اه .

والآية على مالايخفى على المنصف لاتدل على أكثر من حرمته فى الحيض ، والمراد بالنساء فيها المدخول بهن من المعتدات بالحيض على مافى الكشاف ، وغيره لمكان قوله سبحانه : (فطلقوهن لعدتهن) .

Marfat.com

﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ واضبطوها وأملوها ثلاثة قروء كوامل ، وأصل معنى الاحصاء العد بالحصى كما كان معتاداً قديماً ثم صار حقيقة فيما ذكر ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ فى تطويل العدة عليهن والاضرار بهن ، وفى وصفه تعالى بربوبيته عزوجل لهم تأكيد للامر ومبالغة فى إيجاب الاتقاء ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ من مساكنهن عند الطلاق إلى أن تنقضى عدتهن ، وإضافتها اليهن وهى لأزواجهن لتأكيد النهى ببيان كمال استحقاقهن لسكناها كأنها أملاكهن ، وعدم العطف للايذان باستقلاله بالطلب اعتناءاً به ، والنهى عن الاخراج يتناول عدم إخراجهن غضباً عليهن . أو كراهة لمساكنتهن . أو لحاجة لهم إلى المساكن . أو محض سفه بمنطوقه ، ويتناول عدم الاذن لهن فى الخروج باشارته لأن خروجهن محرم بقوله تعالى : ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أما إذا كانت لا ناهية كالتى قبلها فظاهر ، وأما إذا كانت نافية فلأن المراد به النهى ، وهو أبلغ من النهى الصريح كما لا يخفى ، والاذن فى فعل المحرم محرم فكأنه قيل : لا تخرجوهن ولا تأذنوا لهن فى الخروج إذا طلبن ذلك ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ، فهناك دلالة على أن سكونهن فى البيوت حق للشرع مؤكد فلا يسقط بالاذن ، وهذا على ماذكره الجلبى مذهب الحنفية ، ومذهب الشافعية أنهما لو اتفقا على الانتقال جاز إذ الحق لا يعدوهما ، فالمعنى لا تخرجوهن ولا يخرجن باستبدادهن ؛ وتعقب الشهاب كون ذلك مذهب الحنفية بقوله : فيه نظر ، وقد ذكر الرازى فى الأحكام مايدل على خلافه وأن السكنى كالنفقة تسقط بالاسقاط انتهى ٥

والذى يظهر من كلامهم ماذكره الجلبى ، وقد نص عليه الحصكفى فى الدر المختار ، وعللوه بأن ذلك حق الله تعالى فلا يسقط بالاذن ، وفى الفتح لو اختلعت على أن لا سكنى لها تبطل مؤنة السكنى عن الزوج ويلزمها أن تكترى بيته ، وأما أن يحل لها الخروج فلا ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ أى ظاهرة هى نفس الخروج قبل انقضاء العدة كما أخرجه عبد الرزاق . وعبد بن حميد . وابن المنذر . والبيهقى فى سننه . وابن مردويه . والحاكم وصححه عن ابن عمر ، وروى عن السدى . وابن السائب . والنخعى - وبه أخذ أبو حنيفة - والاستثناء عليه راجع إلى (لا يخرجن) والمعنى لا يطلق لهن فى الخروج إلا فى الخروج الذى هو فاحشة ، ومن المعلوم أنه لا يطلق لهن فيه فيكون ذلك منعاً عن الخروج على أبلغ وجه ، وقال الامام ابن الهمام : هذا كما يقال فى الخطابية : لا تزن إلا أن تكون فاسقاً . ولا تشتم أمك إلا أن تكون قاطع رحم ، ونحو ذلك وهو بديع وبليغ جداً ، والزنا على ماروى عن قتادة . والحسن . والشعبى . وزيد بن أسلم . والضحاك . وعكرمة . وحماد . والليث ، وهو قول ابن مسعود . وقول ابن عباس ؛ وبه أخذ أبو يوسف ، والاستثناء عليه راجع إلى لا تخرجوهن على مايقتضيه ظاهر كلام جمع أى لا تخرجوهن إلا إن زنين فأخرجوهن لاقامة الحد عليهن ، وقال بعض المحققين : هو راجع إلى الكل ومايوجب حداً من زنا . أو سرقة . أو غيرهما - كما أخرجه عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب - واختاره الطبرى ، والبذاء على الأحماء أى أو على الزوج - كما أخرجه جماعة من طرق عن ابن عباس - والاستثناء راجع إلى الأول أى لا تخرجوهن إلا إذا طالت ألسنتهن وتكلمن بالكلام الفاحش القبيح على أزواجهن أو أحمائهن ، وأيد بقراءة أبىّ - إلا أن يفحشن عليكم - بفتح الياء وضم الحاء ، وفى موضح الأهوارى - يفحشن - من أفحش ، قال الجوهرى : أفحش عليه فى النطق أى أتى بالفحش ، وفى حرف ابن مسعود - إلا أن يفحشن - بدون عليكم والنشوز ، والمراد إلا أن

Marfat.com

يطلقن على النشوز على ماروى عن قتادة أيضاً ، والاستثناء عليه قيل : راجع إلى الأول أيضاً ، وفى الكشف هو راجع إلى الكل لأنه إذا سقط حقها فى السكنى حل الاخراج والخروج أيضاً ، وأياما كان فليس فى الآية حصر المبيح لفعل المنهى عنه بالاتيان بالفاحشة ، وقد بينت المبيحات فى كتب الفروع فليراجعها من أراد ذلك *

وقرأ ابن كثير . وأبو بكر (مبينة) بالفتح ﴿ وَتِلْكَ ﴾ إشارة إلى ماذكر من الأحكام أى تلك الأحكام الجليلة الشأن ﴿ حُدُودُ اللهِ ﴾ التى عينها لعباده عز وجل ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ ﴾ أى حدوده تعالى المذكورة بأن أخل بشىء منها على أن الاظهار فى موضع الاضمار لتهويل أمر التعدى والاشعار بعلة الحكم فى قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أى أضر بها كما قال شيخ الاسلام ، ونقل عن بعض تفسير الظلم بتعريضها للعقاب ، وتعقبه بأنه يأباه قوله سبحانه : ﴿ لَاتَدْرِى لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ١ ﴾ فانه استئناف مسوق لتعليل مضمون الشرطية ، وقد قالوا : إن الأمر الذى يحدثه الله تعالى أن يقلب قلبه عما فعله بالتعدى إلى خلافه فلا بد أن يكون الظلم عن ضرر دنيوى يلحقه بسبب تعديه ولا يمكنه تداركه ، أو عن مطلق الضرر الشامل للدنيوى والأخروى ، وخص التعليل بالدنيوى لكون احتراز أكثر الناس منه أشد واهتمامهم بدفعه أقوى *

ورد بأن الضرر الدنيوى غير محقق فلا ينبغى تفسير الظلم ههنا به ، وأن قوله تعالى : (لاتدرى) الخ ليس تعليلا لماذكر بل هو ترغيب للمحافظة على الحدود بعد الترهيب ، وفيه أنه بالترهيب أشبه منه بالترغيب ، ولعل المراد من أضر بها عرضها للضرر ، فالظلم هو ذلك التعريض ولا محذور فى تفسيره به فيما يظهر ، وجملة الترجى فى موضع النصب بزلاتدرى) ، وعد أبو حيان (لعل) من المعلقات ، والخطاب فى (لاتدرى) للمتعدى بطريق الالتفات لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدى لا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كما قيل ، فالمعنى من يتعدى حدود الله تعالى فقد عرض نفسه للضرر فانك لاتدرى أيها المتعدى عاقبة الأمر (لعل الله) تعالى يحدث فى قلبك (بعد ذلك) الذى فعلت من التعدى (أمراً) يقتضى خلاف مافعلته فيكون بدل بغضها محبة وبدل الاعراض عنها إقبالا اليها ، ولا يتسنى تلافيه برجعة أو استئناف نكاح ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ شارفن آخر عدتهن * ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾ فراجعوهن ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بحسن معاشرة وإنفاق مناسب للحال من الجانبين * ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بايفاء الحق واتقاء الضرار مثل أن يراجعها ثم يطلقها تطويلا للعدة * ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ عند الرجعة إن اخترتموها أو الفرقة إن اخترتموها تبريا عن الريبة وقطعاً للنزاع ، وهذا أمر ندب كما فى قوله تعالى : (وأشهدوا إذا تبايعتم) ، وقال الشافعى فى القديم : إنه للوجوب فى الرجعه ، وزعم الطبرسى أن الظاهر أنه أمر بالاشهاد على الطلاق وأنه مروى عن أئمة أهل البيت رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . وأنه للوجوب وشرط فى صحة الطلاق ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَـٰدَةَ ﴾ أى أيها الشهود عند الحاجة ﴿ لِلَّهِ ﴾ خالصا لوجهه تعالى ، وفى الآية دليل على بطلان قول من قال : إنه إذا تعاطف أمران لمأمورين يلزم ذكر النداء أو يقبح تركه نحو اضرب يازيد . وقم ياعمرو ، ومن خص جواز الترك بلا قبح باختلافهما كما فى قوله تعالى : (يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك) فان المأمور بقوله تعالى:

Marfat.com

(أشهدوا) للمطلقين ؛ وبقوله سبحانه : (أقيموا الشهادة) للشهود كما أشرنا اليه ، وقد تعاطف من غير اختلاف فى أفصح الكلام *

﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى لأنه المنتفع بذلك ، والاشارة على ما اختاره صاحب الكشاف إلى الحث على إقامة الشهادة لله تعالى ، والاولى كما فى الكشف أن يكون إشارة إلى جميع مامر من إيقاع الطلاق على وجه السنة . وإحصاء العدة . والكف عن الاخراج والخروج . وإقامة الشهادة للرجعة أو المفارقة ليكون أشد ملاءمة لقوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ فانه اعتراض بين المتعاطفين جئ به لتأكيد ماسبق من الاحكام بالوعد على اتقاء الله تعالى فيها ، فالمعنى ومن يتق الله تعالى فطلق للسنة ، ولم يضار المعتدة ، ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد يجعل له سبحانه مخرجا مما عسى أن يقع فى شأن الأزواج من الغموم والوقوع فى المضايق ؛ ويفرج عنه مايعتريه من الكروب ، ويرزقه من وجه لايخطر بباله ولايحتسبه ، وفى الأخبار عن بعض أجلة الصحابة - كعلى كرم الله تعالى وجهه . وابن عباس فى بعض الروايات عنه - مايؤيد بظاهره هذا الوجه ، وجوز أن يكون اعتراضا جئ به على نهج الاستطراد عند ذكر قوله تعالى : (ذلكم يوعظ به) الخ ، فالمعنى ومن يتق الله تعالى فى كل مايأتى ومايذر يجعل له مخرجا من غموم الدنيا والآخرة وهو أولى لعموم الفائدة ، وتناوله لما نحن فيه تناولا أولياً . ولاقتضاء أخبار فى سبب النزول وغيره له ، فقد أخرج أبو يعلى . وأبو نعيم . والديلمى من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس قال : قرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قوله تعالى : (ومن يتق) الخ فقال : مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة ، وأخرج أحمد . والحاكم وصححه . وابن مردويه . وأبو نعيم - فى المعرفة - والبيهقى عن أبى ذر قال : « جعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتلو هذه الآية (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب) فجعل يرددها حتى نعست ثم قال : ياأباذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم » *

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : « جاء عوف بن مالك الاشجعى فقال : يارسول الله إن ابنى (١) أسره العدو وجزعت أمه فماتأمرنى؟ قال : آمرك وإياها أن تستكثرا من قول لاحول ولا قوة إلا بالله فقالت المرأة : نعم ماأمرك فجعلا يكثران منها فتغفل العدو فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه فنزلت (ومن يتق الله) » الآية ، وفى رواية ابن أبى حاتم عن محمد بن إسحق مولى آل قيس قال : « جاء عوف ابن مالك الأشجعى إلى النبى ﷺ فقال له : أسر ابن عوف فقال له عليه الصلاة والسلام : أرسل اليه أن رسول الله ﷺ يأمرك أن تكثر من قول لاحول ولاقوة إلا بالله وكانوا قد شدوه بالقد فسقط القد عنه فخرج فاذا هو بناقة لهم فركبها فاذا سرح للقوم الذين كانوا شدوه فصاح بها فاتبع آخرها أولها فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادى بالباب فاتى أبوه رسول الله ﷺ فأخبره فنزلت (ومن يتق الله) » الخ *

وفى بعض الروايات أنه أصابه جهد وبلاء فشكا إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : « اتق الله واصبر فرجع ابنه وقد أصاب أعنزاً فذكر ذلك للنبى عليه الصلاة والسلام فنزلت فقال : هى لك » إلى غير ذلك مما هو مضطرب على مالا يخفى على المتتبع ، وعلى القول بالاستطراد قيل : المعنى من يتق الحرام

(١) اسمه سالم اه منه

Marfat.com

يجعل له مخرجاً إلى الحلال ، وقيل : (مخرجا) من الشدة إلى الرخاء ، وقيل : من النار إلى الجنة . وقيل : (مخرجا) من العقوبة (ويرزقه من حيث لا يحتسب) من الثواب ، وقال الكلبي : (من يتق الله) عند المصيبة (يجعل له مخرجاً) إلى الجنة ، والكل كما ترى ، والمعول عليه العموم الذى سمعته ، وفى الكشف إن تنويع الوعد للمتقى وتكرير الحث عليه بعد الدلالة على أن التقوى ملاك الأمر عند الله تعالى ناط به سبحانه سعادة الدارين يدل على أن أمر الطلاق والعدة من الأمور التى تحتاج إلى فضل تقوى لأنه أبغض المباح إلى الله عز وجل لما يتضمن من الايحاش وقطع الألفة الممهدة ، ثم الاحتياط فى أمر النسب الذى هو من جلة المقاصد يؤذن بالتشديد فى أمر العدة فلا بد من التقوى ليقع الطلاق على وجه يحمد عليه ، ويحتاط فى العدة مايجب فهنالك يحصل للزوجين المخرج فى الدنيا والآخرة ، وعليه فالزوجة داخلة فى العموم كالزوج ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أى كافيه عز وجل فى جميع أموره *

وأخرج أحمد فى الزهد عن وهب قال : « يقول الرب تبارك وتعالى : إذا توكل علىّ عبدى لو كادته السموات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج » ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِ ﴾ باضافة الوصف إلى مفعوله والأصل بالغ أمره بالنصب ـ كما قرأ به الأكثرون ـ أى يبلغ مايريده عز وجل ولا يفوته مراد *

وقرأ ابن أبى عبلة فى رواية . وداود بن أبى هند . وعصمة عن أبى عمرو ـ بالغ ـ بالرفع منوناً (أمره) بالرفع على أنه فاعل ـ بالغ ـ الخبر ـ لأن ـ أو مبتدأ ، و(بالغ) خبر مقدم له ، والجملة خبر (إن) أى نافذ أمره عزوجل ، وقرأ المفضل فى رواية أيضاً بالغاً بالنصب (أمره) بالرفع ، وخرج ذلك على أن بالغاً حال من فاعل (جعل) فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْراً ﴾ لامن المبتدا لأنهم لايرتضون مجىء الحال منه ، وجملة (قد جعل) الخ خبر (إن) ، وجوز أن يكون بالغاً هو الخبر على لغة من ينصب الجزأين ـ بإن ـ كما فى قوله :

إذا اسود جنح الليل فلتأت واتكن خطاك خفافا (إن) حراسنا أسدا

وتعقب بأنها لغة ضعيفة ، ومعنى(قدراً) تقديراً ، والمراد تقديره قبل وجوده ، أو مقداراً من الزمان ، وهذا بيان لوجوب التوكل عليه تعالى وتفويض الأمر اليه عز وجل لأنه إذا علم أن كل شىء من الرزق . وغيره لايكون إلا بتقديره تعالى لايبقى إلا التسليم للقدر ، وفيه على ماقيل : تقرير لما تقدم من تأقيت الطلاق والأمر باحصاء العدة ، وتمهيد لما سيأتى إن شاء الله تعالى من مقاديرها *

وقرأ جناح بن حبيش (قدراً) بفتح الدال ﴿ وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ ﴾ أى الحيض ، وقرئ ـ ييأسن ـ مضارعا ﴿ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ لكبرهن ، وقد قدر بعضهم سن اليأس بستين سنة ، وبعضهم بخمس وخمسين ، وقيل : هو غالب سن يأس عشيرة المرأة ، وقيل غالب سن يأس النساء فى مكانها التى هى فيه فان المكان إذا كان طيب الهواء والماء ـ كبعض الصحارى ـ يبطىء فيه سن اليأس ، وقيل : أقصى عادة امرأة فى العالم ، وهذا القول ـ بالغ درجة اليأس ـ من أن يقبل ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ أى إن شككتم وترددتم فى عدتهن ، أو إن جهلتم عدتهن ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ أخرج الحاكم وصححه . والبيهقى فى سننه . وجماعة عن أبى بن كعب

Marfat.com

أن ناساً من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية التى فى البقرة فى عدة النساء قالوا : لقد بقى من عدة النساء عدد لم تذكر فى القرآن الصغار والكبار اللاتى قد انقطع عنهن الحيض وذوات الحمل ، فأنزل الله تعالى فى سورة النساء القصرى (واللائى يئسن) الآية ، وفى رواية أن قوما منهم أبى بن كعب . وخلاد بن النعمان لما سمعوا قوله تعالى : (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) قالوا : يارسول الله فما عدة من لاقرء لها من صغر أو كبر ؟ فنزل (واللائى يئسن) الخ ، فقال قائل : فما عدة الحامل ؟ فنزل (وأولات الأحمال) الخ *

ويعلم مما ذكر أن الشرط هنا لامفهوم له عند القائلين بالمفهوم لأنه بيان للواقعة التى نزل فيها من غير قصد للتقييد ، وتقدير متعلق الارتياب ماسمعت هو ما أشار اليه الطبرى . وغيره ، وقيل : (إن ارتبتم) فى دم البالغات مبلغ اليأس أهو دم حيض أو استحاضة فعدتهن الخ ، وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بذلك ، وقال الزجاج : المعنى (إن ارتبتم) فى حيضهن وقد انقطع عنهن الدم وكن ممن يحيض مثلهن ، وقال مجاهد : الآية واردة فى المستحاضة أطبق بها الدم لاتدرى أهو دم حيض أو دم علة ، وقيل : (إن ارتبتم) أى إن تيقنتم إياسهن ، والارتياب من الأضداد والكل كما ترى *

والموصول قالوا : إنه مبتدأ خبره جملة (فعدتهن) الخ ، (وإن ارتبتم) شرط جوابه محذوف تقديره فاعلموا أنها ثلاثة أشهر ، والشرط وجوابه جملة معترضة ، وجوز كون (فعدتهن) الخ جواب الشرط باعتبار الاعلام والاخبار كما فى قوله تعالى : (ومابكم من نعمة فمن الله) والجملة الشرطية خبر من غير حذف وتقدير ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ مبتدأ خبره محذوف أى واللائى لم يحضن كذلك أو عدتهن ثلاثة أشهر ، والجملة معطوفة على ماقبلها ، وجوز عطف هذا الموصول على الموصول السابق وجعل الخبر لهما من غير تقدير ، والمراد - باللائى لم يحضن - الصغار اللائى لم يبلغن سن الحيض *

واستظهر أبو حيان شموله من لم يحضن لصغر ومن لايكون لهن حيض البتة كبعض النساء يعشن إلى أن يمتن ولايحضن ، ومن أتى عليها زمان الحيض ومابلغت به ولم تحض ، ثم قال : وقيل : هذه تعتد سنة *

﴿ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ ﴾ أى منتهى عدتهن ﴿ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ولو نحو مضغة وعلقة ولافرق فى ذلك بين أن يكن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن كما روى عن عمر . وابنه ، فقد أخرج مالك . والشافعى . وعبد الرزاق . وابن أبى شيبة . وابن المنذر عن ابن عمر أنه سئل عن المرأة يتوفى عنها زوجها وهى حامل فقال : إذا وضعت حملها فقد حلت فأخبره رجل من الانصار أن عمر بن الخطاب قال : لو ولدت وزوجها على سريره لم يدفن لحلت ، وعن ابن مسعود فقد أخرج عنه أبو داود . والنسائى . وابن ماجه أنه قال : من شاء لاعنته أن الآية التى فى سورة النساء القصرى (وأولات الاحمال) الخ نزلت بعد سورة البقرة بكذا و كذا شهراً وكل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها ، وفى رواية ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى بسبع سنين ولعله لايصح ، وعن أبى هريرة . وأبى مسعود البدرى . وعائشة - واليه ذهب فقهاء الامصار - وروى ذلك عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أخرج عبد بن حميد فى زوائد المسند . وأبو يعلى . والضياء فى المختارة . وابن مردويه عن أبى بن كعب قال : قلت للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : (وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن) أهى المطلقة ثلاثا والمتوفى عنها؟ قال : « هى المطلقة ثلاثا والمتوفى عنها » وروى جماعة نحوه

Marfat.com

عنه من وجه آخر ، وصح أن سبيعة بنت الحرث الأسلمية كانت تحت سعد بن خولة فتوفى عنها فى حجة الوداع وهى حامل فوضعت بعد وفاته بثلاثة وعشرين يوما، وفى رواية بخمس وعشرين ليلة ، وفى أخرى بأربعين ليلة فاختضبت وتكحلت وتزينت تريد النكاح فأنكر ذلك عليها فسئل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: « إن تفعل فقد خلا أجلها» وذهب على كرم الله تعالى وجهه. وابن عباس رضى الله تعالى عنهما إلى أن الآية فى المطلقات ، وأما المتوفى عنها زوجها فعدتها آخر الأجلين، وهو مذهب الامامية كما فى مجمع البيان *

وعلى ما تقدم فالآية ناسخة لقوله تعالى : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن) الآية على رأى أصحاب أبى حنيفة ومن وافقهم من الشافعية لأن العام المطلق المتأخر ناسخ عندهم فأولى أن يكون العام من وجه كذلك ، وأما من لم يذهب اليه فمن لم يجوز تأخير بيان العام قال : بالنسخ أيضاً لأن العام الأول حينئذ مراد تناوله لافراده ، وفى مثله لاخلاف فى أن الخاص المتراخى ناسخ بقدره لامخصص ، ومن جوز ذهب إلى التخصيص بناءاً على أن التى فى القصرى أخص مطلقاً ، ووجهه أنه ذكر فى البقرة حكم المطلقات من النساء وحكم المتوفى عنهن الازواج على التفريق ، ثم وردت هذه مخصصة فى البابين لشمول لفظ الأجل العدتين ، وخصوص- أولات الاحمال - مطلقاً بالنسبة إلى الازواج ، وهذا يقول القائل: هندية الموالى لهم كذا وتركيتهم لهم كذا لجنس آخر ، ثم يقول : والكهول منهم لهم دون ذلك أو فوقه أو كذا مريداً صنفا آخر يكون الأخير مخصصاً للحكمين ، ولا نظر إلى اختلاف العطايا لشمول اللفظ الدال على الاختصاص وخصوص الكهول من الموالى مطلقا كذلك فيما نحن فيه لا نظر إلى اختلاف العدتين لشمول لفظ الاجل ، وخصوص - أولات الاحمال- بالنسبة إلى الازواج مطلقاً ، وإن شئت فقل : بالنسبة إلى المطلقات والمتوفى عنهن رجالهن مطلقاً فلا فرق - قاله فى الكشف - ثم قال: ومن ذهب إلى أبعد الأجلين احتج بأن النصين متعاضدان لأن بينهما عموما وخصوصا من وجه ولا وجه للالغاء فيلزم الجمع ، وفى القول بذلك يحصل الجمع لأن مدة الحمل إذا زادت فقد تربصت أربعة أشهر وعشراً مع الزيادة وإن قصرت وتربصت المدة فقد وضعت وتربصت فيحصل العمل بمقتضى الآيتين، والجواب أنه إلغاء للنصين لاجمع إذ المعتبر الجمع بين النصين لا بين المدتين وذلك لفوات الحصر والتوقيت الذى هو مقتضى الآيتين اه فتدبر *

وقرأ الضحاك - أحمالهن - جمعا ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ﴾ فى شأن أحكامه تعالى ومراعاة حقوقها : ﴿ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ٤ ﴾ بأن يسهل عز وجل أمره عليه ، وقيل : اليسر الثواب (ومن) قيل : للبيان قدم على المبين للفاصلة ، وقيل : بمعنى فى ، وقيل : تعليلية ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ماذكر من الأحكام ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد المنزلة فى الفضل ، وإفراد الكاف - مع أن الخطاب للجمع كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ - لما أنها لمجرد الفرق بين الحاضر والمنقضى لا لتعيين خصوصية المخاطبين ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ﴾ بالمحافظة على أحكامه عز وجل ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ فان الحسنات يذهبن السيآت ﴿ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ٥ ﴾ بالمضاعفة ،وقرأ الأعمش - نعظم - بالنون التفاتا من الغيبة إلى التكلم ، وقرأ ابن مقسم - يعظم- بالياء والتشديد مضارع عظم مشدداً ، وقوله تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ

Marfat.com

مماقبله من الحث على التقوى كأنه قيل : كيف نعمل بالتقوى فى شأن المعتدات؟فقيل : (أسكنوهن) الخ ، و(من) للتبعيض أى أسكنوهن بعض مكان سكنا كم ، ولتسكن إذا لم يكن إلا بيت واحد فى بعض نواحيه كماروى عن قتادة ، وقال الحوفى . وأبو البقاء : هى لابتداء الغاية ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ وُجْدِكُمْ ﴾ أى من وسعكم أى مماتطيقونه عطف بيان لقوله تعالى : (من حيث سكنتم) على ماقاله الزمخشرى ، ورده أبو حيان بأنه لا يعرف عطف بيان يعاد فيه العامل إنما هذا طريقة البدل مع حرف الجر ولذلك أعربه أبو البقاء بدلا ، وتعقب بأن المراد أن الجار والمجرور عطف بيان للجار والمجرور لا المجرور فقط حتى يقال ذلك مع أنه لا يبرد له بسلامة الأمير وأنه لافرق بين عطف البيان والبدل إلا فى أمر يسير ، ولايخفى قوة كلام أبى حيان ، وقرأ الحسن . والأعرج . وابن أبى عبلة . وأبو حيوة (من وجدكم) بفتح الواو ، وقرأ الفياض بن غزوان . وعمرو بن ميمون. ويعقوب بكسرها ـ وذكرها المهدوى عن الاعرج ـ والمعنى فى الكل الوسع ﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ ﴾ ولا تستعملوا معهن الضرار فى السكنى ﴿ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ﴾ فتلجئوهن إلى الخروج بشغل المكان أو باسكان من لا يردن السكنى معه ونحو ذلك ﴿ وَإِن كُنَّ ﴾ أى المطلقات ﴿ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ فيخرجن عن العدة ،وأما المتوفى عنهن أزواجهن فلانفقة لهن عند أكثر العلماء ، وعن على كرم الله تعالى وجهه. وابن مسعود تجب نفقتهن فى التركة ، ولاخلاف فى وجوب سكنى المطلقات أولات الحمل ونفقتهن بت الطلاق أو لم يبت *

واختلف فى المطلقات اللاتى لسن أولات حمل بعد الاتفاق على وجوب السكنى لهن إذا لم يكن مبتوتات، فقال ابن المسيب . وسليمان بن يسار . وعطاء . والشعبي . والحسن . ومالك . والأوزاعى . وابن أبى ليلى . والشافعى . وأبو عبيد . للمطلقة الحائل المبتوتة السكنى ولانفقة لها ، وقال الحسن . وحماد . وأحمد . وإسحق . وأبو ثور . والامامية : لاسكنى لها ولا نفقة لحديث فاطمة بنت قيس قالت : طلقنى زوجى أبو عمرو بن حفص ابن المغيرة المخزومى البتة فخاصمته إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى السكنى والنفقة فلم يجعل لى سكنى ولانفقة وأمرنى أن أعتد فى بيت ابن أم مكتوم ثم أنكحنى أسامة بن زيد ، وقال أبو حنيفة . والثورى : لها السكنى والنفقة فهما عنده لكل مطلقة لم تكن ذات حمل ، ودليله أن عمر رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول فى المبتوتة : «لها النفقة والسكنى» مع أن ذلك جزاء الاحتباس وهو مشترك بين الحائل والحامل ، ولو كان جزاءاً للحمل لوجب فى ماله إذا كان له مال ولم يقولوا به *

ويؤيد ذلك قراءة ابن مسعود ـ أسكنوهن من حيث سكنتم وأنفقوا عليهن من وجدكم ـ ومن خص الانفاق بالمعتدات أولات الحمل استدل بهذه الآية لمكان الشرط فيها وهو لا يتم على النافين لمفهوم المخالفة مع أن فائدة الشرط ههنا أن الحامل قد يتوهم أنها لانفقة لها لطول مدة الحمل فأثبت لها النفقة ليعلم غيرها بالطريق الأولى ـ كما فى الكشاف ـ فهو من مفهوم الموافقة ، وحديث فاطمة بنت قيس قد طعن فيه عمر . وعائشة . وسليمان ابن يسار . والأسود بن يزيد . وأبو سلمة بن عبد الرحمن. وغيرهم ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ أى بعد أن يضعن حملهن ﴿ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ على الارضاع ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ خطاب للآباء والأمهات ، والافتعال بمعنى التفاعل ، يقال : ائتمر القوم . وتآمروا بمعنى ، قال الكسائى : والمعنى تشاوروا ، وحقيقته

Marfat.com

ليأمر بعضكم بعضاً بمعروف أى جميل فى الاجرة والارضاع ولايكن من الأب مماكسة ولامن الأم معاسرة، وقيل : المعروف الكسوة والدثار ﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ ﴾ أى تضايقتم أى ضيق بعضكم على الآخر بالمشاحة فى الأجرة أو طلب الزيادة أو نحو ذلك ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ٦ ﴾ أى فستوجد ولاتعوز مرضعة أخرى ، وفيه على ماقيل : معاتبة للام لأنه كقولك لمن تستقضيه حاجة فتتعذر منه : سيقضيها غيرك أى ستقضى وأنت ملوم *

وخص الأم بالمعاتبة على ما قال ابن المنير لأن المبذول من جهتها هو لبنها لولدها وهو غير متمول ولا مضمون به فى العرف وخصوصا من الأم على الولد ، ولا كذلك المبذول من جهة الأب فانه المال المضمون به عادة ، فالأم إذن أجدر باللوم وأحق بالعتب ، والكلام على معنى فليطلب له الأب مرضعة أخرى فيظهر الارتباط بين الشرط والجزاء ، وقال بعض الأجلة : إن الكلام لايخلو عن معاتبة الأب أيضاً حيث أسقط فى الجواب عن حيز شرف الخطاب مع الإشارة إلى أنه إذا ضايق الأم فى الأجر فامتنعت من الارضاع لذلك فلا بد من إرضاع امرأة أخرى ، وهى أيضاً تطلب الأجر فى الأغلب والأم أشفق فهى به أولى ، وبذلك يظهر كمال الارتباط . والأول أظهر فتدبر ، وقيل : (فسترضع) خبر بمعنى الأمر أى فلترضع ، وليس بذاك ، وهذا الحكم إذا قبل الرضيع ثدى أخرى أما إذا لم يقبل إلا ثدى أمه فقد قالوا : تجبر على الارضاع بأجرة مثلها ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ ﴾ أى ضيق ﴿ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ ﴾ وإن قل ، والمراد لينفق كل واحد من الموسر والمعسر مايبلغه وسعه ، والظاهر أن المأمور بالانفاق الآباء ، ومن هنا قال ابن العربى : هذه الآية أصل فى وجوب النفقة على الأب ، وخالف فى ذلك محمد بن المواز فقال : بوجوبها على الأبوين على قدر الميراث ، وحكى أبو معاذ أنه قرىء (لينفق) بلام كى ونصب القاف على أن التقدير شرعنا ذلك لينفق *

وقرأ ابن أبى عبلة (قدر) مشدد الدال ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ءَاتَاهَا ﴾ أى إلا بقدر ماأعطاها من الطاقة ، وقيل : ما أعطاها من الأرزاق قل أو جل ، وفيه تطييب واستمالة لقلب المعسر لمكان عبارة (آتاها) الخاصة بالاعسار قبل وذكر العسر بعد ، واستدل بالآية من قال لافسخ بالعجز عن الانفاق على الزوجة ، وهو ماذهب اليه عمر بن عبد العزيز . وأبو حنيفة . وجماعة . وعن أبى هريرة . والحسن . وابن المسيب . ومالك . والشافعى . وأحمد . وإسحق يفسخ النكاح بالعجز عن الانفاق ويفرق بين الزوجين ، وفيها على ماقال السيوطى : استحباب مراعاة الانسان حال نفسه فى النفقة والصدقة ، ففى الحديث « إن المؤمن أخذ عن الله تعالى أدباً حسناً إذا هو سبحانه وسع عليه وسع وإذا هو عز وجل قتر عليه قتر » ، وقوله تعالى : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ٧ ﴾ موعد لفقراء ذلك الوقت بفتح أبواب الرزق عليهم ، أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ماقدروا عليه ولم يقصروا ، وهو على الوجهين تذييل إلا أنه على الأول مستقل ، وعلى الثانى غير مستقل ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ أى كثير من أهل قرية *

وقرأ ابن كثير - وكائن - بالمد والهمزة ، وتفصيل الكلام فيها قد مر ﴿ عَتَتْ ﴾ تجبرت وتكبرت معرضة ﴿ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ﴾ فلم تمتثل ذلك ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا ﴾ بالاستقصاء والتنقير والمناقشة

Marfat.com

فى كل نقير من الذنوب وقطمير ﴿ وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ٨ ﴾ أى منكراً عظيما ، والمراد حساب الآخرة وعذابها ، والتعبير عنهما بلفظ الماضى للدلالة على تحققهما كما فى قوله تعالى : (ونفخ فى الصور) ٥

وقرأ غير واحد (نكراً) بضمتين ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ عقوبة عتوها ﴿ وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ٩ ﴾ هائلا لاخسر وراءه ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ تكرير للوعيد وبيان لما يوجب التقوى المأمور بها بقوله تعالى : ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ كأنه قيل : أعد الله تعالى لهم هذا العذاب فليكن لكم ذلك ياأولى الألباب داعياً لتقوى الله تعالى وحذر عقابه ، وقال الكلبي : الكلام على التقديم والتأخير ، والمراد (فعذبناها عذاباً نكراً) فى الدنيا بالجوع والقحط والسيف وسائر المصائب والبلايا (وحاسبناها حساباً شديداً) فى الآخرة ٥

والظاهر أن قوله تعالى : (أعد) الخ عليه تكرير للوعيد أيضاً ، وجوز أن يراد بالحساب الشديد استقصاء ذنوبهم وإثباتها فى صحائف الحفظة ، وبالعذاب النكر ماأصابهم عاجلا ، وتجعل جملة (عتت) الخ صفة لقرية ، والماضى فى (فحاسبناها . وعذبناها) على الحقيقة ، وخبر (كأين) جملة (أعد الله) الخ ، أو تجعل جملة (عتت) الخ هى الخبر ، وجملة (أعد الله) الخ استئناف لبيان أن عذابهم غير منحصر فيما ذكر بل لهم بعده عذاب شديد ، وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ منصوب باضمار أعنى بيانا للمنادى السابق أو نعت له أو عطف بيان ، وفى إبداله منه ضعف لعدم صحة حلوله محله ﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ١٠ ﴾ هو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عبر به عنه لمواظبته عليه الصلاة والسلام على تلاوة القرآن الذى هو ذكر ، أو تبليغه والتذكير به ، وقوله تعالى : ﴿ رَسُولًا ﴾ بدلا منه ، وعبر عن إرساله بالانزال ترشيحاً للمجاز ، أو لأن الارسال مسبب عنه فيكون (أنزل) مجازاً مرسلا ، وقال أبو حيان : الظاهر أن الذكر هو القرآن ، والرسول هو محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فإما أن يجعل نفس الذكر مجازاً . أو يكون بدلا على حذف مضاف أى ذكر رسول ، وقيل : هو نعت على حذف ذلك أى ذا رسول ، وقيل : المضاف محذوف من الأول أى ذا ذكر (رسولا) فيكون (رسولا) نعتا لذلك المحذوف أو بدلا ، وقيل : (رسولا) منصوب بمقدر مثل أرسل رسولا دل عليه أنزل . ونحا إلى هذا السدى ، واختاره ابن عطية ، وقال الزجاج . وأبو على : يجوز أن يكون معمولا للمصدر الذى هو ذكر كما فى قوله تعالى : (أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما) ، وقول الشاعر :

بضرب بالسيوف رءوس قوم أزلنا هامهن عن المقيل

أى (أنزل الله) تعالى ذكره (رسولا) على معنى أنزل الله عز وجل مايدل على كرامته عنده وزلفاه ، ويراد به على ماقيل : القرآن وفيه تعسف ، ومثله جعل (رسولا) بدلا منه على أنه بمعنى الرسالة ، وقال الكلبي : الرسول ههنا جبريل عليه السلام ، وجعل بدلا أيضا من (ذكراً) وإطلاق الذكر عليه لكثرة ذكره فهو من الوصف بالمصدر مبالغة ـ كرجل عدل ـ أو لنزوله بالذكر وهو القرآن ، فبينهما ملابسة نحو الحلول ، أو لأنه عليه السلام مذكور فى السموات وفى الأمم ، فالمصدر بمعنى المفعول كما فى درهم ضرب الأمير ، وقد يفسر الذكر حينئذ بالشرف كما فى قوله تعالى : (وإنه لذكر لك ولقومك) فيكون كأنه فى نفسه شرف إما لأنه شرف للمنزل عليه ، وإما لأنه ذو مجد وشرف عند الله عز وجل كقوله تعالى : (عند ذى العرش مكين)

Marfat.com

وفى الكشف إذا أريد بالذكر القرآن وبالرسول جبريل عليه السلام يكون البدل بدل اشتمال ، وإذا أريد بالذكر الشرف وغيره يكون من بدل الكل فتدبر *

وقرئ رسول على إضمار هو ، وقوله تعالى : ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ اللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ ﴾ نعت ـ لرسولا ـ وهو الظاهر ، وقيل : حال من اسم (الله) تعالى ، ونسبة التلاوة اليه سبحانه مجازية كبنى الامير المدينة ، و(آيات الله) القرآن ، وفيه إقامة الظاهر مقام المضمر على أحد الأوجه ، و(مبينات) حال منها أى حال كونها مبينات لكم ماتحتاجون اليه من الاحكام ، وقرئ (مبينات) أى بينها الله تعالى كقوله سبحانه : (قد بينا لكم الآيات) واللام فى قوله تعالى : ﴿ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ ﴾ متعلق ـ بأنزل ـ أو ـ يبتلو ـ وفاعل يخرج على الثانى ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام أو ضميره عزوجل ، والمراد بالموصول المؤمنون بعد إنزال الذكر وقبل نزول هذه الآية ؛ أو من علم سبحانه وقدر أنه سيؤمن أى ليحصل لهم الرسول أو الله عز وجل ما هم عليه الآن من الايمان والعمل الصالح ، أو ليخرج من علم وقدر أنه يؤمن من أنواع الضلالات إلى الهدى ، فالمضى إما بالنظر لنزول هذه الآية أو باعتبار علمه تعالى وتقديره سبحانه الأزلى *

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا ﴾ خسبما بين فى تضاعيف ماأنزل من الآيات المبينات *

﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ ﴾ وقرأ نافع . وابن عامر ـ ندخله ـ بنون العظمة وقوله تعالى: ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ حال من مفعول (يدخله) والجمع باعتبار معنى من كما أن الافراد فى الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾ حال أخرى منه أو من الضمير فى (خالدين) بطريق التداخل ، وإفراد ضمير (له) باعتبار اللفظ أيضاً ، وفيه معنى التعجيب والتعظيم لما رزقه الله تعالى المؤمنين من الثواب وإلا لم يكن فى الاخبار بما ذكر ههنا كثير فائدة كما لايخفى *

واستدل أكثر النحويين بهذه الآية على جواز مراعاة اللفظ أولا . ثم مراعات المعنى . ثم مراعات اللفظ ، وزعم بعضهم أن مافيها ليس كما ذكر لأن الضمير فى (خالدين) ليس عائداً على من كالضمائر قبل ، وإنما هو عائد على مفعول ـ يدخل ـ و (خالدين) حال منه ، والعامل فيها ـ يدخل ـ لافعل الشرط وهو كما ترى ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ أى وخلق من الأرض مثلهن على أن (مثلهن) مفعول لفعل محذوف . والجملة عطف على الجملة قبلها ، وقيل : (مثلهن) عطف على سبع سموات ، وإليه ذهب الزمخشرى ، وفيه الفصل بالجار والمجرور بين حرف العطف والمعطوف وهو مختص بالضرورة عند أبى على الفارسى ، وقرأ المفضل عن عاصم . وعصمة عن أبى بكر (مثلهن) بالرفع على الابتداء (ومن الأرض) الخبر *

والمثلية تصدق بالاشتراك فى بعض الأوصاف فقال الجمهور : هى ههنا فى كونها سبعاً وكونها طباقاً بعضها فوق بعض بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض وفى كل أرض سكان من خلق الله عز وجل لا يعلم حقيقتهم إلا الله تعالى ، وعن ابن عباس أنهم إما ملائكة . أو جن ، وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم . والحاكم وصححه . والبيهقى ـ فى شعب الايمان . وفى الأسماء والصفات ـ من طريق أبى الضحى

Marfat.com

عنه أنه قال فى الآية : سبع أرضين فى كل أرض نبى كنبيكم وآدم كآدم ونوح كنوح وإبراهيم كابراهيم وعيسى كعيسى ، قال الذهبي : إسناده صحيح ولكنه شاذ بمرة لاأعلم لأبى الضحى عليه متابعاً . وذكر أبو حيان فى البحر نحوه عن الحبر وقال : هذا حديث لاشك فى وضعه وهو من رواية الواقدى الكذاب *

وأقول لامانع عقلا ولاشرعاً من صحته ، والمراد أن فى كل أرض خلقاً يرجعون إلى أصل واحد رجوع بنى آدم فى أرضنا إلى آدم عليه السلام ، وفيه أفراد ممتازون على سائرهم كنوح وإبراهيم وغيرهما فينا *

وأخرج ابن أبى حاتم . والحاكم وصححه عن ابن عمر مرفوعاً أن بين كل أرض والتى تليها خمسمائة عام والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه فى السماء والحوت على صخرة والصخرة بيد ملك والثانية مسجن الريح والثالثة فيها حجارة جهنم والرابعة فيها كبريتها والخامسة فيها حياتها والسادسة فيها عقاربها والسابعة فيها سقر وفيها إبليس مصفد بالحديد يد أمامه ويد خلفه يطلقه الله تعالى لمن يشاء ، وهو حديث منكر - كما قال الذهبي - لا يعول عليه أصلا فلا تغتر بتصحيح الحاكم ، ومثله فى ذلك أخبار كثيرة فى هذا الباب لولا خوف الملل لذكرناها لك لكن كون مابين كل أرضين خمسمائة سنة كما بين كل سماءين جاء فى أخبار معتبرة كما روى الامام أحمد . والترمذى عن أبى هريرة قال : « بينما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جالس وأصحابه قال : هل تدرون مافوقكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال فانها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف ، قال : هل تدرون مابينكم وبينها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : بينكم وبينها خمسمائة عام ، ثم قال : هل تدرون مافوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : سماء وإن بعد مابينهما خمسمائة سنة ، ثم قال كذلك حتى عد سبع سموات مابين كل سماءين مابين السماء والأرض ، ثم قال : هل تدرون مافوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : وإن فوق ذلك العرش بينه وبين السماء بعد مابين السماءين ، ثم قال : هل تدرون ماتحتكم ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال : إنها الأرض ، ثم قال : هل تدرون ماتحت ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة حتى عد صلى الله تعالى عليه وسلم سبع أرضين مابين كل أرضين خمسمائة سنة *

والاخبار فى تقدير المسافة بما ذكر بين كل سماءين أكثر من الأخبار فى تقديرها بين كل أرضين وأصح ، ومنها ماهو مذكور فى صحيح البخارى . وغيره من الصحاح ، وفيها أيضاً أن ثخن كل سماء خمسمائة عام فقول الرازى فى ذلك إنه غير معتبر عند أهل التحقيق كلام لايخفى بشاعته على من سلك من السنة أقوم طريق ، نعم ماحكاه من أن السماء الاولى موج مكفوف . والثانية صخر . والثالثة حديد ، والرابعة نحاس . والخامسة فضة . والسادسة ذهب . والسابعة ياقوت ليس بمعتبر أصلا ولم يرد بما تضمنه من التفصيل خبر صحيح لكن فى قوله : إنه مما يأباه العقل إن أراد به نفى الامكان عقلا منع ظاهر ، وقال الضحاك : هى فى كونها سبعاً بعضها فوق بعض لا فى كونها كذلك مع وجود مسافة بين أرض وأرض ، واختاره بعضهم زاعماً أن المراد بهاتيك السبع طبقة التراب الصرفة المجاورة للمركز . والطبقة الطينية . والطبقة المعدنية التى يتكون فيها المعادن . والطبقة الممتزجة بغيرها المنكشفة التى هى مسكن الانسان ونحوه من الحيوان وفيها ينبت النبات . وطبقة الأدخنة . والطبقة الزمهريرية . وطبقة النسيم الرقيق جداً ، ولايخفى أنه أشبه شىء بالهذيان ، ومثله مايزعمه بعض الناظرين فى كتب العلوم المسماة بالحكمة الجديدة من أن الأرض انفصلت بسبب بعض الحوادث

Marfat.com

من بعض الأجرام العلوية صغيرة ثم تكونت فوقها طبقة وهكذا حتى صار المجموع سبعا ، وزعم أنهم شاهدوا بين كل طبقة وطبقة آثاراً من مخلوقات مختلفة ، وقال أبو صالح : هى فى كونها سبعاً لاغير فهى سبع أرضين منبسطة ليس بعضها فوق بعض يفرق بينها البحار ، ويظل جميعها السماء ، وروى ذلك عن ابن عباس فالنسبة بين أرض وأرض على هذا نحو نسبة أمريقيا إلى آسيا . أو أوروبا . أو أفريقيا لكن قيل : إن تلك البحار الفارقة لايمكن قطعها *

وقيل : من الاقاليم السبعة وهى مختلفة الحرارة والبرودة والليل والنهار إلى أمور أخر ، واختاره بعضهم ولا أظنه شيئا لأن المتبادر اعتبار انفصال أرض عن أرض انفصالا حقيقياً فى المثلية ، وقيل : المثلية فى الخلق لافى العدد ولافى غيره فهى أرض واحدة مخلوقة كالسموات السبع ، وأيد بأن الأرض لم تذكر فى القرآن إلا موحدة ، ورد بأنه قد صح من رواية البخارى . وغيره « اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الارضين السبع وما أقللن » الحديث ، و كذا صح « من غصب قيد شبر من أرض طوقه من سبع أرضين » وأصح الأقوال - كما قال القرطبي - قول الجمهور السابق ، وعليه اختلف فى مشاهدة أهل ماعدا هذه الأرض السماء واستمدادهم الضوء منها فقيل: إنهم يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم ويستمدون الضياء منها *

وقيل : إنهم لايشاهدون السماء وأن الله عز وجل خلق لهم ضياءاً يشاهدونه ، وروى الامامية عن بعض الائمة نحواً مما قاله الجمهور ، أخرج العياشى باسناده عن الحسين بن خالد عن أبى الحسن الرضا رضى الله تعالى عنه قال : بسط كفه اليسرى ثم وضع اليمنى عليها فقال : « هذه الأرض الدنيا والسماء الدنيا عليها قبة ، والارض الثانية فوق السماء الدنيا والسماء الثانية فوقها قبة ، والأرض الثالثة فوق السماء الثانية والسماء الثالثة فوقها قبة حتى ذكر الرابعة والخامسة والسادسة فقال : والارض السابعة فوق السماء السادسة والسماء السابعة فوقها قبة وعرش الرحمن فوق السماء السابعة ، وهو قوله تعالى : (سبع سموات ومن الأرض مثلهن) الخ *

وأنا أقول بنحو ما قاله الجمهور راجيا العصمة ممن على محور إرادته تدور أفلاك الأمور : هى سبع أرضين بين كل أرض وأرض منها مسافة عظيمة ، وفى كل أرض خلق لا يعلم حقيقتهم إلا الله عز وجل ولهم ضياء يستضيئون به ، ويجوز أن يكون عندهم ليل ونهار ولا يتعين أن يكون ضياؤهم من هذه الشمس ولا من هذا القمر ، وقد غلب على ظن أكثر أهل الحكمة الجديدة أن القمر عالم كعالم أرضنا هذه وفيه جبال وبحار يزعمون أنهم يحسون بها بواسطة أرصادهم وهم مهتمون بالسعى فى تحقيق الأمر فيه فليكن ما نقول به من الارضين على هذا النحو ، وقد قالوا : أيضا إن هذه الشمس فى عالم هى مركز دائرته وبلقيس مملكته بمعنى أن جميع مافيه من كواكبهم السيارة تدور عليها فيه على وجه مخصوص ونمط مضبوط ، وقد تقرب اليها فيه وتبعد عنها إلى غاية لا يعلمها إلا الله تعالى كواكب ذوات الاذناب ، وهى عندهم كثيرة جداً تتحرك على شكل بيضى وأن الشمس بعالمها من توابع كوكب آخر تدور عليه دوران توابعها من السيارات عليها هو فيما نسمع أحد كواكب النجم ، ولهم ظن فى أن ذلك أيضا من توابع كوكب آخر وهكذا ، وملك الله تعالى العظيم عظيم لاتكاد تحيط به منطقة الفكر ويضيق عنه نطاق الحصر ، وسماء كل عالم كالقمر عندهم ما انتهى اليه هواؤه حتى صار ذلك الجرم فى نحو خلاء فيه لايعارضه ولايضعف حركته شىء . والجسم متى تحرك فى خلاء لايسكن لعدم المعارض فليكن كل أرض من هذه الارضين محمولة بيد القدرة بين كل سماءين على نحو ماسمعت عن الرضا على آبائه وعليه السلام ،

Marfat.com

وهناك ما يستضىء به أهلها سابحا فى فلك بحر قدرة الله عز وجل ونسبة كل أرض إلى سمائها نسبة الحلقة إلى الفلاة وكذا نسبة السماء إلى السماء التى فوقها ، ويمكن أن تكون الأرضون وكذا السموات أكثر من سبع . والاقتصار على العدد المذكور الذى هو عدد تام لايستدعى نفى الزائد فقد صرحوا بأن العدد لامفهوم له والسماء الدنيا منتهى دائرة يتحرك فيها أعلى كوكب من السيارات وبينها وبين هذه الارض بعد بعيد *

وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « خمسمائة عام » من باب التقريب للافهام ، ويقرب الأمر إذا اعتبر ذلك بالنسبة إلى الراكب المجد كما وقع فى كثير من أخبار فيها تقدير مسافة ، وقوله عليه الصلاة والسلام فى السماء الدنيا : « موج مكفوف » يمكن أن يكون من التشبيه البليغ فى اللطافة ونحوها أو هو على حقيقته والتنوين فيه للنوعية حتى يقوم الدليل العقلى الصحيح على امتناعها ، وتزيين هذه السماء بالكواكب لظهورها فيها على مايشاهد فلايضر فى ذلك كونها كلا أو بعضاً فوقها أو تحتها ، ولم يقم دليل على أن شيئا من الكواكب مغروز فى شىء من السموات كالفص فى الخاتم والمسمار فى اللوح ، بل فى بعض الأخبار مايدل على خلافه ، نعم أكثر الأخبار فى أمر السموات والأرض والكواكب لايعول عليها كما أشار اليه النسفى فى بحر الكلام ، وكذا ماقاله قدماء أهل الهيئة ومحدثوهم ، وفى كل مما ذهب الفريقان اليه مايوافق أصولنا ومايخالفه وما شريعتنا ساكتة عنه لم تتعرض له بنفى أو إثبات ، وحيث كان من أصولنا أنه متى عارض الدليل العقلى الدليل السمعى وجب تأويل الدليل السمعى للدليل العقلى لأنه أصله ولو أبطل به لزم بطلانه نفسه فالأمر سهل لأن باب التأويل أوسع من فلك الثوابت ولا أرى بأسا فى ارتكاب تأويل بعض الظواهر المستبعدة بما لايستبعد وإن لم يصل الاستبعاد إلى حد الامتناع إذا تضمن ذلك مصلحة دينية ولم يستلزم مصادمة معلوم من الدين بالضرورة ، وقد يلتزم الابقاء على الظاهر وتفويض الأمر إلى قدرة الله تعالى التى لايتعاصاها شىء رعاية لأذهان العوام المقيدين بالظواهر الذين يعدون الخروج عنها لاسيما إلى مايوافق الحكمة الجديدة ضلالا محضاً وكفراً صرفا ؛ ورحم الله تعالى امرءاً جب الغيبة عن نفسه *

وقد أخرج عبد بن حميد . وابن الضريس . وابن جرير من طريق مجاهد عن ابن عباس فى هذه الآية قال : لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم بتكذيبكم بها ، وبالجملة من صدق بسعة ملك الله تعالى وعظيم قدرته عز وجل لاينبغى أن يتوقف فى وجود سبع أرضين على الوجه الذى قدمناه ، ويحمل السبع على الأقاليم أو على الطبقات المعدنية والطينية ونحوهما مما تقدم ، وليس فى ذلك مايصادم ضرورياً من الدين أو يخالف قطعياً من أدلة المسلمين ، ولعل القول بذلك التعدد هو المتبادر من الآية ، وتقتضيه الأخبار ، ومع هذا هو ليس من ضروريات الدين فلا يكفر منكره أو المتردد فيه لكن لاأرى ذلك إلا عن جهل بما هو الأليق بالقدرة والأجرى بالعظمة ، والله تعالى الموفق للصواب *

﴿ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ أى يجرى أمر الله تعالى وقضاؤه وقدره عز وجل بينهن وينفذ ملكه فيهن ، وأخرج ابن المنذر . وغيره عن قتادة قال : فى كل سماء وفى كل أرض خلق من خلقه تعالى وأمر من أمره وقضاء من قضائه عز وجل ، وقيل : (يتنزل الامر بينهن) بحياة وموت وغنى وفقر ، وقيل : هو مايدبره سبحانه فيهن من عجيب تدبيره جل شأنه ، وقال مقاتل . وغيره : (الامر) هنا الوحى ، و (بينهن) إشارة إلى بين هذه الارض التى هى أدناها وبين السماء السابعة ، والأكثرون على أنه القضاء والقدر كما سبق ، وأن (بينهن) إشارة

Marfat.com

إلى بين الأرض السفلى التى هى أقصاها وبين السماء السابعة التى هى أعلاها ؛ وقرأ عيسى . وأبو عمرو فى رواية - ينزل - مضارع نزل مشدداً (الأمر) بالنصب أى ينزل الله الأمر ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ متعلق - بخلق - أو - بيتنزل - أو بمضمر يعمهما أى فعل ذلك لتعلموا أن من قدر على ما ذكر قادر على كل شىء ، وقيل : التقدير أخبرتكم أو أعلمتكم بذلك لتعلموا ، وقرىء - ليعلموا - بياء الغيبة ٭

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ١٢ ﴾ لاستحالة صدور هذه الافاعيل ممن ليس كذلك ٭

﴿ سورة التحريم — ٦٦ ﴾

ويقال لها : سورة المتحرم . وسورة لم تحرم . وسورة النبى ﷺ ، وعن ابن الزبير - سورة النساء - والمشهور أنها مدنية ، وعن قتادة أن المدنى منها إلى رأس العشر ، والباقى مكى ، وآيها اثنتا عشرة آية بالاتفاق ، وهى متواخية مع التى قبلها فى الافتتاح بخطاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتلك مشتملة على طلاق النساء ، وهذه على تحريم الاماء ، وبينهما من الملابسة مالا يخفى ، ولما كانت تلك فى خصام نساء الأمة ذكر فى هذه خصومة نساء المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم إعظاما لمنصبهن أن يذكرن مع سائر النسوة فأفردن بسورة خاصة ولذا ختمت بذكر زوجيه صلى الله تعالى عليه وسلم فى الجنة آسية امرأة فرعون . ومريم بنت عمران قاله الجلال السيوطى عليه الرحمة ٭

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ روى البخارى . وابن سعد . وعبد بن حميد . وابن المنذر . وابن مردويه عن عائشة «أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلا فتواصيت أنا وحفصة إن أيتنا دخل عليها النبى ﷺ فلتقل إنى أجد منك ريح مغافير أكلت مغافير ؟ فدخل على إحداهما فقالت ذلك له ، فقال : لا بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود » وفى رواية « وقد حلفت فلا تخبرى بذلك أحداً » فنزلت (يا أيها النبى لم تحرم) الخ ، وفى رواية « قالت سودة : أكلت مغافير ؟ قال : لا قالت : فما هذه الريح التى أجد منك ؟ قال : سقتنى حفصه شربة عسل ، فقالت : جرست نحلة العرفط » فحرم العسل فنزلت ، وفى حديث رواه البخارى . ومسلم . وابو داود . والنسائى عن عائشة شرب العسل فى بيت حفصة ، والقائلة سودة . وصفية ٭

وأخرج ابن المنذر . وابن أبى حاتم . والطبرانى . وابن مردويه قال الحافظ السيوطى : بسند صحيح عن ابن عباس قال : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شرب من شراب عند سودة من العسل فدخل على عائشة فقالت : إنى أجد منك ريحاً فدخل على حفصة فقالت : إنى أجد منك ريحا فقال : أراه من شراب شربته عند سودة والله لا أشربه » فنزلت ، وأخرج النسائى . والحاكم وصححه . وابن مردويه عن أنس أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة . وحفصة حتى جعلها على نفسه حراما فأنزل الله تعالى هذه الآية (يا أيها النبى لم تحرم) الخ ، ويوافقه ما أخرجه البزار . والطبرانى بسند حسن صحيح عن ابن عباس قال : نزلت (يا أيها النبى لم تحرم) الآية فى سريته ٭

والمشهور أنها مارية وأنه عليه الصلاة والسلام وطئها فى بيت حفصة فى يومها فوجدت وعاتبته فقال

Marfat.com

صلى الله تعالى عليه وسلم : ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها ؟ قالت : بلى فحرمها ، وفى رواية أن ذلك كان فى بيت حفصة فى يوم عائشة ، وفى الكشاف روى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خلا بمارية فى يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة فقال لها : اكتمى على وقد حرمت مارية على نفسى وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدى أمر أمتى فأخبرت عائشة وكانتا متصادقتين ٭

وبالجملة الأخبار متعارضة ، وقد سمعت ماقيل فيها لكن قال الخفاجى : قال النووى فى شرح مسلم : الصحيح أن الآية فى قصة العسل لافى قصة مارية المروية فى غير الصحيحين ، ولم تأت قصة مارية فى طريق صحيح ثم قال الخفاجى نقلا عنه أيضاً : الصواب أن شرب العسل كان عند زينب رضى الله تعالى عنها ، وقال الطيبي فيما نقلناه عن الكشاف ماوجدته فى الكتب المشهورة والله تعالى أعلم ٭

والمغافير : بفتح الميم والغين المعجمة وبياء بعد الفاء - على ماصوبه القاضى عياض - جمع مغفور بضم الميم شىء له رائحة كريهة ينضحه العرفط وهو شجر أو نبات له ورق عريض ، وعن المطلع أن العرفط هو الصمغ ، والمغفور شوك له نور يأكل منه النحل يظهر العرفط عليه ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يحب الطيب جداً ويكره الرائحة الكريهة للطافة نفسه الشريفة ولأن الملك يأتيه وهو يكرهها فشق عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ماقيل فجرى ماجرى ، وفى ندائه صلى الله تعالى عليه وسلم - يا أيها النبي - فى مفتتح العتاب من حسن التلطف به والتنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام مالايخفى ، ونظير ذلك قوله تعالى : (عفا الله عنك لم أذنت لهم) والمراد بالتحريم الامتناع . و بما أحل الله العسل على ماصححه النووى رحمه الله تعالى ، أو وطء سريته على ما فى بعض الروايات ، ووجه التعبير - بما - على هذين التفسيرين ظاهر ٭

وفسر بعضهم (ما) بمارية ؛ والتعبير عنها - بما - على ماهو الشائع فى التعبير بها عن ملك اليمين ، والنكتة فيه لا تخفى ، وقوله تعالى : ﴿ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ حال من فاعل (تحرم) ، واختاره أبو حيان فيكون هو محل العتاب على ماقيل ، وكأن وجهه أن الكلام الذى فيه قيد المقصود فيه القيد إثباتاً أو نفيا ، أو يكون التقييد على نحو (أضعافا مضاعفة) على أن التحريم فى نفسه محل عتب ، والباعث عليه كذلك كما فى الكشف ، أواستئناف نحوى أو بيانى ، وهو الأولى ، ووجهه أن الاستفهام ليس على الحقيقة بل هو معاتبة على أن التحريم لم يكن عن باعث مرضى فاتجه أن يسأل ماينكر منه وقدفعله غيرى من الأنبياء عليهم السلام ألا ترى إلى قوله تعالى : (إلا ماحرم إسرائيل على نفسه) فقيل : (تبتغى مرضات أزواجك) ومثلك من أجل أن تطلب مرضاتهن بمثل ذلك،وجوز أن يكون تفسيراً - لتحرم - بجعل ابتغاء مرضاتهن عين التحريم مبالغة فى كونه سببا له ، وفيه من تفخيم الأمر مافيه ، والاضافة فى (أزواجك) للجنس لا للاستغراق ٭

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١ ﴾ فيه تعظيم شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم بأن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامى الكريم يعد كالذنب وإن لم يكن فى نفسه كذلك ، وأن عتابه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس إلا لمزيد الاعتناء به ، وقد زل الزمخشرى ههنا كعادته فزعم أن ماوقع من تحريم الحلال المحظور لكنه غفر له عليه الصلاة والسلام ، وقد شن ابن المنير فى الانتصاف الغارة فى التشنيع عليه فقال ماحاصله : إن ما أطلقه فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم تقول وافتراء والنبي عليه الصلاة والسلام منه براء ، وذلك أن تحريم الحلال

Marfat.com

على وجهين : الأول اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه وهو كاعتقاد ثبوت حكم التحليل فى الحرام محظور يوجب الكفر فلا يمكن صدوره من المعصوم أصلا ، والثانى الامتناع من الحلال مطلقاً أو مؤكداً باليمين مع اعتقاد حله وهذا مباح صرف وحلال محض ، ولو كان ترك المباح والامتناع منه غير مباح لاستحالت حقيقة الحلال ، وما وقع منه صلى الله تعالى عليه وسلم كان من هذا النوع وإنما عاتبه الله تعالى عليه رفقاً به وتنويها بقدره وإجلالا لمنصبه عليه الصلاة والسلام أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه جرياً على ماألف من لطف الله تعالى به ، وتأول بعضهم كلام الزمخشرى ، وفيه ماينبو عن ذلك *

وقيل : نسبة التحريم اليه صلى الله تعالى عليه وسلم مجاز ، والمراد لم تكون سببا لتحريم الله تعالى عليك ما أحل لك بحلفك على تركه وهذا لايحتاج اليه ، وفى وقوع الحلف خلاف ، ومن قال به احتج ببعض الاخبار ، وبظاهر قوله تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ أى قد شرع لكم تحليلها وهو حل ماعقدته الأيمان بالكفارة ، فالتحلة مصدر حلل كتكرمة من كرم ، وليس مصدر مقيساً ، والمقيس التحليل والتكريم لأن قياس فعل الصحيح العين غير المهموز هو التفعيل ، وأصله تحللة فأدغم ، وهو من الحل ضد العقد فكأنه باليمين على الشىء لا لتزامه عقد عليه وبالكفارة يحل ذلك ، ويحل أيضا بتصديق اليمين كما فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لايموت لرجل ثلاثة أولاد فتمسه النار إلا تحلة القسم » يعنى (وإن منكم إلا واردها) الخ ، وتحليله بأقل مايقع عليه الاسم كمن حلف أن ينزل يكفى فيه إلمام خفيف ، فالكلام كناية عن التقليل أى قدر الاجتياز اليسير ، وكذا يحل بالاستثناء أى بقول الحالف : إن شاء الله تعالى بشرطه المعروف فى الفقه *

ويفهم من كلام الكشاف أن التحليل يكون بمعنى الاستثناء ومعناه كما فى الكشف تعقيب اليمين عند الاطلاق بالاستثناء حتى لاتنعقد ، ومنه حلا أبيت اللعن ، وعلى القول بأنه كان منه عليه الصلاة والسلام يمين كما جاء فى بعض الروايات وهو ظاهر الآية اختلف هل أعطى صلى الله تعالى عليه وسلم الكفارة أم لا ؟ فعن الحسن أنه عليه الصلاة والسلام لم يعط لأنه كان مغفوراً له ماتقدم من ذنبه وما تأخر وإنما هو تعليم للمؤمنين ، وفيه أن غفران الذنب لايصلح دليلا لأن ترتب الأحكام الدنيوية على فعله عليه الصلاة والسلام ليس من المؤاخذة على الذنب كيف وغير مسلم أنه ذنب ، وعن مقاتل أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أعتق رقبة فى تحريم مارية ، وقد نقل مالك فى المدونة عن زيد بن أسلم أنه عليه الصلاة والسلام أعطى الكفارة فى تحريمه أم ولده حيث حلف أن لايقربها ، ومثله عن الشعبي ، واختلف العلماء فى حكم قول الرجل لزوجته : أنت على حرام . أو الحلال على حرام ولم يستثن زوجته فقيل : قال جماعة منهم مسروق . وربيعة . وأبو سلمة . والشعبي . وأصبغ : هو كتحريم الماء والطعام لايلزمه شىء ، وقال أبو بكر . وعمر . وزيد . وابن مسعود . وابن عباس . وعائشة . وابن المسيب . وعطاء . وطاوس . وسليمان بن يسار . وابن جبير . وقتادة . والحسن . والاوزاعى . وأبو ثور . وجماعة : هو يمين يكفرها ، وابن عباس أيضاً فى رواية ، والشافعى فى قول فى أحد قوليه : فيه تكفير يمين وليس بيمين ، وأبو حنيفة يرى تحريم الحلال يميناً فى كل شىء ، ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرمه فاذا حرم طعاما فقد حلف على عدم أكله . أو أمة فعلى وطئها . أو زوجة فعلى الايلاء منها إذا لم

Marfat.com

تكن له نية فان نوى الظهار فظهار وإن نوى الطلاق فطلاق بائن، وكذلك إن نوى اثنتين (١) وإن نوى ثلاثا فكما نوى ، وإن قال : نويت الكذب دين بينه وبين الله تعالى ، ولكن لا يدين فى قضاء الحاكم بابطال الايلاء لأن اللفظ إنشاء فى العرف ، وقال جماعة : إن لم يرد شيئا فهو يمين ، وفى التحرير قال أبو حنيفة . وأصحابه : إن النوى الطلاق فواحدة بائنة . أو اثنتين فواحدة . أو ثلاثا فثلاث . أو لم ينو شيئاً فهو ل . أو الظهار فظهار ، وقال ابن القاسم : لا تنفعه نية الظهار ويكون طلاقا ، وقال يحي بن عمر : يكون كذلك فان ارتجعها فلا يجوز له وطؤها حتى يكفر كفارة الظهار ، ويقع ما أراد من إعداده فان نوى واحدة فرجعية وهو قول للشافعى ، وقال الاوزاعى . وسفيان . وأبو ثور : أى شىء نوى به من الطلاق وقع وإن لم ينو شيئاً فقال سفيان : لا شىء عليه، وقال الاوزاعى . وأبو ثور : تقع واحدة ، وقال ابن جبير : عليه عتق رقبة وإن لم يكن ظهاراً ، وقال أبو قلابة . وعثمان . وأحمد . وإسحق : التحريم ظهار فعليه كفارته ، وعن الشافعى إن نوى أنها محرمة كظهر أمه فظهار ، أو تحريم عينها بغير طلاق ، أو لم ينو فكفارة يمين ، وقال مالك : يقع ثلاث فى المدخول بها وما أراد من واحدة . أو ثنتين. أو ثلاث فى غير المدخول بها، وقال ابن أبى ليلى . وعبد الملك ابن الماجشون : تقع ثلاث فى الوجهين ، وروى ابن خويز منداد عن مالك ، وقاله زيد . وحماد بن أبى سليمان: تقع واحدة بائنة فيهما ، وقال الزهرى. وعبد العزيز بن الماجشون : واحدة رجعية ، وقال أبو مصعب . ومحمد بن عبد الحكم : يقع فى التى لم يدخل بها واحدة وفى المدخول بها ثلاث ، وفى الكشاف لا يراه الشافعى يميناً ولكن سبباً فى الكفارة فى النساء وحدهن، وأما الطلاق فرجعى عنده، وعن على كرم الله تعالى وجهه ثلاث ، وعن زيد واحدة بائنة ، وعن عثمان ظهار ، واخرج البخارى . ومسلم . وابن ماجه . والنسائى عن ابن عباس أنه قال : من حرم امرأته فليس بشىء *

وقرأ (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) وللنسائى أنه أتاه رجل فقال : جعلت امرأتى على حراما قال : كذبت ليست عليك بحرام ثم تلا هذه الآية (ياأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك) عليك أغلظ الكفارة عتق رقبة إلى غير ذلك من الأقوال ، وهى فى هذه المسألة كثيرة جداً ، وفى نقل الأقوال عن أصحابها اختلاف كثير أيضاً ، واحتج بما فى هذه الآية من فرض تحليلها بالكفارة إن لم يستثن من رأى التحريم مطلقاً ، أو تحريم المرأة يميناً لأنه لو لم يكن يميناً لم يوجب الله تعالى فيه كفارة اليمين هنا *

وأجيب بأنه لا يلزم من وجوب الكفارة كونه يمينا لجواز اشتراك الأمرين المتغايرين فى حكم واحد فيجوز أن تثبت الكفارة فيه لمعنى آخر ، ولو سلم أن هذه الكفارة لا تكون إلا مع اليمين فيجوز أن يكون صلى الله تعالى عليه وسلم أقسم مع التحريم فقال فى مارية : «والله لأطؤها» أو فى العسل « والله لا أشربه» وقد رواه بعضهم فالكفارة لذلك اليمين لا للتحريم وحده ، والله تعالى أعلم *

﴿ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ سيدكم ومتولى أموركم ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ ﴾ فيعلم ما يصلحكم فيشرعه سبحانه لكم ﴿ الْحَكِيمُ ٢ ﴾ المتقن أفعاله وأحكامه فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ﴾

(١) قوله : وكذلك إن نوى اثنتين ، وقال بعض الحنفية : هذا عند أبى يوسف . ومحمد ، وعند أبى حنيفة لا يصح نية الثنتين وتقع واحدة اه طيبى اه منه

Marfat.com

أى واذكر (إذ أسر) ﴿ النَّبِىُّ الَى بَعْض أَزْوَاجه ﴾ هى حفصة على ماعليه عامة المفسرين ، وزعم بعض الشيعة أنها عائشة وليس له فى ذلك شيعة ، نعم رواه ابن مردويه عن ابن عباس وهو شاذ ﴿ حَدِيثًا ﴾ هو قوله عليه الصلاة والسلام على ما فى بعض الروايات : «لكنى كنت أشرب عسلا عند زينب ابنة جحش فلن أعود له وقد حلفت لاتخبرى بذلك أحداً » ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ ﴾ أى أخبرت ٥

وقرأ طلحة ـ أنبأت ـ ﴿ به ﴾ أى بالحديث عائشة لأنهما كانتا متصادقتين ، وتضمن الحديث نقصان حظ ضرتهما زينب من حبيبهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حيث أنه عليه الصلاة والسلام ـ كما فى البخارى . وغيره ـ كان يمكث عندها لشرب ذلك وقد اتخذ ذلك عادة ـ كما يشعر به لفظ ـ كان فاستخفها السرور فنبأت بذلك ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْه ﴾ أى جعل الله تعالى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ظاهراً على الحديث مطلعا عليه من قوله تعالى : (ليظهره على الدين كله) والكلام على ماقيل : على التجوز ، أو تقدير مضاف أى على إفشائه ، وجوز كون الضمير لمصدر (نبأت) وفيه تفكيك الضمائر ، أو جعل الله تعالى الحديث ظاهراً على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فهو نظير ظهر لى هذه المسألة وظهرت على إذا كان فيه مزيد كلفة واهتمام بشأن الظاهر فلا تغفل ﴿ عَرَّفَ ﴾ أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حفصة ﴿ بَعْضَهُ ﴾ أى الحديث أى أعلمها وأخبرها ببعض الحديث الذى أفشته ٥

والمراد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لها : قلت كذا لبعض ماأسره اليها قيل : هو قوله لها : « كنت شربت عسلا عند زينب ابنة جحش فلن أعود» ﴿ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْض ﴾ هو على ماقيل قوله عليه الصلاة والسلام: «وقد حلفت » فلم يخبرها به تكرماً لما فيه من مزيد خجلتها حيث أنه يفيد مزيد اهتمامه صلى الله تعالى عليه وسلم بمرضاة أزواجه وهو لايحب شيوع ذلك ، وهذا من مزيد كرمه صلى الله تعالى عليه وسلم ٥

وقد أخرج ابن مردويه عن على كرم الله تعالى وجهه ما استقصى كريم قط ، وقال سفيان : مازال التغافل من فعل الكرام ، وقال الشاعر :

ليس الغبى بسيد فى قومه لكن سيد قومه المتغابى

وجوز أن يكون (عرف) بمعنى جازى أى جازاها على بعض بالعتب واللوم أو بتطليقه عليه الصلاة والسلام إياها ، وتجاوز عن بعض ، وأيد بقراءة السلمى . والحسن . وقتادة . وطلحة . والكسائى . وأبى عمرو فى رواية هرون عنه (عرف) بالتخفيف لأنه على هذه القراءة لايحتمل معنى العلم لأن العلم تعلق به كله بدليل قوله تعالى : (أظهره الله عليه) مع أن الاعراض عن الباقى يدل على العلم فتعين أن يكون بمعنى المجازاة ٥

قال الأزهرى فى التهذيب : من قرأ (عرف) بالتخفيف أراد معنى غضب وجازى عليه كما تقول للرجل يسىء اليك : والله لأعرفن لك ذلك ، واستحسنه الفراء ، وقول القاموس : هو بمعنى الاقرار لاوجه له ههنا ، وجعل المشدد من باب إطلاق المسبب على السبب والمخفف بالعكس ، ويجوز أن تكون العلاقة بين المجازاة والتعريف اللزوم ، وأيد المعنى الأول بقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا به قَالَتْ ﴾ لتعرف هل فضحتها عائشة أم لا؟ ﴿ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ العَلِيمُ الخَبِيرُ ٣ ﴾ الذى لاتخفى عليه خافية فانه أوفق للاعلام، وهذا على مافى البحر

Marfat.com

على معنى بهـذا ، وقرأ ابن المسيب . وعكرمة ـ عراف بعضه ـ بألف بعد الراء وهى إشباع ، وقال ابن خالويه . ويقال : إنها لغة يمانية *

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس . وابن أبى حاتم عن مجاهد أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أسر إلى حفصة تحريم مارية وأن أبا بكر . وعمر يليان الناس بعده فأسرت ذلك إلى عائشة فعرف بعضه وهو أمر مارية وأعرض عن بعض وهو أن أبا بكر . وعمر يليان بعده مخافة أن يفشو ، وقيل : بالعكس ، وقد جاء أسرار أمر الخلافة فى عدة أخبار ؛ فقد أخرج ابن عدى . وأبو نعيم فى فضائل الصديق ، وابن مردويه من طرق عن على كرم الله تعالى وجهه . وابن عباس قالا : إن أمارة أبى بكر . وعمر لفى كتاب الله (وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا) قال لحفصة : « أبوك . وأبو عائشة واليا الناس بعدى فإياك أن تخبرى أحداً » *

وأخرج أبو نعيم فى فضائل الصحابة عن الضحاك أنه قال : فى الآية أسر صلى الله تعالى عليه وسلم إلى حفصة أن الخليفة من بعده أبو بكر ومن بعد أبى بكر عمر ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ميمون بن مهران نحوه ، وفى مجمع البيان للطبرسى من أجل الشيعة عن الزجاج قال : لما حرم عليه الصلاة والسلام مارية القبطية أخبر أنه يملك من بعده أبو بكر . وعمر فعرفها بعض ما أفشت من الخبر وأعرض عن بعض أن أبا بكر . وعمر يملكان من بعدى ، وقريب من ذلك مارواه العياشى بالاسناد عن عبد الله بن عطاء المكى عن أبى جعفر الباقر رضى الله تعالى عنه إلا أنه زاد فى ذلك أن كل واحدة منهما حدثت أباها بذلك فعاتبهما فى أمر مارية وما أفشتا عليه من ذلك ، وأعرض أن يعاتبهما فى الأمر الآخر انتهى *

وإذا سلم الشيعة صحة هذا لزمهم أن يقولوا بصحة خلافة الشيخين لظهوره فيها كما لايخفى ، ثم إن تفسير الآية على هذه الأخبار أظهر من تفسيرها على حديث العسل لـكن حديثه أصح ، والجمع بين الاخبار مما لايكاد يتأتى *

وقصارى ما يمكن أن يقال : يحتمل أن يكون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد شرب عسلا عند زينب كما هو عادته ، وجاء إلى حفصة فقالت له ماقالت فحرم العسل ، واتفق له عليه الصلاة والسلام قبيل ذلك أو بعيده أن وطىء جاريته مارية فى بيتها فى يومها على فراشها فوجدت فحرم صلى الله تعالى عليه وسلم مارية ، وقال لحفصة ماقال تطييباً لخاطرها واستكتمها ذلك فـكان منها ما كان ، ونزلت الآية بعد القصتين فاقتصر بعض الرواة على إحداهما . والبعض الآخر على نقل الأخرى ، وقال كل : فأنزل الله تعالى (ياأيها النبى) الخ ، وهو كلام صادق إذ ليس فيه دعوى كل حصر علة النزول فيما نقله فان صح هذا هان أمر الاختلاف وإلا فاطلب لك غيره ، والله تعالى أعلم *

واستدل بالآية على أنه لابأس بإسرار بعض الحديث إلى من يركن اليه من زوجة أو صديق ، وأنه يلزمه كتمه ، وفيها على ماقيل : دلالة على أنه يحسن حسن العشرة مع الزوجات والتلطف فى العتب والاعراض عن استقصاء الذنب ، وقد روى أن عبد الله بن رواحة ـ وكان من النقباء ـ كانت له جارية فاتهمته زوجته ليلة ، فقال قولا بالتعريض ، فقالت : إن كنت لم تقربها فاقرأ القرآن فأنشد :

شهدت فلم أكذب بأن محمداً رسول الذى فوق السموات من عل
وأن أبا يحيى . ويحيى كلاهما له عمل فى دينه متقبل
وأن التى بالجزع من بطن نخلة ومن دانها كل عن الخير معزل

Marfat.com

فقالت : زدنى ، فأنشد :

وفينا رسول الله يتلو كتابه كما لاح معروف من الصبح ساطع
أتى بالهدى بعد العمى فنفوسنا به موقنات إن ماقال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا رقدت بالكافرين المضاجع

فقالت : زدنى ، فأنشد :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا
وأن محمداً يدعو بحق وأن الله مولى المؤمنينا
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا
ويحمله ملائكة شداد ملائكة الإله مسومينا

فقالت : أما إذ قرأت القرآن فقد صدقتك ، وفى رواية أنها قالت - وقد كانت رأته على ماتكره - إذن صدق الله وكذب بصرى ، فأخبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فتبسم ، وقال : « خيركم خيركم لنسائه » ﴿ انْ تَتُوباَ إِلَى اللهِ ﴾ خطاب لحفصة . وعائشة رضى الله تعالى عنهما على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة فى المعاتبة فان المبالغ فى العتاب يصير المعاتب أولا بعيداً عن ساحة الحضور ، ثم إذا اشتد غضبه توجه اليه وعاتبه بما يريد ، وكون الخطاب لهما لما أخرج أحمد . والبخارى . ومسلم . والترمذى . وابن حبان . وغيره عن ابن عباس قال : لم أزل حريصا أن أسأل عمر رضى الله تعالى عنه عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اللتين قال الله تعالى : (إن تتوبا) الخ حتى حج عمر وحججت معه فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالأداوة فنزل ثم أتى صببت على يديه فتوضأ فقلت : ياأمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اللتان قال الله تعالى : (إن تتوبا) الخ ؟ فقال : واعجبا لك يا ابن عباس هما عائشة . وحفصة ثم أنشأ يحدثنى الحديث الحديث بطوله ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ مالت عن الواجب من مخالفته صلى الله تعالى عليه وسلم بحب مايحبه وكراهة مايكرهه إلى مخالفته ، والجملة قائمة مقام جواب الشرط بعد حذفه ، والتقدير إن تتوبا فلتوبتكما موجب وسبب (فقد صغت قلوبكما) أو فحق لكما ذلك فقد صدر مايقتضيها وهو على معنى فقد ظهر أن ذلك حق كما قيل فى قوله ٥ إذا ماانتسبنا لم تلدنى لئيمة ٥ من أنه بتأويل تبين أنى لم تلدنى لئيمة ، وجعلها ابن الحاجب جوابا من حيث الاعلام كما قيل فى : إن تكرمنى اليوم فقد أكرمتك أمس ، وقيل : الجواب محذوف تقديره يغفر إثمكما ، وقوله تعالى : (فقد صغت) الخ بيان لسبب التوبة ، وقيل : التقدير فقد أديتما مايجب عليكما أو أتيتما بما يحق لكما ، وما ذكر دليل على ذلك قيل : وإنما لم يفسروا (فقد صغت قلوبكما) بمالت إلى الواجب . أو الحق . أو الخير حتى يصح جعله جوابا من غير احتياج إلى نحو ماتقدم لأن صيغة الماضى - وقد - وقراءة ابن مسعود - فقد زاغت قلوبكما - وتكثير المعنى مع تقليل اللفظ تقتضى ماسلف ، وتعقب بأنه إنما يتمشى على ماذهب اليه ابن مالك من أن الجواب يكون ماضيا وإن لم يكن لفظ كان ، وفيه نظر ، والجمع فى (قلوبكما) دون التثنية لكراهة اجتماع تثنيتين مع ظهور المراد . وهو فى مثل ذلك أكثر استعمالا من التثنية والافراد ، قال أبو حيان : لايجوز عند أصحابنا إلا فى الشعر كقوله :

Marfat.com

* حمامة بطن الواديين ترنمى * وغلط رحمه الله تعالى ابن مالك فى قوله فى التسهيل : ويختار لفظ الافراد على لفظ التثنية ﴿ وَإِنْ تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ ﴾ بحذف إحدى التاءين وتخفيف الظاء ، وهى قراءة عاصم . ونافع فى رواية ، وطلحة . والحسن . وأبو رجاء ، وقرأ الجمهور - تظاهرا - بتشديد الظاء ، وأصله تتظاهرا فأدغمت التاء فى الظاء ، وبالأصل قرأ عكرمة ، وقرأ أبو عمرو فى رواية أخرى - تظهرا - بتشديد الظاء والهاء دون ألف ، والمعنى فان تتعاونا عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بما يسوؤه من الافراط فى الغيرة وإفشاء سره *

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ ﴾ أى ناصره ؛ والوقف على مافى البحر . وغيره هنا أحسن ، وجعلوا قوله تعالى : ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ مبتدأ ، وقوله سبحانه : ﴿ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ معطوفا عليه ، وقوله عز وجل : ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أى بعد نصرة الله تعالى متعلقا بقوله جل شأنه : ﴿ ظَهِيرٌ ٤ ﴾ وجعلوه الخبر عن الجميع ، وهو بمعنى الجمع أى مظاهرون ، واختير الافراد لجعلهم كشىء واحد ، وجوز أن يكون خبراً عن (جبريل) وخبر مابعده مقدر نظير ما قالوا فى قوله :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله * فانى وقيار بهـــا لغريب

وجوز أن يكون الوقف على (جبريل) أى (وجبريل) مولاه (وصالح المؤمنين) مبتدأ ، وما بعده معطوف عليه ، والخبر (ظهير) ، وظاهر كلام الكشاف اختيار الوقف على (المؤمنين) فظهير خبر الملائكة ، وعليه غالب مختصريه ، وظاهر كلامهم التقدير لكل من جبريل وصالح المؤمنين خبراً وهو إما لفظ مولى مراداً به مع كل معنى من معانيه المناسبة أى (وجبريل) مولاه أى قرينه (وصالح المؤمنين) مولاه أى تابعه ، أو لفظ آخر بذلك المعنى المناسب وهو قرينه فى الأول وتابعه فى تابعه ، ولامانع من أن يكون المولى فى الجميع بمعنى الناصر كما لايخفى ؛ وزيادة (هو) على مافى الكشاف للايذان بأن نصرته تعالى عزيمة من عزائمه وأنه عز وجل متولى ذلك بذاته تعالى ، وهو تصريح بأن الضمير ليس من الفصل فى شىء ، وأنه للتقوى لا للحصر ، والحصر أكثرى فى المعرفتين على مانقله فى الايضاح ، وإن كان كلام السكاكى موهما الوجوب ؛ هذا والمبالغة محققة على مانص عليه سيبويه وحقق فى الأصول ، وأما الحصر فليس من مقتضى اللفظ فلا يرد أن الاولى أن يكون (وجبريل) وما بعده مخبراً عنه - بظهير - وإن سلم فلا ينافيه لأن نصرتهم نصرته تعالى فليس من الممتنع على نحو زيد المنطلق . وعمرو ، كذا فى الكشف ، ووجه تخصيص جبريل عليه السلام بالذكر مزيد فضله بل هو رأس الكروبيين ، والمراد بالصالح عند كثير الجنس الشامل للقليل والكثير ، وأريد به الجمع هنا ، ومثله قولك : كنت فى السامر والحاضر ، ولذا عم بالاضافة ، وجوز أن يكون اللفظ جمعاً ، وكان القياس أن يكتب - وصالحوا - بالواو إلا أنها حذفت خطاً تبعا لحذفها لفظا ، وقد جاءت أشياء فى المصحف تبع فيها حكم اللفظ دون وضع الخط نحو - ويدع الانسان . ويدع الداع . و (سندع الزبانية) (وهل أتاك نبأ الخصم) - إلى غير ذلك ، وذهب غير واحد إلى أن الاضافة للعهد فقيل : المراد به الأنبياء عليهم السلام * وروى عن ابن زيد . وقتادة . والعلاء بن زياد ، ومظاهرتهم له قيل : تضمن كلامهم ذم المتظاهرين على نبى من الأنبياء عليهم السلام وفيه من الخفاء مافيه ؛ وقيل : على كرم الله تعالى وجهه ، وأخرجه ابن مردويه . وابن عساكر عن ابن عباس ، وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس قالت . سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : (وصالح المؤمنين) على بن أبى طالب ؛ وروى الامامية عن أبى جعفر أن النبى

Marfat.com

صلى الله تعالى عليه وسلم حين نزلت أخذ بيد على كرم الله تعالى وجهه فقال : يا أيها الناس هذا صالح المؤمنين ٭

وأخرج ابن عساكر عن الحسن البصرى أنه قال : هو عمر بن الخطاب ، وأخرج هو . وجماعة عن سعيد ابن جبير قال : (وصالح المؤمنين) نزل فى عمر بن الخطاب خاصة ، وأخرج ابن عساكر عن مقاتل بن سليمان أنه قال : (وصالح المؤمنين) أبو بكر . وعمر . وعلى رضى الله تعالى عنهم ، وقيل : الخلفاء الأربعة ٭

وأخرج الطبرانى فى الاوسط . وابن مردويه عن ابن عمر . وابن عباس قالا : نزلت (وصالح المؤمنين) فى أبى بكر . وعمر ، وذهب إلى تفسيره بهما عكرمة . وميمون بن مهران . وغيرهما ، وأخرج الحاكم عن أبى أمامة . والطبرانى . وابن مردويه . وأبو نعيم فى فضائل الصحابة عن ابن مسعود عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : (وصالح المؤمنين) أبو بكر . وعمر ، وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال : كان أبى يقرؤها (وصالح المؤمنين) أبو بكر . وعمر ، ورجح إرادة ذلك بأنه اللائق بتوسيطه بين جبريل والملائكة عليهم السلام فانه جمع بين الظهير المعنوى والظهير الصورى كيف لا وأن جبريل عليه السلام ظهير له ﷺ يؤيده بالتأييدات الإلهية وهما وزيراه وظهيراه فى تدبير أمور الرسالة وتمشية أحكامها الظاهرة مع أن بيان مظاهرتهما له عليه السلام أشد تأثيراً فى قلوب بنتيهما وتوهيناً لامرهما ٭

وأنا أقول العموم أولى ، وهما - وكذا على كرم الله تعالى وجهه - يدخلان دخولا أولياً ، والتنصيص على بعض فى الأخبار المرفوعة إذا صحت لنكتة اقتضت ذلك لا لارادة الحصر ، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن عساكر عن ابن مسعود عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال فى ذلك : من صالح المؤمنين أبو بكر . وعمر ، وفائدة (بعد ذلك) التنبيه على أن نصرة الملائكة عليهم السلام أقوى وجوه نصرته عز وجل وإن تنوعت ، ثم لا خفاء فى أن نصرة جميع الملائكة - وفيهم جبريل - أقوى من نصرة جبريل عليه السلام وحده ٭

وقيل : الاشارة إلى مظاهرة صالح المؤمنين خاصة فالتعظيم بالنسبة اليها ، وفى التنبيه على هذا دفع توهم مايوهمه الترتيب الذكرى من أعظمية مظاهرة المتقدم ، وبالجملة فائدة (بعد ذلك) نحو فائدة - ثم - فى قوله تعالى: (ثم كان من الذين آمنوا) وهو التفاوت الرتبي أى أعظمية رتبة مابعدها بالنسبة إلى ما قبلها وهذا لا يتسنى على ما نقل عن البحر بل ذلك للاشارة إلى تبعية المذكورين فى النصرة والاعانة عز وجل ، وأيّاما كان فان شرطية - وتظاهرا - فعل الشرط ، والجملة المقرونة بالفاء دليل الجواب ، وسبب أقيم مقامه ، والأصل فان (تظاهرا) عليه فلن يعدم من يظاهره فان الله مولاه ، وجوز أن تكون هى بنفسها الجواب على أنها مجاز أو كناية عن ذلك ، وأعظم جل جلاله شأن النصرة لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم على هاتين الضعيفتين إما للاشارة إلى عظم مكر النساء أو للمبالغة فى قطع حبال طعمهما لعظم مكانتهما عند رسول الله عليه الصلاة والسلام وعند المؤمنين لأمومتهما لهم وكرامة له ﷺ ورعاية لأبويهما فى أن تظاهرهما يجديهما نفعا ٭

وقيل : المراد المبالغة فى توهين أمر تظاهرهما ودفع ما عسى أن يتوهمه المنافقون من ضرره فى أمر النبوة والتبليغ وقهر أعداء الدين لما أن العادة قاضية باشتغال بال الرجل بسبب تظاهر أزواجه عليه ، وفيه أيضاً مزيد إغاظة للمنافقين وحسم لاطماعهم الفارغة فكأنه قيل : فان تظاهرا عليه لا يضر ذلك فى أمره فان الله تعالى هو مولاه وناصره فى أمر دينه وسائر شئونه على كل من يتصدى لما يكرهه (وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك) مظاهرون له ومعينون إياه كذلك ، ويلائم هذا ترك ذكر المعان عليه حيث

Marfat.com

لم يقل ظهير له عليكما مثلا ، وكذا ترك ذكر المعان فيه وتخصيص ـ صالح المؤمنين ـ بالذكر ، وتقوى هذه الملاءمة على ماروى عن ابن جبير من تفسير ـ صالح المؤمنين ـ بمن برئ من النفاق فتأمل *

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ ﴾ أى أن يعطيه عليه الصلاة والسلام بدلكن ﴿ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ والخطاب لجميع زوجاته صلى الله تعالى عليه وسلم أمهات المؤمنين على سبيل الالتفات ، وخوطبن لأنهن فى مهبط الوحى وساحة العز والحضور ؛ ويرشد إلى هذا ما أخرجه البخارى عن أنس قال : قال عمر : اجتمع نساء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى الغيرة عليه فقلت : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله خيراً منكن) فنزلت هذه الآية ، وليس فيها أنه عليه الصلاة والسلام لم يطلق حفصة وأن فى النساء خيراً منهن مع أن المذهب على ماقيل : إنه ليس على وجه الأرض خير منهن لأن تعليق طلاق الكل لا ينافى تطليق واحدة والمعلق بما لم يقع لايجب وقوعه ، وجوز أن يكون الخطاب للجميع على التغليب ، واصل الخطاب لاثنتين منهن وهما المخاطبتان أولا بقوله تعالى : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) الخ فكأنه قيل : عسى ربه إن طلقكما وغيركما أن يبدله خيراً منكما ومن غيركما من الأزواج ، والظاهر أن عدم دلالة الآية على أنه عليه الصلاة والسلام لم يطلق حفصة وأن فى النساء خيراً من أزواجه صلى الله تعالى عليه وسلم على حاله لأن التعليق على طلاق الاثنتين ولم يقع فلا يجب وقوع المعلق ولا ينافى تطليق واحدة ، وقال الخفاجى . التغليب فى خطاب الكل مع أن المخاطب أولا اثنتان ، وفى لفظة (إن) الشرطية أيضاً الدالة على عدم وقوع الطلاق ه

وقد روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم طاق حفصة فغلب مالم يقع من الطلاق على الواقع وعلى التعميم لا تغليب فى الخطاب ولا فى (إن) انتهى ، وفيه بحث ، ثم إن المشهور إن (عسى) فى كلامه تعالى للوجوب ، وأن الوجوب هنا إنما هو بعد تحقق الشرط ، وقيل : هى كذلك إلا هنا ، والشرط معترض بين اسم (عسى) وخبرها . والجواب محذوف أى إن طلقكن فعسى الخ ، و (أزواجا) مفعول ثان ـ ليبدل ـ و (خيراً) صفته وكذا ما بعد ، وقرأ ابو عمرو فى رواية عياش (طلقكن) بادغام القاف فى الكاف ه

وقرأ نافع . وأبو عمرو . وابن كثير (يبدله) بالتشديد للتكثير ﴿ مُسْلِمَٰتٍ ﴾ مقرات ﴿ مُّؤْمِنَٰتٍ ﴾ مخلصات لانه يعتبر فى الإيمان تصديق القلب ، وهو لا يكون إلا مخلصا ، أو منقادات على أن الاسلام بمعناه اللغوى مصدقات ﴿ قَٰنِتَٰتٍ ﴾ مصليات أو مواظبات على الطاعة مطلقاً ﴿ تَٰٓئِبَٰتٍ ﴾ مقلعات عن الذنب ﴿ عَٰبِدَٰتٍ ﴾ متعبدات أو متذللات لأمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ صائمات كما قال ابن عباس . وأبو هريرة . وقتادة . والضحاك . والحسن . وابن جبير . وزيد بن أسلم . وابنه عبد الرحمن ، وروى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال الفراء : وسمى الصائم سائحاً لان السائح لازاد معه . وإنما يأكل من حيث يجد الطعام ، وعن زيد بن أسلم . ويمان مهاجرات ، وقال ابن زيد : ليس فى الاسلام سياحة إلا الهجرة ، وقيل : ذاهبات فى طاعة الله تعالى أى مذهب *

وقرأ عمرو بن قائد ـ سيحات ـ ﴿ ثَيِّبَٰتٍ ﴾ جمع ثيب من ثاب يثوب ثوباً ، وزنه فيعل كسيد وهى التى تثوب أى ترجع عن الزوج أى بعد زوال عذرتها ﴿ وَأَبْكَارًا ٥ ﴾ جمع بكر من بكر إذا خرج بكرة وهى أول النهار ، وفيها معنى التقدم سميت بها التى لم تفتض اعتباراً بالثيب لتقدمها عليها فيما يراد له النساء ، وترك العطف

Marfat.com

فى الصفات السابقة لأنها صفات تجتمع فى شىء واحد وبينها شدة اتصال يقتضى ترك العطف ووسط العاطف هنا للدلالة على تغاير الصفتين وعدم اجتماعهما فى ذات واحدة ، ولم يؤت ـ بأو ـ قيل : ليكون المعنى أزواجا بعضهن ثيبات وبعضهن أبكار ، وقريب منه ماقيل : وسط العاطف بين الصفتين لأنهما فى حكم صفة واحدة إذ المعنى مشتملات على الثيبات والأبكار فتدبر ، وفى الانتصاف لابن المنير ذكر لى الشيخ ابن الحاجب أن القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى الكاتب كان يعتقد أن الواو فى الآية هى الواو التى سماها بعض ضعفة النحاة واو الثمانية لأنها ذكرت مع الصفة الثامنة ، وكان الفاضل يتبجح باستخراجها زائدة على المواضع الثلاثة المشهورة قبله . أحدها فى التوبة ـ التائبون العابدون ـ إلى قوله سبحانه : (والناهون عن المنكر) ، والثانى فى قوله تعالى : (وثامنهم كلبهم) ، والثالث فى قوله تعالى : (وفتحت أبوابها) إلى أن ذكر ذلك يوما بحضرة أبى الجود النحوى المقرى فبين له أنه واهم فى عدها من ذلك القبيل ، وأحال على المعنى الذى ذكره الزمخشرى من دعاء الضرورة إلى الاتيان بها ههنا لامتناع اجتماع الصفتين فى موصوف واحد وواو الثمانية إن ثبتت فانما ترد بحيث لاحاجة اليها إلا الاشعار بتمام نهاية العدد الذى هو السبعة فأنصفه الفاضل واستحسن ذلك منه ، وقال : أرشدتنا ياأبا الجود انتهى *

وذكر الجنسان لأن فى أزواجه صلى الله تعالى عليه وسلم من تزوجها ثيباً وفيهن من تزوجها بكراً ، وجاء أنه عليه الصلاة والسلام لم يتزوج بكراً إلا عائشة رضى الله تعالى عنها وكانت تفتخر بذلك على صواحباتها ، وردت عليها الزهراء على أبيها وعليها الصلاة والسلام بتعليم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إياها حين افتخرت على أمها خديجة رضى الله تعالى عنها بقولها : إن أمى تزوج بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بكر لم يره أحد من النساء غيرها ولا كذلك أنتن فسكتت ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ أى نوعا من النار ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ ﴾ تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب ، ووقاية النفس عن النار بترك المعاصى وفعل الطاعات ، ووقاية الأهل بحملهم على ذلك بالنصح والتأديب ، وروى أن عمر قال حين نزلت: يارسول الله نقى أنفسنا فكيف لنا بأهلينا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : تنهوهن عما نهاكم الله عنه وتأمروهن بما أمركم الله به فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار » *

وأخرج ابن المنذر . والحاكم وصححه . وجماعة عن على كرم الله تعالى وجهه أنه قال فى الآية : علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم ، والمراد بالأهل على ماقيل : مايشمل الزوجة والولد والعبد والأمة *

واستدل بها على أنه يجب على الرجل تعلم مايجب من الفرائض وتعليمه لهؤلاء ، وأدخل بعضهم الأولاد فى الأنفس لأن الولد بعض من أبيه ، وفى الحديث « رحم الله رجلا قال . ياأهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعل الله يجمعكم معه فى الجنة » ، وقيل : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من جهل أهله *

وقرىء ـ وأهلوكم ـ بالواو وهو عطف على الضمير فى (قوا) وحسن العطف للفصل بالمفعول ، والتقدير عند بعض وليق أهلوكم أنفسهم ولم يرتضه الزمخشرى ، وذكر ماحاصله أن الأصل (قوا) أنتم وأهلوكم أنفسكم وأنفسهم بأن يقى ويحفظ كل منكم ومنهم نفسه عما يوبقها ، فقدم أنفسكم ، وجعل الضمير المضاف اليه الأنفس مشتملا على الأهلين تغليباً فشملهم الخطاب ، وكذا اعتبر التغليب فى (قوا) ، وفيه

Marfat.com

تقليل للحذف وإيثار العطف المفرد الذى هو الأصل والتغليب الذى نكتته الدلالة على الاصالة والتبعية *

وقرأ الحسن . ومجاهد (وقودها) بضم الواو أى ذو وقودها ، وتمام الكلام فى هذه الآية يعلم مما مر فى سورة البقرة ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ ﴾ أى أنهم موكلون عليها يلون أمرها وتعذيب أهلها وهم الزبانية التسعة عشر قيل : وأعوانهم ﴿ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ غلاظ الأقوال شداد الأفعال ، أو غلاظ الخلق شداد الخلق أقوياء على الأفعال الشديدة ، أخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن أبى عمران الجونى قال : بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر مابين منكبي أحدهم مسيرة مائة خريف ليس فى قلوبهم رحمة إنما خلقوا للعذاب يضرب الملك منهم الرجل من أهل النار الضربة فيتركه طحنا من لدن قرنه إلى قدمه ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ صفة أخرى ـ لملائكة ـ و (ما) فى محل النصب على البدل أى لايعصون ما أمر الله أى أمره تعالى كقوله تعالى : (أفعصيت أمرى) أو على إسقاط الجار أى لايعصون فيما أمرهم به ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٦ ﴾ أى الذى يأمرهم عز وجل به ، والجملة الأولى لنفى المعاندة والاستكبار عنهم صلوات الله تعالى عليهم فهى كقوله تعالى : (لايستكبرون عن عبادته) ، والثانية لاثبات الكياسة لهم ونفى الكسل عنهم فهى كقوله تعالى : (ولا يستحسرون) إلى (لايفترون) ، وبعبارة أخرى إن الأولى لبيان القبول باطناً فان العصيان أصله المنع والاباء ، وعصيان الأمر صفة الباطن بالحقيقة لأن الاتيان بالمأمور إنما يعد طاعة إذا كان بقصد الامتثال فاذا نفى العصيان عنهم دل على قبولهم وعدم إبائهم باطناً ، والثانية لأداء المأمور به من غير تثاقل وتوان على مايشعر به الاستمرار المستفاد من (يفعلون) فلا تكرار ، وفى المحصول (لايعصون) فيما مضى على أن المضارع لحكاية الحال الماضية (ويفعلون مايؤمرون) فى الآتى *

وجوز أن يكون ذلك من باب الطرد والعكس وهو كل كلامين يقرر الأول بمنطوقه مفهوم الثانى وبالعكس مبالغة فى أنهم لاتأخذهم رأفة فى تنفيذ أوامر الله عز وجل والغضب له سبحانه *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ﴾ مقول لقول قد حذف ثقة بدلالة الحال عليه يقال لهم ذلك عند إدخال الملائكة إياهم النار حسبما أمروا به ، فتعريف اليوم للعهد ونهيهم عن الاعتذار لأنهم لاعذر لهم أولأن العذر لاينفعهم ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٧ ﴾ فى الدنيا من الكفر والمعاصى بعد مانهيتم عنهما أشد النهى وأمرتم بالايمان والطاعة على أتم وجه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ من الذنوب *

﴿ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ أى بالغة فى النصح فهو من أمثلة المبالغة كضروب وصفت التوبة به على الاسناد المجازى وهو وصف التائبين ، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم فيأتوا بها على طريقها ، ولعله ماتضمنه ماأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال : « قال معاذ بن جبل : يارسول الله ما التوبة النصوح ؟ قال : أن يندم العبد على الذنب الذى أصاب فيعتذر إلى الله تعالى ثم لايعود إليه كما لايعود اللبن إلى الضرع » وروى تفسيرها بما ذكر عن عمر . وابن مسعود . وأبى . والحسن . ومجاهد . وغيرهم ، وقيل : نصوحا من نصاحة الثوب أى خياطته أى توبة ترفو خروقك فى دينك وترم خللك ، وقيل : خالصته من قولهم : عسل ناصح إذا خلص من الشمع ، وجوز أن يراد توبة تنصح الناس أي تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها فى صاحبها ، واستعمال

Marfat.com

الجد والعزيمة فى العمل بمقتضياتها ، وفى المراد بها أقوال كثيرة أوصلها بعضهم إلى نيف وعشرين قولا : منها ماسمعت *

وقرأ زيد بن على - توبا - بغير تاء ، وقرأ الحسن . والأعرج . وعيسى . وأبو بكر عن عاصم . وخارجة عن نافع (نصوحا) بضم النون وهو مصدر نصح فان النصح والنصوح كالشكر والشكور والكفر والكفور أى ذات نصح أو تنصح نصوحا أو توبوا لنصح أنفسكم على أنه مفعول له *

هذا والكلام فى التوبة كثير وحيث كانت أهم الأوامر الاسلامية وأول المقامات الايمانية ومبدأ طريق السالكين ومفتاح باب الواصلين لا بأس فى ذكر شىء مما يتعلق بها فنقول : هى لغة الرجوع ، وشرعا وصفاً لنا على ما قال السعد : الندم على المعصية لكونها معصية لأن الندم عليها باضرارها بالبدن أو إخلالها بالعرض أو المال مثلا لايكون توبة ، وأما الندم لخوف النار أو للطمع فى الجنة ففى كونه توبة تردد ، ومبناه على أن ذلك هل يكون ندما عليها لقبحها ولكونها معصية أم لا ؟ وكذا الندم عليها لقبحها مع غرض آخر ، والحق أن جهة القبح إن كانت بحيث لو انفردت لتحقق الندم فتوبة وإلا فلا كما إذا كان الغرض مجموع الأمرين لا كل واحد منهما ، وكذا فى التوبة عند مرض مخوف بناء على أن ذلك الندم هل يكون لقبح المعصية بل للخوف ، وظاهر الاخبار قبول التوبة مالم تظهر علامات الموت ويتحقق أمره عادة ، ومعنى الندم تحزن وتوجع على أن فعل وتمنى كونه لم يفعل ولا بد من هذا للقطع بأن مجرد الترك كالماجن إذا مل مجونه فاستروح إلى بعض المباحات ليس بتوبة ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : «الندم توبة» وقد يزاد قيد العزم على ترك المعاودة *

واعترض بأن فعل المعصية فى المستقبل قد لايخطر بالبال لذهول أو جنون أونحوه ، وقد لا يقدر عليه لعارض آفة كخرس فى القذف مثلا أوجب فى الزنا فلا يتصور العزم على الترك لما فيه من الاشعار بالقدرة والاختيار *

وأجيب بأن المراد العزم على الترك على تقدير الخطور والاقتدار حتى لوسلب القدرة لم يشترط العزم على الترك ، وبذلك يشعر كلام إمام الحرمين حيث قال : إن العزم على ترك المعاودة إنما يقارن التوبة فى بعض الاحوال ولا يطرد فى كل حال إذ العزم إنما يصح ممن يتمكن من مثل ما قدمه ، ولا يصح من المجبوب العزم على ترك الزنا . ومن الأخرس العزم على ترك القذف ، وقال بعض الأجلة : التحقيق أن ذكر العزم إنما هو للبيان والتقرير لا للتقييد والاحتراز إذ النادم على المعصية لقبحها لايخلو عن ذلك العزم البتة على تقدير الخطور والاقتدار ، وعلامة الندم طول الحسرة والخوف وانسكاب الدمع ، ومن الغريب ما قيل : إن علامة صدق الندم عن ذنب كالزنا أن لايرى فى المنام أنه يفعله اختياراً إذ يشعر ذلك ببقاء حبه إياه وعدم انقلاع أصوله من قلبه بالكلية وهو ينافى صدق الندم ، وقال المعتزلة : يكفى فى التوبة أن يعتقد أنه أساء وأنه لو أمكنه رد تلك المعصية لردها ولاحاجة إلى الأسف والحزن لافضائه إلى التكليف بما لايطاق *

وقال الامام النووى : التوبة مااستجمعت ثلاثة أمور : أن يقلع عن المعصية . وأن يندم على فعلها وأن يعزم عزما جازماً على أن لايعود إلى مثلها أبداً فان كانت تتعلق بآدمى لزم رد الظلامة إلى صاحبها أو وارثه أو تحصيل البراءة منه ، وركنها الأعظم الندم *

وفى شرح المقاصد قالوا : إن كانت المعصية فى خالص حق الله تعالى فقد يكفى الندم كما فى ارتكاب الفرار من الزحف وترك الأمر بالمعروف ، وقد تفتقر إلى أمر زائد كتسليم النفس للحد فى الشرب

Marfat.com

وتسليم ماوجب فى ترك الزكاة ، ومثله فى ترك الصلاة وإن تعلقت بحقوق العباد لزم مع الندم ، والعزم إيصال حق العبد أو بدله اليه إن كان الذنب ظلماً كما فى الغصب والقتل العمد ، ولزم إرشاده إن كان الذنب إضلالا له ، والاعتذار اليه إن كان إيذاءاً كما فى الغيبة إذا بلغته ولا يلزم تفصيل مااغتابه به إلا إذا بلغه على وجه أفحش ، والتحقيق أن هـذا الزائد واجب آخر خارج عن التوبة ـ على ما قاله إمام الحرمين ـ من أن القاتل إذا ندم من غير تسليم نفسه للقصاص صحت توبته فى حق الله تعالى وكان منعه القصاص من مستحقه معصية متجددة تستدعى توبة ولا يقدح فى التوبة عن القتل ، ثم قال : وربما لاتصح التوبة بدون الخروج من حق العبد كما فى الغصب ففرق بين القتل والغصب ، ووجهه لايخفى على المتأمل ، ولم يختلف أهل السنة . وغيرهم فى وجوب التوبة على أرباب الـكبائر ، واختلف فى الدليل ، فعندنا السمع كهذه الآية وغيرها وحمل الأمر فيها على الرخصة والايذان بقولها ودفع القنوط ـ كما جوزه الآمدى ـ احتمالا وبنى عليه عدم الاثابة عليها مما لايكاد يقبل ، وعند المعتزلة العقل ، وأوجبت الجهمية التوبة عن الصغائر سمعاً لاعقلا ، وأهل السنة على ذلك ، ومقتضى كلام النووى . والمازرى . وغيرهما وجوبها حال التلبس بالمعصية ، وعبارة المازرى اتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصى واجبة ، وأنها واجبة على الفور ، ولا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة *

وفى شرح الجوهرة أن التمادى على الذنب بتأخير التوبة منه معصية واحدة مالم يعتقد معاودته ، وصرحت المعتزلة بأنها واجبة على الفور حتى يلزم بتأخيرها ساعة إثم آخر تجب التوبة عنه . وساعتين إثمان وهلم جرا ، بل ذكروا أن بتأخير التوبة عن الـكبيرة ساعة واحدة يكون له كبيرتان : المعصية . وترك التوبة ، وساعتين أربع : الأوليان . وترك التوبة على كل منهما ، وثلاث ساعات ثمان وهكذا ، وتصح عن ذنب دون ذنب لتحقق الندم والعزم على عدم العود ، وخالف أبو هاشم محتجاً بأن الندم على المعصية يجب أن يكون لقبحها وهو شامل لها كلها فلا يتحقق الندم على قبيح مع الاصرار على آخر *

وأجيب بأن الشامل للكل هو القبح لاخصوص قبح تلك المعصية وهذا الخلاف فى غير الكافر إذا أسلم وتاب من كفره مع استدامته بعض المعاصى أما هو فتوبته صحيحة وإسلامه كذلك بالاجماع ولا يعاقب إلا عقوبة تلك المعصية ، نعم اختلف فى أن مجرد إيمانه هل يعد توبة أم لابد من الندم على سالف كفره ؟ فعند الجمهور مجرد إيمانه توبة ، وقال الامام . والقرطبى : لابد من الندم على سالف الـكفر وعدم اشتراط العمل الصالح بجمع عليه عند الأئمة خلافا لابن حزم ، وكذا تصح التوبة عن المعاصى إجمالا من غير تعيين المتوب عنه ولو لم يشق عليه تعيينه ، وخالف بعض المالـكية فقال : إنما تصح إجمالا مما علم إجمالا ، وأما ماعلم تفصيلا فلابد من التوبة منه تفصيلا ولا تنتقض التوبة الشرعية بالعود فلا تعود عليه ذنوبه التى تاب منها بل العود والنقض معصية أخرى يجب عليه أن يتوب منها *

وقالت المعتزلة : من شروط صحتها أن لايعاود الذنب فان عاوده انتقضت توبته وعادت ذنوبه لأن الندم المعتبر فيها لايتحقق إلا بالاستمرار ، ووافقهم القاضى أبو بكر . والجمهور على أن استدامة الندم غير واجبة بل الشرط أن لايطرأ عليه ما ينافيه ويدفعه لأنه حينئذ دائم حكماً كالإيمان حال النوم ، ويلزم من اشتراط الاستدامة مزيد الحرج والمشقة ، وقال الآمدى : يلزم أيضاً اختلال الصلوات وسائر العبادات ، ويلزم أيضاً

Marfat.com

أن لا يكون بتقدير عدم استدامة الندم وتذكره تائباً ، وأن يجب عليه إعادة التوبة وهو خلاف الاجماع ، نعم اختلف العلماء فيمن تذكر المعصية بعد التوبة منها ، هل يجب عليه أن يجدد الندم ؟ واليه ذهب القاضى منا . وأبو على من المعتزلة زعماً منهما أنه لو لم يندم كلما ذكرها لكان مشتهياً لها فرحابها ، وذلك إبطال للندم ورجوع إلى الاصرار ، والجواب المنع إذ ربما يضرب عنها صفحا من غير ندم عليها ولا اشتهاء لها وابتهاج بها ولو كان الامر كما ذكر للزم أن لا تكون التوبة السابقة صحيحة ، وقد قال القاضى نفسه : إنه إذا لم يجدد ندما كان ذلك معصية جديدة يجب الندم عليها والتوبة الأولى مضت على صحتها إذ العبادة الماضية لا ينقضها شىء بعد ثبوتها انتهى *

وبعدم وجوب التجديد عند ذكر المعصية صرح إمام الحرمين ، ويفهم من كلامهم أن محل الخلاف إذا لم يبتهج عند ذكر الذنب به ويفرح ويتلذذ بذكره أو سماعه ، والاوجب التجديد اتفاقا ، وظاهر كلامهم أن المعاودة غير مبطلة ولو كانت فى مجلس التوبة بل ولو تكررت تكراراً يلتحق بالتلاعب ، وفى هذا الاخير نظر فقد قال القاضى عياض : إن الواقع فى حق الله تعالى بما هو كفر تنفعه توبته مع شديد العقاب ليكون ذلك زجراً له . ولمثله إلا من تكرر ذلك منه وعرف استهانته بما أتى به فهو دليل على سوء طويته وكذب توبته انتهى *

وينبغى عليه أن يقيد ذلك بأن لا تكثر كثرة تشعر بالاستهانة وتدخل صاحبها فى دائرة الجنون ، واختلف فى صحة التوبة الموقتة بلا إصرار كأن لا يلابس الذنوب أو ذنب كذا سنة فقيل : تصح ، وقيل : لا ، وفى شرح الجوهرة قياس صحتها من بعض الذنوب دون بعض صحتها فيما ذكر ، ثم إن للتوبة مراتب من أعلاها ما روى عن يعسوب المؤمنين كرم الله تعالى وجهه أنه سمع أعرابياً يقول : اللهم إنى أستغفرك وأتوب اليك فقال : ياهذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين ، فقال الاعرابى : وما التوبة ؟ قال كرم الله تعالى وجهه : يجمعها ستة أشياء : على الماضى من الذنوب الندامة . وللفرائض الاعادة . ورد المظالم . واستحلال الخصوم . وأن تعزم على أن لا تعود . وأن تذيب نفسك فى طاعة الله كما ربيتها فى المعصية . وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعاصى ، وأريد باعادة الفرائض أن يقضى منها ما وقع فى زمان معصيته كشارب الخمر يعيد صلاته قبل التوبة لمخامرته للنجاسة غالبا ، وهذه توبة نحو الخواص فلا مستند فى هذا الأثر لابن حزم وأضرابه كما لا يخفى ، ثم إنه تعالى بين فائدة التوبة بقوله سبحانه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ قيل : المراد أنه عز وجل يفعل ذلك لكن جئ بصيغة الاطماع للجرى على عادة الملوك فانهم إذا أرادوا فعلا قالوا : (عسى) أن نفعل كذا ، والاشعار بأن ذلك تفضل منه سبحانه والتوبة غير موجبة له . وأن العبد ينبغى أن يكون بين خوف ورجاء . وإن بالغ فى إقامة وظائف العبادة ، واستدل بالآية على عدم وجوب قبول التوبة لأن التكفير أثر القبول ، وقد جئ معه بصيغة الاطماع دون القطع ، وهذه المسألة خلافية فذهب المعتزلة إلى أنه يجب على الله تعالى قبولها عقلا وأتوا فى ذلك بمقدمات مزخرفات ، وقال إمام الحرمين . والقاضى أبو بكر : يجب قبولها سمعاً ووعداً لكن بدليل ظنى إذ لم يثبت فى ذلك نص قاطع لا يحتمل التأويل ، وقال الشيخ أبو الحسن الأشعرى : بل بدليل قطعى ومحل النزاع بين الاشعرى وتلميذيه ماعدا توبة الكافر أما هى فالاجماع على قبولها قطعاً بالسمع لوجود النص المتواتر بذلك كقوله تعالى : (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف) بخلاف ماجاء فى توبة

Marfat.com

غيره فانه ظاهر ، وليس بنص فى غفران ذنوب المسلم بالتوبة كقوله تعالى : (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله) ، وأما حديث ـ التوبة تجب ماقبلها ـ فليس بمتواتر ولأنه إذا قطع بقبول توبة الكافر كان ذلك فتحا لباب الايمان وسوقا اليه ، وإذا لم يقطع بتوبة المؤمن كان ذلك سداً لباب العصيان ومنعا منه ، وهذا ـ وما قبله ـ ذكرهما القاضى لماقيل له : إن الدلائل مع الشيخ أبى الحسن : وقال ابن عطية : إن جمهور أهل السنة على قول القاضى ، والدليل على ذلك دعاء كل أحد من التائبين بقبول توبته ولو كان مقطوعا به لما كان للدعاء معنى ، ومثل ذلك وجوب الشكر على القبول فانه لوكان واجباً لما وجب الشكر عليه *

وتعقب ذلك السعد بأنه ربما يدفع بأن المسئول فى الدعاء هو استجماعها لشرائط القبول فان الامر فيه خطير ، ووجوب القبول لاينافى وجوب الشكر لكونه إحسانا فى نفسه كتربية الوالد لولده ؛ وقال الامام النووى : لايجب على الله تعالى قبول التوبة إذا وجدت بشروطها عند أهل السنة لكنه سبحانه يقبلها كرما منه وتفضلا ، وعرفنا قبولها بالشرع والاجماع فلا تغفل ، وقرئ (يدخلكم) بسكون اللام ، وخرجه أبو حيان على أن يكون حذف الحركة تخفيفاً وتشبيها لما هو فى كلمتين بالكلمة الواحدة فانه يقال فى قمع : قمع . وفى نطع : نطع ، وقال : إنه أولى من كونه للعطف على محل (عسى ربكم أن يكفر) ، واختاره الزمخشرى كأنه قيل : توبوا يرج تكفير أو يوجب تكفير سيئاتكم ويدخلكم ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِىَّ ﴾ ظرف ـ ليدخلكم ـ وتعريف (النبى) للعهد ، والمراد به سيد الانبياء محمد صلى الله تعالى عليه وعليهم وسلم ، والمراد بنفى الاخزاء إثبات أنواع الكرامة والعز *

وفى القاموس يقال : أخزى الله تعالى فلانا فضحه ، وقال الراغب : يقال : خزى الرجل لحقه انكسار إما من نفسه وهو الحياء المفرط ومصدره الخزاية . وإما من غيره وهو ضرب من الاستخفاف ، ومصدره الخزى ، و (يوم لايخزى الله النبى) هو من الخزى أقرب ، ويجوز أن يكون منهما جميعا ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾ عطف عليه عليه الصلاة والسلام ، وفيه تعريض بمن أخزاهم الله تعالى من أهل الكفر والفسوق ، واستحماد على المؤمنين على أن عصمهم من مثل حالهم ، والمراد بالايمان هنا فرده الكامل على ماذكره الخفاجى ، وقوله تعالى :

﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ أى على الصراط كما قيل ، ومر الكلام فيه جملة مستأنفة ، وكذا قوله سبحانه : ﴿ يَقُولُونَ ﴾ الخ ، وجوز أن تكون الجملتان فى موضع الحال من الموصول ، وأن تكون الأولى حالا منه . والثانية حالا من الضمير فى (يسعى) ، وأن تكون الاولى مستأنفة . والثانية من الضمير ، وأن تكون الأولى حالا من الموصول . والثانى مستأنفة أو حالا من الضمير ، وجوز أن يكون الموصول مبتدأ خبره معه ، والجملتان خبران آخران . أو مستأنفتان . أو حالان من الموصول ، أو الأولى حال منه . والثانية حال من الضمير ، أو الأولى مستأنفة . والثانية حال من الضمير ، أو الأولى حال . والثانية مستأنفة ، أو الاولى خبر بعد خبر . والثانية حال من الضمير أو مستأنفة ، وجوز أن يكون الموصول مبتدأ خبره قوله تعالى : (نورهم يسعى) الخ ، والجملة الأخرى مستأنفة أو حال أو خبر بعد خبر فهذه عدة احتمالات لايخفى ماهو الأظهر منها *

والقول على ماروى عن ابن عباس . والحسن : يكون إذا طفئ نور المنافقين أى يقولون إذا طفئ نور المنافقين ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٨ ﴾ وفى رواية أخرى عن الحسن يدعون تقرباً إلى الله تعالى مع تمام نورهم ، وقيل : يقول ذلك من يمر على الصراط زحفاً وحبواً *

Marfat.com

وقيل : من يعطى من النور بقدر مايبصر به موضع قدمه ، ويعلم منه عدم تعين حمل الايمان على فرده الكامل كما سمعت عن الخفاجى ، وقرأ سهل بن شعيب السهمى . وأبو حيوة (وبإيمانهم) بكسر الهمزة على أنه مصدر معطوف على الظرف أى كائناً بين أيديهم وكائنا بسبب إيمانهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ ﴾ بالسيف ﴿ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ بالحجة ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ واستعمل الخشونة على الفريقين فيما تجاهدهم به إذا بلغ الرفق مداه ٭

وعن الحسن أكثر ما كان يصيب الحدود فى ذلك الزمان المنافقين فأمر عليه الصلاة والسلام أن يغلظ عليهم فى إقامة الحدود ، وحكى الطبرسى عن الباقر أنه قرأ ـ جاهد الكفار بالمنافقين ـ وأظن ذلك من كذب الامامية عاملهم الله تعالى بعدله ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى وسيرون فيها عذاباً غليظاً ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩ ﴾ أى جهنم أو مأواهم ، والعطف قيل : من عطف القصة على القصة ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ضرب المثل فى مثل هذا الموقع عبارة عن إيراد حالة غريبة لتعرف بها حالة أخرى مشاكلة لها فى الغرابة أى جعل الله تعالى مثلا لحال الكفرة حالا وما لا على أن مثلا مفعول ثان لضرب . واللام متعلقة به ، وقوله تعالى : ﴿امْرَأَتَ نُوحٍ﴾ واسمها قيل : والعة ﴿ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ﴾ واسمها قيل : واهلة ، وقيل : والهة ، وعن مقاتل اسم امرأة نوح والهة . واسم امرأة لوط والعة مفعوله الأول ، وأخر عنه ليتصل به ماهو شرح وتفسير لحالهما ، ويتضح بذلك حال الكفرة ، والمراد ضرب الله تعالى مثلا لحال أولئك حال (امرأة) الخ ، فقوله تعالى :

﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ ﴾ بيانا لحالهما الداعية لهما إلى الخير والصلاح ، ولم يقل : تحتهما للتعظيم أى كانتا فى عصمة نبيين عظيمى الشأن متمكنتين من تحصيل خير الدنيا والآخرة ، وحيازة سعادتهما ، وقوله تعالى : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ بيان لما صدر عنهما من الخيانة العظيمة مع تحقق ماينافيها من مرافقة النبى عليه الصلاة والسلام ، أما خيانة امرأة نوح عليه السلام فكانت تقول للناس : إنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل على الضيف رواه جمع وصححه الحاكم عن ابن عباس ٭

وأخرج ابن عدى . والبيهقى فى شعب الايمان ، وابن عساكر عن الضحاك أنه قال : خيانتهما النميمة ، وتمامه فى رواية : كانتا إذا أوحى الله تعالى بشىء أفشتاه للمشركين ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال : خيانتهما أنهما كانتا كافرتين مخالفتين ، وقيل : كانتا منافقتين ، والخيانة . والنفاق قال الراغب : واحد إلا أن الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة ، والنفاق يقال اعتباراً بالدين ثم يتداخلان ، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد فى السر ونقيضها الأمانة ، وحمل ما فى الآية على هذا ، ولا تفسر ههنا بالفجور لما أخرج غير واحد عن ابن عباس « مازنت امرأة نبى قط » ورفعه أشرس إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفى الكشاف لايجوز أن يراد بها الفجور لأنه سمج فى الطبع نقيصة عند كل أحد بخلاف الكفر فان الكفر لا يستسمجونه ويسمونه حقاً ٭

ونقل ابن عطية عن بعض تفسيرها بالكفر . والزنا . وغيره ، ولعمرى لايكاد يقول بذلك إلا ابن زنا ، فالحق عندى أن عهر الزوجات كعهر الأمهات من المنفرات التى قال السعد : إن الحق منعها فى حق الأنبياء عليهم السلام ، وما ينسب للشيعة مما يخالف ذلك فى حق سيد الأنبياء صلى الله تعالى عليه وسلم كذب عليهم فلا تعول عليه وإن كان شائعاً ، وفى هذا على ماقيل : تصوير لحال المرأتين المحاكية لحال الكفرة فى خيانتهم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالكفر والعصيان مع تمكنهم التام من الإيمان والطاعة ، وقوله تعالى :

Marfat.com

﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا ﴾ الخ بيان لما أدى إليه خيانتهما أى فلم يغن ذانك العبدان الصالحان والنبيان العظيمان ﴿ عَنْهُمَا ﴾ بحق الزواج ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى من عذابه عز وجل ﴿ شَيْـًٔا ﴾ أى شيئا من الاغناء ، أو شيئا من العذاب ه ﴿ وَقِيلَ ﴾ لهما عند موتهما . أو يوم القيامة ،وعبر بالماضى لتحقق الوقوع ﴿ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ١٠ ﴾ أى مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لاوصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام *

وذكر غير واحد أن المقصود الإشارة إلى أن الكفرة يعاقبون بكفرهم ولا يراعون بما بينهم وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من الوصلة ، وفيه تعريض لأمهات المؤمنين وتخويف لهن بأنه لا يفيدهن إن أتين بما حظر عليهن كونهن تحت نكاح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وليس فى ذلك مايدل على أن فيهن كافرة أو منافقة كما زعمه يوسف الأوالى من متأخرى الإمامية سبحانك هذا بهتان عظيم ه

وقرأ مبشر بن عبيد - تغنيا - بالتاء المثناة من فوق ، و(عنهما) عليه بتقدير عن نفسهما قال أبو حيان : ولابد من هذا المضاف إلا أن يجعل - عن - اسماً كهى فى : دع عنك لأنها إن كانت حرفا كان فى ذلك تعدية الفعل الرافع للضمير المتصل إلى ضميره المجرور وهو يجرى مجرى الضمير المنصوب وذلك لايجوز ، وفيه بحث ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ أى جعل حالها مثلا لحال المؤمنين فى أن وصلة الكفرة لاتضرهم حيث كانت فى الدنيا تحت أعدى أعداء الله عز وجل وهى فى أعلى غرف الجنة واسمها آسية بنت مزاحم ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتْ ﴾ ظرف لمحذوف أى وضرب الله مثلا للذين آمنوا حال امرأة فرعون إذ قالت ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ ﴾ قيل : أى قريباً من رحمتك لتنزهه سبحانه عن المكان ه

وجوز فى (عندك) كونه حالا من ضمير المتكلم و كونه حالا من قوله تعالى : ﴿ بَيْتًا ﴾ لتقدمه عليه وكان صفة لو تأخر ، وقوله تعالى : ﴿ فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ بدل أو عطف بيان لقوله تعالى : (عندك) أو متعلق بقوله تعالى : (ابن) وقدم (عندك) لنكتة ، وهى كما فى الفصوص الإشارة إلى قولهم : الجار قبل الدار ، وجوز أن يكون المراد - بعندك - أعلى درجات المقربين لأن ماعند الله تعالى خير ، ولأن المراد القرب من العرش ، و(عندك) بمعنى عند عرشك ومقر عزك وهو على ماقيل : على الاحتمالات فى إعرابه ولايلزم كونه ظرفا للفعل ﴿ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ ﴾ أى من نفس فرعون الخبيثة وسلطانه الغشوم ﴿ وَعَمَلِهِۦ ﴾ أى وخصوصا من عمله وهو الكفر وعبادة غير الله تعالى والتعذيب بغير جرم إلى غير ذلك من القبائح ؛ والكلام على أسلوب (ملائكته وجبريل) ، وجوز أن يكون المراد (نجنى) من عمل فرعون فهو من أسلوب أعجبنى زيد وكرمه ، والأول أبلغ لدلالته على طلب البعد من نفسه الخبيثة كأنه بجوهره عذاب ودمار يطلب الخلاص منه ، ثم طلب النجاة من عمله ثانيا تنبيها على أنه الطامة العظمى ، وخص بعضهم عمله بتعذيبه ، وعن ابن عباس أنه الجماع ، وما تقدم أولى ﴿ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ١١ ﴾ من القبط التابعين له فى الظلم قاله مقاتل ، وقال الكلبى : من أهل مصر : و كأنه أراد بهم القبط أيضا ، والآية ظاهرة فى أنها كانت مؤمنة مصدقة بالبعث ، وذكر بعضهم أنها عمة موسى عليه السلام آمنت حين سمعت بتلقف العصا الإفك فعذبها فرعون *

وأخرج أبو يعلى . والبيهقى بسند صحيح عن أبى هريرة أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد فى يديها ورجليها فكانت إذا تفرقوا عنها أظلتها الملائكة عليهم السلام فقالت : (رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة)

Marfat.com

فكشف لها عن بيتها فى الجنة وهو على ماقيل : من درة ، وفى رواية عبد بن حميد عنه أنه وتد لها أربعة أوتاد وأضجعها على ظهرها وجعل على صدرها رحى واستقبل بها عين الشمس فرفعت رأسها إلى السماء فقالت (رب ابن لى) إلى (الظالمين) ففرج الله تعالى عن بيتها فى الجنة فرأته ، وقيل : أمر بأن تلقى عليها صخرة عظيمة فدعت الله تعالى فرقى بروحها فألقيت الصخرة على جسد لاروح فيه ، وعن الحسن فنجاها الله تعالى أكرم نجاة فرفعها إلى الجنة فهى تأكل وتشرب وتتنعم فيها ، وظاهره أنها رفعت بجسدها وهو لايصح ٭

وفى الآية دليل على أن الاستعاذة بالله تعالى والالتجاء اليه عز وجل ومسألة الخلاص منه تعالى عند المحن والنوازل من سير الصالحين وسنن الأنبياء، وهو فى القرآن كثير ، وقوله تعالى : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ عطف على (امرأة فرعون) أى وضرب مثلا للذين آمنوا حالتها وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء مع كون أكثر قومها كفاراً ، وجمع فى التمثيل بين من لها زوج ومن لازوج لها تسلية للارامل وتطييبا لقلوبهن على ماقيل ، وهو من بدع التفاسير كما فى الكشاف ، وقرأ السختيانى - ابنه - بسكون الهاء وصلا أجراه مجرى الوقف ﴿الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ صانته ومنعته من الرجال ، وقيل : منعته عن دنس المعصية ٭

والفرج مابين الرجلين وكنى به عن السوءة؛ وكثر حتى صار كالصريح، ومنه ماهنا عند الاكثرين ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ النافخ رسوله تعالى وهو جبريل عليه السلام فالاسناد مجازى ، وقيل : الكلام على حذف مضاف أى فنفخ رسولنا ، وضمير (فيه) للفرج ، واشتهر أن جبريل عليه السلام نفخ فى جيبها فوصل أثر ذلك إلى الفرج ٭ وروى ذلك عن قتادة ، وقال الفراء : ذكر المفسرون أن الفرج جيب درعها وهو محتمل لأن الفرج معناه فى اللغة كل فرجة بين الشيئين ، وموضع جيب درع المرأة مشقوق فهو فرج ، وهذا أبلغ فى الثناء عليها لأنها إذا منعت جيب درعها فهى للنفس أمنع ، وفى مجمع البيان عن الفراء أن المراد منعت جيب درعها عن جبريل عليه السلام ، وكان ذلك على ماقيل : قولها (إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً) وأفاد كلام البعض أن أحصنت فرجها على مانقل أولا عن الفراء كناية عن العفة نحو قولهم : هو نقى الجيب طاهر الذيل ٭

وجوز فى ضمير (فيه) رجوعه إلى الحمل ، وهو عيسى عليه السلام المشعر به الكلام ، وقرأ عبد الله - فيها - كما فى الانبياء ، فالضمير لمريم ، والاضافة فى قوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ للتشريف ، والمراد من روح خلقناه بلا توسط أصل، وقيل : لأدنى ملابسة وليس بذاك ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ آمنت ﴿بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا﴾ بصحفه عز وجل المنزلة على إدريس عليه السلام . وغيره ، وسماها سبحانه كلمات لقصرها ﴿وَكُتُبِهِ﴾ بجميع كتبه والمراد بها ماعدا الصحف مما فيه طول، أو التوراة . والانجيل . والزبور ، وعد المصحف من ذلك وإيمانها به ولم يكن منزلا بعد كالإيمان بالنبى الموعود عليه الصلاة والسلام فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم مذكوراً بكتابه فى الكتب الثلاث ، وتفسير الكلمات والكتب بذلك هو ما اختاره جمع ، وجوز غير واحد أن يراد بالكلمات ماأوحاه الله تعالى إلى أنبيائه عليهم السلام، وبالكتب ماعرف فيها مما يشمل الصحف وغيرها ، وقيل : جميع ما كتب مما يشمل اللوح وغيره، وأن يراد بالكلمات وعده تعالى ووعيده أو ذلك وأمره عز وجل ونهيه سبحانه ، وبالكتب أحد الأوجه السابقة ، وإرادة كلامه تعالى القديم القائم بذاته سبحانه من الكلمات بعيد جداً ، وقرأ يعقوب . وأبو مجلز . وقتادة . وعصمة عن عاصم (صدقت) بالتخفيف ، ويرجع إلى معنى

Marfat.com

المشدد ؛ وفى البحر أى كانت صادقة بما أخبرت به من أمر عيسى وما أظهره الله تعالى لها من الكرامات ، وفيه قصور لايخفى ٥

وقرأ الحسن ومجاهد . والجحدرى - بكلمة - على التوحيد فاحتمل أن يكون اسم جنس، وأن يكون عبارة عن كلمة التوحيد ، وأن يكون عبارة عن عيسى عليه السلام فقد أطلق عليه عليه السلام أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم ، وقد مر شرح ذلك ، وقرأ غير واحد من السبعة - و كتابه - على الافراد فاحتمل أن يراد به الجنس وأن يراد به الانجيل لاسيما إن فسرت الكلمة بعيسى عليه السلام ، وقرأ أبو رجاء (و كتبه) بسكون التاء على ماقال ابن عطية ، وبه . وبفتح الكاف على أنه مصدر أقيم مقام الاسم على ماقال صاحب اللوامح ٥

﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَٰنِتِينَ ١٢ ﴾ أى من عداد المواظبين على الطاعة - فمن - للتبعيض ، والتذكير للتغليب، والاشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال حتى عدت من جملتهم فهو أبلغ من قولنا : وكانت من القانتات ، أو قانتة، وقيل : (من) لابتداء الغاية، والمراد كانت من نسل القانتين لأنها من أعقاب هرون أخى موسى عليهما السلام ، ومدحها بذلك لما أن الغالب أن الفرع تابع لاصله (والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لايخرج إلا نكداً) وهى على مافى بعض الاخبار سيدة النساء ومن أكملهن، روى أحمد فى مسنده : سيدة نساء أهل الجنة مريم . ثم فاطمة . ثم خديجة . ثم آسية . ثم عائشة، وفى الصحيح كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية بنت مزاحم امرأة فرعون . ومريم ابنة عمران . وخديجة بنت خويلد . وفاطمة بنت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام وخص الثريد - وهو خبز يجعل فى مرق وعليه لحم - كما قيل :

إذا ماالخبز تأدمه بلحم فذاك أمانة الله الثريد

لااللحم فقط كما قيل لأن العرب لايؤثرون عليه شيئاً حتى سموه بحبوحة الجنة، والسر فيه على ماقال الطيبى: إن الثريد مع اللحم جامع بين الغذاء واللذة والقوة وسهولة التناول وقلة المؤنة فى المضغ وسرعة المرور فى المرىء فضرب به مثلا ليؤذن بأنها رضى الله تعالى عنها أعطيت مع حسن الخلق حلاوة المنطق وفصاحة اللهجة وجودة القريحة ورزانة الرأى ورصانة العقل والتحبب للبعل فهى تصلح للبعل والتحدث والاستئناس بها والاصغاء اليها ، وحسبك أنها عقلت من النبى ﷺ مالم يعقل غيرها من النساء وروت مالم يرو مثلها من الرجال ، وعلى مزيد فضلها فى هذه السورة الكريمة من عتابها وعتاب صاحبتها حفصة رضى الله تعالى عنهما مالايخفى ، ثم لايخفى أن فاطمة رضى الله تعالى عنها من حيث البضعية لايعدلها فى الفضل أحد ، وتمام الكلام فى ذلك فى محله ٥

وجاء فى بعض الآثار أن مريم . وآسية زوجا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الجنة، أخرج الطبرانى عن سعد بن جنادة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن الله زوجنى فى الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى عليه السلام » وزعم نبوتها كزعم نبوة غيرهما من النساء كهاجر . وسارة غير صحيح لاشتراط الذكورة فى النبوة على الصحيح خلافا للاشعرى ، وقد نبه على هذا الزعم العلامه ابن قاسم فى الآيات البينات وهو غريب فليحفظ ، والله تعالى أعلم ٥

﴿ تم الجزء الثامن والعشرون، ويليه إن شاء الله الجزء التاسع والعشرون، أوله (تبارك الذى بيده الملك) ﴾

Marfat.com

فهرست

﴿ الجزء الثامن والعشرين من تفسير روح المعانى ﴾

صحيفة	
٢	﴿سورة المجادلة﴾
٢	وجه مناسبتها لما قبلها
٣	بيان أول ظهار وقع فى الاسلام
٤	بيان شأن الظهار فى نفسه وحكمه المترتب عليه شرعا وأقوال فقهاء الأمصار فى تعريفه وفيمن يصح منه الظهار
٥	تفصيل حكم الظهار ووجوب تحرير رقبة قبل المسيس
٦	اختلاف العلماء فى سبب وجوب الكفارة
٧	أقوال العلماء فى معنى العود
٧	حكم مالو اتصل بلفظ الظهار فرقة بموت أو فسخ الخ
٩	مذاهب العلماء فى تعليق الظهار وفى الظهار من الامة
١٠	بيان من يصح منه الظهار
١٠	بيان الرقبة التى يصح اعتاقها فى كفارة الظهار
١١	اختلاف الشافعية والحنفية فى اشتراط الايمان فى الرقبة وهو مبنى على اختلافهم فى مسألة أصولية
١٢	بيان الشروط المعتبرة فى الرقبة
١٢	أقوال العلماء فى الظهار المكرر
١٤	الدليل على أن الكفارة قبل المسيس
١٤	اختلاف العلماء فى الكفارات هل هى زواجر أم جوابر
١٤	من عجز عن الاعتاق فعليه صيام شهرين متتابعين
١٥	اختلاف أبى حنيفة ومحمد وأبى يوسف فيما لو جامع التى ظاهر منها فى خلال الشهرين هل يستأنف الصوم أم لا؟
١٦	من عجز عن الصوم فعليه إطعام ستين مسكينا
١٦	اختلاف العلماء فى مقدار الصاع وفى اشتراط التمليك
١٦	هل يشترط الدفع الى ستين مسكينا حقيقة أو يكفى الدفع لواحد ستين مرة وأقوال العلماء فى ذلك
١٧	اختلاف العلماء فى جواز دفع القيمة
١٨	بيان أن العبد لايجزز له إلا الصوم
١٩	إذا عجز عن كل أنواع الكفارة هل يستقر فى ذمته أم لا والدليل على كل
٢٠	الكلام على القوانين الشرعية والقوانين المدنية
٢٣	تأويل قوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) الخ
٢٤	حقيقة النجوى وأقوال العلماء فيها
٢٥	نهى اليهود والمنافقين عن التناجى دون المؤمنين
٢٧	النهى عن التناجى بالاثم والعدوان ومعصية الرسول
٢٧	الأمر بالتفسح فى المجالس والتوسعة على المقبلين
٢٩	ماورد من الأحاديث فى فضل العلم والعلماء
٣٠	مشروعية تقديم الصدقة بين يدى نجوى

Marfat.com

صفحة	
	الرسول أولا ونسخه ثانيا
٣٢	تستر المنافقين بالأيمان الكاذبة
٣٤	بيان أن حزب الشيطان هم الخاسرون
٣٤	بيان أن من كان كامل الايمان لايواد من حاد الله ورسوله كأهل الأهواء والبدع
٣٥	بيان أن قضية الايمان هجر جميع أهل البدع
٣٨	﴿سورة الحشر﴾
٣٨	وجه مناسبتها لما قبلها
٣٩	إجلاء بنى النضير من بلاد العرب
٤٠	الكلام على أول الحشر
٤١	الاستدلال بقوله تعالى (فاعتبروا يا أولى الابصار) على مشروعية العمل بالقياس الشرعى
٣٧	بيان أنه لو لم يكتب الجلاء على بنى النضير لعذبوا بالقتل
٣٨	تأويل قوله تعالى (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله)
٣٩	تعريف الفيء وبيان أنه كان خاصا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم
٤٠	حكم الفيء المأخوذ من فرق الكفار على العموم
٤٦	تقسيم خمس الفيء عند الشافعية
٤٧	اختلاف العلماء فى المراد بذوى القربى
٤٧	بيان المراد باليتامى
٤٨	الكلام على مصرف الاربعة الاخماس الباقية
٤٩	بيان العلة فى تقسيم الفيء كما مر
٥٠	تأويل قوله تعالى : (للفقراء المهاجرين) الخ
٥١	تأويل قوله تعالى (والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم) الخ
٥٢	إيثار الأنصار للمهاجرين على أنفسهم
٥٤	بيان ماورد من الأحاديث فى ذم الشح
٥٤	الحث على الدعاء للصحابة وتصفية القلوب من بغض أحد منهم
٥٧	وعد المنافقين لليهود بالخروج معهم إن أخرجوا والقتال معهم إن قوتلوا وكذبهم فى وعدهم

صحيفه	
٥٩	تأويل قوله تعالى : (كمثل الشيطان)الخ
٦٠	أمر المؤمنين بتقوى الله والحذر من نسيانه
٦٢	تأويل قوله (عالم الغيب والشهادة)
٦٢	تفسير اسمه تعالى القدوس السلام المؤمن
٦٣	تفسير اسمه تعالى الجبار المتكبر الخ
٦٥	﴿سورة الممتحنة﴾
٦٥	وجه مناسبتها لما قبلها
٦٥	النهى عن موالاة أعداء الله
٦٦	بيان السبب فى النهى عن موالاة أعداء الله
٦٨	تأكيد النهى عن موالاة اعداء الله بقصة ابراهيم عليه السلام
٧١	تاويل قوله تعالى (إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك)
٧٤	الدليل على جواز البر والعدل بمن لم يقاتلنا فى الدين
٧٥	النهى عن البر بمن قاتلنا فى الدين
٧٥	مشروعية امتحان المهاجرات المؤمنات بما يعرف به إيمانهن
٧٦	الدليل على تحريم نكاح المسلمة للكافر
٧٨	مشروعية إعطاء الزوج الكافر ما أعطاه للمرأة من المهر
٧٨	اختلاف الحنفية والشافعية فى وقوع الفرقة بين الزوجين هل تكون بمجرد الخروج من دار الحرب أو لابد من الاسلام
٧٩	تأويل قوله تعالى (وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم)الخ
٧٩	مشروعية إعطاء من لحقت زوجته بالكفار من صداق من لحق بالمسلمين من زوجاتهم
٨١	ماورد من الأحاديث في مبايعة الرسول للنساء
٨٢	النهى عن تولى من غضب الله عليه
٨٣	﴿سورة الصف﴾
٨٣	وجه مناسبتها لماقبلها
٨٤	بيان أن القول المخالف للفعل ممقوت عند الله
٨٤	بيان أن القتال فى سبيل الله مرضى عند الله
٨٥	تقرير شناعة ترك القتال بما وقع من بنى

Marfat.com

صحيفه

إسرائيل حينما ندبهم موسى عليه السلام لقتال الجبارين
٨٦ تبشير عيسى عليه السلام برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم
٨٧ بيان أن أشد الناس ظلما من افترى على الله الكذب
٨٨ إرسال النبى ﷺ بدين الفطرة ليظهر على سائر الأديان
٩٢ ﴿سورة الجمعة﴾
٩٢ وجه مناسبتها لما قبلها
٩٥ تمثيل اليهود فى جهلهم بالتوراة بالحمار الذى يحمل أسفارا
٩٥ الرد على اليهود فى ادعائهم أنهم أولياء الله وأحباؤه وان الجنة خالصة لهم
٩٦ تحريم الفرار من الطاعون دون غيره من المهالك
٩٧ وجوب السعى وترك البيع وقت النداء للجمعة
٩٩ أقوال العلماء فى السنة التى فرضت فيها الجمعة
٩٩ الدليل على فرضية الجمعة وبيان مايشترط فيها من العدد
١٠٧ ومن باب الاشارة
١٠٨ ﴿سورة المنافقين﴾
١٠٨ تكذيب المنافقين فى ادعائهم الايمان بالرسول
١١٢ تكبر المنافقين عن استغفار الرسول لهم
١١٤ من جنايات المنافقين قولهم لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا
١١٥ رد مازعمه المنافقون من عزتهم وذلة المؤمنين
١١٩ ﴿سورة التغابن ومناسبتها لما قبلها﴾
١٢٠ الرد على منكرى البعث
١٢٦ تأويل قوله تعالى (إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم)
١٢٨ ﴿سورة الطلاق﴾
١٢٩ الدليل على أن الطلاق فى الحيض بدعى حرام

صحيفة

١٣٠ أقوال العلماء فى طلاق السنة
١٣٠ اختلاف العلماء فى الطلاق الثلاث بفم واحد هل يقع ثلاثا أو واحدة
١٣٢ الدليل على أن الطلاق الثلاث بفم واحد يقع ثلاثا
١٣٣ تأويل قوله تعالى (ولايخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة)
١٣٤ استصحاب الاشهاد على الرجعة
١٣٥ تأويل قوله (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب)
١٣٦ الدليل على أن عدة الآيسة ثلاثة أشهر
١٣٧ عدة الصغيرة التى لم تحض ثلاثة أشهر
١٣٧ أقوال فقهاء الامصار فى عدة الحامل
١٣٩ اتفاق العلماء على وجوب سكنى المطلقات أولات الحمل ونفقتهن واختلافهم فى نفقة اللاتى لسن أولات حمل ودليل كل
١٤٠ اختلاف العلماء فى فسخ النكاح بالعجز عن الانفاق
١٤٢ ذكر اختلاف العلماء فى الارض هل هى سبع فوق بعض أو هى سبع بقاع متجاورة
١٤٦ ﴿سورة التحريم﴾
١٤٦ اختلاف العلماء فى سبب نزول آية التحريم
١٤٨ اختلاف العلماء هل أعطى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الكفارة أم لا ؟
١٤٩ اختلاف العلماء فى قول الرجل لزوجته أنت على حرام وقوله الحلال على حرام
١٥٠ بيان ما أسر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى بعض أزواجه
١٥٢ تأويل قوله تعالى (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) الآية
١٥٥ أقوال العلماء فى المراد بصالح المؤمنين
١٥٦ تأويل قوله تعالى (عسى ربه إن طلقكن) الآية
١٦٥ بيان فضل مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون

﴿تمت الفهرست﴾

Marfat.com

Marfat.com